

المِسْطَرَفِي

فِي كُلِّ فَنٍ مُسْتَطَرَفٍ

تأليف

شهاب الدين زاهد مدبر الفتح الأبيشي

بشرحه ووضعه هوامشه

ابن هيثم الدين محمد

المكتبة التوفيقية

المُسْتَطَرَف فِي كُلِّ فَرْسِ مُسْتَطَرَف

تأليف
شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأريشي

مُشَرَّحُهُ وَوَضَعَ هَوَامِشَهُ
إبراهيم أمين محمد

المكتبة التوفيقية
للمطبوعات - القاهرة

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الملك العظيم العلى الكبير، الغنى اللطيف الحبير، المتفرد بالعرز والبقاء، والإرادة والتدبير، الحى العليم الذى ليس كمثلته شيء. وهو السميع البصير، تبارك الذى بيده الملك، وهو على كل شيء قدير، أحمله حمد عبد معترف بالعمى والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه على قصد يسر من غير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير، ولا ظهير له ولا وزير. وأشهد أن سينا محمداً عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غنى وفقير، ومأمور وأمير، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يقور قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها فى الآخرة من عذاب السعير، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد: فقد رأيت جماعة من ذوى الهمم، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب والمواظف والحكم، وسطوا مجلدات فى التواريخ والنوادر، والأخبار، والحكايات، واللطائف، ورقائق الأشعار، وألفوا فى ذلك كتباً كثيرة، وتفرّد كل منها بفرائد فوائد لم تكن فى غيره من الكتب محصورة، فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، وسميته (المستطرف فى كل فن مستظرف) واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبى الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأعيان، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري فى كتابه «ربيع الأبرار» وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد» ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من متتخيات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبوية، والأمثال الشعرية، والأقفاظ القوية، والحكايات الجديّة، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرقائق، ما تشف بذكره الأسماع، وتقر برؤيته العيون، وينشرح بمطالعة كل قلب محزون.

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسناً ويعشقه القسطاس والقلم

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً من أحسن الفنون، متوجة بأقفاظ كأنها الدرّ المكتون، كما قال بعضهم شعراً فى المعنى:

فنفى كل باب منه در مؤلف كظم عقود ريتها الجواهر
فلن نظم العقد الذى فيه جوهر على غير تاليف فما الدرّ فاخر

وضمته كل لطيف، ونظمته بكل ظريف، وقرنت الأصول فيه بالفصول، ورجوت أن يتيسر لى ما ومته من الوصول. وجعلت أبوابه مقدمة، وفصلتها فى مواضعها مرتبة منظمة، ليقتصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى فى بابه إن شاء الله تعالى والله المسؤول فى تيسير المطلوب، وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهن للصحاب.

(الباب الأول) فى مبائى الإسلام: وفيه خمسة فصول. (الباب الثانى) فى العقل والذكاء والحق والمثم وغير ذلك. (الباب الثالث) فى القرآن العظيم وفضله وحرمة وما أهد الله تعالى لقارنه من الثواب العظيم، والأجر الجسيم. (الباب الرابع) فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم. (الباب الخامس) فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك. (الباب السادس) فى الأمثال البائرة وفيه فصول. (الباب السابع) فى البيان والبلاغة والفصاحة، وفكر الفصحاه من الرجال والنساء، وفيه فصول. (الباب الثامن) فى الأجوبة المبككة والمستعنة، ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك. (الباب التاسع)

فى ذكر الخطب والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكيويات الجياد، وحنوفات الامجاد. (الباب العاشر) فى التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم والقناعة، وذم الحرص والطمع، وما أشبه ذلك وفيه فصول. (الباب الحادى عشر) فى المشورة والنصيحة، والتجارب، والنظر فى العواقب. (الباب الثانى عشر) فى الوصايا الحسنة، والمواعظ المستحسنة، وما أشبه ذلك. (الباب الثالث عشر) فى الصمت وصون اللسان، والنهى عن الغيبة والسعى بالنصيحة، ومدح العزلة وذم الشهرة، وفيه فصول. (الباب الرابع عشر) فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه. (الباب الخامس عشر) فيما يجب على من صلب السلطان والتحذير من صحته. (الباب السادس عشر) فى الورداء وصفاتهم وأحوالهم، وما أشبه ذلك. (الباب السابع عشر) فى ذكر الحجاب والولاية، وما فيها من الغرر والخطر. (الباب الثامن عشر) فيما جاء فى القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهبة على الحكم، وما يتعلق بالدينون، وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول. (الباب التاسع عشر) فى العدل والإحسان والإنصاف، وغير ذلك. (الباب العشرون) فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك. (الباب الحادى والعشرون) فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان فى استجباة أخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان. (الباب الثانى والعشرون) فى اصطناع العروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء الحاجات للمسلمين، وإدخال السرور عليهم. (الباب الثالث والعشرون) فى محاسن الأخلاق ومساوئها. (الباب الرابع والعشرون) فى حسن المعاشرة، والمودة، والأخوة، والزبارة، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والعشرون) فى الحياء والتواضع، ولين الجانب وخفض الجناح، وفيه فصلان. (الباب السابع والعشرون) فى العجب والكبر والخيلاء، وما أشبه ذلك. (الباب الثامن والعشرون) فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت. (الباب التاسع والعشرون) فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة. (الباب الثلاثون) فى الخير والصلاح، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين، رضى الله عنهم أجمعين. (الباب الحادى والثلاثون) فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء، رضى الله عنهم. (الباب الثانى والثلاثون) فى ذكر الأشرار والفجّار، وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاعة. (الباب الثالث والثلاثون) فى الجود والسخاء والكرم، ومكارد الأخلاق واصطناع المعروف، وذكر الامجاد وأحداث الأجواد. (الباب الرابع والثلاثون) فى البخل والشح وذكر البخل، وأخبارهم وما جاء عنهم. (الباب الخامس والثلاثون) فى الطعام وآدابة والضيافة وآداب المضيف والمضيف، وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك. (الباب السادس والثلاثون) فى العفو والحلم والصفتح، وكظم الغيظ، والاعتذار وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والثلاثون) فى الوفاء بالوعد وحسن العهد ورعاية النعم. (الباب الثامن والثلاثون) فى كتمان السر وتحسينه، وذم إفشائه. (الباب التاسع والثلاثون) فى الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد، وفيه فصول. (الباب الأربعون) فى الشجاعة وثمرتها والخروب وتدبيرها وفضل الجهاد، وشدة البأس والتحريض على القتال، وفيه فصول. (الباب الحادى والأربعون) فى ذكر أسماء الشجعان، ذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن. (الباب الثانى والأربعون) فى الملح والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول. (الباب الثالث والأربعون) فى الهجاء ومقدماته. (الباب الرابع والأربعون) فى الصدق والكذب، وفيه فصلان. (الباب الخامس والأربعون) فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقرابات، وذكر الأساب، وفيه فصول. (الباب السادس والأربعون) فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم، وذكر الحسن والقبح والطول والقصر والألوان واللباس، وما أشبه ذلك. (الباب السابع والأربعون) فى ذكر الخلى والمصرغ والطيب والتطيب، وما جاء فى التخنم. (الباب الثامن والأربعون) فى الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب التاسع والأربعون) فى الأسماء والكنى والألقاب، وما استحسنت منها. (الباب الخمسون) فى الأسفار والاعتراب، وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان. (الباب الحادى والخمسون) فى ذكر الغنى وحب المال والافتقار بجمعه. (الباب الثانى والخمسون) فى ذكر الفقر ومدحه. (الباب الثالث والخمسون) فى ذكر التلطف فى السؤال، وذكر من مثل

فجاد. (الباب الرابع والخمسون) في ذكر الهدايا والتحف، وما أشبه ذلك. (الباب الخامس والخمسون) في العمل والكسب والصناعات والحرف، والعجز والتواني وما أشبه ذلك. (الباب السادس والخمسون) في شكوى الزمان وانتقابه بأمله، والصبر على المكروه، والتسلى عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول. (الباب السابع والخمسون) فيما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك. (الباب الثامن والخمسون) في ذكر العيد والإمام والخدم، وفيه فصلان. (الباب التاسع والخمسون) في أخبار العرب، وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم. (الباب الستون) في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والغال والطيرة والفراسة والنوم والرويا. (الباب الحادي والستون) في الحيل والمخادع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد، والتقيظ والتبصر، ونحو ذلك. (الباب الثاني والستون) في ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات، مرتباً على حروف المعجم. (الباب الثالث والستون) في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم. (الباب الرابع والستون) في خلق الجن وصفاتهم. (الباب الخامس والستون) في ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار والآبار، وفيه فصول. (الباب السادس والستون) في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البتائن، وفيه فصول. (الباب السابع والستون) في ذكر المعادن والأحجار وغواصها. (الباب الثامن والستون) في ذكر الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس، ومن كرهه واستحسنه. (الباب التاسع والستون) في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم، ونوادر الجلوس في مجالس الخلفاء. (الباب السبعون) في ذكر الفتيات والأغاني. (الباب الحادي والسبعون) في ذكر العشق ومن بلى به، والاختيار به والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما في معنى ذلك، وفيه فصول. (الباب الثاني والسبعون) في ذكر رقائق الشعر والمواهب والدوبيت، وكان وكان، والموشحات، والزجل، والخصاق، والقومة، والألغاز، وملح الأسماء والصفات، وفيه فصول. (الباب الثالث والسبعون) في ذكر النساء وصفاتهم ونكاحهن وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهن، وفيه فصول. (الباب الرابع والسبعون): في ذم الخمر وتحریمها والنهي عنها. (الباب الخامس والسبعون) في المزاح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه والبسط والتتم وفيه فصول. (الباب السادس والسبعون) في النوادر والحكايات وفيه فصول. (الباب السابع والسبعون) في الدعاء وآدابه وشروطه، وفيه فصول. (الباب الثامن والسبعون) في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله تعالى. (الباب التاسع والسبعون) في التوبة وشروطها والتندم والاستغفار. (الباب العاشر والسبعون) في ذكر الأمراض العلل والطب والدواء، من السنة والعبادة وتوابعها، وما أشبه ذلك، وفيه فصول. (الباب الحادي والثمانون) في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله. (الباب الثاني والثمانون) في الصبر والتأسي والتعاضد والمرأى ونحو ذلك، وفيه فصول. (الباب الثالث والثمانون) في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها، ونحو ذلك. (الباب الرابع والثمانون) في فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو آخر الأبواب، ختمتها بالصلاة على سيد العباد. أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.

المؤلف

فى مباني الإسلام وفيه خمسة فصول

الفصل الأول : فى الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له . فرد لا مثل له . صمد لا ند له . أولى قائم ، أبدي دائم ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لأبديته . قويم لا فيه الأبد ولا يغيره الأمد ، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن منزّه عن الجسميّة ليس كمثله شئ وهو فوق كل شئ فوقيته لا تزيد بعداً عن عباده وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد وهو على كل شئ شهيد .

وهو معكم أينما كنتم لا يشابهه قربه قرب الأجسام كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام ، منزّه عن أن يحده زمان ، مقدس عن أن يحيط به مكان تراه أبصار الأبرار فى دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار . حتى قادر جبار قاهر لا يعثره عجز ولا قصور ولا تأخذه سنة ولا نوم ، له الملك والملكوت والعزة والجبروت .

خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر زوراقهم وآجالهم لا تحصى مقدراته ولا تنهى معلوماته عالم بجميع المعلومات لا يغرب عنه متفائل ذرة فى الأرض ولا فى السموات . يعلم السر وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر مرید للكانثات مدبر للمحادثات لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير ولا جليل ولا حقير خير أو شر نفع أو ضرر إلا بقضائه وقدره وحكمه ومشيئته ، فمآء شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

هو المبدئ المعبد الفاعل لما يريد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوقيفه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته . لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا .

سميع بصير متكلم بكلام خلقه وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله فى ذلك . حكمة دالة على وحدانيته . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال أبو العتاهية :

فيا عجباً كيف يُعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية	تدل على أنه الواحد
ولله فى كل تحريك	وتسكينة فى الورى شاهد

وقال غيره :

كل ما ترتقى إليه بوهم	من جلال وقدره وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى	منه سبحانه مبدع الأشياء

وقال على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده : «اعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأنتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد لا يضافه فى ملكه أحد» . وعنه عليه الصلاة والسلام : «كل ما يتصور فى الأذهان فالله سبحانه بخلافه» .

وقال ليلى بن ربيعة^(١) :

(١) ليلى بن ربيعة : هو ليلى بن ربيعة بن مالك ، أبو عتيل العامري ، أحد الشعراء القُرَآنَ الأشراف فى الجاهلية ، من أهل عالية نجد ، أدرك الإسلام ، وبعد من الصحابة ، ومن المؤلفة قلوبهم ، وهو من أصحاب الملققات فى الجاهلية ، وكان كريماً توفي سنة ٤١هـ - ٦٦١م .

الآكل شيء مما غلب الله باطلٌ وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم
وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم
وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم
وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم وكلّ ابن آتسّى لو تناولهم

وروي أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: «إن أشعر كلمة قالتها العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله بعث برسالاته إلى الخلائق كافة وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريعته الشرائع وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة.

فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، من سؤال منكر ونكير، وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يتألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ ويؤمن بعذاب القبر وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراف حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يدخل الجنة من يشاء بغير حساب وهم القريون، وأنه يخرج عصاة الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم من في قلبه مقال ذرة من الإيمان ويؤمن بشفاععة الأنبياء ثم بشفاععة العلماء ثم بشفاععة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجميعهم على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به موثقاً فهو من أهل الحق والسنة، مفارق لعصاة الضلال والبدة، ورزقا الله الثبات على هذه العقيدة، وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب. فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة، قال رسول الله ﷺ: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. واختلّفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو، فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاء، معروفة في كلام العرب، فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء. وقيل: سميت بذلك من الرحمة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء. قال ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى» أي ارحمهم. وقيل: سميت بذلك من الاستقامة من قولهم صليت المود على النار إذا قرمتها، والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته وتناه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْجِنُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقيل لأنها صلة بين العبد وربه. وعن رسول الله ﷺ قال: «علم الإيمان الصلاة، فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن» وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال وهو على المنبر: «إن الرجل ليشتب عارفه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة» قيل: وكيف ذلك؟ قال: «لا يتم ركوعها وسجودها وخشوعها وتواضعه وإقباله على الله فيها». وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكانت لم يعرفنا ولم نعرفه». وقيل للحسن^(١): ما بال المهجدين من أحسن الناس وجوهاً فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فآلبهم نوراً من نوره». وقال بعضهم: «لا تقوت أحداً صلاة في جماعة إلا

(١) الحسن البصري: هو الحسن البصري (٢٦-١١٠هـ) إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمانه، ولد في المدينة وحب في كنف علي بن أبي طالب، وحفظت هيبة في القلوب، فكان يدل على الولاية فيأمرهم وينهاهم وكان في غاية الفصاحة تصبب الحكمة من فيه. انظر (سير أعلام النبلاء) للحافظ (٥٦٣/٤) ترجمة (٢١٣).

بجنب». وكانت رابعة العلوية^(١) تصلى في اليوم واللييلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثواباً ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ. ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمّتي هذا صمها في اليوم واللييلة. وقال بعضهم: صليت خلف ذى النون المصري، فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: «الله» ثم بهت وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: «الله أكبر» فظننت أن قلبي انخلع من هيبته تكريه. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادعى محبتي. وإذا جن عليه الليل نام عنى، أليس كل محب يحب الخطوة بحبيبه؟ ولعبد الله بن المبارك رضى الله تعالى عنه:

إذا ما الليل أظلم كـأبدوه فيـفـرّ عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وكان سيدى الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم التحريري رحمه الله، كثيراً ما يتمثل بهذه الآيات

يا أيها الراكـد كم ترقـد قم يا حبيبى قد دنا الموعد
وخـد من الليل ولو ماعـد تحظى إذا ما جمع الرقـد
من نام حـتى ينقض ليلـه لم يبلغ المنزل لو يجـهد

وكان سيدى أويس القرنى لا يتام ليله ويقول: «ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتـر» وقال حذيفة رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» وقال هشام بن عروة: «كان أبى يطيل المكتوبة ويقول هي رأس المال». وقال أبو الطفيل: «سمعت أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول: «يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها، سمعت رسول الله ﷺ يقول الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر». وجزأ محمد بن المنكدر، عليه وعلى أمه وعلى أخته، الليل اثلاثاً، فماتت أخته. فجزأ عليه وعلى أمه، فماتت أمه. فقام الليل كله. وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلى في بيته يقول لأهله: تحذثوا فليست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام. فإذا قام إلى الصلاة تحذثوا وضحكوا ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفئ، وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جعداً منصوباً لطول انتصابه في الصلاة. وكانت العاصفـير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ماجد كما تقع على الحائط. وختم القرآن في ركعة واحدة، أربعة من الأئمة عثمان بن عفان وعجم الدارى، وسعيد بن جبيرة وأبو حنيفة رضى الله تعالى عنهم. ورأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمئبر، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: «عند الصباح يحمد القوم السرى». فقال: يا ابن أخى لك ولاصحابك لا للجماين. وكان خلف بن أيوب لا يطرده الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصير؟ فقال: «بلغنى أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور. وأنا بين يدى رى أفلا أصير على ذباب يقع على». وقال أبو صفوان ابن عوانة: «ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلى في القمر كأنه يشبه الملائكة» وقال الحسن: «ما كان فى هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ، وكانت تقوم بالاسحار حتى تورمت قدماء». وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماء، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف المطر، وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغليان، هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام. فالعجب كيف يطمئن قلب من أروعته الأكام. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة؟ فقال: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»^(٢). وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: «فاتنى صلاة اجماعة مرة ففزأتى أبو إسحاق البخارى وحده، ولو مات لى ولد لعزأتى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عنهم أهون من مصيبة الدنيا». وكان السلف رضى الله تعالى عنهم يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا

(١) رابعة العلوية: هي رابعة بنت إسماعيل العلوية، أم الخير، مولدة آل عتيك، البصرة، صالحة مشهورة، من أهل البصرة لها أخبار في العبادة والشك. انخطف في سنة وفاتها، قيل: تزويت بالقدس سنة (١٣٥هـ - ٧٥٢م).

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٠٣).

فاتهم التكبر الأولى، وسباً إذا فاتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكير، خير من قيام ليلة والقلب ساه». وأنشد بعضهم:

وأبى معاداً صالحاً ومصاباً	خسر الذي ترك الصلاة وخاباً
أضحى بربك كافراً مرتباً	إن كان يجحدُها فحبُّك أنه
غطى على وجه الصواب حجلاً	أو كان يتركها لنوع تكاسل
إن لم يتبْ حد الحسام عقاباً	
بجسيم نأديبٍ يراه صواباً	والرأى عندى للإمام عذاباً

اللهم أعنا على الصلاة وتقبلها منا بكرمك ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان.

أما السواك: فقد قال الرسول ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»^(١). وقال أيضاً: «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك». وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتهجد شاح فاه بالسواك». وقال ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». وعنه ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناس ما فى السواك لبات مع الرجل فى لحافه». وقال أيضاً: «أنفواكم طرق لكلام ربكم فنظفوها». والاختيار فى السواك أن يكون بعد الأراك. ويجزى بغيره من العيدان والباعد والإشنان، والخرقة الخشنة وغير ذلك مما يظنّف. ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فيه، وينوى به الإتيان بالبسة. والسواك يعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب يقول عند السواك: «اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين». ويستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقه إمراراً لطيفاً، ويستاك بعد متوسط لا شديد البرسة ولا شديد اللين، فإن اشتد يسه لثته بالماء، وقد قيل: إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ويسهل خروج الروح.

وأما الأذان فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من آذانه». قيل فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَحْسَنِ قَوْلِهِمْ إِذْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]. نزلت فى المؤذنين. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يفغر الله للمؤذن مدى صوته، ويشهد له ما سمعه من رطب ويابس». وعن معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». رواه مسلم، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين». رواه البخارى ومسلم، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» رواه البخارى. والأحاديث فى فضله كثيرة مشهورة والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث: فى الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى مواضع شتى من كتابه. قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [٥]. وعن بريدة رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ

(١) أخرجه الترمذى (٣٥/١).

ﷺ أنه قال: «ما حبس قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر» وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما خالطت الزكاة مالا قط إلا أهلكته». وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «من كان عنده ما يزكى ولم يركه ومن كان عنده ما يحج ولم يحج سال الرجعة». يعنى قوله تعالى: ﴿وَبِأَرْجَاهِمْ ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وللتعلق بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها وما جاء فيها وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب، ودفع البلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. الآية. والآيات الكريمة فى ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة. وروى الترمذى فى جامعه بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». وفى صحيح مسلم، وموطأ مالك، وجامع الترمذى، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقص مال من صدقة». أو قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى».

ودخلت امرأة شلاء على عائشة رضى الله عنها فقالت: «كان أبى يحب الصدقة وأمى تبغضها، لم تصدق فى عمرها إلا بقطعة شحم وخلفه، فرأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت، وكان أمى قد غطت عورتها بالخلفه وفى يدها الشحمة تلحسها من العطش، فذهبت إلى أبى وهو على حافة حوض يسقى الناس، فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أمى، فنوديت من فوقى ألا من سقاها، فثقل الله يدها فانتبهت كما ترى».

ووقف سائل على امرأة وهى تتعشى فقامت فوضعت لقمه فى فيه، ثم بكرت إلى زوجها فى مزرعته، فوضعت ولدها عنده وقامت لحاجة تريد قضاءها، فاستحلبه الذئب، فوضعت وقالت: «يارب ولدى»، فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب، فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر، فقال لها: «هذه اللقمة بتلك اللقمة التى وضعتها فى فم السائل».

وعشش ورشان فى شجرة فى دار رجل، فلما همت أفرأخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له، أخذ أفرأخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مراراً، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفرأخه، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: يا رسول الله أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله تعالى من بعدى، فأخذها الرجل بأمر امرأته، ثم أعاد الورشان الشكوى، فقال سليمان للشيطانين: إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقا نصفين». فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفرأخ على عادته. فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: «الم تفعلما ما أمرتكما به؟» فقالا: اعترضنا ملكان فطرحانا فى الحافقين.

وقال النخعي: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء. وكان الرجل يضع الصدقة فى يد الفقير ويتمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائل، وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تند سبعين باباً من الشر». وعنه ﷺ قال: «ردوا صدمة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام». وروى عنه ﷺ أنه قال: «ردوا مذمة السائل ولو بظلف معرق». وعنه أيضاً ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: «من رد سائلاً خائباً لم تفتح الملائكة ذلك البيت سبعة أيام». وكان نبينا محمد ﷺ ينال المسكين بيده، وعنه ﷺ: «ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا كان فى حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة». وقال عبد العزيز بن صمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خيثم أنه خرج فى ليلة شائية وعليه برنس خز، فرأى سائلاً فأعطاه إياه، وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ تَأْكُلُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر وإن سوء الخلق شوم وحسن الملكة ثناء، والصدقة تدفع ميتة السوء». وقال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزنى جبال الدنيا إلا من الصدقة، وعن عمر رضى الله عنه: أن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تدركوا الهوم والغوم بالصدقات يدفع الله ضرركم وينصركم على عدوكم». وعن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقا الله،

ومن كسا لله كساء الله. وقال الشعبي: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أخرج من الفقير إلى صدقة فقد أبطل صدقة وضرب بها وجهه. وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره مما يتنفع به، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلًا أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بها ثوب السائل.

ووجه رجل ابنه في تجارة فعمضت أشهر ولم يقع له على خير، فتصلق برغيفين وأرخص ذلك اليوم، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالمًا رابحًا، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر، وغرقت في جملة الناس، وإذا بشاين أخذاني فطرحاني على الشط، وقالوا لي: قل لوالدك هذا برغيفين فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟! وقال على رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: «إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك رداك فيوافيك به حيث تحتاج إليه، فاعنتم حمله إياه». ولله در القائل حيث قال:

يكي على الذاهب من ماله وإنما يبقى الذي يذهبُ

وحكى أن رجلاً عبد الله سبعين سنة، فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقتت به امرأة جميلة فسأته أن يفتح لها، وكانت ليلة ثمانية فلم يلبثت إليها، وأقبل على عبادته، فولست المرأة، فنظر إليها، فاعجبته فملكت قلبه وسلبت له، فترك العبادة وتبعها وقال: إلى أين؟ فقالت: إلى حيث أريد. فقال: هيها صار المراد مريداً والاحرار عبيداً. ثم جذبها فادخلها مكانه، فأقامت عنده سبعة أيام، فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة، وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام، فبكى حتى غشى عليه، فلما أفاق قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيبي، وأنا ما عصيت الله مع غيرك، وإنى أرى في وجهك أثر الصلاح، فيسأله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرنى. قال: فخرج هائماً على وجهه، فأراه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان، وكان بالقرب منهم راهب بيعت إليهم كل ليلة بعشرة أرغفة، فجاء غلام الراهب على عاتقه بائخيز، فمد ذلك الرجل العاصي يده، فأخذ رغيفاً، فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً، فقال: أين رغيفي؟ فقال الغلام: قد فرقت عليكم العشرة. فقال: آبيت طاولياً، فبكى الرجل العاصي ونال الرغيف لصاحبه وقال لنفسه: أنا أحق أن آبيت طاولياً لأننى عاص، وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك. فامر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاحتضمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه، وجاء طائعاً. وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاص، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال، فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة، فأوحى الله إليهم أن زنوا بمعصية السبع ليال بالرغيف الذى أثر به على نفسه. فوزنوا ذلك، فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة، وقبل الله توبته.

وحكى أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل ببابه، فخرج إليه واتهره، فذهب، فاتفق بعد ذلك أن الرجل اقتصر وذلت نعمته، وطلق زوجته، وتزوجت بعده برجل آخر، فجلس يأكل معها في بعض الأيام وبين أيديهما دجاجة مشوية، وإذا بسائل يطرق الباب، فقال الرجل لزوجته: ادفعي إليه هذه الدجاجة، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول، فدفعت إليه الدجاجة ورجعت وهي باكية، فسأله زوجها عن بكائها، فأخبرته أن السائل كان زوجها، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذى اتهره زوجها الأول، فقال لها زوجها: وأنا والله ذلك السائل.

وذكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبى هريرة رضى الله عنه فقال: ادع الله لابنى فقد وقع في نفسى الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائى وأنفع وأسرع إجابة؟ قال: بلى. قال: تصلىق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك وسلامة ما معه، فخرج الرجل من عنده، و تصلىق على سائل بدروهم وقال: هذا خلاص ولدى وسلامته وما معه، فنادى في تلك الساعة مناد في البحر: ألا إن الفداء مقبول وريد مغاث. فلما قدم سأله أبوه عن حاله فقال: يا أبت لقد رأيت في البحر عجيباً يوم كنا وكذا في وقت كنا وكذا -وهو اليوم الذى تصلىق فيه والده عنه بالدرهم- وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف، فسمعنا صوتاً من الهواء: ألا إن الفداء مقبول وريد مغاث. وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصبرنا بخير أجمعين. والأناظر والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفايقلن وعى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم.

الفصل الرابع: في الصوم وفضله وما أهد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قيل: الصوم عموم وخصوص وخصوص الخصوص: فصوم العموم: هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة، وصوم الخصوص: هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الأثام، وصوم خصوص الخصوص: هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية. قال رسول الله ﷺ: «ذكاة الجسد الصيام». وعنه ﷺ أنه قال: «لصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه». وقال وكيع في قراءته تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. إنها أيام الصوم تركوا فيها الأكل والشرب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة رخصها الله له، لم يقض عنه صيام الدهر». وروى في صحيح النسائي عنه أيضاً ﷺ أنه قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين». وروى الزهري أن تسيبة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسيبة في غيره. وروى عن قتادة أنه كان يقول: من لم يغفر له في شهر رمضان فلن يغفر له في غيره. وقال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لسمت أمي أن يكون رمضان السنة كلها». «ولو أذن الله للسموات والأرض أن تتكلما لشهدتا أن صام رمضان بالجنة». وقال ﷺ: «ليس من عبد يصلي في ليلة في شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة، وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب، لكل باب منها مصرعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجدنا شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام». وقال ﷺ: «إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن يقبل، فليقل في كل ليلة عند فطره: يا واسع المغفرة اغفر لي». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإذا تسلى عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى. وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وعنه ﷺ أنه قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر كصيام الدهر» وهي الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر. وفي صحيح البخاري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفضل الصوم غزير لانه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال مخبراً عن ربه عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وقد يكتفى في فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الخامس: في الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال رسول الله ﷺ: «من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات، أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «من استطاع الحج ولم يرجع فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً». وفي الحديث: «أن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة». وفيه: «أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا». وفي الخبر: «أن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة، وأنه يبعث الله يوم القيامة ولـه عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق». وجاء في الحديث الصحيح: «إن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى سناكه لقيته الملائكة. فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام». وقال مجاهد^(١): إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقهم الملائكة فسلموا على ركبـان

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي مولى بنى مخزوم، تابعي، مفسر من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ الفراء والمصريين، ولكن كتابه في التفسير يفتيه المفسرون، وسئل الأعمش عن ذلك فقال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب، يعني النصارى واليهود. ويقال: إنه مات وهو ساجد سنة (٤٠٤هـ - ٧٢٢م) انظر ميزان الاعتدال للذهبي (٤٣٩/٣).

الإبل، وصافحوا ركبان الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وكان من سنة السلف رضى الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، ويستقبلوا الحجاج ويقولهم بين أيمنهم، ويسألوهم الدعاء لهم، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالأثام. وعن النبي ﷺ: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحججه كل سنة ستمائة ألف، فإن نقصوا كلهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها».

وحكى ابن جميلة الموصلية^(١) بنت ناصر الدولة أبى محمد بن حمدان حجت سنة ست وثمانين وثلاثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً. قيل: إنها سقت أهل الموسم كلهم السوف بالطبرزد والتلج، واستصحبت البقول المزروعة في المراكب على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمقطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصح فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين. ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت وقال: يا رب إن لكل عامل أجراً، فما أجر عملي؟ قال: إذا طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: ردني. قال: جعلت قبلة لك ولأولادك، قال: يا رب ردني. قال: أغفر لكل من استغفرني من الطائفتين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يا رب حسبي. وفي الحديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع راهداً في الدنيا راعياً في الآخرة.

وأول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير، وكانت كسوتها المسوح والإنطاع وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم. وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر، وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه.

وروى الحسن بن علي رضى الله عنهما يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول: عبيدك ببابك خويلدك ببابك سائلك ببابك مسكينك ببابك. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضى الله عنه، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام، فجلس معهم، وقال: لولا أنه صدقة لاكلت معهم. ثم قال: قوموا بنا إلى منزلي. فتوجهوا معه، فاطعمهم وكساهم وأمر لهم بدرهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضى الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجله حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً، وقال: أعتقهم لله تعالى لعله يعتقني من النار. وقال الحسن بن علي رضى الله عنهما: إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته، فمضى من المدينة إلى مكة عشرين مرة.

ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً:

كأن الحجاج الأن لم يقربوا مني ولم يحملوا منها سواكاً ولا نعلاً
أتونا فما جادوا بمعود أراك ولا وضعموا في كف طفل لنا نقلاً

وقال غيره:

يجمعون بالمال الذي يجمعونه حراماً إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهم أن وزره يحط ولكن فوقه في جهنم

(١) جميلة الموصلية: هي جميلة بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل إحدى شهيرات النساء في الكرم والعقل والجمال. لم تزوج ثقة أن يتحكم بها الزوج، وحجت وكان معها أربع مائة جارية، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، والبيت في دجلة فماتت غرقاً سنة (٢٧١هـ - ٩٨١م).

وقال آخر:

حجّ في الدهر حـجـجـة	حجّ فيها وأحرمها
واتانا من الحـجـجـا	ر كما راح محرمها
فهو ذو الحجـجـة الذي	ما توقى مُحـرّمـا

وتخاصم بدوى مع حاج عند منصرف الناس فقيل له: أتخاصم رجلاً من الحاج فقال:

يحجّ لكـيـمـا يـغـفـر الله ذنـبـهُ ويرجع قـد حطت عليه ذنوبُ

وقال أبو الشمقمق:

إذا حـجـجـت بـال أصله دنسُ	فما حجت ولكن حجت العيسر
ما يقبل الله إلا كل طيبةٍ	ما كل من حج بيت الله مبرور

والله سبحانه وتعالى أعلم.

فى العقل والذكاء والحقم وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز ومنزل خطابه الوجيز على شرف العقل، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها، وبين بدائع مصنوعاته وشرحها، فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْجُودَ مُخَوَّرَاتٍ يُأْتِرُهُ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: اقبل، فأقبل ثم قال له: ادبر، فأدبر، فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز على منك، بك أخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب»، وقال أهل المعرفة والعلم: العقل جوهر مضي خلقه الله عز وجل فى الدماغ، وجعل نوره فى القلب يدرك به المعلومات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم إن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما، فأما الأول فهو العقل الغريزى المشترك بين العقلاء، وأما الثانى فهو العقل التجريزى وهو مكتسب، وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع، وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجع معرفة، ولهذا قيل: من بيضت الحوادث سواد لثته، وأخلقت التجارب لباس جدته، وأراه الله تعالى لكثرة عمارته، تصاريف أقداره وأقفيته، كان جديراً برزاقته العقل ورجاحة الدراية، وقد يخص الله تعالى بالطفاه الحفية من يشاء من عباده، فيفيض عليه من خزان موابه رزاقه عقل وزيادة معرفة تخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجعاً على ذوى التجارب والأدب، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى فى محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَأَنبَأَهُ الْعَزْمُ صَبِيًّا﴾ [مریم: ١٢] فمن سبقت له سابقة من الله تعالى فى قسم السعادة، وأدركته عناية أولية، أشرفت على باطنه أنوار ملكوتية ومهداية ربانية، فاتصف بالذكاء والطفنة قلبه، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل فى قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام فى أمر الغنم والحرث.

وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن زجليين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثى فأهلكته وأكلته ولم تبق لى فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان عليه السلام، وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة، فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فعاد إلى داود عليه السلام وقال له ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له: ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث - وكان الحرث كرمًا قد تددت عنايقده فى قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها ويتفق بلدها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التى كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها وتسلم كرمه كما كان بمنافيقه وصورته، فقال له داود: القضاء كما قلت، وحكم به كما قال سليمان عليه السلام، وفى هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكَأِىَّ لَهُمَا عَلَيْهِمَا سُلَيْمَانُ وَكَأِىَّ آتِيَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية والطفاء الهية، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اعتدى إلى مواقع الصواب، ورجع على ذوى التجارب والاكتساب فى كثير من الأسباب، ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته، فإن المشاهدة من خصائص الأجسام، فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمر متعده منها: ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته فى إسداء صنائع المعروف وتجنبه ما يكسبه عاراً ويورثه سوء السمعة، وقد قيل لبعض الحكماء: بم يعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلته سقطه

فى الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقيل له: فإن كان غائباً، فقال: بإحدى ثلاث إما برسوله وإما بكتابه وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همته، فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها، وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه، فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من حرم مداراة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق، وقالوا: العاقل الذى يحسن المداراة مع أهل زمانه، وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة تسعة وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لساير الناس»، وقال على بن عبيدة: العقل ملك والحصول رعية، فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، فسمعه أعرابى فقال: هذا كلام يقطر عسله، وقيل: بأبدى العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شئ إذا كثر رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا؛ وقيل: لكل شئ غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج، واختلف الحكماء فى ماهيته فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة فى القلب كالنور فى العين، وهو يزيد وينقص ويذهب ويعود وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحبوب والمستور، وعى القلب كعمى البصر، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقيل محل العقل الدماغ وهو قول أبو حنيفة رحمه الله تعالى، وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى رحمه الله تعالى واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿إِنِّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أى عقل، وقالوا: التجربة مرآة العقل، ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عدمو ذكاء الطبع فقد أفادتهم حيلة ونجربة، قال الشاعر:

الم تر أن العقل زينٌ لأهله ولكن تمام العقل طول الشجارب

وقال آخر:

إذا طال عمر المرء فى غير آفة أفادت له الأيام فى كرها عقلاً

وقال عامر بن عبد قيس: إذا عَقَلَك عَقَلَك عما لا يعينك فأنت عاقل، ويقال: لا شرف إلا شرف العقل ولا غنى إلا غنى النفس، وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان كما يعيش الأسد بقوته حيث كان، قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإِنَّه وإن كان ذا بيت على الناس حين

ومن كان ذا عقل أجَلٌ لعقله وأفضل عقل عقل من يشتد

وقالوا: العاقل لا تبطره المنزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتمد عليه الريح، والجاهل تبطره أدنى منزلة كالخيش يحركه أدنى ريح، وقيل لعل رضى الله عنه: صف لنا العاقل؟ قال: هو الذى يضع الشئ موضعه، قيل: فصف لنا الجاهل؟ قال: قد فعلت، يعنى الذى لا يضع الشئ موضعه، وقال المنصور لولده: خذ عنى ثنتين: لا تقل من غير تفكير ولا تعمل بغير تدبير، وقال أرسير: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة، وقال كسرى أنوشروان: أربعة تؤدى إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوفيق، وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الحاصل عليه كان حسنه من أغلب الحاصل عليه، وقيل أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه، وقيل: ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والاقتصاد فى المعيشة، والتجيب إلى الناس، وقيل: من أعجب برأى نفسه بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله، وعن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغاراً، وأرحمهم كباراً، وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرووق، وقيل: لا ينبئ للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمرته، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه، وقيل: طول اللحية أمان من العقل، وستل بعضهم: أبما أحمد فى الصبا الحياء أم الخوف؟ قال: الحياء لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن، وقيل: غضب العاقل على فعله

وغضب الجاهل على قوله، وقال أبو الدرداء^(١) رضى الله تعالى عنه: قال لى رسول الله ﷺ: «ما عومر لودد عقلا تزدد من الله تعالى قريبا»، قلت: بأبى وأمى ومن لى بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلاً، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد فى الدنيا عقلاً، وتزدد من الله قرباً وحرماً، وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالمعلم، ويروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الآيات ويترنم بها:

إن المكابر أخلاق مطهرة	فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها	والجسود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها	والشكر تاسعها واللين عاشسها
والعين تعلم من عيني محدثها	إن كان من حزبها أو من أصاديها
والنفس تعلم أبى لا أصدقها	ولست أرشد إلا حين أعصيتها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله فى إرشاد، ورأيه فى إمداد، فقله شديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله فى إضرار، فقله سقيم، وفعله ذميم، ولا يكتفى فى الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن مليه وملاحة سمته وتسريح لحيته وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم من كفيف مبيض، وجلد مفضض، وقد قال الأصمعي^(٢): رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهرج، وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله، فسلمت عليه وقلت: ما كنية سيدنا؟ قال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله، ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجته ودخله، وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرموقاً بعين الفضل، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله وتشهد عليه بقلته وعقله واختلاله، وقيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد، فكان من جملة الوقائع التى صدرت منه وشهدت له بالعقل الراجح والفكر القادح أنه كان فى زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة، فاتفق أن رجلاً أراد أن يبيع، فأردع عند ذلك الرجل الأمين كيلاً فيه جملة من الذهب، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره وجحدته، فجاه إلى القاضي إياس وقص عليه القصة، فقال القاضي: هل أخبرت بذلك أحداً غيرى؟ قال: لا، قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلى؟ قال: لا، قال: انصرف واكتم أمرك ثم عد إلى بعد غد، فانصرف ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال له: قد حصل عندى أموال كثيرة ورأيت أن أردعها عندك فاذهب وهيئ لها موضعاً حصيناً، فمضى ذلك الرجل وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل، فقال له القاضي إياس: امض إلى خصمك واطلب منه وديعتك، فإن جمدك فقل له امض معى إلى القاضي إياس ألتاكم أنا وأنت عنده، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته فجاه إلى القاضي وأعلمه بذلك، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً فى تسليم المال، فسيب القاضي وطرده، وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره. ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها فقال: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكتنا الغرة منهم والوثبة عليهم، وعقدوا للذك المشورات، وترجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غالباً عنهم، فقالوا: من الحزم عرض الرأى عليه، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً، فسأله عن

(١) أبو الدرداء: هو عمير بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، صحابى من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل البعثة تاجراً بالمدية، ثم انقطع للمبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والشك، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، على عهد النبى ﷺ روى عنه أهل الحديث (١٧٩) حديثاً، تولى بالشام سنة (٣٢-٦٥٢م). انظر «الإصابة فى تمييز الصحابة» لابن حجر الملقانى (٤٥/٣)، (٤٦).

(٢) الأصمعي: هو عبد الله بن قُريب بن على بن أصعب الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، نسبته إلى جده أصعب، كان كثير الشطراف بالرواسى، يقبض علومها ويتلقى أخبارها، ويصف بها الخلفاء، قال الأئمش: ما رأيت أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي، وكان الأصمعي يقول: أسخط عشرة آلاف أرجوحة، تصانيف كثيرة: «الإنيل» والأضداد ولد بالبصرة وتوفى فيها سنة (٢١٦هـ-٨٣١م).

علة ذلك فقال: في غد أخبركم إن شاء الله تعالى، فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا: قد وعدتنا أن نخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة، وأمر بإحضار كليين عظيمين كان قد أعدمهما، ثم حرض بينهما وحرّض كل واحد منهما على الآخر، فتواتيا وتهاشما حتى سالت دماؤهما، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكلّيين ذنباً كان قد أهداه لذلك، فلما أبصره تركا ما كانا عليه وتألفت قلوبهما ووثباً جميعاً على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج بين المسلمين سالم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العدوة بينهم وتألفوا على العدو فاستحسنوا قوله واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء.

وأما أمّ الأحمق: فقد قال ابن الأعرابي: الحماققة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت فكانه كاسد العقل والرأي، فلا يشار ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور، والحمق غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت، قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماققة أهيت من يداويها

والحمق مذموم، قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرّمه أمر الأشياء عليه وهو العقل»، ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أقرط طول لحية قل دماغه، ومن قل دماغه قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق، وأما صفة من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب وكثرة الكلام وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات والحلو من العلم، والعجلة والخفة والسفه والظلم والغفلة والسهو والخلاء، إن استغنى بطر وإن افقر قنط، وإن قال أفحش، وإن مثل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك فقهه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق، قال عيسى عليه السلام: «عاجلت الأرض والأسمه فأبرأتهما، وعاجلت الأحمق فأعياها» والسكوت عند الأحمق جوابه، ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال: حجر على حجر.

وحكى أن أحمقين اصطحباً في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمن على الله فإن الطريق تقطع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أنتعح بلبنها ولحمها وصوفها، وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً، قال: ويحك أهذا من حق الصحة وحرمة العشرة، فتصايحا وتخاصما، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق، ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما، فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عمل، فحذّاه بحديثهما، فنزل بالزقين وفتحهما حتى سال العمل على التراب، ثم قال: صب الله دمي مثل هذا العمل إن لم تكونا أحمقين.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء، وأعشبت الأرض، فرأى حماره يري في ذلك العشب فقال: يارب لو كان لك حمار لرعيت مع حمارى هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم أن يدعوا عليه، فأوحى الله إليه: لا تدع عليه فإنى أجازى العباد على قدر عقولهم، ويقال فلان ذو حق وافر وعقل نافر ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه، وخطب سهل هند ابنة عتبة فحتمته فقال:

ومما هوجى يا هند إلا سجيّةً أجبر لها ذبلى بحسن الخلاق
ولو شئت خادعت الفسى عن قلوبهم ولا طمت فى البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب هو من بقر الجنة لا ينطع ولا يرمع، والأحمق المؤذى هو من بقر سقر والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى القرآن وفضله وحرمة وما أعد الله تعالى لقارئه

من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القدر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وسمى الله تعالى القرآن كريماً فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، وسماه حكيماً، فقال تعالى: ﴿بِئْسَ الْقُرْآنُ وَالْقُرْآنُ الْعَكِيمُ﴾ [يس: ١، ٢]، وسماه مجيداً فقال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ﴾ [ق: ١]، أنزله الله تعالى على سيد الأنام وحاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته وعن الإتيان بآية من مثله، قال تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَقُولُونَ إِلَّا بَيِّنَةً وَهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣]، ﴿فَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ﴾ [الحق المستبين لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدق من أحكامه ولا أفضح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته ولا أكثر من إفادته ولا ألد من تلاوته، قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خير من قبلكم ونبا من بعدكم وحكم ما بينكم»، وقال أيضاً ﷺ: «أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى»، وقال الشعبي^(١): «الذى يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل، وروى غالب بن صعصعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: فما فعلت بإبلك؟ قال: أذهبتها التواب وزعرتها الحسرة، قال: ذلك خير سبيلها، ثم قال له: يا أبا الإخطل من هذا الذى معك؟ قال: ابني وهو شاعر، قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك فى نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه فى سنة وفى ذلك قال:

وما صبَّ رجلى فى حديد مجاشع^٢ مع القيسد إلا حاجة لى أريدها

وقال أس رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا بنى لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت، فإن القرآن يحيى القلب الميت، وينهى عن الفحشاء والمكر».

وحكى الزمخشري فى كتابه «ربيع الأبرار» قال: ومن حكايات الحشوية ما قيل إن إبراهيم الخواص مر بمصروع فأذن فى أذنه فناداه الشيطان من جوفه دعنى أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق، وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن، وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة فى المصحف، وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يمتحمان فى رمضان ستين ختمة، وقال على رضى الله تعالى عنه: من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً، وقال الشعبي: اللسان عدل على الأذن والقلب فاقراً لقراءة تسمعها أذنك ويهجمها قلبك، وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغرا ما عظم الله»، وعنه ﷺ أنه قال: «إن القلوب لتصد كما يصد الحديد»، قيل يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت»، وقال عمر بن ميمون: من نشر مصحفاً حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا، وقال على كرم الله وجهه: من قرأ القرآن وهو قائم فى الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه وهو جالس فى الصلاة فله بكل

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبره الشعبي الحميري، أبو عمرو، راوية، من التابعين، يضرب المثل بحفظه، سئل صا بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سواداً فى بيضاء، ولا حدثنى رجل بمسليتى إلا حفظته، وهو من رجال الحديث الشقات، كان فقيهاً، شاعراً. توفى بالكوفة سنة (١٠٣هـ - ٧٢١م).

حرف غمسون حسنة، ومن قرأه في غير الصلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وأك عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هزيمة، وقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن ويكوا فإن لم يكوا فتباكوا»، وعن صالح المزني قال: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: «يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟» وكان عثمان رضى الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائة وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم وليلة الاثنين بطله إلى طسم نيا موسى وقمرعون وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ويختتم ليلة الخميس، وعن رضى الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، وكان عكرمة بن أبى جهل رضى الله تعالى عنه ولعن أباه، إذا نشر المصحف أغمى عليه ويقول: هو كلام ربي، وأبطلت عائشة رضى الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ما حبسك؟» قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فاستمع إليه طويلاً ثم قال: «هذا سالم مولى أبى حذيفة، الحمد لله الذى جعل في أمتى مثله»، وقال ابن عيينة، رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله قد اختلفت على القراءات فعلى قراءة من تأمرنى فقال: «على قراءة أبى عمرو»، وعن أبى عمرو أنه لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلفتيت بها عدة من التابعين عن قرأ على الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، فقرأت عليهم فأشدد بها يدك، فبينى للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سراً وحضراً.

وقال الشيخ محيى الدين النوى رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار: قد كان للسلف رضى الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذى يختمون فيه، فكانت جماعة منهم يختمون في كل شهر ختمة وآخرون في كل عشر ليال ختمة، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة، وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختتين، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات، أربعاً في الليل، وأربعاً في النهار، وروى أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان يختم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء، وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وجميى الدارى، وسعيد بن جبير رضى الله تعالى عنهم، وروينا في سند الإمام المجمع على حفظه وجلاله وإتقانه وبراعته أبى محمد الدارمى رحمه الله، عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل، صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار، صلت عليه الملائكة حتى يمسي، قال الدارمى: هذا حديث حسن عن سعد، وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبية، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد الصبح، ولا كراهة في وقت من الأوقات، ولأى أوقات النهى عن الصلاة، ويستحب الاجتماع عند الحتم لحصول البركة، وقيل: إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحب الدعاء عقب الحتم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً، ويجب على القارئ الإخلاص في قراءته، وأن يريد بها وجه الله تعالى وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شئ سوى ذلك، وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يتاجى ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه، ويتبى للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتبى والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب ربه تتشرح الصدور ويتبرى المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، وقد كان الواحد من السلف رضى الله عنهم يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها، ويستحب البكاء والتبكي لمن لا يقدر على البكاء فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيَبْكُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ فِيهِمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ٩-١٠]، وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضى الله تعالى عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين، وقد جاءت آثار بفضليلة رفع الصوت بالقراءة، وأكثر بفضليلة الإسرار، قال العلماء: إن أراد

القارئ بالإسرار بعد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهل أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره، من مصل أو نائم أو غيرهما، والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، من أراد الزيادة فليتنظر في كتاب التبيين في آداب حملة القرآن لشيخ مشايخ الإسلام محيى الدين النوى قدس الله روحه ونور ضريحه، وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة، وروى في فضل قراءة سور من القرآن في اليوم والليلة فضل كبير، منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاه وجه الله تعالى غفر له، وفي رواية له، من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له، وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة»، وعن جابر رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ ألم تنزيل الكتاب، وتبارك الملك، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: من قرأ في ليلة إذا زلزلت الأرض كانت له كعدل نصف القرآن، ومن قرأ قل يا أيها الكافرون كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ قل هو الله أحد كانت له كعدل الثلث، والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها، والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة» لأنه معلم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، المؤنس فى الوحشة، والمحدث فى الخلو، والجليس فى الوحدة، والصاحب فى الغربة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، بالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى، ومجالسة الملوك فى الدنيا، ومرافقة الأبرار فى الآخرة، والفكر فى العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعالم توصل الأرحام وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعالم يعرف الله ويوحده، وبالعالم يطاع الله ويعبد.

قيل: العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً، وقال النبى ﷺ: «خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»، وعنه عليه الصلاة والسلام: «يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، ولخسوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة، ولا يخرج أحد فى طلب العلم إلا وملك موكل به، يبشره بالجنة، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة»، وقال على كرم الله وجهه: أقل الناس قيمة أقتلهم علماً، وقال أيضاً رضى الله عنه: العلم نهر والحكمة بحر والعلماء حول النهر يطوفون والحكماء وسط البحر يفرضون والمعارفون فى سفن النجاة يسيرون، وقال موسى عليه السلام فى مناجاته: إلهى من أحب الناس إليك؟ قال: عالم يطلب علماً، وقال بعض السلف رضى الله عنهم: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان، وقيل: العالم طيب هذه الأمة والدنيا دأواها، فإذا كان الطيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره.

وسئل الشعبي عن مسألة فقال: لا علم لى بها، فقل له: ألا تستحي؟ فقال: ولم أستحي ما لم تسبح الملائكة منه حين قالت: لا علم لنا، وعن النبى ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل على أدناكم»، وروى: كفضل القمر ليلة البدر على مائر الكواكب، وقال على كرم الله وجهه: من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، وقيل: مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم، وأنشدوا:

هلا لنفسك كان ذا التعليم
كيما يصح به وأنت سقيم
أبدأ وأنت من الرشاد عديم
فلذا انتهت عنه فأنت حكيم
بالقول منك وينفع التعليم
عار عليك إذا فعلت عظيم

يا أيها الرجل المعلم غييره
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
فأبدأ بنفسك فأنهها عن غيها
فهناك يقبل ما تقول ويهتدى
لا تنه عن خلق وتأتى مثله

وقال بعضهم:

لا يطلبون العلم للعلم
وعسيدة للفش والظلم

إنى رأيت الناس فى عصبنا
إلا مباحاة لأصحابه

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم، فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطاق إن نزلت، وطاق إن وقفت، فرمت نفسها إلى الأرض، فقال لها: فذاك أبى وأمى إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم، وقال النبي ﷺ: «هلاكم أمتي في شيتين: ترك العلم وجسم المال»، وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال، فقال: «العلم بالله، والفقه في دينه»، وكررها عليه، فقال يا رسول الله: أسألك عن العمل، فتخبرني عن العلم، فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل»، وقال عيسى عليه السلام: من علم وعمل عد في الملوك الأعظم عظيمًا.

وقال الخليل عليه السلام: العلوم أقتال والأسلحة مفاتيحها، وعنه عليه السلام: رلة العالم مضروب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل، وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم، وقال يزيد بن مسيرة: من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله بوجهه ووجهه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف وجهه ووجهه العباد عنه، وعن أس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأجود الأجواد»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود من بعدي رجل علم علماً فشره، يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قتل»، وقال الثوري: كان يقال: العلم الفاجر فتنة لكل مفتون، وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأغروا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذا خضعت لهم رقاب الجبابرة وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وبذلوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فاعظم بها مصيبة والله أعلم، وللقاضى العلامة أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني^(١) وقد أحسن كل الإحسان كأنما طرقت في خلج حسان:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلباً	بدا طمع صيرته لى ملماً
ولم أبذل في خدمة العلم مهجتي	لأخذ من لاقيت لكن لأخدماً
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة	إذا فاتباج الجاهل قد كان أسماً
فإن قلت زدد العلم كتاباً فلوماً	كبا حين لم نحرس من حماء وأظلماً
لو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس لعظماً
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا	محياء بالاطماع حتى تحبهما

ويقول: من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره، وقال الفضيل: شر العلماء من يجالس الأمراء، وخير الأمراء من يجالس العلماء، وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركتلك فإن الله يمسح القلوب بنور الحكمة كما يمسح الأرض بماء السماء، قيل: من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالب العلم قال: مرحباً بكم بنائب الحكمة ومصايح الظلمة، خلقتان الثياب جدد القلوب، رياحين كل قبيلة، وقال على رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه، ويقرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه، وعن النبي ﷺ: «ما أتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً»، ودعا بعضهم الآخر فقال: جعلك الله من يطلب العلم رعاية لا رواية، وعن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمل، وعن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً ككدي النساء، يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب، والناس عطاش، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه

(١) الجرجاني: هو على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن، قاضى من العلماء بالأدب، كثير الرحلات لا شعر حسن، ولد بهرجان وولى قضاء ثم قضاء الرى، قضاء القضاء، وله «تفسير القرآن» و«تهذيب التاريخ» و«ديوان الشعر» توفي ببغداد سنة (٣٩٢هـ - ١٠٢٠م).

الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً، وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم».

شعر:

العلم أنفس شتى أنت داخـه
من يدرس العلم لم تدرس مفـه
أقبل على العلم واستقبل مقاصده
فأول العلم إقبال وآخره

قال الشعبي: دخلت على الحجاج حين قدم العراق، فالتى عن اسمي، فأخبرته، ثم قال: يا شعبي: كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عنى يؤخذ، قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إلى فيها المنتهى، قال: كيف علمك بآداب الناس؟ قلت: أنا الضيـل فيها، قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: لله أبوك، وفرض لى أموالاً، وسودنى على قومي، فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعلاك همدان، وخرجت وأنا سيدهم. قال البـي^(١):

إذا لم يزد علم الفـتى قلبه هدى
وسيرته عدلاً وإخلاقه حسناً
فبشـره أن الله أولاه فتنة
تغشيه حرماتاً وتوسعه حزناً

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضى الله عنه، سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال فى اثنتين وثلاثين منها لا أدري، وقال الأوزاعى: شكت النواويس إلى الله تعالى ما نجد من نثر ربيع الكفار، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أتت ما أتمت فيه، وقال على رضى الله عنه: من أفتى الناس بغير علم لعنة ملائكة السماء والأرض، ولصالح اللـمى:

تعلم إذا ما كنت لست بعالم
فما العلم إلا عند أهل التـعلم
تعلم فإن العلم أزين للغـمى
من الحلة الحسناء عند التكـلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلى على المهدي فى القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى الرماة، فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل فى القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدي: لم أر كاليوم أجمع لما يجمع الله فى أحد منك، ومل جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه فى بيت فرقى السطح، وجعل يسمع من كوة، حتى وقع عليه الثلج، فصر، فشكر الله ذلك، فجعله إمام الحكماء لا يختلفون فى شئ إلا صدروا عن رأيه، وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ، فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصى، فأنشأ يقول:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى
فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وذلك أن حفظ العلم فضـل
وفضل الله لا يؤتى لعـاصى

ووجد فى بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب أو المصحف أو ابتداء القراءة فى كل شئ أردت، بسم الله وسبحان الله، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الأبدىن، ودهر الدهرىن، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) البـي: هو على بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البـي، أبو الفتح، شاعر عصره وكانه، ولد فى بـت (قرب سجنان) وإليها نسبته، له: «ديوان شعر» صغير فيه بعض شعره، وفى كتب الأدب كثير من نظم غير مدون. توفي فى بلدة أولجند سنة (٤٠٠هـ - ١٠١٠م).

قيل: وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام، وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة: آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه.

ومن فوائد سيدى الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى فى الحفظ يقرأ فى كل يوم عشر مرات «فقهناها سليمان وكلا أتينا حكماً وعلماً» [الأنبياء: ٧٩] إلى قوله تعالى: «وكننا فاعلين»، يا حى يا قيوم يارب موسى وهارون، ويارب إبراهيم، ويارب محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، ألزمنى الفهم وارزقنى العلم والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين، وعن أبى يوسف قال: مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أذع مجلس أبى حنيفة خوفاً أن يفوتنى منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخارى حتى كان يقال: إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث، وقال البخارى رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتى ألف حديث غير صحيح، وقال ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وقال: أخرجه من ستمائة ألف حديث، وصنفته فى ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى، وقال مجاهد: أثبتنا عمر بن عبد العزيز لعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه، وكان يقال الليث بن سعد^(١) رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته: والله لانت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك، وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ولو حرص الناس، ويقال: إذا سئل العالم فلا تجب أنت، فإن ذلك استخفاف بالأسائل والمسؤل، وقالوا: من خدّم المحابر خدّمته المنابر.

شعر:

لا تدخّر غيبر العلو م فإنيها نعم الذخائر
فالمرو لو ربح البسقة مع الجهالة كان خاسر

وللشافعى رضى الله تعالى عنه شعر:

أخى لن تنال العلم إلا بسنة سأتبىك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغه وصحبة امتياز وطول زمان

وقال الزهرى^(٢): العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصرى بالبصرة، ومكحول بالشام، وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره، وقيل لإبراهيم بن عيينة: أى الناس أطول ندماً؟ قال: أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما فى الآخرة فعالم مفرط.

شعر:

كن عالماً وارضى بصف النعمال ولا تكن صندراً بغير النكمال
فمن تصنعت بلاء آلة صيرت ذاك الصند صنف النعمال

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام، جاء عصفور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ثم حط على ذك الخضر، ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام، وقال: يا نبي الله إن هذا العصفور يقول يا موسى أنت على علم من علم

(١) الليث بن سعد: هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن، أبو الحارث القهسى، عالم الديار المصرية.

(٢) الزهرى: هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى، من بنى زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر، كرم من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والقهاء، تابعى من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتين حديث، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لامجدون أحدًا أعلم بالسنّة المأثورة منه. توفي رحمه الله يَشْكَب سنة (١٢٤هـ - ٧٤٢م).

جهلت ولا تدري بآتك جاهل وممن لى بأن تدري بآتك لا تدري
وقال رجل للحنّ أنا أفصح الناس: قال: لا تقل هذا، قال: فخذ على كلمة واحدة، قال: هذه واحدة، أبو جهل
كناه المسلمون بذلك وكانت قریش تكتبه أبا الحكم، فقال حسان رضى الله تعالى عنه:

الناس كنوه أبـــــا حـــــكم والله كناه أبـــــا جـــــهـــــل
وأما ما جاء فى الأدب: فقد قال بعض الحكماء العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من
الطعام، وقال على كرم الله وجهه: الأدب كثر عند الحاجة عون على المروءة، صاحب فى المجلس أيس فى الوحدة
تعمر به القلوب الواعية، وتحيا به الألباب الميتة، ويثاب به الطالبون ما حاولوا، وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح.
وحكى أن رجلاً تكلم بين يدى المأمون فأحسن، فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، قال: نعم
النسب انتسبت إليه، ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد، قال
الشاعر:

كن ابن من شئت واكتب أدياً يغنيك محمودة عن النسب
إن الفسقى من يقول ها أنا ذا ليس الفسقى من يقول كان أبى
وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان ضيعاً، وبعد صيته وإن كان خاملاً، وساد وإن كان غريباً،
وكرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً، قال بعض الشعراء:

لكل شئ زينة فى السورى وزينة المـــــرء تمام الأدب
قـــــمـــــد يشـــــرف المرء بآدابه فـــــينا وإن كان وضيع الأدب
وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

مـــــالى عـــــقلى وهـــــمـــــتى حـــــسى ما أنا مولى وما أنا عربى
إذا انتـــــمـــــى منتـــــم إلى أحـــــد فـــــســـــانـــــى منتـــــم إلى أديى

وقيل: الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب، وقيل: المرء بفضيلته وبكماله وبآدابه لا بشيابه، وقيل
لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجاهل قبيحاً فاجتنبت فتأديت، ومن أدب ولده صغيراً سر به كبيراً، من عرف
الأدب اكتسب به المال والجاه، خير الخلال الأدب، وشرف المقاتل الكذب، وقيل لسقراط ما الفرق بين من له أدب ومن لا
أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذى ليس بناطق، ودخل أبو العالية على ابن عباس رضى الله عنهما
فاقعداه معه على السرير واقعد رجلاً من قریش تحته، فرأى سوء نظره وإليه وحموضة وجوههم، فقال: ما لكم تنظرون
إلى نظر الشحيح إلى الغريم المقلس، هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ويرفع المملوك على المولى، ويقعد العبيد
على الأسرة، وقال جالينوس: إن ابن الوضيع إذا كان أدياً كان نقص أبيه رائداً فى منزلته، وابن الشريف إذا كان غير
أديب كان شرف أبيه رائداً فى سقوطه، وقيل: أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه، وسمع معاوية رجلاً يقول أنا
غريب فقال: كلا الغريب من لا أدب له، ويقال: إذا فآتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب، ولعبد الملك بن
صالح:

فى الناس قوم اضاعوا مجد أولهم ما فى المكارم والتقىوى لهم أرب
سوء التـــــادب أرـــــدام وأرـــــذلهم وقـــــد يزـــــين صـــــحـــــيح النـــــصـــــب الأـــــدب

وقيل أربعة تسود العبد: الأدب والعلم والصدق والأمانة، وقال بعض الحكماء خمسة لا تتم إلا بخمسة، لا يتم
الحسب إلا بالأدب، ولا يتم الجمال إلا بالخلاوة، ولا يتم الغنى إلا بالجلود، ولا يتم البطش إلا بالجرأة، ولا يتم الجهاد
إلا بالتوفيق، والله تعالى أعلم.

فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء: إذا أراد الله بعد خيراً السهم الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه فى الدين، وعصده باليقين، فاستفى بالكفاف، واكتفى بالعفاف، وإذا أراد به شراً حبب إليه المال، ووسط منه الآمال، وشغله بدينيه وركله إلى هواه، فركب الفساد وظلم العباد. الثقة بالله أركى أمل والتوكل عليه أوفى عمل. من لم يكن من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ. من سره الفساد ساءه المعاد. كل يحصد ما زرع ويجزى بما صنع. لا يفرنك صحة نفسك وسلامة أمك، فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة. من أطاع هواه باع دينه بدينيه. ثمره العلوم العمل بالمعلوم. من رضى بقضاء الله لم يخطئه أحد، ومن قنع بعبادته لم يدخله حسد. أفضل الناس من لم تغد الشهوة دينه. خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه فى طاعة ربه. نصرة الحق شرف ونصرة الباطل سرف. الخيل حارس نعمته وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حل البلاء. علم لا ينفع كدواه لا ينفع. من جهل المرء أن يعصى ربه فى طاعة هواه، ويبين نفسه فى إكرام دينه. أيام اللعنة ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أتت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا تدرى ما حاله ولا تصرف من أهله. من كثر ابتهاجه بالمواهب اشتد انزعاجه للمصائب. لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك فى صحة، ومن عمرك فى فحة. عظم المسء بحسن أفعالك ودل على الجميل بجميل خلائك. إياك وفضل الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. لا يجد المعجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملل صديقاً. حسن النية من العادة. حسن الجلوس من السياسة. من زاد فى خلقه نقص فى حظه. من اتسم الزمان خانه. أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء. لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه عما فى أيدي الناس، ويسم شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يوجب لنفسه، ويثق بمواعيد الله. إياك والحسد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويلهب المروءة. قيل لافلاطون: ما الشيء الذى لا يحسن أن يقال، وإن كان حقاً؟ قال: مدح الإنسان نفسه. أربعة تودى إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والسكر إلى الزيادة. من ساء تدبيره أهلكه جهله. الغرة ثمره الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم، آفة النعم قبيح المن، آفة اللب حسن الظن. الخوم أسد الأراء والفلة أضر الأعداء. من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أبغظته المكاييد. من قرب السفلة وأطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تغفل. من كظم غيظه فقد حلم. من حلم فقد صبر. ومن صبر فقد ظفر. من ملك نفسه عند أربع حرمة الله على النار حين يغضب وحين يورغب وحين يرهب وحين يشتوى. من طلب الدنيا يعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة يعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرئ يعرف بقوله، ويوصف بفعله فقل سديداً وافعل حميداً. من عرف شأنه وحفظ لسانه وأعرض عما لا يعنيه وكف عن عرض أخيه دامت سلامته، وقلت ندامته. كن صموتاً وصدوقاً. فالصمت حرز، والصدق عز. من أكثر مقالته شتم، من أكثر سؤاله حرم. من استخف بإخوانه غذل، ومن اجتأ على سلطانه قتل. ما عز من أذل جبراته، ولا سعد من حرم إخوانه. خير النوال ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم فى السؤال. من حسن صفاءه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقتيح الشتم منه فلفظه بحسن الحلم عنه. من يخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه. إذا اصطنت المعروف فاستره، وإذا اصطنت إليك فانشره. من جاور الكرام أمن من الإعدام. من طاب أصله زكا فرعه. من أكر الضيعة استوجب القطيعة. من من بمعروفه سقط شكره، من أعجب بعمله حبط أجره. من رضى من نفسه بالإساءة شهد على أصله بالزيادة. من رجع فى هبته بالغ فى خسته. من رقى فى درجات الهمم عظم فى عيون الأمم. من كبرت همته كثرت قيمته. من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق فى مقاله راد فى جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بعرضه ذل. خير المال ما أخذ من الحلال، وصرف فى النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام، وصرف فى الأمان. أفضل المعروف إغاثة

المهلوف. من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك، وتستصغرها من غيرك. من أحسن المكارم غفو المقتدر. جود الرجل يَحْبِبُهُ إلى أصدقائه، ويخله يَغْفُهُ إلى أودائه. لا تَسْأَلْ إلى من أحسن إليك، ولا تمن على من أئتم عليك. من كثر ظلمه واعتداه قرب هلاكه وفناؤه. من طال تعديه كثرت أعياده. شر الناس من ينصر الظلوم، ويخذل المظلوم. من حفر حفيراً لأخيه كان حفته فيه. من سل سيف العداوة ألهمد في راسه. من لم يرحم العبرة سلب النعمة، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة. للأنحاج من يذهلك خوفه، ويملكك سيفه. صمتٌ تسلم به خير من نطقٍ تندم عليه. من قال ما لا ينبغي سمع ما لا يشتهي. جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. من سكنت عن جاهل فقد أوسعه جواباً، وأوجعه عتاباً. من أمارت شهوته أحميا مروءته. من كثرت عوارفه كثرت معارفه. من لم تقبل توبته عظمت خطيئته. إِيَّاكَ والْبَغْيُ فإنه يصرع الرجال، ويقطع الأجل. الناس في الخير أربعة أقسام: منهم من يفعله ابتداءً، ومنهم من يفعله اقتداءً، ومنهم من يتركه حرماناً، ومنهم من يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداءً فهو كريم، ومن فعله اقتداءً فهو حكيم، ومن تركه حرماناً فهو شقي، ومن تركه استحساناً فهو دني. من سالم سلم، ومن قدّم الخير غنم، ومن لزم الرقاد عدم المراد. ومن دام كسله خاب أمله. المعجول مخطئ، وإن ملك، والتأنيئ مصيب، وإن هلك. من أمارات الخذلان معاداة الإخوان. استئساد الصديق من عدم التوفيق. الرفق مفتاح الرزق. من نظر في العواقب سلم من النوايب، ومن أسرع في الجواب أخطأ في الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل. من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلّت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقي ما ساء. من كثر اعتباره قلّ عثاره. من ركب جده غلب ضده. القليل مع التدبير أبقي من الكثير مع التذير. ظن العاقل أصبح من يقين الجاهل. قليل نعمد آخرته خير من كثير تدم هاقبته. من خاف سطورك تمني موتك. إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. من أعجبت آراؤه غلبته أعداؤه. من قصر عن السيادة صغر عن الرياسة. لا تشكك ضعفك إلى عدوك، فإنك تشمت بك، و تطمعه فيك، من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كسده صبر على الإفلاس. من أفشى سره أقصد أمره. الحازم من حفظ ما في يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده. من طلب ما لا يكون طال تعب. لا تفتح باباً يعيبك سده، ولا ترم سهماً يعجزك رده. سوء التدبير سبب التدمير. أغمد سيفك ما تاب عنك لسانك. ليس العجيب من جاهل يصعب جاهلاً، ولكن العجيب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. إذا نزل القدر بطل الحذر. رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية. لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح. الجوع خير الخسوف. الكذب متهم وإن صلت لهجته، ووضعت حجته. من طواعه طرفة اشتد حنقه. من لم تر حياته لم تغم وفاته. من أعظم الذنوب تحمين العيوب. الشرف بالهمم العالية لا بالرّم البالية. إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. من ساءت أخلاقه طاب فراقه. من حسنت خصاله طاب وصاله. بُعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. اللسان سيف قاطع لا يؤمن حده، والكلام سهم نافذ لا يمين رده. من اطلع على جاره انتهكت حجب استاره. أجهل الناس من قل صوابه، وكثر إعجابه. أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة، ولم ياتر بها، ونهى عن المعصية، ولم ينته عنها. من سلا عن السلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب، الفضيلة بكثرة الآداب لا بقرأة الدواب. من زادت شهوته نقصت مروءته. من عرف بشيء نسب إليه، من اعتاد شيئاً حرص عليه. عند الجدال يظهر فضل الرجال. من آخر الأكل لذ طعامه، من آخر النوم طاب منامه. موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز. مقاساة الفقر هي الموت الأحمر، ومسالمة الناس هي العار الأكبر. حق يضر خير من باطل يسر. كم من مرغوب فيه يسوء ولايسر، ومرغوب منه ينفع ولايضر. عشرة الرجل تزيل القدم، وعشرة اللسان تزيل النعم. المزاج يورث الضغائن. من حلم ساد ومن تفهم ازداد. معاشرة ذوى الألباب عمارة القلوب. شر ما صحب المرء الحسد ربما أصاب الأعمى رشده، وأخطأ البصير قصده. اليأس خير من التضرع إلى الناس. لا تكن ضاحكاً في غير عجب ولا ماسئياً في غير أرب. من سعى بالنعمة حذره القريب ومقته الغريب. الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استبد برايه. أشرف الغنى ترك المني. من ضاق خلقه مله أهله. الحسد للصديق من سقم المودة. كل الناس راض عن عقله. نيكاً كلها وتلك الذي أنت فيه. استر سواة أخيك، لما يعلم فيك. خمول

الذكر أسمى من الذكر الذميمة. العجلة أخت الندامة.

من كرم أصله لأن قلبه ومن قلَّ له زاد عجبه. ربما أدرك بالظن الصواب. ليس لمعجب رأى، ولا لتكبر صديق.
سل عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. لاتعادين أحدا، فإنك لاتخلو من عداوة جاهل أو عاقل، فالخسر من
حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلل على ربه. من قلَّ سروره كان الموت راحته.
لاتردن على ذى خطأ خطأ، فيستفيد منك علماً، ويتخذك عدواً. استحي من ذم، من لو كان حاضراً، لبالغت في
مدحه ومدح من لو كان غائباً، لسارعت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العداوة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل
يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباينة، والانبساط
يوجب الموانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر يوجب الحق، والتواضع يوجب الرفعة، والجود يوجب المدح،
والبخل يوجب الذم، والتواني يوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والخسر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب
بقاء النعمة، وبالثبات تسهل المطالب، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، وبخفض الجانب تأتس النفوس، وبسعة الخلق المروء
يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، وبعدل المنطق تحلب الجلالة، وبالنصفة تكثر
المواصلة، وبالأفضال يعظم القدر، وبصالح الاخلاق تركز الاعمال، وباحتمال المون يجب السؤدد، وبالحلم على السفه
تكثر انصارك عليه. وبالفرق والتودد تستحق اسم الكرامة ويترك ما لايعنيك يتم لك الفضل.

واعلم أن السياسة تكسو أهلها المحبة. ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة. والنظر في العواقب نجاة. ومن
لم يحلم ندم. ومن صبر غنم، ومن سكت سلم. ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم. ومن أطاع هواه
ضل. ومع العجلة الندامة ومع الثبات السلامة. وذراع البر يحصد السرور. وصاحب العقل مغبوط. وصداقة الجاهل
نفس. إذا جهلت فاسأل، وإذا زلت فارجع، وإذا أسأت فاندمل، وإذا ندمت فاقبل. المروءات كلها تبع للعقل، والرأى
تبع للتجربة، والعقل أصله الثبات وثمرته السلامة، والأعمال كلها تتبع القدر. واختار العلماء أربع كلمات من أربعة
كتب فمن التوراة: من قنع شبع. ومن الإنجيل: من اعتزل نجا. ومن الزبور: من سكت سلم. ومن القرآن: ﴿ومن
يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ [آل عمران: ١٠١]. واجتمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات،
لاتحمل بطنك ما لايطيق. ولا تعمل عملاً لا يتفكك. ولا تغتر بامرأة. ولا تثق بمال ولو كثر. والله تعالى أعلم.

في الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلى بجواهره كتابه. وقد نطق كتاب الله تعالى، وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها، وهو أنصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً، فكم في إيراد وإصداره من مثل يعجز عن مواراته في البلاغة كل بطل. وسنذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمؤلفين. والعامّة.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ﴾ [آل عمران: ٩٢]. ﴿إِلَّا أَنْ حَصَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]. ﴿قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]. ﴿أَلَيْسَ الصَّحِّحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. ﴿لَمْ يَلِدْهَا مَكَانَ السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الأعراف: ٩٥]. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]. ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]. ﴿لَنْ نَبْأَسْتَفِزَّكَ﴾ [الأنعام: ٦٧]. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. ﴿وَوَعَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]. ﴿وَأَنْ تَصِيبَ مَنَّةً يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]. ﴿فَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩]. ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿فَمَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]. ﴿تُحْصِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]. ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ﴿وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. ﴿لَا يَكِلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لَا يَسْتَوِي الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ﴾ [المائدة: ١٠٠]. ﴿وَفَرِحْتَ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]. ﴿وَأَنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ لَا تَفْعَلُوا﴾ [الصف: ٢]. ﴿لَمَّا تَرَىٰ الَّذِينَ يَرْكُوبُونَ أَمْسَحَ عَلَيْهِمْ مَنًى وَهُمْ يَصْنَعُونَ الْكِبْرَ﴾ [النساء: ٤٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَرَوْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]. ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]. ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]. ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفَىٰ طُغْيَانَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿فَذَكَرْنَا عَنْكَ مُنْذِرَ الْفَلَاحِ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَأَكْثِرَنَّ مِنْكَ طُغْيَانًا وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٢١، ٢٢]. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا أَبَامَنَا عَلَىٰ أُمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿يَا أَيُّهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ بَعَثْنَا فِيهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ فِي الْقُرُونِ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]. ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّبِعُونَ﴾ [النجم: ٣٢]. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ﴿وَمَا رَيْكَ تَبْتَغِي عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣، النحل: ٩٣]. ﴿وَأَعِزَّهُمْ جَبْرًا جَمِيلًا﴾ [الزمل: ١٠]. ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]. ﴿وَأَنْ هِيَ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]. ﴿فَمَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣]. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوْمًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. ﴿فَقُلْ هَذَا فَعَلِمَ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَأَن﴾ [الحج: ٢٦]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

ومن الأمثال من الحديث النبوي: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى). (نبذة المرء خيره من عمله). (أفقه العلم النسيان). (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه). (إذا أتاكم كرم قرم فأكرموه). (أتروا الناس متنازليهم). (اليد العليا خير من اليد السفلى). (من مات غريباً مات شهيداً). (مطل الغنى ظلم). (به الله مع الجماعة). (الجار قبل الدار). (والرفيق قبل الصديق). (من غشنا فليس منا). (سيد القوم خادهم). (الحياه شعبه من الإيمان). (تخبروا نطفكم). (أبداً بنفسك ثم نب تعول). (حدث عن البحر ولا حرج). (المجالس بالأمانات). (كل ميسر لما خلق له).

(اطلبوا الخير من حسان الوجوه). (إياك وما يعتذر منه). (الوحدة خير من جليس سوء). (استمعينا على الخواص بالكمسان). (الندم توبة). (لا يكون المؤمن طعناً ولا لعناً). (دع ما يريك إلى ما لا يريك). (من كثر سواد قوم فهو منهم). (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). (انتظار الفرج عبادة). (كاد الفقر أن يكون كافراً). (نعم صومعة الرجل بيته). (الأعمال بخواتيمها).

الفصل الثاني: في أمثال العرب

إن من البيان لسحراً. إن الجواد قد يعثر. إن البلاء موكل بالنتطق. إن أخا الهيجاء من يسمى معك. ومن يضر نفسه لينفعك. أنف في السماء وأست في الماء. إن الذليل الذي ليست له عضد. أي الرجال المهذب إما هو كبرق خلب. إذا أدير الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إياك أعنى فاسمعي بإجارة، إن لم يكن وفاق ففراق. إنك لا تنجي من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق القضاء. إن المناكح خيرها الأبتكار. إذا كنت مناطحاً فمناطع بذوات القرون. أوى إلى ركن بلا قواعد. إياك أن تضرب بلسانك عتك. أكل وحمد خير من أكل وذم. آفة المروءة خلف الوعد. إذا قلت له رن طاطاً رأسه وحزن. إذا أتاك أحد الخصمين، وقد فقت عينه، فلا تقض له حتى يأتيك خصمه، فلعله فقتت عينه. ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. اتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان، وشئ في الشِّمِّ. بلغ السيل الزبى. أجمع كليلك يتبعك. حافظ على الصديق، ولو في الحريق. اشتد يا أومة تنفرجى. اتبع السيئة الحسنة تمحها. الخيل أهرق بفرسانها. رمى طرفها وانسلت. رب رمية من غير رام. الرياح مع السمح. رب أكلة تمنع أكالات. استراح من لا عقل له. رب أخ لم تلده أمك. رب طمع أدى إلى عطب. ربما كان السمكوت جواباً. رب ملوم لا ذنب له. رب عين أتم من لسان. رحم الله من هداني إلى عيبي. ركوب الخنافس ولا المشى على الطنافس. سبق السيف العذل. روح من عود خير من قعود. سبك من بلغك السب. سحابة صيف عن قليل تنفض. شر أيام الدهك، يوم تغسل رجلاه. طاعة النساء ندامة. اطلب تظفر. طرف الفتى يخبر عن لسانه. ظاهر العتاب خير من باطن العقدة. عند الصباح يحمد القوم السرى. والظلم مرعته وخيم. عند الطحاح يغلب الكباش الأجمل.

العبيد يُقصرُ بالعصا والحجر تكفيمه الملامة

اعقل وتوكل. العتاب قبل العقاب. عند الرهان تعرف السرايق. عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. عند النازلة تعرف أخاك. في القمر ضياء، والشمس أضواء منه. القول ما قالت حذاف. لقد أسمعت لو ناديت حياً. أقتل طعامك يحمد منامك. كل فتاة بأبيها معجبة. كل كلب ببابه نباح. كاد العروس أن يكون ملكاً. كثرة العتاب توجب البغضاء. أكثر مصارع الرجال تحت بروق الطعام. الكلام أنثى، والجواب ذكر. كل إناء يرشح بما فيه. كما تزرع تحصد. كل امرئ في بيته صبي. كلب جواد خير من أسد رابض. لقد ذل من بالث عليه الثعالب. ليس الخير كالعيان. لكل صامم نوبة، ولكل جواد كسوة. لكل قادم دهشة. لعل لها عنراً وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة. لكل مقام مقال. لك لسان من رطب ويدان من خشب. للباطل جولة ثم يضمحل. ليست النائحة التكللى مثل المتأجرة. لكل غد طعام. لكل دهر دولة ورجال. لاعطر بعد عروس. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يضر السحاب نباح الكلاب. لا تقنن من كلب سوء جرواً. مقتل الرجل بين فكليه. ماحك جلدك مثل ظفرك. من عتب على الدهر طال عتبه. معاتبة الإخوان خير من فقدم. النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك والبادى أظلم. يا حبيذا الإمارة ولو على الحجارة. يكو الناس وإسته عارية. يذك منك وإن كانت شلاء.

الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولدين

التسلط على المالك ذناء. اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر. أجرة الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. الحاجة تفتق الحيلة. الحاوى لا ينجو من الحيات. الحية تدور وإلى الرحي ترجع. المؤذى ردى كلما جلوته صدى. الأسواق موائد الله في أرضه. السلامة إحدى الغنيتين. الشاة المذبوحة لا يؤلفها السلخ. الطير بالطير يضاد. اطلع القرد في الكتيف فقال: هذه المواة لهذا الوجه الظريف. العادة طبيعة خامة. الغائب حجة معه. الخوض عند الحاجة رجولية. الناس أتباع لمن غلب. النكاح يفسد الحب. النصيح بين الملا تقريع. الحر حر وإن مـه الضر. والعبد عبد وإن ملك الدر. الثقل إذا تخفف صار طاعوناً. أضيق من حلى على نحية. العمل للزورنخ والاسم

للنورة. أشط من أير دخل نصفه البخل. الهرم لا يفرعه صوت الجللجل. بدن واغر وقلب كافر.

تزاودوا ولا تجاوروا. تعاشروا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب. ثمرة الصجلة الندامة. جواهر الأخلاق تقضحها المعاشرة. حيثما سقط لقط. خذ اللص قبل أن يأخذك. خط القليل من اللثيم وقمة. وذل من لاسقيه له. ريق العدو سم قاتل. رب ساع كقاعد. ركاة البدن العلل. رلق الحمار وكان من سهوة الكارى. رلة الرجل عظم يجبر. رولة اللسان لا تبقى ولا تذر. سلطان غشوم خيسر من فتنة تدوم. سواء قوله وبوله. سفير السوء يفسد ذات الين. شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. صديق الوالد عم الولد. ضرب الطبل تحت الكسا. طاعة الولاة بقاء العز. طغلى ويقترح. عناية القاضى خير من شاهدى عدل. دلت على أهلها براقش. (وهو اسم كلية نبحت فدلّت على الجيش فقتلوههم) غش القلوب يظهر فى فلتات الالسن وصفحات الوجوه. غشى المرء فى الغربة وطن. فر من الموت وفى الموت وقع. فم يسبح وقلب يذبح. فلان كالكمبة يزار ولا يزور. قبل للزمار، نهياً للزمر قال: المزمار فى كسى والريح فى فمى. كل قليلا تمش كثيراً. كلامه ريح فى قفص. كالإبرة تكسو الناس وهى عريانة. كلمة حكمة من جوف خرب. كاد المرير يقول: خذونى. كنت سندلاً فصرت مطرقة. كل ما فانتك من الدنيا فهو غنيمة. كلما طار قصوا جناحه. لو كان المزاح فحلاً لم ينتج إلا شر. لسان الجاهل مفتاح حنقه. لكل جديد لذة. لو ضاعت صفة ما وجدت إلا فى قتاه. لو كان فى اليوم خير ما فات الصياد. من اعتمد على شرف آبائه فقد عقمهم. من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف:

وكلّ نعيم لا محالة زائلُ
فقد بطل السحر والساحرُ
فأبعدكن الله من شجيرات
فبئى مكان من مكانك اللطف
فليس يخفى عليه كيف ينغمه
ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتد
على طرف الهجير إن كان يعقلُ
وإن كان لى مال فأنّت صديقى
بالجسد يروق منهم من يروق
هل جديد مثل ملبوس خلق
والعموارى حكمها أن تسترد
إذا رأى منك يوماً غيرة وثبا
أن ترى مقلتاى طلعة حرّ
فدعه فلدوته ذاهبه
عليك فكُنْ لها ثبت الجنان
فدونك الحبل به فاسخنتق
فعلامة الإديار فيها تظهر
فلأحدهما لأشك ذلك آخذه
فلا تلم الصبيان فيه على الرقص
سمت بجناحيها إلى الجو تصعد
أصبت حلماً أو أصابك جاهلُ
وجواره إلى ما تستطيع

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
إذا جاء موسى وآلن العصا
إذا لم يكن فيكى ظلٌ ولا خبى
إذا كنت فى فكرى وقلبى ومقلتى
إذا أراد كريمٌ منع صاحبه
إذا ما أتيت الأمر من غير يابه
إذا أتت لم تنصف أخاك وجنته
إذا لم يكن عنلى نوال هجرتنى
الناس فى طلب المعاش وإغا
أيها السائل عما قد مضى
إنما أنفستنا عسارية
إن العبد وإن أبدى مسألة
أهنى على الزمان محالا
إذا ملك لم يكن ذاهبه
إذا ثارت خطوب الدهر يوماً
إذا كنت لا ترضى بما قسدت ترى
إن الأمور إذا بدت لزوالها
إذا ضاع شيءٌ بين أمّ وبناتها
إذا كان رب البسبب بالطبل ضارباً
إذا أراد الله إهلاك ملة
إذا أتت لم تعرض عن الجهل والحنأ
إذا لم تستطيع أمراً فدعه

إذا صوّت العصفور طار فواده
أمن عامراً تكرم عليه فلانما
إذا محاسنى اللاتى أتيتُ بها
إخوان صدق ما راوك بنبطة
إذا اعتاد الفتى خوض الناي
ألم تر أن المرء تلوى يمينه
إذا أتت لم تعلم طبيبك كل ما
إذا أتت حملت الخسوف أمساته
أكل خليل هكذا غير منصف
إذا أتت عبت المرء ثم أثبتته
أسأت إذ أحسنت ظنى بكم
الحادثات إذا ألمت خطريها
الخير لا يأتك متصلاً
العلم ينض بالخيريس إلى العلا
الكفر بالنعمة يدعو إلى
أيادهم ما كنت أنت بدارهم
أقلب طرفى لا أرى غير صاحب
إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن

حرف الباء الموحدة:

بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا
بالملاح نصلح ما نخشى تغيره
بنى عمنا إن العداوة شاتها

حرف التاء المثناة الفوقية:

نحن إليه أفشدة البرايا
تلوم على القطيعة من أتاها
تلجى الضرورات فى الأمور إلى
تفرقت الأطباء على حشائش
تجملنى الأذن منه أحسن مما

حرف الجيم:

ولكن خميد الساب عند الشراهد
أخمو صامس من مسته بهوان
عُدت ذنوباً فقل لى كيف اعتنر
فلذا افتقرت فقد هوى بك من هوى
فلأيسر ما يمر به الوحول
فيقطعها عمداً ليسلم سائر
بمؤك أبعدت الدواء عن السقم
فلأنك قد استنتها شر مستند
وكلّ دمان للكرام بخيل
فلأنت ومن تزرى عليه سواء
والخسرم سوء الظن بالناس
فلها مسامرة ومحاسن
والشر يبيح سيئه مطر
والجهل يقعد بالفتى المنسوب
زوالها والشكر أبقى لها
ولا أنا منذ صار الركاب بهم أنا
يميل مع النعماء حيث تميل
قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

نرى فرجاً يشفى السقام قريباً
فكيف بالملاح إن حلت به الغسيمة
ضغائن تبقى فى نفوس الأقارب

وتهواه الخسائر للسماع
وأنت سنتها للناس قبل
سلوك ما لا يليق بالأدب
وما يلزى حشائش ما يصيد
تجملنى العين من وجوه البلور

جن له الدهر فنال الثمنى
جريت أهلى وأهليه فما تركت

حرف الحاء المهملة:

حيّاك من لم تكن ترجو نحيته

حرف الخاء المعجمة:

خلفض الجاش وأصـبـرن رويداً
خـليلى إنّ الحبّ صعبٌ مرامه
خاطرٌ بنفسك كى تصيب غنيمته
خيالك فى عيني وذكرك فى فمي
نحن من آمنت ولا تركن إلى أحد

حرف الدال المهملة:

داود مـحمـود وأنت مـنـعم
دعيتى أنهب الأموال حتى

حرف الدال المعجمة:

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله

حرف الراء:

رُبّ مهزولٍ مـمـينٌ عـرضـه
ردّوا على صحابنفأ سودتها
رضيت ولا أَرْضى إذا كان مـخطى
رَبّ يوم بكيت منه فلمـسا

حرف الزاى:

زنىمٌ ليس يعـمـرف من أبوه

حرف السين المهملة:

سـورى أن تبقى بخير ونعمة
سـوء حظى أنالنى منك هـجـراً

آه لمن أغـمـمـفـله الدهر
إلى التجارب فى ودّ امرئٍ غرضها

لولا الدراهم ما حيّاك إنسانٌ

قـلـلـالـرزايا إذا تـوالـت تـولـت
وإن عزيز القوم فيه يهان
إن الجلوس مع العيـال قـبـيـحٌ
ومشـواك فى قلبى فأين تغيبُ
فما نصحتك إلا بعد تجربى

عـجـبـاً لـذاك وأتـمـما من عـود
أعف الأكرمين عن اللثام

وأخـو الجـهـالة فى الشقاء منعم

وسـمـين الجـمـم مـهـزولُ الحـب
فليكم بلا حق ولا استحقاق
من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر
صرت فى غيـره بكيت عليه

بغى الأم ذو حـسـبٍ لثـمـيم

وإنى من الدثـيـمـا بـذلك قـانـع
فـلـعلـى الحظ لا عليك العـتـابُ

سبكناه ونحمله بلحياً
ستذكرنى إذا جبريت غيرى
حرف الشين المعجمة:

فلأبدى الكبير عن خبث الحديد
وتعلم أننى نعم الصديق

شفيعى إليك الله لأرب غييره
شكرتك قبل الخير إن كنت واثقاً
حرف الصاد المهملة:

وليس إلى رد الشفيع سبيل
بأنى بعد الخير لأشك ثاكراً

صصح لنا والده أولاً
حرف الضاد المعجمة:

وأتت فى حل من السوالدة
والعسر مفتاح كل ميسور

ضالقت ولو لم تضق لما انفرجت
حرف الظاء المهملة:

قصير عمر الأعدى والمواعيد
القوم فى نزهة من وجهك الحسن

طويل عمر المعالى والندى أبداً
طوبى لأعين قوم أنت بينهم
حرف الظاء المشالة:

حتى اتهمنا وية الأبرار
وهل كسنت الأعلاق إلا غرائز

ظهرت خيانات الشقات وغيرهم
ظلمت امراً كلفته غير خلقه
حرف العين المهملة:

كالحل الجليل من سلطانته
وليس عليه أن يساعده الدهر
له كل يوم فى خليفتته أمر
وجريت أقواماً بكيت على عمرو

علم الله كيف أت فسأعطا
على المرء أن يمسى لما فيه نفعه
عسى ففرج يأتى به الله إنه
عتبت على عمرو فلما تركته
حرف الغين المعجمة:

وإن الغنى إلا عن الشيء لا به
ولم يأت من شطر أم ولا أب

غنى بلا دين عن الخلق كلهم
غلام أتاه اللؤم من شطر نفسه
حرف الفاء:

فلم أر كالأيام للممره واعظاً
 نفثك أكرمها فإنيك إن تُهن
 فصبرٌ جميلٌ أن في اليأس راحةً
 فما أكثر الأصحاب حين تعدّهم
 فإن كانت الأجسام متاً تباعدت
 فلو كان حمداً يخلد المراء لم يم
 فـلـن تنفق الأثام وأنت منهم

حرف القاف:

قد يجمع المال غير آكله
 قد زال ملك سليمان فمأوده
 قد يدرك المتأني نوح حاجته
 قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه

حرف الكاف:

كلوا اليسوم من روق الإله وأبشروا
 كفى راجراً للممره أيام دهره
 كنت من كبريتي أقر إليهم
 كانوا بنى أم ففارق شملهم
 كل المصائب قد تمر على الفتى
 كذاك من كل النفوس مركب
 كالكلب إن جاع لم يمنعك بصصة

حرف اللام:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقى
 لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها
 للموت فينا سهام وهي صائبة
 لو أن خففة عقله في رجله
 لو كان ما بي في صخر لأتحله
 لعمرك ما الأيام إلا مُعارة
 لكل امرئ حالان يؤس ونعمة

ولا كصروف النهر للممره هادياً
 عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً
 إذا الغيث لم يطر بلادك ماطره
 ولكنهم في النائبات قليل
 فلن المدى بين القلوب قريب
 ولكن حمدا المراء غير مخلد
 فلن الملك بعض دم الغزال

ويأكل المال غير من جمعه
 والشمس تنحط في المجرى وترفع
 وقد يكون من المستعمل الزل
 خلق وجيب قميصه مرقوع

فلن على الخلاق رذكم غدا
 تروح له بالواعظات وتغتندي
 فهم كبريتي فلين الفرار
 عدم العقول وخففة الأحلام
 فتكون غير شماتة الأعداء
 فلن إلى كل الأثام حبيب
 وإن ينل شبعاً ينح من الأثر

إذا هو لم يجعل له الله واقبياً
 ولكن أخلاق الرجال تضيق
 من فاته اليوم هم لم يفش غدا
 سبق الغزال ولم يفش الأرنب
 فكيف يعمله خلق من الطين
 فما استطعت من معروفيها فتزود
 وأعطفهم في النائبات أقارب

حرف الميم:

والناس من عابهم يعاب
إن مات لم تشهد جنازه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
فليس يرفعه شيء ولا يضع
ويشقى به حتى الممات آثاره
فلأنه في المسجد الجامع
يه قاتلًا حتى قعد

من يحمد الناس يحمدوه
من لم يحمدنا إذا مرضنا
مضى يبلغ البنين يوماً فماته
من كان فوق محل الشمس رتبته
من الناس من يغشى الأباعد نفعه
ما كان في الخدع من أمركم
ما قام عمرو في الولا

حرف النون:

وليس إلى رد الشباب سبيل
نعاف ما لا بد من شره
رأت عيناه ما صنعت يده

نود أعلاها وتأى أصولها
نحن بنو الموتى فسمما بالناس
ندمت ندامة الكسبي لما

حرف الهاء:

بما تحب لكم منها وترضاه
أم هل إلى رد ما قد فات من طلب
ليس مصير ذاك إلى الزوال
ولم تأخذ الأيام منه نصيباً
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

هناكم الله بالدينيا ومتعكم
هل بالحوادث والأيام من عجب
هب الدينيا تقاد إليك عفواً
هنيئاً لمن لا ذاق للدهر لوعة
هم يحمدوني على موتى فواحرزني

حرف الواو:

فحلوا وأنا وجهه فجميل
وهرت منه فنجوه تشو جبه
ويبيت بواباً يباب الأحق
فما أبداً تصادفني حلما
على نائبات الدهر حين تنوب
فهو الشهادة لى باني كامل
إذا ما عدت من منقط المتاع
يوافى تمام الشهير ثم يغيب

ولم أر كالمعروف أنا مذاقه
وإذا خشيت من الأمور مقتدراً
والرزق يخطئ باب عاقل قومه
ولا يغيب ررك طول الخلم متى
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه
وإذا أتتك منى من ناقص
وما للمره خير في حياة
وما المرء إلا كالهلل وضوئه

وقد تلب الأيام حالات أهلها
ومن يامن الدهر الخسوف فلأننى
إذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ومن يكن الغراب له دليلاً
ومن يك مثلى ذا عيالٍ ومقنراً
ولربما منع الكريم ومنا به
ولا بات يميننا سوى الماء وحده
ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى
ولو دامت الدولات دامت لغيرنا
وأحسن فلأن المرء لا بد مبيت
ولاترين الناس إلا تجسسلاً
ومنا لأمري طولُ الخلود وإتما
ولرب نازلة يضيق بها الفسى
وكان رجائى أن أعود ممثلاً
وتجلى للشمامسين أريهم
ولا بد من شكوى إلى ذى مشروءة
وهو حزننى عن خليلى أننى
ويوم علينا ويوم لنا

حرف اللام ألف:

لا تنظرن إلى الجبهالة والخبجى
لا يسأل المرء عن خلائقه
لا يصبر الحر تحت ضميم
لأنه عن خلق وتأتى مسئله
لا يبالى الشتم عرض
لا تنظرن إلى امسرى عا أصله
لا يسكن المرء فى أرض يهان بها
لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا
لا أسأل الناس عمّا فى ضمائرهم

حرف الياء المثناة التحتية:

وتعدو على أسد الرجال الشمالب
يرأى الذى لا يامن الدهر أتتى
ذخراً يكون كصالح الأعمال
يمر به على جيف الكلاب
من الزاد يطرح نفسه أى مطرح
يخل ولكن سوء حظ الطالب
وهذا جزاء من بات ضيف الضفادع
من العيش ما يصفو وما يتكد
وعاليا ولكن ما لهن دوام
وأنك مجزى بما كنت ساعيا
وإن كنت صفر الكف والبطن طاويا
يخلد طول الشتاء فيخلد
ذرعاً وعند الله منها المخرج
فصار رجائى أن أعود مسلماً
أتى لرب الدهر لا انتضعضع
يواسيك أو يسليك أو يتوجع
إذا شئت لاقيت الذى مات صاحبه
ويوم نساءً ويوم نسر

وانظري إلى الإقبح والادبار
فى وجهه شاهد من الخبير
وإنما يصبر الحمار
عار عليك إذا فعلت عظيم
كله شتم وذم
وانظري إلى أفعله ثم احكم
إلا من العجوز أو من قلة الخيل
نعماً يكون لها الشاء تبيها
ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

ولا ينبغي من القدر الحسنة
 قد تطلق العنان والفم ساكت
 ويعجب إن رأى وجهه للجسام
 ويصحبني في الناس من لا أريده
 وذلك دأبه أبداً ودأبى
 وما صارت الغريبان في صنف النخل
 وتسلم أعراسنا لنا وعقول
 وعن به صفتا قليل غوائر
 والمرء في غيبظ مواء حليم
 وببريك في السر يرى القلم

يَفْرَمَنَّ الْمَنِيَّةَ كُلَّ حَيٍّ
بِرَيْكَ الرِّضَا وَالْغُلَّ حَشَوِ جَفْوَنَهُ
يَهْمُهُمُ لِلشَّعْبِ إِذَا رَأَى
يَفَارِقُنِي مَنْ لَا أَطِيقُ فِرَاقَهُ
يَزِيدُ تَقْضِيًّا وَلَا وَارِدَ شُكْرًا
يُؤَاسِي الْغُرَابَ الذُّئْبُ فِي كُلِّ صَيْدِهِ
يَهْوِي عَلَيْنَا أَنْ تَعْبَابَ جِسْمِ مَوْتَا
يَغْفِرُ الْفَتَى مَرَّ اللَّيَالِي سَلِيمَةً
يَغْفِرُ عِظْنِي وَهُوَ عَلَى رِجْلِهِ
يُرِيكَ الْبَشَائِشَ عِنْدَ الْمُقَامِ

الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف: إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. إذا أبغضك جارك، حول باب دارك. إذا كان صاحبك عمل، لاتلحه كله. المستعجل والبطيء عند المعديدة يلتقى. ألف ذقن، ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقنى. إذا غاب عنك أصله، كانت دلائل نسبته فعله. إذا وصلت وسلم الله مع بما قسم الله. إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة التفروش. إذا كان التبيذ دردى، والعشيق كرى، والبقل فول حار، والعشاء يسار إيش يكون الحال. إذا كان الفطن أحمر، والمخل أعور، والدكة مخلعة، والنمش مكسر، اعلم أن الميت من أهل سقر، والودادى الأحمر. إيش ينفع الضراط عند طلوع الروح قال تقريف للحاضرين وتفريق للملاكمة. القشر والنشر والعشا خبيزة. أكل الدقة والنوم فى الأراقة ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. إيش أنت فى الحارة يا متخل بلا طارة. الرجم بالطوب ولا الهروب. إذا وقعت يافصح لا تصيح. أقرع يقول لأقرع امش بنا نزرع فى بركة القرعان إيش ما يطلع بطلع النصف لى والرابع لى والثلث لى والثلث الآخر لك ولى. والله العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طيب. أقعد بالحمار حتى ينبت لك الشعير. أى موضع راح الحزين يلتقى جنازة.

قال الشاعر :

لا جملٌ يَبْقَى ولا قعود

إن دام هذا السير يا مسموعود

غیر:

فلا خير فيك والزممان ترللي

إذا لم تكن لي، والزمـان شـرمُ بـرمُ

غیر:

وإذا أدبرت كسادت تقيد الملاهي

إذا أقبلت كادت تقاد بشعيرة

حرف الباء الموحدة. بينما يتروى البخيل قضى الكريم حاجته. بينما يسعد المختار فرغ عمره. بينما أصل قبره نسيته. هم. بعدل بينما المفتر حاله جاء الموت شاله. بينما يخلص ربنا حتى اتفرقت جوارى حلقى. بينما يقطع الجريد يفعل

الله ما يريد. بينما يجيء الدرياق من العراق يكون المسروع مات. بين حانا وبانا حلقت لحانا. بدوى مقروح لقي التمر مطروح أين يخلى ويروح. بidal لحمتك وقلقاسك هات لك شد على رأسك. بidal اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا هريان. بidal لحمتك الثلاثة هات لك شد ياشماعة. بقى للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية. بقى للخمرا مرا ويحلف بالطلاق. بعد الجوع والقلّة بقى لك حمار ويغلة.

حرف التاء المثناة فوق: تموت الحداى وعينها فى الصيد. تعالوا بنا نقتيح ونرجع غدا نصلطح. تدرج الحرا لمند البهر قال له: إيش أنت؟ قال له: بزم قردش. ترك الفضول من حزم العقول. تراب الحمل ولا زعفران البطالة. تسكر وتخافق ما هو شئ موافق. تجارة الاحمق على أهل بيته. تضارب الريح مع الموج. جاء الهم على النواتية. تزاووا ولا تجاووا. تبات نار تصيح رماد لها رب يدبرها.

حرف اللام المثناة: ثوب العيرة ما ينفى. ثقيل واسمه صخرين جبل. ثور علقوه أغمى عليه قال: حتى يطلع شئ يرشوه عليه. ثور عاجز ما يدور ساقية. ثقيل من أولاد الزنا مرّ العناء. ثوب عليه وثوب على الوتد، قال: أنا اليوم أحسن من كل من فى البلد.

حرف الجيم: جور القظ ولا عدل الفار. جمل موضع جمل بيرك. جهد المقل دموعة. جمل يحبه قال: وأين المحبة جيت أصطاد صادوني. جار له حق وجار ما له حق وجار لأصحبته عافية. جارك مراك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا كتاب من عند خاله قال كل من هو فى حاله. جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهى بهمه. جاموا يتعلوا خيل الباشا مدت لم قويق رجلها. جوزوها له مالها إلا له. جوزوا مشكاك لربما ما على الاثنين قيمة.

حرف الحاء المهملة: حاجة لانهمك وصى عليها زوج أمك. حول حببسى ما عونه وقدرته مع كاثونة. حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت. حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا. حب ووارى وكره ودارى. حدثتى ونصحتنى عايرتى وفرحتنى. سط فليساتك فى كملك واشتر أبوك وأمك. حبة قرض تخرب أرض.

حرف الخاء المعجمة: خلينى واغضى فيه. أنا حصاد ملوخية وعند الحيز أكل مية وعند الشغل ما لى نية. خبثت لى وصلحت لك. خذ ذا الصبى فوق صيانتك تمام لأحزانك. خزينة فى جره وملحه فى صره. خبزه بلا آدم ويعزم على الجيران.

حرف الدال المهملة: دار الظالم خراب ولو بعد حين. درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك. دواء ما لانتشهى النفوس تحجيل الفراق.

حرف الذال المعجمة: ذا درب مايد ربح. ذى ما هي رمانة إلا قلوب ملانة. ذا لى وفا أيدي عليه. ذى مائدة ما يقعد عليها طفلى. ذا الحيز ما هو من ذا المعجين. ذا الولد خرا من ظرفة كل من شال رجلية حك أنفه. ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها. ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

حرف الراء المهملة: راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه. وكل من تكلم بالحق كسروا راسه. راوا حجار راكب حيط قالوا: إلى أين يا حجار قال: مسافر. قالوا: من كانت هذه المطية معيته لا يشرق ولا يغرب. راوا سكران يقرأ قالوا: غن تشاكل روحك. راوا شيخاً يتهبجى قالوا يختم على الصراط. راوا وردانة على سنداس قالوا: مالذى الفسيقة إلا ذى البيطة. راوا على قبره مكتوب بإسعادة ساكنه، قالوا: ابصر من يزاحمه. راكب بلاش ويتأش مرارة الرئيس. ركبك وراى حطيت يدك فى الخرج. راح الجندى وخلّى خلقه عندى. رزق الكلاب على المجالين. راسين فى عمامة ما يكون. راحت على جمل، وجاءت على قطة قال مالذى الشيلة إلا ذى الحطة. ركبت خنفسة زمر زنبور قال: ماذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

قال الشاعر:

راح الذى كنا نـ
ويبقى الذين حـ
ش بفـ
ووجـودهم مسـ

راح الذى كنا نـ
ويبقى الذين حـ
ش بفـ
ووجـودهم مسـ

حرف الزأى المعجمة: وقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة. زاوية بلا عيش بنيت ليش. زوج القصيرة يحسبها صغيرة. زوجت بتى أقعد فى دراهما جاتنى وأربعة وراها.

قال الشاعر:

زوجت بنتى تــــنــــتــــر
وعملت بيــــتى قــــمــــمــــاش
جا غزلهــــا فى أكلهــــا
ونيكهــــا طلع بلاش

زبور زن على حجر من، قال له: إيش تريد قال: ألحسك قال: أنا ألحس البولاد. زبور زن على فلس جعش، قال له: إيش تطلب قال: له عسل. قال له: قصدت معدن يادندن.

حرف السين المهملة: سل المجرب ولاتس الطبيب. سموك مسحر قال فرغ رمضان. سموك جبل قال وطولت. سموك راجع قال إن شاء الله نجي الحق. مع وزر ولا استر.

قال الشاعر:

ســــيغنى الله عن بقــــراط دة
ويأتى الله بالســــلــــين الحــــليب

وقال آخر:

ســــيغنى الله عن زيد وعمــــرو
ويأتى الله بالقــــمــــرج القــــســــريب

حرف الشين المعجمة: شره ووضيع ويقضب سريع. شىء ما نابه وتقطعت ثيابه. شعر يخلق وشعر ما يخلق. شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفل. شمنى ولا تدعكنى. شىء ما يجيء على القلب عنايته صعبة. شراء العبد ولا تربيته. شخت بغلة عامت زيلة.

حرف الصاد المهملة: صام سنة وفطر على بصلة. صبرى على الحبيب ولا فقهه. صاحب يضر عدو ميين. صباح الفوال ولا صباح المطار. صباحك يا أعور قال ذى خناقة باينة. صباح الخير يا جارى أنت فى دارك وأنا فى دارى.

حرف الضاد المعجمة: ضرب الحبيب كاكل الزبيب. ضربتين فى الرأس تعمى. ضرب ويكى وسبى يشتكى. ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا. ضمنوا حداية لغراب قال: الكل يطيروا. ضربوا بيع الكسيرة خرى بيع التوم، قال ذى داهية جات على الحضيرة.

حرف الطاء المهملة: طارت الطيور بأرزاقتها. طفلى ويجلس فى الصدر. طفلى ويقترح. طويل الكم خطار قليل الفرح فى الدار. طبق وجارية على صحن بسارية. طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. طعامك ما جانى ودخانك عمانى. طار طيرك وأخذته غيرك. طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش. طول الغيبة وجانا بالحياة.

حرف الظاء المعجمة: ظهرك عندى نصف الليل.

حرف العين المهملة: عتوق مدلى فى الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى. عشق بداله لا أباله. عاشق ما يسمع بكاء صغير. عاشق ما يسمع كلام مفارق. عاشق مقل شىء ما زرع إيش جا يستغل. عزومة حسب عليك كل ويخلق عينيك. عند المخاضة بيان القليط. عند الطعان بيان الفارس من الجبان. عريان الثينة وفى حزامه مكينة. عريان وفى كمة ميزان.

حرف الغين المعجمة: غابت السباع ولعبت الضباع. غربه وكربه ما يحمل الحال. غطاس وقلقاس نحين فى قدره. غالى السوق ولا رخيص البيت.

حرف الفاء: فرجة بلا كسر تعنى البصر. فقير ونفير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يخنئ. فوق الشراطة ملح أودانة. فارس خرا ويسوق فى الوحل. فارس خرا واسمه عتتر. فارس خرا ويسابق الخيل. فرد ضربة فى الرأس تكفى. فصدوا فرد ضرط قالوا به دم زايد. فرغت الرعانة يا جاتم.

حرف القاف: قالوا للأعمى روق عصاتك قال هو أنا محب فيها. قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلى. قالوا للفرزد شب قال: أبأدى ملاح وتمسك الماصول. قالوا للفرد اطلب من ربك قال هو أنا عنده بوجه ييسط. قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملمومة ولا أبأدى مفرودة. قالوا للذبة طرزى قالت ذى خفة أبأدى. قالوا للكلاب احرثوا قالوا ما جرت بهذا عادة. قالوا للغراب مالك تسرق الصابون قال الأذى طيبي. قالوا لبقير الديوان إذا متم يكفونكم فى حريق قالوا اشتهينا نروح بجلودنا. قالوا للفرزة ارحلى حركت ذنبها. قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف.

حرف الكاف: كل من عودته باكلك كلما نظرك جاع. كشكار داييم ولا علامة مقطوعة. كل كرها واشرب كرها ولا تعاشر كرها. كل هم كارى عند همى يارى. كل شئ لا يشبه قانيه حرام. كل مائة عصفور ما يجو حداية. كل ألف ممة ما يجو بغصة. كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة. كلمت يا لحمان بالشعر والصنان. كمل حببى كل المعانى أعرج وقيلط ومسجباتى. كمل حببى واكمل أعرج وقيلط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للنجبر ولا يوحشه من غاب ولا يؤاسه من حضر. كأنه من طواحين الكشكار دايير على رجل الفار. كأنه عصفور ينك بلاش ويأوى فى الأعشاش.

حرف اللام: لولاك ياكى ما كلت يافعى. لولاك بالسانى ما اكتسبت ياقنأى. لولا البقرة والحسد كانت المعجزة كفت بلد. لولا أختك ماصرت ابن عمك. لو قلياتها بلية ما جاءت هكذا. لو كان فيها خير ما رساها طير. لك وعليك ما يصعب عليك. لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة. لقمة تحت حيلة ولا خروف بعبطة. لو سلم الكرم من حارسه طبابت مغارمه. لو تقطع يده وتدليها من فيه صنعتها ما يخليها. لو عمل لى من السحب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة. لو شال رأسه إلى السما كأنه عسيده بما. لو نظر الجمل لخصمه كان كدمه. لولا الكشط والبراية ما كانت الأولاد الجرا كتاب.

حرف الميم: محبة بلا حبه ما تساوى حبه. ما شلتك يا دمعنى إلا لشدتى. من عاشر غير جنه دق الهم صدره. من قدم النحس تعب فى تأخيره. من عاشر الحداد احترق بناره. من عاشر الزيدانى فاحت عليه روايحه. من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا إسته وهزه. من لا يحط يده لزنده ما يعرف حيره من برده. ما رايتك يا نور حتى ابيضت العينون. ما لى على فراكم جلد إلا هجاجى من البلد. ما كسفانا هم أبونا قام جاب أبوه. وقال خذوا جدكم ربوه. من عدم نابه ونصابه و ثيابه وشبابه كان الموت أولى به. من يكلم القسيح يروح عرضه وينفضح. ما تنقدوهم كلهم وغلبي ما فيهم من يعجب النقاد. من أولاد الزنا مر العنا.

حرف النون: نوبة تسند الجره قال وتسند الزير الكبير. نفسك أثلفت أى شئ اعطقت. نصف البلا ولا البلا كله. ناقص ونحاس. ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها: وأنت كنت على أى ورقة. نيتك مطيتك. نسيت يا فلاح ما كنت فيه كعبك المشقق والوحل فيه. نيك حتى تبقى ديك.

حرف الهاء: هانت الزلاية حتى أكلها بنو وائل. هان المسك وانتشر. هدية تعر قومها تخليتها ولا لومها. هدية الاحباب على ورق السداب. قال هو أعمى عن ورق الموز. هو حرس تأكل وتسل. أهدوا هدية وأعينهم فيها يقول الله يردعا. هاتوا ذا الغزل المخيل لذا القلب المدبل.

حرف الواو: واحد تنقه وآخر لقفه وقال آخر ياقريب الفرج. واحد يخطبوا له وهم قائم عليه قال أنا فى حاجتك. واحد جائز رأى فرد يجرش ترمس فقال مالذى الفاكهة البدرية إلا ذى الصورة القمرية. واحد سموه عنبر وصنعتة سريانى، قال الذى كسبه فى الاسم خيره فى الصنعة. وحش ويكش ويقعد فى الوش ويخنى بلينا بكم. وقت أكل الدجاج ما يفكثرون وفى وقت شيل التراب هات يلك. وإيش قام على تومه بفضل الحكومة وقت الشوا واليخنى ما

قلت يا أخی الحقنى ووقت ضرب الدرة قلت اصفعوا واصفعنى.

حرف اللام ألف: لاتعيرنى ولا أعيرك الدهر حيرنى وحيرك. لا أصل شريف ولاوجه ظريف. لا أخوك ولا ابن عمك تشفق ثوبك على إيش. لا عاش بليق. لاحراس ولا دراس. لا عاش العار ولا بنى له دار. لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه. لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل. لاتشكون فى حتى تجوبه. لاتفزع لمن يروح حتى تنظر من يجرى. لا يضر السحاب نبح الكلاب. لا يترك نظريضى الأصل فى رضى.

حرف الباء: ياشب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا طرفك. يا ويل من ذاق الفنى بعد جوعه يموت وفى قلبه من الهم واجس. ياطارق الباب بعد العشى لاتطرق الباب ما تم شئ. يا من ملنا ما كان حلتا. لسا ما لنا فى العشرة سنة. يهينكم قدومه قد جاكم بشومه. ياليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا. يا ويل من كان عشب من بيت خيه. ياطالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر.

أمثال النساء

حرف الالف: أحبك يا سوارى مثل معصى. الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل. إن كتى حرة لاتقضى نقابك بره. إن لم تعلمى وتفتخرى وإلا اقعدى وتعفرى. إن كانت الداية أحن من الوالدة قال ذى داهية عيابه. الكلام لك يا جاره إلا أنت حماره. إيش تعمل الماشطة فى الوجه المشووم. إيش قام على الحزينة بالنفش والزينة. إيش يقع التفخ فى الوجه الأصم. أرملة عس ومتزوجه عدس. اقعدى بعدسكى اسم الزوج ولاطعم الترميل. العاقلة فينا تزنى بيقطينا. إذا كان زوجى راضى إيش فضول القاضى. استعازت الرعة شئ حبه لها أخذت المقص ودارته لها. اقعدى فى عشك حتى يجرى حد ينشك.

حرف الباء الموحدة: بعد أن كتى لى وحدى بقيت أسمع أخبارك. بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين. بعد أن كان زوجها بقى طباخ فى عرسها. بعد مشيك فى الحلقة بقالك سلامم وغرفة واسمك سبيته. بعد أمى وأختى الكل جيرانى. بينما تنتقب الحولة انصرف القاضى. بنت الخرا تزف لابن الخرا بلف. باتت نامومة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من درى بك قبله. بدال ما تمشى وتهزى كنفك رقى فردة خفك. يخرأ أو تراحم باليوس. بقى لام سيسى برقع وللضفدة زماره. بعد مشيك فى الخلافى لبيتى الصافى. بعد على الحزينة تستعمل الزينة.

حرف التاء: ثابت القعبة يوم ليلة وقالت ما بقى فى البلد حكام. تضاربت للمجنونة والحمقاء حبه الرعة من حقا. تضارب وتتعرى وتصبح ياقلة رجالى. تأخذوا أبونا وتكأبرونا. ترتانه وبيانه ومفاتيح الخزانه. تباغت الرعة بشعر بنت أختها. تخلونى وإلا استحل بجاننا قالت إذا كان ذا فى قلبك خذيه بلا استحلال. تنقمى بالخروج ولا تغلى الفنج. تقعد عيوشه فى ديارتها ما لأحد حاجة فى زيارتها.

حرف الشاء: ثوب سيدى ثوب حبيى ثوب ستى ثوب قجه.

حرف الجيم: جاره بجاره والعداؤه خساره. جانى عذولى ورتالى ما هى محبه إلا شماته لى. جاريه وزيديه على باذغايه مقلية. جانتا العدو مكحلة قطران لا غيرة وقلها فرحان. جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونه معهم.

حرف الحاء المهملة: حوله وتنتقب بنخ. حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق. حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية. حزينة ووامية. حيلة ومرضعة وعلى كنفها أربعة، وطلعت الجبل تقيب دوا للجل. حوله ونصراية لامليحة ولا أصل طيب. حزينة ما لها ملوك سميت زبورها خوشكلم. حزينة مالها ملك اكترت لها بواب. حزينة مالها كاملية طلبت لها خف وشعرية.

حرف الخاء المعجمة: غطبوها تعزرت وكان زمان البوار. خلث زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب. خذى قطيفة واكنى سرى قالت ما يطاوعنى قلبى. خلث ما يعينها واتبعك حك رجلها.

حرف الدال المهملة: درى زوجك بكتبك فى نهارك مع ليلتك. دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب.

حرف الذال المعجمة: ذكرت المعجزة أطلالها.

حرف الواو: رقصتى ما أحسسى كان قعداك أجمل، رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم. وأوا جاموسه منقبه بحصير قالوا ما لنا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع. راحت تبيع ريعه غابت جمعة. راحت رجال الهيمية وبقيت رجال الحنية. راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الحيز بالقفساس. رأوا خنفسة على مكسة قالوا ما للى الصيفة إلا ذا الحمار الأعر.

حرف الزاى: زمر بالزيمير تبان لك العاقله من المجينينه. زوجى ما حكم على قام لى عشيقى بشمعة. زوجوا بنت نشادى لسرباى قالوا قليلات الحرا تندحرج لبعضها.

حرف السين المهملة: سودا وتنتشس بسباخ سودا. سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب.

حرف الثين المعجمة: شدى قوطاسك من عند موسى قالوا داشى ما فرحتى به وأتتى عروسة وشامنة ومعزية.

حرف الصاد المهملة: صارت القعبة واعطة. صارت القويقة شاعرة.

حرف الضاد المعجمة: ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت ما أخف دمه.

حرف الطاء المهملة: طلعت ترحم نزلت ترحم.

حرف الظاء المعجمة: ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

حرف العين المهملة: عميا تخفف مجنونة وتقول حواجيك سود مقرونة. عاقله جابت طفلة وجاتها خطر واشتروا لها قلناس ذكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها اطيني. على قدر لحة تقع الصلحة. عجورة وجابت غلام إذا جنت لا تلام. عجورة وخرفانة دى داهيه كمانه.

حرف الفين المعجمة: غيرك يقوم مقامك عlish قلبى أعليه.

حرف الفاء: فرحت حزينه خربت مدينة.

حرف القاف: قالوا للمغانى اتزوقوا قلبوا عصايبهم. قعبة ما كنت بيتها كنت المسجد. قالوا دى قعبة تطلب الثواب.

حرف الكاف: كل من تبعت هواها صارت سراويلها رداها. كبرى يا يرقوقة وبشى لك دبوقة. كانوا مغانى صاروا ملاهى. كلى قلبه وباتى هنيه كأنها من الباسطية قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر. كأنها من عمام اليهود صفرا طويلة رفيعة. كأنها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشية. كأنها ضبه جعبدى مخلوعة ولا تأخذ شيء.

حرف اللام: لو كان ما ينتش إلا السمان بارت المواشط من زمان. للساعة ما جملت جابت المرسين. لولا المعايير ما كانت الحراير.

حرف الميم: ماشطة وتمشط بتها. من افكرنا بياسمين ما نسينا. منقبه قفل على خزانة.

حرف النون: نواية تسند الجره قال وتسند الزير الكبير.

حرف الهاء: هش يا دبانة أنا حبلى من مولانا.

حرف الواو: وجه لايرى بالذهب يشتري.

حرف اللام ألف: لا أتتى مليحة ولا تغنى بايش تدلى. لا راحت ولا جات كما هى.

حرف الياء: يعيش المدلل بلا مكلل. يا غزالة الأعمار أين كتى بالنهار. يا ما تحت الثقاب والشعرية من كل بلية. يا من ملنا ما كان حلنا للساعة ما لنا فى العشرة سنة.

في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

الفصل الأول في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرُّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا﴾. قال ابن المعتز^(١): البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حده فقد قال الجاحظ^(٢): البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى.

وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله. قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بَلَّغْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢]. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيَّا بِالْقَلَمِ﴾ [القلم: ٣٩]. أى وثيقة كأنها قد بلغت النهاية. وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للمبلغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص من أبلغ الناس؟ قال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة. ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ واقتخر به حيث يقول: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم». وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة. وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي. والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبيد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمت العامة ورويت به الخاصة. وقال البحرى: خير الكلام ما قل ودل ولم يل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان.

وقال الشاعر:

لك البلاغة ميدانٌ نشأت به وكلنا بقصور عنك نعمتُرفُ
مَهْد لى العنبر فى نظم بعثت به من عنده الدرّ لا يُهدى له الصَّدْفُ

وروى أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، قال: فطلبت حجاً ما فقالت: تكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة، فلولا تبصرها بالنعاء الكلام ومذاهب العرب والتوسعة فى اللفظ ومعاني الخطاب لثم عليها جهل هذا الرجل.

وقال تعالى: البليغ من يحول الكلام على حسب الامالى، ويخيط الالفاظ على قدر المعانى. والكلام البليغ ما كان لفظه فصلاً، ومعناه بكرة. وقال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى عليه فى حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارة كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شعب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثانى: فى الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله تعالى عليه: اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من

(١) ابن المعتز: هو عبد الله بن محمد بن المعتز بالله بن المتوكل بن المصمم بن الرشيد العباسى، أبو العباس الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة، كان مولداً بالأدب وكان يقصد فصحاء العرب وأخذ منهم، وصنف كتباً منها: «الزهر والرياض»، «البليغ»، «طبقات الشعراء» وغيرها توفى سنة (٢٩٦هـ - ٩٠٩م).

(٢) الجاحظ: هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، النيش، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المجتلة، مولده ووفاته بالبصرة، قتله مجلدات مكتبته حيث وقت عليه، له تصانيف كثيرة منها «الحيوان» و«البلاء» و«البيان والتبيين» وغيرها توفى سنة (٢٥٥هـ - ٨٦٩م).

قولهم أقصع اللين إذا أخذت عنه الرغوة. وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ ولفظ فصيح.

وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدرى، وإن قصر سقط من عيني.

وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم من قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال: إنها لاتخص الألفاظ وحدها واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلاً يقول: هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني، وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس، والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً. ومن المشحن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة، والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنتُ كنتُ كُتِمَ الحبُّ كنتُ كما كُنّا وكنتُ ولكن ذاك لم يكن
وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف الضعف بل مثله ألف
وكقول الآخر:

وقببر حرب بمكان قففر وليس قرب قبر حرب قببر

قيل: إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويقلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث تقللاً في النطق به. وقيل: من عرف بفصاحة اللسان لحظه العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر وملك زمام الأمور وأطلعه ملكها على الخفى من أمره المستور. قال الشاعر:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم
وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك. أي فصاحتك.

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة، فقال أبو العيلاء^(١) يستجيزها أحمد الله كثيراً. فقالت: حيث انشاك ضريباً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما أن الآتية تمتحن بأباطيئها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقته.

وقال المبرد^(٢) قلت للمجنون أجزني هذا البيت:

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه وإبراقه فاليلوم لأشك مطار

(١) أبو العيلاء: هو محمد بن القاسم بن غلام بن ياسر الهاشمي، بالولاء، أبو العيلاء، أديب فصيح، من طرفاء العالم، ومن أسرع الناس جواباً، اشتهر بتواضعه ولطافته، كان ذكياً جداً، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، غيبت اللسان في سب الناس والتعريض بهم، كف بصره بعد الأربعين، توفي في البصرة سنة (٢٨٣هـ - ٨٩٦م).

(٢) المبرد: هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية يتفاد في زمانه، وأحد أئمة الأدب والاختيار ولد بالبصرة سنة (٢١٠هـ) ومن تصانيفه (للكامل) و(إعراب القرآن) و(المقتضب) توفي ببغداد سنة (٢٨٦هـ - ٨٩٩م).

فقال:

وقد حجت فيه السحاب شمس كما حجت ورد الحشود المحاجر

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لآبته: يا بني إذا أقبلت من الكلام أكثر من الصواب، قال يا أبت فإن أنا أكثر وأكثرت يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني، ما رأيت موعوفاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبي^(١): كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة فأقول: أجزأها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك، فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها. وقال ابن عينة^(٢): الصمت منام العلم، والنطق يقظته، ولا منام إلا يتيقظ ولا يقظة إلا بمنام. قال ابن المبارك^(٣):

وهذا السلسان يريدُ الفسّاد يدنُ الرجسُ إلى عقله
ومرّ رجل يابى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، ومعه ثوب، فقال له أبو بكر رضى الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا،
رحمك الله، فقال أبو بكر: لو ستقيمون لقومت الستكم، هلا قلت لا ورحمك الله.

ومنه: ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكرم عن شيء، فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أعرف
هذه الواو وأحسن موقعها. وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال: اللسان سبع صغير
الجرم عظيم الجرم، وقال بعضهم شعراً:

سحبان يقصر عن بحور بيانه عجزاً ويفرق منه تحت عباب
وكذلك قس ناطق بمكازه يعيا لديه بحجة وجواب

وقيل: إنه حج مع ابن المنكر شابان، فكانا إذا رآيا امرأة جميلة قالوا: قد أبرقنا، وهما يظنان أن ابن المنكر
لا يظن، فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة وكانت قبيحة، فقال ابن المنكر: بل صاعقة. وكان أصحاب أبي علي الثقفى
إذا رأوا امرأة جميلة يقولون: حجة، ففرضت لهم قبيحة، فقالوا: داحضة. وكب إبراهيم المهدي: إياك والتبع لو
حشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل مع تجنب الانفاط السفلى. ويقال: القول
على حسب همة القائل يقع. والسيف بقدر عضد الضارب يقطع. وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى،
وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضى الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت
فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضى الله عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضى الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً
فأرادت فتحه إلا فتحت، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقت.

ومن غريب الكتابات الواردة على سبيل الرمز، وهو من الذكاء والفصاحة ما حكى أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر
ابن وائل وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنزلهم
وتخلوهم، فجاؤا بعبد أسود، فقال له: أتعتل ما أقول لك، قال: نعم إني لعاقِل، فأشار بيده إلى الليل، فقال: ما
هذا؟ قال: الليل، قال: ما أراك إلا عاقلاً، ثم ملا كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير، فقال: أيما
أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كل كثير، فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم بكمروا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من

(١) الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعي الحميري، أبو عمرو، رواية من التابعين، يفرس مثل يصفه، ولد سنة (١٩هـ)، اتصل
بعبد الملك بن مروان، وكان يقول: لأحدثني رجل يحدثني إلا حفظته، وكان قتيلاً شامراً، توفي سنة (١٠٣هـ-٧٢١م).

(٢) ابن عينة: هوشيان بن عينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدث الحرم المكي من الموالى، ولد بالكوفة سنة (١٠٧هـ)، كان حافظاً ثقة،
واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وهشيان للعب علم الحجاز، له «الجامع» في الحديث، وكتاب في «التفسير» توفي في مكة سنة
(١٩٧هـ-٨١٤م).

(٣) ابن المبارك: هو يحيى بن المبارك بن الخيرة العدوي، أبو محمد، الزيدى، عالم بالعربية والأدب سكن بشاره، فصحب يزيد بن منصور الحميري
(خالد القهني) يؤدب ولده فسب إليه واتصل بالرشيد فهد إليه تأديب المأمون، من كتبه: (التواضع) في اللغة والفصوص والمندوة، توفي بمرور سنة
(٢٠٢هـ-٨١٨م).

بكر بن وائل، فإن قومه لى مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا وشكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقسى الحمراء فقد أطالوا وكروها، وأن يركبوا جملى الأصهب بامارة ما أكلت معكم حيساً، واسألوا عن خبرى أخى الحرث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأصور، والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملاً أصهب، ثم دعوا بأخيه الحرث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم، أما قوله: قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلاموا ولبسوا السلاح وأما قوله: شكت النساء أى أخذت الشكاه للسفر، وأما قوله: أعروا ناقسى الحمراء أى ارتحلوا عن الدفء، واركبوا الجميل الأصهب، أى الجبل. وأما قوله: أكلت معكم حيساً، أى أن أخلاقاً من الناس قد عزموا على غزوكم لأن الحيس يجمع الثمر والسمن والاقط، فامتثلوا أمره وعرفوا لحن الكلام وعملوا به فنجوا.

واسرت طيء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا عليه، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يسيان ويصبحان على جبل طيء، ما عندى غير ما بذلت ثم انصرف، وقال: لقد أعطيتك كلاماً إن كان فيه خير فهمه، فكانه قال له الزم الفرقدين يعنى فى هرويك على جبل طيء، ففهم الابن ما اراده أبوه وفعل ذلك فنجى.

وكانت عليّة بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طل، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره فى شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهى تقرأ فى آخر سورة البقرة: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْصِيهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فالذى نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم: تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أى يأمر بالوصية وينهى عن النوح، ويقال: ما رأيت فلاناً، أى ما ضربته فى رتته، ولا كلمته أى ما جرحتة، فإن الكلوم الجراح، وما رأيت ربيعاً، فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً، فالكافر السحاب والفاسق الذى تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راکعاً ولا ساجداً ولا مصلياً، فالراكم العائر الذى كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلى الذى يجىء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً، فالدجاجة الكبة من الغزل، والقروجة الدراصة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً، فالبقرة العيال الكثيرة. يقال: جاء فلان يسوق بقرة، أى عياله، والثور القطعة الكبيرة من الاقط.

وحكى أن معاوية رضى الله عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام، فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضى الله تعالى عنه ولعن لاعته، فقال الأحف: يا أمير المؤمنين إن هذا القاتل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم، فأتى الله يا أمير المؤمنين ودع عنك علياً رضى الله تعالى عنه، فلقد لقى ربّه، وأقرّد فى قبره، وخل بعمله، وكان والله البرور سيفه الطاهر ثوبه العظيمة مصيته، فقال معاوية: يا أحف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعن طوعاً أو كرهاً، فقال له الأحف: يا أمير المؤمنين إن تعفنى فهو خير لك وإن تجبرنى على ذلك، فوالله لا تجرى شفتاى به أبداً، فقال: قم فاصعد، قال: أما والله لأنصفك فى القول، والفعل، قال: وما أنت قاتل إن أتصفتنى، قال: أصعد المنبر، فاحمد الله وأثنى عليه، وأصلى على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً، ألا وإن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلعا، فادعى كل واحد منهما أنه مبنى عليه وعلى فتنه، فإذا دعوت فأمناو رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملاتكك وأتيناؤك وجميع خلقك الباغى منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعنا كثيراً أمناو رحمكم الله. يامعاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحى. فقال معاوية: إذا نغفك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب: إن علياً قد قطعك وأنا وصلتك ولا يرضينى منك إلا أن تلعن على المنبر قال: أفعل، فصعد المنبر، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبى سفيان قد أمرنى أن ألعن على بن أبى طالب، فآلعتوه فعليه لعنة الله، ثم نزل، فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بيته، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم. ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك، وضرك بما أتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقصت، فقال لها: من تكويني أيتها المرأة. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قلده، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين

51

صلاح الدين وكان فيه فضيلة تامة فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهمّ بقتله فتسحب إلى بلاد التتر وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه. فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحته منه فتعير الفاضل بين الاثنين صديقه يعز عليه والملك لا يمكنه مخالفته فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب.

فشدد إن ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل «إن الملائكة ياترون بك ليقتلوك» [القصص: ٢٠] فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً وأراد بذلك «إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها» [المائدة: ٢٤]، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.

وحكى أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحته منه الفتاة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جنب قصره لم ير الرامون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه، فقال لها: لمن هذه؟ فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فتزل الملك وقد خامره جها، وشغف بها، فاستدعى فيروز، وقال له: يا فيروز، قال: ليك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض إلى البلد الفلانية، واتنى بالجواب، فأسخذه فيروز الكتاب، وتوجه إلى منزله، فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره، وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعاً وتوجه متخفياً إلى دار فيروز، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، فتفتحت له، فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا، فقال: رائي، فقالت: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وأما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إنني الملك سيد زوجك، وما أظنك عرفتني فقالت: بل عرفت يا مولاي، ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأولات في قولهم:

سأترك ما أكرم من غير ورد	وذاك لكثرة الورود فسيه
إذا سقط الباب على طعمام	رفعت يدي رتقي تشتهيه
ونجسب الأسمود وود ماء	إذا كان الكلاب وكفن فيه
ويرغم الكريم خميص بطن	ولا يرضى مهاجمة السفه

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

قل للذي شفق الغرام بنا	وصاحب الغدر غير مصحوب
والله لا قال قائل أبداً	قد أكل الليث فضيلة الذهب

ثم قالت: أيها الملك تأتى إلى موضع شرب كليك تشرب منه، قال: فاستحيا الملك من كلامها وخرج وتركها، فنى نعله في الدار، هنا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز، فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب، فلم يجد معه في رأسه، فتذكر أنه نسبه تحت فراشه، فرجع إلى داره، فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار، فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فتكت ولم يد كلاماً، وأخذ الكتاب، وسار إلى حاجة الملك، فقضاها، ثم عاد إليه، فأنعم عليه بمائة دينار، فمضى فيروز إلى السوق، واشترى ما يليق بالنساء، وهياً هدية حنة وأتى إلى زوجته، فلم عليها، وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت وما ذاك؟ قال: إن الملك أتم علينا وأريد أن نظهرى لأهلك ذلك، قالت: حباً وكرامة، ثم قامت من ساعتها، وتوجهت إلى بيت أبيها، فقرحوا بها، وما جاءت به معها، فاقامت عند أهلها شهر، فلم يذكرها زوجها ولا ألم بها، فأتى إليه أخوها،

وقال يا فيروز: إما أن تخبرنا بسبب غضبك، وإما أن تحاكمنا إلى الملك، فقال: إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها على حقاً، فطليوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إنى أجرت هذا الغلام بستاناً سالم الحيطان بيتر ماء معين عامرة، وأشجار مشجرة، فأكل ثمره، وهدم حيطاته، وأخرب بثره، فالتفت القاضي إلى فيروز، وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان، فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان؟ قال: نعم، ولكن أريد منه السبب لرده. قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيها، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخشيت أن يقتلني، فحمرمت دخول البستان إكراماً للأسد، قال: وكان الملك متكباً فاسترى جالساً، وقال: يا فيروز ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه روقاً، ولا ثمر ولا شيئاً، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، والله ما رأيت مثلاً بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجرة، قال: فرجع فيروز إلى داره، ورد زوجته، ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك والله أعلم.

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المشتري من أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعارض منطوية عن الكذب. كما روى في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدرأ، فلقبهم رجل من العرب فقال: من القوم؟ فقال له النبي ﷺ: من ماء. أخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته، وكان قصده أن يكتم أمره وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله: فإن الله عز وجل قال: ﴿فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ [الطارق: ٦٥]. وكما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار: هو رجل يهديني السبيل، وقد صدق فيما قال رضى الله عنه فقد هداه الله وهذان السبيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكى عن الإمام الشافعي ^(١) رضى الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن؟ فقال الشافعي: إياي تعني، قال: نعم. قال: مخلوق، فرضي خصمه منه بذلك، ولم يرد الشافعي إلا نفسه. وكما حكى عن ابن الجوزي ^(٢) رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر ومعه جماعة من ممالك الخليفة وأخاصته، وهم فريقان قوم سنية وقوم شيعية، فقبل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم علي رضي الله عنهما، فقال: أفضلهما بعده من كانت ابنته تحت، فأرضى الفريقين ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه، وهي عائشة رضي الله عنها، وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعية ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها، وكانت تحت علي رضي الله عنه، فهذه منه جيلة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وستة، والله أعلم.

الفصل الثالث: ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبيّاً، فلست أصغر من هدهد سليمان ولا أت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثم قال: أليس تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالأكبر لكان داود أولى.

ولما أنقضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز، فنظر إلى صبي صغير السن، وقد

(١) الشافعي: هو محمد بن إدريس، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية ولد بغزة بقلنسوة سنة (١٥٠هـ) وحمل منها إلى مكة وهو ابن ستين، ودار بفداء مرتين، قال ابن خلدون: كان الشافعي أشعر الناس وأدبهم وأصرفهم بالفقهاء والقرادات وقال أحمد بن حنبل: ما أحد من يديه محبرة أو أرواق إلا وللشافعي في رقبته منة. قصد مصر سنة (١٩٩هـ) وتوفي بها سنة (٢٠٤هـ - ٢٠٨هـ).

(٢) ابن الجوزي: هو عبد الرحمن بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علامة عصره في التاريخ والحديث، كبير التصانيف له: «الآذكار» و«تأريخهم» و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» وغيرها توفي في بغداد سنة (٥٩٧هـ - ٦٢٠هـ).

أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هن أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت، فتكلم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد محمد الله الذي من علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة، فقد أمانا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمانا جورك بعذلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضى الله عنه: عظمي يا غلام. فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه، فتزل قدمك وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]. فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأثددهم عمر رضى الله تعالى عنه:

تعلَّم فليس المرءُ يولد عسلاً وليس أخو علم كمن هو جاهلٌ
فإن كسبِير القسوم لا علم عنده صغِير إذا التفت عليه المحافل

وحكى أن البداية قد حطت أيام هشام^(١)، فقدمت عليه العرب، فهاجروا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل على إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرأ وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأجابه كلامه، وقال له: أنشره لله درك، فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث سنة أذابت الشحم وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تجبونها عنهم، وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر لليوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسى دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجل القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغري على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجثة، فالتصمت عيه وتقصه، فقال مهلاً أيها الملك إن الرجال ليسوا بمعظم أجسامهم، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجسوا نائله إني لمن معشر شمر السرى زهر
فلا تغرنك الأجسام إن لنا أحلام عباد وإن كنا إلى قصير
فكم طويل إذا أبصرت جثثته تقسول هذا غداة الورع ذو ظفر
فإن ألم به أمر فافظعه رأيته خاذلاً بالاهل والزمر

فقال: صدقت، فهل لك علم بالأحور، قال: إني لأتقى منها المقتول، وأبرم منها المحلول، وأجبلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تؤول، وليس للذعر بصاحب من لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة وقال له: يا سعد إن أقممت واسيتك، وإن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إلي من الدنيا وما فيها، فأقم عليه وأثناءه، وجعله من أخص ندمائه.

وحكى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه يسأله عن الشيء ولا شيء، وعن دين لا

(١) هشام: هو هشام بن عبد الملك بن مروان، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق سنة (٧١هـ) وبيع فيها بعد وفاة أخيه يزيد سنة (١٠٥هـ) وكان حسن السيادة، يخطأ في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، توفي سنة (١٢٥هـ - ٧٣٤م).

يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء، وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظان طعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد ويعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحو الذي في القصر. فليل معاوية لست هناك ومضى أخطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فاكسب إلى ابن عباس بخيرك عن هذه المسائل. فكتب إليه فأجابها، أما الشيء فلما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وأما الشيء فإنها الدنيا تبيد وتفسد، وأما دين لا يقبل الله غيره، فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء فسيحان الله وبحمده، وأما الأربعة الذين فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأدم وحواء وناقص صالح وكيش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا أب له فالسليح، وأما الرجل الذي لا أم له، فأدم عليه السلام، وأما القبر الذي جرى بصاحبه، فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر. وأما قوس قزح فاسمان من الله لعباده من العرق، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فبطن البحر حين انفلق لبني إسرائيل، وأما الظان الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجيل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله تعالى بجناحين، فتأدى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم، فآخذوا التوراة معترين، فرده الله تعالى إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّصْنَا الْجَبَلَ قُرَيْشًا كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأما الشجرة التي تبتت من ماء، فشجرة الزيتون التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي يتنفس بلا روح، فالصبح. قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. وأما اليوم فعمل وأمس فمثل، وغد فأجل، ويعد غد فأمل، وأما البرق بمخاريق يأبدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد، فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القصر، فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ لِمَعْرِفَاتٍ لِّلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]. ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له، فقال: نعم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحسبه.

وحكى أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القيعري عن مسائل يتحنه فيها من جعلتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقههم في الدين وأصدقهم للدين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للمهاتين، وأطعمهم للمساكين. قال: فمن الآم الناس؟ قال: المظني على الهوان، المقتدر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صيرة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضرهم بال سيف، وأقراهم لل سيف، وأزكهم للحيف. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف المتقبض عن الزخوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: الشغيف في اللام، الضنين بالسلام، المذمار في الكلام، المقيب^(١) على الطعام. قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً وأقومهم سبأاً، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً. قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسب هو أم غير حبيب؟ قال: أصليح الله الأمير إن الرجل الحبيب يذكرك أدبه وعقله وشماله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشاشته وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله، والنذل الجاهل بجعله، فمثل كمثل الدرة إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها، وإذا نظر إليها العلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج: لله أبوك، فما العاقل والجاهل؟ قال: أصليح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هزراً، ولا ينظر شراً، ولا يضر غمراً، ولا يطلب غمراً، والجاهل هو المهزأ في كلامه، اللذان يطعمهما، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه، قال: لله أبوك، فما الحرام الكيس؟ قال: القبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بأرائه الملتصق إلى ورائه،

(١) وهو الجالس على الطعام كأنه تبة.

قال: هل عندك من النساء خير؟ قال: أصح الله الأمير إلى بشأنهن خير إن شاء الله تعالى. إن النساء من أمهات الأولاد بمنزلة الإصلاح إن عدلتهن انكسرت، ولهن جوهر لا يصلح إلا على المذاراة، فمن دارهن انتفع بهن وقرت عينه، ومن شاورهن كدرن عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنقصت لذاته، فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحباهن العفة، فإذا رزن عنها فهن أنثى من الجيفة، فقال له الحجاج^(١): يا غفلان إلى موجهك إلى ابن الأشعث^(٢) وأفد، فماذا أتت قاتل له؟ قال: أصح الله الأمير أقول ما يريده ويؤيده ويضنيه، فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصرى هذا، قال: كلا أصح الله الأمير سأحدد له لسانى، وأجره في ميدانى، قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان، فلما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه أى جاسوساً، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث قال له: إن الحجاج قد هم بخلعك وعزلك، فخذ حيلك، وتغذ به قبل أن يتعشى بك فأخذ حذر عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنوية، وخلع فاخرة، فأخضعها وانصرف راجعاً، فأتى إلى أرملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرضاء، فضرب قبة فيها، وحط عن رواحله فينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر وحملت الغزاة وقت الظهيرة، وقد ظمى ظمأ شديداً، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة ودعها فريضة قد فار قائلها وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابى؟ قال: أصابتنى الرضاء وشدة الحر والظمأ، فيمت قبتك أرجو بركتها، قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أيتها تعنى؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث. قال: تلك لا يوصل إليها. قال: إن هذه أمتع منها، فقال الأعرابى: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: أخذ، فقال: وما تعطى؟ قال: أكره أن يكون لى اسمان. قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض. قال: فأين تريد؟ قال: أمشى في مناكيبها. فقال الأعرابى وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أتقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفأر. فقال: أقتسج؟ قال: إنما تسجج الحمامة، فقال: يا هذا أذن لى أن أدخل قبتك. قال: خلفك أوسع لك. فقال: قد أحرقنى حر الشمس، قال: ما لى عليها من سلطان، فقال: الرضاء أحرقت قدمى، قال: بل عليها تبرد، فقال: إني لا أريد طعامك، ولا شرايك، قال: لا تنترس لما لا تصل إليه، ولو تلفت روحك، فقال الأعرابى: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك، فقال الأعرابى: ما عندك غير هذا؟ قال: بلى. هراوة أضرب بها رأسك، فاستغاث الأعرابى يا جابر بنى كعب. قال الغضبان: بش الشيخ أنت، فوالله ما ظلمك أحد فتستغث، فقال الأعرابى: ما رأيت رجلاً أقسى منك أيتك مستغثاً فحجبتنى وطردتنى، هلا أدخلتنى قبتك وطارحتنى القريض؟ قال: ما لى بمحادثتك من حاجة، فقال الأعرابى: بالله ما اسمك، ومن أنت؟ فقال: الغضبان بن القبيصرى. فقال: اسمان منكرا خلقا من غضب. قال: قف متركناً على باب قبتى برجلك هذه العرجاء، فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء، قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت فى حكومتك لأن رجلى فى الظل قاعدة ورجلك فى الرضاء قائمة، فقال الأعرابى: إني لأظنك حروياً. قال: اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويبرهه، فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرنى على إصلاحه، فقال الأعرابى: لا أرضاك الله ولا حيأك ثم ولى، وهو يقول:

لا بارك الله فى قوم سوءهم
أيت قبتك أرجو ضيافته
إنى أظنك والرحمن شيطاناً
فأظهر الشيخ ذو القرنين حوماناً

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابى قال له الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصح الله الأمير أرض يابسة الجيش، بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا، فقال له الحجاج: ألت صاحب الكلمة التى بلغتنى أنك قلت لابن الأشعث تغذ بالحجاج قبل أن يتعشى

(١) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى، أبو محمد، قائد، داعية، سفك للدعاء، خطيب ولد ونشأ فى الحجاز سنة (٤٠هـ)، وانتقل إلى الشام فلقق بنائب عبد الملك بن مروان، ثم ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليها العراق ولشيرة قائمة فيها، قمع الثورة، وبنت له الإمارة، وقال بعضهم: ما رزى مثل الحجاج لبطاعته ولا مثله لى عصاه، توفي سنة (٩٥هـ - ٧١٤م).

(٢) ابن الأشعث: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى، أمير من القادة الشجعان الدعاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج، وتم له سجستان وكرمان والبصرة وفارس، توفي سنة (٨٥هـ - ٧٠٤م).

بك، فوالله لأحبسك عن الوساد، ولأنزلك عن الجياد، ولأشهرك في البلاد، قال: الأمان أيها الأمير، فوالله ما ضرت من قبلت فيه ولا نفعت من قبلت له، فقال له: ألم أقل لك كأي بصوت جلاجلك تجلجل في قصرى هذا، انهبوا به إلى السجن، فغلبوا به، فقيد وسجن، فمكث ماشاء الله، ثم إن الحجاج ابنتي اختصاء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قتي هذه وبناها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة، نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها، قال: لم لم تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان، فبعث إلى الغضبان، فأحضره، وقال له: كيف ترى قتي هذه وبناها؟ قال: أصلح الله الأمير بنتها في غير بلدك لا لك ولا لولدك لاتدم لك، ولا يسكنها وارثك، ولا تبقى لك، وما أنت لها بياق، فقال الحجاج: قد صدق الغضبان رده إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ [الزخرف: ١٣] فقال: أنزلوه، فلما أنزلوه قال: ﴿رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ [المؤمنون: ٢٩] فقال: اضربوا به الأرض، فلما ضربوا به الأرض قال: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥] فقال: جروه، فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿يسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾ [هود: ٤١] فقال الحجاج: ويلكم تركوه فقد غلبني دهاء وخيأ، ثم عفا عنه، وأتمم عليه، وخلق سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أخذت، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك وغصن من أغصان دوختك، أتأذن له في الكلام، فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمتع الله لحياة ديننا وديننا، ورعاية أدياننا وأقصادنا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسال الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يريك الأذى بأسامعنا وبأبصارنا، فإن الحق لا تنفوق آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده يا أمير المؤمنين. هذا المقام مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعذلك من تعادى النوائب وسهام المصائب وكَلَب الدهر، وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آياته الطيبين، وتوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد تمت مقامى هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين وبالشريفة خيرة الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مرفلاً^(١) إليك بالطاعة التي أقرع عليها غصنى واحتكت بها سنن، ورش بها جناحي، متوفداً من شمساة الأعداء وحلول البلاد، ومقارفة الشدة بعد الرخاء يا أمير المؤمنين قد مضى جسدك المنصور وعمك صالح بن على جدى وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وعرفه، وقد أثبت الله الحق في نصابه، وأقرهم في داره وأربابه، يا أمير المؤمنين إن الدهر ذو اغتيال، وقد يقلب حالاً بعد حال، فأرحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار والعجائز الكبار الذين مقامهم الدهر كدراً بعد صفو، ومرأ بعد حلو، وهبنا نعم آياتك اللآلى غدتنا صغراً وكباراً وشباباً وأشباحاً وأمشاجاً في الأصبال، ونطقاً فى الأرحام، وقدعنا فى القرابة حيث قدعنا الله منك فى الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنت لعطاعتك، فأقلنا عثرتنا يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك العور وجل بك الدجور^(٢) وملا من غورك القلوب والصدور، بك يردع الفاسق ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عنك بالعفو والإحسان فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنب عاثر. وقد قال الله جل ثناؤه، وتعالى قدرته: ﴿وليعفوا وليعفووا ألا يحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ [النور: ٢٢] أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافى ومنعه الكافى ثم أشد يقول:

لهم قُـرُوبى وليس لهم تـلـاد
وأنت الراس تتبعك العبيـاد
وأرجـو أن يطيب بك المعـاد
وكيف يقلل سـودك البـلاد

أـمـير المؤمنين أشك ركبـاً
هم الصـلـر المقـدم من قـريش
لقد طابت بك الدنيا ولذت
فكيف تنالكم لحظات عـين

(٢) النجور: الظلمة.

(١) مرفلاً: مغزياً.

قال: فاستحسن المأمون كلامه وأمر له بالخلل الفاسخة والجوازئ السنية، وأمر برد ضياعه وقرب منزله وأذناه، ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادير البلغاء ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل سارته، فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بنه وله على ما يتناه، فقام إليه سويد بن غفلة، فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين، قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين. أنف يطن ترقة ثغر جصجمة حلق خد دماغ ذكر رقة رند ساق شفة صدر ضلع طحال ظهر عين غيب قم قفا كف لسان منخر نغترغ هامة، وجه يد، وهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين، فقام بعض أصحاب عبد الملك، وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: اسمعت ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً، فقال: هات ولك ما تتناه، فابتدأ يقول: أنف أمتان أذن، بطن بنصر بزة، ترقة قرة تينة، ثغر ثابيا ثدى، جصجمة جنب جبهة، حلق حنك حاجب، خد خنصر خاصرة، دير دماغ درادير، ذقن ذكر ذراع، رقة رأس ركبة، رند زردمة رب، فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه، ساق مسرة سبابة، شفة شفر شارب، صدر صدع صلعة، ضلع صغيرة ضرس، طحال طرة طرف: ظهر ظفر ظلم، عين عتق عاتق، غيب غلصمة غنة، قم فك فؤاد، قلب قفا قدم، كف كتف كعب، لسان لحية لوح، منخر مرقف منكب، نغترغ ناب نن، هامة هيئة عيف، وجه وجنة ورك، يمين يسار يافوخ. ثم نهض مسرعاً فعبأ الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعتدها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تزيدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتناه، ثم أجازته وأتمع عليه، وبالحق في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء، وكان على عتوه وإصراره جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك الاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خزان، وكان يطوف على الموائد ويقول: يا أهل الشام مزقوا الحبز لئلا يعود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال، وذلك في كل يوم وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فقيل له: إنهم يكرعون الحضور قبيل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشس إذا طلعت وعند المساء إذا غربت.

حكى عن عبد الملك بن عمير أنه قال: لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده، وقال: أيها الناس، إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملولح عذبتها، وعظم خطيئها، وظهر ضرامها، وعسر إخماد نيرانها فهل من مهدي لهم سيف قاطع، وذهن جامع، وقلب ذكي، وأنف حمى، فيخمد نيرانها، ويودع غيلانها، ويصف مظلومها، ويأدو الجرح حتى يتدمل فتصفو البلاد، وتأمين العباد، فسكت القوم، ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج فقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق: قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزبر الهشام، أنا الحجاج بن يوسف. قال: ومن أين؟ قال: من ثقيف كهوف الضيوف ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك، فلت هناك. ثم قال: ما لي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة، فلم يجبه أحد، فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجتدل الفساق، ومطفئ نار التفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف معدن العفو والعقوبة، آفة الكفر والرياسة، قال إليك عني، وذاك فلت هناك، ثم قال: من للعراق؟ فسكت القوم، وقام الحجاج وقال: أنا للعراق، فقال: إذن أظنك صاحبها والظافر يثاقبها وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما أيتك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والافتقار والبسط، والاورار والإدناء، والإبعاد والجفاء، والبر والتأهب، والحزم وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعتة، ومن نازعتني قصته، ومن خالفني نزعت، ومن دنا مني أكرمت، ومن طلب الأمان أعطيت، ومن سارح إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي وما عليك يا أمير المؤمنين أن تولوني فإن كنت للأعتاق قطعاً، وللأموال جمعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفعاً، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل، فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال، فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيء له من الجند شهوة والزمهم طاعة، وحذرهم مخالفة، ثم دعا الخازن، فأمره بمثل ذلك، فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق قال عبد الملك بن عمير: فينبأ

نحن في المسجد الجامع بالكوفة إذ أتانا أت فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق، فتناولت الاعناق نحوه وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه عمامة حمراء مثلاً بها، ثم صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذور حالة حسنة و هيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الحز والدبياج قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: اكفف حتى نسعم ما يقول، فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بنى أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها، فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء، والحجاج ساكت ينظر بينماً وشمالاً، فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم، فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير، فكشف عن لثامه، ونهض قائماً فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رموماً أبنت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء تفرق بين العمامم واللحي، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نشر كنانة بين يديه فجعم عيدياتها، فوجدني أسرها عوداً، وأصلبها مكرراً، فرماكم بي لأنكم ظلمنا أترتم الفتنة، واضطجعت في مرافد الضلال، والله لأنكن بكم في البلاد، ولاجلتكم مثلاً في كل واد، ولاضربكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أجد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فإبى وهذه الزرافات والجماعات، وقيل: وقال وكان ويكون، يا أهل العراق: إنما أنتم أهل قرية كانت أمنة مطمئة بأئبيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فاتاهما وعيد القرى من ربها، فاستوثقوا واستقيموا، واعملوا ولافعلوا، وتابوا، وباهوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني إلا الإهدار والإكثار إنما هو هذا السيف، ثم لاينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمرير المؤمنين صعيكم، ويقم له أودكم ثم إني وجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم، وأمرني أن أتفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة^(١)، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضريت عنقه، يا غلام: اقرأ كتاب أمير المؤمنين، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم، فلم يرد أحد شيئاً، فقال الحجاج: اكفف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه؟ هذا أديبكم الذي تأديبتم به، أما والله لأؤديبكم أدباً غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام، فقرأ حتى بلغ قوله: سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعدما فرغ من خطبته وقراءته، ووضع للناس عطاياهم، فجمعوا يأخذونها حتى أتاه شيخ برعش، فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولبي ابن هو أموي منى على الأسفار، أفتقبله بديلاً مني؟ فقال: نقبله أيها الشيخ، فلما ولي قال له قاتل: أئندرى من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابئ الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكدت وليستني تركت على عثمان تبكي حلالته

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضى الله عنه وهو مقتول، فوطئ في بطنه، ففكر ضلعين من أضلعه، فقال الحجاج: ردوه فلما ردوه قال له الحجاج: أت القاتل يا أمير المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين. يا سيف اضرب عنقه، فضرب عنقه، وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر.

ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف في قتل أمري دير الجماجم، وأعطى الأموال، بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فشق عليه، وكتب إليه، أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء، وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود، وفي الأموال أن تردّها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى، ونحن أمانة، فإن كنت أردت الناس لي فما أغفاني عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغفانيك عنهم، وسيأتيك عنى أمران: لين وشدة، فلا يؤمنك إلا الطاعة، ولا يوحشك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله

(١) المهلب: هو المهلب بن أبي صفرة ظالم من سراق الأودي المكنى، أبو سعيد، أمير بجليش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق، ولا عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، توفي سنة (٨٣هـ - ٧٠٢م).

عَزَّ وَجَلَّ الظفر، فلا تقتلن جانعا، ولا أسيراً، وكتب في أسفل الكتاب:

وَتَطْلُبُ رَضِيَانِي بِالَّذِي أَنَا طَالِبُكَ	إِذَا أَنْتَ لَمْ تَتْرَكْ أُمُوراً كَرِهْتَهَا
فِيَا رِمَا قَدْ غَضَّ بِمَا لَمْ تُسَارِبْهُ	فَلَنْ تَرَى مَتَى غَضْلُكَ قَرَشِيَّةً
فَهَذَا وَهَذَا كُلُّ ذَا أَنَا صَاحِبُهُ	وَأَنْ تَرَى مَتَى وَثْبِيَّةً أَمُورِيَّةً
فَلَيْتَكَ لِمَجْزَى بِالَّذِي أَنْتَ كَاسِبُهُ	فَلَا تَأْمَنْتِ وَالْحِسَادُ تُجَمِّعُ
يَقْضِيَنَّ بِهِ يَوْمَماً عَلَيْكَ نَوَادِبَهُ	فَلَا تَعْدُ مَا يَأْتِيكَ حَقّاً عِلْمَتَهُ
وَلَا تَعْطِينَ مَا لَيْسَ لِلنَّاسِ وَاجِبُهُ	فَلَا تَعْمَلَنَّ النَّاسَ حَقّاً عِلْمَتَهُ
التَّوَافُلُ شَيْءٌ لَا يُمِشِيكَ وَاهِبُهُ	فَلَيْتَكَ إِنْ تَعْطَى الْحَقُوقَ فَلَيْتَمَا

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد، فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرائي وتبديري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلى المعصاة إسرافاً وأعطاني المطيعين تزييراً، فليعض لي أمير المؤمنين ما سلف والله ما أصبت القوم خطأ فأودهم ولا ظلمتهم عمداً فأقاديهم ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وكتب في أسفل الكتاب:

إِذَا أَنَا لَا أَبْقَى رَضِيَانَكَ وَأَتَقَى	أَذَاكَ فَلَيْلَى لَا تَوَارَى كَوَاكِبُهُ
وَمَا لَأَمْرِي بِعَدِ الْخَلِيفَةِ جَنَّةً	تَقِيهِ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ رَاكِبُهُ
إِذَا قَارَفَ الْحِجَاجُ فِيكَ خَطِيئَةً	لَقَامَتْ عَلَيْهِ بِالصَّبَاحِ نَوَادِبُهُ
فَلِإِذَا لَمْ أَكُنْ أَدْنُ الشَّفِيقِ لِنَصَحِهِ	وَأَقْصَى الَّذِي تَسْرَى إِلَى عَقَابِهِ
وَأَعْطِ الْمَوَاسِي فِي الْبِلَاءِ عَطِيَّةً	لِرَدِّ الَّذِي ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ
فَمَنْ يَتَقَى بُوْسَى وَيَرْجُو مَوْدَتِي	وَيَخْشَى غِلْدَ الْوَدَّهِ جَمَّ نَوَائِبِهِ
وَأَمْرِي إِلَيْكَ الْيَوْمَ مَا قَلْتُ قَلْنَهُ	وَمَا لَمْ تَقُلْ لَمْ أَقُلْ مَا يَقَارِبُهُ
وَمَهْمَا أَرَدْتُ الْيَوْمَ مَتَى أَرَدْتَهُ	وَمَا لَمْ تَرُدْهُ الْيَوْمَ إِنْ مَجَانِبُهُ
وَقَفَّ بِي عَلَى حِدِّ الرُّضَا لَا أَجُورُهُ	مَدَى الدَّعْرِ حَتَّى يَرْجِعَ الدَّرَّ حَالِبُهُ
وَأَنَا مُدْعَعِي وَالْأُمُورَ فَبَلَّاتُنِي	شَفِيقٌ وَفَاقٌ أَحْكَمْتَهُ تَحْمَارُهُ

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فمن يلومني على محبته، يا غلام اكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك.

وفي مروج الذهب للمسعودي: أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام، ولدت مشوهاً لادبر له، فثقب له دبر وأبى أن يقبل الثدي وأحباهم أمره، فيقال: إن الشيطان تصور له في صورة الحرث بن كلدة^(١) حكيم العرب، فسألهم عن ذلك، فأخبره مخبر من أهله، فقال لهم: اذهبوا له تيساً والعمقه دمه، وأولغوه فيه، ثم اطلوا به وجهه، ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصير عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء وإرتكاب أمور لا يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحرث بن كلدة، فدخل عليها يوماً في السحر، فوجدتها تخلل أسنانها

(١) الحرث بن كلدة: هو الحرث بن كلدة الثقفي، طيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين من أهل الطائف، رحل إلى بلاد فارس رحلتين فأخذ الطب عن أهلها، واختلقوا في إسلامه، وكان النبي ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيطيب عنده، له كلام في الحكمة، وكتاب «محاوره في الطب» توفي سنة (٦٧٠ هـ - نحو ٦٧٠ م).

فطلبها، فسأته لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغذاء فأنت شرعة، وإن كان بقايا طعام فيك، فأنت قلزة، فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شغلاي السواك، فقال: قضى الأمر، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج. وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات وله ثلاث وخمسون سنة، وكان من صف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل على ما لا يبلغه وصف، أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله في حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع، ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبس سقف يستر الناس من الحر والبرد، وقيل للشعبي^(١)، أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت، وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم، وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم وما أعان الله تعالى عليه واستحضرته من أخبارهم، وأنا قائل إن شاء الله تعالى ما استحضرته من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى عن أبي عبد الله النعمري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فينما هو سائر إذا لاحت له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء من الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية الغد، قاعدة الهند، كأنها القمر ليلة تمامه، ويدها قرية قد ملأتها وحملتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر فاحتل وكالها فصاحت برقيق صوتها: يا أبت أدرك فأما قد غلبني فوها لا طاقة لي بفسحها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القرية من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب، قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرؤون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم. قال لها: أنا من مضر الحمراء، قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حبساً، وخيرها أمّاً وأباً، وعن نهابة مضر كلها قالت: أظنك من كنانة، قال: أنا من كنانة، قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات بدءاً، ممن نهابة كنانة وتخافه، فقالت: إذن أنت من قريش، قال: أنا من قريش، قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن نهابة قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم، قالت: من أي هاشم؟ قال: من أصلها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن نهابة هاشم وتخافه، فعند ذلك قبلت الأرض، وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاحت المساكير، فنزل هناك، وأنفذ خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها وأخذها وعاد مسروراً، وهي والدة ولده العباس والله أعلم.

وحكى أن هند بنت النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليها يخطبها، وبذل لها مالا جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلدة أبيها المعرة وكانت هند فصيحة أدبية، فأقام بها الحجاج بالمرعة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فاقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة تقول:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفسراس تحملها بخل
فإن ولدت فحلاً فلله دهرها وإن ولدت بخلًا فسيجاء به البخل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج طلاقها، فسألت إليها عبد الله بن طاهر، وأتخذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلتيتي، ولا تزد

(١) تقدمت ترجمته.

عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبت، وهذه المئات ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: أعلم يا ابن طاهر: أنا والله كنا فما حملنا، وينا فما ندنا، وهذه المئات ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقف، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها وروصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه أعلم يا أمير المؤمنين، أن الإناء ولغ فيه الكلب فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها، وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليخله سعياً إحداهن بالتراب، فاغلى الإناء يحل الاستعمال، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه، يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملى من المرة إلى بلدك التي أتت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحلته التي كان فيها أولاً، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأتخذ إلى الحجاج وأمره بذلك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب وامتثل الأمر ولم يخالف، وأتخذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت، ورسا الحجاج فى موكبه حتى وصل المرة بلد هند، فركبت هند فى محمل الزفاف، وركب حولها جوارها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء داتها، ثم إنها قالت للهيفاء: ياداية اكشفى لى سيف المحمل، فكشفت، فوقع وجهها فى وجه الحجاج، فضحكت عليه، فأثأ يقول:

فإن تضحكى منى فميا طول ليلة
فأجابته هند تقول:

ومما نبالى إذا أرواحنا سلمت
فالمال مكسبٌ والعز مرجعٌ
بما فقدناه من مالٍ ومن نسب
إذا النفوس وقهاها الله من العطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلمع إلى أن قريت من بلد الخليفة، فرمت ببنار إلى الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم، فزارعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض، فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فعرضنا الله ديناراً، فدخل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان، فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت فى بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصر على القليل منه إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل: إن جارية عرضت على الرشيد ليشترها، فتأملها وقال لمولاه: خذ جاريك، فلولا كلف بوجهها وخس بائنها لاشتريتها، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول، فقال: قولى، فأثأ تقول:

ما سلم الظبى على حسنه
الظبى فسميه خنس بينٌ
كلا ولا البسدر الذى يوصفُ
والبسدر فسيه كلفٌ يعرفُ

قال: فمعجب من فصاحتها وأمر بشرائها. وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة الجمال فائقة فى الكمال، غير أنها كانت ترجع برجلها، فقال لمولاه، خذ بيدها وارجع، فلولا عرج بها لاشتريتها فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين إنه فى وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

ومن فلک ما حکى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب، فعبير يوماً تحت جوسق بستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها، فلما نظر إليها دخل عقله، وطار له، فصاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عصور كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء. وكتب إليها رقعة يعرض إليها الزيارة فى جوسقها، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع المعجوز عنبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وريطت ذلك على منديل، وقالت للمعجوز: هذا جواب رقعتي، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه، وتغير فى أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباهما متحيراً فى ذلك قالت: يا أبت أنا علمت معناه قال: وما هو له ذلك؟ قالت:

أهدت لك العنبرَ في جوفه
فأنزرت والعنبر معناهما
رُز من التبرير خفي اللحام
رُز هكذا مختلفاً في الظلام

قال: فمحب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها.

وحكى أن طائفة من بني قيس كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة، فناداها شخص منهم وأراد أو يوقعها فيمّا ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال: لأي شيء يا بني ما تميم تكتنون؟ فقلت: ولم لا تكتنن وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال أقبل إن شاء الله، فخلعت من قوله وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها، فقلت له: هل تحب شيئاً من العروض؟ قال: نعم. قالت قطع لي:

حولوا عنا كـنـيـمـنـكم يا بني حـمـالة الحطب

فقطعه، فوقف على عن ثم ابتدا بالنون والالف مع بقية الحروف فضحكت عليه، وأضحكت أصحابه، فقال: ربحك لم تبرحى حتى أخذت بشارك.

وحكى أن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له ياهذا: أنا أعلم أن المنيّة قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت تكتنن امض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البستان إن أباكما، فقال: ممعاً وطاعة، ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره، ووقف بالباب وقال: ألا أيها البستان إن أباكما. وكان للشاعر إبتان فلما سمعنا قول الرجل: ألا أيها البستان إن أباكما. أجابنا بقم واحد: قتيل خذا بالثار عن أتاكما ثم تعلقنا بالرجل، ورفعناه إلى الحاكم فاستقره فأقر بقتله فقتله، والله أعلم.

وقيل: بينما كثير عزة^(١) مار بالطريق يوماً إذا هو بمعجوز عيابه على قارعة الطريق قمى، فقال لها تنحى عن الطريق، فقلت له: ويحك ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة. قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له عن الطريق، قال: ولم؟ قالت: ألت القاتل:

وما روضة بالحسن طيبة الشرى
بأطيب من أردان عصرة موهناً
يمج السدى جئججاءها وعرارها
إذا أوقدت بالجمر اللدن نارها

ويحك ياهذا! لو تبخر بالجمر اللدن مثلى ومثل أمك لطاب ريحها، لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:

وكننت إذا ما جئت بالليل طارقاً
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فقطعته ولم يرد جواباً. وقيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج، فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقلت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزيارتك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبى؟ قالت: فرعون استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا: أرجه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج، فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه، فقيل لها: الأمير يكلمك، وأنت لا تنظرين إليه، فقلت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزي^(٢) في كتابه المظم في مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقاء أرواح النبيّ خمسائة درهم، وأن فاطمة رضى الله عنها كان صداقها على أبى طالب كرم الله وجهه أربعمئة درهم، فإدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن لا يزيد على صداق البضعة النبوية فاطمة رضى الله عنها، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهوور النساء على أربعمئة درهم، فمن راد القيت زيادته في بيت مال المسلمين، فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة فى يدها طول،

(١) كثير عزة: هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الغزاهي، أبو صخر، شاعر مقيم مشهور من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، وفى المؤرخين من يذكر أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، وكان عفيفاً فى حبه لعزة بنت حميل وأكثر لبها التفزل حتى سمي بها، له: «ديوان شعر» توفي بالمدينة سنة (١٠٥هـ - ٧٢٢م).

(٢) تقدمت ترجمته.

فقلت له: كيف يحل لك هذا، والله تعالى يقول: ﴿وَأْتِمِزْ إِحْلَاهُنْ قَطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠] فقال عمر رضى الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل: جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل، فقال لها: نَعَمْ الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً، فقال: يا أمير المؤمنين: إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباحته إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها احكم بينهما، فقال كعب: علىّ بزوجه، فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك، قال: أفى أمر طعام أم شراب؟ قال: بل في أمر مباحته إياها عن فراشك، فأنشدت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيمُ أنشدته الهى خليلي عن فراشى مسجده
نهـاره وليله لا يرقـده فلتُ فى أمر النساء أحمدـه
فأنشأ الزوج يقول:

وهذنى فى فراشها وفى الحبل أتى امرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النمل وفى السبع الطوك وفى كتاب الله تخـوف يجل
فقال له القاضي:

إن لها عليك حقاً لم يزل فى أربع نصيبها لمن عفل

فما طها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ولها يوم وليلة، فقال عمر رضى الله عنه: لا أدرى من أيكم أعجب أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟ أذهب فقد وليتك البصرة.

(حكاية التكملة بالقرآن)

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجباً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا فى بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق، فتميزت ذلك، فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف، فقلت: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقلت: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [يس: ٥٨]، قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان؟ قالت: ﴿ومن يضل الله فلا هادى له﴾ [الأعراف: ١٨٦]، فعلمت أنها ضالة عن الطريق، فسئلت لها: أين تريدين؟ قالت: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء: ١]، فعلمت أنها قد قضت حجها، وهى تريد بيت المقدس، فقلت لها: أنت منذ كم فى هذا الموضع؟ قالت: ﴿ثلاث ليال سوياء﴾ [سريم: ١٠]، فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين؟ قالت: ﴿هو يطعمنى وسقين﴾ [الشعراء: ٧٩] فقلت: فبأى شيء تتوضئين؟ قالت: ﴿فإن لم نجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ [النساء: ٤٣]، فقلت لها: إن معى طعاماً، فهل لك فى الأكل؟ قالت: ﴿ثم اتموا الصيام إلى الليل﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقلت: ليس هذا شهر رمضان. قالت: ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقلت: قد أتبع لنا الإفطار فى السفر. قالت: ﴿وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [البقرة: ١٨٤]، فقلت: لم لا تكلمينى مثل ما أكلتك؟ قالت: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه وقيب عتيد﴾ [ق: ١٨]، فقلت: فمن أى الناس أنت؟ قالت: ﴿ولا تنفق ما لميل لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦] فقلت: قد أخطأت فأجعلينى فى حل، قالت: ﴿لا تثرىب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ [يوسف: ٩٢] فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة، قالت: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه

الله﴾ [البقرة: ١٩٧] قال: فأنخت ناقتي، قالت: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [النور: ٣٠] فغضت بصرى عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم﴾ [الشورى: ٣٠] فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: ﴿ففهمناها سليمان﴾ [الأنبياء: ٧٩] فعقلت الناقة وقلت لها: اركبي فلما ركبت قالت: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ٤٣] قال: فاعذت بزمام الناقة، وجعلت أسمى وأصيح فقالت: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك﴾ [القمان: ١٩] فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم الشعر، فقالت: ﴿فاقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: ٢٠] فقلت لها: لقد أوتيت خيراً كثيراً، قالت: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [البقرة: ٢٩٩] فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة: ١٠١] فسكت، ولم أكلمها حتى أدركت بها الغافلة، فقلت لها: هذه الغافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿فإنا والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦] فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ [النحل: ١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب، فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء: ١٢٥] ﴿وكلم موسى تكليماً﴾ [النساء: ١٤٦] ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ [مريم: ١٢] فنادت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلس قالت: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ [الكهف: ١٩] فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ [الحاقة: ٢٤] فقلت: الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها، فقالوا: هذه أمانا لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الجمعة: ٤] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل: إن معن بن زائدة^(١) دخل على المنصور، فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة^(٢) مائة ألف على قوله:

مــــــــــــــــــــعن بن زائدة الذي زادت به
فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً
فمنعت حوزته وكنت وقاهه
بالسيف دون خليفة الرحمن
من وقع كل مــــــــــــــــــــهند وسنان

فقال: أحسنت والله يا معن وأمر له بالجوازات والخلع. ووفد ابن أبي محجن على معاوية، فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه، فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمية
ولا تدفني في الفلاة فــــــــــــــــــــإني
تروى عظامي بعد موتي عروقها
أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها
وقال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالى وكثرته
أعطى الحسام غدة الروع حصته
وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض
ويعلم الناس أنى من ســــــــــــــــراتهم
وسائل الناس ما جودى وما خلقى
وعامل الرمح أرويه من العلق
وأكتم السر فيه ضربة العنق
إذا مــــــــــــــــما بصر الرعد يد بالفرق

فقال له معاوية: أحسنت والله يا ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثي، فقال له: أئت القاتل:

ومنا شــــــــــــــــيريد والبطين وقــــــــــــــــعناب
ومنا أمــــــــــــــــير المؤمنين شــــــــــــــــبيب

فقال: يا أمير المؤمنين إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك. فكان ذلك سبباً لنجاته.

ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً، فقال له معاوية: إنك لدميم والجحيل خير من الدميم وإنك لشريك ومعا لله من شريك، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير

(١) معن بن زائدة: هو معن بن عبد الله بن مطر الشيباني، أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك المصريين الأموي والعباسي، فلما صار الأمر إلى بني العباس طلبه المنصور فاستمر وتغلغل في البادية، ودافع عن المنصور دون الثوار من أهل حرسان ففنى عنه المنصور وأكرمه وجعله من خواصه وولاه اليمن ثم سجستان مات قتيلاً سنة (١٥١هـ - ٧٦٨م).

(٢) مروان: هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أمته يوم الدار، قيل كان طبيباً يهودياً فأسلم، وكان يدع المهدي والرشيده ومعن بن زائدة، وجمع من الجوازات والهبات ثروة عظيمة، وكان يقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية، توفي ببغداد سنة (١٨٢هـ - ٧٩٨م).

التي قاتلتك بها لئى أبدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيتك سمعاً وطاعة، فإن وفيت لنا وفيتنا لك، وإن نزعنا إلى غير ذلك فلنا تركنا وراينا رجلاً شداً، وأسنة حداداً، فقال معاوية، لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية، فقال له: قل معروفاً فإن شر الدعاء محيط بأهلك. وخطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنْ يَنْ شِيءَ إِلَّا عِدَّتْ خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] فعلام تلوموني إذا قصرت في عطاياكم فقال له الأحنف^(١): وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ولكن على ما أنزل الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلت بيتنا وبينه. وقيل دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان يغتر فراه أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وكان في الحمام فقمض عينيه فقال المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوماً متنزهاً فلما فرغ من نزحته صرف عنه أصحابه، وانفرد بنفسه، فإذا هو بشيخ من بنى عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية، قال: كيف ترون عمالك؟ قال: شر عمال، يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم، قال: فكيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولى العراق شر منه بقيه الله، وقبح من استعمله، قال: أتعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج، قال: جعلت فداك أو تعرف من أنا؟ قال: لا، فلان بن فلان مجنون بنى عجل أصرع في كل يوم مرتين، قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أصلح خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح. قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد.

وقالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعيم، وأما طيب فلا.

وقال ملك لوزيره: ما خير ما يزرعه العبد؟ قال: عقل يعيش به، قال: فإن عدمه، قال: أدب يتحلى به، قال: فإن عدمه؟ قال: مال يتره، قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد.

وتبأ رجل في زمن المنصور فقال له المنصور: أنت نبي سفة؟ فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة

ما ذكر أن إبراهيم^(٢) معنى الرشيد غنى يوماً بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلى بك، فأمر له بمائة ألف درهم. وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوي: وأنت النهر الذي يسقى منه البستان. وذبحت عائشة رضى الله تعالى عنها شاة وتصدق بها وأفضلت منها كسفاً، فقال لها النبي ﷺ: «ما عندك منها؟» فقالت: ما بقى منها إلا كسف، فقال: «كلها بقى إلا كسفاً»، وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيينة: كيف الحال؟ قال: أنت الحال. فانظر كيف أنت لنا، فأمر له بمال جزيل وأحسن صلته، وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون ليلة فخرج المأمون يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال: عمرو عمرك الله بن سعد أسعدك الله بن سالم سلمك الله قال: أنت تكلونا الليلة؟ قال: الله يكلونا يا أمير المؤمنين وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يمي مـكك ومن يضمر نفسه لينفـمك
ومن إذا رأيت الزمان صـدعك شئت فيك شمله ليجمـمك

(١) الأحنف: هو لقب لصاحب الترجمة، لحف في رجليه، أي اعرجاج، واختلفوا في اسمه فقيل: (الضحاك) وقيل (صخر) وهو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المزني السعدي المقرئ التميمي، أبو بحر، سيد تميم، وأحد العظماء الدعاة الفصحاء الشجعان الضاحكين يضرب به المثل في الحلم، وشهد الفتح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، وخطبه وكلماته مضرقة في كتب التاريخ والأدب والبلدان وهي حرة بالجميع توفي سنة (٧٢هـ - ٦٩١م).

(٢) إبراهيم الموصلي: هو إبراهيم الموصلي، رئيس المطربين، أبو إسحاق إبراهيم بن ماعان بن بهمن الفارسي الأصل، الأرجاني يرع في الأدب والشعر والموسيقى، واتصل بالخلق والبرامكة، وكان تدعى الصوت جداً توفي سنة (١٨٨هـ).

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار قال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت، وقال المتصم للفتح بن خاقان^(١) وهو صبي صغير: أرايت يا فتح أحسن من هذا الفص لفص كان في يده؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين: اليد التي هو فيها أحسن منه، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة. وقيل إن رجلاً سأل العباس رضى الله عنه: آئت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله، وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي: آئت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد وأنا ابن مرة، وقال المأمون للسيد بن أنس: آئت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس، وقال الحجاج للمهلب وهو عياشي: آئنا أطول أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة أراد الطول وهو الفضل. والأجوبة بهذه المعنى كثيرة لو تتبعناها لعجزت عنها ولكني اختصرت على هذا وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية.

(١) الفتح بن خاقان: هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوخ، أبو محمد، أديب شاعر، فصيح، كان في نهاية القضاة والذكاء، فارتضى الأصل من أبناء الملوك، تدخله التفركل العباسي أحياناً له، واستورده وجعل له إمارة الشام على أن يتيب عنه وله: «اختلاف الملوك» و«الصيد والجوارح» وقيل مع التفركل سنة (٢٤٧هـ ٨٦١م).

في ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرقاتهم

وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله وأتمم في سهل، يادرو الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأنني بالموت قد نزل، فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه، وبكاه جيوانه، وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي، فهو في التراب عفير، وإلى ما قلم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحداً يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء ما خلا زياد فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً.

وخطب على رضى الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، الموت معقود بنواصيكم، فالتجاء النجاء والوفا الوفا، فإن وراءكم طالباً حقيقاً وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه يوماً شيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْجِعَةٍ عَمَّا أَرْجَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٠]. ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه فيه نار تتسعر حرها شديد وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة، قال: فبكى المسلمون بكاء شديداً، ثم قال: ألا وإن وراء ذلك اليوم ﴿بِحَبَّةٍ عَرَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أدخلنا الله ولياكم دار النعيم، وأجارنا ولياكم من العذاب الأليم.

وخطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضى الله عنه خطب بالبرصة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم والأخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام. قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراعة، فقام رجل من الخطباء من عقرة يقال له يزيد بن المنقح فاخرط من سيفه شبراً ثم قال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك، فهذا وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

فصل

في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابتة الجعدي^(١) أربعين يوماً فلم ينطق بالشعر، ثم إن بني جملة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام الشعر، فذل له ما استصعب عليه، فقال له قومه: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالطرف بصدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟ وقال الخليل: الرجال الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاموا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده، وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرضت القريرى؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال: لا. فكتب إلى عبد الله أبا زياد بارك الله لك في ابنك فأروه الشعر، فقد وجدته كاملاً، وإنى سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، وبقي مساوئها، وتعلموا الانساب قرب رحم مجهولة قد وصفت بعريان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صيفين، فما ثبتني إلا قول القائل:

(١) النابتة الجعدي: هو قيس بن عبد الله بن عُلَيس بن ربيعة الجعدي المامري، أبو ليلى شاعر مطلق صحابي اشتهر في الجاهلية وسمى (النابتة)، وكان من هجر الأوثان، ونهى عن الحجر قبل ظهور الإسلام ووفد على النبي ﷺ توفي نحو سنة (٥٠هـ - ٦٧٠م).

أقول لها إذا جشأت وجشأت مكاتك تحمدي أو تستريحي

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر^(١)، كان يعمل الشعر على اللثة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك، فكان يختم القرآن كل يوم وليلة، وبذلك له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فقيل له في ذلك، فقال: خير مالك ما وقيت به عرضك. وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟ فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أشدت فيه شعرا، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القائل: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا» ولم ينطق به موزونا، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أشهد أنك رسول الله حقا وتلا قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي﴾ [يس: ٦٩].

ولتذكر نبذة من سركات الشعراء وسقطاتهم

فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها:

ومما المال والأخلاق إلا معارة فمما أسطعت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتها قصيدة طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لممرك ما الأيام إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطيب:

فما كان قيس هللكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدموا

أخذه من قول امرئ القيس

فلو أنها نفسى عموت شيرتها ولكنها نفس تاقط أنفاسا

ويقال من سوق شيئا واسترقه، فقد استحقه، وهو أن يرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن الرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الفوز لم يشن همه حصان عليها عقد دريزنها

أخذه من قول الحطيفة ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الفوز لم يشن همه حصان عليها لؤلؤ وشنوف

وجري على سعة تبخره وقدرته على غرر الشعر وإبتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قوم على قوم لكان لنا الخلود

(١) خلف الأحمر: هو خلف بن حيان، أبو محرر، المعروف بالأحمر، راوية، عالم بالأدب شاعر من أهل البصرة، كان أبواه موابين من فرغانة، ثم أعطاه، قال معمر بن النخعي: خلف معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة، وقال الأنثي: لم أترك أحدا أعلم بالشعر من خلف والأصمعي، له: «ديوان الشعر» و«جبال العرب» توفي في نحو سنة (١٨٠هـ-٧٩٦م).

من قول زهير^(١) وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النوان وهو:

فلو كان حميد يخلد المرء لم يمت ولكن حميد المرء غير مخلد

وقد قال الشماخ:

وأمر ترجى النفس ليس ينافع وآخر تخشى ضميره لا يضيئها

وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجى النفوس الشيء لا تعطيه وتخشى من الأثماء ما لا يضيئها

وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن من نور تفتح له الصبا بياض المطايا في سواد المطالب

أخذه من قول الأخطل:

رأيت بياضاً في سواد كانه بياض المطايا في سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء

ما قيل: إن أبا العتاهية^(٢) كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط، روى أنه لقي محمد بن مبادر بمكة، فمارحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فادخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية، فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

لقلت كثيرًا ولكني أقول:

ابن عبد الحميد يوم توفي هد ركنًا ما كان بالمهدود

ما درى نعرشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم، فكاد أبو العتاهية يموت غمًا وأسفًا. وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق، وبعض أهل اللغة يشهد بشعره ومع ذلك قال:

إنما عظمي سليمي حبيبتي قصب السكر لا عظم الحمل

وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

(١) زهير: هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية، ومن أئمة الأدب من يفضل على شعراء العرب كافة، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وابنته سلمى شاعرة، وابناء كعب وجبير شاعران، وابنته الحنساء شاعرة، وأشهر شعره معلقته، توفي سنة (١٢٣) هـ - ٦٠٩ م.

(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العبسي، العزري أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية، شاعر مكتر، سريع الخطار، في شعره إنباع، كان ينظم النثمة واللمعة والخمسين بيتاً في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل، توفي في بفسلد سنة (٧٢٥ هـ - ١٢٢٥ م).

هنا مع قوله:

إذا قامت لشبيها تئت كأن عظامها من خيزران
ومع قوله في الفخر:

كأن مشمار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل نهاري كواكبها
ومع قوله أيضاً:

إذا أتت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاريه

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور وأخذه بزم الكلام، وقوته على رقائق المعاني وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً

وغير شيء معناه المعلوم، والمعلوم لا يرى فهذا سقط فاحش. وما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع قوله:

تقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلائل عشر كلهن قلائل

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ ويرودة المعنى:

إن كان مشلك كان أو هو كائن فبرئت حيثئذ من الإسلام

ومن معانيه المروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القمائن

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همها يوم الكريهة في الملوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع رواية جرير، ورواية كثير، ورواية جميل، ورواية الأحوص، ورواية نصيب، فافتخر كل منهم وقال: صاحبي أشعر، فحكىوا السيدة سكينة بنت الحسين^(١) رضى الله عنهما بينهما بينهم لمقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم فقالت لراوية جرير أليس صاحبك الذي يقول:

طرقنتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فلارجعنى بسلام

وأى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق! قبح الله صاحبك وقبح شعره فهلا قال: فادخلنى بسلام. ثم قالت لراوية كثير أليس صاحبك الذي يقول:

يقصر بعينى ما يقصر بعينها وأحسن شيء ما به العين قورت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح، أيجب صاحبك أن ينكح! قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية جميل أليس صاحبك الذي يقول:

(١) سكينة: هى سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب، نبيلة، شاعرة، من أجمل النساء وأطيبهن نفساً، سيدة نساء عصرها، لجمال الأجلة من قرش، فيجتمع إليها الشعراء فيجلسون بحيث تراهم ولا يرونها، وتسمع كلامهم فتفاضل بينهم وتناقشهم وتجزهم، توفيت سنة (١١٧) هـ - ٧٣٥ م، رخصها الله. انظر «أعلام النساء» للكحلة (٢٠٢/٢ - ٢٢٤).

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلبتها لما فات من عقلى

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله. قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لراوية نصيب أليس صاحبك الذى يقول:
أهيم بدعدي ما حبيت فإني أمت فلو حزنى من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا من يتعشقه بعده. قبحه الله وقبح شعره. هلا قال:

أهيم بدعدي ما حبيت فإني أمت فسلا صلحت دعدي لذى خلة بعدي

ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذى يقول:

من عاشقين تواعدا وتواسلا ليللا إذا نهم الثريا حلقا
باتا باتنعم ليللة والذما حتى إذا وضع الصبح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلا قال: تماثقا. فلم تكن على واحد منهم، وأحجم روايتهم عن جوابها رضى الله عنها.
وروى ابن الكلبي^(١) قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفتد على الخلفاء
من قبله، فاقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم فى الدخول حتى قدم عدى بن أرطاة عليه وكان منه مكانة فتعرض له جرير
وقال:

يا أيها الرجل المزجى مطيسته هذا زماتك إني قد خلا زمنى
أبلغ خليفتنا إن كنت لأقبيه أنى لدى الباب كالمشدد فى قرن
لا تنس حاجتنا لأقبت مغفرة قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

فقال: نعم يا أبا عبد الله، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك،
والمستهم مسمومة، ومسامهم صابئة، فقال عمر رضى الله عنه: ما لى وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله
ﷺ مدح فاعطى، وفيه أسوة لكل مسلم، قال: صدقت، فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبى ربيعة^(٢)
القرشى قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القاتل:

ألا لبيستنى فى يوم تلدنو منيستنى شملت الذى ما بين عينيك والفم
وليت طهورى كسان ريفك كله وليت حنوطى من مشاشك والدم
ويا ليت سلمى فى القبور ضجيعتى هنالك أو فى جنة أو جـهـنـم

فليته عدو الله يمتنى لقاءها فى الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل على أبداً، فمن بالباب غيره عن ذكرت؟

(١) ابن الكلبي: هو هشام بن محمد بن أبى النصر بن السائب بن بشر الكلبي، أبو الفدر، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب، وأيامهم، من أهل
الكرعة، كثير التصانيف له نيف ومئة وخمسون كتاباً، منها: «جمهرة الأنساب»، و«الكنى»، و«القبائل»، و«السوق العربى» توفى سنة
(٢٠٤هـ - ٨١٩م).

(٢) عمر بن أبى ربيعة: هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومي القرشى، أبو الخطاب، أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفردوس، ولم يكن فى
قريش أشعر منه، ولد فى الليلة التى توفى بها عمر بن الخطاب سنة (٦٣هـ) فسمى باسمه، مات غرقاً سنة (٩٣هـ - ٧١٢م).

قال جميل بن معمر العذري^(١) قال: أليس هو القاتل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت
فما أتا في طول الحياة براغب
أظن نهـاري لا أراها وتلتقى
يوافى لدى الموت ضريحي فـريحها
إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
مع الليل روي في الشام وروحها

والله لا يدخل على أبداً، فمن بالباب غيره من ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القاتل:

رهبان مدين والذين عهدتهم
لو يسمعون كما سمعت حديثها
يكون من حزن الفراق قـمـوداً
خروا لعزة ركنها وسجوداً

أبعده الله، فوالله لا يدخل على أبداً، فمن بالباب غيره من ذكرت؟ قال: الأحوص الأنصاري^(٢) قال: أبعده الله،
والله لا يدخل على أبداً، أليس هو القاتل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيـدها
يفر مني بها وأبـعه

فمن بالباب غيره من ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القاتل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلياني من ثمانين قامة
كما انقض باز لبن الریش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
أحي فيرجي أم قتيل نحافره
فقلت ارفعوا الأجراس لا يفتنونا بنا
ووليت في أصقـاب ليلى أبادره

والله لا دخل على أبداً، فمن بالباب غيره من ذكرت؟ قال: الأخطل التغلبي. قال: أليس هو القاتل:

ولست بهائم رمضان عمري
ولست بزاجر عيـساً بكوراً
ولست بقائم كالعبد يدهـو
قـبـيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سائـر بها شـمولاً
ولست بأكل لحم الأضـاحي
إلى أطلال مكة بالسـجـاح
قـبـيل الصبح حي على الفلاح
وأسجد عند منبلج الصـبـاح

أبعده الله عني، فوالله لا دخل على أبداً، ولا وطئ لي بساطاً، وهو كافر، فمن بالباب غيره من الشعراء من
ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القاتل:

طرقتك صائفة القلوب وليس ذا
وقت الزمارة فأرجعي بسلام

فإن كان ولا بد، فهذا، فأذن له قال عدي بن أرطاة^(٣): فخرجت فقلت: ادخل يا جرير، فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً
ومسح الخلائق عـبـده ووقاره
جعل الخلافـة في الإمام العادل
حتى أرفعوا وأقام ميل المائل

(١) جميل العذري: هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، شاعر، من عشاق العرب، اختل بيثينة، من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما، توفي (٨٢هـ - ٧٠١م).

(٢) الأحوص: هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن بني غيبة، شاعر هجاء، صافي الديباجة كان مصاصراً لجري والفرزدق، من سكان المدينة، وقد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه، ثم بلغه عنه مأساة في سيرته فرده إلى المدينة وأمر بجلده، ولقب بالأحوص لفصق في مؤخر عينه، له: ديوان الشعر، توفي سنة (١٠٥هـ - ٧٢٣م).

(٣) عدي بن أرطاة: هو عدي بن أرطاة الخزاري، أبو رائلة، أمير أهل دمشق، كان من العقلاء والشجعان، ولما عمر بن عبد العزيز على البصرة سنة (٩٩هـ)، فاستمر إلى أن قتله معاوية بن يزيد بن المهلب، بواسطة في فتنة أبيه (يزيد) بالعراق سنة (١٠٢هـ - ٧٢٠م).

إني لأرجو منه نفعاً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لاین السبیل وللفقير العائل

فلما مثل بين يديه قال: يا جبر اتق الله ولا تغل إلا حقاً، فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعیف الصوت والنظر
من بعد ذلك يكفى فقد والد كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بلغت من خبري
إنا نرجو إذا ما الغيث أنزلنا من الخليفة ما نرجو من المطر
إن الخلافه جاءته على قدر كما أتى ربّه موسى على قدر
هذه الأرامل قد قضيت حاجتها فمن حاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا بورك يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جبر لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، قم قال لحادمه: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: ما وراءك يا جبر؟ فقال: ورائي ما يسوكم خرجت من عند أمير يعطى الفقراء ويغنى الشعراء، وإنني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

أبنت رقى الجن لا تسننـهـ وقد كان شيطاني من الجن راقياً

ومما جاء في كيوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف الشريف: من عدت سقطاته، وقلت عثراته، وقالوا: كل صارم ينيو، وكل جواد يكيو، وكان الأحنف ابن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل، وقد عدت له سقطه وهو أن عمرو بن الأهمتم دس إليه رجلاً يسفنه فقال: يا أبا بحر ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم، فرجع إليه ثانياً، فظن أنه من قبل عمرو ابن الأهمتم^(١)، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجاً، وقال سعيد ابن المسيب: ما غاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة فوجد الناس قد خرجوا من المسجد، وقال قتادة: ما نسيت شيئاً قط، ثم قال: يا غلام ناولني نعلي. قال: السنل في رجلك. وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم، وقد عدت له سقطات منها: أن الحادى حدا به يوماً فقال:

إني عليك أيها النجى أكرم من يمشى به المطى

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان وأخوه، فقال: والله لأشكوته يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولي الخلافة قال: الحمد لله الذي أنقلني من النار بهذا المقام. قال النابغة: أي الرجال المهذب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عمرو بن الأهمتم: هو عمرو بن سنان بن سمي الصمى المغزى، أبو رمي أحد السادات الشعراء الخطباء في الجاهلية، والإسلام من أهل نجد، كان يدعى (المكحل) لجماله في شبابه، وقد عدل على النبي ﷺ فأسلم، ولما تكلم بين يدي النبي أصعب كلامه فقال: إن من البيان لسحراً، وكان شعره في مجالس الملوك حللاً متشيرة، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أنشط منه، ولقب بالأهمتم لأن ثيبه همت يوم الكلاب، توفي سنة (٥٧هـ) - ٦٧٧هـ.

فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص

والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفنتهم مثل أفئدة الطير». رواه مسلم. قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خفافاً وتعود بطائفاً». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود من دعائى أجبته، ومن استغاثنى أغيته، ومن استنصرنى نصرته، ومن توكل على كفىته، فأتانا كافى المتوكلين وناصر المستصرين، وغياث المستغيثين، ومجيب الداعين. وحكى أنه كان فى زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سعر، وضيق حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتداداً عظيماً، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء واليكاء، وأمر بكسر آلات الطرب، ففى بعض الأيام روى عبد يصفق ويرقص ويغنى، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس، فقال: إن سيدى عنده خزائن بر، وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها، فلهذا أنا إذا لا أبالى فأتا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله، فالتوكل على الله أولى، فسلم للناس أحوالهم، وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكى أن حاتم الأصم^(١) كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان يقدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فعرضوا لذكر الحج، فدخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يتحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه فى هذا العام حاجاً، ويدعو لكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أتت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه منال للرزق، وليس برزاق، فذكرتهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يويخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت إلهى وسيدى ومولاى عودت القوم بفصلك وأنت لا تضيعهم فلا تخيهم، ولا تخرجلى معهم، فينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصديداً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير بابيك يستقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى سبائك الباردة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقىنا، ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماء، وقالت للمتتارون منها: اعبرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدى لقد سمعت أنه الباردة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخيرت أنهم الباردة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من الروء أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورى بها فى الدار، ثم قال لأصحابه: من

(١) حاتم الأصم: هو حاتم بن عون، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم، واحد، اشتهر بالورع والتقشف، له كلام مدون فى الزهد والحكم، من أهل بلخ، وشهد بعض معارك الفتح، وكان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة، توفى سنة ٢٣٧هـ-٨٥١م.

أجنى، فليقل منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، فقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لا تبتكم الساعة بضمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلا واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا، فقالوا لها: ما هذا البكاء؟ إنما يجب أن نفرح، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بنتا البارحة جاعا، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكرهم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفه عين، اللهم انظر إلى أبنينا، وديره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

وأما ما كان من أمر حاتم إليهم، فإنه لما خرج محرما وخلق بالقوم توجه أمير الركب، فطلبوا له طبيكا، فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعرفى الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكرا في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فآثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقته أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والانتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء، من أيقن أن الرزق الذى قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن أعلم أن الذى قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع، ومن علم أن مولا خيره من العباد، فقصده كفاه همه وجمع شمله، وفى الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ يوما فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحمدك، إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت باستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفك بى، لم ينفكوا إلا بى، قد كتب الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بى، لم يضروك إلا بى» قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف.

ورفع إلى الرشيد أن يمدنهم رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومن بالكوفة، قال منارة خادم الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام واتنن بفلان الأموى، وهذا كتابى إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه وما يتكلم به، واذكر لى حاله وماله، وقد أجلتك للهابك سنا، ولمجيتك سنا، ولإقامتك يوما، أفهمت؟ قلت: نعم. قال: فسر على بركة الله، فخرجت أطوى المنازل ليلا ونهارا لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصدا نحو دار الأموى، فإذا هى دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم، وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة، وغلمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن، فبهتوا وسألوا عنى، فقيل لهم: إن هذا رسول أمير المؤمنين، فلما صرت فى وسط الدار رأيت أقواما محتشمين، فظننت أن المطلوب فيهم، فسألت عنه، فقيل لى: هو فى الحمام، فأكرومنى، وأجلسونى، وأمرؤا بمن معى ومن صحبى إلى مكان آخر، وأنا أتفقد الدار، وأتأمل الأحوال، حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغلمان، فسلم على وسألنى عن أمير المؤمنين، فأخبرته وأنه بعافية، فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كل معنا، فنامت تاملأ كثيرا إذ لم يمكننى، فقلت: ما أكل، فلم يعاودنى، ورأيت ما لم أره إلا فى دار الخلافة، ثم قدم الطعام، فوالله ما رأيت أحسن ترتيبا، ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آتية منه، فقال: تقدم يا منارة، فكل. قلت: ليس لى به حاجة، فلم يعاودنى ونظرت إلى أصحابى فلم أجد أحدا منهم عدى، فحرت لكثرة حفدة، وعدم من عدى، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر، ثم قام فصلى الظهر، فأتى الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلنى وقال: ما أقدمك يا منارة؟ فتأملت كتاب أمير المؤمنين، فقبله ووضعه على رأسه، ثم فضه وقرأه، فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلمانه وسائر عياله، فضاقت الدار بهم على سعتها، فطأز على، وما شككت أنه يريد القبض على، فقال: الطلاق يلزمه الحج والعق والصدقة، وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان فى مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحرث ثم استقبلنى وقدم رجله

وقال: هات يا منارة قيودك، فدهوت الحداد فقيده وحمل حتى وضع في المحمل وركبت معه في المحمل، وصرنا، فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتداءً يحدثني بانسياط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا، وهذه المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألت تعلم أن أمير المؤمنين أهما أرك حتى أنفذني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك، وأنت ذاهب إليه ما تدرى ما تقدم عليه، وقد أخرجتك من منزلك ومن بين أهلك ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك ولا سالتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد أخطأت فراستى فبك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى على بامر فلا حيلة لي بدفعه ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر على شيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضربوني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا راى وشى عند أمير المؤمنين ببهتان، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعلى عهد الله لا كلمتك بعدلها لا جواباً. ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض، فقال: هات يا منارة أخبريني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلماؤه، وخواصه وضيق الدار بهم، وتقعدى لأصحابي، فلم أجد منهم أحداً أسود وجهه، فلما ذكرت بينه عليهم تلك الأيمان المغلفة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجله أسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وبساتينه وما قلت له، وما قال لي. قال هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه، وقد أزعجته وأرعبته وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله. أخرج إليه، وانزع قيوده، وفكه وأدخله عليّ مكرماً، ففعلت، فلما دخل قبل الأرض، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه، واعتذر إليه، فتكلم بكلام فصيح، فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: مرعة رجوعي إلى بلدي وجميع شملى بأهلى وولدى قال: هذا كائن، قبل غيره؟ قال: عدل أمير المؤمنين في عماله ما أحوجني إلى سؤال. قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معي حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه، قم في حفظ الله ودواله وراعته ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك، فانظر حسن توكله على خالفه، فإنه من توكل عليه كفاه ومن دعاه لباه، ومن سأله أعطاه ما مثاه.

وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار^(١) مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفذ أبداً، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت عززاتي ملائكة، وخزائني لا تنفذ أبداً، يا ابن آدم لا تأس بغيري، وأنا لك، فإن طليتي وجسدتي، وإن أنست بغيري فتك وفاتك الخير كله، يا ابن آدم خلقتك لعبادتي، فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تعب، وفي أكثر منه فلا طمع، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك ويدك، وكنت عندى محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالى لاسلطن عليك الدنيا ترض فيها ركض الوحوش في البر ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندى مملوماً، يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع، ولم أعي بخلقهن أبينني ريف أسوقه لك من غير تعب، يا ابن آدم أنا لك محب، فيحق عليك كن لي محباً، يا ابن آدم لا تطالبني بروق غد كما لا اطالبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني، فكيف من أطاعني وأنا على كل شيء قدير، ويكل شيء محيط.

قال الشاعر:

وما ثم إلا الله في كل حسالة فلا تشكل يوماً على غير لطفه
فكم حسالة تأتي ويكرهها الفنى وخيسرته فيسها على رغم أنفه

(١) كعب الأحبار: هو كعب بن مالك بن ندى بن جهم الحميري، أبو إسحاق، تابعي كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة، شاعده عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ثم سكن في حمص وتوفي فيها سنة (٣٢٧هـ-٦٥٢م).

ولولفه رحمه الله تعالى:

توكل على الرحمن في الأمر كله فما خاب حقاً من عليه توكلأ
وكن واثقاً بالله واصبر لحكمه تفز بالذي ترجوه منه تفضلاً

الفصل الثامن: في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. أن المراد بها القناعة. وقال عليه السلام: «القناعة مال لا ينفذ». وقيل: يا رسول الله ما القناعة؟ قال: «الإياس بما في أيدي الناس» «ولياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهى الشيء فيدافعه سنة، قال الكندي:

المعبد حر ما قنع والحر عبيد ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج قتي في طلب الرزق، فبينما هو يمشى فاعيا، فأرَى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط، فتأملها فإذا هي:

إني رأيتك قاعداً مستقبلي فعلمت أنك للهموم قرين
هون عليك وكن بريك واثقاً فأخو التوكل شأنه التهورين
طرح الأذى عن نفسه في رزقه لما تيقن أنه مضنون

قال: فرجع الفتى إلى بيته، ولزم التوكل وقال: اللهم أدبنا أنت. قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوفق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة، وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعاش، فكل صف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالخائف إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلطاً قال: ويلك يا حجام، والحيجم إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سبباً للاختلاف، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعة خيش سمعد بعظام الجيف كله معه في بيته لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل وطيبه القطران وعر الأطباء، وحلى زوجته الودع، وثماره المقل^(١)، وصيده البربوع وهو في مفارقة لا يسمع فيها إلا صوت بومة، وعواء ذئب وهو قانع بذلك مفتخر به.

وقال سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى، فاطلبه في القناعة، فإنها مال لا ينفذ، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لم تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه.

وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجهاد حماد بن أبي حنيفة رضى الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحد في زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبيلتها لتعظيمها للبيت، وإكراماً للحي، ولكني أحب أن أمشي في عز القناعة.

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من يقل البرية، واشربوا من الماء القراح، واخرجوا من الدنيا بسلام.

وأتشد المبرد:

إن صن زيد بما في بطن راحته فالأرض واسعة والرزق مبسوط
إن الذي قدر الأشياء بحكمته لم ينسئ قاعداً والرحل محطوط

(١) المقل: ثمر الدوم.

قال لى عبد الواحد بن زيد: ما أحب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا وهو رأس المحبة، قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه؟ قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مردوق من ندماء المهدي، فسكر يوماً ففاته الصلاة فجاءته جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله، فأتته مذهوراً فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة. فقام فصلى الصلوات، وتصدق بما يملكه ونهب يبيع البقل، فدخل عليه فضيل وابن عينة، فإذا تحت رأسه لينة وما تحت جنبه شيء، فقالا له: إنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه الله منه بديلاً، فما عوضك عما تركت؟ قال: الرضا بما أنا فيه.

وقال الشورى: ما وضع أحد يده فى قصعة غيره إلا ذل له، وقال الفضيل: من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس فى الشتاء جلالى، ونور القمر سراجى، وبقل البرية فاكهتى، وشعر الغنم لباسى، أبيت حيث يدركنى الليل ليس لى ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذى كبت الدنيا على وجهها. بيت مفرد:

إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق فى ظلها هما يورقه

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تشدو وتروح ليس معها شيء من أرزاقها، لا تحموت، ولا تحصد، والله يرزقها، فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحموت ولا تحصد والله يرزقها. وقيل: وفد عروة بن أدنية على هشام بن عبد الملك، فشكا إليه خلته، فقال له ألت القاتل:

لقد علمت وما الإصراف من خلقي إن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسمى إليه فميمينى تطلبه ولو قعدت أتاتى ليس يعينى

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرق فقال: يا أمير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت، وخرج، فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعاً، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال فى نفسه رجل من قرش قال حكمة وفود على، فجهته وردته خاتياً، فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة. وأعطاه المال، فقال: أبلغ أمير المؤمنين منى السلام وقل له: كيف رأيت قولى سحيت، فأكذبت، فرجعت، فأتانى رزقى فى منزلى. ولما ولى عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له أنصارى وثقى، فلما سارا تخلف الأنصارى وقال: الذى أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطينى، فوفد الثقفى وقال: أحوز الحظين، فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصارى؟ قال: رجع إلى أهله، فأمر للثقفى بأربعة آلاف دينار، وبعث إلى الأنصارى بثمانية آلاف دينار فخرج الثقفى وهو يقول:

فوالله ما حرص الحريص بنافع فخرجنا جميعاً من ماقط روسنا
فلما أتخنا الناجعات ببابه وقال ستكفينى عطية قادر
فإن الذى أعطى العراق ابن عامر فقلت خلالي وجهه ولعله
فلما رأتى سأل عنه صباباً فابت وقد أيقنت أن ليس نافعاً

فيسغنى ولا زهد القنوع بضائر على ثقة منا بجود ابن عامر
تخلف عنى اليشكري ابن جابر على ما يشاء اليوم للخلق قاصر
لربى الذى أرجو لسد مفارقى سيجعل لى حظ الفتى المتزاور
إليه كما حنت ظوار الأباصر ولا ضائر شيء خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أتندرى لِمَ رزقت الأحمق؟ قال: لا يارب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالأحتيال، ولبعض العرب:

ولا تـجـمـزـع إذا أـعـسـرت يومًا	فـقـد أـيـسـرت في الزـمـن الطـويل
ولا تـظـنن بـرـيـك ظن مـمـسـوم	فـإن الله أولـى بالـجـمـمـيل
وإن العـسـر يتـبـعـه يـسـار	وقـول الله أصـدق كـل قـبـيل
فلـم أن العـقـول تـسـوق رزقًا	لـكـان المـال عـند ذـى العـقـول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انظر إلى الأرض فنظر إليها، فاتفجرت، فرأى دودة على صخرة ومعها الطعام، فقال له: أترانى لم أغفل عنها، وأغفل عنك، وأنت نبى وابن نبى.

ودخل على بن أبى طالب رضى الله عنه المسجد، وقال لرجل كان واقفًا على باب المسجد: أمك على بغلى، فأخذ الرجل لجامها، ومضى وترك البغلة، فخرج على رفى يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمساكه ببغله فوجد البغلة راقفة بغير لجام، فركبها ومضى، ودفع لغلّامه درهمين يشتري بهما لجامًا، فوجد الغلام اللجام فى السوق قد باعه السارق بدرهمين فقال على رضى الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزداد على ما قدر له.

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه وقال: الذى خلق هذه الرحى يأتيتها بالطحين، وقال سليم بن المهاجر البجلي:

كـوت جـمـيل الصـبر وجـهـى فـصـانـه	بـه الله عـن غـشـيـان كـل بـخـيل
فـمـا عـثت لـم آت البـخـيـل و لـم أـقـم	عـلى بـابـه يـومًا مـقـام ذـيل
وإن قـلـيـلاً يـسـتـر الـوجـه أن يـرى	إلى النـاس مـجـذولاً لـغـيـر قـلـيل

وصلى معروف الكرخى خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لعروف: من أين تأكل؟ قال: اصبر حتى أعيذ صلاتى التى صليتها خلقت. قال: ولم؟ قال: لأن من شك فى رزقه شك فى خالقه. وقال أبو حازم: ما لم يكتب لى لو ركبت الريح ما أدركته، وقال عمر بن أبى عمر اليونانى:

غـلا السـمـر فى بـغـداد مـن بـعد رـخـصـة	وأنى فى الحـسـبـالـين بـالله وائـتـق
فـلـست أخـاف الضـمـيق والله وائـسـع	غـناه ولا الحـسـر مـنـان، والله رازق

وقال القهستاني^(١):

غنى بـلا دنيـا عـن الخـلق كـلـهـم	وأن الغنى الأعلى عـن الشـئ لـابـه

وقال منصور الفقيه:

الموت أـمـسـهـل عـندى	بـين القـنـنا والأـسـنـة
والخـيـل تـجـمـرى سـرـاعـًا	مـقـطـعـمـات الأـعـنة
مـن أن يـكـون لـسـنـذـل	عـلى قـضـل و مـنـة

(١) القَهْستَانِيّ: هو محمد بن جمعة بن خلف، أبو قريش القهستاني الأصم، من حفاظ الحديث، قال ابن ناصر الدين: متقن ثقة مكثر رجال، له «المستد الكبير» و «كتاب فى الحديث» توفي بقمه سنة ١٣٣٦هـ-٩٢٥م.

ورأى أعرابي:

أيا مالِك لا تسأل الناس والتمس
بكفِّيك فضل الله فالله أوسع
ولو تسأل الناس الشراب لا وشكوا
إذا قيل هاتوا أن يملوا وعينموا

وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني قال: «عليك باليأس عما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر»، وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق، فلا تطلبه من صديقك، وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغيظك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك.
وقال المعري:

إذا كنت تبغى العيش فابغِ توسعاً
فبعند التناهي يقصر المتناول
تورق البودور النقص وهي أهلة
ويدركها التقصان وهي كوامل
وقال آخر:

اقنع بأيسر رزق أنت نائله
واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو متقص
ولا تعكبر إلا في الزيادات

وقال أعرابي استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جاثبته عن كراهة
لإغلاق باب أو لشديد حاجب
ولى في غنى نفسى مراداً ومذهب
إذا انصرفت عنى وجوه المذهب

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن آتته صحيفة تناولها، وإن لم تأت له لم يرصدعها ولم يطلبها. وقال شقيق بن إبراهيم البلخي: قال لى إبراهيم بن آدم رحمه الله تعالى: أخبرني عما آتت عليه قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت. قال: هكذا تعمل كلاب بلخ؟ قلت: كيف تعمل أنت؟ قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت، وقال بعضهم:

هي القناعة فالزمها تعش ملكاً
لو لم يكن منك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير القطن والكفن

وقال آخر:

وإن القناعة كنز الغنى
فصرت بأذيالها متمك
فلا ذا يرانى على بابه
ولا ذا يرانى له منها ملك
فصرت غنياً بلا درهم
أمر على الناس شجبه الملك

جاء فتح الموصلى إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئاً للعشاء ووجدهم بغير سراج، فجلس ليلته يكي من الفرح ويقول: بأى يد كانت منى تركت مثلى على هذه الحالة والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وروى أن النبي ﷺ قرأ: (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) قال: يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفثت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأمضيت.

وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت للمحوق بى، فليكنك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفى ثوباً حتى ترقيقه».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالرشد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في رزقه، وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طارعت حرصك كنت عبداً لكل دينيسة تدعى إليها

وقال آخر وأجاد:

قيد شاب رأسى ورأس الدهر لم يشب إن الحريص على الدنيا لفى تعب

وقيل للإسكندر: ما سرور الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها.

وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروءة نسيت الأمل وغروره.

وقال أبو سعيد الخدري رضى الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل».

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول ثم يسبح بالتراب، فأقول: إن الماء منك قريب، فيقول: ما يدري لعلى ما أبلغه، وعن أبي هريرة رضى الله عنه يرفعه: «لا يزال الكبير شاباً في اثنين، حب المال وطول الأمل». وقيل لمحمد بن واسع: كيف تمجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل، وقيل: من جرى في عنان أمله كان عاثراً بأجله، لو ظهرت الأجل لانتفضحت الأمال، ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذى حرص نراه يلم وفوراً
كللب الصميد يمسك وهو طار
لوارثه ويدفع عن حممائه
فريسته ليسأكلها سواه

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً
ولا تحرص ليوم أنت فيه
فأسألكها عن الشـ موت أمك
وعند فسرزق يومك رزق أمك

ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن من آلهام أمله أخزاه عمله، قال عبد الصمد بن المعدل^(١):

ولسى أمل قطعت به الليالى
أرأى قيد فتيت به ودامسا

(١) عبد الصمد بن المعدل: هو عبد الصمد بن المعدل بن غيلان بن الحكم العبدى، من بنى عبد القيس، أبو القاسم، من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ في البصرة كان هجاءً شديد العارضة كثيراً، مات نحو (٢٤٠هـ ٨٥٤م).

قال الحسن: إياكم وهذه الآماني، فإنه لم يعط أحد بالآمنية خيراً قط في الدنيا ولا في الآخرة.
وقال قس بن ساعدة^(١):

وما قد تولى فهو لا شك فائت
فسهل يتفنعني ليبتني ولعلني
وقال آخر:

ولا تتعملل بالآماني فإنها
عطايا أحاديث النفوس الكواذب
وقال آخر وأجاد:

الله أصلدق والآمال كاذبة
وجل هذي النني في الصدر مومس
وقال آخر:

شط المزار بسعدى وانتهى الأمل
إلا رجاء فما ندرى أندركه
وقال أبو المتاهية:

لقد لعبت وجد الموت في طلبي
ولو شمرت فكرتي فيما خلقت له
وله أيضاً:

تعالى الله يا سلم بن عمرو
هب الدنيا تقاد إليك عفواً
وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:

أيما من عسا في الدنيا طويلاً
واتعب نفسه فيما سيفني
هب الدنيا تقاد إليك عفواً
وأقنى العمر في قيل وقال
وجمع من حرام أو حلال
أليس مصير ذلك للزوال

(١) قس بن ساعدة: هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك الإيادي، من بني لباد، أحد حكام العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، ويقال إنه أول عربي خطب متوكفاً على سيف أو عصا، وكان يند على قيس الروم والرا، فيكرمه ويعظمه، توفي نحو سنة ٢٣٣ هـ - نحو ٦٠٠ م.

وما جاء في الطمع وذمه

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع، وقال رضى الله عنه: ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع.

وفي الحديث: «إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبد ثلاثة: عبد رق، وعبد شهوة، وعبد طمع. وقال بعضهم: من أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب: يا ابن سلام من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشبهه النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصروا ثم اختلفوا وهم مجتمعون على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع، وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينته ثلاثة أشياء: الحرس، والطمع، والحدس، فهي تجرى في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبديها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهواتها فيه.

قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حَسْبِيَ يَعْلَمُ إِنْ نَفَعَ
مَنْ رَاقِبُ اللَّهِ نَزَعَ
مِنْ طَارِ طَيْرٍ وَارْتَفَعَ
إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَعَ
عَنْ سَوَاءِ مَا كَانَ صَنَعَ
مَنْ الدَّلَّ إِلَّا فِى الطَّمَعِ

وقال سابق البربري^(١):

يُخَادِعُ رَبِّبَ الدَّهْرِ عَنْ نَفْسِهِ الْفَتَى
وَيُطْمَعُ فِي سَوَافٍ وَيَهْلِكُ دُونَهَا

وقيل لأشعب^(٢٦): ما بلغ من طمعك؟ قال: لوى دخان جاری فافت خبزی، وقال أيضاً: ما رأیت رجلین یساران فی جنازة إلا قدرتا أن المیت أوصی لی بشئ من ماله، وما رفت عروس إلا کنست بیتی رجاء أن یفلطوا فیدخلوا بها إلی.

قال بعضهم:

لا تغضبني على امرئ
واغضب على الطمع الذي استـ

لك ممانع مما في يديه
دعـاك تطلب مما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سابق البريري: هو سابق بن عبد الله البريري، أبو سعيد، شاعر، من الزهاد، في الكلام في الحكمة والرفائق، وهو من موالى بني أمية، والبريري لقب له، ولم يكن من البرير، سكن الرقة، وكان يهذب على عمر بن عبد العزيز فينشده من مواسطة، توفي نحو سنة (١٠٠هـ - ٧١٨م). انظر الأعلام: للأزهر، (٦٩/٣).

(٧) أشعب الطامع: أشعب بن جبير، المعروف بالطامع، ويقال له ابن أم حميدة، ويكنى أبا العلاء وأبا القاسم، ظريف، من أهل المدينة، كان يجيد الغناء، يضرب المثل بطمعه، وأخباره كثيرة متفرقة في كتب الأدب توفي بالمدينة سنة (١٥٤هـ - ٧٧١م).

في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: [آل عمران: ١٥٩]، واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه: أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح، فيعمل عليه، وهذا قول الحسن، ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل، وهذا قول الضحاك، ثالثها: أنه أمره بمشاورة من ليسن به المسلمون وإن كان في غيبة عن مشورتهم، وهذا قول سفيان، وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالق مدبر أمره، ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس، وإن كان عالماً، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله ضل»، وكان يقال: ما استبط الصواب بمثل المشاورة، وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي.

وقال الحسن: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل الرجل فتدو الرأي والمشورة، وأما الرجل الذي هو نصف رجل، فالذي له رأى ولا يشاور، وأما الرجل الذي ليس برجل، فالذي ليس له رأى ولا يشاور.

وقال المنصور لولده: خذ عنى اثنين: لا تقل في غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير، وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإني لاستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية، وقال أعرابي: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة، وقيل: من بدأ بالاستشارة، وثنى بالاستشارة، فحقيق أن لا يخيب رأيه، وقيل: الرأي السيد أحمى من البطل الشديد.

قال أبو القاسم النهرودي:

وما ألف مطرود الشان مــــدد يعارض يوم الروح رأياً مــــدد

وقال على رضى الله عنه: خاطر من استغنى برأيه، وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأى فكُنْ ذا عــــزيمة فإن فساد الرأى أن يتردد

فأضاف إليه قوله:

وإن كنت ذا عزم فانفذ عاـجلاً فإن فساد العزم أن يتقيد

ولمحمد بن إدريس الطائي:

فعب الصــــواب برأيه فكأنما آراؤه اشتهت من التأييد

فإذا دجا عطف تلج رأيه صبحاً من التوفيق والتبديد

ولمحمد الوراق:

إن البليـب إذا تفرق أمره فتق الأمور مناظراً ومشاوراً

واخو الجهالة يستبد برأيه فتراء يعتف الأمور مخاطراً

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد:

لقد بان وجه الرأي لى غير أننى
فكيف يرد الدر فى الصرع بعدما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه
وقال آخر:

خليلى ليس الرأى فى جنب واحد
أشهر على اليوم ما تريان
ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب، وقال أودشير
ابن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة،
وقال: لا تستحق الرأى الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدر لا يستهان بها لهُوان غائصها، وقال جعفر بن محمد: لا
تكونن أول مشير، وإياك والرأى الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبد برأيه، ولا على متلون، ولا
على لحرح، وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأى، فليس كل عالم يعرف الرأى الصائب، وكم
ناقد فى شئ ضعيف فى غيره.

قال أبو الأسود الدؤلى:

وما كان ذى نصح بمؤتيك نصحه
وما كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد
فلحق له من طاعة بتصليب

وكان اليونان والفرس لا يجتمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم
الأخر به لئلا شتى منها لثلا يقع بين المستشارين منافسة، فتنهب إصابة الرأى، لأن من طابع المشتركين فى الأمر
التنافس والظعن من بعضهم فى بعض، وربما سبق أحدهم بالرأى الصواب فحسدوه وعارضوه، وفى اجتماعهم أيضاً
للمشورة تعريض السر للإفاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإيهام، فإن عاقب
الكل عاقبهم بذنوب واحد، وإن عفا عنهم الحق الجانى بمن لا ذنب له، وقيل: إذا أشار عليك صاحبك برأى ولم تحمد
عاقبه فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت، فهذا كله ضجر ولوم وخفة.
وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك، فجدد له النصيحة لأنه بالاستشارة قد خرج عن عداوتك إلى موالاةك، وقيل:
من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره فهو كمن يثر فى السباح.

قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة:

بصير بأعقاب الأمور كأنما
يخطأه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك، وقال الأحنف: لا تشاور الخاف حتى يشع، ولا العطشان
حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل حتى يجد.

ولما أراد نوح بن مريم قاضى مروان أن يزوج ابنته استشار جارا له مجوسياً، فقال: سبحان الله! الناس يستفتونك
وأنت تستفتنى، قال: لابد أن تشير على، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان
يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدى، وكان
يقال: من أعطى أربعاً لم يمنح أربعاً، من أعطى الشكر لم يمنح المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنح القبول، ومن أعطى
الاستشارة لم يمنح الحيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنح الصواب، وقيل: إذا استشار الرجل ربه واستشار صحبه وأجهد
وأبه فقد قضى ما عليه، ويقضى الله تعالى فى أمره ما يجب، وقال بعضهم: خيم الرأى خير من فطيره، وتقليد خير
من تأخير، وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود من النساء، ولا صاحب حاجة يريد

قضاءها، ولا خائفاً، ولا حائفاً، وقيل: سبعة لا ينبغي لصاحب أن يشاورهم، جاهل، وعدو وحسود، ومراء، وجبان، ويخيل، وذو هوى، فؤاد الجاهل يفضل، والعدو يريد الهلاك، والחסود يتمنى زوال النعمة، والمرأى واقف مع رضا الناس، والجبان من رآه الهرب، والبخيل حريص على جمع المال، فلا رأى له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكى أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمى^(١) قال: ركبني دين أثقل كاهلي، وطالبني به مستحقوه، واشتدت حاجتي إلى ما لا يد منه، وضاعت على الأرض، ولم أعتد إلى ما أصنع، فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى، فأشار على بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق، فقلت له: تمنعني المشقة وبعد الشقة وثية المهلب، ثم إنى عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادنى عسى ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها، فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق، وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب، فسلمت عليه وقلت له: أ صلح الله الأمير إنى قطعت إليك الدهناء، وضربت أكباد الإبل من يثرب، فإنه أشار على بعض ذوى الحصى والرأى بقصدك لقضاء حاجتي، فقال: هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة، فقلت: لا، ولكن رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وإن يحل دونها حائل لم أدم يومك، ولم يأمن من غذك، فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة، فأخذني معه، فوجدت في خزانته ثمانين ألف درهم، فدفعتها إلى، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسى فرحاً وسروراً، ثم عاد الحاجب به إليه مسرعاً، فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ فقلت: نعم أيها الأمير وزيادة، فقال: الحمد لله على نجاح سعيك، واجتناك جنى مشورتك، وتحقق ظن من أشار عليك بقصدنا، قال الأسلمى: فلما سمعت كلامه وقد أحزمت صلته أشدته وأنا واقف بين يديه:

يا من على الجود صاغ الله راحته	فليس يحسن غير البذل والجود
عمت عطايك أهل الأرض قاطبة	فأتت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النجح متفتح	لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني، ووسعت على أعلى، وجاريت المشير على، وعاهدت الله تعالى أن لا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وحكى عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلة لا تحتملها حرامة الخلافة ولا تتجاوز عنها سيامة الملك، فحبه عنده، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي، وكان والياً على الكوفة ما أقصد عقيدته فيه، وأروحته منه، وصرف وجه ميله إليه عنه، فتألم المنصور من ذلك وساء ظنه، وتأرق جفنه، وقل أمته، وتزايد خوفه، وحزنه، فأذته فكرته إلى أمر دبره وكنمه عن جميع حاشيته وستره، واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجراه على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته وأقبل على عيسى وقال له: يا ابن العم إنى مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لى على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظنى بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التى هى سوطه ببقاء ملكي، فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسى طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمى وعك عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد على ما بعضه يسبح دمه، وفى قتله صلاح ملكنا، فخذله إليك واقتله سراً، ثم سلمه إليه، وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلمه إلى أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين عبد الله وعيسى، قال عيسى: فلما أخذت عمى وفكرت فى قتله رأيت من الرأى أن أشاور فى قضيت من له رأى عسى أن أصيب الصواب فى ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لى حسن ظن فى رأيه، وعقيدة سالحة فى معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إلى عمه عبد الله وأمرنى بقتله وإخفاء أمره، فما رأيك فى ذلك وما تشير به؟ فقال لى يونس: أيها الأمير احفظ نفسك يحفظ عمك وعم أمير المؤمنين، فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالط وأبواباً، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلتَه وأتفدلت

(١) الأسلمى: هو نضلة بن عبيد بن الحارث الأسلمى، أبو برزة، صحابى، غلبت عليه كسبه واغفلت فى اسمه، كان من سكان المدينة، ثم البصرة، وشهد مع على قتال أهل النهروان، ثم شهد قتال الأزارقة مع المهلب بن أبى صفرة، مات بخراسان سنة (٦٥٠هـ - ٦٨٥م).

أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكانني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد، فإن اعترفت أنك قتلت بأمرك أنك فعلت بأمرك، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه ويونس وعملت بها، وأظهرت لأمر المؤمنين أتى أنفدت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أتني قد قتلت عمه عبد الله دس إلى عمومة أخوة عبد الله، وحثهم على أن يسألوه في أخيمهم، ويستوهبه منه، فجاءوا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم، فسألوه في عبد الله فقال: نعم إن حقوقكم تقتضي إسعادكم بحاجتكم كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو في مقام الوالد، ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى، فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي، فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: وقد سألني فيه عمومتك وقد رأيت الصنف عنه وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤاليهم فيه، فأتنا به الساعة، قال عيسى: فقلت يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم أمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك، ثم أظهر الغيظ، وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيكم مدعيًا أتني أمرته بقتله، وقد كذب على، قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ونقتص منه، فقال: شأنكم به، قال عيسى: فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس على، فقام واحد من عمومتي إلى وصل سيفه ليضربني به، فقلت له: يا عم أفاعل أنت؟ قال: أي والله كيف لا أقتلك وقد قتلت أخي فقال لهم: لا تتجولوا وردوني إلى أمير المؤمنين فردوني إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله، والذي دبرته على عصمني الله تعالى من فعله، وهذا عمك باق حي سوي، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعت الساعة، فأطرق المنصور، وعلم أن ربح فكره صادفت إصرارًا وأن انفراجه بتدبيره قارف خسارًا، ثم رفع راسه وقال: اتنا به، فعصى عيسى وأحضر عبد الله، فلما رآه المنصور قال لعمومته: اتركوه عندي وانصرفوا حتى أرى فيه رأيًا، قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته، فسلمت روحي، وزالت كربتي، وكان ذلك بركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته والعمل بها، ثم إن المنصور أسكن عبد الله في بيت أسامة قد بنى على الملح ثم أرسل الملاء حوله ليلاً فآتاه الملح وسقط البيت، فمات عبد الله، ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة ومن سهام مرامها البعيدة.

ومما جاء في النصيحة: اعلموا أن النصيحة للمسلمين وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين، قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا نَهْجِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ نَصِّحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ يُضِلُّهُمْ وَيَهْدِيهِمْ فَيَرْجِعُونَهُمْ﴾ [٣٤] (هود: ٣٤). وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنَصَّحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ أَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [٣٥] (الأعراف: ٩٣). وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنَصَّحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [٣٦] (الأعراف: ٧٩).

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامةهم».

فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتزويه عما ليس له بأهل، والقيام بتعليمه، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والرغبة في محابه والبعد عن مساخطه، وموالاته من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهاد في رد العصاة إلى طاعته قولاً وفعلاً. والنصيحة لكتابه إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهيم ما فيه، والذب عنه من تأويل المحدثين وطعن الظالمين، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين. قال الله تعالى: ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٣٧] (ص: ٢٩). والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنته بالطلب لها وإحياء طريقته في بث الدعوى، وتأليف الكلمة، والتخلق بالأخلاق الطاهرة. والنصيحة للأئمة معاونتهم على ما كلّفوا القيام به بشيئهم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم عن يريد بهم سوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية، وسد خللتهم عند الحاجة، ورد القلوب النافرة إليهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، وتوفير كبيرهم والرحمة لصغيرهم وتزويج كبرهم وتزويج ما يشغل خواطرهم، ويفتح باب الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولو العزم. وقال يمينون بن مهران^(١): قال لي عمر بن عبد العزيز رضي

(١) يمينون بن مهران: هو يمينون بن مهران الرقي، أبو أيوب، فقيه من القضاة، كان مولياً لأمرأة بالكوفة، وأهضته، فنشأ فيها، ثم استوطن الرقة (من بلاد الجزيرة الفراتية) فكان عالم الجزيرة وسيداً استعمله عمر بن عبد العزيز على خرجها وقضاها، وكان ثقة في الحديث، كثير العبادة، توفي سنة (١١٧هـ - ٧٣٥م).

الله عنه: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره، وفي مثور الحكم: ودك من نصحك وقلاك من مشي في هواك. وقال أبو الدرداء^(١) رضي الله عنه: إن شتمت لأصحبك لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله تعالى إلى عبادهم ويعملون في الأرض نصحاء. ولورقة بن نوفل^(٢):

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم
لا شيء مما ترى تبقى بشائسته
إني التذير فلا يغرركم أحد
إلا الإله ويرد المال والولد
لم تكن عن هرمز يوماً ذكائره
والخلد قد حاولت عاد فما خلّفوا

وقال بعض الخلفاء لجري بن يزيد: إني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين. إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، وبدأ بسوطه لطاعتك، وسيفاً مجرداً على عدوك. وأنشد الأصمعي:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا
إن النصائح لا تخفى مناهلها
تردد على ناصح نصحاء ولا تلم
على الرجال ذوي الألباب والفهم

ولعاذ بن مسلم:

نصحتك والنصيحة إن تعدت
فخالفت الذي لك فيه حظ
هو المنصوح عزّلها القبول
فمالك دون ما أملت غشول

وقيل: أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج فلم يقبل منه، وسار إليه، فعبه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر
فما أنا بالباكي عليك صباة
فأصبحت مطلوب الإمارة نادماً
فنفستك أولى اللوم إن كنت لائماً
وما أنا بالداعي لتسرجع مالاً

ويقال: من أصر وجهه من النصيحة، اسود لونه من الفضيحة. وقال طرفة:

ولا ترفسذن النصح من ليس أهله
وإن امرأ يوماً تولي برأيه
وكن حين تستغنى برأيك غائباً
فدعه يصيب الرشد أو يك غائباً

وفي مثله قال بعضهم:

من الناس من أن يستشرك فتجتهد
فلسلا تمنعن الرأي من ليس أهله
له الرأي يستشرك مالم تتابعه
فلا أنت محمود ولا الرأي تافسه

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو الدرداء: هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأحمري الخزرجي، صحابي، من الحكماء القراسن القضاة، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة، ثم انتقل للتجارة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والشك، وفي الحديث (عويمر حكيم أمّتي)، (وتنعم الفارس عويمر) ولا معاوية قضاء دمشق، قال ابن الجوزي، كان من العلماء الحكماء، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً، توفي سنة (٣٢هـ - ٦٥٢م).

(٢) ورقة بن نوفل: هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، من قریش، حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، تنصّر، وقرأ كتب الأديان، أكره أوائل عصر النبوة ولم يترك الدعوة، وهو ابن عم السيدة خديجة أم المؤمنين، توفي سنة نحو (١٢هـ - ٦١١م).

في الرصايا الحسنة والمواظع المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنَّا مِنْكُمْ أُمَّةً نَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤]. والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة.

وروي في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: «من رأى منكماً منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وقال شيخنا محيى الدين النورى^(١) رحمه الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَالٍ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. إن هذه الآية الكريمة مما ينتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضركم ضلالة من ضل.

ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْوُفُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَدُونُ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جنود الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر.

ومن كلام على رضى الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في إيلاسه، فإن العاقل يتعظ بالآداب، والهاثم لا تعظ إلا بالضرب.

وأشد الجاحظ:

وليس يزجرهم مما توعظون به
وبهم يزجرها الراعى فستزجر

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد، فعظ الناس بفعلك ولا تعظم بقولك، واستع من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ، وقال لقمان: الموعظة تنشق على السفيه كما ينشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك إن أبيتني بعيد آيتن كتبك عندى حميداً، ومن كتبت عندى حميداً لم أعذب بعدلها أبداً، وقال الرشيد لمصنوع بن عمار: عظمى وأوجز، فقال: يا أمير المؤمنين: هل أحد أحب إليك من نفسك، قال: لا. قال: إن أردت أن لا تسئ إلى من تحب فاعمل، وقال النبي ﷺ في بعض خطبه: «أيها الناس الأيام تطوى، والأعمار تفتى، والأبدان في الشرى تبلى، وإن الليل والنهار يتراخضان تراخض البريد، ويقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورجب في الباقيات الصالحات».

ولما لقي يمينون بن مهران الحسن البصرى^(٢) قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فحظني، فقرأ الحسن البصرى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا أَخْلَقَ إِلَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [٢٤] ﴿لَمْ يَجَاءَهُمْ مَا كَانُوا يوعَدُونَ﴾ [٢٥] ما أغنى عنهم

(١) النورى: هو يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الحزامى الحوزاني، النورى، الشافعى، أبو ذكريا، محيى الدين، علامة بالقرعة والحديث ولد في نوا (من قرى حوران بسورية) سنة (١٢٣١هـ-١٢٣٣م) رآها نبيه. تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً من كتبه «تهذيب الاسماء واللغات» «تصحيح التتبع» في فقه الشافعية، و «شرح صحيح مسلم» و «رياض الصالحين» وغيرها توفي سنة (١٢٧٧هـ-١٢٧٧م).

(٢) الحسن البصرى: هو الحسن بن مزار البصرى، أبو سعيد، تابعى، كان إمام أهل البصرة، وسير الأئمة في رسته، وهو أحد العلماء الفقهاء والقضاة الشجعان السالك، ولد بالبلد سنة (٢١هـ) وسكن البصرة، وعظمت هيته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، قال الغزالي: كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدوا من الصالحة، توفي رحمه الله سنة (١١٠هـ-١١٠م) بالبصرة.

مَا كَانُوا يَمْتَصِرُونَ ﴿٢٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. فقال: عليك السلام أبا سعيد لقد وعظنتي أحسن موعظة.

ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضي الله عنه، دخل منزله فاصترته غشية ثم أفاق، فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وقال: أوصيكما بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفاً على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلوا الخير وكونوا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى قال: فإني أوصيك به، وعليك بير أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأمثما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه، ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني ما أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فات، ومن سل سيف البغي قل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بني، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئته غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله دل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأثمال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء قر، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار. يا بني الأدب سيزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى، وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني رتبة الفقر الصبر، ورتبة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفع أعج من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح الشعب ومطية النصب.

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة، نظر إلى أهله يبكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتهم عليه ما حمل، ما أعظم متقلب هشام إن لم يفر الله له.

وقال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام. فقال: يا محمد ما هذه الجريدة التي بيده؟ أقبلتها لا تملا قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم، يا أمير المؤمنين: إن المفقور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أصراباً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين: لو أن ذنوباً من النار صب، ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن شجره، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتقصصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل للذاب، فكيف بمن يتسلل بها، ويرد فضلها على عاتقه.

وروي زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: أحلر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح، وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

وروي زياد عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طائوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش، وبين يديه أطباق قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا، فاطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طائوس وقال: حدثني عن أبيك. قال: سمعت أباي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور في حكمه». فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه قال: ما لك؟ فقصمت ثيابي مخافة أن يتألهما شيء من دم ابن طائوس، ثم قال: يا ابن طائوس ناولني هذه الدواة. فأمسكته، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما حتى. فقال ابن طائوس: ذلك ما كنا نبغي. قال: مالك، فمالت أعراف لابن طائوس فضله من ذلك اليوم.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال لكعب الأحبار: يا كعب خوفنا. قال: أوليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين اعمل، فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً، لأدرت عملهم بما ترى، فنكس عمر رضي الله عنه رأسه، وأطرق ملياً، ثم رفع رأسه، وقال: يا كعب خوفنا. فقال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه، حتى يسيل من حرها، فنكس عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب ردتنا. فقال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر دفرة يوم القيامة، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول: يارب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي^(١) رحمه الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل بن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرموني إكراماً جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، وملكك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان. قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا: ١٣]، واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بوجت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فائق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن القتيل والنفير والتطهير. قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبُّكَ لَمَسَّاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٧) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٨) [الحجر: ٩٢، ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَن كَانَ بِبَقَالٍ حَيَّةٍ مِّنْ خُرُوفٍ أَنَّنَا بِهَا وَكَفَى بَنَّا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، فوالله ما عدنا نعمة كما عددها، ولا حبسها كرامة كما حسبتها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى، ومكرًا به. فقال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَالشُّكْرَ أَمْ الْكُفْرَ﴾ [النمل: ٤٠]. فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، وأغت الملهوف، أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملهوف وأمانًا للخائف. ثم أتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقاً وغرباً، فما اخترت ملكة وارتعت إليها، ولدت لي الإقامة فيها غير هذه المملكة، ثم أئندته:

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً حتى يروا عنده آثار إحصان

وقال الفضل بن الربيع^(٢): حج هارون الرشيد سنة من السنين، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت مسرعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أيتك، فقال: ويحك قد حال في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم، فانظر لي رجلاً أسأله عنه، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أيتك، فقال: جد لما جثنا له، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: ههنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى أيتك، فقال: جد لما جثنا به، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم. فقال: يا أبا العباس اقض دينه، ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عنى صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله، فقلت: ههنا

(١) الطرطوشي: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي القهري الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي، ويقال له ابن رنقة، أديب، من فقهاء المالكية الحفاظ من أهل طرطوشة بشرفي الأندلس تفرغ في بلاطه ورحل إلى المشرق، وأقام في الشام وتولى التدريس، وكان زاهداً لم ينشئ من الدنيا بشيء له: اسراج الملوك و الفوائد والبيع توفي سنة (٥٢٠هـ - ١١٢٦م).

(٢) الفضل بن الربيع: هو الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس، وزير أديب حازم، كان أبوه وزيراً للتصور العباسي استحببه المنصور، واستوزره الرشيد البرامكة، توفي بطوس سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤م).

الفضيل بن عياض، فقال: امض بنا إليه، فأتيته، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يرددها، ففرغت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي ولا أمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله! أما تجب عليك طاعته؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة، فاطفا السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نحول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفى إليه، فقال: أواه من كف ما أليته إن نحت غداً من عذاب الله تعالى؟ فقلت في نفسي ليكنه الليلة يكلام نقي من قلب نقي، فقال: جيد لما جئت له رحمة الله تعالى، فقال: وفيهم جئت حملت على نفسك، وجميع من معك حملوا عليك، حتى لو سألتهم أن يتحملوا عنك شخصاً من ذنب ما فعلوا ولكن أشد علمي حيّاً لك أشد علمي هرباً منك. ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عما لا رضى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيرة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاد، فاشيروا علي. فعد الخلافه بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة، فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فليكن كبير المسلمين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً، فبكر أبك، وأرحم أشاك، وتحزن على ولدك. وقال رجاء بن حيرة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، ثم متى شئت مت، وإني لأقول هذا، وإني لأخاف عليك أشد الحروف يوم تزل الأقدام، فهل معك رحمة الله مثل هؤلاء القوم من يأمرك بمثل هذا. فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً حتى غشى عليه، فقلت له: ارفق بأمر المؤمنين، فقال: يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك، وأرفق به أنا، ثم أفاق هارون الرشيد، فقال: زدني. فقال يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه شكاً إليه سهرراً، فكتب له عمر يقول: يا أخى اذكر سهر أهل النار في النار واخلد الأبدان، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك تافهاً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السيل، فيكون آخر العهد بك ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه، فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً ثم قال: زدني. قال يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه، فقال يا رسول الله أمرني إمارة، فقال له النبي ﷺ: «يا عباس، نفس تحبها خير من إمارة لا تحبها». إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال: زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصيح وتبكي وفي قلبك غش لرعيك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح راحة الجنة»، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دين لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألتني، والويل لي إن لم يلهمني حجتى، قال هارون: إنما أعني دين الصياد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وإنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ زَنْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُبْعَثُونَ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨). فقال له هارون: هذه ألف دينار، فخذها وانفقها على عيالك وتقرب بها على عبادة ربك، فقال: سبحان الله أنا ذلك على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا سلمك الله ووفقك، ثم صمت، فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فقال لي هارون: إذا دللتني على رجل فللتني على مثل هذا، فإن هذا سيد المسلمين اليوم. وأعلم أن الأمر بالعرف والنهي عن المنكر له شروط وصفات، قال سليمان الخواص: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهو نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الأشهاد فلما يكره. وقالت أم الدرداء^(١) رضى الله تعالى عنها: من وعظ أخاه سراً فقد سره ورائه، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه، ويقال: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وسره، ومن وعظه جهراً فقد فضحه وصره. وعن عبد العزيز بن أبي داود قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه. وعن عمر رضى الله تعالى عنه: إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه وسددوه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة، فيتوب عليه، ولا تكونوا أعراناً للشيطان على أخيككم. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أم الدرداء: هي خيرة بنت أبي حذرة واسمه سلامة بن عبيد بن أبي سلمة الأسلمي، صحابية تعرف بأمر الدرداء الكبرى، من فطيات النساء وفوات الراى فيهن، حُفَّت من النبي ﷺ وعن زوجها (أبو الدرداء) روى عنها جماعة من التابعين، توفيت سنة نحو (٣٠٠هـ - ٦٥٠م).

ففي الصمت و صون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة

ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

الفصل الأول: في الصمت و صون اللسان

قال الله تعالى: ﴿مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رِجْلاً لَبِئْسَ مَا كَفَرَ﴾ [الفرج: ١٤].

وأعلم أنه ينبغي للعالم المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإساءة عنه، لأنه قد يجبر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة يعادلها شيء، وروينا في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت».

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه في الأم: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى يظهر.

وروينا في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده».

ورويها في كتاب الترمذى عن عقبة بن عامر رضى الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك». قال الترمذى حديث حسن. وروينا في كتاب الترمذى، وابن ماجه، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت كفاية لمن وفقه الله تعالى.

وأما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن ننته على شيء منها.

فمما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي اجتماعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعينك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكك ولم تملكها، وقال بعضهم مثل اللسان مثل السبعم، إن لم توثقه عدا عليك وحلفك شوه.

ومما أنشده في هذا الباب:

احفظ لسانك أبها الإنسان لا يلدغك إنه شعبيان

كم ضي المقابر من قنديل لسانه كانت تهاب لقاء الشجعان

وقال الفارسي:

لعمرك إن في ذنبي لشفلا لنفسي عن ذنوب بني أمية

على ربي حمائم إليه تنافى علم ذلك لا إليه

وقال على رضى الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام، وقال أعرابي: رب منطق صدع جمعاً وسكوت شعب صدعاً، وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى عزلة الناس، وقال على بن

هشام رحمة الله تعالى عليه:

لعمرك إن الحلم زين لأهله
ومسا الحلم إلا عسادة وتحلم
إذا لم يكن صمت الفسنى عن ندامة
وعى فلبان الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عبيدة: من حرم الخير فليصمت، فإن حرمهما فالمرتبة خير له، وعن رسول الله ﷺ أنه قال لا يبى ذر^(١) رضى الله عنه: «عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك». ومن كلام الحكماء: من نطق في غير خير فقد لغا، ومن نظر في غير اعتبار فقد سها، ومن سكت في غير فكر فقد لها، وقيل: لو قرأت صحيفتك لأعمدت صفيحتك ولو رأيت ما في ميزانك لحتمت على لسانك. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته، فقيل له: ألا تتكلم؟ فقال: الكلام صيرنى في بطن الحوت. وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم، وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام لأن السفه إذا سكت عنه كان في اغتنام، وقيل لرجل: بيم سادكم الأحف، فوالله ما كان بأكبركم ساء، ولا بأكثركم مالا؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه، وقيل: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها، وقيل: اجتمع أربعة ملوك، فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما قل مراراً، وندمت على ما قلت مراراً، وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت، وقال ملك الصين: سالم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتنى، وقال ملك الهند: العجيب ممن يتكلم بكلمة إن رفعت غسرت وإن لم ترفع لم تنفع، وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوت طائر، فرماه، فاصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان. لو حفظ هذا لسانه ما هلك، وقال على رضى الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه: الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع، وإن أكثرته منه قتل، وقال لقمان لولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك، يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أتت، فيقلن بخير إن تركتنا.

قال الشاعر:

أحفظ لسانك لا تقول فتسببلى
إن البلاء مـوكل بالمنطق

الفصل الثاني: في تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقيع القبايح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو عصامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاسته أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابتك أو رمزت إليه بعينك أو يدك أو راسك أو نحو ذلك، فاما الدين فكقولك سارق خائن ظالم متهاون بالصلاة متساهل في النجاسات ليس باراً بوالديه قليل الأدب لا يضع الزكاة مواضعها ولا يجتنب الغيبة، وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود أو أصف، وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف أو حداد أو حائك تريد تنقيصه بذلك أو فلان سئ الخلق متكبر، مرء معجب عجول جبار ونحو ذلك أو فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثوب ونحو ذلك، وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أندرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: وإن كان في أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» قال الترمذي حديث حسن صحيح. وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن هاشم رضى الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حبيب من صفة كذا وكذا. قال بعض الرواة تعنى قصيرة. فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» أى خالطته مخالطة بتغير بها طعمه وريحه لكثرة تنهها وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بى إلى السماء مرتت يقوم لهم أطفال من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكولون

لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». وروى عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا، ثم قال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليزني فيتوب، فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها». وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: من اغتاب المسلمين وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان، جئ به يوم القيامة مزقة عينا يتأذى بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفونه، وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة، وقال الأحنف: في خصلتان: لا اغتاب جليسي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه. وقيل للربيع بن خيثم: ما تراك تعيب أحداً فقال: لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لدم الناس وأتشد:

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها لنفسى من نفسى عن الناس شاغل
وقال كثير عزة:

وسمى إلى بنصيب عزة نسوة جعل الإله عذودهن نمالها

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان وأول من عمل السويق ذو القرنين وأول من عمل الحيس يوسف، وأول من عمل خبز الجرادق عمرو، وأول من كتب في القراطيس الحجاج، وأول من اغتاب إبليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصر فهو أول من يدخل النار. ويقال لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك، أن يتأتابك عند غيرك. وقيل للحسن البصري رضى الله تعالى عنه إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت لي، فقال الحسن: أهديت لي حسنتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً لا غتبت والذي لأنها أحق بحسنتي، وإذا حاكى إنسان إنساناً بأن يمشى متعارجاً أو متطالطاً أو غير ذلك من الهيئات، يريد تنقيصه بذلك فهو حرام. وبعض المتفقين والمتبدين يعرضون بالغيبة تعرضاً تنهم به كما تنهم بالتصريح، فيقال لأحدهم كيف حال فلان فيقول الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحهم، نسأل الله العافية، نحمد الله الذى لم يتبلى بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الكبر، يعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يفهم فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على من يستمع إنساناً يتدنى بغيبة أن ينهأ إن لم يخف ضرراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قال بلسانه أسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك، قال بعض العلماء، إن ذلك نفاق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. وما أشدوه في هذا المعنى:

وسمعتك صن عن سماع القبيح كصمون اللسان عن النطق به
فلنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتعبه
وكم أزعج الحصرص من طالب فوافى النية في مطلبه

الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَالٍ مِنْهُمْ ۚ هَٰذَا مِثْلُ مَا يُفْعَلُ﴾ [النمل: ١٠، ١١]. وحسبك بالنميمة وورذيلة، سقوطه وضعته والهمار المغتاب الذى يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصري: هو الذى يغمز بأخيه في المجلس وهو الهمزة للزعة. وقال على والحسن البصري رضى الله عنهما: العتل الفاحش السيئ الخلق، قال ابن عباس رضى الله عنهما: العتل الفاتك الشديد المناق، وقال عبيد بن عمير: العتل الأكل والشرب القوي الشديد، يوضح في الميزان فلا يزن شميرة. وقال الكلبي: هو الشديد فى كفره. وقيل: العتل الشديد المحصومة بالباطل، والزيم

هو الذى لا يعرف من أبوه. قال الشاعر:

ونسيم ليس يعترف من أبوه بغى الأم ذو حسب لشميم

وروي فى صحيح البخارى ومسلم عن حذيفة رضى الله عنه عن النبی ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مأم». وروى أن النبی ﷺ مر بغيرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يشمى بالنعمة، وأما الآخر فكان لا يستزده من بوله». قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمة الله تعالى عليه: النعمة إنما تطلق على الغالب على من يتم قول الغير إلى المقول فيه كقوله فلان يقول فيك كذا، فينبغي للإنسان أن يكتف عن كل ما رآه من أحوال الناس إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع معصية، وينبغي لمن حملت إليه النعمة وقيل له قال فيك فلان كذا أن لا يصدق من ثم إليه لأن النعماء فاسقة، وهو مردود الخير، وأن ينهاء عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويغضبه فى الله تعالى، فإنه بغض عند الله والبغض فى الله واجب، وأن لا يظن بالمقتول عنه سوء، لقول الله تعالى: ﴿اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وسعى رجل إلى بلال بن أبى بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له انصرف حتى أكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو ابن بغى يعنى ولد زنا. قال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه: لا يتم على الناس إلا ولد بغى. وروى أن النبی ﷺ قال: «ألا أخبركم بشرلوكم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: شراركم المشاؤون بالنعمة، المفسدون بين الأحبة والباغون العيوب».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبی ﷺ قال: «ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شفار، ملعون كل قتات، ملعون كل مام، ملعون كل منان». والشفار المحرش بين الناس يلقى بينهم العدواة، والقتات: النمام، والمنان: الذى يعمل الخير ويمن به. وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذى قدرة فهى المهلكة والحالقة التى تجمع الحاصل الذميمة، من الغيبة وشتم النعمة والتفريز بالنفوس والأموال فى النوازل والأحوال، وتسلب العزيز عز وتحط الحكيم عن مكانته والسيد من مرتبته، فكم دم أراقه سعى ماع، وكم حريم استبيح بنعمة مام، وكم من صفيين تباعدا وكم من متواصلين تقاطعا، وكم من محبين افترقا، وكم من إقنين تهاجرا وكم من زوجين تطلقا، فليقت الله ربه عز وجل، رجل ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار أن يصغى لساع أو يستمع لنمام. ووجد فى حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه. وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والنمامون، إذا سرق اللصوص المتاع سرقوا هم المودات. وفى المثل السائر: من أطاع الواشى ضيع الصديق، وقد تقطع الشجرة قنتب، ويقطع اللحم السيف فينمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيه وكان مالا كثيرا، فكتب إليه على ظهرها: والنعمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعى لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وروي فى كتاب أبى داود والترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»

. ومن الناس من يتلون الوائى ويكون بوجهين ولسانين، فيأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجهيا. قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

قل للذى لست أدري من تلونه	أناصح أم على فاش هناجيينى
إني لأكثر مما سمعتى عجبا	يد تشع وأخبرى منك تأسونى
تفتابنى عند أقوام ومحدثى	فى أخسرين وكل هنك يأتينى
هذان شأن قد نافيت بينهما	فأكف لسانك عن شتمى وتزينى

وقيل: لألف لحوح جموح خير من واحد متلون. وكان يشبه التلون بأى براقش، وأبى قلمون، فأبو براقش طائر منقط بالوان النقوش يتلون فى اليوم الوائى وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون الوائى، ويقال للطائش الذى لا ثبات معه أبو رياح، تشبيها بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع يدور

مع الريح وعيناه ممدودة وأصابها مضمومة إلا السابعة، فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيه، والذي يعمل الصبيان من قرطاس على قصبة، يسمى أبا رياح، أيضاً ويقال: أخلاق الملوك مثل في التلون. قال بعضهم:

ويوم كـأخلاق الملوك تلرناً فسـححو وتغـيـيم وطل ووابل
أشبهه إياك يا من صفاته دنو وإعـراض ومنع ونائل

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلغني عن الشقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً. وكان الفضل بن سهل يغيض الساعية، وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبتك، وإن استقلتنا أقتناك. وكتب في جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول الساعية شر من الساعية لأن الساعية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازه، فأتوا الساعي فإنه لو كان في ساعته صادقاً لكان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمه ولم يستر العورة. وقيل: من سعى بالنميمة حلزوه الغريب ومقته الغريب. وقال المأمون: النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عدواة إلى جددتها، ولا جماعة إلى بددتها، ثم لابد لمن عرف بها ونسب إليها، أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه وأنشد بعضهم:

من ثم في الناس لم تؤمن عـقـاربه على الصديق ولم تؤمن أقـساعيه
كالسيل بالليل لا يدوى به أحد من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعهد منه كيف ينقضه والويل للود منه كيف يفنيه
وقال آخر:

يسمى عليك كما يسمى إليك فلا تأمن غوائل ذي وجهين كسياد
وقال صالح بن عبد القدوس^(١) رحمه الله تعالى:
من يخـبـرك بشـئـم عن أخ فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهه به إنما اللوم على من أعلمك
وقال آخر:

إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا شراً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا
وقال آخر:

إن يـمـمـعوا ربة طاروا بها فرحاً منى وما سمعوا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقال الحسن: ستر ما عاينت أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه: من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها.

(وما جاء في النهي عن اللعن)

ما روينا في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن المؤمن كقتله». وروينا في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون للعائون

(١) صالح بن عبد القدوس: هو صالح بن عبد القدوس الأدي الجذامي، مولا، أبو الفضل، شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، وشعره كله أمثال وحكم وأقارب، اتهم عند المهدي العباسي بالزندقة فقتله ببغداد، وعنى في آخر عمره قتل من (١٦٠هـ-٧٧٧م).

شفعاء ولا شهداء يوم القيامة». وروينا في سنن أبي داود، عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا لعن شيئاً سعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً فإذا لم تجد مساعداً رجعت إلى الذى لعن إن كان أهلاً لذلك، وإلا رجعت إلى قائلها». ويجوز لعن أصحاب الارصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود، والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك.

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ: «لعن الواصلة والمتوصلة»، وأنه قال: «لعن الله أكل الربا»، وأنه قال: «لعن الله المصورين»، وأنه قال: «لعن الله من لعن والديه»، وأنه قال: «لعن الله من ذبح لغير الله»، وأنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وأنه قال: «لعن الله المثبتهين من الرجال بالنساء، والمثبتهات من النساء بالرجال»، وجميع هذه الألفاظ في البخارى ومسلم بعضها فيهما، وبعضها في أحدهما، والله أعلم.

(وما جاء في العزلة ومدح الحمول وذم الشهرة)

قال رسول الله ﷺ: «الحمول نعمة، وكل يترأى والظهور نقمة وكل يمتنى».

وقال بعضهم:

تلحف بالحمول تعش سليماً وجالس كل ذى أدب كسريماً

وقال جعفر بن الفراء:

من أحمل النفس أحياها وروحها ولم يبت طأوياً منها على ضجر
إن الرياح إذا اشتدت عواصفها فليس ترمى سوى العالى من الشجر

وقال أعرابي: رب وحدة أنفع من جليس ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضريري يقول: في خصلتان، ما يسرنى بهما رد بصرى قلة الإعجاب بنفسى، وخلو قلبى من اجتماع الناس إلى. وقال عمر رضى الله عنه: خذوا حظكم من العزلة. وصعد حان على أطم من أطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صباحاه، فاجتمعت الحزرج، فقالوا ما عندك؟ قال: قلت بيت شعر، فأحييت أن تسمعه. قالوا: هات يا حان. فقال:

وإن امرءاً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت بالعقيق، فقال: رأيت أسواقهم لأغية ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية. وقيل لعروة أحمى مدراس: لم لا نتخذنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبى باجتماعكم إلى حب الرئاسة، فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل فى مرضه نعوذ، فقال ما جاء بكم، والله لو لم نجئوا لكان أحب إلى، ثم قال: نعم الشئ المرض لولا العبادة، وقيل للفضل: إن ابنك يقول: وددت لو أتى بالمكان الذى أرى الناس فيه، ولا يرونى، فقال: ويح ابنى لم لا أتقها، فقال: لا أراهم ولا يرونى، وقال على رضى الله تعالى عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته، واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه فى شغل، والناس منه فى راحة. وقال سفيان: الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس. وقيل لراهب فى صومته: ألا تنزل، فقال: من مشى على وجه الأرض عثر. والكلام فى مثل هذا كثير، وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب

للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: «وقروا السلاطين وجاهدوهم، فإنهم عز الله وظله في الأرض إذا كانوا عدولاً»، فقال الحجاج: ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولاً؟ قال: قلت: بلى. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: قلت للنبي ﷺ: أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو؟ قال: «ظل الله في الأرض، فإذا أحسن فله الأجر وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر وعليكم الصبر». وعنه عليه الصلاة والسلام: «أيما راع استرعى رعيته، ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من ورائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء». وقال مالك بن دينار رضى الله تعالى عنه: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا أئستكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعظفهم عليكم. وقال جعفر بن محمد رحمة الله تعالى عليه: كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. وقال كسرى لسيرين: ما أحسن هذا الملك لو دام، فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق الشرطي بابن شيرمة في موكبه فقال:

أراها وإن كانت تحب فإبناها سحابة صيف عن قليل تقشع

وجلس الإسكندر يوماً فما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي. وقال الجاحظ: ليس شيء أذل ولا أسر من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالاعداء، ومن تقليد المن أعتاق الرجال لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن وقسمة النفس، وقيل: الملك خليفة الله في عبادته، ولن يستقيم أمر خلافة مع مخالفة. وقال الحجاج: سلطان تخافه الرعي خير من سلطان يخافها. وقال أودشير لابنه: يا بني الملك والدين أحوال لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس والملك حارس، وما لم يكن له أس فمهذوم، وما لم يكن له حارس ففساد. قيل: لما دنت وفاة هرمز وأمراته حامل، عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتشيير المملكة حتى يولد له ولد، فتملك، وأغار العرب على نواحي فارس في صباه، فلما أدرك ركب، وانتخب من أهل النجدة فرساناً وأغار على العرب، فأنهكهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً، فقيل له: ذو الأكتاف، وأمر العرب حيث ذارخاء الشعور ولبس المصيفات، وأن يكتنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلا هراة.

وقيل: من أخلاق الملوك حب الفرد. كان أودشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قفص ربحان، وإذا لبس حلة لم ير أحد مثلاً، وإذا تختم ببخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله.

وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتم لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه. وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلاً. وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى يتزعج. وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك.

وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحس المرزعة عن ابنها، وكان أودشير متى شاء قال: لأرفع أهل مملكتي وأضعهم كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت، حتى كان يقال: يأتيه ملك من السماء، وما ذاك إلا بتفضعه وتيقظه.

وكان علم عمر رضى الله عنه بمن نأى عنه كلمه بمن بات معه على وساد واحد. ولقد اتقى معاوية أثره وتعرف إلى زياد رجل، فقال: أنتعرف إلى وأنا أعرف بك من أبيك وأمك، وأعرف هذا البرد الذي عليك؟ ففرغ الرجل حتى ارتعد من كلامه.

وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها، فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها وفضلها وشأنها كيت وكيت، فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني.

(وما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام)

أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا الْأَمْرَ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وروي في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضى الله عنهما قال: «بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة، والنصح لكل مسلم».

ومثل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى، ومن غشه ضل. وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: «لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في الأرض، به يقوم الحق ويظهر الدين، وبه يدفع الله الظلم ويهلك الفاسقين». وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتي لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فاطمئني كما كنت أطيعك، خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك.

وعن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أمري فقد أطاعني، ومن عصى أمرى فقد عصاني».

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبة والدعاء له. ولو تتبعنا ذلك لطلال الكلام، لكن أعلم أرشدني الله وإياك إلى الاتباع، وجنبنا الزيغ والابتعاد، أن من قواعد الشريعة المظهرة والملة الحنيفية المحرزة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعة عصمة من كل فئة، وطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض، وتحقق الدعاء، وتؤمن السبل، وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها وأن الحجاج عن طاعة السلطان متقطع العصمة برئ من الذمة، وأن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم، وأن الخروج منها خروج من أسس الطاعة إلى وحشة المعصية، ومن غش السلطان ضل وزل، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل، وأن طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم. وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما يبينه، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا، إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحة السلطان: فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما، قال لى أبى: يا بنى إنى أرى أمير المؤمنين يستغليك ويستشريك ويقلدك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ، وإنى أوصيك بخلاف ثلاث: لا تشين له سراً، ولا تحزين عليه كلباً، ولا تختابن عنده أحداً، قال الشعبي رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس كل واحدة منهن خير من ألف، فقال: إى والله، ومن عشرة آلاف.

وقال بعض الحكماء: إذا رادك السلطان تأنيباً فزده إجلالاً، وإذا جملك أخاً، فاجعله أباً، وإذا رادك إحساناً، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا فى الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكتر فى الدعاء له عند كل كلمة، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة.

وقال مسلم بن عمر بن خديم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ولا تتخير منه إذا أقصاك.

وروى أن بعض الملوك استصحب حكيماً، فقال له: أصحبك على ثلاث خصال، قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لى سراً، ولا تشتم لى عرساً، ولا تقبل فى قول قاتل حتى تستشيرنى، قال: هذا لك. فماذا لى عليك؟ قال: لا أفسى لك سراً، ولا أدر عنك نصيحة، ولا أوتر عليك أحداً، قال: نعم الصاحب للمستصحب أنت.

وقال يوزجهمر: إذا سلحت ملكاً من الملوك، فلا تطعه فى معصية خالفك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، ويقاعه بك أغلظ من يقاعه.

وقالوا: اصحب الملوك بالهية لهم والوقار لأنهم إما احتجوا عن الناس لقيام الهية وإن طال أنك بهم تزده غماً.

وقالوا: علم السلطان وكأنك تتعلم منه، وأثر عليه وكأنك تستشيره، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك، ويثق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطائه، فإنك لا تدرى متى يتغير منك، فيكونون عوناً عليك، وإياك أن تعادى من إذا شاء أن يطرح ثيابه، ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل. وفى الأمثال القديمة احتذروا زمارة المخدة وفيه قيل: بيت منفرد:

ليس الشفيع الذى يأتيك مستزراً مشل الشفيع الذى يأتيك عريئاً

وقال يحيى بن خالد: إذا صحب السلطان فداره مداواة المرأة العاقلة لصحة الزوج الأحق.

وأما ما جاء فى التحذير من صحة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان، قال فى كتاب كيلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحة السلطان، واثتمان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال قد خاطر ينتب من ركب البحر، وأعظم منه خطراً من صحب السلطان، وكان بعض الحكماء يقول: أحق الأمور بالثبث فيها أمور السلطان، فإن من صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور. وفى حكم الهند صحة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر.

وقيل للمثابى^(١): لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنى رأيت يعطى عشرة آلاف فى غير شئ، ويرى من السور فى غير شئ، ولا أدرى أى الرجلين أكون. وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب العصى، ويبطش ببطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لى عمر بن عبد العزيز يا ميمون احفظ عنى أربماً: لا تصحب السلطان وإن أمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر، ولا تخلون بأسراً وإن أقرأها القرآن، ولا تصل من قطع رحمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً، وكم رأيتنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل

(١) الثابى: هو كثيرون بن عمرو بن أيوب التخلى، أبو عمرو، من بنى عتاب بن سعد، كاتب، حسن القربل، وشاعر مجيد، يسلك طريقة النابغة، من أهل الشام، كان ينزل قنسين، رعى بالزنتقة، فطلبه الرشيد فهرب، وله: «فنون الحكم» و «الأباب» وغيرها، توفى سنة (٢٢٠ هـ - ٨٣٤م).

والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به ، فكان كما قيل :

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ومثل من صحب السلطان ليصلحه ، مثل من ذهب ليقيم حائطاً مائلاً ، فاعتمد عليه ليقيمه ، فخر الحائط عليه فأهلكه .

قال الشاعر :

ومعاشير السلطان شبه سفينة فى البحر ترجف دائماً من خوفه

إن أدخلت من مسائه فى جوفها يفتسألهام مع مائها فى جوفه

وفى كتاب كليله ودمته : لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك ، فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ، ولا يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك ، فيقربوك عند ذلك ، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ، ولا ود للسلطان ولا إخاء ، والذنب عنده لا يغير .

وقالت الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف . وقال محمد بن واسع : والله لسف التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين . وقال محمد بن السماك : الذباب على العذرة خير من العابر على أبواب الملوك . وقيل : من صحب السلطان قيل أن يتأدب ، فقد غر بنفسه . وقال ابن المعتز : من شارك السلطان فى عز الدنيا شاركه فى ذل الآخرة ، وعنه إذا وادك السلطان تأتياً وإكراماً فزده تهيئاً واحتشاماً . وقال أبو على الصغاني^(١) : إياك والملوك ، فإن من والاهم أخذوا ماله ومن عاداهم أخذوا رأسه . وقيل : مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار ، أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة : عقل ، وصبر ومال ، وتحت مكتوب : كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان . وقال حسان بن ربيع الحميرى : لا تتقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرأة فإنه ختون ولا بالدابة فإنه شرود . وقال عبيد بن عمير : ما ازداد رجل من السلطان قريباً إلا ازداد من الله بعداً ، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه ، وقال ابن المبارك رحمه الله :

أرى الملوك يآذنى الدين قد قنعوا ولا أرحم وضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم فى وفاة بنى مروان :

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم وأفتتتموا أيامكم بمنام

فمن ذا الذى يغشاكم فى ملمة ومن ذا الذى يغشاكم بسلام

رضيتم من الدنيا بأيسر بلغة بلثم غلام أو بشرب مدام

ولم تعلموا أن اللسان موكل بمدح كرام أو بدم لشام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك ، فقالوا : إن الملوك يستعظمون فى الثواب رد الجواب ، ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب ، وقيل : شر الملوك من آمنه الجرى وخافه البرئ . والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) أبو على الصغاني : هو الصاغاني الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوى العمري الصاغاني الحنفي رضي الدين ، أعلم أهل عصره فى اللغة ، وكان فقيهاً محدثاً ، ولد فى لاهور بالهند (٥٧٧هـ) ونشأ بفنزة (فى بلاد الهند) ودخل بغداد ، له : «مجمع البحرين» و «الكلمة» و «العباب» وغيرها ، توفى بمكة كما أرى سنة (٦٥٠هـ - ١٢٥٢م).

في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً من موسى عليه السلام: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ [طه: ٢٩]. فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة، فقال: ﴿أشد به أوزى وأشركه في أمرى﴾ [طه: ٣١، ٣٢] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة، ثم قال: ﴿كى نسبحك كثيراً﴾ ونذكرك كثيراً [طه: ٣٣، ٣٤] دلت هذه الآية على أن بصحة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة، تنظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأقره الخيل إلى السوط، وأحد الشفار إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله. وقال وهب بن منبه، قال موسى لفرعون: آمّن ولك الجنة ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاوره في ذلك، فقال له هامان: بينما أنت إله تعبد إذ صرت تعبد، فأنف واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يالوه خيالاً، ولبس القنزاء شر قرين لشر خلدن، وأشرف منازل الأعمىين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير. وأولى ما يظهر نبيل السلطان وقوة تميزه وجسودة عقله في انتخاب الوزراء واستقاء الجلساء ومحادثة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمروءة موسوم بقرينه، وكان يقال حلية الملوك وزيتهم ووزرائهم.

وفي كتاب كيلة ودنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان، وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، وفي كل صحيفة: أرحم المسكين واخش الموت، وإذا ذكر الآخرة، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكر غضبه، ومثل الملك الحير والوزير السوء الذى يمنع الناس خيره ولا يمتكئ من الدنو منه، كالماء الصافى فيه التماسيح، فلا يستطيع المروء دخوله، وإن كان سابحاً وإلى الماء محتاجاً، ومثل السلطان كمثل الطبيب، ومثل الرعية كمثل المرضى، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير. وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحد من المرضى وصف للطبيب نقيض داءه، فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل، فيقتله الملك، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقاً في لسانه عدلاً في دينه مأموناً في أخلاقه بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة، وليحذر الملك أن يولى الوزارة لثيماً، فاللثيم إذا ارتفع جفا أقباريه وأكبر معارفه، واستخف بالاشراف وتكبر على ذرى الفضل، ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء وكان الوزير من أهل العقل والادب، فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يا ملكاً طاعته لازمه وحبيبه مفترض واجب
إن الذى شـرـفـت من أجله يسزعهم هذا أنه كـاذب
وأشار

إلى الذمى، فأسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فأنه، فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعتترف بالإسلام. وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيره: إذا رأيت غضبان، فادفع إلى رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى أنك لست بإله، وأنت ستموت، وتعود إلى التراب، فيأكل بعضك بعضاً، وفي الثانية: أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة: اقض بين الناس بحكم الله، فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك. ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير،

وإذا أحبك الوزير، فتم لا تخش الأمير، ومثل السلطان كالدنار والوزير بابها، فمن أتى الدار من بابها ولج ومن أتاها من غير بابها انزعج. وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصر، فكما أن من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للمخلق رءوفاً بهم.

واعلم أنه ليس للوزير أن يكتسب عن السلطان نصيحة، وإن استقلها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرأة لا تترك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجسودة صقلها ونقاها من الصدأ. كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الفرر والخطر

أما الحجاب: فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجعت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجعت على الظلم. وقال ميمون بن مهران، كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال لحاجبه: من بالباب؟ فقال: رجل أناخ ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ، فأذن له أن يدخل، فلما دخل قال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من ولي شيئاً من أمور المسلمين ثم حجب عنه حجب الله عنه يوم القيامة»، فقال عمر لحاجبه: ألزم بيتك، فما روى علي بابه بعد ذلك حاجب. وكان خالد بن عبد الله القشيري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تمجبن عني أحداً. فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أعيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يتدمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها، قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب اللئيم ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق، فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا للدخلاء، ولو صرفنا لانتصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرف فلا أفهم معناه، ثم تمثل بهذا البيت.

وما عن رضى كان الخمار مطيى ولكن من يمشى سببى رضى بما ركب
ثم انتصرف، فبلغ ذلك المأمون، فغضب الحاجب غضباً شديداً وأمر لعبد الله بصله جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناساً يسرعون تبادراً إذا فتح السواب بابك أصبعاً
ونحن جلوس مأكسون ورائة وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعاً
ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي حيناً فلم يؤذن له فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم
فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مال ولم يعبر تعلق بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات فلا تستنكرون حجاب بابي
ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:
سأهجركم حتى يلين حجابكم على أنه لا بد سوف يلين
خذوا حذرکم من صفوة الدهر إنها وإن لم تكن خاتمة فسوف تخون
وقال آخر:

مما إذا على سواب داركم الذى لم يعطنا إذناً ولا يستأذن
لو ردنا رداً جميلاً عنكم أو كان يدفع بالتي هي أحسن
وقال آخر:

أبمرت بالتسهيل فى الإذن لى ولم ير الحجاب أن يأذنا
فلن ترائى بعددها عسائداً ولن تراه بعدد مستأذنا

وقال آخر:

ولقد رأيت بباب دارك جفوة
مما بال دارك حين تدخل جنة

وقال آخر:

إذا جئت ألقى عند بابك حاجباً
ومن عجب معنك جنة قاصد

وقال آخر:

سأترك باباً أنت غم لك إذنه
قلو كنت بواب الجنان تركتها

وقال آخر:

ماذا يفيدك أن تكون محجوباً
ما أنت إلا في الحصار معي فلا

وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
فما خاب من لم يأت منعمداً

إذا لم نجد للأذن عندك موضعاً
على ما أرى حتى يلين قليلاً

ولا فار من قد نال منه وصولاً
وجئنا إلى ترك المجنى سبيلاً

واستاذن رجل على أمير فقال للحاجب: قل له إن الكرى قد خطب إلى نفسي وإنا هي هجعة وأهب، فخرج

الحاجب، فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلاً لا أفهمه وهو يريد أن لا يأذن لك. وقال على بن أبي

طالب رضى الله عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلث بابه دون ذوى الحاجة والخلعة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون

حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه، فقال:

صبر إن جفوت فكم صبرنا
رجوناهم فلمما أخلفونا

فسيستنا بالسلامة وهي غنم
ولما نزل منهم ضروراً

فى كل يوم لى بـبابك وقـفـة
أطوى إليه سـالـى الأواب
وإذا حضـرت رغبـت عنك فـلـانـه
ذنب عـقـوبـته على البواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى للداود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَحُكِّمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْأَحْصَابِ﴾ [ص: ٢٦].

جاء فى التفسير أن من اتبع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذى فى قلبك محبة خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان الذى أصاب سليمان بن داود عليهما السلام أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نساؤه عليه، فحاجبوا إليه مع غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً.

وروى عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسال الإمارة، فإناك إن أعطيتها من غير مسألة أضعت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها». وقال معقل بن يسار رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد راحة الجنة».

وفى الحديث: «من ولى من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصيحة كما يحوط أهل بيته، فليتروا مقعده من النار». وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة، فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى فيقف على جسر جهنم، فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه، ثم يأمر الله تعالى بالعظام، فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده، وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به فى نار جهنم مقدار سبعين خريفاً»، فقال عمر رضى الله عنه: سمعت من النبى ﷺ مالم أسمع قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين، فقال سلمان: أى والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً فى واد يشهب النهاب، فضرب عمر رضى الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. من يأخذها بما فيها، فقال سلمان من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود فى السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن أبى عريف على الماء، وإنى أسألك أن تجعل لى العرافة من بعده، فقال النبى ﷺ: «العراف فى النار». وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر». وقالت عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة، فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين فى ثمرة». وقال الحسن البصرى إن النبى ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله، فقال يا رسول الله خير لى فقال: «اقعد فى بيتك». وقال أبو هريرة رضى الله عنه ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جئ به يوم القيامة مغلولاً، انهمأ عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فجاء فى حكمه، فاستلقى سليمان على سريره وهو ييكى، فمازال ييكى حتى قام عنه جلساؤه. وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبى عبيدة السلماني يستخبرون إليه فى ألواحهم، فلم ينظر إليهما، وقال: هذا حكم لا تؤلى حكماً ابداً. وقال أبو بكر بن أبى مريم: حج قوم، فمات صاحب لهم بأرض فلاة، فلم يجدوا ماء، فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء. فقال: احملوا إلى ثلاث وثلاثين يميناً أنه لم يكن صرافاً ولا مكاساً ولا عريقاً، ويورى ولا عرافاً، ولا بريداً، وأنا أدلكم على الماء، فحملوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً كما قال، فلهزم على الماء، فقالوا له: أئنا على غسلة فقال: لا. حتى تحملوا إلى ثلاث وثلاثين يميناً - كما تقدم. فحملوا له، فقصلى عليه، ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً، فكانوا يرون أنه الحضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضى الله عنه: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إنى أحب لك ما أحب لنفسى، وإنى أراك ضعيفاً، فلا تاتمرن على اثنين ولا تلين مال يتيماً». ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق: ما حكى أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له أردشير، وكان ذا مملكة متسعة

وجند كثير، وكان ذا بأس شديد، قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خمر، فسير أردشير من يخطبها من أبيها، فامتنع من إجابته، ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير، وأقسم بالآيمان المغلفة ليفزون الملك أبا البنت، وليقتله هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة، فسار إليه أردشير في جيوشه، فقاتله، فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل من ابنته المخطوبة، فبردت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدرًا واعتدلاً، فهبت أردشير من رويته إياها، فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ملك المدينة الفلانية، وإن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر، فلما رأيت ابنته التي أرسلت تخطبها أحببتني، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأسي بي، فتركتني لها، فكتت أنا وهي كاتنا روحان في جسد واحد، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقارب من الملوك، فقال أردشير: وددت لو أتى ظفرت بها فكتت أقطها شر قتلة، ثم إنه تأمل الجارية فرأها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها، فأخذها للسر، وقال هذه أجنبية من الملك ولا أحت في يميني بأخذها، ثم إنه وأقماها وإزال بكارتها، فحملت منه، فلما ظهر عليها الحمل، اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رآته منشرح الصدر، فقالت له: أنت غلبت أبي وأما غلبت، فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك بحر الأردن، وأما ابنته التي خطبتها منه، وأنتى سمعت أنك أقسمت لتقتلي فتحييت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني، فلا يتحيا لك قتلى، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحملت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها، وخرج من عندها مضطرباً، وعول على قتلها، ثم ذكر لوزير ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشى أن تحدث الملوك عنه بمثل هذا، وأنه لا يقبل فيها شفاعاً شافع، فقال لها الملك: إن الرأي هو الذي خطر لك والمصلحة هي التي رأيته أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأى الملك وحشته في يمينه لأجل شهوة النفس، ثم قال لها الملك: إن صورتها مرحومة وحمل الملك معها، وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أمسر ولا أهون عليها من الفرق. فقال له الملك: نعم ما رأيت خذها غرقها، فأخذها الوزير ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتجبل إلى أن طرح شيئاً في البحر أوهم من كان معه أنها الجارية، ثم إنه أخفاها عنده، فلما أصبح جاء إلى الملك، فأخبره أنه غرقها، فشكره على ما فعل، ثم إن الوزير ناول الملك حقاً مخسوماً وقال: أيها الملك إنني نظرت مولدى، فرأيت أجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس في التجرم، وإن لى أولاداً وعندي مال قد ادخرته من نعمتك، فخذ إذاً ما أتت إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فإنه يرى الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء ما اكتسبته منه إلا هذا الجوهر، فقال له الملك يطول الرب في عسرك ومالك لك ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً، فالحل عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة فأخذ الملك وأودعه عنده في صندوق، ثم مضت أشهر الجارية، فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الحلقة مثل فلقة القمر، فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسماً وسماه به، وظهر لوالده بعد ذلك، فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم يتحيا له ذلك، فسماه شاه بور ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك، ويور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم وتقديم المتأخر، وهذا تسمية ليس فيها مؤاخضة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الحط والحكمة والفروسية، وهو يوهم أنه ملوك له اسمه شاه بور، إلى أن راهق البلوغ هذا كله وأردشير ليس له ولد، وقد طعن في السن وأقعدته الهرم، فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير: قد هرم جسدى وضعفت قوتى وإنى أرى أنني ميت لا محالة، وهذا الملك يأخذ من يعمدى من قضي له به. فقال الوزير: لو شاء الله أن يكون للملك ولد، كان قد ولى بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها، فقال الملك: لقد ندمت على تفريقها. ولو كنت أبقيتها حتى تضع، فاعمل حملها يكون ذكراً، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا، قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد ولدت ووضعت ولداً ذكراً من أحسن الغلمان خلقاً وخلقاً، فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم، ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب وفي الوالد روحانية تشهد ببوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً، وإننى أتى بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنة وهيته ولباسه، وكلهم ذرو أباه معروفين خلا هو.

وإني أعطى كل واحد منهم صولجاناً وكرة وآسهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورههم، وخلقتهم وشماثلهم، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو، فقال الملك: نعم التدبير الذى قلت، فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ولعبوا بين يدى الملك، فكان الصبى منهم إذا ضرب الكرة وقررت من مجلس الملك تمنحه الهبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاء بور، فإنه كان إذا ضربها، وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم، فأخذها ولا تأخذ الهبة منه، فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً، فقال: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاء بور، فقال له: صدقت أنت ابنى حقاً، ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه، فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فآثبت لكل صبى منهم والداً بحضرة الملك، فتحقق الصدق فى ذلك، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها، فقبلت يد الملك، فرضى عنها، فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم، فأمر الملك بإحضاره، ثم أخذه الوزير وفك ختمه وفتحته فإذا فيه ذكر الوزير وأشباه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك، وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك، فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بلبلة واحدة، قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس فى الخدمة، وشدة مناصحته، فزاد سروره وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به، ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه، ولم يزل يتقبل فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة، ورجع الملك إلى ابنه شاء بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاء بور يحفظ مقامه ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمداً وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وقبول الرشوة والهدية على الحكم

وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحَسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقال رسول الله ﷺ: «من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارضاءيه، فلم يقض بينهما بالحق، فعليه لعنة الله»، وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فلم يرد عليه، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد على خليفة رسول الله ﷺ، فكلم عبد الرحمن أبا بكر، فقال: أثنائي، وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلى وسمعى وبصرى، وعلمت أن الله سائلى عنهما وعما قالا وقلت. وادعى رجل على على عند عمر رضى الله عنهما وعلى جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك، فتناظرا، وانصرف الرجل، ورجع على إلى مجلسه، فتبين لعمر التغير في وجه على، فقال يا أبا الحسن ما لى أراك متغيراً، أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذلك؟ قال: كنتى بحضرة خصمى. هلا قلت يا على قم، فاجلس مع خصمك، فاتخذ عمر برأس على رضى الله عنهما، فقبله بين عينيه، ثم قال بأبى أئتم بكم هذان الله وبكم أخرجا من الظلمات إلى النور.

وعن أبى حنيفة رضى الله عنه: القاضى كالفرق بين البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابعاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربه بالسياط، وليسجنه، فضره حتى انتفخ وجه أبى حنيفة ورأسه من الضرب، فقال: الضرب بالسياط فى الدنيا أهون على من الضرب بمقام الحديد فى الآخرة. وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فكشفت عن ياب مغلق فظنته كترأ، فكتبتا إلى أبى بكر رضى الله تعالى عنه، فكتب إلينا، لا تجركوه حتى يقدم إليكم كتابى، ثم فتح، فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان:

إذا خان الأمير كتابته وقاضى الأرض داهن فى القضاء
فـــــــويل ثم ويــــل ثم ويــــل لقاضى الأرض من قاضى السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه هذا سيف عاد بن إرم. عن ابن أبى أوفى عن النبی ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضى مالم يجز، فإذا جاز برئ الله منه ولزمه الشيطان». وقال محمد بن حريث: بلغنى أن نصر بن على راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملأه على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أبى لهذا الأمر كاره فاقبضنى إليك فقبض. وعن أنس رضى الله عنه عن النبی ﷺ: «القضاة جسور للناس يرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً، لأن يدخل الرجل أصبعه فى عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضياً. وقيل أول من أظهر الجسور من القضاة بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى، كان أمير البصرة وقاضياً فيها وكان يقول إن الرجلين يتقدمان إلى فاجد أحدهما أخف على قلبى من الآخر فأقصى له. وتقدم المأمون بين يدي القاضى يحيى بن أئتم مع رجل ادعى عليه ثلاثين ألف دينار، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه فقال له يحيى لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل بيعة، فأراد أن يحلف المأمون فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إنى تناولتك من جهة القلعة ثم أمر لسيحى بمال وأجزل عطاه. وقدم

خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فجزه الحاجب عن ذلك فلم يقبل، فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتع، يا غلام اتنى بعمرو بن أبي عمرو النخاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أرقفه بمساواة خصمه فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة، فقال له لو باعك لأجزت ببعه ولم أردك إلى ملكي، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم. وقال الأبرش العكلى يمدح بعض القضاة:

رفضت وعطلت الحكومة قبله في آخرين وملها وأرضها
حتى إذا ما قام ألفاً بينها بالحق حتى جمعت أو فاضها
وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكى وأندب ملة الإسلام إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كثيرة وأراك بعض حوادث الأيام

وتقدمت امرأة إلى قاضي، فقال لها جامعك شهودك، فسكت فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك، قالت: نعم، هلا قلت مثل ما قال كاتبك كبر سنك وقل عقلك وعظم لحيتك حتى غطت على لك ما رأيت ميتاً يقضى بين الأحياء غيرك. وقيل المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الأحكام، قاضي منى وقاضي كسكر وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصاوي:

بارب عـلـج عـلـج مثل البـمـبـر الأهرج
رأيتـه مـطـلـعـاً من خـلف بـاب مـرتـج
وخلفـه عـلـيـبـة تـنـهـب طـوراً وتـجـمى
فـقـلت من هـذا تـرى فـقـلـ قـاضـى أـيـدج
وقاضى شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيت رأماً كـنـديـة ولـحـيـة كـمـلـبـة
فـقـلت من أنت قـل لى فـقـال قـاضـى شـلـبـة

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعي فادعت عنده فقضى لها فقال هذيل الأشجعي:

فتن الشـمـعـى لما رفع الطـرف إلـيـهـا
فـتـنـتـه بـبـنـان كـيـف لـو رآى مـعـصـمـيـهـا
ومـشـت مـشـيـاً رويـداً ثم هـزت مـنـكـبـيـهـا
فـقـضى جـوراً علـى الخـصـم ولـم يـقـضـ عـلـيـهـا

فتأشدها الناس وتدارلونها حتى بلغت الشعي فضرب الأشجعي ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فحرقنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول: فتن الشعي لما أعادته ولم تعرف بقية البيت فللقنها الشعي وقال: رفع الطرف إليها ثم قال أبعد الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق، وأشد بعضهم في أمين الحكم:

تـمـاوتن إذا مـشـيت تـخـشـعـاً حـتى تـصـيب وديـعة لـيـتـيم

الفصل الثامن: في الرشوة والهبة على الحكم وما جاء في الدين

أما الرشوة، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تولوا اليهود ولا النصارى فإنتهم يقبلون الرشاً ولا يحل في دين الله الرشاً، قال الشهيد: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم.

وفي نوابغ الحكم أن البراطيل تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً أو ينفق بها ظلماً، فأهدى له فقبل فذلك السحت، فقيل له، ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم، قال الأخذ على الحكم كفر، وأنشد المبرد رحمه الله تعالى:

ركنت إذا خاصمت خصماً كسبته على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت على وقالت قم فسألك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال: فقد روى عن أبي أسامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من تدين بدين وفي نفسه وفأوه ثم مات، تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء. ومن تدين بدين وليس في نفسه وفأوه ثم مات، اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة». رواه الحاكم. وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى له بجناتة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويدأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه، فأتى بجناتة، فلما قام ليكبر ﷺ قال: «هل على صاحبكم من دين؟» فقالوا: ديثاران يا رسول الله، فعدل النبي ﷺ عنه وقال: «صلوا على صاحبكم»، فقال علي كرم الله وجهه: هما علي يا رسول الله وهو برئ منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال لعلي رضي الله عنه: «جزاك الله عنه خيراً»، فك الله رهاثك كما فككت رهاث أخيك، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتين بدينه، ومن فك رهاث ميت فك الله رهاثه يوم القيامة».

وقال بعض الحكماء: الدين هم بالليل وذل بالنهار، وهو غل جعله الله في أرضه فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله طوقاً في عنقه. وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى ديناً له على رجل، فقالوا: خرج إلى الغزو، فقال أشهد أن رسول الله ﷺ: قال: «لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أحيى، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى دينه». وعن الزعري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلى على أحد عليه دين، ثم قال بعد: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم من مات وعليه دين فعلى قضاؤه ثم صلى عليهم» وعن جابر لا هم إلا هم الدين ولا وجع إلا وجع العين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من تزوج امرأة بصدق يرى أن لا يؤديه إليها، فهو زان، ومن استدان ديناً يرى أن لا يقضيه فهو سارق»، وقال حبيب بن ثابت: ما احتجب إلى شيء استقرضه إلا استقرضته من نفسي، أراد أنه يصير إلى أن تمكن الميسرة، ونظيره قول القائل:

وإذا غلبتني على ترككتني فيكون أرخص ما يكون إذا غلبا
وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القرىض سميحاً قلبي فإلهتني القروض عن القرىض
وقال غيلان بن مرة التميمي:

وإني لأقضى الدين بالدين بعدما يرى طالبي بالدين أن لت قاضياً

فأجابته ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

واستعرض من الأصمعي خليل له فقال: حياً وكرامة، ولكن سكن قلبي برهن يسارى ضعف ما تطلبه، فقال: يا أبا سعيد أما تتبى؟ قال: بلى، وإن خليل الله كان وثاقاً يره، وقد قال له: ولكن ليطمئن قلبي، اللهم أوف عتادين الدنيا بالميسرة، ودين الآخرة بالمغفرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذكر القصص والتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصص والتصوفة: فقد روى عن خباب بن الارت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما قصوا هلوكوا». وروى أن كعباً كان يقص، فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان القصص حين كانت الفتن، وقال ابن المبارك: سألت الثوري، من الناس؟ قال العلماء، قلت: فمن الأشراف؟ قال: المتقون، قلت فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قلت: فمن الغوغاة؟ قال: القصاص الذين يتأصلون أموال الناس بالكلام، قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاص خاتماً بلا قص، فقال: وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا، فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تلعب منه عقول الرجال. ومثل ابن سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا، فهو كما قالوا. وكان يمرر قاص يبكي بمواعظه، فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كفه طنبوراً صغيراً فيحركه ويقول: مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفى بمعنى جيتك، فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأى شئ يصيد. ومثل بعض العلماء عن التصوفة، فقال: أكلة رقصه، ووعظ عيسى عليه السلام بنى إسرائيل، فأقبلوا بمزقون الثياب، فقال: ما ذنب الثياب، أقبلوا على القلوب فعاتبواها.

وأما ما جاء في الرياء: فقد قال الله تعالى: ﴿يُرَاعُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142]. وعن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين، وأنت تخلو من ذلك فتعشر مع المرائين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه، فهو من أقيع الرياء. وقيل: كل ووع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله فسى شئ. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: ما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». وقيل: بينما عابد يمشى ومعه غمامة على رأسه تظله، فجاء رجل يريد أن يستظل معه، فمتعه، وقال: إن أقيمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست بمن تظله الغمامة، فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أنى مرأ وكنت أمس والله صابحاً ولا أخبرت بذلك أحداً. اللهم اصلح فساد قلوبنا واستر فضاحتنا برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم أرتدك الله أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل بل تطلب الإحسان وهو فوق العدل فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]. فلو وسع الخلاق العدل ما قرن الله به الإحسان. والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوى والمحق من المبطّل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه، وأفضل الأزمات ثواباً أيام العدل. وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل في رعيته يومًا واحدًا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عامًا». وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء». وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: أخبرني عن جنة عدن، قال يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل، فقال عمر: والله ما أنا نبي، وقد صدقت رسول الله ﷺ وأما الإمام العادل، فإني أرجو أن لا أجور، وأما الشهادة فأتى لي بها. قال الحسن: فبعله الله صديقًا شهيدًا حكمًا عدلًا. وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: أيما أبلغ عندكم؟ الشجاعة أو العدل، قالوا: إذا استعملنا العدل استغنيا به عن الشجاعة. ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان عن العدل رغب الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ويسأله مالا يرميها به، فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي، فحصى مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام. ويقال: إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف، فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف، فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف، وقيل أكثر. وقال: إن عشت لأبلغه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فسات في تلك السنة. ومن كلام كسرى لا ملك إلا بالهند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالرعايا، ولا رعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور، فكتب المنصور لعماله استوف لأمير المؤمنين حقه، وقرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه، وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء، ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء، فكتب إليه المنصور: ملئت الأرض بك عدلًا. وكان أحمد بن طولون والي مصر متعلّقًا بالعدل مع تجره وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

حكى أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطحب يومًا، فلقبها بعض صالحى مصر وصعها غلام يحمل عودها فكسره، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح، فلما أحضر إليه قال: أتت الذى كسرت العود، قال: نعم. قال: أفعلت لمن هو؟ قال: نعم هو لإنيك العباس، قال: انما أكرمته لي، قال: أكرمه لك بمغنية الله عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]. ورسول الله ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك، ثم قال: كل منك رأيت غيري وأنا من ورائك. ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمنى فانصفنى منه وأدقنى حلالة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانيًا، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال: يا أمير المؤمنين إنا نغد في الترة المنزلة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه: إن الإمام لا يكون شريكًا في ظلم أحد حتى يعرف إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزل، فقد شاركه في الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع ويعث في الحال إلى من ظلمه، فغزله وأخذ لليهودى حقه منه.

وروى أن رجلا من المعتلا غصبه بعض الولاة ضيعة له، فأتى إلى المنصور، فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين

الذكر لك حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً؟ فقال: بل أضرب المثل. فقال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإما يفرغ إلى أمه إذ لا يعرف غيرها وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا راد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله تعالى، فإن انصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيته وحرمة. فقال المنصور: بل ننصفك، وأمر أن يكتب إلي واليه يرد ضيعته إليه. وكان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إليكم الله الذي في السماء الذي نصر نوحاً بعد حين، الذي يستقيم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغي أن الله تعالى أحب شيئاً إلا أحبه واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أثبت أن الله تعالى يحب العدل في عبادته ويغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيئى وسوطى، ومن ظهر منه العدل من عمالي، فليتك في مجلسي كيف شاء، ولتين على ما شاء قلن تخطه أمنيته، والله تعالى المجازي كلا بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سقفاً، ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل في خراجي بالعدل. وقيل: نظلم أهل الكوفة من واليهم، فشكوه إلى المأمون، فقال: ما علمت في عمالي عدل ولا أقوم بأمر الرعية وأعود بالرفق عليهم منه، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يولي به بلداً حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ويأخذ بقطعه من كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين، فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم. وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة، فنزل بواصل بن عطاء^(١) وقلن أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه، فأشرف عليهم من غرفة، فقال لواصل: من هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب، فقال: إنه يحب أن يسمع أبيات في العدل، فقال: سمعاً وطاعة، وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلاً نُـرَ به ولا نرى لولاً الحق أعـوانا
مستمكن بحق قائمين به إذا تلو أهل الجـور الوانا
يا للرجـجـال لئلا دواء له وقائد ذى عـمى يقـشـاد عـميانا

فقال المنصور: وددت لو أنى رأيت يوم عدل ثم مت. وقيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم، فابتدأ بأهل بيته، فاجتمعوا إلى عمه له كان يكرها وسالوها أن تكلمه، فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً، فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ فلما قضى الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً، وأهم الله لئن مد في عسرى لأردنه إلى ذلك الطريق الذى سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه. فقالت له: يا ابن أختى إني أخاف عليك منهم يوماً عصبياً، فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة، فلا أمنيته الله. وقال وهب بن منبه: إذا هم الوالى بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزرع والضروع وكل شيء، وإذا هم بآغير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك. وقال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالى وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متكرراً، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتمتع الملك من ذلك وحدثه نفسه بأخذها، فلما كان من الغد حلبت له النصف مما حلبت بالأمس، فقال له الملك: ما بال حلبها نقص أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا ولكن أظن أن ملكنا رآها أو وصله خيرها فهم بأخذها، فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها

(١) واصل بن عطاء: هو واصل بن عطاء الغزالي، أبو حذيفة من موالى بنى غيبة أو بنى مخزوم، رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والفكر، سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى الواصلية وهو الذى نشر ملحق الاعتزال، مات سنة (١٣١) هـ - ٧٤٨ م.

ولا يحسد أحدًا من الرعية، فلما كان من الغد حلبت عاداتها. ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حبيبة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحًا، فعزم الملك على أخذها منها، ثم أتاها وسألها عن ذلك، فقالت: نعم، ثم إنهما عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذى كان يقال؟ فقالت: هو الذى بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها منى، فارتفعت البركة منها، فتاب الملك وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبدًا، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى^(١) رحمه الله فى كتابه «سراج الملوك» قال: حدثنى بعض الشيخ عن كان يروى الأخير بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أراذب ولم يكن فى ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل شيئًا من ذلك العام. ولا ثمرة واحدة، وقال لى شيخ من أشياخ الصعيد أعرف هذه النخلة وقد شاهدتها وهى تحمل عشرة أراذب ستين وية وكان صاحبها يبيعها فى سنى الغلاء كل وية بدينار.

وحكى أيضا رحمه الله تعالى قال: شهدت فى الإسكندرية والصيد مطلق للرعية السمك يطفو على الماء لكثرة، وكانت الأبطال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم قالوا كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وما أشبه ذلك، وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع فكان الناس يتساءلون فى زمانه عن البنیان والمصانع والضياع وشق الأنهار وغرس الأشجار، ولما ولى سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة ويتخالون فى المتاح والسرارى ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك، ولما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن وكم وردك كل ليلة وكم يحفظ فلان وكم يختم وكم يصوم من الشهر وما أشبه ذلك. فبينما للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضى الله عنهم ويقتدى بهم فى الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محالة هالك وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبى مرسل أو ملك مقرب، وقد قيل: إن مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله تعالى بشرًا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاحًا للثمرات وروحًا للعباد، ولو تتبععت ما جاء فى العدل والإنصاف وفضل الإمام العادل لألفت فى ذلك مجموعًا جامعًا لهذا المعنى ولكن اقتضت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأله السامع، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو بكر الطرطوش: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خالق القرشى الفهرى الأندلسى، أبو بكر الطرطوشى ويقال له ابن رنقة أديب من فقهاء المالكية الحفاظ، من أهل طرطوشة بشرقى الأندلس، توفى سنة (٥٢٠هـ - ١١٢٦م).

فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قيل: هنا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَسِعَ ظِلُّهَا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبُ يَتَقَبَّلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام»، وقال أيضاً ﷺ: «رحم الله عبداً كان لاغيه قبله مظلمة فى عرض أو مال فأتاه فتحلله منها قبل أن يأتى يوم القيامة وليس معه دينار ولا درهم»، وقال أيضاً ﷺ: «من اقتطع حق أسيرى مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة»، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئاً يسيراً قال: «ولو كان قضيباً من أراك». وعن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى يا أخا المرسلين يا أخا المنشرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتى ولاحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة، فإنى ألعنه ما دام قائماً يصلى بين يدى حتى يرد تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة». وعن على رضى الله عنه عن النسي ﷺ: «ياإياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه»، وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد ظلم فشحخص يبصره إلى السماء إلا قال الله عز وجل: لييك عىدى حقاً لا نصرك ولوبعد حين»، وعنه أيضاً أنه قال: «ألا إن الظلم ثلاثة فظلم لا يغفر وظلم لا يترك وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذى لا يغفر فالشرك بالله والعباد بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وأما الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً، وأما الظلم المغفور الذى لا يطلب فظلم العبد نفسه». ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يارب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة، فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عِلَين وإذا مناد ينادى حلمى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عِلَين. وقيل: من سلب نعمة غيره سلب نعمته غيره. وسمع مسلم بن بشار رجلاً يدعو على من ظلمه فقال له: كَلِ الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك. ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم، ورئى لوح فى أفق السماء مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ونحته هذا البيت:

ولم أر مثلاً الجسور للمرء واضعاً

فلم أر مثلاً العبد للمرء رافعاً

وقال الشاعر:

فإن سقيمت فإنا المألون غداً

كنت الصحيح وكنا منك فى سقم

ولن ترد يد مظلوم مسة أبداً

دعت عليك أكف طالما ظلمت

وكان معاوية يقول: إنى لأمسحى أن أظلم من لا يجد على ناصرك إلا الله، وقال أبو العيانه: كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبى داود وقلت: قد تصافروا على وصاروا يدك واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكراً فقال: ولا يحق المكر السوء إلا بأهله، قلت: هم فئة كثيرة فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله. وقال يوسف بن إسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديثه فإن الملائكة تلغنه وإن كان أخاه لأبيه وأمه»، وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجبر فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيك هذا فيقولون: إى والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين». وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لما كشف الله العذاب عن قوم يؤنس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم حتى كان الرجل ليقطع الحجر من أمامه فيرده إلى صاحبه، وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر فى

البيان من غير حلة عربون على خرابيه، وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب، وقال بعض الحكماء: أذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يصحبك رحب الدواوين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هبتي من رجل ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك. وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله. ويكى على بن الفضل يوماً فقيل له: ما ييكىك؟ قال: أبكى على من ظلمنى إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة. وروى أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري»، ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر يا سليمان اذكر يوم الأذان فزّل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُّؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾ [الأعراف: ٤٤] قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لى بكان كذا وكذا أخذها وكيك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه. وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم فضربه المعلم يوماً من غير ذنب فأوجعه فمقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم: ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له: لما رأيته تزغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك فأجبت أن أذيقك طعم الظلم لكلا تظلم فقال أنوشروان: ره ره. وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمنَ العُمرَ حراً ظلمته فما ليلٌ حرٌّ إن ظلمتَ بناتِم

وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً فالظلم مصدرُهُ يفضى إلى التدم
تنام عيناك والمظلوم متبجبه يدعـو عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر:

أتهـزأ بالدمعـاء وتزدرية وما تدرى بما صنع الدمعـاءُ
سهام الليل نافذةٌ ولكن لها أمـدٌ ولأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ويرسلها إذا نفذَ القضا

وقال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تبرى بالليل والناس نيام، وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لوى فى الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أسلاكٍ مضىوا لسبيلهم أبادهم الموت المشئت والقـتل

يريد: الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سعد. ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها:

وحق الله إن الظلم لومٌ وأن الظلم مرتعـه وخسـيمٌ
إلى ديسان يوم الدين نمضى وعند الله نمجـم الخـصـوم

ووجد القاسم بن عبيد الله المكفى فى مصلاه رقعة مكتوباً فيها:

بغى وللبغى سهامٌ تنظر

أنفذ في الأحشاء من وخز الأبر مهام أيدي القاتلين في السحر

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يولية القضاء: ما كنت لألئ هذا بعدما حدثني إبراهيم، قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثني عن علقة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الظلمة وأعوان الظلمة وأشياخ الظلمة حتى من برى لهم قلعاً أو لاق لهم دواة، فيجمعون في تابوت من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم». وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبى للمظالم يوماً فلما انتقضى المجلس رأى رجلاً جالساً فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم. أدننى إليك فأتى مظلوم وقد أعوزنى العدل والإنصاف، قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتى قال: وما يحجبك؟ وقد ترى مجلسي مبذولاً. قال: يحجبني عنك هيتك وطول لسانك وفصاحتك. قال: فقيم ظلمتك؟ قال: فى ضيعتى الغلاتية أخذها وكيلك غضباً منى بغير ثمن فإذا وجب عليها خراج أدبته باسمى لك اسم فى ملكها فيطيل ملكى فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أودى خراجها وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم، فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بيعة وشهود وأشياء، فقال له: الرجل أبؤمتنى الوزير من غضبه حتى أجيب؟ قال: نعم قد أمتك. قال: البيعة هم الشهود وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر فما معنى قولك بيعة وشهود وأشياء وأنى رأى هذه الأشياء إن هى إلا الجور وعدولك عن العدل؟ فضحك مسخماً وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق وإنى لأرى فيك مصطنعاً ثم وقع له برد ضيعته وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من أصحابه فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف وإعادة ضيعته له، يقال له: يا فلان كيف الناس فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأصفه قال له: ليلة كيف الناس الآن؟ قال: بخير. قال اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الإجحاف ورددت عليهم الغصوب وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم بقاءك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب.

وما نقل فى الآثار الإسرائيلية فى زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلاً من ضعفاء بنى إسرائيل كان له عائلة وكان صياداً يصطاد السمك ويقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يوماً للصيد فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ففرح بها ثم أخذها ومضى إلى السوق ليبيعها ويصرف ثمنها فى مصالحيه، فلقى بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العوانى خشية كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غضباً بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلهى جعلتنى ضعيفاً وجعلته قوياً عنيداً، فخذ لى يحق منى عاجلاً فقد ظلمنى ولا صبر لى إلى الآخرة، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها فلما شوتها قدمتها له ووضعها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فهاها ونكرته فى أصبح يده نكرة طار بها عقله وصار لا يقر بها قراره فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل به فلما رآها قال له: دواها أن تقطع الأصبع لتلا يسرى الألم إلى بقية الكف، فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد وإرداد التآلم وارتعدت من خوفه فراقصه فقال له الطبيب: ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لتلا يسرى الألم إلى الساعد فاقطعها فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه فخرج هائماً على وجهه مستغيثاً إلى ربّه ليكشف عنه ما نزل به، فرأى شجرة فقصصها فأخذته النوم عندها فنام فرأى فى منامه قاتلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضائك امض إلى خصمك الذى ظلمته فارضه، فأنثبه من النوم وفكر فى أمره فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة عما جناه، ودفع إلى شيئاً من ماله وتاب من فعله ففرضى عنه خصمه الصياد فسكن فى الحال أله وبات تلك الليلة فرد الله تعالى عليه يده كما كانت وتزل الوحى على موسى عليه السلام: يا موسى وعزنى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعلبت مهما امتدت به حياته.

وما تضمنته أخبار الأخيار ما رواه أنس رضى الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قاعده إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر رضي الله عنه: لقد عدت بمجير فما شأنك؟ فقال: سأبقت بقرسى ابنًا لعمر بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقتنئ بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين فيبلغ ذلك عمرًا أباه فخشى أن أتيك فحبسني في السجن فأنقذت منه فهذا الحين أتيتك، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يأتيك فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرس إلى عمر رضي الله عنه بالدرعة، قال أس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم يتزع حتى أحببنا أن يتزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: ضرب ابن الأكرمين قال يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشفيت قال ضعها على ضلع عمرو، فقال يا أمير المؤمنين: لقد ضربت الذي ضربني قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تتزع، ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فجعل عمرو يمتلئ إليه ويقول إني لم أشعر بهذا. وقيل: لما ظلم أحمد بن طولون^(١) قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة^(٢) يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا في غد، فكتبت رقعة ووقعت بها في طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون فلما رآها عرفها فخرج عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقراها فإذا فيها ملككم فاسترتم وقهرتم فقهرتم وخولتم فمفتم وردت إليكم الأوراق ففطعتم هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخفظة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم اعملوا ما شئتم فلنا صابرون وجوروا فلنا بالله مستجيرون واطلموا فلنا إلى الله متظلمون ﴿وَسَيُطْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، قال: فعدل لوقتته.

وحكى أن الحجاج حبس رجلاً في حبه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بوستا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بينة، وكتب في آخرها:

سَتُعَلِّمُ يَا نَورُ إِذَا التَّقِينَا	غَدًا عِنْدَ الْإِلَهِ مِنَ الظُّلُومِ
أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ لَوْ	وَمَسَّ رَأْسَ الظُّلُومِ هُوَ الْمَلُومُ
سَيَنْقَطِعُ السِّلَازُ عَنْ أَنَاسِ	أَدَامِهِ وَيَنْقَطِعُ النِّعَمُ
إِلَى دِيَارِ يَوْمِ الدِّينِ نَمَضَى	وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْمَعُ الْخُصُومُ

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار فنام بعد أن أكل فأنبته مزعجًا وقال: يا خدام، فاسترنا الجواب فقال: ويلكم أعينوني وإحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدرًا في سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتوني به واكلوا بالسفينة من يحفظها، فاسترنا فوجدنا ملاحًا في سفينة منحدره وهي فارغة فقبضنا عليه واكلنا بها من يحفظها وصعدنا به إلى المعتضد، فلما رآه الملاح كاد يثلف فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقتى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم والا ضربت عنقك، فتلثم وقال: نعم، كنت سحرًا في المشرقة الثلاثية فزلت امرأة لم أر مثلها عليها ثياب فاخرة وحلى كثيرة وجواهر فطعمت فيها واحتلت عليها حتى سددت فيها وغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها ثم طرحتها في الماء ولم أجسر على حمل

(١) أحمد بن طولون: هو أحمد بن طولون، أبو العباس، الأمير صاحب الديار المصرية، والشامية والثغور، تركى متعرب، كان شجاعًا جوادًا حسن السيرة، موصوفًا بالشفقة على خصومه وكثرة الإتيان والظك فيمن عساه، بنى الجامع المنسوب إليه بالقاهرة، ومن آثاره قلعة بالقاهرة، وإلى امر الثغور ودمشق في مصر، سفك كثيرًا من الدماء في مصر والشام، توفي سنة (٢٧٠هـ - ٨٨٤م).

(٢) السيدة نفيسة: هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبى طالب، صاحبة المشهد المعروف بمصر، تقيّة سالحة، عالة بالخير والحديث، ولدت بمكة سنة (١٤٥هـ) ونشأت في المدينة، حجت ثلاثين حجة، وكانت تحفظ القرآن، ورسم عليها الإمام الشافعى، وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، وهي أمية، ولكنها سميت الكثير من الحديث، توفيت في مصر سنة (٢٠٨هـ - ٨٢٤م).

سلبها إلى دارى لئلا يفسدوا الخبر على، فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط فصيرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فعلق بى هؤلاء القوم فحملوني إليك، فقال: وأين الحللى والسلب؟ قال: فى صلب السفينة تحت البواري. قال المعتضد: على به الساعة، فحضروا به فأمر بتخريق الملاح ثم أمر أن ينادى ببنداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرًا وعليها ثياب فاخرة وحلى فليحضر، فحضر فى اليوم الثانى ثلاثين من أهلها وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فلم ذلك إليهم، قال: فقللت يا مولاي من أين علمت أو أوحى إليك بهذه الحالة وأمر هذه الصبية؟ فقال: بل رأيت فى منامى رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادى يا أحمد أول ملاح ينحدو الساعة فاقبض عليه وقرره على المرأة التى قتلها اليوم ظلمًا وسلبها ثيابها وأقم عليه الحد ولا يقتك، فكان ما شاهدتم. فبتعين على كل ولى أمر أن يعدل فى الأحكام، وأن يتبصر فى رعيته وعلى كل غافل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه ويتنصر للمظلوم ويأخذ له حقه من ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفلته والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجابة الخراج

وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان

الفصل الأول: فى سيرة السلطان فى استجابة الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: اخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل وما استنذروا بمثل الظلم، وأسرع الأمور فى خراب البلاد تعطيل الأرضين وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع فهو إن شيع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذى يطين سطحه بتراب أساس بيته وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين فتركوها فتخرب الأرض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج ويتبع من ذلك ضعف الأجناد وإذا ضعف الجند طمع الأعداء فى السلطان.

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستعدى سميراً يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها، فقالت بومة البصرة: لا أجب خطبة ابنك حتى تجعلى فى صدق ابنتى مائة ضبعة خربة، فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك، قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتقعد أمور الولاة والعمال والرعية. وقال أبو الحسن بن على الأسدى: أخبرني أبى قال: وجدت فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية عما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون فى زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار، من ذلك ما ينصرف فى عمارة البلاد كحضر الخلقان والإنفاق على الجسور وشق الترع وتقوية من يحتاج إلى التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة فى البلدان وغير ذلك من الآلات. وأجرة من يستعان به لحمل البئر وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار، ولما ينصرف للأرامل والأيتام وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار، ولما ينصرف فى الصدقات مما يصب صباً وينادى عليه، برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير، مائتا ألف دينار، فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناة فرعون إليه وهنؤه بتفرقة الأموال ودعوا له بطلون البقاء ودوام العز والنعماء والسلامة، وأنهوا إليه حال الفقراء فيأمر بإحضارهم وتغيير شتمهم ويمد لهم السباط فيأكلون بين يديه ويشربون ويستغفهم من كل واحد منهم عن سبب فاقته فإن كان ذلك من أفة الزمان زاد عليه مثل الذى كان له، ولما ينصرف فى نفقات فرعون الراتبة فى كل سنة مائتا ألف دينار ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك يجعله فى بيت المال لنواب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار. وقال أبو رهم: كانت أرض مصر أرضاً مديرة حتى أن الماء ليجرى تحت منازلها وأقنيتها فيحسونه حيث شأوا ويرسلونه حيث شأوا، وذلك قول فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. وكان ملك مصر عظيماً لم يكن فى الأرض أعظم منه ملكاً وكانت الجنان بأحقى النبل متصلة لا ينقطع منها شيء، عن شيء، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها وحافاتها والزروع ما بين الجبيلين من أولها إلى آخرها، وذلك قوله تعالى: ﴿كَمْ تَوَكَّلُوا مِن جَنَّتِ وَغَيَّوْنَ (٢٥) وَزُوعٌ وَمَقَامٌ كَرِيمٍ (٢٦)﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦].

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سرديوس فأخذ فى حفره وتديره، فجعل أهل القرى يسألونه أن يجرى لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية إلى قرية من الشرق

إلى المغرب ومن الشمال إلى القبة ويسوقه كيف أراد وإلى حيث قصد، فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر، فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطى على عيده ويفض عليهم من خزائنه وذخائره ولا يرغب فيما بأيديهم، رد على أهل القرى أموالهم، فرد عليهم ما أخذ منهم. فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه ولا يخاف عذابه ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن بالحساب والثواب والعقاب.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥]. قال: هي خزائن مصر، ولما استرثى أمر مصر ليوسف عليه السلام، وكمل وصارت الأشياء إليه وأراد الله تعالى أن يعرضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه وكانت مصر أربعين فرسخاً في مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلام، وكانت السدود التي حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز وتلك يوسف، وافترقت وليخا، وعصى بصرها فجعلت تتكفئ الناس فقيل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويميتك ويعينك فظالماً كنت تحفظينه وتكرمينه، ثم قيل لها لا تفعلين لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المروءة والحبس فيسئ إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه، فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه وكان يرتكب في رهاء مائة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته، فلما أحسبت به قامت ونادت سبحان من جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم والعبيد ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟ فقالت: أنا التي كنت أخدمك بنفسي وأرجل شركك يدي وأكرم مشوك بجهدي وكان مني ما كان، وقد ذقت وبال امرئ وذعبت قوتي وتلف مالي وعصى بصرى وصرت أسأل الناس، فمتهم من يرحمنى ومنهم من لا يرحمنى، وبعدما كنت مغبوبة أهل مصر كلها صرت مرحومة بهم بل محرومة منهم وهذا جزاء المفسدين، فبكى يوسف عليه السلام بكاءً شديداً وقال لها: هل في قلبك من جك إياي شيء؟ قالت: نعم والذي اتخذ إبراهيم خليلاً لنظرة إليك أحب إلى من ملء الأرض ذهباً وفضة، فعصى يوسف وأرسل إليها يقول: إن كنت أياً تزوجتك وإن كنت ذات بعل أغنيك. فقالت لرسول الملك: أنا أخوف أنه يستهزئ بي هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة؟ فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتزوج بها وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قلميعة وقام يصلى ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم، فرد الله عليها حسنها وجمالها وشبابها وبصرها كهيتها يوم راودته فراقعها، فإذا هي بكر فولدت له إفراتيم بن يوسف ومنشأ بن يوسف وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما، فبينما للقوى أن لا ينسى الضعيف وللغنى أن لا ينسى الفقير، فرب مطلوب يصير طالباً ومرغوب فيه يصير راغباً، ومسؤول يصير سائلاً، وراحم يصير مرحوماً، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته ويعيننا بقضله.

ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير، فقيل له: اتجهوب ويسلك خزانة الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال: ما روى أن عمر رضى الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له: عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضى الله عنه أن أقدم علينا، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً عكازته بيد، وادارته ومزوده وقصعته على ظهره، فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير أجبنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال يا أمير المؤمنين: أما نراك الله أن تجهز بالسوء، وعن سوء الظن؟ وقد جئت إليك بالدنيا أجراها بقرابها، فقال له: وما منعت من الدنيا؟ قال: عكازة أتروكاً عليها وأدفع بها صدرى إن لقيت مزود أحمل فيه طعامي وإدارة أحمل فيها ماء لشربى ولطهورى، وقصعة أتروها فيها وأغسل فيها رأسى وأكل فيها طعامى، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لنا معى، قال: فقام عمر رضى الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه، فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: اللهم الحقنى بصاحبى غير مفتضح ولا مبدل، ثم عاد إلى مجلسه، فقال: ما صنعت فى عملك يا عمير، فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل اللمة عن يد وهم صاغرون ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقى عندى منها شيء لآتيك به، فقال عمر: عد إلى عملك يا عمير، قال: أتشدك

الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي، فاذن له فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له: اختبر لي عيبراً وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله هل هو في سعة أم ضيق، فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة دينار، فأتاه حبيب، فبقر له ثلاثاً، فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت، فلما مضت ثلاثة أيام قال يا حبيب: إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا، فإنا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لأكثرناك به. قال: فدفع إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك، فدعا بفروخلق لأمراته، فجعل يصير منها الخمسة دنائير والستة والسبعة، ويصير بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدوها، فقدم حبيب على عمر، وقال: جئت يا أمير المؤمنين من عند أزيد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير، فأمر له عمر بوسقتين من طعام وثوبين، فقال يا أمير المؤمنين أما الثوبان فاقبلهما، وأما الوسقتان فلا حاجة لي بهما عند أعلى صاع من بر هو كافيه حتى أرجع إليهم.

وروى أن عمر رضى الله عنه صرّ أربعمائة دينار وقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح^(١) ثم تريض عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها، فذهب بها الغلام إليه، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك قال: وصله الله ورحمه، ثم دعا بجاريته وقال لها: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدوها، فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل، وانظر ما يكون من أمره، فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة، فرجع الغلام فأخبره عمر، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

الفصل الثاني: في أحكام أهل الذمة

روى عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إنكم لما قدمتم علينا سالناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حوالينا كنيسة ولا ديراً ولا قلية ولا صومعة راهب، ولا نجهد ما خرب منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار، وأن توسع أبوابها للمار وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوى في كناكسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذرى قراباتنا الدخول في دين الإسلام إن أراه، وأن نوفر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتكلم بكنائهم، ولا نركب في السروج، ولا نتخذ باليوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، أو لا نبيع الخمر، وأن نجيز مقدم رؤوسنا ونلزم ريتاً حشيشاً كنا، وأن نشد الزنار على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا، ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نضرب بالنواقيس في كناكسنا إلا ضرباً خفيفاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر الثيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا تجارهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبيلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء عما شرطناه لكم، وضمنناه على أنفسنا فلا دمة لنا وقد حل بنا ما يحل بأهل المعادة والشقاق. فكتب إليه عمر رضى الله عنه أن امض ما سألكه والحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم، أن لا يشتروا شيئاً من سبايا المسلمين ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروى أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين إنا قوم من العرب أفرض لنا، قال: نصارى؟ قالوا: نصارى. قال: ادعوا إلى حجاجنا، ففعلوا فجز نواصيهم وشق من أردتهم حزماً يحترمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج وأن يركبوا على الألف من شق واحد. وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل

(١) أبو عبيدة بن الجراح: هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال القهري القرشي، الأمير الثالث فائق الديار الشامية، والصحابي أحد العشرة المبشرين بالجنة، قال ابن عساکر: داهيا قرش أبو بكر وأبو عبيدة، وكان لقبه أمين الأمة، ولحقه قيادة الجيش الزاحف إلى الشام، توفي رحمه الله في طاعون صمواس سنة (١٨هـ - ٦٣٩م).

أقصى اليهود والنصارى ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زعيمهم ورسولهم وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا له الحق وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك، ويترحم عليه ما دامت الدنيا. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى، فإنهم أهل رشا في دينهم ولا يحل في دين الله الرشا. ولما استقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أباً موسى الأشعري رضى الله عنه من البصرة وكان عاملاً بها بلحساب، دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكتابه وكان نصرانياً، فقال له عمر: قاتلك الله وضرب يده على فخذك، وكُتِبَ نعيًا على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51]. هلا اتخذت حفيظاً؟ فقال يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه، فقال: لا أكرهمهم إذ آهانهم الله، ولا أعزهم إذ ذلهم الله ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله. وكتب بعض العمال إلى عمر رضى الله عنه أن العدو قد كثر وأن الجزية قد كثرت، أفنتعين بالأعاجم؟ فكتب إليه أنهم أعداء الله وأنهم لنا غششة فأنزلوهم حيث أنزلهم الله.

ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة فقال: إني أريد أن أتبعك وأصيب مекك. قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا، قال: ارجع، فلن نستعين بمشرك، ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتكَ لأتبعك وأصيب مекك. قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك، ثم لحقه عند ظهر البداء، فقال له مثل ذلك، فأجابته بمثل الأول، فقال: نعم. فخرج به وفرح به المسلمون، وكان له قوة وجلد وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر، هذا وقد خرج ليقابل بين يدى النبی ﷺ ويراقد دمه، فكيف استعملهم على رقاب المسلمين. وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن، فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون في غيرهم. قال أصحاب الشافعي: ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين، وأن يلبسوا قلاتس يميزونها عن قلاتس المسلمين بالحمرة، ويشدوا الزنابير على أوساطهم ويكون في رعايقهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمام ولا الطيلسات، وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل: فوق الإزار وهو الأولى، ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض، ولا يرتكبون الخيل ولا البغال، ولا الحمير إلا بالاكف، عرضاً ولا يرتكبون بالسروج، ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدؤون بالسلام، ويلجأون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتناولوا على المسلمين في البناء، وتجوز المساواة، وقيل: لا تجوز. وإن تملكوا داراً عالية أقروا عليها، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والإنجيل، ويمنعون من المقام في أرض الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم، وإن رزى أحد منهم بمسلمة أو أصابها بكنكاح أو أرى عيناً للكفار أو دل على عورة المسلمين أو فتن مسلماً عن دينه أو قتله أو قطع عليه الطريق انتقض ذمته، وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء، فمنهم من قال: إنها مقدرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر رضى الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الفتي ثمانية وأربعين درهماً وعلى من دونه أربعة وعشرين درهماً، وعلى من دونه الأثنى عشر درهماً، وذلك بمحضصر من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ولم يخالفه أحد وكان الصرف اثنا عشر ديناراً، وهذا مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل، وأحد قولى الشافعي، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه ولا جزية على النساء والماليك والصبيان والمجانين. وأما الكنائس، فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تمجد كنيسة، وأمر أن لا تظهر عليه خارجة من كنيسة ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه، وكان عروة بن محمد يهدهم بصنعة وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين. وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة، والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين

وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْقُضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَتَوَاتُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْقَوَى﴾ [المائدة: ٢]. وقال رسول الله ﷺ: «من مشى فى عون أخيه ومنفته، فله ثواب المجاهدين فى سبيل الله»، وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»، رواه البزار والطبرانى فى معجمه، ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى، والخلق كلهم فقراء الله تعالى، وهو يعولهم، وروينا فى مسند الشهاب عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ أنه قال: «خير الناس أنفعهم للناس»، وعن كثير بن عبيد بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده، رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، ألى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله تعالى والناس فى الحساب». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سعى لأخيه المسلم فى حاجة، فقصيت له أو لم تقضى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءة من النار وبراءة من النار». وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كتبت وأقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفت له». رواه أبو نعيم فى الحلية.

ورويانا فى مكارم الأخلاق لأبى بكر الخراطى، عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى فى حاجة أخيه المسلم كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة، فإن قصيت حاجته على يديه خوج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فإن مات فى خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب». وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه فى حاجة فناصره فيها جعل الله بينه وبين الناس سبع خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض». رواه أبو نعيم وابن أبى الدنيا. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند أقوام نعماً يقرها عنهم ما داموا فى حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم». رواه الطبرانى. وروينا من طريق الطبرانى بإسناد جيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة، فأسبغها عليه ثم جعل حوائج الناس إليه، فترى، فقد عرض تلك النعمة للزوال». وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أغاث ملهوقاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة واحدة منها يصلح بها آخرته وذنيه والباقى فى الدرجات». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتدرون ما يقول الأسد فى زبیره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول: اللهم لا تسلطنى على أحد من أهل المعروف». رواه أبو منصور الديلمى، فى مسند الفردوس. وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أى الناس أحب إليك؟ قال: «أنفع الناس للناس، قيل: يا رسول الله، فأى الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن، قيل: وما إشباع جوعته وتفتيس كرشه، وقضاء دينه، ومن مشى مع أخيه فى حاجة كان كصيام شهر؟ قال: سرور المؤمن؟ قال: وإعكافه، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخال العسل». وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي أخاه المسلم بما يحب ليريه بذلك سوء الله يوم القيامة»، رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة». رواه الطبرانى. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدخل رجل على مؤمن سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى ويوحده، فإذا صار العبد فى قبره أتاه ذلك السرور، فيقول له: أمانتى، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذى أدخلت على فلان. أنا اليوم أوانس وحشتك وألفك حجتك وأثبتك بالقول الثابت، وأشهد مشاهدك يوم القيامة وأشفع لك إلى ربك وأريك منزلتك فى الجنة»، رواه

ابن أبي الدنيا. وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه يرفعه: «إذا أراد أحدكم الحاجة فليذكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي، وإذا أنزلناه في ليلة القدر، وأم الكتاب، فإن فيها خواص الدنيا والآخرة»، وهو حديث مرفوع. ومن كلام الحكماء إذا سألت كريماً حاجة، فدهه يفكر فإنه لا يفكر إلا في خير وإذا سألت، لئيماً حاجة فحاجله، لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة، ثم توانى عن طلبها، فقال له المسؤول: أمت عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته من أسهرك لها، ولا عدل بها عن محبة النجح من قصدك بها، فعجب من فصاحته وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل. وقال مسلمة لنصيب: سلنى، فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة، فأمر له بالقف دينار. وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها، وعنه أيضاً قال: لا تكثر على أخيك بالخواص فإن العجل إذا أقرط في مص ثدى أمه تطحته. وقال ذو الريامتين لثمامة بن أشرم ما أدرى ما أصنع بكثرة الطلاب؟ فقال: رل عن موضعك وعلى أن لا يلقاك منهم أحد، فقال له: صدقت، وجلس لهم في قضاء حوائجهم. وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى قال: عرضت على أبي الحسن على بن محمد بن الفرات^(١) رقعة في حاجة لى، فقرأها ووضعها من يده، ولم يوقع فيها بشئ، فأخذتها وقمت وأتأ أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريم حاجة وأبى فلا تقعد عليه بحاجب
فلربما منح الكريم ومسا به بخيل ولكن سوء حظ الطالب

فقال: وقد سمع ما قلت أرجع يا أبا جعفر، بغير سوء حظ الطالب ولكن إذا سألتمونا الحاجة، فعادونا، فإن القلوب بيد الله تعالى، فأخذ الرقعة ووقع فيها بما أردت. وسأل إسحاق بن ربيع، إسحاق بن إبراهيم المصمى أن يوصل له رقعة إلى المأمون، فقال لكاتبه: ضمها إلى رقعة فلان، فقال:

تأن لحاجتى واشدد عراها فقد أضحت بمنزلة الخياع
إذا شاركها بلبان أخرى أضرب بها مشارك الرضاع

وقال أبو دقاقة البصرى:

أضحت حوائجنا إليك متاخئة معقولة برحائبك الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها حتى تثور معاً بنير عقال

وقال سلم الحامر:

إذا أذن الله في حاجة أذاك النجاسات على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل الله من فضله

ولله در الفافل حيث قال:

أيها المادح العبيد لي أعطى إن لله مسألاً بآيدى العبيد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وأرجُ فمرض المقسم الجسود

(١) ابن الفرات: هو علي بن محمد بن موسى، أبو الحسن، ابن الفرات، وزير من الدعاة الفصحاء الأجداد، وهو مهد الدولة للمقتدر العباسى، ولى ديوان السواد، ثم بلغ رتبة الوزارة، توفي قتلاً سنة (٣١٢هـ - ٩٢٤م).

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضى الله تعالى عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال: إذا كانت لك حاجة إلى، فأرسل إلى رسولا أو أكتب لى كتابًا، فأتى لأستحي من الله أن يراك ببائى. وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: والذي وسع سمعه الأصوات، ما من أحد أودع قلبًا سرورًا إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفًا، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء فى انحداره حتى يطرد عنها كما تطرد غريبة الإبل، وقال لجابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما: يا جابر من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء، وإن لم يتم فيها بما يجب لله عرضها للزوال. نموذ بالله من زوال النعمة ونسأله التوفيق والمعصية، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا أبدًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

في محاسن الأخلاق ومساوئها

قال الله تعالى لَنَبِيٍّ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع ومحاسن الأخلاق، من الحياء والكرم والصفح وحسن العهد بما لم يؤته غيره، ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله يمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. فقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وكان الحسن رضى الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: «أكرم ولد آدم على الله عز وجل أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله، أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى»، وكان يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول: «إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»، ولا يأكل متكئاً ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل الفشاء بالطوب ويقول: «برد هذا يطفى حر هذا»، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول: «هذا يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لفعل»، وكان يحب الدباء، ويقول: «يا عائشة إذا طبختم قدرًا، فآكلوا فيه من الدباء، فإنها تشد قلب الحزين»، وكان يقول: «إذا طبخت الدباء فآكلوا من مرقعها»، وكان يكتحل بالأنثد ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن والكحل والمرأة المشط والإبرة يخطئ ثوبه بيده، وكان يفسحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ولا يكره، وكان يسابق أهله. قالت عائشة رضي الله عنها: سابقتها، فسبقتها، فلما كثر لحمي سابقتها فسبقتني فغضب بكفى وقال: هذه بتلك، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مآكل ولا مشرب ولا ملبس وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب نساء في بلاد الجهل والصحرى يتيمًا لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أقصح الناس منظرًا وأحلام كلامًا، وكان يقول: «أنا أقصح العرب»، وقال أس رضى الله عنه: والذي بعث بالحق نبيا ما قال لى في شيء قط كرهه لم فعلته ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته ولا لاسى أحد من أهله إلا قال دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر، وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى لا مانع من أن النبى ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التى هى أعلى مرتبة من العبودية فالتبى ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا، فحاز المرتبتين مرتبة العبودية ومرتبة الملكية، ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويركب الحمار بلا إكاف ويردف خلفه، ويأكل الحسن من الطعام وما شيع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى من دعاء لباه، ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذى يرفعهما، يعود المريض ويتبع الجنائز ويجالس الفقراء، أعظم الناس من الله مخافة وأتبعهم لله عز وجل بدنًا، وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما والله ما كانت تغلق من دونه الأبواب ولا كان دونه حجاب ﷺ. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً له، ولا ضرب يده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون إثمًا أو قطية رحم فيكون أبعد الناس منه، وقال إبراهيم بن عباس: لو ورنى كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجعت، وهى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»، وفى رواية أخرى: «فسعوهم ببسط الوجه وإخلاق الحسن». وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في آتف صاحبه، والزماد بيد الملك، والملك يجره إلى الخير والخير يجره إلى الجنة، وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في آتف صاحبه، والزماد بيد الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار». وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب والسوء الخلق أجنى عند أهله، وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سوء الخلق، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس وأجوه، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه.

يبت منفرد:

إذا رام التخلُّق جاذبته خلائقه إلى الطبع القديم

قيل: أبى الله لسوء الخلق التوبة لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه. وعن عائشة قالت: كان

رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون حتى لا يفصح أحداً، وعنه ﷺ: «ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعنه أيضاً ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه كن له: من صدق لسانه وكا عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره»، ثم قال: «وحسن الخلق وكف الأذى يزيدان في الرزق». وقيل: «مسوء الخلق يعدى لانه يدعو إلى أن يقابل بمثله»، وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضى الله عنهم في إعطائه الشعراء، فكتب إليه الحسين أنت أعلم متى بأن خير المال ما وقى به العرض، فانظر إلى شرف أبيه، وحسن خلقه كيف ابتدأ كتابه فأنت أعلم متى، وكان بينه وبين أخيه كلام، فقبل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك، فقال: إني سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول: «أيما اثنين جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة» وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر إلى الجنة، فبلغ ذلك الحسن، فجاهد عاجلاً رضى الله عنهما، وأشد في المعنى:

وإني لآلقي المرأة أعلم أنه عدو وفي أحسنه الضغن كامن
فأمنحه بشراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه للضغائن

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة وباعها بمال جزيل، فانفذ إلى الجوهريين بصفتها، فقالوا: باعها فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه وأحضر بين يدي جعفر، فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك ألت يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك، وأقسم بالله لقد أسيت هذا، ثم أمر للجوهري بشئها، وقال للرجل: خذها الآن خللاً طيباً وباعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبع بيع خافض. ودخل محمد بن عباد على المأمون، فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تتبسم، فقال لها المأمون: ممّ تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخشرك يا أمير المؤمنين تتعجب من قبى وإكرامك إياي، فقال لا تعجبي فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا قال الشاعر:

وهل ينفع القسيان حسن وجوههم إذا كانت الأعراض غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمانى

وحكى أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد فانفرد عن أصحابه، فرأى صيداً، فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بعد عن عسكره، فنظر إلى راع تحت شجرة، فنزل عن فرسه ليبول، وقال للراعى: احفظ على فرسى حتى أبول، فعمد الراعى إلى العنان وكان مليكاً ذعياً كثيراً، فاستغلل بهرام وأخرج سكيناً، فقطع أطراف اللجام وأخذ الذهب الذى عليه، ورفع بهرام نظره إليه، فصره فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته، ثم قام بهرام، فوضع يده على عينيه، وقال للراعى قدم إلى فرسى، فإنه قد دخل في عيني من سافى الريح، فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه، فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكره، فقال لصاحب مراكبه إن أطراف اللجام قد وهبتها، فلا تنهمن بها أحداً.

وذكر أن أنوشروان وضع الموائد للناس في يوم نيروز وجلس، ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاموا بالشراب وأحضرت الفراكه والمشموم في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأه تحت ثيابه وأنوشروان يراه، فلما فقه الشرايى صاح بصوت عال لا يخرج من أحد حتى يفتش، فقال كسى: ولم؟ فأخبره بالفضية، فقال قد أخذه من لا يرده ورأى من لا يمن عليه، فلا تفتش أحداً فأخذ الرجل الجمام ومضى فكمسه، وصاغ منه منطة وحلية لسيفه وحده له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية، فدعاه كسى، وقال له: هذا من ذاك، فقبل الأرض، وقال: نعم أصلحك الله. وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يوماً، فتأدى بالخدام يا غلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانياً، وصاح يا غلام، فدخل غلام تركى وهو يقول: ما ينهى للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام

إلى كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلاً، فما شككت أنه يأمرنى بضرب عنقه، ثم نظر إلى فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإننا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة واليها، وكان وجهه ورقة من ورق المصحف، فوالله ما ترك فينا فقيراً إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، يكلمنا بكلام أحلى من الجنى ولقد شهدت منه مشهداً لو كان من معاوية لذكرته، تغدينا يوماً عنده، فأقبل الفراش بصحفة، فغتر فى وسادة، فوقعت الصحفة من يده، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد، واتكب جميع ما فيها فى حجره فبقى الغلام متمتلاً واقعاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجله، فقام الوليد فدخل، فغى ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفراش وقال: يا بأسى ما أرانا إلا روعناك. اذهب، فأنت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى. ومرض أحمد بن أبي داود، فعاده المتعصم، وقال: نزلت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، فاجعلها فى أهل الحرمين، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة، فقال: نويت أن أتصدق بها على من هنا، وأطلق لأهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النميرى لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس يتسقى

وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال: من قيس بن عاصم، بينما هو ذات يوم جالس فى داره إذ جاءت خادمة له بسفود عليه شواء حار، فنزعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له، فقتله لوقته، فدهشت الجارية، فقال: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا رأى أحداً من عبيده يحسن صلاته يمتعه، فعرفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له، فكان يمتهم، فقيل له فى ذلك، فقال: من خدعنا فى الله اتخدعنا له. وروى أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع فى وقت الهاجرة، فالتقى عليه من فوق سطح طست رمد، فتغير أصحابه، وبسطوا الستهم فى الملقى للرمد، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئاً، فإن من استحق أن يصب عليه النار، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب، وقيل لإبراهيم بن أدهم تقدمه الله تعالى برحمته: هل فرحت فى الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين إحداهما أنى كنت قاعداً ذات يوم، فجاء إنسان فبال على، والثانية كنت جالساً فجاء إنسان فصفعنى. وروى أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له، فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً قرأه مضطجعاً، فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ترك جوابى؟ قال: أمنت عقوبتك، فأكاسلت، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

وحكى أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك، فانصرف رحمك الله، فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر له، وقال: احضر الساعة، فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال فى الأولى، ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان يتصرف ويحضر، ثم قال: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه، فقال أبو عثمان: لا تمدحنى على خلق نعمة فى الكلاب، فإن الكلب إذا دعى حضير وإذا دجر أترجر. وقال الحرث بن قصى: يعجبني من القراء كل فصيح مضحك، فأما الذى تلقاه ببشر ويلفك بوجه عيوس فلا كثر الله فى المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق: ما حكى عن القاضى يعنى بن أكرم^(١) قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فغطى،

(١) يعنى بن أكرم: هو يعنى بن أكرم بن محمد بن قطن التميمى الأسيدى الروزى، أبو محمد، قاضى، رفيع القدر، عالى الشهرة، من بنيلاء =

فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، وأنا نادم، فینفص علی نومی، فرأیته وقد قام یمشی علی أطراف أصابعه حتی أتى موضع الماء وبيته وبین المكان الذی فیہ الکیزان نحو من ثلاثمائة خطوة، فآخذ منها کوراً، فشرّب، ثم رجع یمشی علی أطراف أصابعه حتی قرب من الفراش الذی أنا علیه، فخطا خطوات خائف لئلا ینبهنی حتی صار إلی فراشه، ثم رأیته آخر اللیل قام یول، وكان یقوم فی أول اللیل وآخره، فقمعد طویلاً یحاول أن یتحرک فیصیح بالغلام، فلما تحرکت وثب قائماً وصاح یا غلام، وثأب للصلاة. ثم جاءنی، فقال لی: کیف أصبحت یا أبا محمد؟ وكيف كان مبيتك؟ قلت: خیر مبيت جعلنی الله فداك یا أمیر المؤمنین، قال: لقد استیقظت للصلاة، فکهرت أن أصبح بالغلام، فأزعجک، فقلت یا أمیر المؤمنین قد خصلک الله تعالی بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم، فهناك الله تعالی بهذه النعمة، وأتمها عليك، فأمر لی بألف دينار، فأخذتها وانصرفت. قال: ویت عنده ذات لیل، فأنثیه وقد عرض له السعال، فجعلت أرمقه، وهو یحشو فمه بكم قميصه یدفع به السعال حتی غلبه، فسعل وأكب علی الأرض لئلا یعلو صوته، فأنثیه، قال یحیی: وکنت معه يوماً فی بستان تدور فیہ، فجعلنا نمر بالريحان، فآخذ منه الطاقة والطاقتین ویقول لقیم البستان: أصلح هذا الحوض، ولا تغرس فی هذا الحوض شیئاً من البقول، قال یحیی: ومشتینا فی البستان من أوله إلی آخره، وکنت أنا مما یلی الشمس والمأمون مما یلی الظل، فكان یجذبني أن یتحول أنا فی الظل، ویكون هو فی الشمس، فامتنع من ذلك حتی بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: یا یحیی والله لتکون فی مکانی ولأکون فی مکانک حتی آخذ نصیبی من الشمس کما أخذت نصیبک، وتأخذ نصیبک من الظل کما أخذت نصیبی، فقلت: والله یا أمیر المؤمنین لو قدرت أن أتیک يوم الهول بنفسی لفعلت، فلم یزل یی حتی تحولت إلی الظل وتحول هو إلی الشمس، ووضع یدیه علی عاتقی، وقال: یحییاتی عليك إلا ما وضعت یدک علی عاتقی مثل ما فعلت أنا، فزئه لا غیر فی صحبة من لا ینصف، انظر إلی أخلاقهم رضی الله تعالی عنهم ما أحسنها وإلی أفعالهم ما أزينها، نسال الله تعالی أن یحسن أخلاقنا، وأن یمارک لنا فی أرزاقنا إنه علی ما یشاء قدير، وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلی العظيم، وصلى الله علی سیدنا محمد وعلی آله وصحبه وسلم.

« التفهām، یصل نسبه بأکثر من صیغی حکیم العرب ولی قضاء البصرة ثم یفقد وكان حسن العشرة وحلو الحديث، توفي فی الریلة إحدى قرى اللدیه سنة (٢٤٢هـ - ٨٥٧م).

فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزبارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة والزبارة مسبب التألف، والتألف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع وركن شديد بها ينع الضيم وتزال الرغائب وتتبع المقاصد، وقد من الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء وردعها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بَعَثَةً إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة، إذ جعلهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سن رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه، وأتى بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلحقون فيها من الألم إذ يقولون: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا فى ذلك:

ومما المرء إلا بإخوانه كمما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير فى الكف مقطوعة ولا خير فى الساعد الأجلم

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان فإنهم معونة على حوادث الزمان ونواب الخلدان، وعون فى السراء والضراء، ومن كلام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه:

عليك بإخوان الصفا فإنهم عماد إذا استجذبتهم وظهور
وإن قليلاً ألف خل وصاحب وإن عذراً واحداً لكثير

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة فى الثوب إن لم تكن مثله شانه. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائع، والسلطان ظل رائل، والإخوان كنز وافرقة. وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت فى اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة، قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الواسع، والنظر إلى الحسن من كل شىء، قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت، وهى أولاهن. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب ولبست اللين وركبت الفاره واقتضضت العزراء، فلم يبق من لذاتى إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضى الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما استمرته، وشربت الأثرية حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا حتى اخترت نعلى، ولبست الثياب حتى اخترت البياض، فما بقى من اللذات ما تنوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا فى معنى ذلك:

ومما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول
وقد كنا نعتهم قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

وقال لبيد:

ما عاتب المرء اللبيب كنفه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال آخر:

إذا ما أت من صاحب لك رلة فكأن أنت محسلاً لزلته عفر

وقيل لابن السماك: أى الإخوان أحق ببقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافى عقله، الذى لا يملك على القرب ولا يبتاع على البعد، إن دنوت منه داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله. وأشدوا فى المعنى:

ومن يضمر نفسه لينفك	إن أخيك الصديق من يسعى معك
شئت فيك شمله ليجمعك	ومن إذا ربُّ الزمان صدعك
	وقال غيره :
ولكن أخى من ودنى بلسانه	وليس أخى من ودنى بلسانه
ومالى له إن أعوزته التائب	ومن ماله مالى إذا كنت معدماً
	وقال أبو تمام :

وجهلْتُ كأن الخلمُ ردَّ جوابه	من لى بإنسان إذا غضبته
أخلاقه وسكرت من آدابه	وإذا صبوت إلى المدام شربت من
وبقلبٍ به ولعله أدري به	وتراه يصغى للحديث بطرفه

وقيل لخالد بن صفوان: أى إخوانك أحب إليك؟ قال: الذى يد خلتي ويغفر لتي ويقبل عثرتي. وقيل: من لا يواخى إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه، ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه، وكثر تعبه. قال الشاعر:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه	وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتبٌ
وقال آخر:	

إذا كنت في كل الأمور معاتباً	صديقك لم تلقَ الذى لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على الأذى	ظلمت وأى الناس تصفو مشربه

وقال: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه أو خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم دمه، ولكن داو كلمته واستر عورته وابقه وابرا من عمله. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]. فلم يأمره بقطعهم، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ. وقال عليه السلام: «الأرواح أجناد مجتدة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: إن روحى المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم ما رأى أحدهما صاحبه. وفى ذلك قال بعضهم:

هوئلكم بالسمع قبل لقاءكم	وسمع الفتى يهوى لعمري كطرفه
وغُيِّرَتْ عنكم كلُّ جود ورفعة	فلما التقينا كتم فوق وصفه
وقال آخر :	

تبسم الشفر عن أوصافكم فخذوا	من طيب ذكركم نشرراً فأحيانا
فمن هناك عشتقناكم ولم نركم	والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه، ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه ورغبة في لقائه إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة، وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم. وقالوا: شر الإخوان الواصل في الرخاء الخافل عبد الشدة، وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقاً، ولعدو صديقك عدو، وقالوا: أعجب الأشياء ود من يهودى وحفظ من نصراني، ورياضة من دهرى، وكرم من أعجمى، والخمر من الكريم إذا أهته، واللثيم إذا أكرمه، والعاقل إذا أحرجه، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصعب من الإخوان من أولئك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة، فنسى جمائله وبقي شاكرًا ناشراً ذاكرًا لجميلك، يوليک عليها الإحسان الكثير الجزيل ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء إذا وقع بصرک على شخص، فكرهته فأحذرہ بهذا، قال عبد الله بن طاهر:

خليلي للبنفساء حال مبيته وللحب آثار تری ومعارف
فما تكرر العيان فالقلب متكرر وما تعرف العينان فالقلب عارف

وقال آخر:

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وشرفني على ظمماً بريقي
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي مخافة أن أعيش بلا صديق

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من جل هممه صبور وإن أسي ففضل غبوق
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرب عذر أو لنفخ صديق

وأما آداب المعاشرة: فالبشاشة والبشر وحسن الخلق والأدب، فعن جابر بن عبد الله رضى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراموا والمصافحة إذا تلاقوا». وكان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالسه رجل يجعل له نصيباً من ماله ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية، فأمر له بألف دينار وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس، فدفعها للذي فسح له، فقال:

وكنت جلس قعقاع بن ثور وما يشقى بقعقاع جلس
ضحموك السن إن نطقوا بخميس وعند الشر مطراق عبوس

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لجليس على ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصفى له إذا حدث، ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل المجلس الحسن كالقطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل المجلس السوء، مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك يناره أذاك بدخانه. وكانت تحية العرب: «صباحك الأتممة وطيب الأطعمة» وتقول أيضاً: «صباحك الأفالاح وكل طير صالح». ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة، فقال: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب. وقيل: أول ما يتعين على المجلس الإنصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه فيكون كل منهما في محله. وقال ﷺ: «ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق^(١) رضى الله عنه، إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا

(١) جعفر بن محمد: هو جعفر الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصديق، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، كان من أبعلاء التابعين، وعلى درجة عالية في العلم، توفي سنة (١٤٨هـ - ٧٦٥م).

الجلوس في الصدور وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه، فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث السامع على قدر عقله ولا يتدع كلاماً لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال، وغير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على السامع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولاً أن لا يقطع عليه ما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول. وهذا ذلك من باب الأدب ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل: ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم، الجالس في مجلس ليس له باهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والدخال بين اثنين في حديثهما ولم يدخلا فيه، والمتعرض لما لا يهنيه، والمتأمر على رب البيت في بيته، والأتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان. ويتعين على المجلس أن يراعي ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليسه ذا هبة، فقد قيل: رب كلمة سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفايح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد على حديثاً قط وقيل: إن أبا العباس كان يحدث يوماً إذ عصفت الريح فأرست طسّاً من سطح إلى المجلس، فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلي ولم تزل عينه مطابقة لعين السفايح فقال: ما أعجب شأئك يا هذلي، فقال: إن الله يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. وإنا لى قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الحضراء على الغبراء ما أحسست بها ولا وجدت لها، فقال السفايح: لئن بقيت لك لأرقمن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصنئ إلى حديثي.

وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بإنصاتك وصنّه من وصمة التفاتك. وقيل: من حق الملك إذا تئامب أو التقى المروحة من يده أو مدّ رجله أو تمسّط أو اتكا أو فعل ما يدل على كسبه أن يقوم من حضبته، وكان أردشير إذا تمسّط قام سماره. ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع^(١): أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة، فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة، فقال لى قد سمعته منك. وعن الشعبي قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبي رباح: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كاني لم أسمع قط، وقد سمعت به من قبل أن يولد. وقيل: المودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: إن المسلمين إذا اتفقا، فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحامت ذنوبهما كشحات ورق الشجر، وقيل: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الشر. وقيل: من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم، ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فائق عدوك وصديقك بالطلاقة ووجه الرضا والبشاشة ولا تنظر في عطفك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تكبر على أحد وتحفظ من تشييك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصافك، وكثرة التعطى والتشابوب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً، واضع إلى كلام مجالسك واسكت عن المضاحك ولا تصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تهزل أمتك ولا عبك، فيسقط وقارك عندهما، وإذا خاصمت فانصت وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك ولا الالتفات إلى من وراءك وأهدى غضبك وتكلم، وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك وكلمه بما يشتهي ولا يحملك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالترم ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الخواص وتهذيب الألفاظ والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم وإن ظهرت المودة، ولا تتجشأ بحضرتهم ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم، ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدأب ذلك ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، وإياك أن تمارح لبيباً أو سفيهاً، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يفرق الهبة ويذهب بماء الوجه ويعقب الحقد ويتعب بحلاوة الإيمان والود ويشين فقه الفقيه ويجرئ السفيه ويميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة والذلة، ومن بلى

(١) روح بن زنباع: هو روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجفامي، أبو رعة، أمير فلسطين وسيد البادية في الشام وقتلها وعطيلها وشجعها قيل: له صفة، كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودعاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز توفي سنة (٨٤٤هـ - ٧٠٣م).

في مجلس بزاح أو لفظ، فليذكر الله عند قيامه، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

وأما آداب المسيرة: فقد روى أن رسول الله ﷺ تعقب هو وعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في سفر على بعير، فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى، فيمزمز عليه أن لا يمشي فبايى ويقول: ما أنتم بأقدر مني على مشي وما أنا بأغنى منكم عن أجر، وقال ﷺ: «لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي». وقيل: «لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا ليلاً أو خاضوا سيلاً أو واجهوا خيلاً»، وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث، في نكته وغيبته ووفاته.

وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة العديمي المكافاة الذين ليس عندهم لصديق مصافة

فقال وهب بن منبه: صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة ولا أقالني عشرة ولا ستر لي عورة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سمعتنا بالصديق ولا نراه على التحقيق يوجد في الأنام

وأحسبه محالاً نمتقوه على وجهه المجاز من الكلام

وقال أبو الفداء: كان الناس ورعاً لا شوك فيه، فصاروا شوكة لا ورق فيه، وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس وأكبر من معرفتهم، وإن كان مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك من صديق؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير وأشد:

الناس إخواناً من دامت له نعم والويل للممرء إن زلت به القدم

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر بياحه أحداً من أصحابه الذين كانوا يألفونه في ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه بياحه ثانياً فقال:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكلمنا انقلب يوماً به انقلبوا

يعظمون أخوا الدنيا فإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال آخر:

فما أكثر الأصحاب حين نعدهم ولكنهم في النائبات قليل

وقال البحرى:

إذاك تغتفر أو تخدعك بارقة من ذي خداع يرى بشرًا والطافا

فلو قلبت جميع الأرض قاطبة وسرت في الأرض أوساطاً وأطرافا

لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً ولا أختاً يئذل الإنصاف إن صافى

وقال بعضهم في المعنى أيضاً:

خليلى جريت الزمان وأهله فما نالني منهم سوى الهم والعنا

وعاشرت أبناء الزمان فلم أجد خليلاً يوفى بالعهود ولا أنا

وقال آخر:

لَمَّا رَأَيْتُ بَنِي الزَّيْمَانِ وَمَا بِهِمْ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُسْتَحِيلَ ثَلَاثَةٌ

بيت مفرد:

وَكُلٌّ خَلِيلٍ لَيْسَ فِيهِ إِلَهٌ وَدَّ،

وقال آخر:

إِذَا مَا كُنْتَ مَتَخَذًا خَلِيلًا
فَلَمَّا كُنْتَ لَمْ يَخُنْكَ أَخٌ أَمِينٌ

وقال آخر :

تَحِبُّ عَمَلِي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنِّي
وَلَيْسَ أَخِي مِنْ وَدْنِي بَلْ سَأَنَهُ
رَمَنَ مَالِهِ مَالِي إِذَا كُنْتُ مَعْدُومًا

خَلَّ وَفِي لُشْدَا دِ اصْطَفَى
الْفُجُولِ وَالْعَنْقَاءِ وَالْحَلَّ الْوَفَى

فَلَمَّا بَلَغَ فِيهِ وُدَّهُ غَيْرَ نَاقٍ

فَلَا تَأْمَنُ خَلِيلَكَ أَنْ يَخُونَا
وَلَكِنْ قَلَمًا تَلْقَى أَمِينًا

أَوَدُّكَ إِنْ الرُّأْيَ عَسَنَكَ لَمُـ____ارِبْ
وَلَكِنْ أَخِي مِنْ وَدْنِي وَهُوَ غُـ____ائِبُ
وَمِـ____الِي لَهُ إِنْ أَمُـ____وَرْتَهُ النُّوْائِبُ

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقله^(١) وأمر بقطع يده لما بلغه أنه ورد عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه برئ مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه، فأنشد يقول هذه الابيات:

تَحْسَنُ الْفَنَاءُ وَالزَّمَانُ
عَسَادَانِي الدَّهْرُ نَصْفُ يَوْمٍ
يَا أَيُّهَا الْمَعْرُضُونَ عَنَّا
ومثله في المعنى:

أَخُوكَ أَخُوكَ مِنْ يَدُنِي وَتَرْجُو
إِذَا حَارِبْتَ حَارِبَ مَنْ تَعْبُدُ

وقال أبو بكر الخالدي :

وَأَخْرَجْتَهُ عَلَيْهِ حَتَّى مَلَأَ
مَا فِي زَمَانِكَ مِنْ يَمَزْ وَجُودِهِ

والشيء مملول إذا مـا يرخص
إن رمتـه إلا صديق مخلص

يجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة وما أحسن ما قال بعضهم:

وكلّ محبّة في الله تبقى
وكلّ محبّة فيهما سواء

على الحالين من فرج وضيق
فكالحلفاء في لهب الحريق

(١) ابن مقلة: هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة أبو علي، وزير من الشعراء الأدباء، بضرب بحسن خطه المثل ولى جباية الحجاج في بعض فارس، ثم استوزره القنطرة فلعقت يده اليسرى لانه كتب بها محرراً ثم قطع لانه وسجن حتى مات سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠م).

فينبغي للإنسان أن يتجنب معايشرة الأشرار ويترك مصاحبة الفجّار ويهجر من ساءت خلقه وقبعت بين الناس سيّره، قال الله تعالى: ﴿الْأَعْلَاءُ يُوعِظُ بِمَعْشَرِهِمْ لِيُخْشِيَ عَذْرَ الْإِلَهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]. فأثبت الله المساواة بيننا وبين البهائم وذلك إما هو في الأخلاق خاصة، فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم، ولهذا تجمد أخلاق الخلّاق مختلفة فإذا رايت الرجل جاهلًا في خلقه غليظًا في طبائعه قويًا في بدنه لا تؤمن ضغفاته فالحقه بعالم النمورة، والعرب تقول: أجهل من غر وإذا رايت الرجل هجاءً على أعراض الناس فقد ماثل عالم الكلاب فإن داب الكلب أن يجف من لا يجفوه ويؤذي من لا يؤذي، فعلمه بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألست تنهب وتتركه، وإذا رايت إنسانًا قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا، وإن قلت لا قال نعم، فالحقه بعالم الحمير، فإن داب الحمير إن أدنيه بعد وإن أبعدته قرب، فلا تنزع به ولا يمكنك مفارقه، وإن رايت إنسانًا يهجم على الأموال والأرواح فالحقه بعالم الأسود وخذ حذرَكَ منه كما تأخذ حذرَكَ من الأسد. وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فالحقه بعالم الثعالب، وإذا رايت من يعشى بين الناس بالنميمة ويفرق بين الأحبة فالحقه بعالم الظربان، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم ظربان تفسرَقوا. وإذا رايت إنسانًا لا يسمع الحكمة والعلم ويغر من مجالسة العلماء ويألف أخبار أهل الدنيا، فالحقه بعالم الخنافس، فإنه يصحبها أكل العذرات وعلامسة النجاسات وتفر من ريح المسك والورد وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوتقتها. وإذا رايت الرجل يضع بنفسه كما تصنع المرأة لبعولها، يبض ثيابه ويعدل عمامته وينظر في عطفه، فالحقه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجارى بعد المدة الطويلة على السقطات، فأخفه بعالم الجمال، والعرب تقول أحقد من جمل، فتجنب قرب الرجل الحقود وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صعبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه والله أعلم.

قال الشاعر :

ولكن الزيارة غبا لقوله ﷺ: «ارر غبا تردد حبا».

عليك يا غيباب الزيارة إنها
 ألم تر أن الغيث يسأم دائماً

إذا كثرت صارت إلى الهجر ملكا
 ويسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

ويقال: الإكثار من الزيارة محل، والإقلال منها مخل، وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطعنا ونحن ببليدة فما فضل قرب الدار منا على البعد

وقال آخر :

وإن ضروري بالديار التي بها سليمى ولم ألم بها جفء

وقال آخر:

قد أتنا من آل سعدى رسولُ حبّنا ما يقول لى وأقول

وقال آخر :

أرور بيوتًا لاصقاتٍ بيوتها وقلبي فى البيت الذى لا أروره

وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين وهب له مائتى ألف درهم، واقطعه أرضًا فقال:

وخصصتني بزيارة أضحى لنا مجد به طول الزمان مؤثّل
وقضيت دينى وهو دين وافرٌ لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

نحن فى أفضل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودى أنكم غببتم ونحن حضور
فاجدوا المسير بل إن قدركم أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف: أى الرسل أنجح؟ قال: الذى له جمال وعقل . وقيل: إذا أرسلتم رسولاً فى حاجة، فاتخذوه حسن لوجه حسن الاسم . وقال لقمان لابنه: يا بنى لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيمًا عارفاً، فكن رسول نفسك، وقال بعضهم:

إذا أبطل الرسول فقل نجحاً ولا تفرح إذا عجل الرسول

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل الشفاعة وإصلاح ذات البين وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]. ووصف الله نفسه لعباده فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)﴾ [الفاتحة: ١]. قال المفسرون «الرحمن» اسم رقيق يدل على العطف واللين والكرم والمنة والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم، قلنا يا رسول الله كلنا رحيم. قال: ليس الرحيم الذى يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذى يرحم المسلمين» رواه أبو يعلى والطبرانى. وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من لا يرحم، ومن لا يفرح، ومن لا يغفر لا يغفر له». وعنه ﷺ قال: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم». وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، «قال الله عز وجل: إِنْ كُنتُمْ تَرِيدُونَ رَحْمَتِي فَارْحَمُوا خَلْقِي» رواه أبو محمد بن عدى فى كتاب الكامل.

ورويانا من طريق الطبرانى، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، قال الطبرانى: إني رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فسألته عن هذا الحديث، فقال النبى ﷺ، وأشار بيده: «صحيح صحيح صحيح ثلاثا». وعن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، فوجده مستلقاً على ظهره وصبياناه يلعبون على بطنه، فأنكر ذلك عليه، فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكنت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا ترفق بأهلك ولولئك، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ. وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدال أمتى لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن بدخولها برحمة الله وسخاوة النفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين».

الفصل الثانى: فى الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَّكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَّكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلاً (٨٥)﴾ [النساء: ٨٥]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأل عن عمره، فيقول له جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً أو أغثت به مكروباً؟». وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجهاك من لا جاء له». وعن أبى بردة، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءنى طالب حاجة فاشفعوا له لى تخرجوا، ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان»، قيل: يا رسول الله، وما صدقة اللسان؟ قال: «الشفاعة تشفك بها الأسير وتحقن بها الدماء، وتحرم بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كربة». رواه الطبرانى فى المعجم. وقال على رضى الله عنه: الشفيع جناح الطالب. وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وكان الناس لطعم قدره يقرعون إليه فى الشفاعات، فقل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه، فأمر الربيع أن يكلمه فى ذلك، فكلمه، وقال: اعف يا أمير

المؤمنين لا تثقل عليه في الشفاعات، فقبل ذلك منه، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع، فسألوه إيصالها إلى المنصور، فقص عليهم القصة، فسأبوا إلا أن يأخذوها، فقال: اقذفوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الحضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله؟ فقال له: يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيما أتاك وهناك بإقام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام أحسن ولا أحسن من مدينتك ولكن سمجتها في عيني خصلة، قال: وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فنيصم، وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعناها، فقال: أثبت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه، ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كفه، فجعل يردهن ويقول: أرجعن خائبات خاسرات، فضحك المنصور وقال: بحق عليك ألا أخبرتنني وأعلمتنني بخبر هذه الرقاع، فأعلمه، وقال ما أتيت يا ابن معلم الخير إلا كرميًا، ومثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لنا وإن أحسننا كرميت يومًا على الأحساب نشكل
نحسب كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وتصفع الرقاع وقضى حوالجهم عن آخرها، قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد أتاني رجل لأشفع له في حاجة، فأنشدني لنفسه:

إني قصصتك لا أدلى بمعرفة ولا يقرب ولكن قد فشت نعمك
فبت حيران مكروبًا يؤرقني ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمك
مارلت أنكب حتى رزلت قدمي فاحتل لتشيبتنيها لا رزلت قدمك
فلو هممت بغبير العرف ما علقت به يدك ولا انقذادت له شيمك

قال: فشفت له وأثنته من الإحسان ما قدرت عليه، وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شفيعي إليك الله لا شيء غيره وليس إلى رد الشفيح سبيل

فأسره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفًا، ذهب الرجل، فقال يحيى والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعته عنه.

وقال آخر:

وقد جشحك بالمصطفى متشفعًا وما خاب من بالمصطفى تشفع
إلى باب مولانا رفعت ظلامي على الهم عنى والمصائب ترفع

وقال آخر:

تشفع بالنبي فكل عبيد يُجاز إذا تشفع بالنبي
وقال آخر: ولا تمزع إذا ضاقت أمور
فكم لله من لطفٍ خفي

وروي أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: سقى الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا. اللهم استر ذنوبنا واقض عنا تبتعاتنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الحياء

قالت عائشة رضى الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافاة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمّام للجار، وحفظ الذمّام للمصاحب وقرى الضيف ورأسهن الحياء. قال رسول الله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان». وقال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه. وعن زيد بن على عن أبياته يرفعونه: «من لم يستح فهو كافر». قال أبو موسى الأشعري رضى الله عنه: إني لأدخل بيت المظلم اغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلى حياء من ربي، وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكتون فى الوعاء. وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل، على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء، فأرفسها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا: سواء علينا أريناه أو آتانا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه. ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

الفصل الثانى: فى التواضع ولين الجانب وخفض الجناح

قال الله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ جَانِحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿بَلِّغْ الدُّارَ الْآخِرَةَ نَجِّلْهَا لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. وقال رسول الله ﷺ: أفضل العبادات التواضع. وقال ﷺ: «لا ترفعوني فوق قدرى، فتقولوا في ما قالت النصارى فى المسيح، فإن الله عز وجل اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولا، وأتاه ﷺ رجل فكلّمه فأخذته رعدة، فقال ﷺ له: «هون عليك، فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»، وكان ﷺ يرفع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم فى مهنة أهله، ولم يكن متكبرا ولا متجبرا، أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا، وكان إذا حدث بشيء عما أتاه الله تعالى قال: ولا فخر. وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا بعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء فتصدقوا بذككم الله». وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية، قال ذلك أبعد من الكبير وأسرع فى الحاجة. وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وقيل: التواضع سلم الشرف. وليس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين، فقيل له فى ذلك، فقال: إن أبى كان جبّاراً، فأحييت أن اتواضع لربى لعله أن يخفف عن أبى تجبره، وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجردى فرغمه فوق الجبال، وجعل قراى السفينة عليه. وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: «هل تعرف لى كلمتك من بين الناس؟» قال: لا يا رب. قال: «لانى وأنتك تنمرغ بين يدى فى التراب تواضعا لى». وقيل: من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس. وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاه إلا وضيع ولا فاجر إلا لقيط، وكل من تواضع لله رفعه الله. فسيحان من تواضع كل شيء لعز جيروت عظمت.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المعجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيحة وقبول التاديب، والكبر يكسب الموت، ويمنع من التألف. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»، وقال رسول الله ﷺ: «من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تنحاش الكبر وتأنف منه. ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه فقال: وددت أنني مثلك في ظنك وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. رأى رجل رجلاً يختال في مشيه، فقال: جعلني الله مثلك في نفسك ولا جعلني مثلك في نفسي. وقال الأحنف: عجب لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل بك، فقال: أوما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة أكيدة أولك نقطة مذنرة، وآخرك جيفة قلصرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه. وقالوا لا يدوم الملك مع الكبر وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة والسيادة، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، ففرق الكبر بالفساد. وقال تعالى: ﴿مَّا صَوَّرَ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا ما تحول ما به، يعني أتكبر عليه.

واعلم أن الكبر يوجب الموت ومن مقتته رجاله لم يستقم حاله، والعرب تجعل جذبة الأبرش غاية في الكبر، يقال: إنه كان لا ينادم أحداً لشكوه ويقول: إنما ينادمني الفرقدان. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً. روى أنه قال لغلامه: اسقني ماء، فقال: نعم، فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، أصغموه، فصنع ودعا أكاراً فكلّمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استغفاراً لمخاطبته، ويقال: فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر.

قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو ذرارة بن عدي، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً وأنفسهم إلا أرباباً، وقيل لرجل من بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة، فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي، وقيل للمحتاج بن أرتاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال: أخشى أن يزاحمني البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأنطقه أرضاً، وقال لمعاوية: اعرض هذه الأرض عليه واكتبها له، فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته فأحرقه حر الشمس، فقال له: اردفتي. خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك، قال: فأعطني نعليك. قال: ما بخل بمنى يا ابن أبي سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقدام اليمن أنك لست نعلني. ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرقاً، وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه، فأقعد معه على السرير وحده. وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المسرور بن هند، قال فتصفاً ونكتاً لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

قول لأحمق يلوي التيه أخدعه لو كنت تعلم ما في التيه لم تنه
التيه مفسدة للدين منقصة للعقل مهككة للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبر إلا كل وضع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ۚ﴾ [السجدة: ١٨]. نزلت فى على ابن أبى طالب كرم الله وجهه، وعقبة بن أبى معيط، وكانا تفاخرا، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْقَ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَّاتِي أَمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. نزلت فى أبى جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب، وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ اتِّفَاقُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالفخر فى الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إن نبيكم واحد، وإن آباكم واحد، وإنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟».

وقال الأصمى: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رايت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول:

يا من يجيب دعاء المضطر فى الظلم يا كاشف الضر والبلى مع المقم
قد نام وقدك حول البيت واتبھوا وائت يا حى يا قـيـوم لم تتم
أدعوك ربى حزينًا هائمًا قلنا فارحم بكائى بحق البيت والحرم
إن كان جردك لا يرجوه ذو سفه فمن يجود على العصاين بالكرم
ثم بكى بكاءً شديدًا وانشد يقول:

ألا أيها المقصود فى كل حاجتى شكوت إليك الضر فارحم شكائى
ألا يا رجائى أنت تكشف كربتى فهب لى ذنوبى كلها واقض حاجتى
أبيت بأعمال قبيح رديئة وما فى الورى عبيد جنى كجنايتى
أحمرقنى بالنار يا غياية المنى فأين رجائى ثم أين مخافتى

ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه، فدنوت منه، فإذا هو زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، فرفعت رأسه فى حجرى وبكيت، فقطرت دمعة من دموى على خده ففتح عينيه وقال: من هذا الذى يهجم علينا؟ قلت: عبيدك الأصمى، سيدى ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة؟ ليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فقال: مبهات مبهات يا أصمى إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبدًا حبشيًا، وخلق الناس لمن عصاه ولو كان حرًا قرشيًا، ليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ۚ﴾ [فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ۖ] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۖ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]. والفخر وإن نهت عنه الاخبار النبوية ومجت العقول الذكية إلا أن العرب كانت تفتخر بها فيما من البيان طبعًا لا تكلفًا، وجيلة لا تعلمًا، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ولا ينه على منابهم سواهم، وكان كعب بن زهير^(١) إذا أشد شعرًا قال لنفسه: أحسنت وجاورت والله الإحسان، فيقال له: اتخلف على شعرك؟ فيقول: نعم لاني أبصر به منكم. وكان الكميث إذا قال قصيدة صنع لها خطبة فى الشناء عليها، ويقول عند إنشادها: أى علم بين جبنى وأى لسان بين فكى. وقال الجاحظ، ولو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب، ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها بالتيمة تنزيها لها عن المثل، سكنت من النفوس موضع إزادته من تعظيمها، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله.

(١) كعب بن زهير: هو كعب بن زهير بن أبى سلمى المازنى، أبو المضرّب، شاعر عالى الطبقة، من أهل نجد له (ديوان شعر) كلا من اشتهر فى الجاهلية، ولا ظهر الإسلام هجا الذى ﷺ وأقام شبيب بنساء المسلمين فهدى الذى ﷺ معه، فجاءه كعب مستأثرًا وقد أسلم فعفا عنه، توفي سنة (٦٤٥ هـ - ٦٤٥ م).

وستذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئاً من نظم البلغاء وتترهم في الافتخار ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره.

قال أبو بكر الهذلي: ساريت المنصور فعرض لنا وجل على ناقة حمراء تطوى الفلاة وعليه جبة حمراء وعمامة حدنية، وفي يده سوط يكاد يس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته، وسأته عن نسبة وبلاده وعن قومه وعشيرته وعن ولادة الصدقة، فأحسن الجواب، فأعجبه ما رأى منه، فقال أشدني شعراً فأشده شعر لاوس بن حجر وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن نعيم، وحدثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن نعيم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتها صـلـوت إن الأمور لها ورد وإصـدار

فقال: ويحك ماكان طريف فيكم حيث قال هذا البيت؟ قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة وأقراهم لضيفه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بمكاظ، فكلهم أقروا له بهذه الخلال، فقال له: والله يا أخا بني نعيم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وأتى من القـوم الذين هم هم إذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجـزع ثاقبه
وما زال فيهم حيث كان مسوداً تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: من ابن على رضى الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل لم يبعث بهتاً إلا جعل له عدوك من المجرمين، فأنا ابن على وأنت ابن صخر وأملك هند وأمي فاطمة وجنتك قبلة وجدتي خديجة، فلعن الله الأمتا حسباً وأخملنا ذكراً وأعظمتا كفرًا وأشدنا تغافاً، فصاح أهل المسجد آمين آمين، فقطع معاوية خطبته ودخل منزله. وروى أن معاوية خرج حاجلاً فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن على رضى الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن على فقال له معاوية مرحباً برجل تركنا حتى نغد ما عندنا وتعرض لنا ليخلصنا، فقال له الحسن: ولم يتقد ما عندك وخراج الدنيا يجيء إليك، فقال معاوية، إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند، فقال الحسن قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة. ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يقتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا والحسين ساكت فأذن المؤذن فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله قال الحسين: يا يزيد جد من هذا؟ فنجعل يزيد ولم يرد جواباً. وفي ذلك يقول على بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة بمط غلـود وامـداد أصابع
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا عليهم بما نهوى ثناء الصوامع
ترانا سكوتاً والشهيد بفضلنا عليهم جهير الصوت من كل جامع

وله أيضاً:

إني وقنومى من أنساب قومهم كمسجد الخيف من بحبوحة الخيف
ما علق السيف منا بابين عائرة إلا وهمسته أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بن شبة وعلى بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقاتم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعى مفتاحه فقال على: ما أدري ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بسنة أشهر، فنزلت: ﴿أَجْعَلْتُمْ مَقَادِيرَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْعَرَامِ كَمَا يَبَالِغُ فِيهِ الْيَوْمَ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ﴾ [التوبة: ١٩].

وتفاخر رجлан على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين، فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذى عد تسعة آباء مشركين فحق على الله أن يجعل عاشرهم فى النار، والذى انتسب إلى أب مسلم فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم فى الجنة. قال سلمان الفارسي:

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا استخبروا بقبس أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق: أنا ابن محبى الموتى، فأثكر سليمان قوله، فقال يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وجدى فدى الموهودات فاستحيهن، فقال سليمان: إنك مع شعرك لفتية. وكان صعصة جد الفرزدق أول من فدى الموهودات. وللعباس بن عبد المطلب:

إن القبياتل من قريش كلها
وترى لنا فضلاً على ماداتها
ليبرون أنا هام أهل الأبطح
فضل النار على الطريق الأوضح

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت
إذا وليد المرسلود منا تهللت
بنا الحمال أو دارت علينا الدوائر
له الأرض واهتمزت إليه المنابر

وكتب كتاباً بهوجه فيه وسبه، فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجيناك والسلام. وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومتابعة الرجال بعضهم بعضاً، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخزومة الكندي، وخالد بن صفوان بن الأهمم فغاضوا فى الحديث وتذكروا مصر واليمن، فقال إبراهيم بن مخزومة: يا أمير المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخرأ عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصباً وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف قروء، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التيمى رضى بقولك، ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال: إن أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت، قال: تكلم ولا تهب أحدك، قال: أخطأ المفتحم بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون ذلك لغوم ليس لهم ألسن فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر وفتخر عليهم بغير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فله المنة به علينا وعليهم، فما التى المصطفى والحليفة المرتضى ولنا البيت المحمور، وزمزم، والحطيم، والمقام، والحجابه، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر، ومنا الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولى وأسد الله وسيد الشهداء، وبنا عرفوا الدين، وأتامهم اليقين، فمن راحتنا راحمتنا ومن عادانا اضطلمنا، ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندهم؟ قال: الجمجمة. قال: فما اسم السن؟ قال: الميدين. قال: فما اسم الأذن؟ قال: الصنارة. قال: فما اسم الأصابع؟ قال: الشناتير، قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع، قال: فما اسم آت بكتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال: فإن الله

تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، فحنن العرب والقرآن بلساننا أنزل، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَالْقَيْنَ بِالْعِنبِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل، والجمجمة بالجمجمة، وقال تعالى: ﴿وَالسِّينَ بِالسِّينِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل والميدن بالميدن. وقال تعالى: ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل والصنارة بالصنارة، وقال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩] ولم يقل شتايرهم في صناراتهم، وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، ولم يقل فأكله الكنع، ثم قال لإبراهيم: إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت، قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منك؟ قال: منكم. قال: فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال: عليكم. قال: فالتبصيرنا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فاليات لنا أو لكم. قال: لكم قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد، أو دايغ جلد أو نامخ برد، قال: فضحك أبو العباس، وأقر خالد وجههما جميعاً.

وقال بشار بن برد يفخر:

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
ذوا منبر صلى علينا وسلمنا

إذا نحن صولة مضربة
إذا ما أعزنا سيدنا من قبيلة

وقال السموأل بن عدياء:

فكل رداء يرتديه جـمـمـيـل
فليس إلى حسن الشئاء صـمـيـل
فسلقت لهما إن الكرام قليل
شباب تسمى للعلل وكهول
عزيز وجوار الأكثـرـين ذليل
منبيع يمد الطرف وهو كليل
إلى النجم فسرع لا يزال طويل
إذا ما رائه عمامـسـر وسلول
وتكرهه أجـمـالهم فسـطـول
ولا ظل منا حيث كان قـتـيل
وليست على غير الظلمات تسيل
كهـام ولا غينا يعد بخيل
ولا ينكرون القـوـل حين نقول
قـوـل بما قال الكرام قـمـول
ولا ذمنا في النـزـالـين نـزـيل
لها غرر مشهورة وحجول
بها من قـراع الدارعين فلول
فتفمد حتى يستباح قتيل
فليس سواء عالم وجهول

إذا المرء لم يندس من اللؤم عـرـضـه
وإن هو لم يحمل على النفس ضـمـمـهـا
تعيبرنا أنا قليل عـسـيـدنـا
وما قل من كانت بقاياها مـثـلـنا
وما ضمرنا أنا قليل وجـارـنا
لنا جبل يحمله من لجمـيـره
سرى أصله تحت الثرى ومـمـا به
وإننا أناس لا نرى القـتـل سـبـبـه
يقرب حب الموت أجـالـنا لنا
وما مات منا سيد حـفـ أنفه
تـجـل على حد الظلمات نفوسنا
ونحن كماء المزن ما قى نصـابـنا
وننكر إن شئنا على الناس قـوـلهم
إذا سيد منا خلا قام سـيـد
وما خمعدت نار لنا دون طـارق
وأيامنا مشهورة في عـبـدنـا
وأما فـنا في كل شرق ومـغـرب
معمودة أن لا تل نـصـالـهـا
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم

فسلنا بنى الريان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم ونجول

ولما قدم وفد نجيم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم، خطب خطيبهم، فافتخر، فلما سكث أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم، فخطب ثابت بن قيس فاحسن، ثم قام شاعرهم وهم الزيرقان بن بدر فقال:

نحن الملوك فلا حى يفاخرنا ونحن نطمعهم فى الفحط ما أكلوا
وتنحدر الكوم عبطاً فى أرومتنا تلك المكارم حزنائها مقارعة
فينا العلاء وفينا تنصب البيع من العبيط إذا لم يؤنس الفزع
للنازلين إذا ما أنزلوا شجعوا إذا الكرام على أمثالها اقتنعوا

ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم، فقام فقال:

إن الذوايب من فهور وإخوتهم يرضى بها كل من كانت سريره
قوم إذا حاربوا ضروا علومهم سجية تلك منهم غير محدثة
لو كان فى الناس سباقون بمعهم لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم
ولا يفضنون عن جوار بفضلهم خذ منهم ما أتوا فرك إذا عطفوا
أكرم بقوم رسول الله ﷺ شيعتهم

قصد بينوا منناً للناس تتبع تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعا إن الخلاق فاعلم شرها البدع
فكل سبق لأذى سبقهم تبع عند الدفاع ولا يهزون ما رفعوا
ولا يمسهم فى مطمع طمع ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
إذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك: وريكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما انتصفنا ولا قاربنا، وقال شاعر من بنى نجيم:

أبيــــــنخى آل شــــــداد علينا وسالم بن أبى وابصة:
فسإن تغمد ماصلتنا فحننا غلاطاً فى أئامل من يصول
وما يرى لشداد فصيل

عليك بالقصد فيما أنت فاعله وموقف مثل حد السيف قمت به
فما رلقت ولا أبديت فاحشة إن التـــــــخلق يأتى دونه الخلق
أحمى اللعاب وترمينى به الخلق إذا الرجال على أمثالها رلقوا

وأما التفاضل والتفاوت

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قال: «يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى»، لانهما كانا من خيار الصحابة وأبوابهما أهدى لله ولرسوله ﷺ، ومن كلام على رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه: أما قولك إنا بنو عبد مناف فكلذك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبى طالب. وقال أحمد بن سهل الرجال ثلاثة: سابق ولا حق وماحق، فالسابق الذى سبق بفضل، واللاحق الذى لحق بأبيه فى شرفه، والمأحق الذى محق شرف أبائه. وقيل: إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطمعا وريتهما، قال أشعب: فكننت أسفل وكان يملو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغائتين، وقال أبو العوادل زكريا بن هارون:

على وعبد الله بينهما أب	وشتان ما بين الطبايع والفعل
الم تر عبد الله يلحى على التندى	عليها ويلحاه على ^٤ على البسخل

وحج أبو الاسود الدؤلى بأمرائه وكانت شابة جميلة فعرض لها عمر بن أبى ربيعة، ففازلها، فأخبرت أبا الاسود، فأناء فقال:

وانى لينهاتنى عن الجهل والحنا	وعن شتم أقوام غملاق أربع
حياء وإسلام وتقوى وأئنى	كريم ومثلى من يضر وينفع
فشتان ما بينى وبينك إننى	على كل حال أستمقيم وتضلع

وقال ربيعة الرقى:

لشتان ما بين البيزىدين فى التندى	يزيد سليم والأعز بن حاتم
يزيد سليم مالم المال والقستى	فتى الأزد للأموال غير مسالم
فهم ^٥ الفتى الأزدى إتلاف ماله	وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب القيسى أتى هجوته	ولكننى فضلت أهل المكارم

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى أخيه الحسين:

يقول أنا الكبير فعظمونى	الأثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفساً	وأجلد عند نائبة الأمور
ولم يأت الكبير بيوم غير	فما فضل الكبير على الصغير

والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: «من رزقه الله مالا فبذل معروفه وكف اذاه فذلك السيد». وقيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ قال: لم اخاصم احداً إلا تركت للصلح موضعاً. وقال سعيد بن العاص: ما شأنت رجلاً مذ كنت رجلاً لاني لم أشتام إلا أحد رجلين إما كريم، فانا أحق أن أجله، وإما لثيم فانا أولى أن أرفع نفسي عنه. وقالوا: من نعت السيد أن يكون ملاً العين جمالاً، والسمع مقالاً. وقيل: قدم وفد من العرب على معاوية وقيهم الأحنف بن قيس، فقال الحاجب: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه، فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردت ونارلة نزلت، وثابتة ثابت، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين، فقال له معاوية: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيته الشاهد والغائب.

وقال رجل للأحنف: بم سدت قومك، وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصحبهم وجهاً، ولا أحسنهم خلقاً؟ فقال: بخلاف ما فيك، قال: وما ذاك؟ قال: تركي من أمرك ما لا يعنيني، كما عناك من أمري ما لا يعينك، وقيل: السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي، وعلى الأعداء كاللثيم العادي. وكان سب ارتفاع عرابية الأوسى وسؤدده أنه قدم من سفر، فجمعه والشماع بن ضرار الزني الطريق، فتحدثا، فقال له عرابية: ما الذي أقدمك المدينة يا شماغ؟ قال: قدمتها لاستار منها، فعلا له عرابية وراحله برآ وتحرراً والتحفه بتحف غير ذلك، فاشد يقول:

رأيت عرابية الأوسى يسـمـو إلى الخـفـيرات منقطع القـريـن
إذا ما راية رفعت بمجـد تلفهاها عرابية باليـمـين

وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة

فمن علت همته وشرفت نفسه عمارة بن حمزة، قيل: إنه دخل يوماً على المنصور، وقعد في مجلسه، فقام رجل، وقال: مظلوم يا أمير المؤمنين، قال: من ظلمك؟ قال: عمارة بن حمزة غصبني ضيعتي، فقال المنصور: يا عمارة قم، فأقدم خص خصمك، فقال: ما هو لي بخصم إن كانت الضيعة له، فليست أتأذعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتها له، ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعتي، وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة. وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوماً في نزاعة نفس عمارة وكبره، فقالت له: ادع به وأنا أحب له سبحتي هذه، فإن ثمنها خمسون ألف دينار، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس، فوجه إليه فحضر، فحادثه ساعة، ثم رمت إليه بالسبعة، وقالت: هي من الطرف وهي لك، فقبلها عمارة بين يديه، ثم قام وتركها، فقالت: لعله نسيها، فبحث بها إليه مع خادم فقال للخادم: هي لك، فرجع الخادم فقال: قد وهبتها لي، فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار واستعادتها منه. وأهدى عبيد الله بن السري^(١) إلى عبد الله بن طاهر^(٢) لما ولي مصر مائة صيف مع كل صيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فرده وكتب إليه لو قبلت هديتك ليلاً لقبثتها نهاراً وما أتاني الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون.

(١) عبيد الله بن السري: هو عبيد الله بن السري بن الحكم، أمير مصر، وابن أميرها، بايع له الحيد واقعه المأمون العباسي، وأقبل عبد الله بن طاهر ماراً بالشام حتى بلغ مصر فوقف من قبل المأمون فدأته عبيد الله مئة، وجاءه أمان المأمون على الصلح بينه وبين ابن طاهر، فلما التقيا خلع عليه ابن طاهر وأمره أن يخرج للمأمون، فخرج وأقام بالعراق إلى أن توفي سنة (٢٥١ هـ - ٨٦٥ م).

(٢) عبيد الله بن طاهر: هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ابن دريق الخزاعي، بالولاء. أبو العباس، أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، أصله من بادقيس بخراسان، وولى إمارة الشام مدة، ونقل إلى مصر ثم إلى الديور. ثم إلى خراسان، ثم كانت له طبرستان وكرمان والري والسواد. وكان أكثر الناس بطلاً للشام، مع علم وتجربة قال ابن خلكان: كان عبد الله سيدياً نبيلاً صالحاً الهمة شهيداً، توفي في مرو سنة (٢٣٠ هـ - ٨٤٤ م).

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت، فتادت وإمحمدها واعتصمها، فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش فلما فتحها قال: ليك أيتها المنادية. وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، قيل له في مرضه: إن المريض يشترح إلى الأئین وإلى شرح ما به إلى الطبيب، فقال: أما الأئین، فهو جزع وعار، والله لا يسمع الله مني أئینًا، فأكون عنده جزوعًا، وأما وصف ما بي إلى الطبيب، فوالله لا يحكم غير الله في نفسي إن شاء أسكنها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابه الفاقة واحتاج فكان يأكل الخنظل حتى قتله، ولم يخبر أحدًا بحاجته. ومن الشرف والولاية حفظ الجوار، وحسن الذمار. وكانت العرب ترى ذلك دينًا تدعو إليه وحشًا واجبةً تحافظ عليه، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جبارًا واخترت داري دارًا، فجنابة يدك على دونك وإن جنت عليك يد، فاحكم حكم الصبي على أهله. وكان الفرزدق يجيز من عاذ بقر أبيه غالب بن صعصعة، فعمن استجار بقر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بنى جعفر أن يسميها وينسبها، فعاذت بقر أبيه، فلم يذكر لها اسمًا ولا نسبًا ولكن قال:

عجوز تصلى الخمس عاذت بنسألي فلا والذي عاذت به لا أضربها

وقال مروان بن أبي حفصة:

هم ينعمون الجمار حتى كادوا لجمارهم بين السماكين منزل

وقال ابن نباتة:

ولو يكون سواد الشمعر في ضم ما كان للشيب سلطان على القمم

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده وسجنه، فحصل يزيد بحسن تطفه وأرغب السجان واستماله، وهرب هو والسجان، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه وأحسن إليه، وأقامه عنده، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن وأنه عند سليمان بن عبد الملك أغشى أمير المؤمنين، وولى عهد المسلمين وأن أمير المؤمنين أهلى رأيًا، فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول يا أمير المؤمنين إنسى ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لاته هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديمًا وحديثًا، ولم أجر عدوًا لأمر المؤمنين، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمة أربعة آلاف ألف درهم ظلمًا، ثم طابه بمئمة ثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إلى واستجار بي، فأجرتة وأنا أفرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن رأى أمير المؤمنين، أن لا يخزني في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم، فكتب إليه الوليد: إنه لا بد أن ترسل إلى يزيد مغلولًا مقيدًا، فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب فقيده ودعا يزيد بن المهلب فقيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعًا بغلن وأرسلها إلى أخيه الوليد، وكتب إليه: أما بعد، يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب ابن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد، فبالله عليك أبدأ بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانيًا واجعلنى إذا شئت ثالثًا والسلام.

فلما دخل يزيد بن المهلب وأيوب بن سليمان في سلسلة واحدة أطرقت الوليد استحياء وقال: لقد أسأتنا إلى أبي أيوب إذ بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم ويحتج لنفسه فقال له الوليد ما يحتاج إلى كلام فقد قبلنا عذرك وعلمنا ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حدادًا وأوال عنهما الحديد وأحسن إليهما ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ووصل يزيد

ابن المهلب بمشربين ألف درهم، وردهما إلى سليمان، وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم. فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

وحكى أن رجلاً من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة فجعل المهدي لمن دل عليه أو أتى به مائة ألف درهم، فأخذته رجل من بغداد فأيس من نفسه فمر به معن بن زائدة فقال له: يا أبا الوليد أجرتني أجارك الله، فقال معن للرجل ما لك وما له فقال: إن أمير المؤمنين طالبه قال: خل سييله، قال: لا أفعل، فأمر معن غلمانته فأخذوه غصباً وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة، فأرسل خلف معن فأحضره فلما دخل عليه قال له: يا معن أتخبر على، قال: نعم يا أمير المؤمنين قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتى أقاترونى أهلاً أن تجيروا إلى رجلاً واحداً استجار بى، فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرتنا من أجرت يا أبا الوليد، قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بى فيكون قد أجاره وحياه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنایات الرعية وأن ذنب الرجل عظيم فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل، قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه وقال له: لا تتعرض لمساخط الخلفاء، وكان جعفر بن أبى طالب يقول لأبيه: يا أبت إني لاستحي أن أطعم طعاماً وجيراني لا يقدرون على مثله، فكان أبوه يقول: إني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب. وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب فجاء أهل الحى فقالوا: نريد جارك. فقال: أما إذ جعلتموه جارى قوائله لا تصلون إليه، وأجاره حتى طار فسمى مجير الجراد، وقيل: هو أبو حنبل والحكايات في معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة

وذكر الأولياء الصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضى الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر وإنى والله أحبه وأحب من يحبه، وأسأل الله أن يمتني على محبة النبي محمد ﷺ ومحبيه وأن يحشرنا في زمرةهم ونعت الويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير. شعر:

إني أحب أبا حفصه وشيخته : كما أحب عتيقًا صاحب الفار
وقد رضيت عليًا قدوة علمًا وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
كل الصحابة ساداتي وممقتدى فهل على بهلنا القول من عار

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «فمن أطعم اليوم منكم مسكينًا؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال ﷺ: «فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟» فقال أبو بكر: «أنا» فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في أحد إلا دخل الجنة». وقال ﷺ: «لو كان بعدى نبي لكان عمر»، وقال له النبي ﷺ: «والذي بعثي بالحق بشيرًا ما سلكت واديًا إلا سلك الشيطان واديًا غيره»، ولما أسلم رضى الله عنه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: «بلى»، قال: «والذي بعثك بالحق نبيا لا نعبد الله سرك بعد هذا اليوم». ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل الطيرين عطيًا لهم وقال: انظر إلى ملك العرب فرأه على فرس وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قربوس السرج وعمر يسلخ يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التين ويلوكها، فوصفه للطيرين فقال: لا نرى بحارية هذا طاقة اعطوه ما شاء. وأما أمير المؤمنين عثمان رضى الله تعالى عنه فضائله كثيرة وسنابقبه شهيرة فهو جامع القرآن، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن رضى الله عنه. وقال جميع بن عمر: دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها: أخبرتني من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، قالت: فاطمة، قلت: إنما أسألك عن الرجال، قالت: زوجها، فوالله لقد كان صوامًا قوامًا. ولقد سألت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه، قلت: فما حملك على ما كان فأرسلت خمارها على وجهها ويكت وقالت: أمر قضي على، وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني: صف لي عليًا فاستعفى فألق عليه فقال: أما إذ ن فلأيد أنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنفق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبيرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأبينا إذا دعوانا، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هية له، يعظم أهل الدين ويحب المساكين لا يطعم القوى في باطله، ولا يياس الضعيف من عدله، فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه وقد مثل في صحرايه قابضًا على لحية يتململ تملل الخائف ويكي بكاء الحزين، فكأن الأسمعه يقول: يا دنيا إني تعرضت أم إلى تشوقت مبهات مبهات فرى غيري لقد أبنتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، أه من قلة الزاد ووحشة الطريق، قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحية وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء، وقال رحم الله أبا الحسن: كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزنني عليه والله حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج. وقيل: أول من مل سيفا في مسيل الله تعالى الزيرين مع العوام رضى الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صالح، فقال: قتل محمد، فخرج مستجردًا وسيفه معه صلتًا فلقاه رسول الله ﷺ فقال: «ما لك يا ويسر؟» قال: سمعت أنك قتلت، قال: «فماذا أردت أن تصنع». قال: أردت والله أن أستعرض على

أهل مكة. وروى أنخط بسيفي من قلدت عليه فضمه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستر به وقال له: «أنت حواربي ودعا له».

قال الأوزاعي: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها، وبلغ داراً له بمائة ألف درهم فقيل له: يا أبا عبد الله غبت، قال: كلا والله لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى، وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: مَنْ حَمَلَك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة، قال: «طلحة»، قال: أقرته السلام وأعلمه أني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استغفرت منه. من هذا الذي عن يمينك؟ قال: «المقداد بن الأسود^(١)»، قال: إن الله يحب ويأمر أن تحبه. من هذا الذي بين يديك يتقي عنك؟ قال: «عمار بن ياسر»، قال: بشره بالجنة حرمت النار على عمار. ومرو أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبي فلم يسلم، فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: «أتمرفه يا جبريل؟» قال: والذي بعثك بالحق نبياً لهر في ملكوت السموات السبع أشهر منه في الأرض، قال: «بم نال هذه المنزلة؟» قال: يزهده في هذه الحطام الفانية. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لينفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيانه البلاء»، ثم قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي: بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثني عشرة سنة لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهماً قط في تجارة ولم يمل عملاً لسلطان ولم يأمر بشيء حتى يفعل ولم يته عن شيء حتى يدفعه، قال السفاح: بهذا بلغ. وقال الجاحظ: كان الحسن يستثنى من كل غاية فيقال: فلان لزهده الناس إلا الحسن وأفضحه الناس إلا الحسن وأخطب الناس إلا الحسن، وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهده من أوس لأن عمر ملك الدنيا فزهده فيها وأويس لم يملكها، فقيل لو ملكها لفعل كما فعل عمر فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب. وقال أنس في ثابت البناني: إن للخير مفاتيح وإن ثاباً من مفاتيح الخير. وكان حبيب الفارسي من أخيار الناس وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفاً، كان يخرج من البصرة فيقول: يا رب اشترت نفسي منك بهذه ثم يتصدق بها. وكان أيوب السخيتاني من أزهده الناس وأورعهم، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاماً عند منير النبي ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا اقتصر جلدي. وقال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر. وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهده الناس وأعلاهم نفساً وكان الملوك يقصدونه ويذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئاً، وكان يصوم سنة ويفرض سنة حتى مات رحمه الله. وقال ابن خارجه: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملوك كتبوا عليه شيئاً، وروى أنه غسل كرد بن وبرة فلم يوجد على جسده مقال لحم.

وهو محمد بن الحسن قال: كان أبو حنيفة واحد رماه، لو انشقت عنه الأرض لانشتت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والزهد والورع.

وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة وروابط في عبادان أربعين ليلة وعظم بها القرآن أربعين ختمة وتصدق بأربعين ألفاً وروى أربعة آلاف حديث، وما روى وأضغماً جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح وهو أسود مفلقل الشعر، يقف الناس في الحلال والحرام فتشمل يقول: تلك المكابر لا تقبلان من لين.

ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي أستاذ إبراهيم بن شيان، كان حبيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله.

(١) المقداد بن عمرو: هو المقداد بن عمرو، يعرف بابن الأسود، الكندي البهرازي الحضرمي، أبو معبد، هو أبو عمرو، وصحابي من الأبطال، هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام، وهو أول من قاتل علي بن أبي طالب في سبيل الله، كان من ساكني حضرموت، شهد بدرًا وغيرها، وسكن المدينة، توفي بقرنها، ودفن فيها رحمه الله سنة (٥٣٣هـ - ٦٥٣م).

ومتهم سيدى فتح بن شخرف بن داود يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين، لم يأكل الخبز ثلاثين سنة، قال أحمد ابن عبد الجبار: سمعت أبى يقول: صحبت فتح بن شخرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء، ثم رفعها يوماً فقال: طاك شوقى إليك فمجل قدومى عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت إنساناً يقول غسنا فتح بن شخرف فراينا مكتوب على فخذه لا إله إلا الله توهمناه مكتوباً وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحو من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً.

ومتهم سيدى فتح بن سعيد الموصلى يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافى وسرى السقطى كبير الشأن فى باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلى: رجع فتح الموصلى إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائماً فقال عشوئى فقالوا: ما عندنا شيء نعيشك به، فقال: ما بالكم جلوس فى الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرح به، فجعل يبكى من الفرح ويقول للهِ مثلئ يترك بلا عشاء ولا سراج باى يد كانت منى، فما زال يبكى إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يشئ وحده ويحرك شفتيه فلمت عليه فرد على السلام، فقلت إلى أين؟ فقال: إلى بيت ربى عز وجل فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال: أتلو كلام ربى، فقلت: إنه لم يجر عليك فلم التكليف؟ قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر منى، فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة، فقال: إنما على نفل الخطا وعليه البلاغ، فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادى يقينى وراحلتى رجلاى، فقلت: أسالك عن الخبز والماء، قال: يا عمه أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يحمل بك أن تحمل رادك إلى منزله؟ قلت: لا، فقال: إن سيدى دعا عباده إلى بيته وأذن لهم فى زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حمل أرواحهم وأنى استقبلت ذلك فحفظت الأدب معه، أفترأى يفسعنى؟ فقلت: حاشا وكلا ثم غاب عن بصرى فلم أره إلا بمكة فلما رأتى قال: أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين.

ومتهم سيدى أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيرى صاحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرارى وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لأربع لهم، أبو عثمان الحيرى بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء: المنع والعطاء والعز والذل، وقال: منذ أربعين سنة ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته، ولا نقلنى إلى شيء فسخطه.

ومتهم سيدى سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين والعباد الموصوفين سكن الشام ودخل بيروت وكان أكثر مقامه بيت المقدس، قيل: اجتمع حذيفة المرعى وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط فتذاكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت، فقال بعضهم: الغنى من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا، وقال بعضهم: الغنى من لم يحتاج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت فى ذلك، فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى فى التوكل ورأيت جوامع الفقر فى القنوط، والغنى حق الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقيناً ومن معرفته توكلأ، ومن قسمته رضا فذلك الغنى حق الغنى وإن أمسى طاولوا وأصبح معوزاً فبكى القوم من كلامه.

ومتهم سيدى أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة قدس الله سره، كان من أجل السادات وأرباب الجدد فى المجاهدات، ومن كلامه: من أحسن فى نهاره كفى فى ليله ومن أحسن فى ليله كفى فى نهاره، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له، وقال: لكل شيء علامة وعلامة الخذلان ترك البكاء، وقال: لكل شيء صداً وصداً نور القلب شيع البن. وقال أحمد بن أبى الحواري شكوت إلى أبى سليمان الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأى وقت أحببت به فافرح فإني إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك، وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبى سليمان الداراني فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتى بسريرتى طالبتك بتوحيديك، وإن طالبتى بذنوبى طالبتك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إليك.

وقال على بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأى شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكتمان المصائب وصيانة الكرامات. وروى عنه قال: تمت ليلة عن وردى فإذا حواء تقول لى: أو تنام وأنا أرى لك فى الحذور منذ خمسائة عام.

ومتهم سيدى أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفى الأصل ولكنه سكن أنطاكية. ومن كلامه: لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة وبركات متواترة.

ومتهم سيدى أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء أصبهانى الأصل كتب عن شمسالة شيخ ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف وقطع البادية على التجريد، وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل يوم ثلاثة دراهم وثلاثاً فيأخذ من ذلك لنفسه دنانيراً ويتصدق بالباقي، ويختم مع العمل كل يوم ختمه فإذا صلى التمتع فى مسجده خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول فى الجبل: يا رب إما أن تهب لى معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق على فانى لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومتهم سيدى يحيى بن معاذ الرازى قدس الله سره يكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريق كان أوحد وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يقضعه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه، وقال: ليكون حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تغفقه فلا تضره وإن لم تسره فلا تفسده، وإن لم تمدحه فلا تدمه، وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بنس الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له: اذكرنى فى دعائك، وقال: على قدر حيك لله يحبك الخلق وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق وعلى قدر شغلك بالله تشغل فى أمرك الخلق، وقال: من كان غناه فى كسبه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنياً، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً.

وروى أنه قدم شيراكاً فجعل يتكلم على الناس فى علم الأسرار، فأثمت امرأة من نسايتها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال: ثلاثون ألفاً أصرفها فى دين على بخراسان، فقالت: لك على ذلك أن تأخذها وتخرج من ساعتك، فرضى بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد، فموتت تلك المرأة فيما فعلت فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامه فغرت على ذلك.

ومتهم سيدى يوسف بن الحسين الرازى يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته فى إسقاط التصنع، عالماً أدبياً صاحب ذا النون المصرى وأباً تراب التخشى. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحق فحذره بالبحال فإن قيل فاعلم أنه أحق. وقال: إذا رأيت المرید يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيئ منه شيء، وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصى أحب إلى من أن ألقاه بذر من التصنع، وقال أبو الحسن الدراج: قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله فكل من سأله يقول أى شيء تريد من هذا الزنديق فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف، فبت تلك الليلة فى مسجد ثم قلت فى نفسى: جئت هذه البلدة فلا أقول من زيارته فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً فى المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، فقال: اتخمن من قولهم شيئاً؟ قلت: نعم، وأثدته:

رايتك تبني داتماً فى قطيعة
ولو كنت ذا حزم لهلّمت ما تبني

فاطيق المصنف ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه ثم التفت إلى وقال: يا بنى أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق وما أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ولم تقطر من عيني قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت.

ومتهم سيدى حاتم بن علوان الأصم قدس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن من أكابر مشايخ خراسان صاحب شقيق البلخي، ومن كلامه: ألزم خدمة مولاك تأتلك الدنيا راغمة والأخرة راغبة، وقال: من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب، من ادعى حب الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقير فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب، وسأله رجل علام بنيت أمرك فى التوكل على الله عز وجل؟ قال: على أربع خصال علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى، وعلمت أن عملى لا يعمل به غيرى فأتأ مشغول به، وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأتأ أبادته، وعلمت أنى لا أدخل من عين الله عز وجل حيث كنت فأتأ استحي منه.

وسبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخبجلت المرأة، فقال حاتم: ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فمرت المرأة بذلك وقالت: إنه لم يسمع الصوت فغلب عليه هذا الاسم رحمة الله تعالى عليه.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صاحب أبا بكر المصري وأبا على الروذباري وكان أرحد مشايخ وقته، من كلامه: روائع نسيم المحبة تغوح من المحبين وإن كنتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتدل عليهم وإن ستروها، وأنشدوا في هذا المعنى:

إذا ما أسمرت أنفس الناس ذكره تبينه فيهم ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها وهل سر منك أودع الريح يكتم

ومن كلامه أيضاً: إذا قطع العبد إلى الله تعالى بالكلية، فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس. وقال: صحبة الفساق داء ودواؤها مفارقتهم، وقال: إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه.

ومنهم سيدي جعفر بن نصر الحلدي يكتنأ بأبي محمد، بخدادى المنشأ والمولد، صاحب الجنيد وانتمى إليه وحج قريباً من ستين حجة، روى أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاءً بحرقة، فقال لها: ما لك تبكين؟ فقالت: تكلى بولدى، فأنشأ يقول:

يقولون شكلى ومن لم يلق فراق الأحبة لم يشك
لقد جرعتنى لىالى الفراق شواًباً أمر من الحنظل

وروى أنه كان له فص فوقع منه يوماً في الدجلة، وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا ذهبا به عادت، فدعا به فوجد القص في وسط أوراق كان يتفحصها، وصورة الدعاء أن تقول: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع علىّ قبائلى. وقد روى أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً، وروى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال: ودعت في بعض حجائى زين الكبير الصوفى، فقلت: وودنى شيئاً فقال: إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك أو بينك وبين إنسان، فقل: يا جامع الناس لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا، فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي. قدس الله سره يكتنأ أبا محفوظ من كبار المشايخ مجاب الدعوة وهو أستاذ السرى، وكان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي، فكان المؤدب يقول له: قل هو ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضرباً وجيحاً، فهرب منه، فكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أى دين شاء، فنوافقه عليه، فرجع إلى أبويه، فدق الباب فقيل: من الباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أى دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه، وكان مشهوراً بإجابة الدعوة، ومن كلامه رضى الله عنه: إذا أراد الله بعبد خيراً فح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل، وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكى وتندب أخلص تخلص، وقال سرى: سألت معروفاً عن الطامعين لله بأى شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل؟ قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة، ومن إنشاداته:

الماء يغسل ما بالشوب من درن وليس يغسل قلب المذنوب الماء

وقال إبراهيم الاطروش: كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد، فمر بنا صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم، فرفع يديه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة، فقال له أصحابه: إنما سالتك أن تدعو عليهم، ولم

نقل لك ادع لهم، فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضرهم ذلك. وقال سري: رأيت معروفاً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول للملائكة: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب، قال: هذا معروف الكرخي سكر بحبي لا يفيق إلا بقلاتي، وقيل له في مرضه: أوص، فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا، فإني أحب أن أخرج من الدنيا مريئاً كما دخلتها عرياناً، وقال أبو بكر الخياط: رأيت في المنام كأنني دخلت المقابر، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويحيى، فقلت يا أبا محفوظ: ما فعل الله بك؟ أو ليس قد مت؟ قال: بلى. ثم أنشد يقول:

موت الشقي حياة لا نفاذ لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

ومتهم قاسم بن عثمان الكرخي يكنى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ صاحب أبا سليمان الداراني وغيره، وكان من أقران السري والحارث المحاسبي، وكان أبو تراب النخشي يصحبه، ومن كلامه: من أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي، ومن أنشد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي. وقال: السلامة كلها في اعتزال الناس، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل، وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم وترك المعاصي وطلب الخلال وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مدحتم فلا تفرحوا، وإن ذمتم فلا تحزنوا، وإن كذبتهم فلا تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرج: سمعت قاسم بن عثمان يقول: إن الله عباداً قصدوا الله بهمهم فافردوه بسطاعتهم واكتسبوا به في توكلهم، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرّة عين إلا فيما قرب إليه، وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة.

وروي عنه أنه قال: رأيت في الطواف حول البيت رجلاً فتقربت منه، فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض، فقلت له: ما لك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحذثك، كنا سبعة رفاقاً من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلها، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا، فظفرت إلى السماء، فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين في كل باب جارية، فقدم رجل منا فضربت عنقه، فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، فضربت أعناق الستة وقيت أنا، وبقي باب وبجارية، فلما قدمت لتضرب عنقي استوهني بعض خواص الملك، فوهبني له، فسمعته تقول: بأي شيء فأتاك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب، فأتا يا أخي متحسر على ما فاتني. قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا وترك يعمل على الشوق.

ومتهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، كان جليل القدر مالكي المذهب، عظيم الشأن. صاحب الجنيّد^(١)، ومن في عصره، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جدد في الطاعات، ويقول: هذا شهر عظمه ربي، فأتا أولى بتمتعيمه. وسئل عن قول النبي ﷺ: «خير عمل المرء كسب بينه»، فقال: إذا كان الليل، فخذ ماء وتها للصلاة، وصل ما شئت، ومد يدك، وسل الله عز وجل، فذلك كسب بينك، ولما حج وراى مكة الشرفة شرفها الله تعالى وقع مخشياً عليه، فلما أفاق أنشد يقول:

هذه دارهم وأنت مـــــــــــــــــــــــــــــــــحب ما بقى الدمشوع في الأمـــــــــــــــــــــــــاق

وروي أنه قال: كنت يوماً جالساً، فجري في خاطري شيء بخيل، فقلت: مهما فتح الله علي به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلتقي، قال: فينبأ أننا متفكر إذ دخل على شخص ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت، وإذا أنا بفقير مكشوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وتناولته الصرة، فقال لي: ادفعها للمزين،

(١) الجنيّد: هو محمد بن الجنيّد البغدادي الحنظلي، أبو القاسم: صوفي من العلماء بالدين، مولده ونشأته ووفاته ينفد أصله من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري نسبة إلى عمل القوارير، ثم عرف بالحنظلي لأنه كان يعمل الحنظ، وهو شيخ في مذهب التصوف، توفي سنة (٢٩٧هـ - ٩١٠م).

فقلت له: إنها دناتير، فقال: إنك لبخيل، قال: فتاركتها للزمين، فقال الثمن: إن من عاداتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً، قال: فرميتها في الدجلة، وقلت ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدى زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى صاحب سياحة كان بجبل لبنان.

حكى عن يوسف بن الحسين الرازى قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذى النون المصرى جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر، فسلمت عليه وجلست من رواه، فالتفت إلى وقال: ما حاجتك؟ فقلت: يتناشر سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك، فقال: قل. فقلت سمعته يقول:

قد بقينا مذبذبين حيارى	نطلب الوصول ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخف علينا	وخلاف الهوى علينا ثقليل

فقال زرقان ولكنى أقول:

قد بقينا مذهلين حيارى	حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الغرور كان ذاك مشائنا	واليسه فى كل أمرٍ جميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى. فقال: رحم الله ذا النون المصرى، رجع إلى نفسه، فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه، فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمى: زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى، وأظن أنه أخوة مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورقفاله.

ومنهم سيدى أبو عبد الله التبايى سعيد بن يزيد كان من أقران ذى النون المصرى، ومن أقران أستاذى أحمد بن أبى الحوارى، له كلام حسن فى المعرفة وغيرها، روى عنه أنه قال: أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى السير إلى بعض إخوانى، فسمعت قائلاً يقول لى فى النوم: أيجمل بالحر المرید إذا وجد عند الله ما يريد أن يعيل بقلبه إلى العبيد، فانتبهت وأنا من أحنى الناس.

ومنهم سيدى بشر بن الحرث قدس الله روحه يكنى أبا نصر أحد رجال الطريقة، أصله من مرو وسكن بغداد وكان من كبار الصالحين وأحيان الاتقياء الثورعين، صاحب الفضيل بن عياض، روى عن سرى السقطى وغيره، ومن كلامه لا تكن كاملاً حتى يأمرك عدوك وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمرك صديقك؟ وقال: أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب، وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على التكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل، فقال: هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقى رجلاً سكران، فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدى يا أبا نصر، وشراً لا يذمعه عن نفسه، فلما ولى الرجل تغرغرت عيناه وبشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على غير توهمه لعل المحب قدحها والمحبوب لا يدرى ما حاله، وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله، فقالت: أتى امرأة أغزل بالليل والنهار، وأبيعه ولا أبيع غزل الليل من غزل النهار، فهل على ذلك شيء؟ فقال: يجب أن تبني، فلما انصرفت قال أحمد لابنه: اذهب، فانظر أين تدخل، فرجع، فقال: دخلت دار بشر، فقال: قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله: نرفع مائدك إلى الطبيب قال: أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد، فالحسوا عليه، فقال لأخته: ادفعى إليهم الماء فدفعته إليهم فى قارورة وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى فدفعوا إليه القارورة فقال: حركوا الماء، فحركوه، فقال: ضموه فوضعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: وبماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحضق أهل زمانك فى الطب، قال: هو كما وصفت لكم، إن هذا الماء إن كان ماء نصرانى، فهو ماء راهب قد فتت الحروف كبده وإن كان ماء مسلم، فماء بشر الحافى لأن ما فى زمانه أخوف منه، قالوا: هو ماء بشر، فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. قالوا له: ومن أعلمك بهذا؟ قال: لما خرجتم من عندى نوديت يا بشر ببركة مائدك

أسلم الطبيب. توفي سنة سبع وعشرين ومائتين.

ومتهم سيدى أبو زيد بطور بن عيسى البساطى من أجل المشايخ كبير الشأن، ومن كلامه: «ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسى وهى تبكى إلى أن سقتها وهى تضحك». وسئل: بأى شيء وجدت هذه المعرفة؟ فقال: بطن جائع وبدن عار، وقيل له: ما أشد ما لقيت فى سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفة، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم دعوتها إلى شيء من الطاعات، فلم تجبني، فمئنتها الماء سنة، وقال: الناس كلهم يهربون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لم؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك: يا عبدى، فاقول: ليسك، فقله لى: عبدى أحب إلى من الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء، وقال له رجل: دلنى على عمل أتقرب به إلى ربى، فقال: أحب أولياء الله ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلمله ينظر إلى اسمك فى قلب ولئى، فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. توفي سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومتهم شيخ الطائفة سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى شيخ وقته وفريد عصره، أصله من نهاوند ومولده ومنشأه ببغداد صاحب جماعة من المشايخ، وصحب خاله السرى، والحارث المحاسبى ودرس الفقه على أبى ثور، وكان يفتى فى مجلسه بحضوره وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضى الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه، وقال: الأدب أدبان: أدب السر وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤى فى يده يوماً سبعة، فقيل له: أنت مع تمكثك وشرفك تأخذ بيدك سبعة؟ فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا تركه أبداً. وقال الحسن بن محمد السراج: سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس فى منامى، وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحي من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندى ثلاثة نفر: فقلت ومن هم؟ قال: فى مسجد الشونيزى قد أضوا قلبى وأنحلوا جسمى كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل، فأكاد أن أحرق، قال الجنيد: فانتبهت من نومى، ولبست ثيابى ووجت إلى مسجد الشونيزى لبلى، فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل. قيل: إن الثلاثة الذين كانوا فى مسجد الشونيزى أبو حمزة، وأبو الحسن الثورى، وأبو بكر الدقاق رضى الله عنهم، وقال محمد بن قاسم الفارسى: بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة وهو يبكى ويقول:

لا تحنوا علىّ ألا تحمّـودوا

بحرمة غـيرتى كم ذا الصـدود

وحـزنى فى اذبيـاد لا يـبيـد

مرور المـيـد قد عم النواحي

فـعـزى فى الهوى أن لا أعـود

فإن كنت اقـترفت خلال مـوء

توفى الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد وصلى عليه نحو ستين ألفاً وضوان الله عليهم أجمعين. وعن صحبته وانتفعت بصحبته وفاضت الخيرات على يبركته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالى وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريزى المالكي قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أوحد زمانه فى الزهد والورع قاصداً لاهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة وبركات متواترة. قد أطاع أمره الخلائق عجباً وعرباً، وانتشر ذكره فى البلاد شرقاً وغرباً وأتت الملوك إلى بيابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظاً على النوافل ملازماً للفرض، وكان أكثر أكله من البياح من نبات الأرض، لم يتمتع نفسه فى الدنيا بالمأكلى والمشارب اللذيذة بل قيل: إنه غضب على نفسه مرة فمئنتها شرب الماء شهوراً عديدة، وكان رضى الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه نصوحاً لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه، يدخل عليه أهدى عدوه، فيقبل يبشره ويره عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه، كما قال بعضهم:

وإنسى لألقى المرء أعلم أنه
فلأمنحه بشرى فيرجع قلبه
علوى وفي أحشائه الضيفن كامن
مليماً وقد مانت لديه الضفان

وكانت جملة أهل زمانه عليه وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

وما حملوني الضيم إلا حملته
لأنى محب والمحب حمول

وكان رضى الله عنه كثير المصافة عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد في أمر إلا أُرشدته إلى الخير ونصحه، صحبته رضى الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكانها من طيبتها كانت سنة، ما قطع بره يوماً واحداً عنى حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص منى، وكان ذلك فعلة مع جميع أصحابه قاطبة. بيض الله وجهه في القيامة، وبلغه من فضل ربه مأربه، وكان رضى الله عنه فقيهاً في ملهب الإمام مالك، إمام كبير لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير، وله في علم الحقيقة أقوال، وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ولو تبتعت مناتيه لاتبعت الكلام، ولكنى أقول: كان أرحم عصره والسلام.

عاش رضى الله عنه نيفاً وستين سنة، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية، وأحوال حسنة، وكان رضى الله عنه كثير الأمراض والأسقام حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذى الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادى عشر اشتد به الأمر واحتضر، ولم يزل في النزع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفي رحمه الله تعالى سعيدياً حينئذ في ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان حتى طواف المخالفتين للملة من النصارى وغيرهم، وصاروا يكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا، وهو إمام العصر، علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حلف الزمان ليأتين بمثله
حشت يمينك يا زمان فكفر

رضى الله عنه ورضى عنا به، ونفعنا ببركه في الدين والدنيا والآخرة، فشرعوا في تجهيزه وغسله، فكتبت من حضر غسله، ولكن لم يكن ذهني معى في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقده، كيف لا، وقد كان والدك شفوفاً وياراً محسناً عسوقاً، فلما انتهى غسله رضى الله عنه جاء القضاة والنواب والكشاف والولاء وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاقت بهم الجامع على سعته، وضافت بهم الشوارع والسكك والطرق من كثرة الناس، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز. يريد بذلك اجتماع الناس، والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدى سليمان الدواخلى نفعنا الله ببركته، ودفن يوم الجمعة بزوايته التى أنشأها يستندامع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتى المسلمين سراج الدين أبى حفص عمر الطرىنى المالكى في قبر واحد. نفعنا الله ببركته، وجعل الجنة مثقبه ومثواه، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين، وأفضل المسلمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ونسأله لنا التوفيق والإعانة، وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرىنى إدام الله أيامه للمسلمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى ذمرة نبيّنا محمد ﷺ يوم المحشر إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار^(١) رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة فخرجنا نشتقى مراراً، فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا و عطاء السلمى، وثابت البناني، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السخيتاني، وحبيب الفارسي، وحسان بن ثابت بن أبي سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزني، حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب، ثم استسقيناً، فلم نر للإجابة أثراً حتى انتصف النهار وانصرف الناس وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعد أسود مليح رفیق الساقين عليه جبة صوف قومت ما عليه بدرهمين، فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب، فصلّى ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدى ومولاي إلى كم ترد عبادك فيما لا يفتنك، أفند ما عندك أم نقص ما فى خزائلك، أقسمت عليك يحبك لى إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما تم كلامه حتى تغيبت السماء وجاءت بقطر كافوا القرب. قال مالك: فتعجّبت له، وقلت له: يا أسود أما تستحي عما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت قولك: يحبك لى وما يدريك أنه يحبك؟ قال: تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه، أفترأ بدأنى بذلك إلا لمحيت إياى؟ ثم قال: محبتى لى على قدره، ومحبتى له على قدرى، فقلت له: يرحمك الله ارفق قليلاً، فقال: إني مملوك وعلى فرض من طاعة مالكى الصغير، قال: فانصرف وجعلنا نقفوا أثره على البعد حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحت أتبنا النخاس، فقلت: يرحمك الله، أعتدك غلام تبيعه لنا للخدمة؟ قال: نعم عندى مائة غلام للبيس، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا مسجين غلاماً، فلم ألق حببى فيهم، فقال: عودا لى فى غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره، وإذا بالأسود قائم يصلى، فقلت: حببى ورب الكعبة، فجنّت إلى النخاس، فقلت له: يعنى هذا الغلام، فقال: يا أبى يعنى هذا الغلام ليست له حمة فى الليل إلا البكاء، وفى النهار إلا الخلوة والوحدة، فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الشمن، وما عليك منه، فدعاه، فجاء وهو يتنأى، فقال: خذ بما شئت بعد أن تبرئنى من عبويه كلها، فاشتريته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال: ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل، فالتفت لى وقال: يا مولاي الصغير لماذا اشتريتنى وأنا لا أصليح لخدمة المخلوقين؟ فقلت له: والله يا سيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى، قال: ولم ذلك؟ فقلت: ألت صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى، وقد أطلعت على ذلك، قلت: نعم، وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد، فاستأذنى ودخل المسجد، فصلّى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدى ومولاي، سر كان بينى وبينك أطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشى. أقسمت عليك بك إلا ما قبضتنى إليك الساعة، ثم سجد، فانتظرته ساعة، فلم يرفع رأسه، فجنّت إليه وحرّكته، فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه، قال: فمددت يديه ورجليه، فإذا هو ضاحك مستبشر، وقد غلب البياض على السواد ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أخينا ميمون، هاكم الكفن، فناولنى ثوبين ما رأيت مثلهما قط، فغسلناه وكفناه فيهما ودفناه. قال مالك بن دينار: فبقره نستقى إلى الآن، ونطلب الخواارج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكى عن حذيفة المرعى رضى الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص رضى الله عنه وصحبه مدة، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا فى طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة، فأرّينا إلى مسجد خرب، فنظر لى إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع، فقلت هو كما ترى، فقال: على بدواة وقطاس، فأحضرتهما إليه،

(١) مالك بن دينار: هو مالك بن دينار البصرى، أبو يحيى، من رولة الحديث، كان ورعاً يأكل من كسب يده، ويكتب المصاحف بالاجرة، توفى سنة (١٣١هـ - ٧٤٨م).

فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال، والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكرٌ أنا ذاكرٌ	أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عسارى
هي منةٌ وأنا الضمين لنصفها	فكن الضمين لنصفها يابارى
مدحى لغيرك لهبٌ نارٍ خضتها	فأجسرٌ عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة: ثم دفع إلى الرقعة، وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك، قال: فخرجت، فأول من لقينى رجل على بئلة، فتأولته الرقعة، فأخذها فقرأها وبكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو فى المسجد القلاني، فدفع إلى صرة فيها ستمائة درهم، فأخذتها ومضيت، فوجدت رجلاً، فسألته من هذا الراكب على البئلة؟ فقال: هو رجل نصراني، قال: فبحثت إبراهيم وأخبرته بالقصة، فقال: لا تمس النواهم، فإن صاحبها يأتى الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بئله، فترجل على باب المسجد، ودخل، فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الحواص فرحاً به وسروراً، وقال الحمد لله الذى هدانا لهذا الذى كنا للإسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وحكى أن بعضهم كان ملاحاً يبحر النيل المبارك بمصر، قال: كنت أعدى من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى، ومن الشرقى إلى الجانب الغربى، فبينما أنا ذات يوم فى الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة، فقال: السلام عليكم، فرددت عليه السلام، فقال: أتحملنى إلى الجانب الغربى لله تعالى، فقلت: نعم، فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربى، وكان على ذلك الفقير مرقعة ويده ركوة وعصا، فلما أراد الخروج من الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة، قلت: وما هي؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدنى عند تلك الشجرة ميتاً وستسى، فإذا ألهمت، فأتى وغسلنى وكفى فى الكفن الذى تجده عند رأسى، وصل على وادفنى تحت الشجرة، وهذه المرقعة والعصا والركوة يأتىك من يطلبها منك، فادفعها إليه، ولا تحقره، قال الملاح: ثم ذهب وتركنى، فتعجبت من قوله، وبت تلك الليلة، فلما أصبحت انتظرت الوقت الذى قال لى، فلما جاء وقت الظهر ونسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر، فسرت بسرعة، فوجدته تحت الشجرة ميتاً ووجدت كنفاً جديداً عند رأسه فتوح منه رائحة المسك، فغسلته وكفته فلما فرغت من غسله حضر عندى جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصلينا عليه، ودفنته تحت الشجرة، كما عهد إلى ثم عدت إلى الجانب الشرقى، وقد دخل الليل، فتمت، فلما طلع الفجر وباتت الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل على، فحققت النظر فى وجهه، فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم، فأقبل وعليه ثياب رفاق، وهو مخضوب الكفين وطاره تحت إبطه، فسلم على، فرددت عليه السلام، فقال: يا ملاح أنت فلان بن فلان. قلت: نعم. قال: هات السودية التى عندك. قلت: من أين لك هذا؟ قال: لآسلاف، فقلت لا بد أن تخبرنى، فقال: لا أدري. إلا أن البارحة كنت فى عرس فلان التاجر، فسهرنا نرقص ونغنى إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فتمت لاستريح، وإذا برجل قد أيقظنى وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولي وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق، فإن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت، قال: فدفعته له، فخلع أثوابه الرقاق ورمى بها فى الزورق، وقال: تصدق بها على من شئت، وأخذ الركوة والعصا ولبس المرقعة وسار، وتركنى أحرق وأبكى لما حرمت من ذلك، وأقمت يومى ذلك أبكى إلى الليل، ثم تمت فرأيت رب العزة جل جلاله فى النوم، فقال: يا عبيدى أثقل عليك أن تنتت على عبد عاص بالرجوع إلى، إنما ذلك فضلى أوتيته من شاء من عبادى، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصلوكسى قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا فى البادية تائه، وقد جن الليل وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فلدوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة منها ما أعرف ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت، ومن أين

أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة، ذلما لبنتي نفسى بالغربة والعزلة، فخرجت، وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لى ولياً من أوليائه وأرجو أن تكون أنت هو، فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لى والده وأخوة وأخوات، فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا. إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم، فهممت أريدهم فاحتوشنى السباع والبهائم وبكين معى، وحملوا لى هذه الرياحين التى تراها، قال أبو إسحاق: فبينما أنا معه يرق له قلبى وإذا بحية عظيمة فى فيها باقة نرجس كبيرة، فقالت: دع لى الله تعالى، فإن الله يغاز على أوليائه، قال: ففشى عليه، وغشى على، فما أفتت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله، قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتنى امرأة يدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأتنى نادى: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الذى مات غريباً، فأنى منتظرتك منذ كذا؟ فذكرت لها القصة إلى أن قلت أشم ريحهم، فصاحت أواه أواه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها فخرج إليها بنات أثراب عليهن مرقعات ومروط، فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مستترات رضوان الله على الجميع. شعر:

يا نسيماً هب من وادى قبا خبرنى كيف حال الغفرا
كم مالت الدهر أن يجتمعنا مثل ما كنا عليه فابى

وحكى أن رجلاً كان يعرف بدينار العيار وكان له والده صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر فى بعض الأيام بمقبرة، فأخذ منها عظماً، ففتحت فى يده، ففكر فى نفسه وقال: ويحك يا دينار كائى بك وقد صار عظمتك هكذا رفاتاً والجسم تراباً، فندم على تفريطه وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهى وسيدى ألقيت إليك مقاليد أمرى فاقبلنى وارحمنى، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب، فقال: يا أماه ما يصنع بالعبد الآبى إذا أخذه سيده؟ قال: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعر، وغلين وأغلى بى كما يفعل بالعبد الآبى لعل مولائى يرى ذلى فيرحمنى ففعلت به ما أراد، فكان إذا جن عليه الليل أخذ فى البكاء والعويل ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار، ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بنى أرفق بنفسك، فقال: دعينى أتنب قليلاً لعلى أستريح طويلاً، يا أماه إن لى غداً موقفاً طويلاً بين يدى رب جليل ولا أدري أيؤمر بى إلى ظل ظليل أو إلى شر مقيل، قالت: يا بنى خذ لنفسك راحة، قال: لست للراحة أطلب، كأنك يا أماه غداً بالخلائق يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه، فأخذ فى البكاء والعبادة وقراءة القرآن، فقرأ فى بعض الليالى: ﴿قُورَبِكَ نَسْأَلُهُمْ أَجْمَعِينَ ٩١ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٢﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ففكر فيها وجعل يبكى حتى غشى عليه، فجاءت أمه إليه، فنادته، فلم يجبها، فقالت له: يا حبيبى ورقة عنى أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجدينى فى عرصات القيامة، فاسألى مالكا خازن النار عنى، ثم شهق شهقة، فمات رحمه الله تعالى، فسلته أمه وجهزته، وخرجت تنادى: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دعماً من ذلك اليوم فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة، فراه يتسخر فى الجنة وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية: ﴿قُورَبِكَ نَسْأَلُهُمْ أَجْمَعِينَ ٩١ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٢﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ويقول: وعزته وجلاله سألنى ورحمنى وغفر لى وتجاوز عنى ألا أخبروا عنى والدتى بذلك.

وحكى عن الحسن البصرى قال: نزل سائل بمسجد، فسأل الناس أن يطعموه كسرة، فلم يطعموه، فقال الله تعالى للملك الموت: اقبط روحه فإنه جائع، فقبض روحه، فلما جاء المؤذن رآه ميتاً، فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه، فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن فى الحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم بشى القوم أثم استطعمكم فقير، فلم تطعموه حتى مات جوعاً، من كان من أحبائنا لا تكله إلى غيرنا.

وحكى أبو على المصرى قال: كان لى جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً: حدثنى بأعجب ما رأيت من الموتى، فقال: جاءنى شاب فى بعض الأيام مليح الوجه حسن الثياب، فقال لى: أتقبل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتبعمته حتى

أوقفني على باب، فدخلت هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينها، فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: بسم الله ادخل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فدخلت الدار وإذا أنا بالشاب الذي جاني يعالج سكرات الموت، وروحه في لبته، وقد شخص بصره، وقد وضع كفته وحنوطه عند رأسه، فلم أجلس إليه حتى قبض، فقلت: سبحان الله هذا ولي من أولياء الله حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله، وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته، فقبلته، وقالت: أما إني سألق بك عن قريب، فلما أردت الانصراف شكرت لي، وقالت: أرسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسن أنت، فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لائحة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى الجارية، فوفقت بالباب واستأذنت، فقالت: بسم الله تدخل زوجتك، فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت، ففلسنتها زوجتي وأزلفتها على أخيها رحمة الله عليهما. شعر:

لُبِّعْدُكُمْ أَصَالُهَا وَضَحَاها
رِسُومُ مَبَاتِيهَا وَفَاحَ كَلَاها
بَنُومِي قَمْعِي لِاتَصِيبُ كَرَاهَا
فَقَدْ صَرْتُ سَمْحاً بِعِدْكُمْ بِدَمَاهَا
سَرُوراً وَأَحْشَانِي السَّقَامَ مَلَاهَا
يَشِبُّ لِنَظَاهَا لَوْ كَشَفْتُ غَطَاهَا
تَقَشَّفْتُ وَحْيَاهَا الْحَيَا وَسَقَاهَا
مِنَ النَّاسِ إِلَّا قَسَالَ قَلْبِي أَمَاهَا

أَحْبَابِيَا بَسْتُمْ عَنِ الدَّارِ فَاشْتَكْتُمْ
وَفَارَقْتُمْ الدَّارَ الْأَيْمَةَ فَاسْتَوْتُمْ
كَلَّتْكُمْ يَوْمَ الْفُرَاقِ رَحْلَتُمْ
وَكُنْتُ شَحِيحاً مِنْ دَمْعِي بِقَطْرَةٍ
يُرَانِي بِتَامِماً خَلِيلِي يَظُنُّ بِي
وَكَمْ ضَحْكَةٍ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا حَرَارَةٍ
رَعَى اللَّهُ أَيَّاماً بِطَيْبِ حَدِيثِكُمْ
فَمَا قُلْتُ لِيَهَا بِعَمَلِهَا لِمَا سَرَّ

وحكى سرى السقطي^(١) رحمه الله تعالى قال: أرقت ليلة ولم أقدر هلى اليوم فلما طلع الفجر صليت، فلما أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول:

وَمَا أَخَانَتِ وَمَا سَرَقَتْ
أَحْسَنَ بِهَا قَدْ احْتَسَرَقَتْ

تُغْلَبُ يَدِي إِلَى عُنُقِي
وَيَبِينُ جِوَانِحِي كَيْبِدُ

قال: فقلت للقيم: ما هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختل عقلها، فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامه تبست وقالت:

أَنَا مَكْرَانَةٌ وَقَلْبِي صَاحِي
غَيْرِ هَتَكِي فِي حُبِّهِ وَافْتِضَاخِي
لَسْتُ أَبْقَى عَنْ بَلْبِهِ مِنْ يَرَاخِ
وَارْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ مِنْ جَنَاحِ

مَعْشَرِ النَّاسِ مَا جَنَنْتُ وَلَكِنْ
لَمْ تَهْلِكْ لِي يَدِي وَلَمْ آتْ ذَنْبِي
أَنَا مَفْتُونَةٌ بِحُبِّ حَبِيبِ
مَا عَلَى مَنْ أَحَبَّ مَوْلَى الْمَوَالِي

قال: فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديداً، فقالت: يا سرى هذا بكائك من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فينما هي تكلمني إذ جاء سيدها، فلما رأيته عظمي، فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم، فلم تكلمني بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها وشدة حنينها وأتيتها كأنها تكل، لانتام ولانتاعتنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين

(١) سرى السقطي: هو سرى بن الفلاس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادى الولد والوفاء، وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام الخضاين وشيخهم في وقته، وهو خال الجنيدي، وأستاذة، قال: الجنيدي: ما رأيت أهد من السرى، أت عليه ثمان وتسعون سنة، ما رآني مضطرباً إلا في حلة الموت تولى سنة (٢٥٣هـ - ٨٦٧م).

ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة، قلت: فما كان به أمراً؟ قال: كان العود في حجرها يوماً، فجعلت تقول:

وَحَقِّكَ لَا تَنْقَضُ الدَّهْرَ عَهْدًا وَلَا كُنْتُ بِعَدِّ الصَّفْرِ وَدَا
مِلَاتَ جَوَانِحِي وَالْقَلْبَ وَجِدًا فَكَيْفَ أَقْبِرُ يَا سَكْنَى وَهْدَا
فِيَا مَنْ لَيْسَ لِي مَسْوَى سِوَاهُ تَرَاكَ وَضَعِيَتْنِي بِالْبَابِ عَبْدَا

فقلت لسيدها: أطلقها وعلى ثمنها، فصاح واقتراه من أين لك عشرون ألفاً ياسرى؟ فقلت: لا تمجل على، فقال: تكون في المارستان حتى توفي ثمنها، فقلت: نعم، قال سري: فأنصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع، وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها، فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى، فإذا بطارق يطرق الباب، ففتحت، فدخل على رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفني ياسرى؟ قلت: لا، قال: أنا أحمد بن المثنى كنت ناعماً، فهبط بي هاتف وقال لي: يا أحمد هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى مني بذلك؟ فقال: أحمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الغلالية، فإن لنا بها غناية، قال سري: فسجدت لله شكراً وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صليتنا وذكرنا، وأنصرفت نحرها، فسمعتها تقول:

قَدْ تَصَبَّحْتُ إِلَى مَنْ عَمِلَ مِنْ حَبْلِكَ صَبَّحِي
ضَلَّاقٍ مِنْ غُلَى وَقَسِيْدِي وَامْسُكْ هَلَاتِي مِنْكَ صَبْدِي
لَيْسَ يَخْفِي عَنْكَ أَمْرِي يَا مَنْحَى قَلْبِي وَذَخْرِي
أَنْتَ قَدْ تُعَسِّقُ رُؤْيَى وَتُغْفُكُ الْيَوْمَ أَمْرِي

قال سري: فبينما أنا أسمعها، وإذا بمولاه قد جاء وهو يبكي، فقلت: لا بأس عليك قد جئتاك برأس مالك وربع عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك. قلت: تزيدك. قال: والله لو أعطيتني ما بين الحافقين ما فعلت، وهي حرة لوجه الله تعالى، فقال: فتصحب من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس، فقال: حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبيخ كفاً، وأشهدك أنني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى، وإني هارب إلى الله تعالى، فيأله لا تردني عن صحبتك، فقلت: نعم. ثم التفت، فرأيت صاحب المال يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه ورد علي ما بذلت أشهدك أنني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى، قال سري: فقلت: ما أعظم بركك يا جارية. قال: فتزعتنا الغل من عتقها، والعقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان، فتزعت ما كان عليها من ناعم الثياب، ولبست خماراً من صوف وملوكة من شعر وولت، قال سري: فتوجهت أنا ومولاه وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتاً، فتبعنا فإذا هي امرأة كالخيال، فلما رأيتني قالت: السلام عليك يا سري، فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته من أنت؟ فقالت: لا إلا الله وقع الشك بعد المعرفة، فتأملت، فإذا هي الجارية، فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفراذك عن الحق؟ فقالت: أنسى به وحشتي من غيره، ثم توجهت إلى البيت، وقالت: إلهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنبأ، قد طال شوقي، فمجل قدومي عليك، ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها، فلما نظر إليها مولاه بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتاً، رحمة الله عليه، فدفناها في قبر واحد. شعر:

بَحْرَمَةٍ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ الْوَدِّ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ إِلَى وَصْلِي
وَلَا تَحْسَرُمُونِي نَظْرَةً مِنْ جَمَالِكُمْ فَلَنْ تَجِدُوا عِبْدًا ذَلِيلًا لَكُمْ مِثْلِي
فَوَاللَّهِ مَا يَهْرَى فَوَادِي سَوَاكُمُ وَلَوْ رَشَقْتُمْ بِهِ بِالْأَمْنَةِ وَالنَّبْلِ

وحكى أنه كان في زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد، وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه ثور في بعض الأيام، فأراد الله عنه سحابته وحجب إجابته، ففكر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأتنبه، ومارال يشتاق إلى زمن الكرامة ويكي ويتأسف ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالي، فصلى ما شاء الله ويكي وتضرع ودعا الله تعالى وتأم، فقبل له في المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك، فأت الملك الفلاني في بلد كذا واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك، قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التي ذكرت له في المنام، فدخلها وسأل من يرشده إلى قصر الملك، فجاءه إلى القصر وإذا عند باب غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر والناس بين يديه يسألونه حوائجهم، وهو يصرف الناس، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه، فقال له الغلام: من أين أنت، وما حاجتك؟ قال: من بلاد بعيدة، وقصدى الاجتماع بالملك، فقال له الغلام: لاسميك لك اليوم، فسل حاجتك أقضها لك إن استطعت، فقال: إن حاجتى لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذعب حتى يأتى ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد داتر، وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأثكر على الملك لاحتجابه على الناس، فلما كان ذلك اليوم الذى يجلس فيه الملك جاء إلى القصر، فوجد خلقة كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن، فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس فى الدخول، فدخل أرباب الحوائج، ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم، فجعل رأس الثوبة يقدم الناس واحداً بعد واحد حتى وصلت الثوبة لصاحب السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس، وأنظر فى أمرك. قال: فتشعر صاحب السحابة فى أمره، فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه، فأتخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به فى دهليز القصر، فلم يجد فى طريقه إلا مملوكاً واحداً، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهديم وحيطان مائلة، وبیت خرب فيه برش وليس هناك ما يساوى عشرة دواهم إلا سجادة خلقة، وقدح للضوء وحصيرة رثة وشئ من الخوص فاتخلع الملك من ثياب الملك، وليس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة، وتنادى يا فلانة، قالت: ليك. قال: أتدريين من هو الليلة ضيفنا؟ قالت: نعم هو صاحب السحابة فدعا بها لحاجة، فخرجت، فإذا هى امرأة كالشن البالى عليها مسح من شعر خشن، وهى شابة صغيرة، قال الرجل: فالتفت إلى الملك، وقال: يا أحنى نطلعك على حائنا، أو تقضى حاجتك وتنصرف، فقلت: والله لقد شغلنى حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم أنه كان لى فى هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابراً عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إلى بفض الله إلى الدنيا وأهلها فأردت أن أسبح فى الأرض، وأترك الناس ينظرون لهم من يوسوس أمرهم، فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة، وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبابعوني وأنا والله كاره، فتركت أمورهم على ما كانت عليه، وجعلت السباط على عادته، والحراس على حالها، والماليك على دأبها، ولم أخبر شيئاً، وأقعدت المالك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور ودعاً عن أهل الخير وتركت القصر مزيئاً على حاله وفتحت له باباً وهو الذى رأيت يوصلنى إلى هذه الحفرة، فادخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأخضر الخوص وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وروجتى هذه التى رأيتها وهى ابنة عمى زهدت فى الدنيا كزهدي واجتهدت حتى صارت كالشن البالى، والناس لا يعلمون ما نحن فيه ثم إنى أقمت لى نائباً ينوب عنى طول الجمعة، وعلمت أنى مسؤول، فجعلت لى يوماً فى الجمعة أبرز للناس فيه واكشف مظالمهم كما رأيت، وأنا على هذه الحالة مدة، فاقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا ونبتاع من ثمنها طعاماً وننظر معنا، وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى، فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خمساسى العمر، فأتخذ ما عملاه من خوص وسار به إلى السوق، فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً واشترى بيسافى ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب ألقطوا وأقطرت معهما بيت عندهما. قال: فقاما فى نصف الليل يصليان ويكيان، فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته وإتاك قد دلته علينا،

اللهم ارحمنا عليه انك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمن على دعائه، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل الماء فقال لى: لك البشارة بقضاه حاجتك وتعجيل إجابتك. قال: فودعتهما وانصرفت والسحابة معى كما كانت، فانا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى برهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما. شعر:

استعمل الصبر نغنى بعده العسلا
ولازم الباب حتى تبلغ الامسلا
ومرغ الخد في اعتابه سحراً
واحمل لمرضاته في الحب كلّ بلا
فما يفوز بوصل يا أخى سوى
صب لثقل الهوى والوجد قد حملا
هذا الحبيب ينادى فى الدجى سحراً
فانهض وكن رجلاً بالسعى قد وصلا

وحكى عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً، فبينما أنا سائر إذ رأيت شاباً ساكناً لا يذكر الله تعالى، فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء وقال: يا من لاتره الطاعات، ولا تضره المعاصى هب لى ما لا يرك، واغفر لى ما لا يضرک. ثم رأيته بذى الخليفة وقد لبس إحرامه والناس يلون وهو لا يلبس، فقلت هذا جاهل، فدنوت منه، فقلت له: يا فتى، قال: ليك، قلت له: لم لاتلبس؟ فقال يا شيخ: وما تغنى التلبية، وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات، والله إني لأخشى أن أقول ليك، فيقول: لا ليك ولا سعديك لا أسمع كلامك، ولا أنظر إليك، فقلت له: لا تقول ذلك، فإنه حليم إذا غضب رضى، وإذا رضى لم يغضب، وإذا وعد وفى ومتى توعد عفا، فقال ياشيخ: أتشعر على بالتلبية؟ قلت: نعم، فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر، وأسبل دموعه وقال: لبيك اللهم ليك قد خضعت لك وهذا مصرعى بين يديك، فأقام كذلك ساعة، ثم مضى، فما رأيته إلا بنى وهو يقول: اللهم إن الناس ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لى شيء أن أتقرب به سوى نفسى، فتقبلها منى ثم شهن شهقة وخز ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكى أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبى عبد الله الأندلسى، وكان شيخاً لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات، فخرج في بعض السنين إلى السياحة، ومعه جماعة من أصحابه مثل الجيند والشبلى وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلى: فلم نزل في خدمته، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به، فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة، وقاسوسة وراهبان، وهم يعبدون الأصنام، والصلبان، فتعجبنا منهم ومن قلة عقولهم، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذا نحن بجوار يستقي الماء على البئر وبينهم جارية حسنة الوجه ما فيها أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه ابنة من؟ فقبل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فلم لا يذلها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقى الماء؟ فقبل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها، فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ولا يكلم أحداً، غير أنه يؤدى الفريضة، والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون، قال الشبلى: فتقدمت إليه، وقلت له: يا سيدى إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحداً، قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التى رأيتموها بالأمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض.

قال الشبلى^(١): فقلت: يا سيدى أتت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق، وعدد مريدك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضيحتنا وإياهم بحمرة الكتاب العزيز. فقال يا قوم: جرى القلم بما حكم، ووقعت فى بهار العلم وقد انحللت عنى عرى الولاية، وطويت عنى أعلام الهداية، ثم إنه بكى بكاء شديداً، وقال يا قوم: انصرفوا، فقد نفذ

(١) الشبلى: هو دلف بن جعفر الشبلى، ناسك، كان فى ميلا أمره وإيا فى دنيائون (من نواحى رستاق الرى) ولى الحجابة للموفق العباسى، وكان أبوه حاجب المحباب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصالح، له شعر جيد سلك به مسالك التصوفة: أصله من خراسان، ونسبه إلى قرية شبلة، تولى ببغداد سنة (٣٣٤هـ - ٩٤٦م).

القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يغيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريده في جملة الناس، فلم يروه، فسألوا عنه، فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس ييكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات، والزوايا والخوانق، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة، وخرجت مع بعض أصحابي تكشف خبره، فأتينا القرية، فسالنا عن الشيخ، فقيل لنا: إنه في البرية يرعى الخنازير، قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجه إلا من هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار، ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير، ففعل ذلك كله، وهو في البرية يرعى الخنازير.

قال الشبلي: فانسدت قلوبنا، وانهملت بالبكاء صيونا، وسرنا إليه، وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رأنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفي وسطه زنار، وهو متوكئ على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى الحراب، فسلمنا عليه، فرد علينا السلام، فقلنا: يا شيخ ما ذاك وماذا وما هذه الكروب والهجوم بعد تلك الأحداث والعلوم؟ فقال: يا إخوتائي وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في كيف شاء، وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه، فالحمد الحسنر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فبك هذا، ثم جعل يستغيث ويبيكي ونادى يا شبلي اعظم بغيرك، فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان وأنت المستغاث، وعليك التكلان. اكشف عنا هذه النعمة بحلمك، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم، وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت ترمخ وجوهها بين أيديهم ودرعت زعقة واحدة دويت منها الجبال. قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاءً شديداً. قال الشبلي: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استشرعيت الخنازير بعد أن كنت أرفعى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأه بالسبح فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين، فقلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]. فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً، وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»، قال الشبلي: فتركنا، وانصرفنا، ونحن متعجبون من أمره، فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع، وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا، وقال: يا قوم اعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً، فلبسه، ثم صلى وجلس، فقلنا له: الحمد لله الذي ردك علينا، وجمع شملنا بك، فصف لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك؟ فقال يا قوم: لما وليتم من عندي سألته بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني ببجوده، وبتره غطاني، فقلنا له: بالله نسألك هل كان لمحتك من سبب؟ قال: نعم. لما وردنا القرية، وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء هندی، وأنا مؤمن موحد، فتوديت في سرى ليس هذا منك، ولو شئت عرفناك، ثم أحسدت بطائر قد خرج من قلبي، فكان ذلك الطائر هو الإيمان. قال الشبلي: ففرحت به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً، وفتحت الزوايا، والرباطات والخوانق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك.

فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب، فإذا شخص ملتصق بكساء أسود، فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرفت الشيخ، فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بدخولها، فلما دخلت عليه بكت بكاءً شديداً، فقال لها الشيخ: كيف كان مبيئك، ومن أوصلك إلى هاهنا؟ قالت: يا سيدي لما وليت من قريتنا

جائني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، قرأيت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات، فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه، فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وماهو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقلت: كيف لي بالوصول إليه؟ قال: اغمضي عينيك، واعطيني يدك، ففعلت، فمضى قليلاً، ثم قال: افتحي عينيك، ففتحتهما، فإذا أنا بشاطئ الدجلة، فقال: امضي إلى تلك الزاوية، واقترني مني الشيخ السلام، وقولي له: إن أخاك الحضر يسلم عليك، قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدى هاهنا فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها، وتغير لونها، فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها، فلما رآته بكت، فقال لها: لا تبكي، فإن اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلي: فرأيت في المنام، وقد تزوج سبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليماً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الأشرار و الفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سميان رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة، تنقبض روح كل مؤمن ويقي شرار الخلق يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع فى الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال الشر يطفىء الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنا يطفىء الشر الخير كما يطفىء الماء النار. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عرّى من حلة التقوى ومحي عنه طابع الهدى، لانتنيه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائمه دينه مضيع ولدواعى شيطانه مطيع. شعر:

كأنه التيس قد أودى به هرمٌ فلا لحم ولا صوف ولا ثمر

وقيل: من فعل ما شاء لقى ما شاء. وقيل: زنى رجل بجارية فأحبها، فقالوا له: يا عدو الله هذا إلا ابتليت بفاحشة عزلت؟ قال: قد بلغت أن العزل مكروه، قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها، قال: فمن لى إذ ذاك بلذة الخلسة ولقاء المسارقة وانتظار الموعد. وقال أبو العيلاء: رأيت جارية مع النخاس وهى تحلف أن لاترجع لمولاها، فالتفتها عن ذلك، فقالت: ياسيدى إنه يواقنى من قيام، ويصلى من قعود، ويشتمنى بأعراب، ويلحن فى القرآن، ويصوم الخميس والأثنين، ويفطر رمضان، ويصلى الضحى، ويترك الغرض. فقلت: لا أكثر الله فى المسلمين مثله.

وكانت ظلمة القوادة وهى صغيرة فى المكتب تسرق دوايات الصبيان وأقلامهم، فلما شبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قمار، قال الزمخشري^(١) رحمه الله: أقمت بقمار ستين، فلم أر ملكاً أغبر منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر. وقمار ينسب إليها العود القمارى كما ينسب إلى مندل، قال مسكين الدارمى:

ولا ذنب للعمود القمارى إنه يحرق إن نمت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: عهدت الناس وهوامهم تبع لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء فى الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء

قال رسول الله ﷺ: «إن عا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تنح فاصنع ما شئت»، وفى ذلك قيل:

إذا لم تصنع عرضاً ولم تخش خائفاً وتنتع مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب والأحمق شجاع الوجه. وذم رجل قوماً، فقال: وجوههم وأيديهم حديد أى وقاح بخلاء. ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لرداه ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لو أن لى من جلد وجهك رقعةً جعلت منها حافراً للأشهب

وقال آخر:

إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً قلب فى الأمور كما يشاء

(١) الزمخشري: هو محمود بن عمر بن محمد، أبو القاسم الحواري، صاحب كتاب «الكشاف» فى التفسير وهو أحد الأئمة العلماء بالدين والتفسير واللغة والأدب توفى سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٤م).

وقال أنوشروان: أربعة قبائح وهي في أربعة أقيبح: البخل في الملوك، والكذب في القضاة، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء. ويقال: من جسر أيسر ومن هاب غاب. قال الشاعر:

لاتكئونن في الأمسور هيسواً فإلى خيبة يصير الهيسوب

وقال عليّ رضي الله عنه: إذا هبتَ أمراً فقع فيه، فإنَّ شرَّ توقية أعظم مما تخاف منه. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضرراً، وإذا افرقوا نفعوا، فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم فما منفعة افتراقهم؟ قال: يرجع أهل المهن إلى مهنتهم، فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه، والحجاز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لاتسبوا الغوغاء، فإنهم يطفئون الحريق ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرجن أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجاهل أراد السفه. قال الشاعر:

الا لا يجـهـلن أحـدٌ علينا فنجهل فنوق جهلي الجاهلينا

وقيل: الجاهل من لاجاهل له. أي: من لاسفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذ جاء أعرابي، فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو، فجلد به الأرض، فقال عمر: ليس يعزى من ليس في قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولا يلبث الجهال أن يتهضأوا أخا الحلم ما لم يمتعن بجهول

وقال صالح بن جراح:

إذا كنت بين الجاهل والحلم قاعداً وخُيِّرت أئى شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً ولم يرض منك الحلم فالجاهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس:

وذى ضيقن آبيت القول عنه بحلم فاستمر على المقال
ومن يحلم وليس له سفيه يلاق المعضلات من الرجال

وقال آخر:

فلان كنت محتاجاً إلى الحلم إننى إلى الجاهل في بعض الأحيان أحوج
ولى فرس للخير بالخير ملجم ولى فرس للشر بالشر مرج
فمن رام تقويمى فلانى مقوم ومن رام تعويمى فلانى معوج

وقال آخر:

فلان قيل حلمٌ قلت للحلم موضعٌ وحلم الفتى في غير موضعه جاهل

اللهم إنا نعوذ بك أن نجعل أو نجعل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف

وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

اعلم إن الجود بذل المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد نذب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قيل: إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن أكر غير بالخاضر، وبقي هو في مقاسة الضر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السحاحة، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى ومعى شيء من الماء، وأنا أقول، إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك؟ فأشار إلى أن نعم، فإذا برجل يقول: آه، فأشار إلى ابن عمي أن انطلق إليه واسقه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلى أن نعم. فسمع آخر يقول: آه، فأشار إلى أن انطلق إليه، فجشته، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدى قال: لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات وكتب رقاعاً فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعته فعل به ما فيها. فوقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالي لو لا أم لي وكان بجنيبه بعض الفتيان فقال له: في رقتي الجلد وليس لي أم فخذ أنت رقتي وأعطني رقتك ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل.

وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها، فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان. فجاءنا بناقعة ففعلها، وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى ففعلها، وقال: شأنكم، فلما: ما أكلنا من التي نحررت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البات. فبقينا عنده أياماً، والسماء قطر وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعترى لنا إليه ومضيئا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلطنا قفوا أيها الركب الشام، أعطيتونا ثمن قرانا، ثم إنه لحقنا، وقال: خلدوها وإلا طعتمكم يرمى هذا، فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من قروعه، وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر وفاتحه له كلما افتخر». وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط، فقال: لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، ولجأه سخي أحب إلى الله من عابد بخيل». وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود. وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٢٩]. وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. وقال أكرم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد له متكراً. وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى. ووجد مكتوباً على حجر: «انتزه الفرس عند إمكانها ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك، واعلم أن تفكيرك على نفسك توفير خزنة غيرك، فكم من جامع لبعل حليته». وقال علي رضى الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك فإما أت فيه خازن لتعيرك. وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأتمهم بالاً وأكرمهم طباعاً، وأجلهم في النفوس قدراً؟ فسكت القوم، فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أفضل الناس من عاش الناس فضله. فقال:

صدقت. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه أو لثيماً أصون عنه عرضي. وكان مورك العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه، فيضع عند أحدهم البذرة، ويقول له: اسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل. وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبعمئة ألف درهم، فلما جاء المال قال: إن رجلاً بييت هذا عنده لا يلدي ما يطرّقه لغيري بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين.

ولما دخل المنكر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابني فاقة فقالت ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد فأرسلت بها إليه في أثره، فأخذها ودخل بها السوق، فاشترى جارية بالف درهم، فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم محمد وأبو بكر، وعمر بن المنكر. وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل، فسأله برحم يته ويته، فقال هذا حافطي بكمنا كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم، يراج إلى بالمال العثية، فإن شئت فامال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جريز: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس وإنه ليخيط لإزاره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الامالي: ^(١) أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي، فقال له معاوية: أمن قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأي رحم بيني وبينك؟ قال: رحم آدم عليه السلام. قال: رحم مجفوة والله لاكون أول من وصلها، ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لآبيه حاتم، فملاها مالا وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نغيرها فارغة. وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد، ولم ينال أحداً شيئاً وإنما كان يطرحه في الأرض، فيتناوله الأخذ من الأرض، وكان يقول: الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى. وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى». وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم، عن الكرم فقال: هو التبرع بالمعروف قبل السؤال، والرافة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر، فمر على رجل من الأعراب على قارة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض، فقال له: يا هذا أمتنا على الدهر، فقال لغلظه: ما بقي معك من التشفة فادفعه إليه، فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهم ليقيم، فلم يقلد من الضعف فيكي، فقال له الرجل: ما بيكيك لملك استقلت ما دفعناه إليك؟ فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تاكل الأرض من كرمك فايكناي. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال: علي دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شئت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى أن سألني.

ويروي أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجته له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذ بعض غلمانكم، فإني امرأة عذب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله أتمسخر بي؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً فما أمست، حتى كسر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبيع إليهم بالأصاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله تعالى عنه.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون بما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالا يتجع عني الإخوان من الزيارة، ثم أسر متادياً ينادي من كان لقيس عنده مال، فهو منه في حل. فكسرت عتبة بابي بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة، فيفرقها في الناس ولا يرى إلا

(١) أبو علي القالي: هو إسماعيل بن القاسم بن عجلون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان أبو علي القالي، أسقط أهل زمانه اللغة والشعر والأدب، تعلم في بغداد، ثم رحل إلى المغرب، وله: «التواضع» و«أمالى القالي» و«البارج»، توفي في قرطبة سنة (٣٥٦هـ - ٩٦٧م).

وعليه دين. وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها لبيعها، فمر بعبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه، فقال: يا صاحب البهيمة أنتيها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له، وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً، وإذا بالعمالين على بابه عشرين نفرأ. عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة ونقلأ، وواحد يحمل مالا، فأعطاهم جميع ذلك، واعتذر إليه رضى الله تعالى عنه.

ولما مات معاوية رضى الله تعالى عنه، وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه، فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك؟ فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبى وأمى أنت، فقال: ولهذه ألف ألف، فقال: أما إنى لا أقولها لأحد بعدك، فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد، فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين. وخرج رضى الله تعالى عنه هو والحسن، وأبو دحية الأنصارى رضى الله تعالى عنهم من مكة إلى المدينة، فأصابهم السماء بمطر، فخرجوا إلى خيـاب أعرابي، فقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فلبع لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة، فسل عنا، فاحتاج الأعرابي بعد سنين، فقالت له امرأته: لو آتيت المدينة، فلبقت أولئك الفتيان. فقال: قد نسيت أسماعهم، فقالت: سل عن ابن الطيار، فأتى المدينة، فلقى سيدنا الحسن رضى الله تعالى عنه، فأمر له بمائة ناقة بفحولها وبرعاتها، ثم أتى الحسين رضى الله تعالى عنه، فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل، فأمر له بمائة شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنه، فقال: كفانى إخوانى الإبل والشياه، فأمر له بمائة ألف درهم. ثم أتى أبا دحية رضى الله تعالى عنه، فقال: والله ما عندى مثل ما أعطوك، ولكن اتنى بإيلك، فأقرها لك محرأ. فلم يزل اليسار فى عقب الأعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم: إنك قد أسرفت فى بذل المال، فقال: بأبى أنتما. إن الله عز وجل عودنى أن يتفضل على، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عنى المادة، وامتنع نصيب، فأمر له بخيل، وأثاث، ودنانير ودرهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا المال؟ فقال: إن كان أسود فإن ثنائه أبيض، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطينا إلا ثياباً تبلى ومالاً ينفى، وأعطانا مدحاً يروى وثناء يبقى، وخرج عبد الله رضى الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له، فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام أسود يقوم عليه، فأتى بقوة ثلاثة أقراص، فدخل كلب، فلدنا من الغلام، فصرى إليه بقرص، فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث، فأكلهما. وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام. كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت؟ قال: فلم أكرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أردّه، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوى يومى هذا، فقال عبد الله بن جعفر: آلام على السخاء، وإن هنا لاسخى منى، فاشتري الحائط، وما فيه من التنخيل والآلات واشتري الغلام ثم اعته، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل، والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يوجد هذا وأبخل أنا؟ لا كان ذلك أبداً.

وكان عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، قال: يا ابن عباس إن لى عندك بدأ وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره، فلم يعرفه، فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقعاً بفناء زمزم وغلامك يمنع لك من مائها، والشمس قد صهرت، فقللتك بفضل كسائى حتى شربت. فقال: أجل إنى لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه، وما أراها تنى بحق يله. وقدم عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما على معاوية مرة، فأهدى إليه من هدايا التوروز حللاً كثيرة وسكاً، وأتية من ذهب وفضة، ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب، وهو ينظر إليها، فقال له: هل فى نفسك منها شيء؟ قال: نعم، والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليها السلام، فضحك عبد الله، وقال: خلها، فهي لك، قال: جعلت فداك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية، فيسحق على، قال: فاختنمها بخاتك، وسلمها إلى الخزان، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك لئلا، فقال الحاجب: والله لهذه الخيلة فى الكرم أكثر من الكرم.

وحبس معاوية عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما صلاته، فقيل: لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف، فقال الحسين: وأنى تقع ألف ألف من عبد الله، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخر من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضييق حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصيبت لبن المهادر، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال، ثم قال لوكيله: أحمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب، وأخبره أنني شاطرته، فإن كفاه ولا أحمل إليه النصف الثاني، فلما أتاها الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثقلت والله على ابن عمي، وما حبت أنه يسمح لنا بهذا كله رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له: يا ابن عم محمد ﷺ إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإنى سمعته باسمك تبركا بك، وإن أمه ماتت، فقال له: بارك الله لك في الهبة، وأجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لآبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا، وفي العيش يس، وفي المال قلة، فقال الأنصاري: جعلت فداك لو سبقت حاتمًا بيوم ما ذكرته العرب.

وقال أبو جهم بن حذيفة يوما لمعاوية: أتت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال:

يقبضنا ما نخاف وإن ظننا	به خير أرانا يقبضنا
نميل على جسوانبيه كلنا	إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حوائثيه	فنخبر منهما كرمنا ولينا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأشد عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بلوت الناس قسراً بعد قرن	فلم أر غير خيال وقيل
ولم أر في الخطوب أشد وقسماً	وأقصى من معاداة الرجال
وذقت مرارة الأشقياء طرماً	فما شيء أمر من السوال

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فلم عليه، وأقعده عند رجله وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أنني لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً؟ فقال الحسن: أو عجباً مما قلت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجلك، فاستحيا معاوية، واستوى جالساً، ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتني كم عليك ديناراً قال: مائة ألف درهم، فقال يا غلام: اعط أبا محمد ثلاثمائة ألف درهم مائة ألف يقضي بها دينه، ومائة يفرقها على مواليه، ومائة يستعين بها على نواتيه، وسوغها إليه الساعة. وكان معن بن زائدة من الأجواد وكان عاملاً على العراق بالبصرة، قيل: إنه أتى إليه أحد الشعراء، فأقام ببابه مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يوماً لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان، فعرقي، فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر بيتاً ونقش على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالساً على الفتاة، فلما رأى الخشبة أخذها، وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جود معنٍ ناج معناً بحاجتي فليس إلى معنٍ سواك شفيحٌ

فقال: من الرجل صاحب هذه؟ فأتى به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال: على بالرجل صاحب هذه، فأتى به، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وانصرف. ووضع

معن الخشب تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها، ونظر فيها، وقال: عليّ بالرجل صاحب هذه، فأتى به إليه، فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر، فأخذها وتفكر في نفسه وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده، فقال معن: لقد ساء والله ظني، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالى درهم، ولا دينار. وفيه يقول الغائل:

يقولون معن لا زكاة لاله وكسيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجد في دياره من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جشته منهللاً كأتك تعطيه الفئ أنت نائله
تعود بطل الكف حتى لو أنه أراد انقباضاً لم تطعه أئامله
فلو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله

ومن قول معن:

دعيني أذهب الأموال حتى اصغ الأكـرمين عن اللشام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب^(١) رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتته، فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي، فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط، فأتنا إن شاء الله تعالى، فسافر، وأقمت، فقال لي بعض إخواني أذهب إليه، فقلت: كان جوابه فيه ضعيف، قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال؟ قال: فرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى، فالتفت إلى زيد، وقال: إيه يا عقيل، فقلت:

أناض القوم في ذكر الجوارى فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال: إنك لم تبق عزياً. فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم معه جارية وقرش بيت وبدرة عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالي، وأنا على هذه الحالة، فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر، فقلت أيها الأمير: قد والله أغنيت وأقنيت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع، فأكتب عدوي وأمر صديقي، فقال: إنما أخبرك بين خلتين إما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنفنيك. فقلت: أولم تغنيني أيها الأمير؟ قال: إنما هذا تغني اثنا المنزل، ومصلحة القوم، فتألي من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقاً يخلق رأسه، فجاءه بحلاق، فحلق رأسه، فأمر له بخمسة آلاف درهم، فتحير الحلاق ودعش، وقال: آخذ هذه الخمسة آلاف وأمضي إلى أم فلان أخبرها أنني قد استنيت؟ فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى، فقال: امرأتى طالق إن حلفت رأس أحد بعلك. وقيل: إن الحاجاج حبه على خراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وهو في السجن، فجاء الغرزدق بزيوره، فقال للحاجاج: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الغرزدق: إنما آتيت متوجعاً لما فيه، ولم آت متدحجاً، فاذن له، فلما أبصره قال:

أبا غالد ضاقت خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاججات أين يزيدُ
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة ولا أخضر بالروين بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة وما لجواد بعد جودك جوده

(١) عقيل بن أبي طالب: هو عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب الهاشمي القرشي وكنيته أبو يزيد، أعلم أهل قريش بأيامها ومكارها ومناقبها، وأخبارها، وصاحب فصيح اللسان شديد الجواب، وكان أحد الأربعة التي تتحكم إليهم قريش في المنازعات، أسلم بعد الحديبية، وكان الناس يأخذون عنه الأساب والأخبار في مسجد المدينة، وكان في حلب وأطرافها جماعة يتسبون إليه، يعرفون ببني عقيل توفي سنة (٦٠هـ - ٦٨م).

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليّ المائة ألف درهم التي جمعت لنا ودع الحاجب ولحمي يفعل فيه ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق هذا الذي خفت منه لما منعك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف. ومرت يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، بعجور أعرابية، فذهبت له عزاء، فقال لابنه: ما معك من النفقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها، فقال: هذه يرضيها اليسر وهي لا تعرفني. قال: إن كان يرضيها اليسر، فأنا لا أرضي إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي. وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر: أمر لى المتوكل بمائة وعشرين ألفاً وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة، فقلت أبياتاً في شكره، فلما بلغت قولى:

فأمسك ندى كفسيك عنى ولا تزدد فقد غففت أن أطفى وإن التهجيرا

فقال: والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياح تقوم بألف ألف. وقال أبو العيئة: تذاكروا السخاء، فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدولة العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعاً وأفضل. وسئل إسحاق الموصلى عن سخاء أولاد يحيى بن خالد، فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر، فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وفي يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ولكننى عبدٌ ليحيى بن خالدٍ
فقلت شرّاً قال لا بل وراثتُ توارثنى من والدٍ بمحمد والدٍ

وفي الفضل يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رايت بها غيثَ السماحة ينبتُ
فليس بمقالٍ إذا سيل حاجةٍ ولا يركب فى ثرى الأرض ينكت

وفي محمد يقول القائل:

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما عزّاً بذل مؤيدٍ
وما بال ركن المجد أمسى مهذماً فقال أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلاً مُتّما بعد موته وقد كتبما عبده فى كل مشهد
فقالا أقمنا كى نمرؤى بفقد مسافة يومٍ ثم نلتوه فى غد

وقال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: من كانت له حاجة فليرفعها إلىّ فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضى الله تعالى عنه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إن لى إليك حاجة، الحياه بمعنى أن أذكركها، فقال: خطها فى الأرض، فكتب إلىّ فقير فقال: يا قنبر اكسه حتى، فقال الأعرابي:

كسوتنى حلّة تلبى محاسنها فسوف أكسوك من حن الشا حللا
إن نلت حسن الشا قد نلت مكرمته وليس تبغى بما قدمته بدلا
إن الشاء ليحيى ذكر صاحبه كالغيث يحيى نداء السهل والجبل
لاتزهد العهر فى عسرف بدات به كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا

فقال: يا قنبر رده مائة دينار، فقال يا أمير المؤمنين: لو فرقتهما فى المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضى الله تعالى عنه: صه يا قنبر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فاكرموه» ولعبد الله بن جدهان:

إنسى وإن لم ينل مالى مدام خلتي
وهاب ما ملكك كـ نسي من المال
لا أحبس المال إلا حيث أنفقه
ولا يُنصِرني حَسالٌ إلى حال

وقال بعض العرب لولده: يا بني لاتزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُد من الرحمن فضلاً ونعمة
عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنع ذا حاجةٍ جاء راغباً
فإنك لاتدري متى أنت راغب

وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن عريان طويلاً
وأشعر بالزاد الرفيق على نفسي
وأمنعه فرشي وأتشرش الثرى
وأجعل مستر الليل من دونه لبي
حذار أحاديث الحماق في غدٍ
إذا ضمتني يوماً إلى صدره رمي

وقال يحيى اليرمكي^(١): أعط من الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا يتصلك منها شيئاً، وأعط منها وهي مدبرة فإن منك لا يبقى عليك منها شيئاً، فكان الحسن بن سهل يشعج من ذلك، ويقول: لله دمه ما أطبعه على الكرم، وأعلمه بالدنيا، وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

لاتبخلن بدنياً وهي مقبلة
فليس يُنقِصها التبذير والسرف
فإن تولت فاحسري أن تجود بها
فليس تبقي ولكن شكرها خلف

وقال يحيى لولده جعفر: يا بني مادام قلمك يرعد فامطره معروفاً وقال بعضهم:

لاتكسري في الجود لائمى
وإذا بخلت فأكثري لومى
كفى فليت بحسامي أبداً
ما عشتُ هم غدي إلى يومى

وقال عليّ رضي الله عنه وكرم وجهه: لاتنح من عطاء القليل، فالحرمان أقل منه. ومثل إسحاق الموصلي عن المخلوع، فقال: كان أمره كله عجباً، كان لا يبالى أن يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً، فأراد الرجوع إلى أهله، فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر أين عليّ. فقال: أوفروا له زورقه ذهباً وأمر له بألف ألف درهم.

وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك، وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين، فاستحضره سليمان، وقال: لا أم لك أنتهو سعيلاً؟ قال يا أمير المؤمنين: أشيرك الخير: عشقت جارية مدنية، وأتيت سعيلاً، فقلت: إنى أحب هذه الجارية وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار وقد أتيتك، فقال لي: بورك فيك، فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد، فذكرت له حالى، فقال: يا جارية هاتي مطرفاً، فأنته بمطرف خز، فصر لي في كل زاوية مائتي دينار، فخرجت وأنا أقول:

(١) يحيى اليرمكي: هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير السريّ البرباد، سيد بني برمك وأفضلهم وهو مؤيد الرشيد العباسي ومعلمه ومريه، ولا دلى الخلافة دلع خاقه إلى يحيى، وقتله أمره فبدأ يملو شأنه، واشتهر يحيى بجوده و حسن سياسته، واستمر إلى أن تكب الرشيد البرامكة لبيض عليه وسجده في (الرقعة) إلى أن مات فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. مات سنة (١٩٠هـ - ٨٠٥).

أَبَا خَالِدٍ أَعْنَى مَعِيْدَ بْنِ خَالِدٍ
وَلَكِنِّي أَعْنَى ابْنَ عَائِشَةَ الَّذِي
عَقِيْدُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى
خُذُوهُ إِنَّكُمْ قَدْ رَقَدْتُمْ

أَخَا الْعَرَفَ لَا أَعْنَى ابْنَ مَتَّى مَعِيْدَ
أَبُو أَبِيهِ خَالِدُ بْنُ أَسِيْدَ
فَلِإِنْ مَاتَ لَمْ يَرْضَ النَّدَى بِمَعِيْدَ
وَمَا هُوَ عَنْ إِحْسَانِكُمْ بِرَقُودَ

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تَكَرَّهْتَ أَنْ نَعطِيَ القليل ولم
تُبْثِ النِّوَالِ وَلَا تَنْعَمَكَ قَلْبُكَ
تَقْدِرُ عَلَى سَمْعٍ لَمْ يَظْهَرِ الجُودُ
فَكَلَّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهوَ مُحَمَّدٌ

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بشمابين ألفاً، فقيل له: لو اتخذت لولئك من هذا المال ذخراً؟ فقال: بل اجعله ذخراً لي، واجعل الله ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوى الحاجات. وكان ابن مالك القشيري من الأجداد، قبا، إنه أنهب الناس ماله بعباكظ ثلاث مرات، فعاتبه خاله، فقال:

يا خصال ذرني ومالي ما فعلت به
فلن أطيعك إلا أن تُخلدني
الحمد لا يشترى إلا بمكرمة

وخذ نصيبك منه إنني مودى
فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي
ولن أعيش بمال غير محمود

وقال الملهب: عجبت لمن يشتري الممالك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعله. ونزل بأبي اليحترى وهب بن وهب القرشي ضيفاً، فسارع عبده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه، فأنكر ذلك عليهم، فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلى الأخيلية^(١) على الحجاج، فقالت فيه:

تتبع أقصى دالها فشفاهها
غلام إذا هنّ القنّة سقّاها

فقال: لا تقولى غلام، ولكن قولى همام. يا غلام: اعطها خمسمائة فقالت: يا أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إنثاء، وقال أبو الفياض الطبرى:

والعزّ ضيفُ لإبراهيمَ
والجسدُ أعلى كعب كعبِنا

من لا يسرى بذلَ التـــــــلاذ
فمضى جواداً يومَ مباتِ جوادا

وقال آخر :

(١) إلى الألفية: هي التي يلت عبد الله الرجال بن شداد بن كعب، الألفية: من بني عامر من مصلصة شاعرة فصحة ذكية، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحميم، ووفدت على (الحجاج) مرات فكان يكرمها ويقرها، وهي في الشعر دون لحناء مرتبه، وكانت بينها وبين التابعة الجعدي مهاجاة، ولها ديوان إلى الألفية توفيت سنة (٨٠ - ٧٠٠ هـ).

أبقت أن من السماح شجاعة وعلمت أن من السماح جوداً

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الاجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأمينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسأله أن يقف عليه، وينظر إليه، ففعل ذلك اليوم عن رويته. وقال أحمد بن حمدون: فقال لي، ولأترجة الهاشمي: اذهب، فانظر إليه، وكان معنا الحاجب، فمضينا وراينا، فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه، فمددت أنا يدي إلى عزال من ذهب عيناه باقوتان، فوضعت في كمي، ثم جثتاه، فوضعتا له حسن ما رأيناه، فقال أترجة: يا أمير المؤمنين: إنه قد سرق منه شيئاً، وغمره على كمي، فأرثته الغزال، فقال: بحياتي عليكما أرجعا، فخذنا ما أحببنا، فمضينا، فملأنا أكمامنا وأقبلنا نمشي كالخيالي، فلما رأنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما دنينا يا أمير المؤمنين؟ فقال: قوموا، فخلوا ما شئتم، ثم قام ووقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك. ونظر يزيد المهلبى سلطاناً من ذهب ملوئاً مسكاً، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين. فضحك من قوله، وأمر الفرائسين والحلم أن يتهبوا الباقي، فأتته فخرج، فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه، فإني أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار، فقال: يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله، ففعلت، ومضى حتى رآه، وفعل به كفعله الأول. ودخل طلحة بن عبيد الله بن عوف السوقي يوماً، فوافقه فيه الضررق، فقال يا أبا فراس: اختر عشراً من الإبل، ففعل، فقال ضم إليها مثلها، فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة، فقال: هي لك، فقال:

يا طلع أنت أخو الندى وعقيدته
إن الندى ألقى إليك رحيله

إن الندى ما مات طلحةً ماتا
فبحسب ما بقاء من المنازل باتا

وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور، فأكرمه، وأتمم عليه، وبعث إليه بألف دينار، فقال:

إن السماح والمروءة والندى
في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال: ردني، فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيق له، فأنزله، وأحسن إليه، وقال: ما عندك يا أبا عطاء؟ فقال: وما عسى أن أقول، وأنت أشعر العرب غير أني قلت بيتين. قال: هات ما قلت فقال:

يا طالب الجود إنما كنت تطلبه
الواهب الخليل تشدو في اعتها

فاطلب على باب نصر بن سيار
مع القيان وفيها ألف دينار

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكاه كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقه، ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصراً، فقال: يا له. قاتله الله من سيد، ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتي: أشرف عمرو بن هيرة يوماً من قصوره فإذا هو بأعرابي يرقل قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أرادني هذا الأعرابي، فأوصله إلي، فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأشاد الأعرابي يقول:

أصلحك الله قل ما بيدي
أناع دهرى على كل كلة

ولا أطيع العيال إذا كثر
فأسلوسني إليك وانتظروا

فاخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه ثم قال:

هينئاً لك المال الذى قد قبضته
أبوه بحسزنٍ من فراقك موجع
ولم يبق في كفى غير التحسز
إنساجى به صلبداً طويل التفكير
فأجابها بقوله:

ولولا قعود الدهر بى عنك لم يكن
عليك سلامٌ لازيارة بيننا
يفرقنا شئٌ سوى الموت فاعزذرى
ولا وصل إلا أن يشاء ابن ممر

فقال ابن ممر: قد شئت وقد وهيتك الجارية وثمنها، فخذها وانصرف. ووفد أبو الشمقم إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله، فوجده فى دار الخراج يطالب، فدخل عليه يتوجع له، فلما رآه محمد قال:

ولقد قدعتُ على رجال طامنا
أخنى الزمان عليهم فكأنما
قدم الرجال عليهم فئموكوا
كانوا بارضٍ أكفرت فئموكوا
فقال أبو الشمقم:

الجرودُ أفلسهم وأذهبَ مالهم
فاليوم إن راموا السماحةً يغفلوا

قال: فدخل محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه، فكذب بذلك متوفى الخراج إلى الخليفة، فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام فى تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة على مروته. وقال أبو العيناء: حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يوماً على يحيى بن أكرم القاضي، فقال: إن أمير المؤمنين جلس للمظالم، وأخذ القصص، فهل لك فى الحضور؟ قلت: نعم، فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيناء، بالآلفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدته:

لقد رجوتك دونَ الناس كلهم
إن لم يكن لى أسبابٌ أعيشُ بها
وللرجاء حقوقٌ كلها تحبُ
ففى العلاء لك أخلاقٌ هى السب

فقال: بإسلامة انظر أى شئ فى بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال: بقية من مال، قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وأبعث له يمثلها فى كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون، فبكى عليه أبو العيناء، حتى تقرحت أجفانه، فدخل عليه بعض أولاده، فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء، فأنشأ أبو العيناء بقول:

شيطان لو بكت الدماءُ عليهما
لم يلبثا العشائر من حقيهما
عسيتاى حسيتى يؤذنا بلعاب
فقد الشباب وفرقة الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطراً عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطيخ فى دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إنى أطوف القبائل وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمد لى، وفيها الحناء، وربما كان فيها الخاتم الذهب والسوار الذهب، فأعطى أم أردد؟ قال: فاطرط طويلاً، ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردّها. وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان:

وما شئ أنفى ربحٌ كف شممها
من الناس إلا ربحٌ كسبك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر. وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً. مضياً، فتغذى عنده

أعرابى يوماً، فلما كان من الغد مر على بابه، فرأى الناس فى الدخول على هيتهم الأوس، فقال: أوكل يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم، فأنشأ يقول:

أكلَ يومَ كَأَنَّهُ عَيْدٌ أَصْحَى عندَ عبدِ العزيزِ أو عَيْدٍ فطيرِ
وله ألفُ جَنَفَةٍ مَرَّعَاتٍ كلُّ قَلْبٍ يملأها ألفُ قسْبِ

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص^(١)، فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعداً، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفا الشعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً ودياراً، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار وقال له: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم. ودخل رجل على على بن سليمان الوري، فقال له: سألتك بالله العظيم ونييه الكريم إلا ما أجزتني من خصمي، فقال: ومن خصمك حتى أجبرك منه؟ فقال: الفقر، فأطرق الوري ساعة، وقال: قد أمرت لك مائة ألف درهم، فأخذها وانصرف. فبينما هو فى الطريق إذ أمر الوري برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم ونييه الكريم متى أتاك خصمك معنفاً، فأرجع إلينا متظلماً. وقال الأعمش: كانت عندي شاة، فمرضت، وفقدت الصبيان لبنها، فكان غشمة بن عبد الرحمن يعودها بالقدادة والعشى ويسألنى. هل استوفى علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكانت تحثى لبد أجلس عليه، فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اليد حتى وصل إلى من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره حتى غميت أن الشاة لم تبرا.

وحكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن يزيد يوماً، فسمع صائحاً يقول: يابزيد بن مزيد، فطلبه فأتى به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي ونفدت نقمتى، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيلَ منَ للجُودِ والمجدِ والندى فتأدى بصصوتِ يابزيدِ بنِ مزيدِ

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، ومائة دينار، وعلمه سنبة فأخذها وانصرف.

وحكى أن قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياهم يزورونه فيأتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له: هل لك أن تبغى بعيرك بنجيبى؟ وكان الميت قد خلف نجيباً، وكان للرأى بعير سمين، فقال: نعم، وياعه فى النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير، فبحره فى النوم، فأنشبه الرأى من نومه، فوجد الدم يسبح من نحر بعيره، فقام وأتم نحره وقطع لحمه وطبخوه وأكلوا، ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق سائرهم استقبلهم ركب، فتقدم منهم شاب، فتأدى، هل فيكم فلان بن فلان؟ فقال صاحب العير: نعم ها أنا فلان بن فلان فقال: هل بعت من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم. بعته بعيرى بنجيبه فى النوم، فقال: هذا نجيبه، فخذ، وأنا ولده، وقد رأيته فى النوم، وهو يقول: إن كنت ولدى، فادفع نجيبى إلى فلان. فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أسخياه بعد موته.

وروى عن الهيثم بن عدى أنه قال: غمى ثلاثة نفر فى الأجواد، فقال رجل: أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله ابن جعفر، فقال الآخر: أسخى الناس: قيس بن سعد بن عبادة، فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى، فتنازعوا بفتاة الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم فى الكلام، فليعض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ينظر بما يعود، فتحكم على العيان. فقام صاحب ابن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضبعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن مسيلب منقطع به، قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، ونخذ ما فى الحقيبة، وكان فيها مطازف خز وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس، فوجده نائماً فقالت له جارية

(١) سعيد بن العاص: هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، الأموى القرشى، صحابى من الأمراء والولاة الفالحين، روى فى حجر عمر بن الخطاب، وولاة عثمان بن عفان الكوفة، وهو صاحب، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لشما، وكان قوياً فيه شدة، سخياً، فصيحاً توفى سنة (٦٩هـ - ٦٧٩هـ).

قيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل ومنقطع به، فقلت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن الإبل، فخذ راحلة من راحله، وما يصلحها، وعبدًا، وامض لشائك، قيل: إن قيسًا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعقتها، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جبرت أن تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه، قال بعض الشعراء:

وَإِذَا اخْتَبَرْتَ وَدَّ صَدِيقٍ فَاسْتَخْبِرْ رَدَّهَ مِنَ الْغُلَمَانِ

ومضى صاحب عرابية، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابية ابن سبيل ومنقطع به. وكان معه عبدان، فصق بيده اليمنى على اليسرى، وقال: أواه، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابية شيء، ولا تركت له الحقوقي مالا، ولكن عذ هذين العبدين، فقال الرجل: والله ما كنت بالذي يسلك عبيدك، فقال: إن أخذتهما، وإلا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت، فأعنت، فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعا وذكروا قصة كل واحد، فحكوا لعرابية لأنه أعطى على جهده. قيل: إن شاعرا قصد خالد بن يزيد، فأنشده شعرا يقول فيه:

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ حَرَّانَ أَتَيْتُمَا فَتَقَالَا يَقِينًا إِنَّا لَعَبِيدُ
فَقُلْتُ وَمَنْ مَوْلَاكُمَا فَسَطَاوَلَا إِلَيَّ وَقَالَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقل له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كَرِيمُ كَرِيمِ الْأَسْهَاتِ مَهْذَبٌ تَدْفُقُ مِنْهُ النَّدَى وَشُمَمٌ تَلَهُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَى الْبُحْبُوحَاتِ فَلَجَّئُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
جُودًا بِسَيْطِ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاها لَقَبَضِي لَمْ تَجْهَبْهُ أُنَامِلُهُ

فقال يا غلام: أعطه مائة ألف درهم وقل له: إن زدتنا زدناك، فقال: حب الأمير ما سمع، وحسبي ما أخذت وانصرف.

وأما اللتين انتهى إليهم الجود في الجاهلية: فهو حاتم بن عبد الله الطائي^(١)، وهرم بن سنان، وخالد بن عبيد الله، وكعب بن أمانة الأيادي. و ضرب المثل بهاتين وكعب، وحاتم أشهرهما، فأما كعب، فجاد بنفسه، وأثر رفيقه بالمال في المقاربة، ومات عطشا، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله، فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر، فقال: في مثل هذا الحال؟ قال: نعم، فقال: هاتهما، فأنشده يقول:

يَا وَاحِدَ الْعَسْرِبِ الَّذِي مِمَّا فِي الْأَنْثَامِ لَهُ نَظِيرُ
لَوْ كَانَ مِثْلُكَ أَتَمَّرُ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَتِيرُ

فقال: يا غلام، أعطه عشرين ألف دينار، فأخذها وانصرف. وأما حاتم، فأخياره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سنانة وأبا عدى، وكان يسير في قومه بالرباع والمرباع ربع الغنيمة، وكان ولده عدى يعادى النبي ﷺ، فيمت النبي ﷺ عليا إلى طيء، فهرب عدى بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سنانة، فأمرتها خيل رسول الله ﷺ، فلما أتى بها إلى النبي ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد، وغاب الرافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولانثمت بي أحياء العرب، فإن أبى كان سيد قومه يلقى العاتى، ويقتل الجعاني، ويحفظ الجار، ويحمي الدمار، ويفرج عن المكروب،

(١) حاتم الطائي: هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشر الطائي الغضائى، أبو عدى، فارس شاعر جواد، جاهلى، يشرب به الليل في الجود، كان من أهل نجد، مات في عوارض (جبل في بلاد طيء) سنة (٤٦٦ ق هـ - ٥٧٨ م) شهرة كثير ضاع معقله وبقي ديوان صغير.

ويطعم الطعام، ويغشى السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فردة خائباً، أنا بنت حاتم الطائي، فقال لها النبي ﷺ: «يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق». وقال فيها: «ارحموا عزيز قوم ذل وغنيا افتقر، وعالمنا ضاع بين جهال». فاطلقها ومن عليها، فاستأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: «اسمعوا وعوا» فقالت: أصاب الله ببرك مراقعه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبياً في ردها عليه. فلما أطلقها النبي ﷺ رجعت إلى قومها، فأثمت أخاها عدواً وهو بدومة الجندل، فقالت له يا أخى: انت هذا الرجل قيل أن تعلقك حبائله، فإني قد رأيت هدياً ورأيت سيغلب أهل الغلبة رأيت خصالاً تعجبني. رأيت يحب الفقير، ويفك الأسير ويرحم الصغير ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ وإني أرى أن تلحق به، فإن يك نبيّاً فللسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن نذل في عز اليمين.

فقدم عدى إلى النبي ﷺ فالتقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي ﷺ على الأرض، فأسلم عدى بن حاتم، وأسلمت أخته صفانة بنت حاتم المتقدم ذكرهما، وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الفريضة من إبله تنهبها وتطعيها الناس، فقال لها أبوها: يابنة إن الكريين إذا اجتمعوا في المال اتلفاه، فإما أن أعطى ونمسكى، وإما أن أمسك وتمطى، فإنه لا يبقى على هذا شيء، فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق. قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية، وكان جواداً يشبه جوده شعره ويصدق قوله فعله، وكان حشماً نزل عرف منزله، وكان مطقراً إذا قاتل غلب، وإذا سئل وهب، وإذا سابق سبق وإذا أسر أطلق، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشرة من الإبل وأطعم الناس، واجتمعوا إليه، وكان قد تزوج مائة بنت غير، وكانت تليمه على إتلاف المال، فلا يلبث لسقولها. وكان لها ابن عم يقال له مالك، فقال لها يوماً: ما تصنعين بحاتم، فهو الله لئن وجد مالا ليطفئه، وإن لم يجد ليتكلفن ولئن مات ليركن أولاداً عالة على قومك. فقالت مائة: صدقت إنه كذلك.

وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حوله إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حوله إلى المشرق، وإن كان من قبل اليمين حوله إلى الشام، وإن كان قبل الشام حوله إلى اليمين، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته، فلم يأتها، ثم قال ابن عمها: طلقى حاتم وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالا، وأنا أمسك عليك، وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته، فأتاها حاتم وقد حولت باب الحباء، فقال حاتم لولده: يا عدى ما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك. قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد، فنزل فيه، ففجأ قوم، فنزلوا على باب الحباء كما كان ينزلون، وكان عدتهم خمسين فارساً، فضاقت بهم مائة ذراعاً وقالت لجاريته: اذهبي إلى ابن عمي مالك، وقولي له: إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشيء نقرهم ولبناً نسقيهم، وقالت لها انظري إلى جبينه وقمعه، فإن شافهك بالمعروف فاقبلي منه، وإن ضرب بجليته على زوره، ولطم رأسه، فاقبلي ودعيه. فلما أتته وجدته متوسداً وطياً من لبن، فأيقظته وأبلغته الرسالة وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده وضرب بجليته، وقال: اقربيهما السلام. وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقى حاتماً لأجله، وما عدى لبن يكفى أضياف حاتم. فرجعت الجارية، فأخبرتها بما رأته وبما قال لها، فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له: إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بئانة نقرهم ولبناً نسقيهم، فأثت الجارية حاتم، فصاحت به، فقال: ليك قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه، فقال لها: حبا وكرامة، ثم قام إلى الإبل، فأطلق اثنين من عقاليهما وصاح بهما حتى أتيا النخيل، ثم ضرب عراقيبهما، فطفقت مائة تصيح: هذا الذي طلقته بسببه. نثر أولادنا وليس لهم شيء، فقال لها: ويحك يا مائة الذي خلقتهم وخلق الخلق منكفل بأرذاقهم. وكان إذا اشتد البرد وغلب الشتاء أمر غلمانه بنار فيوقدون في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً، فيقصدها، ولم يكن حاتم يسلك سبيلاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإنه كان لا ينجود بهما، ثم جد بفرسه في سنة مجدية.

حكى أن ملكان ابن أخى ماوية قال: قلت لها يوماً: يا عمة حديثي ببعض عجائب حاتم وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخى أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وقد أخذنى وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سقانة، وأخذ عدياً، وجعلنا نلعلهما حتى ناما، فاقبل على يحدثنى ويعلننى بالحديث حتى أنام، فرقت به لما به من الجوع، فامسكت عن كلامه لينام، فقال لى: أمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر فى فناء الحباء، فإذا شئ قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدى أتيتك من عند صبية يتماون كالكلاب أو كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضرى صبيانك، فوالله لأشبعنهم، فقامت سريعة لأولادها، رفعت رأسى وقلت له: يا حاتم، بما تشبع أطفالها، فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتحليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً، وأخذ المدية بيده وعمد إلى فرسه، فذبحه، ثم أجمع ناراً ودفع إليها الشفرة، وقال: قطعى واشوى وكلى وأطعمى صبيانك، فأكلت المرأة وأشبعن صبيانها، فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم، فقال: والله إن هذا ليهو اللؤم تأكلون وأهل الحى حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحى بيتاً بيتاً يقول لهم انهضوا النار، فاجتمعوا حول الفرس، وتفتح حاتم بكسائه وجلس ناحية، فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير إلا العظم والخافر، ولا والله ما ذاقها حاتم، وإنه لأشدهم جوعاً، وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره:

أما سواي إن المال غداً ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكرُ
وقد علم الأقوام لو أن حاتمًا أراد شراءَ المال كسبان له وفـرـ

وأغار قوم على طيء، فركب حاتم فرسه وأخذ رمحه ونادى فى جيشه وأهل عشيرته، ولقى القوم، فهزمومهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لى رمحك، فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك، ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول هب لى؟ ولما مات عظم على طيء، موته، فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلفتيكما، وضعت، فبقى والله مبيعة أيام لا يرضع حتى ألقت إحدى ثدى طفلًا من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر، فأتى لك ذلك. قال الشاعر:

يعيش الندى ما عاش حاتم طيء وإن مات قامت للسحباء مآتم

وكانت العرب تسمى الكلب داعى الضمير، وتمتم الغم، ومشيد الذكر لما يجلب بمن الأضياف بنباحه. والضمير: الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح، ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها إلى العمدة لتستوحش فتنبح، فتهدى الضلال وتأتى الأضياف على نباحها. والحكايات فى ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء وأهل المعروف وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر. ففى مثل هذه المناقب فليتأفك المتأفكون ولتأملهما فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وحسن النصيب وخلود جميل الذكر، فإنا لم نجد شيئاً يبقى على عمر الدهر إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شئ يندوم فكن حديدية جميل الذكر فالدينيا حديث

فانتبهز فرصة العمر ومساعدة الدنيا ونفوذ الامر وقدم لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وادخر نفسك فى القيامة كما ادخروا، واعلم أن الماكول للبدن والموهوب للمعاد والمتروك للعدو، فاختر أى الثلاث شئت. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخُلُونُ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْمُنُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٧]. وقال رسول الله ﷺ: «ياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامع لمساوى القلوب وهو رما يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته أو كان طريقاً ما سلكته. وقيل: بخلاء العرب أربعة: الخطيئة وحמיד الأرقط وأبو الأسود الدؤلى وعاليد بن صفوان. فأما الخطيئة^(١) فمر به إنسان وهو على باب داره ويده عصا، فقال: أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أعددتها. وأما حميد الأرقط، فكان هجاء للضيفان فخاشاً عليهم، نزل به مرة أضياف، فاطعمهم قمراً، وهجاءهم وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود، فتصدق على سائل بتمرة، فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلاً. وكان يقول: لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان، فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار كم تدير وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك. ثم يطرحه فى الصندوق ويقول عليه. وقيل له: لم لا تنفق، ومالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه، وأنشد بعضهم:

وهينى جمعت المال ثم خزنته وحانت وفاتى هل أراد به عمى
إذا خزّن المال البخليل فليته سيوره غمّاً ويعقبه ورر

واستاذن حظلة على صديق له ببخل، فقيل: هو محموم، فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتاباً فى مدح البخل وأهاده إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره، «قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه». وقال ابن أبى فتن:

ذرىنى وإتلافى لىالى فــــلى نــــى أحب من الأخلاق ما هو أجمل
وإن أحب الناس بالولم شاعــــر يلوم على البخليل الرجال وبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدى بخیلاً جداً، أصابه القولنج فى بطنه فحقت الطيبى يدهن كثير فاتحل ما فى بطنه فى الطست، فقال لعلامة: أجمع الدهن الذى نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج، فحدا له يوماً يقول الشاعر:

أغــــر بــــن الحــــاج جــــيــــن نوره يزيه حــــيــــاؤه وخــــيره
ومسكه يشوبه كفافــــوره إذا تغلدى رفعت ســــوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال: يارب أعطه نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم! يا أمير المؤمنين، والله لقد حدثت نهشام، فأمر لى بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم، يارب: وكل به من يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما رلت أمشى بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية^(٢)، ومروان بن أبى حفصة بخیلين يضرب ببخلهما المثل، قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدي، فوزنتها فرجحت درهماً، فاشتريت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما

(١) الخطيئة: هو جرد بن أوس بن مالك الجبسى، أبو ملكية، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام كان هجاءً عنيفاً، لم يكذب مسلم من لسان أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه له أدبيات شعره. توفي سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م).

(٢) أبو العتاهية: هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العتري (من قبيلة عترة) بالولاء، أبو إسحاق الشهير بالعتاهية، شاعر مكثر، سريع الخطر، فى شعره فن وإبداع توفي سنة (٢١١هـ - ٨٢٦م).

وضعه في القدر دعاه صديقه، فرد اللحم على القصاب يتقصان دانتين، فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول: هذا لحم مروان، واجتار يوماً بأصغاريه، فأضافته فقال: إن وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً، فوجهه سبعين ألف درهم، فوجهها أربعة دنانير.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو، يقال: إن من عادتهم إذا تراقبوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط ويجمعون اللحم كله في قدر، ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسما المرق. وقيل لبخيل: من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولم تنشق مرارته. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إيراً، وجاء يعقوب ومنعه الأبناء شفعاء والملائكة ضماً يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر، ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لو أن دارك أتيت لك واحدة يست
وأناك يوسف يستعيرك إبرة
إيراً يضيق بها فتاء المنزل
ليخيط قد قميصه لم تفعل

وكان المتنبي بخيلاً جداً مدحه إنسان بقصيدة، فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ قال: عشرة دنانير. قال له: والله لو تدفدت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة مادفعت لك دنانيراً^(١). وقال دجيل: كنا عند سهل بن هارون، فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأنى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرأه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، فقال: والله إنى لأكره من يرمى برجله، فكيف يرأسه؟ ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصبح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يترك به وعينه التي يضرب بها المثل، يقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهيك ظننت أنى لا أكله، أما قلت عنده من يأكله. انظر في أى مكان رميته فأتى به. فقال: والله لا أدري أين رميته، فقال: ولكنى أنا أعرف أين رميته. رميته في بطنك، الله حببك. وقيل من الناس من يبخل بالطعام ويوجد بالمال وبالعكس. قال بعضهم في أبي ذلف:

أبو ذلف يضرب ألف ألف
ويضرب بالخمسمائة على الرغيف
أبو ذلف لمطبخه قناراً
ولكن دونه سل السيفوف

واشكى رجل مروزي صدره من سعال، فوصفوا له سويق اللوز فاستنقل التفقة، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء، فبينما هو يماطل الأيام ويدافع الآلام إذ أتاه بعض أصدقائه، فوصف له ماء النخالة، وقال: إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره، ووجد يعصم، فلما حضر غداؤه أمر به، فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: اطبخي لأهل بيتنا النخالة فأنى وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء، فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علق فيها عوداً بخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً؟ قال: قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره، فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن تشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود، فقال الرجل: يا فلان لقد فررت من شيء وقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء وينشخان هذا العود، لم لا تأخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملك وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً ربما يتعلق به شرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المرفئين. وقال الهيثم بن عدي: نزل على أبى حفصة الشاعر رجل من اليمامة، فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه، ثم رجع وكتب إليه:

(١) الدائق: سلس الدرهم.

يا أيها الخارج من بيته وهارياً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاز له فالرجع وكن ضيفاً على الضيف

واشترى رجل من البغلاء داراً وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان. فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك، ثم التفت إلى ابنته، فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت يا أبت ما دمت متمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبال كثرت أم قلوا. وآلام اللثام وبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذه البيت من قصيدة له:

ما بين لقمة الأولى إذا انحدرت وبين أخرى تليها قيد أظفـور
وقال فيه أيضاً:

تجهز كفأً ويحدر حلقه إلى الزور ما ضمت عليه الاتامل

وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها فقطعت منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا ادعها للشيطان يأكلها، فقال الأعرابي: والله ولا جبريل وميكائيل لو نزل من السماء ما تركها. وقال الأعرابي: لنزول نزل به: نزلت بواد غير مطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدهم أو ارحل بندم وللحمدوني:

رأيت أبا ذرارة يومــــاً
لئن وُضِعَ الخوان ولا حــــــشــــن
فقال سوى أبك فذاك شــــين
فقيام وقال من حقن إليه
أبى وأبنا أبى والكلب عــــدى
وقال له ابن لى يا ابن كلب
إذا حضر الطعام فلا حــــقــــوق
فما فى الأرض أقبح من عــــوان
فأين هنا من القائل:

بخيل يرى فى الجود عــــاراً وإمــــا
إذ المرء أترى ثم لم يــــرج نفعــــه
وقال آخر:

وأمرأة بالبخل قلت لها اقــــمــــرى
أرى الناس إــــخــــوان الكــــريم ومــــا أرى

وقالوا: إذا سألت ثيماً فعاجله ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعداً، وقال ربيع الهملاني:

جمعت صنوف المال من كل وجهــــة
وإن لارجسو أن أموت وتنقــــضى
وما نلتها إلا بكف كــــريم
حياتي وما عــــدى يد لــــثــــيم

وأشد الجاحظ لأبى الشمقمق:

عَمَّنْ تَعْلَمْتُ هَذَا أَنْ لَا تَحْمِلَ بِي بَشْرِي
أَنَا مَرَرْتُ بِعَبْدٍ لِعَبْدٍ حَسَنٍ طَيِّبٍ

وعما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم فمن أهدى ما قيمهم بيت جرير في بني تغلب

والتغلبى إذا تمنح للفقير حَكْ إِسْتَنْهَ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا
له أيضاً فيهم:

قَوْمٌ إِذَا أَكَلُوا أَخْفَسُوا كَلَامَهُمْ وَاسْتَوْثَقُوا مِنْ رِثَاجِ الْبَابِ وَالْذَارِ
قَوْمٌ إِذَا اسْتَبَحَّ الضَّيْفَانِ كَلَبَهُمْ قَالُوا لَا تُهْمُ بِوَلِيِّ عَلَى النَّارِ
فَتَمْنَعُ الْبَوْلَ شَحًّا أَنْ تَحْمُودَ بِهِ وَمَا تَبُولُ لَهُمْ إِلَّا بِمُقْدَارِ
وَالْخَبِيزُ كَالْعَبِيرِ الْهِنْدِيِّ عِنْدَهُمْ وَالْقَمَحُ خَمْسُونَ أَرْتًا بِنَيْتَارِ

فأين هؤلاء من الذي قال فيه الشاعر:

أَبْلَجُ بَيْنَ حَاجِسِيهِ نَوْرُهُ إِذَا تَغَدَّى رَفَعَتْ سِتْرُورُهُ
وقال بعضهم في بخيل:

أَنَا بِخَيْلٍ بِخُفِّسَ لِي كَسَمَثَلِ الدَّارِهِمْ فِي رَقَّتِهِ
إِذَا مَا تَنَفَّسَ حَوْلَ الْخَوَانِ تَطَايَرُ فِي الْبَيْتِ مِنْ خَفَّتِهِ
وقال آخر:

تَرَاهُمْ غَشِيَةَ الْأَصْفَادِ غَرَسَا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانِ
وقال آخر وقد بات عند بخيل:

فَبَاتَا كَلْبًا بَيْنَهُمْ أَهْلُ مَائِمٍ عَلَى مَيِّتٍ مَسْرُودٍ بَطْنِ مَلْحَدِ
يَحْدُثُ بَعْضُنَا بَعْضًا بِمَصَابِهِ وَيَأْمُرُ بَعْضُنَا بَعْضًا بِالتَّجَلُّدِ
وقال آخر:

وَجِيرَةٌ لَا نَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عَسِيْدًا وَافْطَارِ
إِنْ يَوْقِدُوا يَوْسَعُونَا مِنْ دَخَانِهِمْ وَلَيْسَ يَمْلِكُنَا مِمَّا تَطْبِخُ النَّارِ
وقال آخر وأجاد:

فَصَلِّقْ إِيمَانَهُ إِنْ قَالَ مَجْتَهِدًا لَا وَالرَّغِيفَ فَنَازِكُ الْبِرِّ مِنْ قَسَمِهِ
فَإِنْ هَمَّتْ بِهِ فَاعْبَثْ بِخُبْرَتِهِ فَإِنَّ مَوْقِعَهَا مِنْ خَمِّهِ وَدَمِهِ
قَدْ كَانَ يَعْجِبُنِي لَوْ أَنَّ غَيْرَتَهُ عَلَى جِرَادَتِهِ كَانَتْ عَلَى حَرَمِهِ
وقال آخر:

ذَهَبَ الْكِرَامُ فَلَا كِسْرَامَ وَبَقِيَ الْعَبْثُ فَرِيطَ الْإِسْرَامِ
مَنْ لَا يُقْسِيْلُ وَلَا يَنْبِيْ لَوْلَا يُشْمُّ لَهُ طَعْمُ الْإِسْرَامِ

وقال آخر:

على دهره إنَّ الكريم مـــــــمين
مخافة أن يرجى نداء حزين

خليلي من كمب أعينا أخاكما
ولا تبخلا بغل ابن قسزعة إنه

وقال آخر:

فلم تلقه إلا وأنت كــــمين

إذا جئته في حاجة سدَّ بابيه

وقال آخر:

يل السيف فيه من القراب
وأما سيفه فعلى الكلاب

له يومــــان يوم ندى ويوم
فأما جوده فعلى قحاب

وقال آخر:

عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

رفقت إلى نيهان من صفو فكرتي
فقبلها عشراً وهام بحبها

وقال آخر:

في ليلة مظلمة باردة
ما سقطت من كفه واحدة

لو عبّر البحر بأمواجه
وكفّته مملوءة خردلاً

وقال آخر:

من غير معنى لا ولا فائدة
فأقصر عليهم سورة المائة

يا قائماً في داره قاعداً
قد مات أضياك من جوعهم

وقال آخر:

وخبزك كالثريا في البعاد
لحرمت الرقباد إلى المعاد

نوالك دونه شوك القباد
فلو أبصرت ضيفاً في مقام

وقال آخر:

فالكوكب النحس يبقى الأرض أحياناً

لا تعجبن لخبرزل من يده

وقال ابن أبي حازم:

فقلت وكيف لي بفتى كريم
وجــــيبك بالجسرب من عليم
ولا أحد يجود على عديم

وقالوا قد مدحت فتى كريماً
بلوت ومرّ بي خمسون حولاً
فلا أحد يعد ليوم غير

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء

وعشرة من الشعراء عشرة من الأبياء تواطوا على ذمي واستهلوا شئني حتى يشتر ذلك في الأفق، فلا يند إلى أمل
 أمل ولا يسط نحوى رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً: إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا
 علامة نعرف بها وقت استئمالك لجالسنا، فقال: علامة ذلك أن أقول ياغلام هات الغداء. وقال عمرو بن ميمون:
 مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له، فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي رادني
 فاشتري رأساً فاشترته وتغدينا وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري اتجمل بها فجاء هذا فأنزعها ووضعها على باب
 داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس. قال رجل من البهلاء لأولاده: اشترُوا لي لحماً فاشتروه، فأمر بطبخه فلما
 استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطى أحداً منكم هذه العظمة حتى
 يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أشممتها يا أبت وأمصتها حتى لا أدع للشر فيها مقيلاً قال: لست بصاحبها.
 فقال الأوسط: أركها يا أبت وأحسها حتى لا يدرى أحد لعام هي أم لعامين. قال: لست بصاحبها، فقال الأصغر: يا
 أبت أمصها ثم أدقها وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها، وهي لك رادك الله معرفة وحزماً. ووقف أعرابي على باب أبي
 الأسود وهو يتغدى، فلمس فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه، فقال له الأعرابي: أما إني قد مررت بأهلك،
 قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حيلى. قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن
 تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال:
 ثم مات الآخر. قال: ما كان ليقي بعد موت أخيه. قال: وماتت الأم. قال: حزناً على ولديها. قال: ما أطيب
 طعامك. قال: لأجل ذلك أكلته وحدي ووالله لا ذقت يا أعرابي. وقيل: خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي
 فاقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقدم إليه الطعام وكان إذ ذاك جباناً، فسأله
 عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد سلا الأرض والحي رجالاً ونساءً. قال: فما فعلت أم عمير؟
 قال: صالحة أيضاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلينا إيقاع؟ قال: قد ملأ الحى نبحاً، قال: فما
 حال جملي رقيق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه وقال: ارفع الطعام فرفعه ولم يشع الأعرابي ثم أقبل
 عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت، قال: سل عما بدا لك، قال: فما حال كلي إيقاع؟ قال:
 مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك رقيق فمات. قال: أو مات جملي رقيق؟ قال: نعم.
 قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير. قال: أو مات أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟
 قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أو مات عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: سقطت عليه الدار. قال:
 أوسقطت الدار؟ قال: نعم. قال: فقام له بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً.

وحكى بعضهم قال: كنت في سفر فضلت عن الطريق فرأيت بيتاً في الفلاة فأتيته، فأنذبه أعرابية فلما رأته
 قالت: من تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف انزل على الرحب والسعة، قال: فنزلت فنقدمت لي
 طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذ أقبل صاحب البيت فقال: من هذا؟ فقلت: ضيف. فقال: لا
 أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف، فلما سمعت كلامه ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة
 فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأته قالت: من تكون؟ قلت: ضيف. قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف وما لنا
 وللضيف؟ فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت فلما رأى قال: من هذا؟ قالت: ضيف. قال: مرحباً وأهلاً
 بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت وماء فشربت فتذكرت ما مر بي بالأمس فتيسمت، فقال: سم تيسمك؟ فقصدت
 عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلمها وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيته هي
 أختي وإن بعلمها أخو امرأتي هذه، فغلب على كل طبع أهله. وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة وأخبارهم ونوادهم
 شهيرة، وفيما ذكرته كفاية. وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ولا حول ولا قوة
 إلا الله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الطعام وآدابه والضيفة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما بإباحة الطيب من الطعام: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢) وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] ﴿قُلْ مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتِ مِّنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال رسول الله ﷺ: «محرم الحلال كمحلل الحرام». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه». وكان الحسن رضى الله تعالى عنه يقول: ليس فى اتخاذ الطعام سرف. وسئل الفضيل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص^(١) للزهد، فقال: ما للزهد وأكل الخبيص؟ ليك تأكل وتتقى الله إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف يرك بولديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار وكيف رحمتك للمسلمين وكيف كظمك للغيط وكيف عفوك عن ظلمك وكيف إحسانك إلى من أساء إليك وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوذ الأطعمة وما جاء فيها: فقد نقل الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالوذج والورنج أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين لا أقضى على غائب، فأحضرهما إليه، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ثم قال: يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته. واختلف الرشيد وأم جعفر فى الفالوذج والورنج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى، فقال له الرشيد: أحكم. قال: قد اصططح الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك ربيعة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً. وسمع الحسن البصرى رجلاً يعيب الفالوذج فقال: لياب البر بلعاب النحل بخالص السن ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعي: أول من صنع الفالوذج عبد الله بن جدهان. وأتى أهرابى بفالوذج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال: هذا وحياتك الصراط المستقيم. وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبي الندراء رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم». وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة وهو يزيد فى السمع ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل». وكان يحب البباء^(٢) ويقول: «يا عائشة إذا طبختن قدرًا فأكثروا فيها من البباء فإنه تشد القلب الحزين وهى شجرة أضى بونس». وعنه ﷺ أنه قال: «عليكم بالقصر فإنه يشد الفؤاد ويزيد فى الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ويغفر الذمعة». وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يقول: أكل التمر أمان من القولنج وشرب العسل على الريق أمان من الفالج، وأكل السفرجل يحسن الولد وأكل الرمان يصلح الكبد والزبيب يشد العصب ويذهب بالنصب والوصب والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة وكان يأكل على سباط معاوية ويصلى خلف على ويجلس وحده. فتل عن ذلك فقال: طعام معاوية آدمس، والصلاة خلف على أفضل، وهو أعلم والجلوس وحدي لى أسلم. وسميت التركلية بالتكول والمأمونية بالمأمون، وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون: الأرز يزيد فى العمر فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إن طب الهند صحيح وهم يقولون: إن الأرز يرى منامات حسنة، ومن رأى مناماً حسناً كان فى نهارين فاستحسن قوله ووصله. وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبي الحرث: ما تقول فى الفالوذجة؟ قال: وددت لو أنها ملك الموت اعتلجا فى صدرى والله لو أن موسى لقى فرعون بالفالوذجة لآمن ولكنه لقيه بعضا. وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح، حتى كان زمن معاوية رضى الله تعالى عنه فانتخذ الألوان. ويقال للمرقة المسخنة: بنت نارين وكان بعض المترفهين يقول: جنبوا مائدتى بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقى اللحم فى العسل ثم أخرج بعد شهر طرياً فإنه لا يتغير. ويقال للسكرابج^(٣): سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد. ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد أقيت عن معدتك ثلث المؤنة، ويقال للنخيز: ابن حبة. قال بعضهم:

(٣) السكرابج: لحم يطبخ بعسل.

(٢) البباء: الغرغرة.

(١) الخبيص: الحلو.

فى حَبَابَةِ الْقَلْبِ مَنِى

ورعت حُبَّ ابْنِ حَسْبَةِ

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفته: أكرموا الخبز قالوا: وما كرامته يارسول الله؟ قال: «لا ينظر به إلا آدم إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤثروا بشيره». وفى الحديث: «من دارم على اللحم أربعين يوماً قسا قلبه ومن تركه أربعين يوماً ساء خلقه»، وقيل: المائدة التى أنزلت على بنى إسرائيل كان عليها كل يقول إلا الكراث، وسكة عند رأسها خيل وعند ذنبها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان. ودخل ابن قزعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه مور فتأخر عن استعداده، فقال: ما بال مولانا ليس يدعونى إلى الغور بأكل المور؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه فقال: ما الذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية كأنه حشيت زبدًا وصلًا، أطيب الشعر كأنه مغ الشحم، سهل المقشر لين المكسر عذب المطعم بين الطعوم سلس فى الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع رجلاً يذم الزبد فقال له: ما الذى ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه أم صحوية مدخله أم خشونة ملمسه؟ وقيل له: ما تقول فى الباذنجان، فقال: أذئاب للحاجم ويطون العقارب ويזור الزقوم. قيل له: إنه يحشى اللحم فيكون طيبًا، فقال: لو حشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح. وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاران: هل عمل كسرى مثلاً؟ فاستغفاه، فأقسم عليه فقال: أكرم عبدٌ عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، فى يد كل واحدة إبريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرقًا. وأهدى رجل إلى آخر فالودجة زينة وكعب إليه: إني اخترت لعملها السكر السوسى والعسل الماردانى والزعفران الأصهبانى، فأجابه والله العظيم ما عملت إلا قيل أن توجد أصهبان وقيل أن تنفع السوس وقيل أن يوحى ربك إلى النحل. وقيل: إن أبا جهم بن عطية كان عتيًا لأبى مسلم الخولانى على المنصور، فأحس المنصور بذلك فطاوله الحديث يوماً حتى عطش، فاستسقى فدعا له بقدر من سوق اللوز فيه السم فطاوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك:

تَجَنَّبَ سَوِيْقَ اللُّوزِ لِأَنَّهُ سَرِيْنُهُ فَشُرِبُ سَوِيْقِ اللُّوزِ أَرَادَى أَبَا جَهْمٍ

وقال أبو طالب للمأمون:

فَمَا حَمَلْتُ كَفَّ أَمْرِى مَطْعَمًا الذِّى وَأَشْبَهَى مِنْ أَصَابِعِ زَيْبٍ

وأصابع زيب ضرب من الحلوى يعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المتقوَّشة. ودخل السائب على رضى الله عنه فى يوم شات، فطاوله فدحا فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربت له تزل دفنا شعبان مائر يومك. وعن نافع بن أبى نافع قال: كان أبو طالب يعطى عليًا قدحًا من اللبن يصبه على اللات، فكان على يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد فى المأكَل: فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم من لا يقدر عليه. قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: والذى بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل ولا أكل رسول الله ﷺ خبزاً منخلًا منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض، قيل: فكيف كنتم تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف أف. وعن جابر رضى الله تعالى عنه رفته: نعم آدم الخل وكفى بالمرء سرفًا أن يتسخط ما قرب إليه. وقال عمر رضى الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ آدمان إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضى الله عنها: ما كان يجتمع لزنان فى لقمة فى قم رسول الله ﷺ، إن كان لحمًا لم يكن خبزًا وإن كان خبزًا لم يكن لحمًا، وعن النبي ﷺ أنه قال: يا على إبدأ بالملح واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء. وروى أن نبيًا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكى إلى الله الضعف فأمره أن يطبخ اللحم باللبن فإن القوة فيهما. وسنذكر فضل الزهد فى المأكَل والمشرب فى باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء فى آداب الأكل: فقد قال رسول الله ﷺ: «من قال عند مطعمه ومشر به اسم الله خير الأسماء بسم الله رب الأرض والسماء لم يضره ما أكل وما شرب». وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال: «بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وعليك خلقه»، وقال ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذى أطعمتنى هذا ورزقتنى من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن ليس ثوباً فقال: الحمد لله الذى كسأتى هذا ورزقتنى من غير حول منى ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسى فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره». وفى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: «قال: رسول

الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»، وقال ﷺ: «الأكل في السوق ذناء». وعن أنس رضي الله تعالى عنه «أن النبي ﷺ رجع عن الشرب قائماً قال: فسألناه عن الأكل قائماً فقال: هو شر من الشوب». وأوصى رجل من خدم الملوك ابنه فقال: إذا أكلت فقم شفتيك، ولا تلتفץ بيناً ولا شمالاً ولا تلتفمن بسكين ولا تجلس فوق من هو أشرف منك وأرفع منزلة، ولا تبصق في الأماكن النظيفة. ومن هذا ما رواه الزهري أن النبي ﷺ نهى عن التفتخ في الطعام والشراب، وقال على رضي الله تعالى عنه: «نهى رسول الله ﷺ أن يؤكل الطعام حاراً». وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط إن اشتهاه أكله ولا تركه». وقال عمر بن حبيشة: عليكم بمباكرة الغداء فإن مباكرته تطيب النكهة وتعين على المروءة قيل: وما إعنته على المروءة؟ قال: أن لا تتوق نفسك إلى طعام غيرك. وعن النبي ﷺ قال: «من أكل من سقط المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده وولد ولده من الحمق»، وعنه ﷺ: «من سقط شيئاً من الطعام فأكله حرم الله جلده على النار». وكان الحرث بن كلفة يقول: إذا تغدى أحدكم فليتم على غذائه، وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة. وقيل: خير الغداء بواكره وخير العشاء سوافره. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتبع الرجل بصره لقمة أخيه. وقال الحجاج لأعرابي يوماً على سباطه: أرفق بنفسك فقال: وأنت يا حجاج اغضض من بصرك. وقال معاوية لرجل على مائدته: خذ الشمرة من لقمته فقال: وإني تراعى مراعاة من يرى الشمرة في لقمته، لا أكلت لك طعاماً أبداً. ووضع معاوية بين يدي الحسن بن علي رضي الله عنهما دجاجة، ففكها فقال معاوية: هل بينك وبين أمها عداوة؟ فقال الحسن: فهل بينك وبين أمها قرابة؟ أراد معاوية أن الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالأدب والرسوم المستحسنة رضي الله تعالى عنهما. وأخضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدى مشوى فجعل الأعرابي يسرع في أكله منه، فقال له الخليفة: أراك تأكله بحدرك كأن أمه نطحتك، فقال: أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك.

وأما ما جاء في كثرة الأكل: فقد روى عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «من قل طعامه صح بطنه وصفا قلبه، ومن كثر طعامه سقم بطنه وقسا قلبه». وعنه ﷺ: «لا تغشوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزروع إذا كثر عليه الماء مات». وقال ﷺ: «ما زين الله رجلاً بزيئة أفضل من غفاف بطنه»، وقال عمرو بن عبيد: ما رأيت الحسن ضحاكاً إلا مرة واحدة، فقال رجل من جلسائه: ما آذاني طعام قط فقال له آخر: أنت لو كانت في معدتك الحجارة لطحنتها. وقال على كرم الله وجهه: البطنة تذهب الفطنة. وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأيت الرجل نهماً شرهاً أخرجه من طبقة الجند إلى باب الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار. وتقول العرب: أقلل طعاماً تحمد ناماً، وكانت العرب تعير بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا:

لست بأَكْثالٍ كأكَلِ العسْبِ
ولا بنوام كنوم الفسْـهـ

وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد:

إذا لم أرَ إلا لأَكْلٍ أَكَلَةً
فلا رغبعت كفى إلى طعامي

فما أكلةٌ إن نلتها بغنيمةٍ
ولا جوعَةٌ إن جمعتها بغرام

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاماً فالتقى بين يديه ثوراً فأكل فأكثر فقال ﷺ: «إن كثرة الأكل شؤم». وقالوا: الوحدة خير من جليس السوء، والجليس السوء خير من الأكل السوء. وشكا أبو العيناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر، فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل، ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد، ودعت أبا الحرث حبيبة له، فحادثته ساعة، فجاء فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشتغلك عن الأكل، قال: جعلت فداك لو أن جميلاً وبنيته قعدا ساعة لا ياكلان ليصق كل منهما في وجه صاحبه واقتراقا.

وأما أخبار الأكلة: فقد قيل: إن وهب بن جرير سأل مسيرة البراش عن أعجب ما أكل، فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك بليح. ومر مسود المذكور يوماً بقرم وهو راكب حماراً، فدعوه للمضيافة، فذبحوا له حماره وطيخوه، وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه، فقيل له: هو في بطنك. وقال المتعمر بن سليمان: قلت لهلال المازني ما أكلة يلفتني عنك، قال: جعت مرة ومعى بعير لي، فنحرته وموتوه وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئاً يسيراً حملته على

ظهرى، فلما كان الليل أورد أن أجامع أمة لى، فلم أقدر أن أصل إليها، فقالت: كيف تصل إلى بيتنا جمل، فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة، فقال: أربعة أيام. وقال الأصمعي: إن سليمان بن عبد الملك كان شرهاً نهماً وكان من شره أنه إذا أتى بالنفود عليه الدجاج السمين المشوى لا يصبر إلى أن يبرد، ولا أن يؤتى بمندبل، فيأخذ بكفه، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها، فقال الرشيد: ويحك يا أصمعي ما أحملك بأخبار الناس إلى عُرْصَتِ عَلَى جِباب سليمان، فرأيت فيها آثار الدهن، فظنته طيباً حتى حدثنى، ثم أمر لى بجمبة منها، فكتت إذا لبستها أقول هذه جمبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إلى، وقال: يا شمردل: ما عندك ما تطعمنى؟ قلت: عندى جدى كأعظم ما يكون سمناً، قال: عجل به فأتيت به كأنه عكة سم، فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذلاً قال: هلم يا أبا جعفر، فقال: إني صائم فأكله، ثم قال: يا شمردل ويحك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن افخاذ نعام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سويق كأنه قراصة الذهب، فأتيته به، فعبه حتى أتى عليه، ثم قال يا غلام: أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم. قال: ماهو؟ قال: نيف وثلاثون قدرأ، قال: اتنى بقدر قدر، فأتاه بها وسعه الرقاق، فأكل من كل قدر ثلث، ثم مسح يده واستلقى على فراشه وأذن للناس فدخلوا، وصف الخوان، فقمعد وأكل مع الناس. وكان هلال ابن الأسمر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النبيذ، وكان غليظاً عتلاً وقال أعرابى لرجل رآه سمياً: أرى عليك قطعة من نسج أضراسك. وقال أبو المحسر الأعرابى: كانت لى بنت تجلس على المائدة فيبرز كفاً كأنها صلفه فى ذراع كأنه جمار، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصبرت أجلس على المائدة مع ابن لى فيبرز كفاً كأنها كرنافة، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكى حوت يونس فى جودة الاتظام، وعصا موسى فى سرعة الالتهام.

وقيل لأبى مرة: أى الطعام أحب إليك؟ قال: لحم سمين وخبز سميد أضرب فيه ضرب ولّى السوء فى مال البيت. وقال صدقة بن عبد المازنى: أولم لى أبى لما تزوجت، فجعل عشر جفان ثريد من جزور، فكان أول من جانا هلال المازنى، فقدمنا له جفنة مترعة، فأكلها، ثم أخرى، فأكلها، حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقربة مملوءة من النبيذ، فوضع طرفها فى شدقه وفرغها فى جوفه، ثم قام فخرج وأستأفنا عمل الطعام. وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكالات، فخرج يوماً يريد الكوفة، فقال له رجل من بنى شيبان: الغداء أصلىح الله الأمير، فزل، فذبح له عشرين طائرأ من الأورد، فأكلها، ثم قدم الطعام، فأكل ثم أتى بزيتلين فى أحدهما تين، وفى الآخر بيض، فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه، ثم رجع وهو جائع. وكان ميسرة البراش يأكل الكيش العظيم ومائة رغيف، فذكر ذلك للمهدى، فقال: دعوت يوماً بالنفيل وأمرت، فآلفى إليه رغيف رغيف، فأكل تسعة وتسعين، وآلفى إليه تمام المائة، فلم يأكله.

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالمشقى ولايشيح. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضّر العسل، فحملة وجاء، فوجده قد أكل الخبز، فأتى بخبز فوجده قد أكل العسل، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصدك؟ قال: إلى الأردن. قال: لماذا؟ قال: بلفتنى أن بها طيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدنى، فأتى قليل الشهوة للطعام، فقال له الراهب: إن لى إليك حاجة، قال: وما هى؟ قال: إذا ذهبت وأصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك على.

وأما الهازلة على الطعام: فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن رضى الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضى الله عنها: كان عندى رسول الله ﷺ، وسودة فصنعت حرية، فجئت به، فقلت لسودة: كلى، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لأطبخن وجهك، فقالت: ما أنا بذاقته، فأخذت من الصلصة شيئاً، فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها، فتناولت من الصلصة شيئاً، فلطخت به وجهى، وجعل رسول الله ﷺ يضحك. واشترى غنر

يوماً سمكاً وقال لاهله: أصلحوه، ونام، فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما اتته قال: قدموا لى السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا، قالوا: شم يدك، ففعل، فقال: صدقتم، ولكن ما شيعت. ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم، فقال: لقد ذكرتمونى ضيف إبراهيم وقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] ثم قال: كلوا رحمكم الله فضحكوا، وأكلوا. والحكايات فى ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام: فقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ولا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «من أكل وذو عيىن ينظر إليه ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له». وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع. وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخذك الله خليلاً؟ قال ثلاث: ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذى لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لى به، ولا تغديت ولا تمشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهرى إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لأحدثه عشرة أيام. وقالوا: المائدة مروهقة. أى من كان مضيفاً وسع الله عليه، وقالوا: أول من سن القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأول من ترد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أقطر جيرانه على طعامه فى الإسلام عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائد على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تجونى إلى أن أفد الناس، فما استحسنه من أخلاقهم اتبعته وما استقبحت اجتنبتها.

وأما آداب المضيف: فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى وبسط الوجه، فقد قيل: البشاشة فى الوجه خير من القرى، قالوا: فكيف بمن يأتى بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوى رحمه الله هذا الكلام بأبيات، فقال:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً	قراك وأرأمته لديك مالكا
فكن باسمافى وجهه سهلاً	وقل مرحباً أهلاً ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى	عجولاً ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت مالفت متقدماً	تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى	فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

وقالت العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول هلة وإطالة الحديث عند المؤكلة، وقال حاتم الطائى:

سلى الطارق المعتبر يا أم مالك	إذا ما أتانى بين نارى ومجزرى
ألبط وجهى إنه أول القبرى	وأبذل معروفى له دون منكبرى

وقال آخر فى عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابن جعفر خير فتى	وخيرهم لطارق إذا أتى

ولله در القائل:

الله يعلم أنه ما سررتنى	شئ قطارقة الضيفوف النزول
ما رلت بالترحب حتى خلتنى	ضيفاً له والضيف رب المنزل

أخذه من قول الشاعر:

يأضيح فمنا لو ورتنا لوجدتنا نحن الضيف وف وئت رب المنزل

وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلنا رحب لمن زاره نحن سواء فسيه والطارق
وكل ما فسيه حلال له إلا الذي حرّمه الخالق

وقال الأصمعي: سألت عينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أوّما سمعت قول عاصم بن وائل:
وإنّا لتقرى الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك
وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل راحله ويخصب عندى والمحلّ جديب
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ولكنّما وجه الكريم خصيب
وقال آخر:

عودت نفسي إذا ما الضيف نبهني عقرت العشار على عسر وإيساره
ومن آداب المضيف أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف قال الشاعر:

مطية الضيف عندى تلو صاحبه لن يامن الضيف حتى تكرم القرمسا

وقال علي بن الحسين رضى الله تعالى عنهما: من قام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجل؟ ﴿وامرأته قائمة﴾ [هود: ٧١]. ومن آداب المضيف أن يحدث أضيافه بما قيل إليه نفوسهم، ولا ينام قبلهم، ولا يشكو الزمان يحضورهم، ويبش عند قدومهم، ويتالم عند وداعهم، وأن لا يحدث بما يروعههم به. كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحاق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريّة في بكرة نهار فدخلت، فأحضرت لنا الهريّة فاكلنا، فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طبائخه، فاستدعى خادمه، فأسر إليه شيئاً لم تعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية، فإذا يد الطباخ مقطوعة تخرج، فتكدر علينا عيشنا وقمتنا من عنده ونحن لا نتعلّق. فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه كيفما أمكن ولا يغضب على أحد يحضورهم، ولا ينقص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكداً، ولا ينهر أحداً ولا يشتمه يحضرتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن.

كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه وعمل لهم سماعاً وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ويأتسون به، ففى آخر النهار صعد إلى السطح، فسقط فمات لوقت، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تيكى إلى أن تصبح، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده، فقال: هو ناتم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم: إن رأيتم أن نصلى على ولدى، فإنه بالأمس سقط من على السطح، فمات لسانه، فقتالوا له: لم لا نخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لسافل أن ينص على أضيافه في التنازع ولا يكثر عليهم فى عيشهم، فتصحبوا من صبره وتحمّله، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على السلام وحضروا دفنه وبكوا عليه وانصرفوا، وعلى المضيف أن يامر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقّد غلماتهم بما يكتيهم، ويسهل حجابهم وقت الطعام ولا يمنع وأردا. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ويحتز عن العدو، فقال: إن عدواً يأكل طعامنا ولا يندفع لايكفه الله منا، والايق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة عليه، وعليه أن يهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيق المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الظرف إن كان من أهل ذلك، وأن يرى أضيافه سكان الخلاه، فقد قيل عن ملك الهند أنه قال: إذا ضافك أحد فأره الكثيف فإني ابتليت به مرة، فوضعت في قنوسى. وقالوا: لا بأس أن يدخل دار أخيه يستطمم للصدقة الوكيدة.

وقد قصد النبي ﷺ والشيخان منزل الهيم بن التيهان وأبى أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضى الله تعالى عنهم. وكان لعون بن عبد الله السعوى ثلاثمائة وستون صديقاً، فكان يدور عليهم فى السنة، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه، فيأكل وهو غائب، فقد دخل رسول الله ﷺ دار بيرة رضى الله عنها، فأكل طعامها وهى غائبة، وكان الحسن رضى الله عنه يوماً عند بقال، فجعل يأخذ من هذه الجبونة تينة ومن هذه فسطة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد فى الورع؟ فقال له: يا لكع ائتل على آية الأكل، قتلا: «ولا أعلى أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم» إلى قوله: «أو صديقكم» [التور: ٦١] فقال الصديق: من استروحت إليه النفس وأطعمان إليه القلب، وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعهم عن ذلك قلّة ما فى يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة وحشفت التمر. ويقولون: ما ندرى أيهما أعظم ورراً الذى يحترق ما قدم إليه أو الذى يحترق ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من ألقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف».

حكى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه كان ناولاً عند الزعفرانى ببغداد، فكان الزعفرانى يكتب فى كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية، فأتى الشافعى منها يوماً وألقى فيها لوتاً آخر، ففرغ الزعفرانى ذلك، فأعنت الجارية سروراً بذلك، وكانت سنة السلف رضى الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهى. ومن السنة أن يشبع المضيف المضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من غيرته، فقد قيل: ثلاثة تضى: سراج لا يضىء، ورسول بطوء، ومائدة ينتظر لها من يضىء، ونزل الإمام الشافعى رضى الله عنه بالإمام مالك رضى الله عنه، فصب بنفسه الماء على يديه وقال له: لا يترك ما رأيت منى، فخدمة المضيف على المضيف فرض؟

اعرض طعامك وابذله لمن أكسلا
واحلف على من أبى واشكر لمن فعللا
ولا تكن سابري العري محترماً
من القليل فلت الدهر محتسبلاً

ومن البخلاء من يعزم على المضيف، فيعتذر له، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار، كأنه تخلص من ورطة، وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر المضيف بالصوم. ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف رايده ويشتهى أن تبقى على حالها، ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس، ويعتذر أن فى أصحابه من يحضر بالعادة عنده.

وحكى عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وريدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل المضيف من قبل أن يرفعه، فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز، فقال له: ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز، قال: نعم، وجعل يلحق العسل لعقة بعد لعقة، فقال له البخيل: مهلاً يا أخى والله إنه يحرق القلب، قال: نعم صدقت، ولكنه قليل.

وحكى عن بعضهم أنه قال: غلب على الجوع مرة، فقلت: أمضى إلى دار فلان لأتسدى عنده، فجئت إلى باب بيت فوجدت غلامه، فقلت له: أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتنى كسرة، قال: فرجعت هارياً. ومن البخل تقديم الشيء البير وتضييعه.

وحكى عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه، وأحضر له خبزاً وجبناً وقال له: لا تستقل الجبن، فإن الرطل منه ثلاثة دراهم، فقال له ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف، قال: وكيف ذلك؟ قال: أكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن، فأين هؤلاء من الذى يقول:

قالت أما ترحل تبغى الغنى - قلت فمن الطارق المعشم

قلت نعم جهده الفنى المعدم
فقد أطعم الضيف ولم أطعم
ليس الغنى بالمال والدرهم

قالت فـهل عندك شيء له
فكم وحق الله من لـيلة
إن الغنى بالنفس يـاهله

وقال بعض البخلاء:

لقد عملت فيه الظنون الكواذب
يعدد تطغسيل الضيوف وضارب

سرى نحونا يسغ القرى طارى الحشى
فبات له من إلى الصبح شاتم

فستان ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف: فهو أن يسادر إلى موافقة المضيف فى أمور منها: أكل الطعام، ولا يتعذر بشع بل يأكل كيف أمكن. فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف، فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام، فقال الضيف: لست بجائع، وإنما احتاج إلى مكان أبيت فيه، فقال الأعرابى: إذا كان هذا، فكن ضيف غريبى، فبأنى لا أرى أن تمدحنى فى البلاد وتهجونى فيما بينى وبينك.

وحكى عن بعض التجار قال: استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قماشاً من تجارتى، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفساقية قد حضرت فقامت من مجلسه، فقال: يا فلان. ما هذا الخلق العامى؟ اجلس، فجلست وتحققت كرمه وجعلت أكل الكمثرى فى لقمة والتفاحة فى لقمة، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً فأكلت جيداً ثم انصرفت، فلم أشعر فى اليوم الثانى إلا وقد جاعنى غلامه بيلغته، فاستدعانى إليه، فقال: يا فلان إنى قليل الأكل بطيء الهضم، ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس، فأريد أن لا نتقطع بعدها عنى، قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلى، فحصل له بقرى منه مال كثير وجاء عريض.

ومن آداب الضيف أيضاً أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحرم وأن لا يخالفه إذا أجله فى مكان وأكرمه به، وأن لا يتبع من غسل يديه. وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها. فقد نقل فى بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عريداً على أضيافه سبى الخلق بهم، فبلغ ذلك من الأذكياء، فقال: الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أنطق عليه لأرى حقيقة أمره، قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفى. قلت: نعم فسار بين يدى إلى أن جاء إلى باب داره، فأذن لى، فدخلت، فأجلستنى فى صدر مجلسه، فجلست حيث أجلستنى، وأعطانى مسنداً، فاستندت إليه، فأخرج لى شطرنجاً، وقال: أتقن شيئاً؟ قلت: نعم. فلعبت معه، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطلبه، وأنا أكل، فلما فرغنا قدم طشتاً وإبريقاً وأراد أن يكب الماء على يدى، فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدى بعد أن قدم نعلنى، فلم أرده عن ذلك، فلما أراد الرجوع. قلت: ياسيدى أشدك الله إلا فرجت عسى كربة؟ قال: وما هى؟ فأخبرته الخبر، فقال: والله ما يحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى دارى، فأجله فى الصدر، فبأنى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام، فلا أتخفه بشيء مستظرف إلا رده على، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه، فلا يمكننى من ذلك، فأقول فى نفسى لا يحكم الإنسان على نفسه حتى فى بيته، فعند ذلك أشتمه وألعه وأضره، وفى معنى ذلك يقول بعضهم:

إن كان ذا حـزم وطـبع لطيف
إن شاء أن ينصف أو أن يحـصيف

لا ينبغى للضيف أن يعتـرض
فالأمـر للإتـمان فى بـيـتـه

ومما يعاب على الضيف أمور منها كثرة الأكل المفرط، إلا أن يكون بدوياء، فإنها عادته. ومنها أن يتبع طريق الشربين

كمن يتخذ معه خريطة مشعة يقلب فيه الزبادى والأوراق والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى على اسم ولده الصغير. ومنها: قبح المأكلة، وقد عد فيها عيوب كثيرة، فمنها: المتشاور والعداد والجراف والرفاش والنفاض والقراض والبهات والثلاث والعوام والقسام والمخلل والمزيد والمرنخ والمرش والمقش والمنشف والمليب والصباغ والنفاخ والحامى والملجنح والشطرنجى والمهندس والمتمنى والفضولى.

فأما المتشاور: فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام، فلا تراه إلا متعلماً لناعية الباب يظن أن ما دخل هو الطعام. وأما العداد: فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى ويعد على أصابعه، ويشير إليها، ويتسبب نفسه. والجراف: هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر. والرفاش: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ويرتشفها، فيسمع لها حين البلع حس ولا يهفى على جلسائه، وهو يلتذ بذلك. والنفاض: هو الذى يجعل اللقمة فى فيه وينفض أصابعه فى الزبدية. والقراض: هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ويضعها فى الطعام بعد ذلك. والبهات: هو الذى يهت فى وجه الأكلين حتى يهتهم، ويأخذ اللحم من بين أيديهم. والثلاث: هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام. والعوام: هو الذى يميل ذراعيه يمنة ويسرة لاختد الزبادى. والقسام: هو الذى يأكل نصف اللقمة ويبعد باقىها فى الطعام من فيه. والمخلل: هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره، والمزيد: هو الذى يحمل معه الطعام. والمرنخ: هو الذى يرنخ اللقمة فى الأوراق، فلا يبلغ الأولى حتى تلين الثانية. والمرش: هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مأكليه. والمقش: هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه. والمنشف: هو الذى ينشف يديه من الدهن باللقم ثم يأكلها. والمليب: هو الذى يملأ الطعام لباباً. والصباغ: هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده. والنفاخ: هو الذى ينفخ فى الطعام. والحامى: هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه من مأكليه. والملجنح: هو الذى يزاحم مأكليه بجناحيه حتى يفسخ له فى المجلس، فلا يثق عليه الأكل. والشطرنجى: هو الذى يرفع الزبدية ويضع زبدية أخرى مكانها. والمهندس: هو الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه هنا، حتى يأتى قدامه ما يحب. والمتمنى: هو الذى يقول: ليتنى لم يكن سمى من يأكل. والفضولى: هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقى عندك فى القصور شيء، فاطعم الناس، فإن فيهم من لم يأكل.

ومن الأضياف من لا يلد إلا حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى السلام واقفاً والإبريق فى يده والناس ينتظرونه. ومنهم من يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما. ومنهم من يدخل بالدار فيستدئ بالهندسة أولاً، فيقول: كان ينبغي أن يكون باب المجلس من هنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون من هنا، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استمعى من الطعام، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة، فيتألم من انقطاعهم ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم.

ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يطل ولا ليلة واحدة، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال: أكلت فى بطنى، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت فى فمى. ومنهم من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه: اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئاً فأدفعه، فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن فى بيته شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يملك فداى شيء حضر. ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه شيئاً، فيقول: ما الذى قال المرلى لصاحبنا، وهو لا يريد أن يعلمه، ومنهم من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ويشكو الجوع ويظن أن ذلك بسط مكرام الأخلاق، وإنما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس. ومنهم من يقول لصاحب الدعوة: من يفتى ليها، فيقول: فلان، فيقول له: غلطت لم لا دعوت فلاناً، ومنهم من يسأل صاحب البيت، كيف قوته فى النكاح، فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى، أو يقول: ما لى قوة طائلة فى ذلك، فيقول: أنا والله كلما مر على عام تزايدت شهوتى وكثر لهذا الفن تبتوفى، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم من يشكو حاله مع أهل بيته ويذكر نفقته عليهم وكسوته لهن وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق وكبر النفس، لتستقل زوجة صاحب البيت ما هى فيه

مع زوجها، وربما كان ذلك سبباً لفراقها منه، ومنهم من تعجبه نفسه ويستحسن لباسه، ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد، وأظهر الطرب، وحرك رأسه، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يعيش وأن رسول صاحبة البيت لا يبطئ عنه، ومنهم من يقال له: اللعب الشطرنج، فيأباه ويستغل بالدندنة، فيقع في الفضول. ومنهم من يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده، ويظن أنه يدل عليهم، ومنهم من يقول له صاحب البيت: كل، فيقول: ما أكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم من يسمع السائل على الباب، فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه أو يقول للسائل: فتح الله عليك، ومنهم من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المتن وأكثر الناس واقع في ذلك. نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى العفو والحلم والصّفى وكظم الغيظ والاعتذار

وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد تدب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصّفى والعفو بقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. قيل: هو الرضا بلا عتب. وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت مصوراً مشرفاً على الجنة، فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس». وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: لما بعثن رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «ما زال جبريل عليه السلام يوصينى بالعفو، فلولا علمى بالله لظننت أنه يوصينى بترك الحدود». وقال الحسن بن أبى الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلا العاقلون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال على كرم الله وجهه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وكان المأمون رحمه الله تعالى يحب العفو ويؤثره، ويقول: لقد حبب إلى العفو حتى أتى أخاف أن لا أثاب عليه، وكان يقول: لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو لارتكبوها، وقال: لو علم الناس حصى للعفو لما تقربوا إلى إلا بالجنائيات. وقال على كرم الله وجهه: إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه، وقال رضى الله تعالى عنه: أقبلوا ذوى المروءات هزائهم، فما يعثر منهم عائر إلا ويده بيد الله يرفعه. وقال رضى الله عنه: إن أول عوض الحليم عن حلمه، أن الناس أنصار له على الجاهل. وقال المنصور: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم. وقال ابن المعتز: لا تشن وجه العفو بالتعريض به. وقيل: ما عفا عن الذنب من قرع به. وقال رجل لرجل سبه: إياك حنى، فقال له: وعنتك أعرض. وكان الأحف رحمه الله تعالى كثير العفو والحلم وكان يقول: ما أذنى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث: إن كان فرقى عرفت له فضله، وإن كان مشى تفضلت عليه، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه، وكان مشهوراً بين الناس بالحلم وبذلك ساد عشيرته، وكان يقول: وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال. وقيل له: من تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. كنا نختلف إليه فى الحلم كما يختلف إلى الفقهاء فى الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً، وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفاً، فقال: ذعرت أخى أطلقوه، واحصلوا إلى أم ولدى دينه، فزأها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصبيرا وتعضية إحسدى يدى أصابتنى ولم ترد
كلامهما خلف من فقد صاحبه هذا أخى حين أدمى به وذلى

وقيل: من عادة الكريم إذا قهر غفر، وإذا رأى رلة ستر. وقالوا: ليس من عادة الكريم سرعة الغضب والانتقام. وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره، ولم يحمد فى المعلن ذكره، والعرب تقول: لا سود مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيعة، وإن كان لابد من الانتقام، فليفرق فى انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجنان عجز عن العذر: ما هذا الوجوم وعهدى بك خطياً كُنْ؟ فقال: يا أمير المؤمنين ليس هذا موقف مباحاة، ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الأشر النخعى، ذكر له عنه أنه يميل إلى بنى على والتعصب لهم، فأمر بإحضاره فلما مئل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نعمتك، وعفوك أعظم من ذنبى، ثم قال:

فهبني مسيحاً كالذي قلت ظالمًا فعضواً جميلاً كي يكون لك الفضلُ
فلن لم أكن للعفسو منك لسوء ما اتيت به أهلاً فـانـت له أهل

فمعا عنه، وأمر له بصلة. وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً، فقال له: أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فمعا عنه وخلي سبيله. وأحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين إن إقرارى يلزمني ذنباً لم أقمله، ويلحق بي جرماً لم أتف عليه، وإتكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فلن كنت تبغى بالعقاب تشقياً فلا تزهدن عند التجاور في الأجر

فقال: لله درك من مختبر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وثابت جنانك وعفا عنه وخلي سبيله. وركب يوماً عمرو بن العاص رضى الله عنه بقله له شهياً، ومرو على قوم فقال بعضهم: من يقوم للأمير، فيأله عن أمه وله عشرة آلاف؟ فقال واحد منهم: أنا، فقام وأخذ يمينان بقلته، وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً، فلم ركب دابة إشهب وجهها؟ فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملى، ولا أمل رفيقي حتى يملى. فقال: أصلح الله الأمير، أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه فمن الأم؟ قال: على الخير سقطت. أمي النابتة بنت حرملة بن عزة سبتها رماح العرب، فأتى بها سوق عكاظ، فبيعت، فاشترأها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت، والمنجبت، فإن كان قد جعل لك جعل، فأرجع وخذه، وأرسل عن الدابة. وقيل: إن أمه كانت بغياً عند عبد الله بن جدعان، فوطئها في طهر واحد أبو لهب وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، فولدت عمراً، فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه، فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان يتفق عليها. وقالوا: كان أشبه بابي سفيان. وكان الواقش يتشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له: المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: لست به، فقالت: السلام عليك أيها الأمير، فقال لها: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقالت: ليسنا عندكم، فقال: إذا لايقت على وجه الأرض منك أحد لأنكم حاربتم على بن أبي طالب رضى الله عنه وكرم وجهه، ومنعتم حقه، وسممتم الحسن رضى الله عنه، ونقضتم شرطه، وقتلتم الحسين رضى الله عنه، وسببتم أمه، ولعنتم على بن أبي طالب رضى الله عنه على منابركم وضربتم على بن عبد الله ظملاً بسيطاكم، فعدلنا لايقتي منكم أحداً، فقالت: فليسنا عفوكم، قال: أما هذا فنعم، وأمر برد أموالها عليها، وبألف في الإحسان إليها.

وكان معاوية رضى الله عنه يعرف بالخلم، وله فيه أخبار مشهورة وآثار مذكورة، وكان يقول: إني لأتف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوى، وحاجة لا يسعها جودى، وهذه مروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يوماً: ما أشبه إبتك بإستك أمك، فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها. وكتب معاوية إلى عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه يعتذر إليه من شىء جرى بينهما، يقول: من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب. أما بعد، يابنى عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصى ولباب عبد مناف وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية وعقولكم الكاسية؟ وقد والله أسماء أمير المؤمنين ما كان جرى، ولن يعود مثله إلى أن يغيب في الثرى، فكتب إليه عقيل يقول:

صدقت وقلت حقاً غير أنى أرى أن لا أراك ولا تـرأى
ولست أقول سوءاً فى صديقى ولكننى أصـد إذا جـفـانـى

فركب إليه معاوية رضى الله عنه، وناشده فى الصفح عنه، واستعطفه حتى رجع.

وحكى عنه رضى الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور واستلأت منه الصدور، وأذن أمره الجمهور، ومساعدته فى مراده القدر المقدور، استحضرت ليلة خواص أصحابه وذاكرهم، وقائع أيام صفين، ومن كان يتولى كبر الكربة من المعروفين، فأنهمكوا فى القول الصحيح والمريض وأك حديثهم إلى من كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم

بزيادة التحريص، فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة: يا أصحاب على تسمعون كلاماً كالصوامر، مستحثة لهم بقول لو سمعته الجبان لقاتل، والمدير لقابل، والمسلم لحارب، والفسار لكراً، والمتزلزل لاستضر. فقال لهم معاوية رضى الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه، قال: فما تشيرون على فيها؟ قالوا: نشير بقتلها، فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضى الله عنه: بشما اشرتم، وقبحاً لما قلتم أيحسن أن يشهر عنى أننى بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفّت لصاحبها، إنى إذا للميم، لا والله لا فعلت ذلك أبداً. ثم دعا بكتابه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدى مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهد لها وطاء ليناً ومركباً ذلولاً، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها، فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزازعة عن الطاعة، فحملها فى هودج، وجعل غشاه خزاً مبطناً، ثم أحسن صحبتها، فلما قدمت إلى معاوية قال لها: مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة، وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير مسير، فقال: هل تعلمين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. قال: ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم، قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ووتر الذنب، والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك، وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله، قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء فى الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالة فاصابها، فصرى يامعشر المهاجرين والأنصار، فكانكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوى الحق والمبطل، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَتَوَّعُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، اتوا الحرب غير ناكسين، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء. أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك، قال: لقد شاركت علياً فى كل دم سكه، فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك. مثلك من يشرب بخير ويسر جليسه، فقال معاوية: أوقد سرك ذلك؟ قالت: نعم، والله لقد سرنى قولك وأنى لى بتصديقه، فقال لها معاوية: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلى من يحكم له فى حياته، فاذكري حوائجك تقضى. فقالت: يا أمير المؤمنين إنى آليت على نفس أن لا أسأل أحداً بعد على حاجة، فقال: قد شار على بعض من عرفك بقتلك، فقالت: لؤم من المشير، ولو أطمعت لشاركتك، قال: كلا بل نفعو عنك ونحسن إليك ونرعاك، فقالت: يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عن أسماء و أعطى من غير مسألة، قال: فأعطاهما كسوة ودراهم، وأقطعها ضيعة تغل لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والى الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل: كان لعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتاباً إلى معاوية يقول له فيه: أما بعد، يا معاوية، إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى، فأنهم عن ذلك، وإلا كان لى ولك شأن، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بنى ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال: بل غير ذلك خير منه يا بنى، ثم أخذ ورقة، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه: أما بعد، فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله ﷺ، وسأته ما ساءه، والدنيا بأسرها هيئة عندى فى جنب رضاه، نزلت عن أرضى لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما على كتاب معاوية رضى الله عنه، كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأى الذى أحله من قریش هذا المحل والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير، وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد، فلما قرأه تهلل وجهه، وأسفر، فقال له أبوه: يا بنى من عفا ساء، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إلى القلوب، فإذا ابتليت بشئ من هذه الأدواء، فدأوه بمثل هذا الدواء.

ولما دخل القيل من دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه. فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمه، فأتى الحجر ودق الباب، فلم يكن من فتحه يد، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي، وأنت في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت الرجل وقال: حملك أوقعتي، فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسترها علي، قال: نعم. فمفا عنه وخطى سيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب السر من الجاني، وهو عروض قول الشاعر:

إذا مـررـضـتم أـتـيـتـك نـعـودكم وتـذـنـبـون فـتـأـيـبـكم ونـعـمـنـذرُ

وحكى عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال: ما رأيت رجلاً أربط جاشاً، وأثبت جنائاً من رجل سعى به إلى المنصور، أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية، فأمرني بإحضاره، فأحضرته إليه، فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع، والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها، وأحضرها، ولا تكتم منها شيئاً، فقال: يا أمير المؤمنين وأنت وارث بني أمية؟ قال: لا، قال: فوصي لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما سالتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فاطرق المنصور، وتفكر ساعة، ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم، وأريد أن أخذ ما ظلموا المسلمين فيه، فأجعله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين، فيحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خاتوه وظلموه، فإن بني أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فاطرق المنصور ساعة، ثم رفع رأسه وقال: يا ربيع، ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه، ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إن تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، فوالله الذي لا إله إلا هو ما في يدي لبني أمية مال ولا ودعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً، فראيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاه. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به، فجمعت بينهما، فلما رآه قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي وأبى سعى وخاف من طلبة له، فسعى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشد المنصور على الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه وخوفاً من أن يقع في يده، فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه، فقال: قد عفوت عنه، واعتقته ووجهته الثلاثة آلاف التي أخذها وثلاثة آلاف أخرى أدفعتها إليها. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع: فكان المنصور يتعجب منه، وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسي، فدعا له بالنطع والسيوف فيكي، فقال له: ما ييكك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا يد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا، وأمير المؤمنين ساخط عليّ، فضحك وعفى عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته اتخذ. وأمر زياد بضرب عنق رجل، فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة، قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة، قال: ومن أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا أنسى اسم أبي؟ فرد زياد كمة على فمه، وضحك وعفا عنه. وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أتت غداً بين يديه أذل موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني، فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث أتى رجل من بني تميم، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأتنا في الذنب ما أحسنت في العفو، فقال الحجاج: أف لهذه الجليف؟ أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا؟ وعفا عنه وخطى سيله. وكان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقريباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرحم، ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي. وسئل الفضل عن الفتوة، فقال: الصنف عن عشرات الإخوان. وفي بعض الكتب المنزلة: أن كثرة العفو زيادة في العمر. وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا كُنْ مِنَ الْإِنْفُسِ﴾ [الرعد: ١٧] وقال يزيد بن مزيد: أرسل إلى الرشيد ليلاً يدعوني، فأوجست منه خيفة، فقال لي: أنت القتال: أنا ركن الدولة والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها؟ لا أم لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا، إنما قلت: أنا عبد الدولة، والثائر لها، فاطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه، ثم ضحك،

فقلت أحسن من هذا قولي:

خِلَافَةَ اللَّهِ فِي هَارُونَ ثَابِتَةً وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يَنْفَخَ الصُّوْرُ

فقال: يا فضل اعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح. وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل، فقال: ما أبيع بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستباه به، فأتعلق بأطوارك وأقول: أي رب سل مصعباً لم تقتلني؟ فقال: أطلقوه، فلما أطلقوه، قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خنفس عيش. قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقال:

أَيَا الْمَذْنِبِ الْخَطِيْءَ وَالْعَفْوَ وَامْسَحْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَنْبٌ لَمَا عُرِفَ الْعَفْوَ

وتغيط عبد الملك بن مروان على رجل، فقال: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت، فاصنع ما أحب الله، ففصاه عنه وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردى به الإنسان الخلم. وهو والله عليك أحسن من برد الحبر. وفيه قال أبو تمام:

رَفِيقٌ حَوَاشَى الْخَلْمِ لَوْ أَنَّ حَلْمَهُ يَكْتُمُكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بَرْدٌ

ويقال: الخليم سليم، والسفيه كليم، وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان: سكوتك على أشد من كلامك. شعر:

إِذَا كُنْتَ تَبْغِي شَيْمَةً غَيْرَ شَيْمَةٍ طُبِعَتْ عَلَيْهَا لَمْ تَطْعَمْ الضَّرَائِبُ

وعن علي بن الحسين رضى الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة: اذكرني إذا غضبت أذكرك إذا غضبت، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر، وارضى بصبرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة، فضر بها الغلام فتألمر عينها. فقالوا: إن غضب ابن عوان، فإنه يغضب اليوم، فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: «غضب الله». قال: فما يساعدن من غضب الله؟ قال: «لا تنضب». ويقال: من أطاع الغضب أضاع الأرب^(١). قال أبو العتاهية:

وَلَمْ أَرْ قِي الْأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُمْ عَدُوًّا لِعَقْلِ الْمَرْءِ أَعْدَى مِنَ الْغَضَبِ

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: كفى بالمرء إمناً أن يقال له: اتق الله فيغضب، ويقول عليك نفسك. وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل، فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه، فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقيل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الحلق في كلمة واحدة. قال: ترك الغضب. وقال المعتز بن سليمان: كان رجل من كان قبلكم يغضب، ويشد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، فاعطى كل صحيفة رجلاً. وقال للأول: إذا اشتد غضبي، فقم إلى بهذه الصحيفة وناولنيها، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فناولنيها. وكان في الأولى: «اقصر، فما أتت وهذا الغضب، إنك لست بإله إنما أتت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً». وفي الثانية: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». وفي الثالثة: «احمل عباد الله على كتاب الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك». روى أنه

(١) الأرب: الحاجة.

أنوشروان . وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب

وعن معاذ بن جبل، عن أنس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: مَنْ كَظَمَ غِيظَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَخْرِجَهُ فِي أَى الْحُورِ شَاءَ. وروى: «مَلَأَ اللَّهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا» وقال ابن السماك: أَذْنِبَ غِلَامٌ لَامْرَأَةً مِنْ قَرِيشٍ، فَأَخَذَتْ السُّوطَ، وَمَضَتْ خَلْفَهُ حَتَّى إِذَا قَارَبَتْهُ رَمَتْ بِالسُّوطِ وَقَالَتْ: مَا تَرَكْتُ السُّتْقَى أَحَدًا يَشْفِي غِيظَهُ. وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ لَعَلَّمَهُ: لِمَ أُرْسِلْتَ الشَّاةَ عَلَى عِلْفِ الْفَرَسِ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَغِيظَكَ، قَالَ: لَا جَمْعَ مَعَ الْغِيظِ أَجْرًا أَنْتَ حَرُّ لُوجَةِ اللَّهِ تَعَالَى. «وَاسْتَأْذِنَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَذَنَ لَهُمْ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: بَلَى السَّامُ عَلَيْكُمْ، وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَقَالَتْ: أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ: قَدْ قُلْتَ وَعَلَيْكُمْ». وَرَفَعَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَعْرَابِي يُقَالُ لَهُ: حَمْزَةٌ، سَرَقَ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْيَبْتَةُ، فَهَمَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بِقَطْعِ يَدِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ حَمْزَةٌ مِنَ السَّجَنِ يَقُولُ شِعْرُ:

يدى يا أمير المؤمنين أعينها
بمفوك أن تلقى مقاماً يشيها
فلا خير في الدنيا وكانت خبيثاً
إذا ما شمالاً فارقتها عيها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعه، فدخلت عليه أم حمزة وقالت: يا أمير المؤمنين بنى وكاسى وواحدى، فقال لها عبد الملك: بش الكاس لك هذا حد من حدود الله تعالى، فقالت: يا أمير المؤمنين اجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعهوا إليها، وخلي سبيله. شعر:

إذا ما طاش حلمك عن عسدي
وهان عليك هجران الصديقي
فلست إذا أخا عسقر وصنم
ولا لاخ على عهده وثيقي
إذا رل الرفصيق وأنت تمن
بلا رفقي بقتبيت بلا رفصيني
إذا أنت اتخذت أخاً جديداً
لما أنكرت من خلق عسنيقي
فما تدرى لعلك مستجير
من الرمضاء قرر إلى الحريق
فكس من سالك لطريقي أمن
أتاه مما يحاذر فى الطريقي

وشتم رجل رجلاً فقال له: يا هذا لا تفرق في شتمنا ودع للصالح موضعاً، فأنى أبيت مشاقة الرجال صغيراً، فلن أجبتها كبيراً، وإنى لا أكفى من عصي الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست، فطار الرشاش فى وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مخضب، فقال: يا مولاى «والكاظمين الغيظ» قال: قد كظمت غيظى، قال: «والعافين عن الناس» قال: قد عفوت عنك، قال: «والله يحب المحسنين» قال: اذهب، فأنت حر لوجه الله تعالى. وقيل: لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة، وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع منى كلمات أقولها. قال: قل، فأنشأ يقول:

رسموا بأن الصقر صادف مرة
عصفور بر ماقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه
والصقر منقض عليه يطير
إنى لمهلك لا أثمم لقمم
ولئن شويت فلانى لحقيسر
فتهان الصقر المدل بصيده
كرماً وأقلت ذلك العصفور

قال فعفا عنه وخلق سبيله . قال الشاعر :

أقرر بذنبك ثم اطلب تمأوزهم
عنه فإن جحود الذنب ذنبان
وقال بعضهم :

يتوجب العفو الفتى إذا اعترف
وتاب عما قد جناه واقتصر
لقوله قل للذين كفروا
إن يتهوا يُفقر لهم ما قد سلف
وقال آخر :

إذا ذكرت أياديك التي سلفت
أكد أقتل نفسي ثم يدركنى
مع قبيح فعلى وزلاتى ومجترمى
علمى بأنك مجبول على الكرم

وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه رأى مكران، فأراد أن يأخذه ليعززه، فشتمه المكران، فرجع عنه، فقيل له: يا أمير المؤمنين لما شتمت تركته، قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عززته لكنت قد انتصرت لنفسى، فلا أحب أن أضرب مسلماً لحية نفسى. وغضب المنصور على رجل من الكتاب، فأمر بضرب عنقه، فأنشأ يقول:

وإنما الكاتبون وإن أساءنا
فهنا للكرام الكاتبين

فعفا عنه وخلق سبيله وأكرمه . وقال الرشيد لأعرابى: بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة؟ قال: بحلمه عن سفيها، وعفوه عن ميثنا، وحمله عن ضعيفنا. لامنان إذا وهب، ولا حقوق إذا غضب، ربح الجنان سمح البنان، ماضى اللسان، قال: فأرأى الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه فى هذا الكلب لاستحق بها السؤدد. وقيل لمن بن ثلاثة: المواجهة بالذنب من السؤدد؟ قال: لا، ولكن أحسن ما يكون الصفع عمن عظم جرمه، وقل شفعاه، ولم يجد ناصراً. وقال محمود الوراق:

سألزم نفسى الصفع عن كل مذنب
فما الناس إلا واحد من ثلاثة
فأما الذى فوقى فأعرف قدره
وأما الذى دونى فلإن قال صنت عن
وأما الذى مثلى فلإن دل أو هفا
وإن عظمت منه على الجرائم
شريف ومشروف ومثل مقام
وأبج فسيه الحق والحق لازم
إجابته نفسى وإن لام لائم
تفضلت إن الحر بالفضل حاكم

وقال الأحف بن قيس لابنه: يا بنى إذا أردت أن تواخى رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك، وإلا فاحذره. قال الشاعر:

إذا كنت مختصاً لنفك صاحباً
فلإن كان فى حال القطيعة منصفاً
ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا
ويشتموا فشرى الألوام مسفرة
حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
لاصفح ذل ولكن صفح إكرام
وقال آخر:

وجـهـلـي رددناه بفـضـل حلومنا ولو اتنا شـئـنا رددنا بـالجـهـل

وقال الأحنف: إياكم ورأى الأوغاد، قالوا: وما رأى الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفح والعفوا عاراً. وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لأنيك سباً يدخل معك قبرك؟ فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سب رجل وهو يمشي في الطريق، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء، فهات، وقله ههنا، فإني أخاف أن يسمعك فتبان الحى فيؤذوك، ونحن لانتحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه، ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والحنا أصبت حليماً أو أصابك جهال

وقال آخر:

وإذا بغى باغ عليك بجـهـله فاقـضـلـه بالمعروف لا بالمنكر

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صديق ومن كذـب حليمي وأتني غـيـر صـمـمـه

ويروى في بعض الأخبار، أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته فلما عد السباط (١) أقبل الخادم وعلى كفه صحن فيه طعام، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة فثر فوقع من مقر الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك، فقال له: ويحك ماذا؟ فقال: أيها الملك إما صنعت هذا شحاً على عرضك، ثلثا يقول الناس إذا سمعوا ذنبى الله به تقتلنى: قتله في ذنب خفيف لم يضره وأخطأ فيه العبد، ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور. فصنعت هذا الذنب العظيم لتعلم في قتلى وترفع عنك الملامة. قال: فاطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك، انقصب فأت حر لوجه الله تعالى.

وحكى عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الأفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج معه إبراهيم المهدي عليه وبابه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان فلما بلغه الخبر قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو متشعب مع نسوة، فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال المأمون: لاسلم الله عليك ولا قرب دارك، استغواك الشيطان حتى حدثك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام. فقال له إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين فإن ولى النار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك، فإن أخذت فيحطك وإن عفوت فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات:

ذنبى إليك عظيم
فـخـبـرـك بـعـفـوك عـنـه
وأتيت أعظم منـه
مـن الكرام فـكـنـه
إن لم أكن فى فـعـالى

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع فى عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول

(١) السباط: هو سباط من الجلد يوضع عليه الطعام.

وأكثر مما تأمل، ولقد حيب إلى العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه، لا تريب عليك اليرم. ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام وإزالة شعثه وخلع عليه ورد أماله جميعها إليه فقال فيه مخاطباً:

رددت مالى ولم تبخل على به وقبيل ردك مالى قد حققت دمي
فإن جحدتك ما أوليت من كرم إني لبالكوم أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري، فقال له عباد: أيها الأمير أشدك الله لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري. فرق لهن واستحضرهن وإذا واحدة منهم كاليد، فقال لها الحجاج: ما أنت منه؟ قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول ثم قالت:

أحجاجُ إنما أن تمن بصرِكمه علينا وإما تقتلنا معاً
أحجاج لا تنفجع به إن قتلتَه ثماناً وعشرراً واثنين وأربعاً
أحجاج لا تنسرك عليه بناته وخالاته يتدبته الدهر أجماً

فبكى الحجاج ورق له واستوهبه من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر رضى الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، فاستأذن له عمر فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطيني الجزل ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وأن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضى الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكى أن رجلاً زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل فشرع فى أن يزن له ألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليحدث مع وكيله فى تلك الساعة فى أمر مهم فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها ثم نظر فى وجه الرجل فرأه كاد يموت من الوجع والحجل فاطرق الفضل بوجهه ثم قال للوكيل: أتندى لم أتيتك فى هذا الوقت؟ قال: لا، قال: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذى فى هذه الورقة، فأسرع عند ذلك الوكيل فى وزن المال وناوله الرجل قبضه وصار متحيراً فى أمره فالتفت إليه الفضل وقال له: طب نفساً وامض إلى سبيلك آمناً على نفسك فقبّل الرجل يده وقال له: سترتنى مترك الله فى الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى. فيجب على الإنسان أن يتمنى بهذه الاخلاق الجميلة والأفعال الجليلة ويتقضى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فقد كان أكثر الناس حلماً وأحسنهم خلقاً وأكرمهم خلقاً وأكثرهم تجارواً وصفحاً وأبرهم للمقتدر عليه نجحاً، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاءه فى العتاب: فقد قيل العتاب خير من الحقد ولا يكون العتاب إلا على رلة. وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حقائق المتحايين ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منقذ شعراً:

أستطو عليه وقلبي لو تمكّن من يدى غلهم غيظاً إلى عنقى
وأستعير له من سطوتي حقناً وأين ذل الهوى من عزة الحقن

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت فى سفر ومعى رجل من الأعراب فلما كان فى بعض المناهل لقيه ابن

عم فتعانقا وتعتابا وإلى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما: أنعما عيشاً إن المعتابة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة والمخاصمة تبعث العداوة ولا خير فى شيء ثمرته العداوة. قال الشاعر:

فدعْ ذكر العتَاب فرُبُّ شرٍّ طويْلُ حَاجٍ أوْلَهُ العَسَّابُ

وقيل: العتاب من حركات الشوق وإنما يكون هذا بين المتحابين قال الشاعر:

علامة ما بين المحبين فى الهوى عتابهم فى كل حق وباطل

وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه يقول:

عرضنا أنفُساً عزّت علينا عليكم فاستخف بها الهوانُ

ولو أنا رفَعناها لعزّت ولكن كل معروض مهانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وكنّت إذا ما جئت أنديتَ مجلى ووجهك من تلك البشاشة يقطرُ

فمن لى بالعين التى كنتُ مرةً إلى بها فى سالف الدعر تنظرُ

وقال أبو الحسن بن منقذ:

اخلاقك الغر الجايا ما لها حملت قذى الواشين وهى سلاف

ومرة رأيت فى عبيدك ما لها صدت وأنت الجواهر الشفاف

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه خط عليه:

اقرأ كتابك واعتبره قريباً فكفى بنفسك لى عليك حسيباً

أكلنا يكون خطاب إخوان الصفا إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوباً

ما كان عنى أن أجبت مثله أو كنت بالعتب العنيف مجيباً

لكننى خفت انتقاص مودتى فبعد إحسانى إليك ذنباً

وقال آخر:

أراك إذا ما قلت قولاً قبلته وليس لأقوالى لديك قبولُ

ومما ذاك إلا أن ظنك سىء بأهل الوفا والظن فيك جميل

فكن قاتلاً قتل الحماسى تائهاً بنفسك عجباً وهو منك قليل

ونشكر إن شئت على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنانته إضافة ثم ولى عملاً فأتى فقصدته محمد مسلماً فرأى منه تغيراً فكتب إليه:

لئن كانت الدنيا أثالثك ثروة
فقد كشف الإثراء منك خلاصاً
وقال آخر في المعنى:

فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنتَ ذا عسرٍ
من اللوم كانت تحت ثوبٍ من الفقر

دعوتُ الله أن تـمـمـو وتعلـو
فلما أن سموت بعدت عني

علو النجم في أفق السماء
فكان إذا على نفسي دعائي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرماً وابن عرادة يتجنى عليه فقارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عشت على سلم فلما فقدته
رجعت إليه بعد تجريب غيره
وقال سلم بن الوليد:

وصاحبت أقواماً بكيت على سلم
فكان كبره بعد طولٍ من السقم

ويرجى عني إليك إذا نأت بي
ديارى عنك تجسيرة الرجس
وقال أبو الحسن القاسبي:

إذا أنا عاتبت الملووم فلئما
وهبه ازعوى بعد العتاب ألم تكن

أخطأ بأقلامى على الماء أحرفاً
مروده طبعاً فصارت تكلفاً

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: معاتبة الصديق أهون من فقدته وما أحسن ما قيل في العتاب:

وفي العتاب حياة بين أقوام
وهو المحك لذى لبس وإيهام

فما ثم شيء أحسن من معاتبة الأحاب ولا الذم من مخاطبة ذوى الألباب والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الوفاء بالوعد وحفظ المهد ورعاية النعم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذى من تمسك به هداه ومن استدل به أرشده هداة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقال جل ذكره وتقدس اسمه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ [الرعد: ٢٠]. وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. والآيات فى ذلك كثيرة من أشدها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون] [الصف: ٢، ٣].

وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قاية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان. فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والحلال الحميدة، يعظم صاحبه فى العيون وتصدق فيه خطرات الظنون، ويقال: الوعد سحابة والإخهار مطره. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لكل شيء رأس ورأس المعروف تمجيده، وأنشدوا:

إذا قلت فى شيء نعم فــــأتمه فإن نعم دين على الحسـر واجب
ولا فقل لا تســــرح وترح بهـا لئلا يقول الناس إنك كاذب
وقال آخر:

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تحسود يد إلا بما تحسود
فلا تعد صدة إلا وفيت بهـا واحسرن خلاف مقال للذى تعد

وقال أعرابى: وعد الكريم نقد وتمجيل ووعد اللئيم مظل وتعليل وقال أعرابى أيضاً: العذر الجميل خير من المظل الطويل. ومدح يشار خالد بن برمك فامر له بعشرين ألفاً فأبطلت عليه فقال لقائده: أتمنى حيث يمر فأقامه فمر فأخذ بنجام بغلته وأنشأ يقول:

أظلت علينا منك يوماً سحابة أضاء لهما برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلى فيبأس طامع ولا غيمها يأتى فتسرى عطاشها
فقال: لا تبرح حتى تؤتى بها. وقال صالح اللخمي:

لئن جمع الأقات فالبحخل شرها وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير فى وعد إذا كان كساذباً ولا خير فى قول إذا لم يكن فعل

وقيل: ماتت للهذلى أم ولد، فأمر المنصور الربيع أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها، وأمر لك معها بقرس وكسوة وصلة. فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ونسيه المنصور، ففجع المنصور ومعه الهذلى فقال المنصور وهو بالمدينة: إني أحب أن أطوف الليلة المدينة فأطلب لى من يطوف بى. فقال الهذلى: أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة، فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه

الأحوص:

يا بيت عاتكة الذى أتخزل
إنى لامنحك الصدود وإننى
حذر العدا وبه الفسود مسوكل
قسماً إليك مع الصدود لأميل

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن ياله عنه فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم
مذاق اللسان يقول ما لا يفعل

فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلى فأنجزه له واعتذر إليه . وقال الشاعر:

تعجيل وعد المرء أكرومة
والخير لا يبطل معروفه
تنشبر عنه أطيب الذكسر
ولا يلين المطل بالخر

وقال آخر:

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد
أنعم على بما وعدت تكرم
لا خير فى وعد بغير تمام
فالطل يذهب بهجة الإنعام

وقال آخر:

لعبدك وعد قد تقدم ذكره
وقد جمعت فيك المكام كلها
فسأوله حميد وآخره شكر
فما لك عن تأخير مكرمة عنر

وقال آخر:

وميماد الكريم عليه دين
يذكره سلامك ما عليه
فلا تزد الكريم على السلام
ويغنيك السلام عن الكلام

وقال آخر:

شكاك لسانى ثم أسكت نصفه
فإن لم تنجز ما وعدت تركتني
فنصف لسانى بامسنداحك ينطق
وباقى لسانى بالمذمة مطلق

وقال آخر:

باتت لوعبدك عينى غير واقدة
هذا وقد بت من وعد على ثقة
والليل حى الدياجى منبت السحر
فكيف لو بت من هجر على حذر

وقال آخر:

نذكر بالرقاع إذا نسينا
ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالمعهد ورعاية اللحم: فقد نقل فيه من حجاب الوقائع وغراب البائع ما يطرب السامع ويشغف السامع، كفضية الطائي وشريك نديم النعمان بن المنذر، وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين يوم يؤس من صافه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بهام فاقته وقره، فأخرجته الفاقة من محل استقره ليرتاد شيئاً نصيبته وصغاره، فينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم يؤسه. فلما رآه الطائي علم أنه مقتول وإن دمه مطلوب، فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً وأهلاً جيعاً وقد أرتقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العيوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلى بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصول إليهم هذا البقوت وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعاً ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه على ضياع أطفاله رق له ورثى لحاله، غير أنه قال له: لا آذن لك حتى يضمك رجل معنا فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدى	ما من الموت انتهزام
من لأطفال ضمام	صدموا طعم الطعام
بين رجوع وانتظار	واقترار وسقام
يا أخ ما كل كريم	أنت من قوم كرام
يا أخ النعمان جد لي	بضممان والتزام
ولك الله بئسى	راجع قسبل الظلام

فقال شريك بن عدى: أصلح الله الملك، على ضمانه فمر الطائي مسرعاً وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع، وشريك يقول: ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائي فإن لم يكن فأمر الملك بمثل، قال: فينما هم كذلك وإذا بالطائي قد اشتد عدوه فى سيرة مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولي. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مر بأمرك فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيت أعجب منكما أما أنت يا طائي فما تركت لأحد فى الوفاء مقاماً يقوم فيه ولا ذكراً يفتخر به، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء. فلا أكون أنا ألام الثلاثة ألا وأنى قد رفعت يوم يؤسى عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي وكرم شريك. فقال الطائي:

ولقد دعيتى للخلاف عشي رتى	فعددت قولهمو من الإضلال
إنى امرؤ منى الوفاء سجيّة	وقعمال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: ديني، فمن لا وفاء فيه لا دين له. فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعادته مكرماً إلى أهله وأتاله ما تمناه.

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام وأطلق حكمه، دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب وهواه مع العلويين وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر فشتوش فكره وضاق صدره، فاستحضر شخصاً وجعله فى رى الزهاد والنسك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر، وقال له: امض إلى مصر

وخالط أهلها ودخل كرامها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، وأذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وأدعه إلى القاسم بن محمد العلوي واكتشف باطنه وأبحث عن دفين نيه، فأتسنى بما سمع. ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب وجلس في مجلسه خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده فقال له: لقد فهمت ما قصدت فهاهنا ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أرادته ودعاه إلى القاسم بن محمد، فقال له عبد الله: أوتصفني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم، قال: فيجب على وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة والولاية ولي خاتم في المشرق وخاتم في المغرب، وأمرى فيما بينهما مطاع وقولي مقبول، ثم إنني التفت يميناً وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة وإحسانه فائضاً علي، أفبتدعونني إلى الكفر بهذه النعمة وتقول: اغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلى الجنة عياناً لما غدرت، ولما تكثرت بيته وتركت الوفاء له، فسكت الرجل، فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك، فأرحل من هذا البلد. فلما يس الرجل منه وكشف باطنه وسمع كلامه رجع إلى المأمون، فأخبره بصورة الحال، فسر ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إتمامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم ومكارم أخلاق أهل الكرم ويحث على الوفاء باليهود ورعاية اللزم ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه. قال: قال لي أبو الفتح المنطقي: كنا جلوساً عند كافور الإخشيدي^(١)، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة والملكة، ونفوذ الأمر وعلو القدر وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والمصر، فحضرت المائدة والطعام، فلما أكلنا نام وانصرفنا، ولما انتبه من نومته طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عقبة التجارين، وسلوا عن شيخ منجم أمور كان يقعد هناك، فإن كان حياً، فأحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكتشفوا أمرهم. قال: قمضينا إلى هناك، وسألنا عنه، فوجدناه قد مات، وترك بنتين إحداهما متزوجة، والأخرى عاتق، فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك، فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالاً جزيلاً وكسوة فاخرة، وزوج العاتق، وأجبرى على كل واحدة منهما رقياً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما، فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك وقال: اتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا، فقال: اعلما أني مرتت يوماً بالندما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة، فوفقت عليه، فخطر إلى واستجلبني وقال: أثبت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً، وتعال غيراً كبيراً، ثم طلب مني شيئاً، فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما، فرمى بهما إلى وقال: أبشرك بهذه البشارة وتعطيني درهمين؟ ثم قال: وأزديك أنت والله تملك هذا البلد وأكثر منه، فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتكم به ولا تنس. فقلت له: نعم، فقال: عاهدني أن تفي لي ولا يشغلك ذلك عن انشغادي، فعاهدته، ولم يأخذ مني الدرهمين، ثم إنني شغلته عنه بما تمجد لي من الأمور والأحوال وصرت إلى هذه المنزلة ونسيت ذلك، فلما أكلنا اليوم ولمت رأيت في المنام قد دخل علي، وقال لي: أين الوفاء بالعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدي؟ لا تغدر، فيغدر بك، فاستيقظت وقعلت ما رأيته، ثم راد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعدته، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق وأخبرت به الثقات في الأنفاق، وظهرت روايته بالشام والعراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالأفئدة، حديث السموال بن عادي^(٢)، وتلخيص معناه، أن امرأ القيس الكندي لما أراد الهضي إلى قيصر ملك الروم أودع عند السموال دروعاً وسلحاً وأمتعة تساوي من المال جملة كثيرة، فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموال، فقال السموال: لا أدفعها إلا لاستحقاقها وأبى أن يدفع إليهما منها شيئاً.

(١) كافور الإخشيدي: هو كافور بن عبد الله الإخشيدي أبو الملك الأمير المشهور، صاحب المني، كان صيداً حلياً اشتراه الإخشيدي ملك مصر فنسب إليه، وأعطاه نفوقاً عند وازالت همت تصمد حتى فرقت إلى ملك مصر، وكان فطناً حسن السياسة، كان يدهي له على الخاير بمكة ومصر والشام إلى أن توفي بالبلخ سنة (٣٥٧هـ - ٩٦٨م).

(٢) السموال: هو السموال بن غريش بن عادي الأزدي، شاعر جليل حكيم، من سكان غير (شمالاً للندة) كان يتنقل بينها وبين حصن له سماء (الأبلاق) وله ديوان صغير. توفي في سنة (٦٥٠هـ - ٥٦٠م).

فعاوده، فأبى وقال : لا أغدر بلمتى ولا أخون أمانتى ولا أترك الوفاء والواجب على. فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره، فدخل السموال فى حصنه وامتنع به، فحاصره ذلك الملك. وكان ولد السموال خارج الحصن، فظفر به ذلك الملك، فأخذ أسيراً ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموال، فأشرف عليه من أعلى الحصن، فلما رآه قال له : إن ولدك قد أمرته، وما هو معنى، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح التى لأمريء القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر، فاختار أيهما شئت. فقال له السموال : ما كنت لأخفر ذمامى وأبطل وفائى. فاصنع ما شئت، فذبح ولده وهو ينظر، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائياً. واحتسب السموال ذبح ولده وصير محافظاً على وفائه، فلما جاء الموسم وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفاته أحب إليه من حياة ولده ويقائه، فسارت الأمثال فى الوفاء تضرب بالسموال، وإذا مدحوا أهل الوفاء فى الأثام ذكروا السموال فى الأول، وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه وأغلى قيمة من جعله نصب عينيه، واستنطق الأقواء لقاعله بالثناء عليه، واستنطق الأبدى بالمقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع فى بطون الدفاتر واستحسنته عيون البصائر ونقلته الأصاغر عن الأكابر وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون، قال : طلبنى أمير المؤمنين ليلة، وقد مضى من الليل ثلثه فقال لى : خذ معك فلاناً وفلاناً وسامحهما أحدهما على بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقوله لك، فإنه قد بلغنى أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة، ويشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً يربتهنهم ويكى عليهم، ثم ينصرف، فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء ويكى ونذب وأشد شيئاً، فالتوتنى به. قال : فاختبئتهما ومضيتا حتى أتينا الخرابات، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد، وإذا شيخ ومسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل، فجلس على الكرسى وجعل يكى ويتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جندل جعفرأ ونادى منادٍ للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع آيات اطالها ورددها، فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له : أجب أمير المؤمنين، ففرغ فرغاً شديداً، وقال : دعونى حتى أوصى وصية، فأبى لا أوقن بملعها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين، فاستفتح، وأخذ ورقة، وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه، ثم مرنا به، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين رجوه، وقال له : من أنت، ويماذا استوجبت البرامكة منك؟ ما تفعله فى خراب دورهم وما تقوله فيها؟ قال الخادم : ونحن وقوف نسمع، فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندى أباى خطيرة، أفتأذن لى أن أحدثك حديثي معهم؟ قال : قل. قال : يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد رالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال، فلما ركبى الدين، واحتججت إلى بيع مسقط رأسى ودروس أهلى، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصياً وصيبة، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ووزلنا فى بعض المساجد، فدصرت بشويات لى كنت قد أعددتها لأستمتع بها الناس، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شئ عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسأل عن دور البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن رى وربة وعلى الباب خادمان، فطمعت فى القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم والآخر والعرق يسيل سنى لأنهما لم تكن صناعتى، وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم، فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد، ودخلت معهم، وإذا يحيى جالس على دكة له فى وسط بستان، فسلمنا، وهو يعننا مائة وواحد ووين يديه عشرة من ولده، وإذا غلام أمد عنذراه خلداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم منقطرون فى وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم نجمة من ذهب فى كل مجمرة قطعة من عود كهية الفهر، قد قرن بها مثلها من الغير السلطانى، فوضعوه بين يدى الغلام إلى جنب يحيى، ثم قال يحيى للقاضى : تكلم وروج ابنتى عائشة من ابن عمى هذا. فخطب القاضى، ووجه، وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا الثار ينادون المسك والعتير، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين مله كسى، ونظرت، فإذا نحن فى المكان ما بين يحيى

والشايع ولده والغلام مائة واثنان عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة واثنان عشر خادماً مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والشايع يصبون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت أباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدى بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزنى الخادم، فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب فى كمي، وأخذت الصينية فى يدي وقمت، وجعلت ألقت إلى ورائى مخافة أن أمعن من الذهب بها، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم: اتنى بذلك الرجل. فرددت إليه، فأمر يصب الدنانير والصينية وما كان فى كمي، ثم أمرنى بالجلوس، فجلس فقال لى: بمن الرجل؟ فقصصت عليه قصتى، فقال للخادم: اتنى بولدى موسى، فأتى به، فقال له: يا بنى هذا رجل غريب، فخذ إليه وأحفظه بنفسك وبسببك. فقبض موسى على يدي وأدخلنى إلى دار من دور، فأكرمنى غاية الإكرام، وأقامت عنده يومى وليلى فى اللذ عيش، وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل، وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك، وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد، ثم لم أزل فى أيدى القوم يتناولونى عشرة أيام لا أعرف خير عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء. فلما كان اليوم الحادى عشر جامنى خادم ومعه جماعة من الخدم، فقالوا لى: قم، فأخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وأولاه سلبت الدنانير والصينية، وأخرج إلى عيالى فى هذه الحالة. إنا لله وإنا إليه راجعون فرفع الستر الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم الست الأخير قال لى: مهما كان لك من الحوائج، فارفعها إلى لى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رفع الست رأيت حجرة كالشمس حراً وتوراً واستقبلنى منها رائحة الند والعود وتفتحات المسك، وإذا بصيائى وعبائى يتقلبون فى الحرير والديباج، وحمل إلى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنتشرين بضيعتين، وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبتاق، وأقامت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاثة عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطعنونى، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل، أجمعتى عمرو بن مسعدة والزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به، فلما تحمل على الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم، فأتدبهم وأذكر حسن صنيعهم إلى وأشكرهم على إحسانهم. فقال المأمون: على عمرو بن مسعدة، فلما أتى به قال: يا عمرو، أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صناع البرامكة، قال: كم ألزمته فى ضيعة؟ قال: كذا وكذا، قال: رد له كل ما استادته منه فى مدته، ووقع له بهما ليكون له ولعقبه من بعده، قال: فعلا نحب الرجل وبكأوه، فلما رأى المأمون كثرة بكاؤه قال: يا هذا قد أحسنا إليك، فلم تبكى؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة، إذ لو لم أت خراباتهم، فأبكيهم وأتدبهم حتى اتصل خبرى بأمر المؤمنين، ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين. قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون قد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه وقال: لعمرى هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فأبك، ولهاهم فاشكر، ولهم فأوف. فإحسانهم فاذكر. وقيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، ودوام عهده، فانتظر إلى حينته إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وكثرة بكاؤه على ما مضى من زمانه قال الشاعر:

بقى الله أطلال الوفاء بكفـه فقد درست أعلامه ومنازله

وقال آخر:

أشدد يدبك بمن بلوت وفاءه إن الوفاء من الرجال عزيز

وقال مالك بن عماره النخعي: كنت جالساً فى ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان، وقبيصة بن ذؤيب، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض فى الفقه مرة، وفى المذاكرة مرة، وفى أشعار العرب، وأمثال الناس مرة، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم، وحسن استماعه إذا حدث، وحلاوة لفظه إذا حدث، فخلوت معه ليلة، فقلت له: والله إنى لأسرو بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك، وإقبالك على جليستك، فقال: إن تعش قليلاً، فسترى العيون طامحة إلى، والأعناق نحوى متطولة، فإذا صار

الأمر إلى، فلعلك أن تنقل إلى ركابك، فلاملان يدبك. فلما أقضت إليه الخلافة، توجهت إليه، فوافيته يوم الجمعة، وهو يخطف على المنبر، فلما رأيته أعرض عني، فقلت: لعله لم يعرفني، أو عرفني وأظهر لي نكره، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم البث أن خرج الحاجب، فقال: أين مالك بن عمار؟ فقلت، فأخذ بيدي، وأدخلني عليه، فمد إلى يده وقال: إنك تراهم لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن، فحرجاً وأهلاً، كيف كنت بعدى؟ فأخبرته، فقال: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم، فقال: والله ما هو بميراث وعينه، ولا أثر يرويه، ولكني أخبرك بخصال من سمعت بها نفسى إلى الموضع الذى ترى، ما خنت ذا ود قط، ولا شمت بمصيبة عدو قط، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهى حديثه، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلى وقد فعل.

ثم دعا بغلام، فقال له يا غلام: يؤنه منزلاً فى الدار، فأخذ الغلام بيدي، وأقر دى منزلاً حسناً، فكنت فى الذ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامى وأسمع كلامه، ثم أدخل عليه فى وقت عشاءه، وغدائه، فيرفع منزلى ويقبل على ويحدثنى، ويسألنى مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لى عشرون ليلة، فتذيت يوماً عنده، فلما تفرق الناس نهضت قائماً، فقال: على رسلك، فقعدت، فقال: أى الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك فى المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة، فقلت: يا أمير المؤمنين فازرت أهلى وولدى على أنى أزرر أمير المؤمنين، وأعود إليهم، فإن أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد، فقال: لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد فى زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك. أترانى قد ملأت يدبك؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً، وورنا إذا شئت، صحبتك السلامة.

ومن ذلك ما روى عن أبى بكر الأعمى، وكان قد انقطع إلى آل برمك، قال مسرور الكبير: لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه، فوجدت عنده أباً بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزن فكل فتى سيبلى
عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت: فى هذا والله قد أتيتك، ثم أسكت بيد جعفر وأقمته، وضربت عنقه، فقال أبو بكر: ناشدتك الله إلا ما الحقنى به، فقلت له: ما الذى حملك على هذا؟ فقال: أغفانى عن الناس، فقلت: حتى استأمر الرشيد، ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد، وأخبرته بخبر أبى بكر، فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجرى عليه جعفر فادفعه إليه. وكان يحيى بن خالد إذا أكد فى يمينه قال: لا والذى جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يشفى الإنسان فيمما ينوبه
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم
ومن أين للحر الكريم صحاب
ذئاباً على أجسادهم ثياب

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدييره فى الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا، فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ باسطى وترحم على عدوى؟ فقال: إن نعمة عدوك لقلاة فى عتقى لا ينزعها إلا غاسلى، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإنى أشهد أنك لوفى حافظ للخير، ثم أمر له بمال، فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك، فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدداً مخلداً. وخرج سليمان بن عبد الملك، ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جباين الشام، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكى، قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها، فحكمت شمساً عن متون غمامة، فوقفنا متحيرين ننظر إليها، فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله: هل لك فى أمير المؤمنين بعلاً؟ فنظرت إلينا، ثم أنشأت تقول:

فلن تالانى عن هواى فلانه
يحول بهذا القبر با فتيان
وانى لاستحييه والشرب بيننا
كما كنت استحييه وهو يرانى

ومن ذلك ما روى عن نائلة بنت القرافة بن الأوصى الكلبي زوج عثمان رضى الله عنهما، أن عثمان لما قتل أصابته ضربة على يدها، وخطبها معارية، فردته، وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثيابك، فكرت ثيابها، وبعث بها إلى معارية، فكان ذلك مما رغب قريشاً في نكاح نساء بني كلب. ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاة زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف، وقال له: أئج بهذا فأخذه زياد ودقه بين حجرين، وقال: والله لا يتفجع به أحد بعدك. ولما قدم هذبة بن الحشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم، قالت زوجته: إن لهديتي عندي وديعة، فأملهه حتى أتيت بها، فقال: أسرع، فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره، فمضت إلى السوق، وأتت إلى قصاب، فقالت أعطني شورتك، وخذ هذين الدرهمين، وأنا أردعها عليك، فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها، ثم جذعت أنفها من أصله، وقطعت شفتيها وردت الشفرة إلى القصاب. ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس، فقالت: أترانى يا هذبة متزوجة بعد ما ترى، فقال: الآن طابت نفسى بالموت، فجزاك الله من حيلة وفيه خيراً.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً، وأحسنها نظاماً، وأبينها حكماً وإحكاماً، وهى قضية جمعت الأمرين: وفاة وغدر، وعرفاً ونكراً، وخيراً وشرأ، ونفعاً وضرأ، واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهد ففازونهما وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا، وغدر الآخر، فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجأ، ولم يلن له من ضيق الغدر مخرجاً. وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون عارفاً بأموره علماً بوروده وصدوره، فقال: ما معناه أن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً، فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهره باليتم، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة، وأحسنهم زياً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به، فأخذه إليه، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه، وقال له: أنت عندي بمكانة أركان بها، ولكن عادتي أنى أخذ العهد على كل من أصره فى شيء أنه لا يخوننى فعاهده، ثم حكمه فى أمواله وقدمه فى أشغاله، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه، فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ومسامية متسمة بالنجح ركن إليه، واعتمد فى أمور بيوته عليه، فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة الغلانية ففى المجلس حيث أجلس مسجة جوهر، فأتتني بها، فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شباب من الفرائش ممن هو من الأمير بمحل قريب، فلما رآها خرج الفتى وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء طوره، فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إليى وأخذ العهد عليى، ثم تركها، وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعدما أخذ السبحة، وخرج من الحجرة لئلا يذكرها للأمير، فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها. ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياه، وغمرها بعطاياه، واشتغل بها عن سواها، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها، ولا يراها، وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الحاضرة المأخرة العائبة الماهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغلاً بالجارية الجديدة المجيدة السعيدة الحامدة المحمودة الوصيفة الموصوفة الأليفة المألوفة العارفة المعروفة، وصرف لبهجة محاسنها وكثرة آدابها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلت بعذوبة رضايها عن ارتشاف رطب اضرابها، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكير عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها، فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت: إن أحمد اليتيم راودنى عن نفسى. فلما سمع الأمير ذلك

استشاط غيظاً وغضباً، وهم في الحال يقتله، ثم عاوده حاكم عقله، فتأنى في فعله، واستحضر خادماً يعتمد عليه، وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً معه طبق من ذهب، وقلت لك على لسانه أملاً هذا الطبق مسكاً، فاقبض ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق، وأحضره مغفياً، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه، وأحضر عنده ندماء الخواص، وأدناهم لمجلس قربه، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمناً في مربه لم يخطر بخاطرهم شيء، ولا هجس هاجس في قلبه، فلما مثل بين يدي الأمير، وأخذ منه الشراب شرع في التدبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين أملاً هذا الطبق مسكاً، فأتخذه أحمد اليتيم ومضى، فاجتاز في طريقه بالمغنين وبقية الندماء، والخواص، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق، فقالوا له: أرسل من ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه، فرأى الفتى الفراش الذي كان مع الجارية، فأعطاه الطبق، وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له: يقول لك الأمير أملاً هذا الطبق مسكاً، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم، فذكر له ذلك، فقتله، وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق، وأقبل به، فتأمله لأحمد اليتيم، فأتخذه وليس عنده علم من باطن الأمر، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال: ما هذا؟ قصص عليه خبره وقصوده مع المغنين وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم، وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: اتعرف لهذا الفراش خبر يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تم عليه بما ارتكبه من الحيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك، وأخذ أحمد يحدث بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره، لما أتفته لإحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصحة ما ذكره أحمد، فأعطاه إياها، وأمره بقتلها، ففعل، وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه وضاعف إحسانه إليه، وجعل أئمة جميع ما يتعلق به بيده. فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء كيف تحمي من المعاطب، وتنجي من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب، ويفضي بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب، فهذا الغلام لما وفي لمولاه بعهده، وهو بشر مثله، وليس في الحقيقة بعبده، واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده دفع عنه هذه القتلثة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وإفياً في طاعته بمسقطه كيف لا يفيض عليه من اللطاف مواهب برة ورفقه ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا يحسك له من بعده، وقالوا: ليس شيء أوفى من القمية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

فى كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءُوبَكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، فلما أفشى يوسف عليه السلام ربهما بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته، فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز فى السر قوله تعالى: ﴿فَاَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]. أى يجهلهم. وفى الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذى نعمة محسود». وقال على رضى الله عنه وكرم وجهه: سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره، واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجوداً من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن إحراز الأموال متبعة بالأبواب والأقفال، وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل، فيحملة ويمشى به، ولا يستطيع كتم السر. وأن الرجل يكون سره فى قلبه، فيلحقه من الفلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأما الذى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: القلوب أوعية والشفاه أفتالها، واللسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضعف لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه ولو كتمه أمن من سطوته. وقال أنوشروان: من حصن سره، فله بتحصينه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات. وقيل: كلما كثرت خزائن الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفراد برك لا تودعه حارماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون، وقال كعب بن سعد الغنوى:

ولست بمبدل للرجال سرىرتى ولا أنا عن أسرارهم بسؤؤل

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

أودت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بنى مروان إذ جهدوا
مأزلت أسعى عليهم فى ديارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعا غملاً فى أرض مبيعة وتام عنها تولى رعيها الأمد

وأسر رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر، وأحلف للمستخير. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل فى كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائر فى الضمير طويتها نى الضمير بأنها فى طيه

وقد أجازته الشيخ شمس الدين اليدوى فقال:

إنى كتمت حديث لىلى لم أبع يوماً بظاهره ولا بخفسيه
وحفظت عهد وداده متمكناً فى حبيها برشاده أو غيه
ولها سرائر فى الضمير طويتها نى الضمير بأنها فى طيه

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آتية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره، قال الشاعر:

ومستودعي سرّاً كنتم مكانه عن الحس خسوفاً أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة فأودعته من حيث لا يبلغ الحس

وقال قيس بن الخطيم^(١):

أجسود بمكنون التلاد وإننى بسررى عمن سألنى لئني
وإن ضيع الأكرام سررى فلئننى كتوم لاسرار العشير أمين

وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذى أودعنى سرّاً لا ترج أن تسلمه منى
لم أجسده قط على فكترتى كسأنه لم يجسر فى أذنى

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما أفشيت سرى إلى أحد قط، فأفشاه، فلمته إذ كان صدرى به أضيئ. وقال الأحف بن قيس: يضيئ صدر الرجل سره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه على. قال الشاعر:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو أحق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يتودع السر أضيئ

وقال آخر:

إذا ما ضاق صدر عن حديث وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبت من أفشى حديثى ومسررى عنده فلأنا الملووم

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسر مذموم، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفركت تحت شغاف قلبي ثم أجمعه وأساءه كأنى لم أسمعه. وكان أحزم الناس لا لا يشفى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر، فيفشي عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختيار حق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرت الذنب يوماً لصاحب فلت مميئداً ما حييت له ذكرا
ولت إذا ما صاحب خان عهده وعندى له سر مذيعة له سرّاً

وأيّن هذا من قول القائل:

(١) قيس بن الخطيم: هو قيس بن الخطيم بن عدى الأوسى، أبو يزيد، شاعر الأوس، وأحد صناديقها في الجاهلية، قول ما اشتهر به تنبّه قاتلى أبيه وجده حتى قتلها، أدرك الإسلام وترث في قبوله، قتل قبل أن يدعى له ادبوان توفي سنة (٢٤ هـ - ٦٢٠ م).

ولا تودع الأسرار أذننى فإِنَّمَا تصبى ماءً فى إناء مـثلـم

أو القائل:

ولا أكنتم الأسرار لكن أذيعها ولا ادع الأسرار تعلو على قلبى
وإن قليل المـسـقل من بات ليلة تقلبه الأسرار جنباً إلى جنب

وقال آخر:

وإنك كلما استودعت سرّاً أتمّ من النسيم على الرياض

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى:

أناس أمناهم فتمروا حـديـثـنا فلما كنمنا السر عنهم تقولوا

ولله در المتنّى حيث قال:

وللسر منى مـوضـع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شـراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول

الفصل الأول: في الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي». وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار». وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْكِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. وكم أرقع القدر في الممالك من غادر، وضاعت عليه من موارد الهلكات فيجعات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه في خطة خف وورطة حنف، فما له من قوة ولا ناصر، ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوى الآليات من قصة ثعلبة بن حاطب الانصاري، وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبی ﷺ فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤذى شكره خير من كثير لا تطيقه». ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت». ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً، والذي بعثك بالحق نبياً لتن رزقنى الله مالاً لأعطين كل ذى حق حقه. وعاهد الله تعالى على ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارقق ثعلبة ما قال»، فاتخذ ثعلبة غنماً فمتت كما ينمو الدود، فضاعت عليه المدينة، ففتحى عنها، ونزل وادياً من أردبتها، وهى تنمو كما ينمو السدود، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له: حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم وتحتى صار يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلى بقية الصلوات فى غنمه، فكثرت وتمت حتى بعد عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت وتمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الاخيار، فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة؟» قالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة». فانزل الله تعالى آية الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بنى سليم، ورجل من جهينة وكتب لهما أنصاب الصدقة، وكيف يأخذانها، وقال لهما: «مرا بشعلبة بن حاطب، ويرجل آخر من بنى سليم، فخذوا صدقاتهما». فخرجوا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جرية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إلى، فانطلقا، وسمع بهما السلمى، فنظر إلى خيار إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رآها قال: ما هذا؟ قال: خذاه، فإن نفسى به طيبة، فمرا على الناس وأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أرؤنى كتابكما، فقراه، ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية؟ أذهب حتى أرى رايأ. قال: فنهبا من عنده، وأقبل على رسول الله ﷺ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: «يا ويح ثعلبة»، فانزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْصُرُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٨]. وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة قد نزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبی ﷺ، فسأله أن يقبل صدقة، فقال: «إن الله تعالى منعى أن أقبل منك صدقة»، فجعل ثعلبة يحشو التراب على رأسه ووجهه فقال رسول الله ﷺ: «هنا عملك قد أمرتك، فلم تطعنى»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقة رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى إلى بكر الصديق رضى الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ

وموضعي من الانصار، فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر رضى الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك، فلا أقبلها أنا، فقبض أبو بكر رضى الله تعالى عنه، ولم يقبلها، فلما ولى عمر رضى الله عنه أياه، فقال: يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي، فلم يقبلها منه، وقال: لم يقبل رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضى الله عنه، فأنا لا أقبلها؟ وقبض عمر رضى الله عنه، ولم يقبلها، ثم ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضى الله عنهما، فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضى الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمه عار قضت عليه بخبره، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاقته ووفره، فأى خزي أرجع من ترك الوفاء بالميثاق، وأى سوء أتيح من غدر يسوق إلى الشقاق، وأى عار أقضح من نقض العهد إذا عدت مساوية الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكارة في جنب نيل المكارم. قال الشاعر:

غسدت بأمر كنت أنت جـنبتنا إليه ويتس الشيمة الغدر بالمعهد

ولما حلف محمد الأمين للمامون في بيت الله الحرام، وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذني الله إن خذته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا الغساس أجد نفسي أن أمري لا يتم، فقلت له: ولم ذلك؟ أجز الله الأمير قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد في اخبار العرب أن الفيزين بن معاوية بن قضاة، كان ملكاً بين دجلة والفرات وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق وبلغ ملكه الشام فأغار على مدينة سابور ذى الاكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور وقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى فيزين فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء، ثم إن النصيرة بنت الفيزين عركت- أى حاصت- فخرجت من الرضى وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حصن، وكان سابور من أجمل أهل زمانه، فرأها ورأته فمشتقها وعشقتة وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لى إن ذلتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبى؟ فقال: أحكمك، فقالت: عليك بحمامة مطوقة ورقاء فاكتب عليها بعض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتدعاه المدينة كلها، وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقى الحرس الحمر فإذا صرعوا فاقتلهم، ففعل ذلك فتداعت المدينة وقتلها سابور عنوة وقتل الفيزين، واحتمل ابنة النصيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل لينتها تتضرر وتتملص في فراشها وهو من حريو محشو بربش النعام، فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بمكنتها^(١) وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل: إنه أمر رجلاً فركب فرساً جميحاً وضفر غداها بذنبه، ثم استركفه فقطعها قطعاً قطع الله ما أغدرو. وتقول العرب: جزاني جزاء سنمار، وهو أن أردجدر بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مره، فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان وهو عامله على أرض العرب وأمره أن يئتي له جوسقاً فامتثل أمره، وئتي له جوسقاً كاحسناً ما يكون وكان الذى بنى الجوسق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه فقال: لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقالوا: وإنك لتئبى أحسن من هذا ولم تبته، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق ففتقطع، فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار. ومن غدر عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله، غدر بعلى رضى الله عنه وقتله. وعمر بن جرمود غدر بالزبير بن العوام رضى الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبه لعنه الله، غدر بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره وقدم المهدي عليه، فقال عيسى:

(١) عكنتها: المكنت والأمكنان: الأطوار في البطن من السم.

أينسى بنو العباس ذى عنهم بسيفى ونار الحرب زاد سميرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها فذل معاديبها وعز نصيرها
أقطع أرحاماً على عزيمة وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر فى مستقره ولاحت له شمس تلالاً نورها
دفعته عن الأمر الذى استحقه وأوسق أوساقاً من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبة حتى ألجؤوها إلى خياه أعرابى فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها ، فينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهرت ، فجاء ابن عمه بطلبه ، فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها ، وأنشد يقول :

ومن يهتج المعروف مع غير أهله يلقى كما لاقى مجير أم عامر
أعد لها لما استجارت بيته أحاليب ألبان اللقاح الدوائر
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت فترته بأثياب لها وأظافر
فقل لنوى المعروف هذا جزاء من يجود بمعروف على غير شاكر

وحكى بعضهم قال : دخلت البادية فإذا أنا بمعجور بين يديها شاة مقتولة وإلى جانبها جرو ذئب . فقالت : اتلوى ما هذا؟ فقلت : لا ، قالت : هذا جرو ذئب أخذه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه ، فلما كبر فعل بشاتى ما ترى ، وأنشدت :

بقرت شويهيى وفجعت قومي وائت لشـائنا ابن ريب
غلبيت بدرها ونشأت معها فمن أنبـاك أن أبـاك فيب
إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفـسيد ولا أديب

اللهم إنا نعوذ بك من البغى وأهله ، ومن الغادر وفعله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الثانى: فى السرقة والسراق

قيل : مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال : ما هذا؟ قيل : السلطان يقطع سارقاً ، فقال : لا إله إلا الله سارق العلانية يقطع سارق السر . وأمر الإسكندر بصلب سارق ، فقال : أيها الملك إنى فعلت ما فعلت ، وأنا كاره . فقال : وتصلب أيضاً وأنت كاره . وسرق منى قميصاً ، فأعطاه لابنه يبيعه ، ففرق منه ، فجاء له ، فقال : بكم بعته؟ قال : برأس المال . وقال أكل السلمى ، وكان لصاص فانتكأ :

وإنى لأستعصى من الله أن أرى أجر جر حبلى ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء الغنى بعيره وأجمال رى فى البلاد كشير

قال الفرزدق :

وإن أبـا الكرشـاء ليس بسـارق ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف بيت عم له ، فتصور عليها الدار ذات ليلة ، فأخذته أخوتها وأتوا به خالد

ابن عبد الله القسرى، وجعلوه سارقاً، فسأله خالد، فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية، فهم خالد بقطعه، فقال عمر أخوه:

أخالد قد والله أوطئت عشوة وما العاشق المظلوم فينا بسارق
أقصر بما لم يأت به المرء إنه رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

فعفا عنه خالد وزوجه الجارية.

الفصل الثالث: فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿وَالْقَبِيحَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنْ مِنْكُمْ أَزْوَاجٌ لَكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: العداوة تتوارث، وقال زياد بن عبد الله:

فلو أنى بليت بهاشمى خولته بنو عبيد المدان
صببرت على عداوته ولكن تعاملوا فانظروا بمن ابتلاني

وبث رجل في وجه أبي عبيدة مكروهاً، فأنشأ يقول:

فلو أن لحسمى إذ وهى لعنت به سباع كرام أو ضباع وأذوب
لهون وجدى أو لى مصيبتى ولكنى أودى بلحسمى أكلب

وقبل لكسرى: أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً؟ قال: عدوى، قيل: كيف ذلك؟ قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه فى عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشع المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة أهون من مداواة ما خفى ويطن. وقالوا: إياك أن تعادى من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك فى لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنح عن القسبيح ولا ترده ومن أوليبتته حسناً فزده
ستلقى من عدوك كل كيد إذا كساد العدو ولم تكده

وكانت جليدة بنت مرة أخت جاس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهى حبلى بهجرس بن كليب، فلما كبر وشب قال:

أصاب أبى خالى ومبا أنا بالذى أميل وأمرى بين خالى ووالدى
وأورث جساس بن مرة غصة إذا ما اعتزرتى حرها غير بارد

ثم قال بعد ذلك:

يا للرجال لقلب مساله جلد كيف العزاء وثارى عند جساس

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم ترني ثارت لأبي كليباً
وقلبد يرجى المرشح للدخول
غسلت العار من جسم ابن بكر
بجساس بن مرة ذى البتول

بيت:

من العداوة آباء لنا سلفوا
فلن تبديد وللآباء أبناء

ويقال: دار عدوك لأحد أمرين: إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكتك، وكتب سويد إلى مصعب:

فبلغ مصعباً عن رسولى
وهل تلقى النصيح بكل واد
تعلم أن أكسثر من تناجى
وإن ضحكوا إليك هم الأعداى

ويقال: فلان كثير المراق مر المذاق. وقال الحجاج لخارجي: والله إنى لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أبو شروان أن يقتل ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته، فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، وكانت أم قباذ تركية، وقد رأيت من حسن سيرته ما رأيته، فقيل: هو قصير وذلك ينهب بيهام الملك، فقال: إن قصره من رجله ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستين ذلك فيه. فقيل: هو يغيث في الناس، فقال: أراه ملك ابنى هرمز، فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه:

ولست براء عسيب ذى الود كله
ولا بغض ما فيه إذا كنت راضياً
فبعين الرضا عن كل عيب كليله
كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي المعنى قيل:

وعين البسغض تبرر كل عيب
وعين الحب لا تجحد العيبيربا

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألد من العافية. وأنا أقول لو تزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أعون من شحاته الأعداء خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نيب أو مجاورين في بلد. اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشحاتة ابن العم. وقيل لأيوب عليه السلام: أى شيء كان عليك في بلاك أشد؟ قال: شحاتة الأعداء. وأشد بالمحاط:

تقول العدالات تحمل عنها
وداو هليل قلبك بالملو
وكسيف ونظرة منها اختلاسا
ألد من الشمامسة بالعدو

وقال ابن أبي جهينة المهلبى:

كل المصائب قبل تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الأعداء

وقال الجاحظ : ما رأيت سناً أنفذ من شمانة الأعداء . وقيل : لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كتلة وحضرموت ، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف ، فقال رجل منهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جنته أن البغايا من بني مسرام
أظهرن في موت النبي شمانة وخضبن أيديهن بالعلام
فأقطع هديت أكفهن بصارم كالبرق أومض في متون غمام

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله ، فأخذهن وقطع أيديهن . ويقال : فلان يترى بك الدوائر ويتعنى لك الغوائل ، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك ولا رفعة إلا في سقوط حالك . وقال حكيم : لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفاً ، فإن القناة قد تقتل ، وإن عدت السنان . قال الشاعر :

فلا تأمن عدوك لو تراه أقل إذا نظرت من القساراد
فإن الحرب ينشأ من جبان وإن النار تضرم من رماد

بيت مفرد :

فمن لم يكن منكم مبيئاً فإنه يشد على كف الميء فسيجلب

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفاية الله خير من توقينا وعادة الله في الماضين تكفينا
كاد الأعداء فلا والله ما تركوا قولاً وفعلأً وتلقينا وتهجينا
ولم نزد نعمن في سرور وفي علن على مقاتلتنا يا ربنا أكفينا
فكان ذاك ورد الله حاسداً بغبطه لم ينل تقديره فينا

الفصل الرابع : في الحسد

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْذَرُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] وقال رسول الله ﷺ : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود» . وقال علي رضي الله عنه : الحاسد مغتاذ على من لا ذنب له . وقيل : الحسود غضبان على القدر . ويقال : ثلاثة لا يهتأ لأصحابها عيش : الحقد والحسد وسوء الخلق . وقيل : ينس الشعار الحسد . وقيل لبعضهم : ما بال فلان ييغضك ؟ قال : لأنه شقيقى في النيب ، وجارى في البلد ، وشريكى في الصناعة ، فذكر جميع دواعي الحسد ، وقال أغرابي : الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود ، وهو مأخوذ من الحديث : «قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله» . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمة الله تعالى عليه : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود ، أولها : غم لا ينقطع . الثانية : مصيبة لا يؤجر عليها ، الثالثة : مذمة لا يحمد عليها ، الرابعة : سخط الرب ، الخامسة : يغل عنه باب التوفيق .

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان . وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده ، وقال في نفسه : إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدني منه ، فصار يطلق بالبدوي حتى أتى به إلى منزله ، فطبخ له طعاماً ، وأكثر فيه من الثوم ،

فلما أكل البدوي منه قال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم، فيضأى من ذلك فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين، فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلك من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كفه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستتر فمه يكفه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا، فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له: امض به إلى فلان واتننى بالجواب. فامتلأ البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل، فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يربحك من هذا الثعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ قال: أتت الكبير، وأتت الحاكم، ومهما رأيته من الرأى افعل. قال: اعطنى الكتاب، فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ الصامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير، فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتمعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر، فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها، فقال له: أنت قلت عنى للناس أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أحدث بما ليس لى به علم، وإنما كان ذلك مكرماً منه وحسداً، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم وما جرى له معه. فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذهُ وزيراً وراح الوزير بحسده. وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

آل المهلب قوم إن مدحتهم كاتوا الأكارم آباءً وأجدادا
إن العرائن تلقاها محسدة ولا ترى للناس حسدا

وقال عمر رضى الله عنه: يكفيك من الحسد أنه يختم وقت سرورك وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيسوس. وعن أنس رضى الله تعالى عنه رفعه: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول على نقصان همة دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

يقول الله عز وجل: الحاسد عدو نعمتى متسخط لفعلى غير راضى بقسمتى التى قسمت لعبادى. قال الشاعر:

أيا حاسداً لى على نعمتى أتدى على من أسسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه لأنك لم تعرض لى مهابه
فأخسزك رضى بآن رادنى وسدد عليك وجسوه الطلب

وقال الأصمعي: رأيت أحمرأياً قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحصلون الناس على ما آتاهم الله من فضله. وقيل لعبد الله بن عروة: لم لزمت البدو، وتركت قومك؟ فقال: وهل بقى إلا حاسد على نعمتى أو شامت على نكبة، وقال الشاعر:

يا طالب العيش في أمن وفي دعة وغدا بلا قتر صفواً بلا ريق
خلص فؤادك من غل ومن حسد فالغل في القلب مثل الغل في العتق

وقال آخر:

اصبر على حسد الحسو د فـإن صـبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها إن لم تجدد مسـا تـأكله

وفي نوابغ الحكم: الحمد حيك من تعلق به هلك، وبعضهم:

إني حسدت فزاد الله في حسدي لا عاش من عاش يوماً غير محسود

وقال نصار بن سيار:

إني نشأت وحسادى ذو عدد يا ذا المـارج لا تنقص لهم عددا
إن يحسدوني على ما بى لما بهم فمثل ما بى عما يجلب الحسدا

وكان عمر رضى الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حامد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمًا؟ قال: لأنه أخذ بتصيه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لروور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس

والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُومٌ﴾ [الصف: ٤]. وتنبأ إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء. والرأي في الحرب إمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيله أو قطرة دمع في جوف ليل من خشيته». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف»، فقال: يا أبا موسى أتت سمعت رسول الله ﷺ يقوله، قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فالتقاء، ثم مشى يسقيه إلى العدو، فضرب به حتى قتل.

وكتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتواك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تفسل الشهداء من معانهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة. وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حين انتهينا إلى خير: «الله أكبر خربت خير إننا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنزيرين». وعنه رفعه: «العدو في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قتاديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القتاديل». وقيل: إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنه لم يشهد بدءاً، فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، فلما كان يوم أحد قال: «واها لريح الجنة دون أحد». فقاتل حتى قتل، فوجد في يده بضع وثمانون ما بين ضربة وطمعة ورمية، فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخى إلا ببثائه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرباط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر». وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فقال الله أن يرزقنا الشهادة، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسن زيادة.

الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدوا لم تكمل فيه فضيلة. ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران، وتكالحظ الأحداق بالأحداق، يبرز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر وينادى: هل من مبارز. والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر القلب لم يخالطه الدعش ولا تأخذ الحيرة، فيقلب المالك لأمواره القائم على نفسه. والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوى قلوب أصحابه، ويرجى الضعيف ويمدحهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه ومن وقف حملة ومن كبا به فرسه حماء، حتى ييأس العدو منهم، وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن القتال من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدى أبو بكر الطرطوشى رحمة الله تعالى عليه في كتابه «سراج الملوك» قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا

فى بلادنا، قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار، ثم ائترقوا، فوجدوا فى المعرك قطعة خوخة قدر الثلث بما حوته من الرأس، فقالوا: إنه لم يرق ضربة أقوى منها ولم يسمع يمثلها فى جاهلية ولا إسلام، فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم، فكانوا إذا عيروا بانهمزمهم يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم، فيرحل أبطال إليها ليروها. قالوا: ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يفتل عنه وإن كان حقيراً، فكم يرغب أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً. قال الشاعر:

فلا تحقروا عدواً رماك وإن كان فى ساعديه قصير
فإن السيوف تحسز الرقاب وتمحجز عماما تنال الإمبر

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتاباً ورتبوا فيها ترتيباً، ولنصف منها أشياء بدأ منها أولاً بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوا اللَّهَ وَعَدُواكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فقولوه تعالى: «ما استطعتم» مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبي ﷺ القوة حين مر على أناس يرمون، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام ورد المظالم وصلة الرحم ودعاء مخلص، وأمر معروف، ونهى عن منكر، وأمثال ذلك. والشأن كل الشأن فى استعادة القواد، وانتخاب الأمراء، وأصحاب الألوية، فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البالة والنجدة، والشجاعة والجرأة، ثابت الجأش، صارم القلب، صادق البأس، من قد توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونارل الأقران وقارع الأبطال عارفاً بمواضع الفرص خبيراً بمواضع القلب والميمنة والميسرة من الحروب، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتاب وجهاً ولا راد الغنم إلى الزبية.

واعلم أن الحرب خلعة عند جميع العقلاء، وكان عظامه الترك يقولون: ينبغي للعالم العظيم القيا أن يكون فيه عدة أخلاق من البهائم، شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحيلة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركى، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهى دوية تكون بغرامان تسمن على التعب والشقاء. وكان يقال: أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال، والحديد ينحت الجبال، والنار تاكل الحديد، والماء يطفى النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقى الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان، والنوم يذهب السكر، والهيم يمنع النوم، فأشد خلق ربك الهيم. اللهم إنا نعوذ بك من الهيم والخزن.

ومن الحيل فى الحرب أن يثبت جواسيسه فى عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم، وذى الشجاعة منهم، فيدس إليهم، ويعدهم وعداً جميلاً، ويقوى أطماعهم فى نيل ما عنده من الهبات الفخيمة والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا وسامهم إما الغدر بصحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، ويرمى بها فى جيوشهم. واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذا زالت صارت حيلتها وبالأ عليها، وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء كانت الآفة فى الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب فى الحيلة. ويغلب الضعيف بإقبال دولته كما يغلب القوى ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب أن تكون حماة الرجال، وكما الأبطال فى القلب، فإنه إذا انكسر الجناحان كانت العين ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق وطوله تضرب كان حصناً للجناحين يأوى إليه كل سنهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان. مثال ذلك: أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين، وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان. وقل عسكر انكسر قلبه فأنلج أو تراجع، اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلى القلب قصداً وتعمداً، حتى إذا توسطه العدو، واشتغل بنهيه انطلق عليه الجناحان. فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب، ويقال: حبيب إلى عدوك الفرار بأن لا تبعهم إذا انهزموا. ويقال: الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتى ثبات قلبى، وإصابة رايى، ونصل سيفى، ونصرة خالقي. وخرج يزيد بن

عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب، فأنشده سلمة قول الخطيبة:

قوم إذا حاربوا شمسوا مآزهم دون النساء ولو باتت بأطاهلهم

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفأنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا. فقام إليه سلمة، فقبله بين عينيه، وقيل: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوجد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جاثمين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو الملك. ففعلوا، فذنا منهما فأهوى نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأذناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلتهما جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضع على رأسه، وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في العجم أرمى من الملك بهرام خرج يتصيد يوماً، وهو مردف حظية له كان يعشقها، فعرضت له ظباء، فقال: في أي موضع تريدان أن أضع هذا السهم؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرائها بالإناث وإنائها بالذكرا، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شمتين فأتلعت قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين، ثم سالت أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن بينتقة ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك، فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال: إن من أعظم المكاسيد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمى الزمار حتى يلتفت فيرى وراءه بنقاً منشوراً، ويسمع صوت الطبل، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه. وعليك بانتخاب الفرسان واختيار الأبطال ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد واحد كالألف إن أمرى على

بل قد جرب ذلك، فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف، وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب، فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان المعسكران كالمكافئين، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل. فحدث من حضر الواقعة من الأجناد قال: لما دنا الغلاء. قال الطاغية ابن روميل لمن يثق بعقله وعمارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ومن غاب منهم ومن حضر، فذهب، ثم رجع، فقال له: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال. فقال له: انظر من في عسكرك من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم، فقدم، فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم شارط الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا تخرج عن مقامه، حتى فنى أكثر العسكرين، ولم يفر واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة، ثم حملوا علينا جملة ودخلوا مداخلة، ففارقوا بيننا، وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا، فكان ذلك سبب وهتنا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحو في خسارة معهم، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه، وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة. فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المدعودين إلا خمسة عشر نفرًا، وليعتبر بضمان العلاج بالظفر واستشارته بالغميمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى قال: بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعي، فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً وجيشاً واسعاً كبيراً، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجعي. قال له المنصور: ما سكوتك، أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا، فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المدعودين؟ قال: لا، ففتح المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا، قال: أفيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا، قال: فسيب المنصور، وأغلظ عليه، وأمر به، فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم

اجتمعت الروم، وتصاف الجمعان، فبرز عليج من الروم بين الصفيين شاكي السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العليج، ففرح المشركون، وصاحوا. واضطرب المسلمون لها، ثم جعل العليج يهجم بين الصفيين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العليج، وجعل يكر ويحمل، وينادي ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العليج، فصاح المشركون، وذلل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة، فقبل للمتنصور: ما لها إلا ابن المضجعي؟ فيث إليه، فحضر. فقال له المتنصور: ألا ترى ما صنع هذا العليج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى، ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهوت أوراكها هزالاً، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته، ونفسه غير متصنع، فقال له ابن المضجعي: ألا ترى ما يصنع هذا العليج منذ اليوم؟ قال: قد رأيته، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال: حياً وكرامة. ثم إنه وضع القربة بالأرض، وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العليج يلعب بها في يده، ثم ألقى الرأس بين يدي المتنصور، فقال له ابن المضجعي: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال: فرد ابن المضجعي إلى منزله، وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه، وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء. فحسده نظراؤه على كثرة العطاء، وميزته من السلطان، فوشوا به عند المستعين، فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أشأ غزوة إلى بلاد الروم، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عليج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله الرومي، فصاح المشركون سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفيين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين، فقتله الرومي، فصاح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجول بين الصفيين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد، فلم يجترأ أحد من المسلمين أن يخرج إليه. وبقي الناس في حيرة، فقتل السلطان: ما لها إلا أبو الوليد ابن فتحون، فدعاه، وتلطف به، وقال له: يا أبا الوليد: أما ترى ما يصنع هذا العليج؟ فقال: ها هو بعينى، قال: فما الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفى المسلمين شره، فلبس قميص كنان، واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، واخذ بيده سوطاً طويلاً، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه، فتمجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العليج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه، فجلذه بيده من السرج، فاقتلعه، وجاء به يجره حتى اللقاء بين يدي المستعين، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون، فاعتذر إليه، وأكرمه، وأحسن إليه، وبالغ في الإنعام عليه، ورده إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

وينبئ لقائد الجيش أن يخفى العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حيلته واللوان خيله وولايته، ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، وليليد زيه ويغير خيمته كي لا يلتصق عدوه غرة منه، وإذا سكن الحرب، فلا يمشى في النفر اليسير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه متجسة عليه، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكره يستميز عساكر المسلمين، فجاء الخير إلى عبد الله بن أبي السرح وهو نائم في قبة، فخرج فيمن وثق به من رجاله، وحمل على العدو، فقتل الملك، وكان الفتح. ويمثل هذا قهر آل أرسلان ملك الترك، ملك الروم وقمعه وقتل رجاله وإباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يثق أن يجمع لغيرهم من بلعهم مثلها، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف، كتابت متواصلة، وعساكر مترادفة، وكرايس يثلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع والسلاح والمجانيق،

والآلات المعدة للحروب، وفتح الحصون بما لا يحصى، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعد قد خدمتهم، ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها عائل كل أهل الإسلام، فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان، وهو الذي يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم، فلم يزل العسكران يتدائبان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين، وقالوا لألب أرسلان: غداً يتراءى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيه إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فيقى المسلمون وجلين لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظرو بعضهم إلى بعض، فقال المسلمون ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعد المسلمون، فبلغوا اثني عشر ألفاً فكانوا كالثامة البيضاء في الثور الأسود، فجمع ذوى الرأي من أهل الحرب والتدبير والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي، فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء، فتواعد القوم وتحالوا وتناصحوا الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء، وقالوا لألب أرسلان: بسم الله نحمل عليهم، فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا، ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم إذ ذاك، وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم وعلمته وزيه وزينته وفرسه، ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى، ويتبع أثرى، ويضرب بسيفه، ويرمى سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمى بسهمي، ثم حمل برجله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم، فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك، فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم قتل الملك قتل الملك، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل فتبددوا، وتمزقوا كل تمزق، وعمل السيف فيهم أياماً، وأخذ المسلمون أموالهم، وغنائمهم، وأتوا بالملك أسيراً بين يدي ألب أرسلان والحيل في عنقه، فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أمرتني؟ قال: وهل تشك أنني كنت أقتلك، فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به، فيصوه لمن يزيد فيه، فكان يقاد والحيل في عنقه، وينادى عليه من يشتري ملك الروم، وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومتاول المسلمين، وينادون عليه بالدرهم والفلوس، فلم يدفع فيه أحد شيئاً، حتى باعوه من إنسان بكلب، فأخذه الذي ينادى عليه، وأخذ الكلب، وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طفت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يبذل أحد فيه شيئاً سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب، فقال: قد أنصفك إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية، فجزلته الروم، وكحلوه بالنار. فأنظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة والمكيده. اللهم انصر جيوش المسلمين وعساكر الموحدين، واهلك الكفرة، والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم

وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى: الذين أدرکوا الجماعية والإسلام: حمزة بن عبد المطلب^(١) رضى الله عنه عم رسول الله ﷺ، أسد الله وأسود رسول الله ﷺ. قتل فى غزاة أحد، رماء وحشى مولى جبير بن مطعم بحرية فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع، وبطلها غير مانع، وعظم قتله على النبى ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبير عليه فى الصلاة سبعين تكبيرة.

أمير المؤمنين على بن أبى طالب^(٢) رضى الله عنه وكرم وجهه. آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالثأيد الإلهي، كاشف الكرب ومجليها، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف. روى عنه رضى الله عنه أنه قال: والذى نفس ابن أبى طالب بيده لآلف ضربة بالسيف أهون على من موة على فراش. وقال بعض العرب: ما لقينا كعبة فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض. وقال رضى الله عنه معاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب، فذع الناس جانباً وخرج إلى ليعلم أين المران على قلبه، والمغضى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شذخاً يرم بدر، وذلك السيف معى، وبذلك القلب ألقى عدوى. وقيل له كرم الله وجهه: إذا جالت الخيل، فأين تطليك؟ قال: حيث تركتمونى. وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: لآنى كنت ألقى الرجل، فأقدر أنى أقتله، ويقدر هو أنى قتله، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه. وقال مصعب بن الزبير: كان على رضى الله عنه حذراً فى الحروب شديد الرورغان لا يكاد أحد يتمكن منه، وكانت درعه صدراً لا ظهر لها، فقل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهورك، فقال: إذا مكنت عدوى من ظهري، فلا أبقى الله عليه إن أبقى على. قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو فى صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله تزوج بقطام بنت علقمة، وكانت خارجة، فقالت له: لا أقتع إلا بصداق اسميه وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل على بن أبى طالب. فقال لها: لك ما سألت إلا على بن أبى طالب، وكيف لى به؟ قالت: تغتاله، فإن سلمت أرحت الناس من شره، وأقمت مع أهلك، وإن أصبت دخلت الجنة. فقال:

ثلاثة آلاف وعبيد وقبيلة
ضرب على بالحسام المخذم
فلا مهز أغلى من على وإن علا
ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

قيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد فى الغلس، وذلك فى تاسع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضى الله عنه فى ثلاثة أبواب، ودفن فى الرحبة مما يلى باب كندة من أبواب المسجد. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم لعنة الله. ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم، فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب، فأخذ، فأومأ على رضى الله عنه إلى المغيرة أن صلى بالناس، فصلى بهم الفجر وأقبلت همدان، فدخلوا على على، فقالوا يا أمير المؤمنين: لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى، فقال: لا تصغروا إنما النفس بالنفس. قال: ثم إن الحسن رضى الله عنه صلى الفجر وصعد المنبر، فأراد الكلام، فخنقته العبرة، ثم نطق، فقال: الحمد لله على ما أحببنا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وإنى أحسب عند الله عز وجل مصابى بأفضل الآباء بعد رسول الله القاتل ﷺ: «من أصيب بمصيبة فليست بمصيته فى فإنها أعظم المصائب»،

(١) حمزة بن عبد المطلب: فطر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (١٨٢٦).

(٢) على بن أبى طالب: انظر ترجمته فى (الإصابة) ترجمة (٥٦٨٨).

والله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ولا يدره الآخرون. فعند الله نحسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً، لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر، والدواب. ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعث في السرية، ويسير جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يتناهب بها خادماً لاهله، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم. ألا إن قريشاً أعطت أزمته شياطينها، فقادت بها باعتها إلى النار، فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليه، ومنهم من أسر الضعيفة حتى وجد على النفاق أعواناً. رفع الكتاب، وجف القلم، وأمور تقضى في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحزن، فبكى الناس بكاءً شديداً، ثم نزل، فجرد سيفه، ودعا بآبن ملجم، فاقبل يخطر واضعاً شعره على آتنيه حتى قام بين يديه، فقال: يا حسن إني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به. عاهدت الله تعالى على أن أقتل أبأك وقد قتلتك، فإن تخلني أقتل معاوية، فإن أنا قتلتك أضع يدي على يلك، وإن أقتل، فهو الذي تريد. فقال الحسن رضي الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقاءك، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فأتقاه ابن ملجم بيد، ثم أسرع بالسيف فيه فقتله.

ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي^(١) رضي الله عنه. سيف الله وسيف رسوله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لحالد يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق، وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم. أيد الله بها الإسلام. مات على فراشه، وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة أو ضربة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي لا نامت عين الجبان. وكان ينشد ويرثم ويقول:

لا ترعبونا بالسيف المبرقة أن السهام بالزدي مفرقة
والحرب دونها العقال مطلقة وخالد من دينه على ثقة
رضى الله عنه.

الزبير بن العوام^(٢) رضي الله عنه حواري رسول الله ﷺ وابن عمته بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يجارى. قتله عمرو ابن جرمول، اغتاله وهو في الصلاة.

عمرو بن معد يكرب الزبيدي^(٣) فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرًا. روى عنه رضي الله عنه أنه سأله يوماً، فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فغن أبها تسأل؟ قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطئه ويصيب، قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خائنك. قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة. وقيل: إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إني عابر على هذا الجسر، قال: فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدقوني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم. وإن بطأنتم وجدقوني قتيلاً بينهم. ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بني زيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حياً، فحلوا فانتهاوا إليه، وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فارس رجل من العجم، فأمسكها والفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رأنا أدركانه رمى الرجل نفسه وخطى فرسه، فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوني. فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمى بنشابة، فغار وشب فصرعني. ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدّمه يزدجرد ملك الفرس يوم

(١) خالد بن الوليد: انظر ترجمته في (الإصابة) ترجمة (٢٢٠-٢٢١).

(٢) الزبير بن العوام: انظر ترجمته في (الإصابة) ترجمة (٢٧٨٩).

(٣) عمرو بن معد يكرب: انظر (الإصابة) ترجمة (٥٩٧٠).

القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل، فقطع عرقوبه، فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل رستم وانهزمت العجم. وقتل عمرو بنهاوند في رقعة الفرس بعد أن عمر حتى ضعف وكان من الشعراء الممدودين، وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطشى ريبداً فقد أودى بنجدها عمرو

ومنها طلحة الأسدي^(١) رضى الله عنه، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاماً، ثم ارتد وتباً، وجمع جمعاً عظيماً، فقتل خالد بن الوليد جمعه وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتح. والمقداد بن الأسود^(٢) رضى الله عنه كان من أشجع الفرسان شديد لباس قوى الجنان رابط الجأش، وله فى الشجعان اسم مشهور ووصف مذكور بمجزز الواصف عن وصف صفاته رضى الله عنه وأرضاه. وسعد بن أبى وقاص^(٣) الزهرى الأنصارى رضى الله عنه كان فارساً بطلاً رامياً، وهو أول من رمى فى سبيل الله بهم، ولما قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه اعتزل، ولم يشهد الحرب بعده ومات خف أنفه. أبو دجاجة الأنصارى رضى الله عنه الذى خرج يتبخر بين الصفيين، فقال عليه الصلاة والسلام: إنها لمشيئة الله تعالى إلا فى هذا الموضع. والمثنى بن حارثة الشيباني رضى الله عنه هو أول من فتح حرب الفرس. وأبو عبيد بن مسعود الثقفى رضى الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف فى حرب القادسية. وعمار بن ياسر رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ الذى قال فيه رسول الله ﷺ: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخير أنه تقتله الفتنة الباغية، قتل بصفيين مع على رضى الله عنه. هاشم بن عتبة رضى الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية على رضى الله عنه بصفيين. مالك بن الحارث النخعي الأشتر رضى الله عنه، مات مسموماً فى شربة من عسل، فقال معاوية: إن لله جنوداً منها العسل. القعقاع بن عمرو طاعن الفيل فى عشية القادسية رضى الله عنه.

الطيفة الثانية: عبد الله بن الزبير بن العوام رضى الله عنه، قاتل جرجير ملك أفريقية الذى كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبى مليكة: صف لى عبد الله بن الزبير، فقال: «والله ما رأيت جلدًا قط ركب على لحم ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفساً بين جنين مثل نفس ركب بين جنبيه. ولقد قام يوماً إلى الصلاة، فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيه وصدره، فوالله ما خشع له بصراً، وقطع له قراءته، ولا رجع دون الركوع الذى كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوضر بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته وصلبه الحجاج، ألا إلى الله نصير الأمور».

أبو هاشم محمد بن على بن أبى طالب بن الحنفية رضى الله عنه، كان أبوه يلقبه فى الوقائع ويتقى به العظامم، وهو شديد لباس، ثابت الجنان، قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين على كرم وجهه يفتحكم الحروب دون الحسن والحسين رضى الله عنهما؟ فقال: «لأنهما كانا عيينه وكنت أنا يديه، فكان يتقى عيينه يسلي. وقيل: إن أباه علياً رضى الله عنه اشترى درعاً فاستطالها، فأراد أن يقطع منها، فقال له محمد: يا أبت علم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها، فقطعها من الموضع الذى حده أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه فى الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدث بهذا الحديث غضب. مات خف أنفه بشعب رضوى. عبد الله بن حازم السلمى رضى الله عنه والى خراسان شجع مضر وفارسها فى عصره، قتله وكيع بن أبى سويد بخراسان فى الفتنة. وكيع بن أبى سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فائق أهوج ولوى خراسان. قيل: لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه مات خف أنفه. مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وبنفسه، قتله عبيد الله بن زياد فى الحروب التى كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. عمير بن الحباب السلمى فارس الإسلام قتله بنو تغلب فى الحرب التى كانت بينهم وبين قيس. مسلمة بن عبد الملك بن مروان فعل بنى أمية وفارسها والى حروبها، قيل: إنه جلس يوماً ليقضى بين الناس بمصر، فكلمته امرأة، فلم يقبل عليها،

(١) طلحة الأسدي: هو طلحة بن أسد بن عبد الله المختار أبو محمد الرقى. انظر ترجمته فى (تاريخ مدينة دمشق) لابن عسك (٥٢١/٨).

(٢) المقداد بن الأسود: هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن الأسود. انظر ترجمته فى (الإصابة) (٤٥٤/٣) ترجمته (٨١٨٣).

(٣) سعد بن أبى وقاص: هو سعد بن مالك لى وقاص بن أعيب أبو إسحاق الزهرى الصنعلى أحد العشرة المبشرين بالجنة. انظر ترجمته فى (الإصابة) (٣٣/٢) ترجمة (٣١٩٤).

فصالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط، فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: هل ترين أثر هذا الطعن، والله لو أخرجت رجلى قيد شبر ما أصابتنى واحدة منهن، وما منعتى من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تحليلتى قلته. المعتصم يظل شجاعاً، فارس صنديد لم يكن فى بنى العباس أشجع منه ولا أشد قلباً. قال ابن أبى داود: كان المعتصم يقول لى: يا أبا عبد الله عض على ساعدى بأكثر قوتك، فأقول والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسى بذلك، فيقول: إنه لا يفسرنى فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأستهة، فكيف تعمل فيه الأستهة، ويقال: إنه طعمه بعض الخواارج، وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقصم الرمح نصفين. وكان يشد يده على كتابة الدثار فيمسحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً فى العنق.

إبراهيم بن الأشتر النخعى^(١) كان من الشجعان المدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف، وعبيد الله فى سبعين ألفاً، فظفر به وقتله بيده وهزم جيشه. عبد الله بن الحر الجعفى، شجاع شاعر فائق له وقائع عظيمة هائلة، وأخبره فى الشجاعة مشهورة. جعندر بن ربيعة المكللى^(٢)، كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً شاعراً، قهر أهل البصرة، وأبادهم، فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف، فكتب إلى عامله يويجه بتغلب جعندر عليه، ويأمر بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيراً، فوجه العامل إليه فتية من بنى حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جعندراً أو أوثروا به أسيراً، فتوجه الفتية فى طلبه حتى إذا كانوا قريباً منه أرسلوا يقولون له: إنهم يريدون الانقطاع إليك والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يوماً إذا وثبوا عليه فشدوه وثاقاً، وقدموا به على العامل، فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جعندر؟ قال: نعم. أصلح الله الأمير. قال: ما جراك على ما بلغنى عنك؟ قال: أصلح الله الأمير: كلب الزمان، وجفوة السلطان وجرأة الجنان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني الأمير، وجعلنى مع الفرسان لراى منى ما يعجبه، قال: فتعجب الحجاج من لبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جعندر إنى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم، فإن قتلك كفتاً مؤنثك، وإن قتلت عفوئنا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى فأمر به، فصعدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه، فتصيح العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشى، فتصيحوا حتى أخذوه وصيروه فى تابوت ومسجوه على عجل، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فالتقى فى الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجعندر أن يتزله إليه، فأعطوه سيفاً وأتزلوه إليه مسقيداً، وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجعندر، وهو ينشد ويقول:

ليث وليث فى مـجـال ضنك كلاهما ذو قوة وسفك
وصولة وبطشة وفيتك إن يكشف الله قناع الشك
فأنت لى فى قبضتى وملكى

ثم دنا منه وضربه بسيفه فقلق هامته، فكبر الناس وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درك ما المهلك، ثم أمر به، فأخرج من الحاجر وفك عنه قيوده وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك، وتقرب من منزلك وإما أن تأخذ لك، فتلق ببلادك وأهلك على أن نضمن لنا أن لا نتحدث بها حديثاً، ولا تؤذى بها أحداً، قال: بل اختر صحبتك أيها الأمير، فجعل من سماره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاء على البصرة. وكان من أمره ما كان. المهلب بن أبى صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال إلا أن الغيرة من بينهم كان أشد فتنة، وكان المهلب يقول: ما شهد معى الغيرة حراً إلا رأيت البشرى فى وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان، وفى يده شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبرأها بسيفه. وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلية، وأحمر قريش، وراكب البقلة، قاتل الكلية مصعب بن الزبير، وأحمر قريش عمر بن عبد الله بن معمر ما لقي خيلاً قط إلا فرقها. وراكب البقلة عباد بن الحصين ما كان قط فى كربة إلا فرجها وهو من فرسان الإسلام. وكان للمهلب

(١) إبراهيم بن الأشتر: هو إبراهيم بن الأشتر بن مالك بن الحارث النخعى. انظر (سير اعلام النبلاء) للذهبي (٣٥/٤) (٢٧).

(٢) جعندر بن ربيعة: هو جعندر المكللى، شاعر من أهل البصرة كان أيام الحجاج بن يوسف يقطع الطريق وينهب الأموال ما بين حجر والبصرة تروى سنة (١٠٠هـ).

فى الحربوا مكايء مشهورة ووقائعها أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيداً كريماً، مات
حظ أنفه، وكذلك ابنه المغيرة، وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تعرض للقتل بين أسنة وصفائح

وكان فى الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم بطول، ويخرج عما أردناه. فمنهم: أبو بلال
مرداس خرج فى أربعين فهزم القين وشبيب الخارجي الذى غرق فى الفرات، نزلت امرأته غزالة أن تصلى فى جامع
الكوفة ركعتين تقرأ فى الأولى البقرة وفى الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع، ووقف على بابها
يحميها حتى وفّت يندرها، والحجاج فى الكوفة فى خمسين ألفاً. ومنهم قطري بن الفجاءة كان رأس الخوارج،
وخاطبوه بأمر المؤمنين، وعظموه وبجلوه، وأشاعره فى الشجاعة تدل على مكانه منها، قتل فى بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة: ممن بن زائدة الشيباني قتل الخوارج بسجستان فى أيام المهدي. الوليد بن طريف الشيباني قتل يزد
بن يزيد. عمرو بن حنيفة كان من الفرسان المعدودة، نقل عنه أنه كان يتصيد، فتبع حمار وحش وما زال يركض إلى
أن حاذاه، فجمع رجله ووثب من على فرسه وصار على ظهر حمار الوحش، وصار يحز عنقه سيف أو سكين فى يده
حتى قتل. أبو دلف القاسم بن عيسى المعلى فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره، طعن فارسين رديفين،
فأنفذ الرمح من ظهرهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنة يوم اللقاء ولا يراه جليلاً
لا تعجبوا لو كان مد قناته ميلاً إذا نظم الفوارس ميلاً
وسأله يوماً رجل شيئاً، فقال له: أسأل وجدك القاتل:

ومن يفتقر منا يعيش بحمامه ومن يفتقر من سائر الناس يئال
وإنما لنلهو بالسيف كما لهت فتاة بعقد أو محاب قرنفل

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه فى طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقلعه، فبلغ
الخبر أبا دلف فقال: دعوه، فإنى علمته فى نفسى. بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فأتته له أشعار مشهورة، وأخبار
مذكورة.

ومما جاء فى مدح السيف: قال رسول الله ﷺ: «الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف». وكان مصمص
عمرو أشهر سيوف العرب، ومن قتل به نهشل، فقال:

أخ ماجد ما خاننى يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مفاربه

ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خليلى لم أخنه ولم يخنى إذا صاب أوساط العظام
خليلى لم أحببه من قتلاه ولكن المواهب للكرام
حسبوت به كريماً من قرش فسر به وصين عن اللثام
وودعت الصفى صفى نفسى على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل
عند بنى مروان، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي، فلم يجدوه، فجد الهادي فى طلبه حتى ظفر به، وكان مكتوباً
عليه هذا البيت:

ذَكَرَ عَلَى ذَكَرٍ يَصُولُ بِصَارِمٍ

ذَكَرَ بِمَنْ فِي مِجَنِّ يَمَانِي

وقال ابن الرومي:

لَمْ أَرْ شَيْئاً حَاضِراً نَفَعَهُ
يَقْضِي لَهُ الدَّرْهَمَ حَاجَاتِهِ

لِلْمَسْرُوعِ كَالدَّرْهَمِ وَالسَّيْفِ
وَالسَّيْفِ يَحْمِيهِ مِنَ الْحَيْفِ

وقال زيد بن علي رضي الله عنهما:

السَّيْفُ يَعْرِفُ عِزِّي عِنْدَ هِزَّتِهِ
إِنَّا لَنَأْمَلُ مَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا

وَالرَّمْحُ بِي خَبِيرٍ وَاللَّهُ لِي وَرَرٍ
مَنْ قَبْلَ تَأْمَلِهِ إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ

وقال عبد الله بن طاهر:

يَبْتَ ضَجِيعِي السَّيْفَ طَوْرًا وَتَارَةً
أَخُو ثِقَةٍ أَرْضَاءَ فِي الرُّوعِ صَاحِبًا
وَلَيْسَ أَخُو الْعَلِيَّيْنِ إِلَّا فَتًى لَهُ

يَعِضُ بِهَامَاتِ الرِّجَالِ مَضَارِيهَ
وَفَوْقَ رِضَاءِ أُنْتَى صَاحِبِهِ
بِهَا كَلَفٌ مَا تَسْتَقِرُّ رِكَائِيهِ

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده على، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أوتعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك. أعرفه بقول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفِهِمْ

بِهِمْ فَلَوْلَ مَنْ قَرَعَ الْكَتَائِبَ

وقال الأجدع الهملاني:

لَقَدْ عَلِمْتُ نَوَّانَ هَمْدَانِ أُنْتَى
وَأَبْدَلُ فِي الْهَيْجَاءِ وَجْهِي وَإُنْتَى

لَهْنِ غِدَاةِ الرُّوعِ غَيْرِ خَنْذُولِ
لَهُ فِي سَوَى الْهَيْجَاءِ غَيْرُ بَذُولِ

وقال آخر:

عَشْرُونَ أَلْفَ فَتًى مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ
رَاحَتْ مَزَاوِدُهُمْ مَحْمُوءَةً أَمْسَلًا

إِلَّا كَأَلْفِ فَتًى مَقْدَامَةً بِطَلٍ
فَنَفَرُغَرُوهَا وَأَوْكُوها مِنَ الْأَجَلِ

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوقاً بأخبار العرب أن أسمعاها واجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خيائها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذوايتان كالسبع المنظوم، وهي تعاتبه بلسان وطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها أي بنى، وهو يتسم في وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر

لا يرد جواباً. فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، ففوت منه وعلمت، فرد على السلام، فوقفت أنظر إليها، فقالت: يا حضري ما حاجتك؟ فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضري إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يرحمك الله. فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وجل أن أضمه، فوضعته خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل، وأعطى وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أمه أقيمه برد الشتاء، وحر الصيف، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب، فحفظه القرآن فتلاء، وعلمه الشعر فرواه، وورع في مفاخر قومه وأباه وأجداده، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عناق الخيل فخرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين يوثات الحلى الخيلاء، فأخذ في قرى الضيف وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحلى في طلب نائر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أسمعنا القوم، ولم يبق في الحلى غيره، ونحن آمنون وادعون، ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلّح العدو، فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقاً عليه وضناً به، حتى إذا علت الأصوات وبرت المخدرات رمى دثاره وثار كما يشور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، وليس لامة حربه، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أذنانهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان، فرأوه صبيّاً صغيراً لا مدد وراءه فحملوا عليه، فاقبل يوم البيوت، ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم، ففرق شملهم وشئت جمعهم، وقلل كثرهم ومزقهم كل عزق، ومزق كما يمزق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فوالله لا رجعت إلا به، أو لاهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتجزيت له الفتيتان، وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الاسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا عظمها، ولا كتية إلا مزقها حتى لم يبق من القوم إلا من لحما به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به، فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمع صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتیان الحلى هذه الآيات:

إذا حشـرجت نفس الجـبيان من الكرب
من الخوف مـلـوبـ العـزـمة والقلب
من السـمـهـرى الـلدن والمـرـهـف العـصـب
سـلـيل المـعـالى والمـكـامـر والسـيـب
وطـرف قـوى الظـهـر والجـوف والجـنب
حـجـبال الرـواسى لـاتـحـطـطن إلى التـرب
وبـيت شـرـيف فى ذرى ثـعلـب الثـلب
لكن وأحـمـيـكن بـالطـعن والفـرب
يـهـتـيـنـه بـالـفـنـارس البـطل النـدب

تأملن فـسـلـى هل رأيتن مـثـله
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه
ألم أعط كلا حقـه ونصـيـبه
أنا ابن أبى هند بن قيس بن مسالك
أبى لى أن أعطى الظلامـة مـرـهـف
وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ
وعرض نقى أتقى أن أصـيـبه
فإن لم أقاتل دونكن وأحـتـمـى
فلا صدق اللاتى مسشين إلى أبى

وقال الشاعر:

أرأاهم ووجوههم وسيوفهم في الحادثات إذا دجـون لمجـوم
منها معالم للهدى ومصايح تجلـو الدجـى والآخرى رات رجـوم
وقال آخر:

فوارس قـوالون للخيـل اقـدمى وليس على غـيـر الرؤوس مـجـال
بأيديهم سـمر العـوالى كـالما تشب على أطرافهم ذبـال
وقال آخر:

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم شمساً دخلت وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفلهم عن سائل عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصرخ دعاهم للممة بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم

قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ، ويحك أن يقال في وصف الجبان، إن أحس يعصفور طار فواده، وإن طنت بعوضة طال سواده، يفرح من صرير الباب، ويقلق من طين الذباب، إن نظر إليه شزراً أغشى عليه شهراً يحسب خضوق الرياح قمقعة الرماح، قال الشاعر:

إذا صوت العصفور طار فواده وليث حديد الشاب عند الشرايد

وكان حسان بن ثابت^(١) رضى الله عنه من الجبناء^(٢)، روى عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطمع مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهودى يطوف بالحصن، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قال: فاعتجرت صفية، ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن، فضرته بالعمود حتى قتله، ورجعت إلى الحصن، فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه، فإنه ما متعنى من سلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قريش جارية مليحة الوجه حسنة الأدب، وكان يحبسها حباً شديداً، فأصابته إضاعة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها، فحملها إلى العراق، وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف، فابتاعها منه الحجاج فوكتت منه بمنزلة، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه، فأنزله قريباً منه، وأحسن إليه، فدخل على الحجاج، والجارية تكبه، وكان

(١) حسان بن ثابت: هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجى الأصبغى، أبو وليد الصحابى المشهور، شاعر رسول الله ﷺ، من الخضرين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام، وشاعر شديد الهجاء، فعل الشعر ما توفي في المدينة سنة (٦٥٤هـ-٦٧٤م).

(٢) تعليق: أن يوسف حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ بلجلى أمر لا يصح، فهو صحابى جليل القدر، جليل المكانة، بل والأقطع أن يضرب به المثل في الجبن، وهذا أمر لا يجوز، وخاصة أن الرواية لم تتصح وأن الصحابى كان قد أصيب بملء منته من التصرف كيف شاء. قال ابن الكلبي: كان حسان لساً شجاعاً، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن.

الفتى جميلاً، فجعلت الجارية تسارقه النظر، ففطن الحجاج بها، فوهبها له، فأخذها وانصرف، فباتت معه ليلتها وهربت بغلس فأصبح لا يدرى أين هي وبلغ الحجاج ذلك، فأمر منادياً أن ينادى برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا، أو لم يحضرها، فلم يلبث أن أتى له بها، فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندى من أحب الناس إلى، فاخترت ابن عمى شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقيه النظر، فعلمت أنك شغفت به، فوهبتك له، فهربت من ليلتك. فقالت له يا سيدى: اسمع قصتى، ثم اصنع بى ما شئت. قال: هاتى ولا تخفى شيئاً. قالت: كنت للفتى القرشى، فاحتاج إلى ثمنى، فحملنى إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا منى فوق عالى، فسمع زئير الأسد، فوثب واخترط سيفه وحمل عليه، وضربه، فقتله، وأتى برأسه، ثم أقبل على وما يرد ما عنده، ثم قضى حاجته، وإن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل قام إلى، فلما علا بطنى وقعت قارة من السقف، فضرط، ثم غشى عليه، فمكث زماناً طويلاً وأنا أرض عليه الماء، وهو لا يفتق، فخفت أن يموت، فتحنى به، فهربت فرعاً منك. فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكتمى هذا ولا تعلمى به أحداً. قالت: على أن لا تردنى إليه. قال: لك ذلك.

وحدث جابر لآبى حنيفة النيمى قال: كان لآبى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصافير، وكان يسميه لعاب المنيّة، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتفاه، وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حناً فى داره، وهو يقول: أيها المخرّب المجترى علينا بشى والله ما اخترت لنفسك خير قليل، وسيف صقيل، وهو لعاب المنيّة الذى سمعت به. أخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك، ثم فتح الباب على وجل، فإذا كلب قد خرج، فقال: الحمد لله الذى مسحك كلب وكفانا حرباً. وخرج المعتصم يرمى إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وحمّام خلقه: أفيك خير يا رجل؟ قال: لا، فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان. ورأى الإسكندر سميّاً له لا يزال يتهزم، فقال له: يا رجل إما أن تغير فعلك، وإما أن تغير اسمك. ووقع فى بعض العساكر ضجّة، فوثب خراماتو إلى دابة ليلجمها، فصر اللجام فى الذئب من الدهش، وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت، فناصيتك كيف طالت.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابى فى الفين لمحاربة أبى بلال مرداس، وكان مرداس فى أربعين، فانهزم أسلم منه فلما هو على ذلك، ودمه ابن أبى زياد، فقال: لأن يذمى ابن أبى زياد حياً أحب إلى من أن يمدحنى ميتاً. وكان أسد بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به أبو بلال وراك، فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن أبى زياد، فأمّ صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفى ذلك يقول بعضهم شعراً:

يقول جبان القوم فى حال مكروه	وقد شرب الصهباء هل من مبارز
وإين الحسيول الأعرجيات فى الوغى	أنارل منهم كل لبص مناهز
نفى الكر قيس وابن معدى وعامر	وفى الصحو تلقاء كبعض العجائز

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب، والحمد لله الكريم الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحاب الطاهرين، والحمد لله رب العالمين.

في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول: في المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها، يكون نعتاً حميداً، وهذا يصح من المولى في حق عبده، فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا جَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وقال تعالى لنيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقَ عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الذين هم في صلاتهم خاشعون] [المؤمنون: ١، ٢]. فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة، وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب» فقد قال العنبي: هو المدح الباطل والكذب، وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا في مدح تراباً، وقد مدح هو المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. وفي حث التراب معنيين، أحدهما: التخليط في الرد عليه، والثاني: كأنه يقال: له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون، واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون. ومدح سارية الدبلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي الله عنه على السرية، وناداه في خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله:

فما حملت من ناقةٍ فوق ظهرها أبر وأوفى ذمة من محمد

وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه قوله:

لو لم تكن فيميه آياتٌ مبينةٌ كانت بديهيته تنبيك بالخير

ولما حججت وزرته ﷺ، تطلعت على جنباه المعظم وامتدحته بأبيات مطولة، وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصدوق الشريف وأنا مكشوف الرأس، وأبكي من جعلتها:

يا سيد السادات جئتكَ قاصداً أرجو رضاك وأحتمي بحماكا
والله يا خير الخلائق إن لي قلباً مشرقاً لا يروم سواكا
وَوَحْيَ جِاهِكَ إِنِّي بِكَ مَفْرَم والله يعلم أنني أهواكا
أنت الذي لولاك ما خلقت أمرو كلاً ولا خلقت الوري لولاكا
أنت الذي من نورك البدر اكشسي والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذي لما رفعت إلى السما بك قد سمعت وترينت لسراكا

أنت الذي ناداك ربك مرحباً
أنت الذي فسينا سألت شفاعة
أنت الذي لما تومسلى آدم
وبك الخليل دعاً فعمادت ناره
ودعاًك أيوب لضرمه
وبك المسيح أتى بشيرك مخبراً
وكذاك موسى لم يزل مستوسلاً
والأحببياء وكل خلق في الورى
لك معجزات أعجزت كل الورى
نطق الذراع بسمة لك معلناً
والذئب جاءك والغزالة قد أتت
وكذا الوحوش أتت إليك وسلمت
ودعوت أشجاراً أنتك مطيعة
والماء قاض براحتيك وسبحت
وعليك ظللت الغمامة في الورى
وكذاك لا أثر لشريك في الثرى
وشفيت ذا العاهات من أمراضه
وردت عين قتادة بعد العمى
وكنا حبيباً وابن عفرأ عندما
وعلى من رمى به داويدة
وسألت ربك في ابن جابر بعدما
ومست ثاة لأم معبد بعدما
ودعوت هام المحل ربك معلناً
ودعوت كل خلق فأتقادوا إلى
وخففت دين الكفر يا علم الهدى
أعداك عادوا في القليب بجهلهم
في يوم بدر قد أنتك ملاكك
والفتح جاءك يوم فتحك مكث
هوذا ويونس من بهالك تمجلاً
قد فُتت يا طه جميع الأنبياء
والله يا ياسين مثلك لم يكن
عن وصفك الشعراء يا مدثر
إلهيل عيسى قد أتى بك مخبراً

ولقد دعاك لقربه وحبباً
ناداك ربك لم تكن لسواك
من ذنبه بك فإزوهو أباً
برقاً وقد خمدت بنور سناك
فأزىل عنه الشرحين دعاً
بصفت حسنك مادحاً لملأك
بك في القيامة مروج لنادك
والرسل والأملأك تحت لواءك
وفضائل جلت فليس تحماكى
والضرب قد لبأك حين أتاك
بك تستجير وتحمى بحماك
وشكا البشير إليك حين رأك
وسعت إليك مجيبة لنادك
صم الحمى بالفضل في يناك
والجذع حن إلى كريم لقأك
والصخر قد غامت به قدمأك
وملأت كل الأرض من جسدأك
وابن الحصين شفيته بشفاك
جرحا شفتيهما بلمس يداك
في غيبى فشفى بطيب لماك
قد مات أحياء وقد أرضأك
نشفت فلدت من شفا رقبأك
فأتاهل قطر السحب عند دعأك
دعواك طوقاً سامعين نادك
ورفعت دينك فاستقام هناك
صرعى وقد حرموا الرضا بجفاك
من عند ربك قاتلت أعدأك
والنصر في الأحزاب قد وافأك
وجمال يوسف من غيابه سناك
نورا فسبحان الذى سواك
في العالمين وحق من نبيأك
عجزوا وكلوا عن صفات علاك
وأنى الكتاب لنا مدح حلاك

أن يجمع الكتاب من معناكا
والعشب أقلاماً جعلن لناكا
أبدك وما استطاعوا له إدراكا
رحشاشة محشوة بهواكا
وإذا نطقت فمداحاً عليهاكا
وإذا نظرت فسلأ أرى إلأكا
إني فقير في الوري لشناكا
جد لي بجودك وارغمني برضاكا
لاين الخطيب من الأثام مواكا
فلقد غدا مستمكاً بهراكا
ومن التجا لحماك نال وفاكا
فعمى أرى في الحشر تحت لواكا
ما حن مشتاق إلى مشواكا
والتابعين وكل من والاكا

ماذا يقول المادحون وما عسى
والله لو أن البحار مسداهم
لم تقدر الشقلان تجمع ذرة
لي فيك قلب مغرم يا سيدي
فإذا سكنت ففنيك صميتي كله
وإذا سمعت فعتك قولاً طيباً
يا مالكي كن شافعي من فاقتي
يا أكرم الشقلين يا كثر الوري
أنا طامع في الجود منك ولم يكن
فعمالك تشفع فيه عند حابه
ولأنت أكرم شافع ومشفع
فاجعل قرأ شفاعة لي في غد
صلى عليك الله يا خير الوري
وعلى صحابتك الكرام جميعهم

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدحه الله تعالى وأثنى عليه، وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر»، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتاب لما استطاعوا أن يجمعوا التز اليسر من بعض صفاته، ولكلوا عن الإتيان ببعض بعض وصف معجزاته عليه السلام. ومدح رجل هشام بن عبد الملك، فقال له: يا هذا إنه قد نهى عن مدح الرجل في وجهه، فقال: ما مدحتك، ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجد لها شكراً، فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسي فيما أتعاظي من مدحك كالخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أنني حيث انتهى من القول منسوب إلى المعجز مقصر عن الغاية، فأنصرفت عن الشاء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب:

فسي دهره شطران فيمما ينوبه
فلا من بقاء الخير في عينه قلبي
ففي باسمه شطروني جوده شطروني
ولا من رئيس الحرب في أذنه وقروني

وقال أعرابي لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه، ولا يشتكي زمان أنت فيه. وكان الحجاج يشغل رباب بن عمرو العنكي، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين إن الحجاج سيفك الذي لا ينو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يسقى منه ذلك البستان. وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب الياقوتة في اللغة: أنت والله عين الدنيا، فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الطقي: (١)

(١) القاسم بن أمية: هو قاسم بن أمية بن أبي الصلت الطقي، شاعر، ابن شاعر حكيم، من الطائف يعد من الصحابة، عاش إلى ما بعد عثمان بن عفان، ورثاه، وله شعر في مجالس تلمب، والحامسة الصغرى وسط الأبي. توفي (بعد ٢٥٥هـ - بعد ٢٥٥م). انظر (الإصابة) (٣٠٠/٢٢٠) ترجمة (٧٠٥٠).

قَسَمُوا إِذَا نَزَلَ الْغَرِيبُ بِدَارِهِمْ
تَرْكُوهُ رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانٍ
وَإِذَا دَعَوْهُمْ لِيَوْمِ كَرِيمَةٍ
سَلُّوا شِمَاعَ الشَّمْسِ بِالْفَرَسَانِ
وَقَالَ أَوْسُ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِي:

فَإِنْ تَنَكَّحِي مَارِيَةَ الْخَيْرِ حَاتِمًا
فَمَا مِثْلُهُ فِينَا وَلَا فِي الْأَعَاجِمِ
فَسَتِي لَا يَزَالُ الدَّهْرُ أَكْبَرَ هُمًّا
فَكَأَنَّكَ أَسِيرٌ أَوْ مَعُونَةٌ غَارِمِ
وَقَالَ ابْنُ حَمْدُونٍ فِي آلِ الْمُهَلَّبِ:

آلُ الْمُهَلَّبِ مَعْنَى أَمْجَادُ
وَرِثُوا الْمَكَارِمَ وَالْوَفَاءَ فَمَادُوا
شَدَادَ الْمُهَلَّبِ مَا بَنَى أَبَاؤُهُ
وَأَتَى بَنُوهُ مَا بَنَاهُ فَشَدَادُوا
وَكُنَّاكَ مِنْ طَابَتِ مَفَارِسُ نَبْتِهِ
وَرِثْنِي لَهُ الْأَبْيَاءُ وَالْأَجْسَادُ

وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ هَجَاءَ لِعَمْرِ بْنِ هَبِيرَةَ، فَلَمَّا سَجَنَ وَنَقَبَ لَهُ السَّجْنَ وَسَارَ هُوَ وَبَنُوهُ تَحْتَ الْأَرْضِ قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

وَلَمَّا رَأَيْتِ الْأَرْضَ قَسَدًا ظَهَرَهَا
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بَطْنُهَا لَكَ مَخْرَجًا
دَعْوَتِ الَّذِي نَادَاهُ يُونُسُ بَعْدَ مَا
ثَوَى فِي ثَلَاثِ مَظْلَمَاتٍ فَمُخْرَجًا

فَقَالَ ابْنُ هَبِيرَةَ: مَا رَأَيْتِ أَشْرَفَ مِنَ الْفَرَزْدَقِ هَجَانِي أَمِيرًا وَمَدَحَنِي أَمِيرًا.

وَقَالَ سَرِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّقَاءِ فِي خَالِدِ بْنِ حَاتِمٍ:

يَا وَاحِدَ الْعَرَبِ الَّذِي دَانَتْ لَهُ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَقِيْتُكَ سَالِكًا
وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ فِي آلِ هَاشِمٍ:

يَا آلَ هَاشِمِ الْإِلَهَ حَبَسَكُمْ
قَوْمٌ لَا أَصْلَهُمُ السَّيَادَةُ كُلُّهَا
قَسَدُكُمْ وَأَفْرَعُهُمُ النَّبِيُّ الْمُرْمَلُ

وَقَالَ الْحَكِيمُ بْنُ دَعْبِلَ الْخَزَاعِي:

مَلِكُ الْأُمُورِ بِجُودِهِ وَحَسَامُهُ
فَأَطَاعَ أَمْرَ الْجُودِ فِي أَمْوَالِهِ
شَرُّكَ يَا يَتُودَ عَدُوَّهُ بِزِمَامِهِ
وَإِطَاعَ أَسِيرِ اللَّهِ فِي أَحْكَامِهِ

وَقَالَ آخَرُ:

يَلْقَى السُّيُوفَ بِصُدُورِهِ وَيَنْحَرُهُ
وَيَقُولُ لِلطَّرْفِ اصْطَبِرْ لِنَسْنَى الْقَنَا
وَيَقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفَرِ
فَعَقَرَتْ رُكْنَ الْمَجْدِ إِنْ لَمْ تَعْقُرْ

مستسريل أبواب مجل أغبر
نحترنى الأعداء إن لم تنحبر

وإذا ترادى شخص ضيف مقبل
أومى إلى الكومساء هذا طارق

وقال شاعر بنى تميم:

على كرم وإن سلفروا أناروا
ولكن بالطعم أن هم نجار
فأنت لا كسرم الثقلين جبار

إذا لبسوا عمامتهم طووها
يبيع ويشترى لهم سواهم
إذا ما كنت جبار بنى تميم

وقالت امرأة من بنى نمير وقد حضرتها الوفا وأهلها مجتمعون من ذا الذى يقول:

بطائشة الصدور والأقصار

لعمري ما ومناح بنى نمير

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالى، وكان مالا كثيرا، وأثنى رجل على رجل، فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدث، وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحات إذا خولف يعطى صديقه النافلة ولا يسأله الفريضة، له نفس عن الفحشاء محصورة وعلى المعالي مقصورة كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان والشمس النيرة التى لا تخفى بكل مكان هو النجم المضى للحيران، والمنهل البارد العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانئ:

فأنت كما تثنى وفوق الذى تثنى
لغيرك إنسانا فأنت الذى تعنى

إذا نحن أثينا عليك بصالح
وإن جرت الانفاس يوما بمدحة

وله فى الفضل بن الربيع:

ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا
بجود كفك تأسو كل ما جرحا

لقد نزلت أبا العباس منزلة
وكلت بالدهر عينا غير غافلة

وقال زياد الأعجم. فى محمد بن القاسم الثقفى:

بمحمد بن القاسم بن محمد
يا قرب سورة مؤود من مولد

إن المناير أصبحت مختالة
قادة الجيوش لبيع عشرة حجة

ومن بدائع مدائح المتنبي قوله:

فما كليب وأهل الأعصر الأول
فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
فإن وجدت لسانا قاتلا فقل

ليت المدائح تنوفى مناقبه
خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به
وقد وجدت مكان القول ذا سمة

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء، فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه خلعاً سنياً حتى إنه لم يستطع أن يقوم، فغار الشراء منه، فجمعهم وقال: يا لله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض إن أحذكم بأيتنا ليمدحنا فيتزلف فى قصيدته بخمسين بيتاً، فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره، وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات سيرة ثم قال:

لما علقْتُ من الأمير حبالاً

إنى أمنتُ من الزمان وصرفه

لو يستطيع الناس من إجلاله جعلوا له حراً الوجوه نعالا
إن المطايا تشتكك لانهما قطعت إليك سباسباً ورمالا
فلماذا وردن بنا وردنا غنائفاً وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

ورفد أبو نواس^(١) على الخصيب بمصر، فأذن له وعنده الشعراء، فأنشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشدنا، فأنشده قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تزر أرض الخصيب ركاينا فلأي فتى بعد الخصيب نزور
فتى يشترى حسن الشتاء بماله ويعلم أن اللذائرت تدور
فما فاته جود ولا فضل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

فاهتز الخصيب لها طرباً، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

وحكى أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل، فرأيا امرأتين تتماشيان فقالت إحداهما للأخرى: هذا أبو دلف؟ قالت: نعم الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيــــــــــــــــا أبو دلف بين يديه ومحمــــــــــــــــضه
فـــــــــــــــــإذا ولى أبو دلف ولت الدنيــــــــــــــــا على أثره

فيكي أبو دلف حتى جرت دموعه، فقال له معقل: ما لك يا أخي تكي؟ فقال: لاني لم أقض حق الذي قال هذا. قال: أركم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال: هذه المدحة، فإن المنحة؟ قال بعضهم:

إذا مــــــــــــــــا المدح صــــــــــــــــار بلا نوال من الممدوح كان هو الهجاء

وامتنح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش، محمد بن نصر صاحب حلب، فأجاره بألف دينار، ثم مات محمد ابن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعدت عنك حرمة لا وهادة وسرت إليكم حين مسنى الضر
فجاء أبو نصر بألف تصرمت ولأي علم أن سيخلفها نصر

فلما فرغ من إنشاده قال نصر: والله لو قال: سيضاعفها نصر لأضعفتها له، وأعطاه ألف دينار في طبق فضة. ومدح بعض الشعراء وقيل: هو البلديع الهمداني إنساناً فقال:

يكاد يحكيه صوب الغيث منكباً لو كان طلق المحيا يطر الذعبا
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال آخر:

أخسر كسوم يقضى الورى من بساطه إلى روض مجد بالسماح مجود

(١) أبو نواس: هو الحسن بن هاتم بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء، أبو نواس، شاعر العراقي في عصره، ولد في الأهوار (من بلاد خوزستان) وشا بالبصرة، ودخل إلى بغداد، فاقبل فيها بالخلفاء من بني العباس، قال الإمام الشافعي: لولا مجون أبي نواس لأعلنت عنه العلم. له ديوان شعر، و«الكفاة والكناس في مجون أبي نواس» توفي سنة (١٩٨هـ - ١٨٤هـ) انظر «وفيات الأعيان» (٢/ ٩٥-١٠٤) ترجمة (١٧٠).

ويقال: فلان رقيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزله، وغرة المعر ومحجبه، مواهبه الإنواء، وصدره المنهأ، عونه موقوف على اللهياف، وغوثه مبذول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وحمته على قدرته، يتابع الجود تنجر من أنامله وريح السماح يضحك عن فواضله، إن طلب كريماً في جوده مت قبل وجوده أو ماجداً في أخلاقه مت ولم تلاقه بأسل تعود الإقدام حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مارج البحر لنفى ملوحته. وصفى كدوره. خلق كنسيم الأشجار على صفحات الانهار، وأطيب من رمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ويؤلف الآراء المتشتتة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت وعمارة الدنيا إذا خربت، يحل دقائق الأشكال، ويزيل جلالل الإشكال. البيان أصغر صفاته والبلاغة عنوان خطراته، كأنما أوحى التوفيق إلى صدره وحس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يبعث بالكلام ويقوده بالإن زمام حتى كان الألفاظ تحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتفاير في الامتثال لأوامره، يوجز فلا يخل ويطلب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو أيس ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس، فهو إذا أنشأ وشى وإذا عبّر حبر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام وياهت في يمينه الأقالام، له أدب لو تصور شخصاً لكان بالقلوب مختصاً. قال الشاعر:

كما تصفو على الزمن العقار

له خلُق على الأيام يصفو

وقال آخر:

ما كان يذبل نوره بشئائه

لو كان يحوى الروض ناضر خلُقِه

ما صار نحن في نجوم سمائه

أو قبائل الأفلاك طالع سمعه

وقال آخر:

وكفك في شهب السنين غمام

ووجهك بدر في الغياهب مشرق

سحاب ولا ينشأ منه ظلام

عجيب لبدر لا يزال أمامه

تلظى مكان البرق منه حمام

وأعجب من هذا غمام إذا سطا

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

ويوم نعيم فيه للناس أعم

له يوم يؤس فيه للناس أبؤس

ويمطر يوم البؤس من كفه الدم

فيحطر يوم الجود من كفه التندى

على الناس لم يصبح على الأرض مجرم

فلو أن يوم البؤس خلّى عقبابه

عن المال لم يصبح على الأرض معدم

ولو أن يوم الجود خلّى يمينه

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

قدّر على باغي مداه بعيد

والله ما عجبي لقيلدك أنه

فى هذه الدنيا وأنت وحيد

إلا لكونك لست تشكو وحشة

ولصنى الدين الحلى:

عيّا وكم أبيت صفاتك خاطبا

أنتى فتشيتنى صفاتك مظهرًا

نشى عليك لما قضينا الواجبا

لو أننى والخلق جميعًا ألنّ

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أوصافكم تجمرى أحاديثها
كما أحاديث الندى عنكم

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

روت عنك أخبار الممالي محاسنًا
فوجهك عن بشرٍ وكفك عن عطا

وقال غيره:

من دار بابك لم تبرح جوارحه
فالعين عن قبرة والكف عن صلة

ولأبي فراس بن حمدان:

لئن خلقت الأيام لحب كسـاس
فلم يخلق بنو حـمـدان إلا

وقال آخر:

إن الهبات التي جاد الكرام بها
ما رلت تسبق حتى قال حاسدكم

ولمحمد بن مناذر في آل برمك:

أنا بنو الأمـلاك من آل برمك
لهم رحلة في كل عـبـام إلى النـدا

إذا نزلوا بطحاه مكة أشـرقت
فما خلقت إلا بلـود أكفهم

إذا دام يحيى الأمر دلت صـعابه

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشد:

ليت شعري أي قوم أجـديوا
نظر الله لهم من بيننا

يا أبا إسحاق سر في دعة
إنما أنت ربيع باكـر

وقال آخر:

لو كان يقعد فرق الشمس من كرم
ثم ارتقوا في شمع الشمس وارتفعوا

وللحسين بن مطير الأسدي في المهدي:

مجرى النجوم الزهر في الأفق
تنتها الركبان من طرق

كفّت بلسان الحال عن آلن الحمد
وخلقت عن نبلي وداك عن سـمـد

تروى أحاديث ما أوليت من مني
والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومسزمار وطنبـود وعـود
لمجد أو لبـاس أو بـجـود

مطروقة وندى كفك مبـتـكر
له طريق إلى العلياء مقـتـصر

فيا طيب أخبار وأحسن منظر
وأعزى إلى البيت العتيق المنور

يحيى وبالفـضل بن يحيى وجعفر
واقـدامهم إلا لـمـعى مظـفر

وناهيك من داع له ومـسـدبـر

فأغـيـثوا بك من بعد العجف
وحـرمناك بذنب قد سـلـف

وامض مصحوبًا فمنا منك خلف
حيثما صرّفه الله اتصرف

قوم لقيـل اقـعـدوا يا آل عباس
إلى السماء فأتتم سادة الناس

ما كان في الناس إلا أنت معبود
لا بل يمينك منها صور الجسود
في السور طراً إذا لا يهت السود

لوعبدُ الناسُ يا مهدي أفضلهم
أضحت يمينك من جود مصورة
لو أن من نوره مثقال خردلة
وقال آخر:

ويرتني حتى رأيتك والدا
ما كنت إلا راعياً لك ماجدا

أوليتني نعماً وفضلاً رائداً
أقسمت لو جاز السجود لنعم
وقال آخر:

وحظك في الدنيا جزيل موقر
رعى الله كئفاً فيه بحر وأنهر
فلا زالت الحساد تغيب وتصفر
لأني فقير والفقير مقصّر

ثنائك في الدنيا من المك أعطر
وكفك بحر والآنامل أنهر
أعبدك بالرحمن من كل حاسد
لأني قصير في مديحك سيدي

الفصل الثاني في هذا الباب: في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك، وعن غيرك والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة. قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَبِمَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥٣]. أيقنوا أنها من الله، وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر وقد روى أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك، فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال الشكر على الشكر أتم الشكر. ولحمود الوفاق:

على له في مثلها يجب الشكر
وان طالت الأيام واتصل العمر
وان من بالضرراء أصعبها الأجر
تضييق بها الأوهام والسر والجهر

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة
فكيف بلوغ الشكر إلا بفَضله
إذا من بالضرراء عم ضرورها
فما منهما إلا له فيه نعمة

وفي مناجاة موسى عليه السلام: إلهي خلقت آدم بيدك، وفعلت وفعلت، فكيف شكر؟ فقال: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بالنعمة شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم، فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح، فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]. فجعل العمل شكر. وروى أن النبي ﷺ «قام حتى تورمت قدماء، فقيل له: يا رسول الله ائتمعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً؟». وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم، فقلت له: يرحمك الله ما شكر العيين؟ قال: إذا رأيت بهما غيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما غيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيت. وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع

أحد أن يشكر الله على نعمة بمثل الإتمام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك، فادم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر، فقال تعالى: ﴿فَمِنْ شُكْرِكُمْ لِأَيِّدْتِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه، وماله في نقصان علمنا أنه قد خذل بالشكر، إما أنه لا يركي ماله أو يركيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنح حقاً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك، فيدخل في قول النبي ﷺ: «لو صدق السائل ما أفلح من رده». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقَرُوا حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بَأْسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء من أعطى أربعمائة يمنح من أربع: من أعطى الشكر لا يمنح المزيد، ومن أعطى التوبة لا يمنح القبول، ومن أعطى الاستخارة لم يمنح الحيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنح الصواب. وقال المغيرة بن شعبه: اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكر، فإنه لا يقاء للنعم إذا كثرت، ولا روال لها إذا شكرت. وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتبه بها، كلما شكرت نعمة تجده ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فانت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها.

وروى ابن عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى إلى أقوام ليأخذهم على رية، فافتروا قيل أن يأخذهم عثمان، فاحتق رقة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم. ويروى أن ثملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدرى أشكر له منك، وكان راكباً على فرس ذلول فخر ساجداً لله تعالى، ثم قال: لولا أنى أبجلك لسألتك من أن تنزع منى ما أعطيتنى. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام فى محرابه إذ مرت به دودة، فتفكر فى خلقها، وقال: ما يعيا الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت له: يا داود تمجيدك نفسك، وأنا على قدر ما أتانى الله تعالى أذكر الله وأشكر له منك على ما أتاك. وقال على رضى الله عنه: احسبوا إنفار النعم فما كل شارد مردود. وعنه عليه السلام: إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقله الشكر. وقيل: إذا قصرت بذاك عن المكافاة، فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشكر ثلاث منازل: ضمير القلب، ونشر اللسان ومكافاة اليد. قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولاتى والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال: ما أنعم الله على عبد نعمة، فظلم بها إلا كان له حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه، وأشد أبو العباس بن عماره فى المعنى:

أشارك ماله لتسقوم فيه بواجبه وتقضى بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن قويت على معاصيه بروقه

وقال آخر:

ولو أنى فى كل منبت شجرة لسألتا يطيل الشكر كنت مقصراً

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المن. وروى إذا جحدت الصنعة خسر الامتان. وسئل بعض الحكماء: ما أصعب الأشياء؟ قال: مطر الجود فى أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا بيت مرعاه، وسراج يوقد فى الشمس، وجارية حسناء تزف إلى أعمى، وصنعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل، فقال: يا أبا يحيى قد هممت أن نصلك بغير فتدافعه الأمور، فقلت: يا أمير المؤمنين بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأشدته:

لاشكرن لك معروفاً هممت به فإن همك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يحضه قدر فالشر بالقدر المحتوم معروف

وقال أبو فراس بن حمدان^(١):

وما نعمة مكفورة قد صنعتها إلى غير ذى شكر تمنعني أخرى
سأتي جميلاً ما حبيت فرائي إذا لم أفدّ شكرًا أفدت به أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من امتنى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: من جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة، فإذا فقدت عرفت. وقيل: من لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تيممة. وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللّيم فإنه بمنزلة الأرض السيخة، والفاحش فإنه يرى أن الذى صنت إليه إنما هو لمخافة فحشة، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السقاح لينشده، فقال: ما عيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

أمسلمة يا فخر كل خليفة ويا فارس الدنيا ويا جبل الأرض
شكرتك إن الشكر دين الفسنى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وأحيت لى ذكرى وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أثبت من بعض

وسمعه الرشيد فقال: هكذا يكون شعر الأشراف مدح صاحبه، ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيار عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبی ﷺ أنه قال: «من أئتم على رجل نعمة فلم يشكر له فدها عليه استجيب له». ثم قال نصر: اللهم إني أئتمت على بنى سام فلم يشكروا، اللهم اقلهم، فقتلوا كلهم. وعن علي بن الحسين رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشبع من الطعام، فيحمد الله تعالى، فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم، إن الله شاكِر يحب الشاكِرين». وعن محمد بن علي: ما أئتم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمد عليها، ولا أئتم عبد ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه إن شاء غفر له وإن شاء أخذته قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفر. وأولى رجل رجلاً أعرابياً خيراً، فقال: لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك، وأئتم عليك نعمة يعجز عنها شركك، وأنشد بعضهم وأجاد:

ما شكر لا أنى أجازيك منعماً بشكرى ولكن كى يزداد لك الشكرُ
وأذكر أياماً لى صطنعتها وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر
وقال آخر:

أوليتنى نعماً أبوح بشكرها وكسفتنى كلّ الأمور بأمرها
فلاشكرنك ما حبيت وإن امت فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

(١) أبو فراس: هو الحارث بن سعيد بن حمدان التلمىسى، أبو فراس الحمدانى، أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة، كان صاحب ابن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وعتم بملك - يعنى امرأ القيس وأباً فارس - وله وقائع كثيرة، قاتل بين يدى سيف الدولة توفى سنة ٣٥٧هـ - ٩٦٨م.

وقال آخر:

إلى فلم ينهض بإحسانك الشكرُ
فمَنْزِرِي إقْرَارِي بَأْنْ لَيْسَ لِي عِلْدُ

أَيَا رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ عِوْدًا وَبَدَأَةً
فَمَنْ كَانَ ذَا عِلْدٍ لَدَيْكَ وَحِجَّةً

وقال محمود الوراق:

على نعم ما كنت قط لها أهلاً
كأنِّي بالتقصير استوجبُ الفضلاً

إِلَهِي لَكَ الْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
إِنْ رَدْتَ تَقْصِيرِي تَزِدْنِي تَفْضُلًا

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

ولو سكتوا أننت عليك الحقايب

فما أجروا وأثنوا بالذي أنت أهله

وقال رجل من غطفان:

به الزيادة عند الله والناس

الشكر أفضل ما حاولت ملتصمًا

وقيل: اشكر النعم عليك وأتمم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

الفصل الثالث: في المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما وفد النجاشي على رسول الله ﷺ، قام يخدمهم بنفسه، فقيل له: يا رسول الله: لو تركتنا كفيناك، فقال: كانوا لأصحابي مكرمين. وقيل: أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

يوم السقيفة والصديق مشغول

أذكر صنيعة إذ فاجأك ذو سفه

فقال عمر بأعلى صوته: ادن سني، فدنا منه، فأخذ بذراعه حتى استشفه الناس وقال: ألا إن هذا رد عن سفيها من قومه يوم السقيفة ثم حمله على نجيب وزاد على عطائه، وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال رجل لسعيد بن العاص، وهو أمير الكوفة: لى يدُ عندك يضاء. قال: وما هي؟ قال: كتبت بك فرسك، فتقدمت إليك قبل غلماتك، فأخذت بمضدك وأركبتك، وأسقيتك ماء، قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجبت عن الوصول إليك، قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم، وبما يملكه الحاجب إذ حجبت عنا.

وقال قطري بن النجماء الخارجي: أسره الحجاج ثم منَّ عليه، فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدو الله، فقال: هيهات شديدك مطلقها وأرق رقبته معقها، ثم قال:

بيد تقرب بآئها مولاؤه

أقاتلُ الحجاجَ عن سلطانه

في الصف واحتجَّت له فعلاته

مأنا أقول إذا وقفت إزاءه

لاحق من جارات عليه ولأيه

أقول جوار على لا إني إذا

غرست لدى فمحظلت نخلاته

وتحدثت الأقوام أن صلتهمنا

واجتار الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين، فسقط سوطه، فقام إنسان، فأخذه ومسحه وناوله إياه فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دناتير، قال: ادفعها إليه واعتذر له، واستشهد عيد الملك حامر الشعبي، فأنشده

لغير ما شعر حتى أشد لحسان:

من سره شرف الحياة فلم يزل في عصبية من صالحى الانتصار
البائعين نفوسهم لنبيهم بالمشرفى وبالقنا الخطار
الناظرين بأعين محمورة كالجمر غير كيلة الأبصار

فقام أنصارى، فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة على ستين من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها، فقال عبد الملك: وله عندى ستون ألفاً، وستون من الإبل. وعن على كرم الله وجهه: أحسنوا فى عقب غيركم تحفظوا فى عقبكم. وقال المدائنى^(١): رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأته ماشياً فى سفر، فسألته عن ذلك فقال: ركبت حيث يمشى الناس، فكان حقاً على الله أن يرجلنى حيث يركب الناس.

وما جاء فى المكافأة: ما حكى عن الحسن بن سهل^(٢) قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكى وقد خلا فى مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد، فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الخوارج، فقصاها لهم، ثم توجهوا لأنهم، فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبى خالد الأحول، فنظر يحيى إليه وثلث إلى الفضل ابنه، وقال: يا بنى إن لأبيك مع أبى هذا الفتى حديثاً، فإذا فرغت من شغلى هذا، فذكرنى أحدثك به، فلما فرغ من شغله، وطعم قال له ابنه الفضل: أعزك الله يا أبى، أمرتنى أن أذكرك حديث أبى خالد الأحول، قال: نعم يا بنى. لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بى الأمر إلى أن قال لى من فى منزلى: إنا قد كتمنا حالنا وواد ضررنا ولنا اليوم أيام ما عندنا شيء، فنقأت به، قال: فبكيت يا بنى لذلك بكاءً شديداً، وبقيت ولهان وحيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت متديلاً كان عندى، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا، فقلت: ادفوه لى، فإخذته، ودفعتى إلى بعض أصعابى وقلت له: به ما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً، فدفعتها إلى أعلى، وقلت: انفقوها إلى أن يروق الله غيرها، ثم بكرت من الغد إلى باب أبى خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على دأره ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رأى سلم على، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس متديلاً بسبعة عشر درهماً، فنظر لى نظراً شديداً، وما أجباني جواباً، فرجعت إلى أعلى كسير القلب، وأخبرتهم بما اتفق لى مع أبى خالد، فقالوا: بش والله ما فعلت. توجهت إلى رجل كان يرضيك لأمر جليل، فكشفت له سروك وأطلعته على مكتون أمرك، فأوريت عنده بنفسك وصغرت عنده منزلتك بعد أن كنت عنده جليلاً، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه، فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلنى رجل، فقال لى: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين، فلم التفت لقوله، فاستقبلنى آخر، فقال لى، كعقالة الأول، ثم استقبلنى حاجب أبى خالد، فقال لى: أين تكون قد أمرنى أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج، فلما رأى دعائى، وأمر لى بركب، فركبت وسرت معه إلى منزله، فلما نزل قال: على بفلان وفلان الحناطين، فأحضرا، فقال لهما: ألم تشرىا سنى غلات السواد بشمانية عشر ألف ألف درهم؟ قال: نعم، قال: ألم اشترط عليكما شركة رجل معكما؟ قال: بلى، قال: هو هذا الرجل الذى اشترطت شركته لكما، ثم قال لى: قم معهما، فلما خرجنا قال لى: ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك فى أمر يكون لك فيه الربح الهين، فدخلنا مسجداً، فقال لى: إنك تحتاج فى هذا الأمر إلى وكلاء وأمناء وكيالين وأعران ومومن لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيننا شركتك بما نعمله، فنتتفع به، ويسقط عنك التعب والكلف؟ فقلت لهما: وكم

(١) المدائنى: هو محمد بن عبد الله، أبو الحسن للمدائنى، رواية مؤرخ، كثير التصانيف من أهل البصرة، سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفى، أورد ابن النعمان تيف ومضى كتاب من مصنفاته فى الغازى، والسيرة النبوية، وأخبار النساء، والخلفاء، توفى سنة (٢٢٥هـ - ٨٤٠م).

(٢) الحسن بن سهل: هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى، أبو محمد، وزير للمأمون العباسى، وأحد كبار القادة والولاة فى عصره، اشتهر بالذكاء، والأدب، والقصاحة، وحسن الترويعات، والكرم، وهو والد يوزان (درجة المأمون) وكان المأمون يحبه ويبلغ فى إكرامه، أصيب بمرض السوء، ففزع قلبه حتى شد فى الحنيد، ثم شفى، توفى سنة (٢٣٦هـ - ٨٥١م).

تبدلان لى؟ فقالا: مائة ألف درهم، فقلت: لا أفعل، فمازالا يزيدياننا وأنا لا أوضى إلى أن قالوا لى: ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عنتنا على هذا. فقلت: حتى آشاور أبا خالد. قالوا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته، فدعا بهما، وقال لهما: هل وافقتما على ما ذكر؟ قالوا: نعم. قال: اذهبا، فاقبضاه المائى الساعة. ثم قال لى: أصلب أملك وتبها فقد قلدتك العمل. فأصلحت شائى وقلدتنى ما وعدنى به، فما رلت فى زيادة حتى صار امرى إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بنى فما تقول فى ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمرى وجب عليك له، فقال: والله يا ولدى ما أجد له مكافأة غير أبى أهزل نفسى وأوليه، ففعل ذلك رضى الله عنه، وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المؤمنين قال: دخلت يوماً مجلس المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآنى قال لى: عباس، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحفظ به، ويكر به إلى غدا واحترز عليه كل الاحتراز. قال العباس: فدهوت جماعة، فحملوه ولم يقدروا أن يتحرك فقلت فى نفسى: مع هذه الرصبة التى أوصانى بها أسير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى، فأمرتهم، فتركوه فى مجلس لى فى دارى، ثم أخذت أسأله عن قضيته، وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق، فقلت جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: اتعريف فلان؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقع لى معه قضية. فقال: ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه، فقال: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبضى أهلها وغرغوا علينا حتى إن السوالى تلتلى فى زبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهرت فى جملة القوم، فبينما أنا هارب فى بعض الدور، وإذا بجماعة يعبدون خلفى، فما رلت أعود أمامهم حتى فتمهم، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثنى أغاثك الله، قال: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت، فقالت زوجته: ادخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك، فقال: دونكم الدار، فقتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: هو ههنا، فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانسرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرفج ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم، وصرت إلى الأمن والدة إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لى مكاناً فى داره، ولم يوحجنى إلى شىء، ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فاقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهتة إلى أن سكنت الفتة وهدأت أثرها، فقلت له: أئاذن لى فى الخروج حتى أتفقّد حال غلمانى، فلعلى أقف منهم على خير، فأخذ على الموائى بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلمانى، فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه، وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفنى، ولا يسألنى، ولا يعرف اسمى، ولا يخطبنى إلا بالكنية، فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وما أنا قد أعلمتك. فقلت له: إنك تفضلت على هذه المدة، ولك على عهد الله أبى لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفيك مهما استطعت، قال: فدعا غلاماً له أسود، وقال له: أسرج القرس الغلاتى، ثم جهز آلة السفر، فقلت فى نفسى: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فاقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جامنى السحر، وقال لى: يا فلان قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تسترد عنها، فقلت فى نفسى: كيف أصنع، وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركباً، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان بقبة من أقمطر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جامنى بسيف ومنطقة، فشدلها فى وسطى، ثم قدم بطلاً، فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش، ودفع إلى نسخة ما فى الصندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم لى القرس الذى كان جهزه، وقال: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران لى من التقصير فى أمرى، وركب معى يشيعنى، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفى بهدى لى فى مجازاته ومكافأته، واشتغل مع أمير المؤمنين، فلم أنفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلها أنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنت الله تعالى من الوفاء، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة

عليك، ولا مؤنة تلزمك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أتى فيه غيّر عليك حالى، وما كنت تعرفه منى، ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته. فما تمالكت أن قمت وقيلت رأسه، ثم قلت له: فما الذى أشارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك، فنسبت إلى، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فاصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بى إلى أمير المؤمنين، وأمرى عنده عظيم وخطيئى لديه جسيم، وهو قاتلى لا محالة، وقد أخرجت من عند أعلى بلا وصية، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بغيرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك، فقد جاورت حد المكافأة وقمت لى بوفاء عهدك. قال العباس: قلت يصنع الله خيراً. ثم أحضر حداً فى الليل فك قيوده، وأزال ما كان فيه من الأكال وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكى ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه، وقال: على بالفرس الغلاني، والفرس الغلاني والبغل الغلاني، والبغلة الغلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق وسن الكسوة كذا وكذا، ومن الطعام كذا وكذا قال ذلك الرجل: وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم، وكباً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لنائبه فى الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعة إلى حد الأتبار. فقلت له: إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم، وخطيئى جسيم. وإن أنت احتججت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على يابه فأرد وأقتل. فقال لى: اتج بنفسك ودعنى أدير أمرى، فقلت: والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضورى حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت، فقد وقته بنفسى كما وقانى بنفسه، وأشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجهتد فى إخراجه من بغداد. قال الرجل: فأخذنى صاحب الشرطة وصيرنى فى مكان أتق به، وتفرغ العباس لنفسه، وتخط وجهه له كشاً. قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون فى طلبى ويقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وهم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا. فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع منى، فقال: لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب. ولكن اسمع حديثى وحديثه، ثم شأنك ما تريد أن تفعله فى أمرى قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثى معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته اتنى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى، وقلت أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين امرين: إما أن يصفح عنى، فأكون قد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلنى فأقتيه بنفسى. وقد تحنطت وما كفى يا أمير المؤمنين، فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بمد المعرفة، والعهد بهذا لا فيه. هلا عرفتنى خبره فكنا تكافئه عنك ولا تنصر فى وفائك له، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منه أعظم من الأولى انهب الآن إليه، فطُيْب نفسه وسكن روعه واتنى به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيت إليه، وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال: كيت وكيت. فقال: الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواء، ثم قام، فصلى ركعتين ثم ركب وجنتا، فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدان من مجلسه، وحديث حتى حضر الغداء، وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستمضى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بألانتها وعشر بدر عشرة آلاف دينار، وعشرة ممالك بدوايهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خواجه، وأمره بمكاتبتهم بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى: يا عباس هذا كتاب صديقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه: ما أورده بن القاسم الأتباري^(١) رحمه الله تعالى، أن سواراً صاحب رحية سوار وهو من المشهورين، قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام، فلم تقبله نفسى،

(١) محمد بن القاسم: هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأتباري، من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة. ومن أكر الناس حقاً للشعر والأخبار، كان يتردد إلى أولاد الخليفة، الراضى بالله بعلمهم. من كتبه: «الزاهر فى اللغة» و«شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» و«إيضاح الوقت والإنباء فى كتاب الله عز وجل» توفي سنة (٣٢٨هـ - ٩٤٠م).

فأمرت به، فرفع، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها واشتغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القافلة، فلم يأخذنى النوم، فنهضت وأمرت ببغلة، فأسرجت واحضرت فركبتها، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ومعه مال، فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جيبته من مستهلك الجديد، قلت: أمسكها معك وابتعنى، فاطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم، فعطشت، فقلت للخادم: أعنك ماء تقيته؟ قال: نعم، ثم دخل واحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فتناولنى، فشربت، وحضر وقت العصر، فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتى إذ أنا بأعمرى يلتبس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى، وقال: شمعت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعم فأردت أن أحدثك بشئ، فقلت: قل، قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم، قال: هذا قصر كان لأبى، فباعه، وخرج إلى خراسان وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها، وعميت، فقدمت هذه المدينة، فالتيت صاحب هذا الدار لاسأله شيئاً يصلنى به وأتوصل إلى سوار، فإنه كان صديقاً لأبى، فقلت: ومن أبوك؟ قال: فلان بن فلان فرفعه، فإذا هو كان من أصدق الناس لى، فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به، فأقدمه بين يديك، ثم دعوت الوكيل، فأخذت الدراهم منه، فدفعتهما إليه، وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلى، ثم مضيت، وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشئ أعظم من هذا، فأتيته، فاستأذنت عليه فأذن لى، فلما دخلت عليه حدثه بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بالذى ديتار، فأحضرت، فقال: ادفعها إلى الأعمرى، فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست، فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت: خمسون ألفاً، فحادثنى ساعة، وقال امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلى فإذا بخادم مع خمسون ألفاً، وقال: يقول لك أمير المؤمنين أقض بها دينك. قال: فقبضت منه ذلك، فلما كان من الغد أبطأ على الأعمرى، وأتاني رسول المهدي يدعونى فيجته، فقال: قد فكرت البارحة فى أمرك، فقلت: يقضى دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً، وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى، قال: فقبضتها وانصرفت، فجاءنى الأعمرى، فدفعته إلى الألفى ديتار، وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه، وكافاك على إحسان أيك، وكافأتى على إمداد المعروف إليك، ثم أعطيت شيئاً آخر من مالى، فأخذته وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى: ما حكاه القاضى يحيى بن أكرم رحمة الله عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر، فقال لى: أتعرف قاتل هذا البيت؟

الحسيبُ أبى وإن طال الزمان به والشبر أخبثُ ما أوعيت من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: علىَّ بعيد، فلما حضر بين يديه قال له: أخبرنى عن قضية هذا البيت، فقال: يا أمير المؤمنين كنت فى بعض السنين حاجباً، فلما توسمت البادية فى يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة فى القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن القصة، فقال لى رجل من القوم: تقدم ترما بالناس، فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجنح وهو يخور كما يخور الثور ويروغ كروغاه البعير، فهأتى أمره وبقيت لا أهدئى إلى ما أصنع فى أمره، فعدلتنا من طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً، فعلمت أنه لسبب ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أهدى هذا العالم بنفسى وأثوب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا، فأخذت قرية من الماء، فغسلتني وسللت سيفي وتقدمت. فلما رأتى قربت منه سكن، وبقيت متوقفاً منه وثبة يتلحنى فيها، فلما رأى القرية تتح فاه، فجعلت فم القرية فيه، وصيب الماء كما يصب الماء فى الإناء، فلما فرغت القرية تسبب فى الرمل ومضى، فتصجبت من تعرضه لنا وانصرف عنا من غير سوء لحنا منه. ومضينا لحنا ثم عدنا فى طريقنا ذلك وحططنا فى منزلنا ذلك فى ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق، فقبضت حاجتى ثم توضأت وصليت، وجلست أذكر الله تعالى، فأخذتنى عينى، فنمت مكانى، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً، وقد رحلوا وبقيت منفردة لم أر أحداً، ولم أهد إلى ما أفعله، وأخذتنى حيرة

وجعلت اضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المضل مركبيه	ما عنده من ذى وشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبيه	ويترك الميمون حفاً تحبه
حتى إذا ما الليل زال غيبه	عند الصباح فى القلا تسيبه

فنظرت، فإذا أنا ببكر قائم عندى، ويكرى إلى جانبي، فأنخته وركبته وجئت بكرى، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى بكرى وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب	ومن هموم تضل المذلج الهادى
ألا تخبرنى بالله خالقنا	من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى
وارجع حميداً فقد بلغتنا منا	بوركت من ذى منام راح غادى

فالتفت البكر إلىّ وهو يقول:

أنا الشجاع الذى الفيتى رمضاً	والله يكشف ضرّ الحافر الصادى
فجئت بالماء لما ضنّ حامله	تكرمك منك لم تمنّ باتكاد
فالخير أبى وإن طال الزمان به	والشرّ أحبّ ما أوعيت من راد
هذا جـزاؤك منى لا أمنّ به	فأذهب حميداً رعاك الخالق الهادى

فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والآيات، فكبت عنه، وقال: لا يضيع المعروف أين وضع، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

في الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشتي بالأعراض والوقوع فيها. وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذميم، وقد يهجو الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً. قال المتوكل لأبي العيناء: كم تمدح الناس وتلتمهم، قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضى الله تعالى على عبد من عبده فمدحه، فقال: «نعم العبد إنه أواب» (ص: ٤٤) وغضب على آخر، فقال: «مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيماً» (القلم: ١١، ١٢)، قيل الزنيم: الملصق بالقوم وليس منهم، وقال دحبل^(١) في المأمون بعد البيعة له، وقتل الأمين:

إنى من القوم الذين همو همو قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خمولة واستنذوك من الحضيض الأوهد
فقال المأمون: ما أبتهت ليت شعري متى كنت خاملاً، وفي حجر الخلافة ربيت وبدرها غذيت. ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس، فقيل له: أثبكي على جعفر وأنت هجوته؟ فقال: كان ذلك لركوب الهوى، وقد بلغه والله أنى قلت:

ولست وإن أطببت في وصف جعفر بأول إنسان خسرى في ثيابه
فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه. ومن العبث بالهجو ما روى أن الخطيبة هم بهجاء. فلم يجد من يستحقه فقال:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما بسوء فلا أدري لمن أنا قائله
أرى بي وجهاً قبيح الله خلقه فقبيح من وجهه وقبيح حامله
وعبث بأهه فقال:

تنحى فناجلى عبثاً بعيننا أراح الله منك العـمـالينا
أغريالاً إذا استودعت مسيراً وكانونا على المحـمـدثينا
حياتك ما علمت حياة مسوء وموتك قد يسر الصالحين

وقال رجل: ما أبالي أهجيت أم مدحت. فقال له الأحنف: أرحت نفسك من حيث تعب الكرام. وقال رجل لآخر: إن هجوتني أقوت ابتئي؟ قال: لا، قال: أنتخرب ضيعتي؟ قال: لا، قال: فرجلى مع ساقى إلى حلقي في حر أمك، قال: ولم تركت راسك؟ قال: لأنظر ما تصنع. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم ويش الرجل ذاك. وكان الرجل من نمير إذا قيل له: بمن الرجل؟ يقول: من نمير وأمال بها عنته، فلما هجاهم جريو بقوله:

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

(١) دحبل: هو دحبل بن علي أبو علي الحزامي الشاعر المشهور، له شعر في الرقائق وكتاباً في (طبقات الشعراء) أصله من الكوفة وقيل: اسمه محمد وكنيته، أبو جعفر، ودحبل لقب له، والدحبل: الشيء القديم، وكان خبيث اللسان، قبيح الهجاء، ولد سنة (١٤٨هـ) وتوفي سنة (٤٤٦هـ) وقيل: قتله المعتصم.

صار إذا قيل لأحدهم: من الرجل: يقول من بنى عامر. وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت غير بهجو جرير.
وهجا ابن بسام رجلاً فقال:

يا طلوع الرقيب من غسير إلف يا غريباً أتى على ميمعاد
يا ركوداً في وقت غيم وصيف يا وجوه الشجار يوم كساد
وقصد ابن عينة قبيصة المهلى. واستماحه. فلم يسمع له بشيء فانصرف مغضباً، فوجه إليه داود بن يزيد بن
حاتم، فترضاه: وأحسن إليه، فقال في ذلك:

داود محمودة وأنت مذممٌ عجباً لذلك وأنتما من عود
ولربّ عود قد يشقّ لمسجدٍ نصقاً وباقبيه لحشّ يهودى
فالخشّ أنت له وذاك بمسجد كم بين موضع ملح وسجود
هذا جزاؤك يا قبيص لأنه جادت يده وأنت قفل حديد
وله هجاء في خالد:

أبوك لنا غيثٌ يغيث بربله وأنت جرادةٌ لمت تبقي ولا تذر
له أثرٌ في المكرمات يسرنا وأنت تمنى دائمٌ ذلك الأثر

وقال المبرد في حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل ومدح أبيه إلّا له. ولما قعد حماد بن
عجر لتأديب ولد الأمين. قال بشار بن برد:

قل للأمين جزاك الله صالحة لا يجمع الله بين السخل والديب
السخل يعلم أن الذئب أكله والذئب يعلم ما بالسخل من طيب
وقال فيه أيضاً:

يا أبا الفـضل لا تنم وقع الذئب فى الفـنم
إن حماد عجمرد شيخٌ سوءٌ قد اغتـم
بين قـبـلـه حـسـرةٌ فى غـلـفـه لـامـم
إن رأى ثم غـفـلةٌ يجمـع الميم بالقلم
فشاعت الأبيات، فأمر الأمين بإخراج حماد.

وقال رجل لأخيه لأبويه: لأهجونك هجاء يدخل ملك في قبرك، قال: كيف تهجونى وأبوك أبى، وأمك أمى؟ قال
أقول:

بنى أمية هبوا طال نومكمو إنّ الخليفة يعقوب بن داود
صاعت خلافتكم يا قوم فالتسموا خليفة الله بين الماء والعود

فدخل يعقوب على المهدي، فأخبره أن بشاراً هجاء، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرها، فسمع أذاناً
في ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا، وإذا به بشار وهو سكران، فقال له: يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك،
ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أثلفه بها وألقى في سفينته، فقال عين الشمقمق ترانى حيث يقول:

إن بشــــــــــــــــــــــــــــــــار بن برد تيس أسمى فى ســــــــــــــــــــــــينة
فلما مات ألفت جثته فى الماء . فحمله الماء ، فأخرجه إلى الدجلة ، فجاء بعض أهله ، فحملوه إلى البصرة ،
وأخرجت جنازته ، فما تبعه أحد ، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه . وخاصم أبو دلامة رجلاً ،
فارتعما إلى عافية القاضى ، فلما رآه أبو دلامة أشد يقول :

لقد خاصمتنى دهاة الرجال وخاصمتها سة وافية
فما أدهض الله لى حُجَّة ولا خيب الله لى قافية
ومن خفت من جورهِ فى القضاء فلت أخافك يا عافية

فقال عافية : لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتنى قال له أبو دلامة : إذا والله يمزلك . قال : ولم ؟
قال : لأنك لا تعرف الهجاء من المدح ، قال : فبلغ ذلك المنصور ، فضحك وأمر له بجائزة . ودخل أبو دلامة على المهدي
وعنده إسماعيل بن على ، وعيسى بن موسى والعباس بن محمد ، وجماعة من بنى هاشم ، فقال له المهدي : والله لئن لم
تهج واحداً عن فى هذا البيت لأقطعن لسانك . فنظر إلى القوم وتغير فى أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد ، فيغمزه بأن
عليه رضاء ، قال أبو دلامة ، فارددت حيرة ، فما رأيت أسلم لى من أن أهجو نثى ، فقلت :

ألا أبليغ لديك أبا دلامــــــــــــــــــــــــــــــــة فلت من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامةً وجمعت لؤمًا كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
إذا لبس العمامة قلتُ قسردًا وختريراً إذا نزع العمامة

فضحك القوم ولم يبق منهم أحدًا إلا أجاره .

وقال ابن الأعرابى : إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد بن هاشم :

لم تندُ كُفْناك من بذل النوال كما لم يتد ســــــــــــــــــــــــيفك منذ قلّدت بدم

وهجا بعضهم القمر ، فقال : يهدم العمر ويوجب أجرة المنزل ويشحب الألوان ، ويقرض الكتان ، ويضل السارى ،
ويعين السارق ويضخ العائش . ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره :

انظر إلى الأيام كــــــــــــــــــــــــيف تــــــــــــــــــــــــوقنا قــــــــــــــــــــــــرراً إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره ناراً وكان خرابهسا بانثار

وكان للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب ، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت ، فقال فيها ابن المنجم :

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها وهجة تنصرم
فما هو إلا كافر طال عمرة فجاءته لما استبطاته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها حيث قال :

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تكثر الحشرات فى جنباتها
أخير عنها نارح متباعد والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته كم أعدم الأجفان طيب ستاتها

وتبيت تسعدنا براغيث متى
رقص بتقسيط ولكن قافسه
وبها ذباب كالضباب يد عين
أين الموارم والقنا من فتكها
وبها من الخفاف ما هو معجز
وبها خفافيش تطير نهارها
وبها من الجردان ما قد قصرت
وبه خنافس كالطنافس أفرشت
لو شم أهل الحرب منتق فسوها
وبنات وردان وأشكال لها
أبدًا قص دمنا فكأنها
وبها من النمل السليماني منا
ما راعى شيء موى وزغاتها
سجعت على أوكارها فظنتها
وبها زنابير تظن عقاريا
وبها عقارب كالأكارب رقع
كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة
منسوجة بالعنكبوت سماوا
فضجيجها كالرعد في جنباتها
واليوم عاكفة على أرجائها
والجن يأتينا إذا جن الدجى
والنار جمر من تلهب حرها
شاهدت مكتوبا على أرجائها
لا تقرىوها وخالفوها ولا
أبدًا يقول الداخلون ببابها
قالوا إذا ندب الفسراب منازلها
ويدارنا ألفا غراب ناعق
صبرا لعل الله يعقب راحة
دار تبيت الجن تحبس نفسها
كم بت فيها مفردا والعين من

فنت لها رقعت على نغماتها
قد قدمت فيه على أغواتها
الشمس ما طربى سوى غناها
فينا وأين الأسد من وثباتها
أبصارنا عن وصف كيفياتها
مع ليلها ليست على عاداتها
عنه العتاق الجرد في حملاتها
في أرضها وعلت على جنباتها
أردى الكمأة الصيد عن صهواتها
عما يفوت العين كنه ذواتها
حجامة لبدت على كاماتها
قد قل ذر الشمس عن ذراتها
فتمموا الله من لدغاتها
ورق الحمام جعن في شجراتها
حر السموم أخف من زفراتها
فينا حماتا الله لدغ حماتها
ولا حياة لمن رأى حياتها
والأرض قد نسجت على أقاتها
وترابها كالرمل في خشناتها
والدود يبعث في ثرى عرصاتها
تحكى الخيول الجرد في حملاتها
وجهنم تعزى إلى لفحاتها
ورابت مسطورا على جنباتها
تلقسوا بإيديكم إلى هليكاتها
يارب نج الناس من أقاتها
يتفرق المكان من ساحاتها
كذب الرواة فلأين صدق روايتها
للنفس إذا غلبت على شهواتها
فيها وتندب باختلاف لغاتها
شوق الصباح تح من عبراتها

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

واقول يارب السموات العللا
أسكتني بجهنم الدنيا ففى
واجمع بمن أهواه شملى عاجلاً
ولبعضهم فى بلان :

اشكروا إلى الله بلأنا بليت به
فلا يدلك تدليكا بمعرفة
وللشيخ شمس الدين البدرى فى بلان أيضاً :

وبلان له ظهر بر يسامى
هرى جسمى فالبيه نجيعا
ورام يلين أعرضانى برفق
ولم انظر له أبداً حسمى
وأعمى مقلتى بصنان إبط
فلا تجعل إلهى مثل هذا
ولبعضهم فى حمام :

وحمام دخلناه لأمر
فبصرخوا يقولوا أخرجوننا
وحكى سقراً وفيها المجرمونا
فلإن عندنا فلإن ظالمون

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

أبجمل يا نظام الملك أنى
وأصدر عن حياضك وهى نهج
يدل على فمالك سوء حالى
إذا استخبرت ماذا نلت منه
أعواد من ذراك كسما قدمت
بأقواء السقاة وما وردت
ويخبر عن نوالك إن كتمت
وقد عم الورى كرملاً سكت

وللشريف أبي يعلى الهاشمي البغدادي في نظام الملك يهدده بالهجاء يقول :

أبا جعفر لست بالمنصف
فإن أنت انحزت لى ما وعدت
وقد علم الناس ما بعد فى
ومثلك إن قال قولاً فى
ولا هجسيت وأدخلت فى
فخط الحديث ولا تكشف

(١) الخوارزمي: هو محمد بن موسى الخوارزمي، فلكي، رياضي، مؤرخ، جغرافي، من أهل خوارزم، أقامه المأمون العباسي قيساً على عزنة كبة، وعهد إليه بجميع الكتب اليونانية، وترجمتها وأمره باختصار (المجسطي) لبطليموس، فأخصصه رساء (السنهند) أبي (الذهر الداهر) وله مصنفات منها «الجبر والمقابلة» و«تقويم البلدان» و«صورة الأرض من المدن والجيال» عاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله وتوفي حوالي (٨٥٠م).

ومن عرض بالهجو في شعره الخوارزمي^(١) قال في أبي جعفر:

أعبد مدحى علىّ وغذ سواه فقد أتعبتني يامستريح
ولا تغضب إذا أنشدت يوماً سواه وقيل هذا صحيح

ومدح السراج الوراق إنشأ فلم يجزه فكتب يعرض له بالهجاء ويهدده يقول:

أعذ مدحاً كذبت عليك فيه وقد عوقبت بالحرمين عنه
ولكني سأصدق فيك قولاً فلا يصعب عليك الحق منه

مضوا ليحجّوا كأنها تكاد لفرط البشر أن توضع السبل
وعادوا كأن القمار فوق وجوههم فلا مرحباً بالقادمين ولا سهلاً
وجاءوا وما جادوا بعود أراك ولا وضعوا في كف طفل لنا بطلاً

وقال آخر:

إذا رمّت هجواً في فلان تصدني خلائقُ قبيح عنه لا تنزحزح
تجاوز قدر الهجو حتى كأنه بأقبح ما يهجي به المرء يُمدح
وهجا بعضهم امرأة فقال:

لها جم يرغوثٍ وفاق بموضة ووجه كوجه القرد بل هو أقبحُ
تُبرق عينيها إذا ما رأيتها وتعيس في وجه الضجيع وتكلج
لها منظرٌ كالنار تحبب أنها إذا ضحككت في أوجسه الناس تلفح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها تعود منها حين يمسي ويصبح
ولبعضهم في عظيم أنف:

لك وجسه وفيه قطعة أنف كجدارٍ قد دغموه ببغله
وهو كالقبير في المثال ولكن جعلوا نصفه على غير قبله
وفيه أيضاً:

راينا للزكى جدار أنف يضاهي في تشامخه الجبالا
تصدى للهِلال لكى يراه فلولا عظمه لراى الهلالا
ولبعضهم في أبخر مخنث:

قالوا فلان به نتن فسقلت لهم يا قوم قد حار فكري في مساويه
يا قوم لا تعجبوا من نتن نكهته فالأير يدفع ما فيه إلى فيه
ولصفي الدين الحلي:

راى فرسى اصطبل عيسى فقال لى قفانك من ذكرى حبيب ومترل

به لم أذق طعم الشعير كأننى
تقمقع من برد الشتاء أفضالى
وله أيضاً:

ليهنك إنَّ لى ولدك وعجبداً
فهذا سابق من غير سين
وله فى طيب يدعى إسحاق:

مباضع إسحاق الطبيب كأنها
معبودة أن لا تُلْ نصالها
وله فى أحرق طويل اللسان:

لو أن قوة وجهه فى قلبه
أو كان طول لسانه بيمينه
وهجا أعرابى رجلاً ثم مدحه فقال:

إنى مدحتك فى فساد قريحى
لكن رأيت الملك عند فساد

وله أيضاً يقول:

وقال بعضهم فى حجاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئاً:

وقيل لبعضهم: ما تقول فى فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما.

وقيل لرجل: كيف وجدت فلاناً؟ قال: طويل اللسان فى اللؤم، قصير الباع فى الكرم، وثاباً على الشر مناعاً للخير.

هجون زهيراً ثم إنى مدحته وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح

وسمع أعرابى قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧]. فانتفض، ثم سمع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ولقد قتلتك بالهجوم فلم تمت
إن الكلاب طويلة الأعصاب

من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة: ٩٩]. فقال: الله أكبر هجائاً ثم مدحتنا، وكذلك قال الشاعر:

إذا رضيت عنى كرام عشيبرتى فلا زال غضباناً على لثامها

استب رجلان، فقال أحدهما للآخر: لو قطع زيك وعلق، لم تبق رانية بالكوفة إلا عرفته. وقال أبو زيد العيلى:
وقال المتوكل لأبى العيئة: ما بقى أحد فى المجلس إلا هجاك، وذمك غيرى فقال:

يسقط اللوى بين الدخول فحومل
لما نسجتها من جنوب وشمال

سواء فى المقال وفى المقام
وهذا عاقل من غير لام

لها بغناء العالمين كفسيل
فتغمد حتى يستباح قتيل

قنص الأسود وجندل الأبطال
أفنى الكنوز وأفسد الأموال

وعلمت أن المدح فيك يضيع
يدنى إلى بيت الخلا فيضوع

فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول: فى الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم.

وقال عمر رضى الله عنه: عليك بالصدق وإن تكلت، وما أحسن ما قيل فى ذلك:

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
وأبغ رضا المولى فساغى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبى الوفاء جمع بينه، فقال لهم: يابنى عليكم بقوى الله وعليكم بالقرآن، فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً، ثم سئل عنه أقربوه، والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ: يم يعرف المؤمن؟ قال: «بوقاره ولين كلامه، وصدق حديثه». وقيل: لكل شئ حلية وحلية النطق بالصدق.

وقال محمود الوراق:

الصدق منجاة لأربابه وقسرية تدنى من الرب

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة، فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبى صفرة: ما أليف الصامم فى يد الشجاع بأعز له من الصدق. وكان يقال على الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى. ويقال: لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب، ولكان أميناً فى السماوات والأرض. وقيل: من لزم الصدق وعوّد لسانه به وفق. ويقال: الصدق بالحر أحرى. وقال حنبل بن أبى سفيان: إذا اجتمع فى قلبك أمران لاتدرى أيهما أصواب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك، فخالقه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذى يزن: «وضع الخد للحق عز» وامتنح ابن ميادة جعفر بن سليمان، فأمرله بمائة ناقة، فقبل يده، وقال: والله ما قبلت يد قرشى غيرك إلا واحداً، فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله، قال: فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: فغضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسى، فقال: والله لاضررك الصدق عندى أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدوانى فى وصيته: إنى وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا، يعنى من لزم الصدق وعوّد لسانه وفن، فلا يكاد ينطق بشئ يظنه إلا جاء على ظنه. وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية، فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبيدين فأعتنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم ثلاثة لأخى، فإن تكبحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا، فالله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض. فقالوا: بلال بمن عرفتم سابقته، ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ. فزوجوا أخاه، فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك أما كنت تذكر سابقتنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وتترك ما عدا ذلك، فقال: مه يا أخى صدقت فأنكحك الصدق.

وخطب الحجاج فاطال، فقام رجل. فقال: الصلاة، فإن الوقت لايتظرك والرب لايعزرك، فأمر بحبسه، فأتاه قومه ودعوا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله، فقال: إن أقبر بالجنون خليتي، فقيل له، فقال: معاذ الله لا أزعم أن الله ابتلانى وقد عافانى. فبلغ ذلك الحجاج، فعفا عنه لصدقه.

الفصل الثاني: من هذا الباب: في الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى في الكاذبين: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]. وقال رسول الله ﷺ: «ياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار. وتحروا الصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة». وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من نقي ما جاء به». ويقال: رآوى الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المأثم الكذب وعمود الكذب البهتان. وقيل: أمران لا ينفكان من الكذب، كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب أصدقت قط؟ قال: نولا أتى أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

لى حيلة فـيـمن ينم وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتى فيه قليلة

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب، ومن سحب تموز. وكان بفارس محتب يعرف بجرباب الكذب، وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتي، وإني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق مع ما ينالني من نفعه. وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله. ولبعضهم:

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
فميتى سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

وأضاف صيرفي قوماً. فأقبل يحدثهم، فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]. وعن عبد الله بن السدي قال: قلت لأبن المبارك حدثنا حديثاً، قال: أرجعوا، فليست أحدثكم، فقل: له إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحديثكم، ولكن لست أكذب، فكان هذا أحب إلينا من الحديث. وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أتنيه في سمعه، وحتى أن الصبي يكي، فتقول له أمه: اسكت واشترى لك كذا، ثم لا تفعل، فتكتب كذبة، وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً. ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «اعظم الخطايا اللسان الكذوب» قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلا من مهانتـه أو فعله السوء أو من قلة الأدب
لبعض جيفة كلب تحير رائحة من كذبة المرء فى جلد وفى لعب

ولما نصب معاوية رضي الله تعالى عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل، ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين أعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضحكتها، والآنحفت ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر؟ فقال: أخاف الله تعالى

إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله خيراً عما تقول، ثم أمر له بالكوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والاقفال، فلستنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً. وقيل: إن الكذب يحمد إذا وصل بين المتقاتلين أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصديق إذا كان غيبة، وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب، وعن المصلح بين المرء وزوجه، وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه يقوى بذلك جانشهم، فكانوا إذا رأوه مقيلاً إليهم، قالوا: جاءنا بكذب. وقال يحيى بن خالد: رأينا شارب خمر نزع ولصاً أقطع وصاحب فواحش رجيع، ولم نر كذاباً صار صادقاً. وكان عمر بن معد يكرب مشهوراً بالكذب. وقيل لحلف الأحمر وكان شديد التمسبب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب؟ فقال: كان يكذب في المقاتل، ويصدق في النعال. قيل: إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم رضى الله تعالى عنه، والحمد لله وحده.

فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقربات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول: فى بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٢٢] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]. وعن على رضى الله تعالى عنه: لو علم الله شيئاً فى العقوق أدنى من أف حرمه، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وقيل: إن رضا الرب فى رضا الوالدين ومسخط الرب فى مسخط الوالدين.

وحكى أبو سهل عن أبي صالح، عن أبي نجيع، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة وكتب له براءة من النار» وقال رسول الله ﷺ: «ياكم وعقوق الوالدين فإن ربح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ربحها عاق». وكان رجل من النساك يُقبل كل يوم قدم أمه، فأبطا يوماً على إخته، فسألوه، فقال: كنت أقترغ فى رياض الجنة، فقد بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه، يارب أوصنى قال: أوصيتك بأمك حسناً، قال له سبع مرات، قال حسبي، ثم قال: يا موسى إلا أن رضاها رضى، ومسخطها سخطى. وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لابن مهران: لاتأين أبواب السلاطين، وإن أمرتهم بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن، ولا تصحين عاقاً، فإنه لن يقبلك وقد عاق والديه. وقال فيلسوف: من عاق والديه عقه ولده. وقال المأثور: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بابيه، بلغ على بره أنه كان لا يترصوا إلا بماه سخن، فمتنعهم السجان من الوقود فى ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم نحاس فملأه ماء وأذناه من المصباح. فلم يزل قائماً وهو فى يده إلى المصباح حتى استيقظ أبوه من منامه.

وقيل: طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشربة نام أبوه. فلما زال الولد واقفاً بالشرية فى يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: إن لى أماً بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أدبت حقها؟ قال: لا. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهى تستمن بقاءك، وأنت تصنعها وتمتنى فراقها. وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبى وبات آخر يصى ولا يبرنى ليلته بلبلى. وقيل: إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذى لا يتصف منه. وقيل لعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنه: إنك من أبر الناس ولا تأكل مع أمك فى صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدى يدها إلى ما تسبق عينها إليه، فأكون قد عقتها.

الفصل الثانى: فى الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكىاء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة». وقال الفضل: ربح الولد من الجنة. وكان يقال: ابك ريحانتك سبماً ثم حاجبك سبماً، ثم عدو أو صديق. وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: قلت لسيدى رسول الله ﷺ يا رسول الله: هل يولد لاهل الجنة؟ قال: «والذى نفسى بيده إن الرجل يشتهى أن يكون له ولد، فيكون حمله ووضعه وشبابه الذى يشتهى إليه فى ساعة واحدة». وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كى لا يفسق. وقال عمر رضى الله تعالى عنه: إنى لأكره نفسى على الجصاع رجاء أن يخرج الله منى نسمة تسبحه وتذكره. وقال رضى الله تعالى عنه: أكثروا من العيال، فإنكم لاتدرون بمن ترزقون. وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاثة: شم الصبيان، وملاقة الإخوان، والخلفة مع النسوان. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه

يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تضاعة القلب، فقال: اتبناها عنك، فإنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء ويورثن الضغائن. قال: لا تنقل يا عمرو ذلك، فوالله ما مرض المرضي، ولا نذب الموتى، ولا أعان على الإخوان إلا هن. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حببتهن إلي. وقيل لرجل: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر. ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر. وقال ابن عامر لأميرته أمانة بنت الحكم الخزاعية: إن ولدت غلاماً فكك حكمك، فلما ولدت قالت: حكى أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالودج، وأن تقب بألف شاة، ففعل لها ذلك. وغضب معاوية على يزيد. فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة وبهم نصول على كل جليلة، فإن غضبوا فإرضهم. وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شراً، فيملوا حياتك ويمتروا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام إذا رأيت يزيد فاقراه السلام، واحمل إليه مائتي ألف درهم، ومائتي ثوب. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقل له: الأحنف. فقال يزيد بن معاوية: على به، فقال: يا أبا بحر كيف كانت القصة؟ فحكاهما له، ف شكر صنيعه، وشاطره الصلة.

وحكى الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه، قال: فلم يلبث قليلاً أن أتتيا كوكبي ألقى يزيتهما هداهما ووقارهما وقد غضاً أبصارهما حتى وقفا في مجلسه، فلما عليه بالخلافة، ودعوا له بأحسن الدعاء، فاستدناهما، وأسند محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني أن ألقى عليهما أبواباً من النحو، فما سألتها شيئاً إلا أحسن الجواب عنه، فسره ذلك سروراً عظيماً، وقال: كيف تراهما؟ فقلت:

أرى قمرى ألقى وفرعين شامة	يزينهما عرق كسرم ومحمد
مليلى أمير المؤمنين وحائزى	مواريث ما أبقي النبی محمد
يبدآن أنفاق النفاق بشيمة	يزينهما حررم وسيف مهند

ثم قلت: ما رأيت - أعز الله أمير المؤمنين - أحداً من أبناء الخلافة وسعدن الرسالة وأفضان هذه الشجرة الزلالية أدب منهما السنأ، ولا أحسن الفاظاً، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً، وأمن الرشيد على دعائه، ثم ضمهما إليه، وجمع عليهما يديه، فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج وقال: كأنكم بهما وقد دعم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تثبت أمرهما، واختلفت كلمتهما بسفك الدماء، وتهتك الستور. وكان يقال بنو أمية دن خل أخرج الله منه رقى عسل، يعنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه. وسب أعرابي ولده وذكر له حقه، فقال: يا أبتاه إن عظيم حقد على لا يطل صغير حقى عليك. قال سيدى عبد العزيز الديرنى رحمه الله تعالى:

أحب بني بنيى ووددت أنى	دقت بنيى فى قاع لحد
مبابى أن تهون على لكن	مخافه أن تفوق الذل بعدى
فسان روجتها رجلاً فقيراً	أراها عنده والسهم عندى
وإن روجتها رجلاً غنياً	فيلطم خلتها ويب جدى
مالت الله ياخذها قريياً	ولو كانت أحب الناس عندى

وقال هارون بن على بن يحيى المنجم:

أرى ابنى تشابه من على	ومن يحسبى وذاك به خلى
وإن يشبههما خلقتا وخلقتا	فقد ترى إلى الشبه العروى

وقال أبو النصر مولى بنى سليم:

ونفحصر بالمولود من آل برمك	ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيم لم يولد له ولدٌ والمرء يخلقه من بعمده الولدُ
فقلت من علقت بالحرب همته عاف النساء ولم يكر له عدد
وكان الزير بن العوام رضى الله عنه يرقص ولده ويقول:

أهرُّ من آل بنى عتقيق
مباركٌ من ولد العتديق
اللهُ كـمـمـا الذريق

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حـبـبـيـذا ربح الولد ربح الخـزـامـى فى البلد
أهـكـذا كـلـى ولـد أم لم يلد مـشـلى أحمـد
وكان أعرابى يرقص ولده ويقول:

أحببه حبّ الشحيح ماله
قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بـذلـه بـدا لـه

وكان لأعرابى امرأتان. فولدت إحداهما جارية والأخرى غلاماً، فرقصته أمه يوماً وقالت معايرة لضررتها:

أحمد لله الحميد العالى أنقذنى العمام من الجوالى
من كل شـوهاء كـشـن بالى لا تدفع الضميم عن العسـيال
فسمعتها ضربتها فأقبلت ترقص ابتها وتقول:

وما على أن تكون جـارية تغسل رأسى وتكون الفـالـية
وترفع المـاقـط من خـماريه حتى إذا بلغت ثـمـانيـه
أزرتها بنقبة يمانيه أنكحتـها مروان أو معاوية

أصهار صدقٍ ومهور غاليه

قال فسمعها مروان، فزوجها على مائة ألف مثقال، وقال إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ويخان عهدهما، فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لانحرم الصلة، فبعث إليها بمائتي ألف درهم والله أعلم.

ومما جاء فى الأولاد القليل التوفيق قيل: نظر أعرابى إلى ولد له تبيح المنظر، فقال له: يا بنى إنك لست من رينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو فى المكتب: فى أى سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد ووالدى بلا ولد، فقال: لعمرى من كنت أنت ولده، فهو بلا ولد. وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء لبيث طوله عشرون ذراعاً، فوصل إلى نصف الطريق، ثم رجع فقال: يا أبت عشرون فى عرض كم؟ قال: فى عرض مصيبتى فيك يا بنى. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة، فبينما هو يوماً يمشى مع أبيه إذ برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجبه ذلك الشاب، فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله، فأى عبد تمنى، فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنتظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذ برجل ينادى شاباً يا حمزة، فقال حمزة ابن الأعرابى كلنا حماميز الله، فأى حمزة

تعني، فقال له أبوه ليس يعنك يا من أئخذ الله به ذكر أبيه. وكان لمحمد بن بشر الشاعر ابن جسيم، فأرسله في حاجته، فأبطأ عليه، ثم عاد ولم يقضها، فنظر إليه ثم قال:

عقله عــــقل طائرٍ وهو في خلقه الجــــملُ
فأجابه:

مــــنــــبــــه بك يا أبي ليس لي عنك منــــقل
ونهى أعرابي ابنه عن شرب النبيذ، فلم يته وقال:
أمن شربةٍ من ماء كرمٍ شربتها غضبت على الآن طابت لي الخمرُ
سأشرب فأسخط لأرضيت كلاهما حبيبٌ إلى قلبي عقوقك والسكر
وقيل: قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر.

ومما جاء في صلة الرحم: قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم منهاة للولد شراً للمال». وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت، مكتوب عليه بالعبرانية، أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمائي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بهت، أي قطعته. وقال رسول الله ﷺ: «أعجل الخير ثواباً صلة الرحم». وحدثننا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور، عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه كعب الأحبار أنه قال: والذي قلن البحر لموسى بن عمران إن في التوراة لكتاباً، يا ابن آدم اتق ربك وبر والديك وصل رحمك، أرد في صمرك، وإيسر لك في يسيرك، وأصرف عنك عسيرك. وعن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «صانع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفى غضب الرب جلّ وعلا، وصلة الرحم تزيد في العمر». وذكر تمام الحديث.

الفصل الثالث: من هذا الباب: في ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضى الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، فتصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء، وتنازع الأكفاء، لكان تعلمها من أحزم الرأى، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شعيب عليه السلام حيث قالوا: ولولا رهطك لرجمناك، فأبقوا عليه لرهطه. وقال عمر رضى الله عنه: تعلموا العربية، فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النّب، فربّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها.

وسئل عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ فقيض قبضتين من تراب، وقال: أي هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم. كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه، فلما خالف رسول الله، دين قريش قالوا: نزع عرق أبي كبشة، حيث خالفهم في عبادة الشمرى. وقال خالد بن عبد الله القشيري: سألت واصل بن عطاء عن نسب فقال: نسى الإسلام الذى من ضيعه، فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال خالد: وجه عبد وكلام حر. ومن كلام على كرم الله وجهه: أكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذى به تطير، فإنك بهم تصول وبهم تطول وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم وعُد سقيمهم، وأشركهم في أمورك، ويسر عن معسرهم. وكان يقال: إذا كان لك قريب، فلم تمش إليه برجلك ولم تعطه من مالك، فقد قطعته. ويقال: حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحق الأكبر هلى الأصغر. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده». قال بعضهم:

وإذا رزقت من السنوافل ثروة فامنع عشيرتك الأدنى فضلها
واعلم بأنك لم تــــوّد فــــيهم حتى ترى الحد للاق سهلها

فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقيح والقصر
والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الحسن ومحاسن الأخلاق

والى سيدنا محمد رسول الله ﷺ يتهى الحسن والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ: ربة من القوم لا ياتئاً من طول ولا تقصحه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدهج العينين، مفلج الثنايا، دقيق المسربة، أهر الجبين، واضح الخلد، أفتى الألف، كان عنقه أبيض فضة، ظاهر الوضأة يتلألاً وجهه تلالو القمر، شثن الكفين مسيح القدمين، واسع الصدر، من لبته إلى سرتة شعر يجرى كالقضب، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شيه فى رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، إذا مشى كأنما ينحط من صيب، وإذا التفت التفت جميعاً، بين كنفه خاتم النبوة، كأنه زر حجلة، أو بيض حمامة، لونه كلون جسده، أبلج الوجه، حسن الخلق وميماً قسيماً فى جبينه رجع وفى عينيه دمع، وفى عنقه سطح، وفى لحيته كشافة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماء وعلاء البهاء، أجمل الناس وأبهاءهم من يبعد وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطق خرزوات نظم يتحدثون. قال أنس رضى الله عنه: ما رأيت من ذى لة سوداء فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. ومدحه حنان بن ثابت رضى الله فقال:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرراً من كل عيب كائنك قد خلقت كما تشاء

اللهم صل وسلم عليه واجعله شفيماً لمن يصلى عليه. وقال ﷺ: «ما حن الله خلق عبد خلقه إلا استخيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسية وجهاً وأبهاءهم منظرًا. وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً.

حكى أنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة، إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما توقفك يرحمك الله؟ فقالت: طفى مصباحنا، فجننا نقبس من وجهك مصباحاً. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفتيك مشققة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق والورد يشقق إذا سه الندى. وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبى سفيان، فكانت تقول: ما نظرت وجهى فى مرآة مع إنسان إلا رحته من حسن وجهى، إلا الوليد، فكانت إذا نظرت إلى وجهى مع وجهه زحمت وجهى من حسن وجهه. قال الشاعر:

ولو أنها فى عهد يوسف قطعت فليوب رجلاً لا أكف نساء
وقال كثير:

لو أن عزة حاكمت شمس الفصحى فى الحسن عند موفى لقضى لها
ومما جاء فى محاسن الخلق منظوماً على الترتيب من الفرق إلى القدم:

ما قيل فى الضمر: كان يقال من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين. قال بكر بن الطلاح:

بيضا تحب من قيام شعرها وتفنيب فيه وهو وجه أسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم
وللمتبي:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها فى ليلة فارت ليلال أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فارتى القمرين فى وقت ممبا

وله أيضا:

لبسن الوشي لا متجملات
وضفرون الغدائر لا لحسن
وقال الصفي:

لولا شفاعه شعره في صبه
لكن تشارل في الشفاعه عنده
وقال ابن الصائغ:

ثنى غصنا ومدّ عليه فرعاً
وبليله على الأرداف منه
وقال آخر:

أرعى ثلاثاً يوم حمامه
فسقلت والقصد ذواباته
وقال آخر:

بدت ثريا قرطها وشعرها
يا عجباً لشعرها لما ابتد
وقال ابن المعتز:

توارت عن الواشي بليل ذوائب
ينطى عليها شعرها بظلامه
وما قيل في الأصماغ:

قال ابن المعتز:

ريم يتيمه بحسن صورته
وكان عقرب صدغه وقفت
وقال العادلي:

وعهدى بالعقارب حين تشتو
فما بال الشتاء أتى وهنى
وقال آخر:

وما ضره نارٌ بخديه الهبت
عناقيد صدغيه بخديه تلتوى
شربت الهوى صرفاً ولالاً وإنما
وقال آخر:

حلّ القبا ولوى صدغيه فانعقد
واسكبرتني ثناياه وريقته

ولكن كي يصنّ به الجمال
ولكن خفن في الشعر الضلال

ما كان وار ولا أزال سقاما
فغدا على أقدامه يترامى

كحظي حين أطلب منه وصلا
فلم أر مثلاً ذاك الفرع أصلا

ذوابت تعبق منها الغرالى
واسهرى في ذى الليالى الطوال

متصل بكعبها كما ترى
من الثريا فانتهى إلى الثرى

لها من محبها واضح تحته فجر
وفي الليلة الظلماء يتفقد البدر

عبث النعاس بلحظ مقلته
لما دنت من ورد وجنته

يخفف لدغها ويقل ضرأ
عقارب صدغها تزداد ضرأ

ولكن بها قلب الحب يعذب
وأواج ردفيه بخصره تلعب
لواظله تسقى وقلبي يشرب

واحيرتى بين مخلول ومعهود
هل هذه الخسمر من تلك العناقيد

(وبما قيل في مدح العطار) قال أبو فراس بن حمدان:

يا من يلوم على هواء جهالة
حسنت وطاب نسيمها فكانها
وقال محمد بن وهب:

صدودك والهوى هتكا استتار
وكم أبصرت من حسن ولكن
ولم أخلع عذاراً فسيك إلا
وقال آخر:

ومعذرت رقت حواشي غيده
لم يكن عارضه السواد وإنما
وقال آخر:

ومفهمه رقت نضارة وجهه
أضلى بنار الخلد غير خاله
وقال آخر:

أصبحت سلطان القلوب ملاحه
طلعت طلائع وجتيك منيرة
وقال آخر:

يا ذا الذي خط العذار بخده
ما صح عندي أن لحظك صارم
وقال آخر:

من لا رأى كعبة الحسن التي حرمت
فليظن النمل أضحى فوق عارضه
وقال بدر الدين الدمايني:

نمذت ليل عارضه بأنى
فأشرق صبح غرته ينادى
وقال آخر:

وقالوا تلى فقد شأنه
فسقلت وهممتم ولكننى
قال سيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء:

على وجنتيه جنة ذات بهجة
حمى ورد خديه حماء عذاره

انظر إلى تلك السوالف تعذر
مك تساقط فوق خد أحمر

وساعدنى البكاء على اشتهاى
عليك لشقوتي وقع اختياري
لما عاينت من خلع العذار

فسقلوبنا وجداً عليه رقاق
نفضت عليه سوادها الأحناق

والعين تنظر منه أحسن منظر
فبدا العذار دخان ذاك العنبر

وجمال وجهك للبيرة عكر
بالنصر يقدمها اللواء الأخضر

خطين هاجبا لوعنة وبلايا
حتى حملت بعارضيك حمائلا

بالنحل حيث مقام النحل فى فمه
يطوف سجعاً حول مسبمه

سأله وينصروم المزار
حديث الليل يحسوه النهار

عذار أراحك من صيده
خلعت العذار على خده

ترى لعبون الناس فيها تراحما
فيا حسن ريحان العذار حماحمى

وقال ابن نباتة^(١):

ومهجتي رشاً يميس قوامه
شغف العذار بخلفه ورأه قد

وقال الموصلي:

لحديث نبتِ العارفين حلاوة
فلذا نهاني المرء قلت ترققوا

وقال آخر:

أصبحتُ مكسوراً بهم لحاظه
حتى بدا سيف العذار مجرداً

وقال آخر:

يا صاح قد حضر المنامُ ومُنيتي
وكما العذار الخد حسناً فاستقي

وقال ابن نباتة:

رضعت سلاح الصبر عنه فما له
وسال عذاراً فوق خديه سائلٌ

(ومما قيل في ذم العذار) قال الشاعر:

غدا لما التمحي ليلاً بهيماً
وقد كتب السواد بعارضيـه

وقال آخر في ذمه:

قلت لأصحابي وقد مرّ بي
بالله يا أهل ودّي قسّفوا

وقال آخر:

ما زال ينفّ ريحاناً بعارضه
كأنما طور سينا فوق عارضه

وقال آخر:

ومما زال يحلف لي بكلّ آنية
لما جنى نزل العسلدار بخلفه

قال ابن المعتز:

يارب إن لم يكن في وصله طمعٌ
فأثاف السقام الذي في لحظه مقلته

فكأنه نشوان من شفتيه
نمست لواحظه فلدبٌ عليه

وطلاوة هامت بهذا العشاق
فإليكم هذا الحديث يساق

ومقيداً من صدغه بلسانه
فخشيت يقتلني وذا من شأنه

وحظيتُ بعد الهجر بالإيناس
واجعل حديثك كله في الكاس

ينازلُ بالالحاظ من لا يغارله
على خبئه فليتنق الله سائله

وكان كأنه قمرٌ منيرٌ
لمن يقرأ وجساءكم النذيرُ

منتقباً بعد الضياع بالظلم
ثم انظروا كيف زوال النعم

حتى استطال عليه صار يحلقه
طول الزمان فموسى لا يفارقـه

أن لا يزال مدى الزمان مصاحبى
فتعجبوا لسواد وجهه الكاذب

ولم يكن فرجٌ من طول جفـوته
واستر ملاحة خفيه بلحيته

(١) ابن نباتة: هو جريد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة التميمي السعدي (أبو نصر)، شاعر طائف البلاد، ومدح الملوك والوزراء، وله في سيف الدولة بن حمدان القصائد والمدائح، توفي ببغداد في شوال سنة (٤٠٥ هـ) ومن مصنفاته (ديوان شعر كبير) ودفن في مقبرة الخيزران من الجانب الشرقي.

ومما قيل في الجبين والحوجب: قال خالد الكاتب:

لها ظباء الرمل عينٌ مريضةٌ
ومن يانع الأغصان قد وقامة
وقال آخر:

غزائي الهوى في جيشه وجنوده
بميسرة أجنادها أعين المها
وقال آخر:

أيا قمرأ تبسم عن أقبح
جيبك المقبل والشانبا

ومما قيل في العيون: قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

وكأنها دون النساء أعارها
وسنان أقصده النعاس تلاعبت
وقال ابن المعتز:

عليم بما تحت العيون من الهوى
فيجرح أحشائي بعين مريضة
وقال الأخطل^(١):

ولا تلمم بدار بشي كلاليب
ترى فيها بوارق مرفقات
وقال أبو فراس وأحسن:

ويضي بالحفاظ الميون كأنما
تصدين لي يوماً بمنعرج اللوى
سفرن بدوراً وانتقبن أهلة

وقال آخر:

ومريض جفن ليس يصرف طرفه
قد قلت إذ أبصرته متمائلاً
يا من يلم خصمه من ردفه

وقال أبو هتان:

أخو دنف رمته فاقصده
فسوائك لأيقسال سوى أحورار
أصبن فؤاد مهجته فأضحي
كثيباً إن ترحل عنه جيش

ومن ناضر الريحان خضرة حاجب
ومن حالك الحبر أسوداد الذواتب

وهباً على الجيش من كل جانب
وميسرة تقضى بزج الحراجب

وياغصناً يميل مع الرياح
صباح في صباح في صباح

ومما قيل في العيون: قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

عينيه أحور من جاذر جاسم
في جفنة سنة وليس بناسم

سريع بكسر اللحظ والقلب جازع
كما لأن من السيف والحد قاطع

ولانفسرب لها أبداً رجلاً
يكدن يكدن بالحرق الرجلاً

هزن مسيوقاً واستلن خناجرا
فنادن قلبى بالتصير غادرا
ومسن غصوناً والتفتن جاذرا

نحو امرئ إلا رماء بحنقه
والردف يجذب خصمه من خلفه
سلم فؤاد محبته من طرفه

سهام من جفونك لا تطيش
بهن ولا سوى الأهداب ريش
سقيماً لا يموت ولا يمشي
من اليلوى أناخ به جيبوش

(١) الأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن سبجان، أبو مالك التغلبي النصراني المعروف بالأخطل الشاعر، سمي بالأخطل لخطأ لسانه، وقيل لظلول أنفيه ويعرف بلدى الصليب، أكثر من مدح أمراء بني أمية ودعا إليهم وهجا خصومهم ولد سنة (١٩هـ - ٦٤٠م) ومات سنة (٩٠هـ - ٧٠٨م).

وقال آخر:

وجاؤا إليّ بالشماعاويذ والرقى
وقالوا به من أعين الجن نظرة

وقال عز الدين الموصلى:

لها عين لها غزو وعزل
وحاكت فى فعالها المواضى

وقال برهان الدين القيراطى:

شبه السيف والسنان بعينى
فأتى السيف والسنان وقالوا

وله أيضا:

بأى أهيف المعطاف لدن
ذو جفون مذ رمت منها كلاما

وقال بدر الدين بن حبيب:

عيناه وقد شهدت بانى مخطيء
يا حاكم الحب اتد فى قتلتى

وقال جلال الدين بن خطيب داريا:

شهدت جفون معذى بملالة
لكننى لم أنا عنه لأنه

وقال الشيخ عز الدين الموصلى:

يا مقله الحب مهلا
وأنت يا وحنى

وقال ابن الصائغ:

لخلى من لواحظها سهام
إذا رامت تشك به فوادا
وقال الصلاح الصفدى:

يا عاذلى على عين محجبة
وغد فوادى ودعه نصب مقاتها
وقال آخر:

بسهم أجفانه رماني
إن مت ما لى سواه خصم
وقال آخر:

سهم الجفن كم قتلت لنفس
فما أتوى جفونك وهى مرضى

فصبوا عليه الماء من شدة النكس
ولو أنصفوا قالوا به أعين الإنس

مكحلة ولى عين تبسك
فيا لك مقله غزلت وحاكت

من لقتلى بين الأنام استجلا
حدنا دون ذاك حاشى وكلا

حسد الأسمر المشقف قد
كلمتى سيوفهن بخلد

وأنت بخط عذاره تذكرا
فالخط زور والشهود سكارى

منى وأن دواده تكليف
خبر رواه الجفن وهو ضعيف

فقد أحضرت بشارك
لا تحرق عيني بشارك

لها فى القلب فتك أى فتك
يموت المستهم بغير شك

خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفى
لاترم نفسك بين السهم والهدف

فلبت من هجره وبينه
لأنه قاتلى بعينه

مبصرة من السلى ركية
وأقترها على قتل البسرية

ومما قيل في الحال: للصالح الصفدي:

بروحى خلد المحمر أضحى
كان الحسن يعشيقه قديماً
ولا ين الصانع:

بروحى أفلى خاله فوق خلد
تبارك من أحلى من الشعر خلد
للشيخ جمال الدين بن نباتة:

لله خال على خلد الحبيب له
أورثه حبة القلب القليل به
وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله
أحرقت قلبى فارقى بشرارة
للشيخ تقي الدين بن حجة:

قلت للخـال إذ بدا
فزت يا عبيد قال لى
وقال ابن أبيك:

فى الجاتب الأيمن من خدودها
حبيبته لما بدا خالها
وقال الحسين بن الضحاك:

يا صائد الطير كم ذا
نصبت نقطة خـال
ومما قيل فى الحدود: قال ابن المعتز:

صل بخدى خديك تلق عجباً
فبـخديك للرميح رياض
وقال آخر:

ورد الخـدود ونرجس اللحظات
شئ أسـرُّ به وأعلم أنه
ومما قيل فى الثغور: قال يوسف بن مسعود الصواف:

بروحى من ولى فولى بمهجتي
حـمى ثغره نـى بسيف لحاظه
وقال آخر:

عليه شامة شرط المحبة
فنقطه بدينار وجبـه

ومن أنا فى الدنيا فأقديه بالمال
واسكن كل الحسن فى ذلك الخـال

فى العاشقين كما شاء الهوى عبث
وكان عهدى بأن الخـال لا يـرث

أبـستنى فى الحزن ثوب مماته
علقت بخدك فانطفت فى ماله

فى نقبا جـيده السعيد
أنا عبيد لكل جـيد

نقطة مسك أشتهى شمها
وجدته من حسنها عـمها

باللحظ تغنى وتـسـبى
فـصـدت طائر قلبى

من معان يحار فيها الضمير
ويخـدنى للدموع غـدير

وتصافح الشفتين فى الخلوات
وحـيـاته أحلى من اللذات

وولى منامى وهو كالوصل شـارد
وحـثام يحـمى ثغره وهو بارد

انفقت كنز مدامعى فى ثغره
وطلبت منه جزاء ذلك قبله
وقال آخر:

رأى ثغر من أهوى عذولى فقال لى
ثغلت بهذا وارتبطت بحسنه
وقال ابن ريان:

لاحت على ميسمه المشتبهى
لاتعجبوا إن كثرت حوله
ومما قيل فى طيب الريق والنكهة: قال ذو الرمة:
أبلة مجرى الدمع هيفاء طفلة
كان على فيها وما ذقت طعمه
وقال شهاب الدين الكردى:

ذكرت ريح حبيبى
وليس ذا بعجيب
وقال غيره:

رشفنت ريقاً حلواً
ومسوف أحظى بوصلى
وقال الصلاح الصفدى:

نقل الأراك بأن ريقه ثغره
قد صبح مما نقل الأراك لأنه
وقال آخر:

ثلاث تحبب من فى ثغرها
فإن قيل مامى قل لى أقل
وقال آخر:

يارب ممتمع الوصال محجب
دارت مرأشفه على وكاسه
وقال آخر:

أريقاً من رضاك أم رحيقاً
وللصهباء أسماء ولكن
ومما قيل فى حسن الحديث: قال البحتري:

ولما التقينا والنقا موعداً لنا
لمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

وجمعت فيه كل معنى شارد
فمضى وراح تغزلى فى البارد

ولم يدرك أن اللوم فى خنده يغسرى
وأحسن ما كان الرباط على ثغرى

ثلاث شامات غدت فى الثمام
فالمهل العذب كثير الزحام

عروب كإياض الغمام ابتسامها
رجاجة خمر طاب فيها مدامها

بشرب راح تعطّر
فالشىء بالشىء يذكر

ولم يكن لى صبر
فأول الغصيث قطر

من قهوة مزجت بماء الكوثر
يرويه نصاً عن صحاح الجوهرى

ملاح أدلتها واضحة
هى الطعم واللون والرائحة

بنوره كالبدر بين غيومه
فسكرت فى الحالين من خرطومه

رشفنت فكنت منه لن أفيقاً
جهلت بأن فى الأسماء ريقاً

تعجب رأتى الدر حسناً ولاقطه
ومن لؤلؤ عند الحديث تالقطه

وقال سلم الحاسر:

ظللنا فجبنا عند أم محمد
إذا صمتت عنا ضجرنا لصمتها

وقال ابن الرومي:

يمى ويصبح معرضاً فكأنه
ليست إسماءه بناقصه له

وما أحسن هذه الأبيات: وهي من طارف الشعر ووافره وناقده، وجيد الكلام، وبارع الوصف:

وكلّ حديث الناس إلا حديثها
جرحن بأعناق الأطباء وأعين الد
رجحن بأرداف ثقال وأسوق
وما قيل في رقة البشارة: قال ابن المعتز:

نضت عنها القميص لصب ماء
وقابلت الهواء وقد تعرت
ومدت راحة كالماء منها
فلما قضت وطراً وهمت
رأت شخص الرقيب على ثدان
فغاب الصبح منها تحت ليل
وقال آخر:

تغيب عن سروده وحالا
وعلمه التبدل كيف هجرى
ترى من فوق حقوقه قضيباً
إذا كلمته أثرت فيه
وقال بشار:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها
كحوراء من حور الجنان غريبة
ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرت إلى وجهه نظرة
وقال آخر:

توهمه قلبى فأصبح غده
ومر بفكرى جسمه فجرحت
وقال آخر:

ييوم ولم نشرب شراباً ولا خمراً
وإن نطقنا حاجت لالينا مكرراً

ملك عزيز قاهر سلطانه
در يساقطه إلى لسانه

رجيع وفيما حدثتك الطراف

جسّسآذر وارتجت بهن الروادف
جزال وأعضاء عليها المطارف

قُورّد خذها فرط الحياء
بمعتمد أرق من الهواء
إلى مساء عتيدي في إناء
على عجل إلى أخذ الرداء
فأسبلت الظلام على الضياء
وظلّ الماء يقطر فوق ماء

وكان مواصلاً فطوى الوصالا
فليت الوصل كان له دلالا
إذا ما حركته خطاه مالا
وإن حركته فالخمر مالا

بشيء سوى أطرافها والمحاجر
يرى وجهه في وجهها كل ناظر

فأبصرت وجهي في وجهه

وفيه مكان الوهم من نظري أثر
ولم أر جسماً قط تجرحه الفكر

سقى الله روضاً قد تبدى لناظر
وقد نضحت خدها من ماء ورد
وقال آخر:

وأعيف خذه كُسى أحمراراً
قلو أخجلته بالقول جهدى
ومأقيل فى التقييل : لظفر الأعمى:

قبلته فتلظى جمر وجته
وجال بينهما ماء ولا عجب
وقال آخر:

سالته فى ثغره قبله
فهلكها فى الخند واقنع بها
وقال صاحب حماة:

قسالك الذى تيمنى
يروم منى قسيلة
وللشيخ عز الدين الموصلى:

كالزرد المنظوم أصداغيه
بالغت فى اللشم وقبيلته
وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه
سوى أن ذاك بعيميد المزار
وذاك يغيب وذا حاضراً
ونفع الهلال قليل لنا
وقال ابن صابر:

قبلت وجته فألفت جيده
فأنهل من خديه فوق عذاره
فكأننى استقطرت ورد خدوده
وقال آخر:

قبلت رجل حببى
وقسالك تلشم رجلى
فقلت ما جئت بدعاً
رجل سمعت بك نحوى

به شادن كالفن يلهو ويرج
وكل إناء بالذى فسيه ينضح

وحار الحمن فهو بلا شبيه
لحمرة خذه ما بان فيه

وفاح من عارضيه العنبر العبق
لا ينطفى ذا ولا ذا منه يحترق

فقال ثغرى لم يجر لشمه
ما قارب الشئ له حكمه

قولوا لمن خبيلته
لو مات ما قبيلته

وخذه كـالورد لما ورد
فى الخند تقبيلاً يفك الزرد

فلم أدر أيهما ما أنور
وهذا قسريب لمن ينظر
وما من يغيب كمن يحضر
ونفع الحبيب لنا أكثر

خجلاً وماس بعطفه المياس
عرق يحاكي الطل فوق الآس
بتصاعد الزفرات من أنفاسى

فلأزور وأحسمر خمداً
لقعد تنازلت جـداً
ولا تجاورت حسداً
حقوقها لا تؤدى

ومما قيل في الوجه الحسن: قال بن نباتة:

إنسية في مثال الجن تحبها
شقت لها الشمس ثوباً من محاسنها
وقال عبد الله بن أبي خبيص:

تصد من غير علة
كسأنها حين تدنو
وإن أضواءه بليل
وقال آخر:

أقسم بالله وآياته
ولا بدا وجهه طالعاً
وقال آخر:

أسمى مكان البدر إن أقل البدر
ففيك من الشمس المنيرة نورها
وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذات حسن إن تغب شمس الضحى
أجمع الناس على تفصيلها
(أخذ أبو تمام هذا المعنى فرده إلى المدح):
لو أن إجماعنا في فضل سوده
وقال آخر:

يا مسفرداً في الحسن والشكل
البدر من شمس الضحى نوره
وقال آخر:

ففي أربع متى حلت منك أربع
أرجحك في عيني أم الريق في فمي
فلما سمعه إسحق بن يعقوب الكندي قال هذا تقسيم فلسفي وجعله العلوي خمسة فقال:
وفي خمسة متى حلت منك خمسة
ووجهك في عيني ولك في يدي
وقال ابن نباتة:

أيها العاذل الغبي تأمل
وتعجب لطرة وجبين
وقال محمود المخزومي:

شمساً بدت بين تشریق وتغميم
فالوجه للشمس والعينان للريم

بالعز أضحت مذلّه
شمسٌ عليها مظلّه
تفوق نور الأملّه

ما نظرت عيني إلى مثله
إلا سالت الله من فضله

وقومي مقام الشمس قد أمها الفجر
وليس لها منك التسم والشجر

فلنا من وجهها عنها خلف
وهوهم في سوى هذا اختلف

في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

من دل عيني على قتلى
والشمس من نورك تستملى

فما أنا أدري أيها هاج لي كبري
أم النطق في سمي أم الحب في قلبي

فريقك منها في فمي طيب الرشف
ونطقك في سمي وعرفك في أنفي

من غلبا في صفاته القلب ذائب
إن في الليل والنهار عجائب

رأيتك في الشمس المنيرة غدوة
لأنك تزهو إن بدا الليل بهججة
وقال آخر:

إذا احتجبت لم يكفك البدر وجهها
وحبك من خمير مذاقة ريقها
ومأ قيل في البنان المخضب قال ابن الرومي:

وقفت وقفت بباب الطاق
بنت ســـــــــــــــــبع وأربع وثلاث
قلت من أنت يا غزال فقلالت
لا ترم وصلنا فـــــــــــــــــهـذا بنان
وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها
فظننت أن بنانها من فضة
وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعربت
فرقن بين محاجر ومعاجر
وقال آخر:

ولما تلاقسينا رأيت بنانها
فقلت خضبت الكف بعدي أهكذا
فقلالت وأذكت في الحشى لأعج الجوى
بكيت دماً يوم النوى فمسحته
وقال آخر:

دنوت عشية التوديع منى
فلم يحن إكراماً جفوني
ومأ قيل في النحور: قال دعلج:

أتاح لك الهوى بيمضاً حسناً
نظرت إلى النحور فكدت تقضى
ومأ قيل في نعت اليهود: قال العباس بن الأحتف:
والله لو أن القلوب كقلبها
جال الوشاح على قضيب رانه
وقال آخر:

فكنت على عيني أبهى من الشمس
وشمس الضحى ليست تضيء إذا تضى

وتكفيك فقد البدر إن غرب البدر
ووالله ما من ريقها حبك الخمر

ظبية من مخدرات العراق
أمرت قلب صببها المشقائق
أنا من لطف صنعة الخلاق
قد صبغتاه من دم العشاق

في خدها وقد اعتلقت خطابها
قطفت بنور بنفسيح عتابها

عبيراتنا عنا بدمع ناطق
وجمعن بين بنفسيح وشقائق

مخضبة تحكي عصارة عندم
يكون جزاء المستهتام المتشيم
مقالة من بالود لم يتبهرم
بكفى فاحمرت بناني من دمي

ولى عبينان بالدم تحميران
ولكن رمن تخضيب البنان

تباهى بالعبيون وبالنحور
فكيف إذا نظرت إلى الخصور

ما رقى للولد الضعيف الوالد
تفاح صدر ما حيوته ناهد

ومحبوبة عند الدواع رأيتها
وتبكي حذار البين منها بدمعة
فتحست مجرى الدمع من وجناتها
وقد سمرت عن غمرة بابلية
وقال عمر بن كلثوم:

تراك إذا دخلت على خليل
لنهد مثل حق العاج حسناً
وقال آخر:

بصدرها كوكباً در كأنهما
صانتهما بتور من علائها
وقال آخر:

صدور فوقهن حقائق عاج
يقطول الناظرون إذا رأوه
وما تلك الحقائق سوى لدى
نواهد لا يبعد لهن عيب
وقال آخر:

لقد فتكت عيون الغيد فينا
وتطمنا القيدود إذا التقينا
وما قيل في الأرداف والخصور: قال ابن الرومي:
وشربت كأس مذامة من كفها
وقابلت فضحكت من أردافها
وقال الطنبغا المحاربي:

ردفه زاد في الشقالة حتى
نهض الخصر والقوام وقالا
وقال آخر:

يا خصره كم جفاه
يا ردفه ملئت عني
القيراطي:

بهدت روادف بـ
فـ قلت يا بدر هذا
وقال آخر:

تنشف دمعاً بالرداء الممسك
تسيل على الخدين في حسن ملك
بقسيمة طفل فسوق ورد بمك
وصدر به نهـد بحـي مفكك

قد امتدت عيون الكاشحين
حصيناً من أكف اللامسين

ركنان لم يذمنا من لمس
فالناس في الحل والركنان في الحرم

ودر زانه حسن اتساق
أهذا الحللى من هذى الحقائق
جعلن من الحقائق على وفاء
سوى منع المحب من العناق

بيض مرففات وهى سود
بممر من استنها النهود

مقرونة بمذامة من ثغرها
عجبا ولكنى بكيت لخصرها

أبعد الخصر والقوام سوياً
فضمعيقتان يغلبان قوياً

تُبـدى وأنت نحـيل
مـا أنت إلا بخـيل

تحت الحنين لعـنى
حـما نحـيل الحـنى

أما لها أين الوشاح وقد سرت
فقلت وأومت للسور نحلته
وقال آخر:

بيضٌ وسمرٌ مقلتاه وقبذه
أقوى من الحاجر الأصم فؤاده
وقال آخر:

رخيمات المقال مدلاتُ
جمعن فخامة وخلوص جيد
ومما قيل في المعاصم: قال عمر بن أبي ربيعة:

حسروا الوجوه بأثرع ومعاصم
حسروا الأكمنة عن سواعد فضة
ومما قيل في اعتدال القوام: قال صلاح الدين الصفدي:

تقول له الأغصان مذكر عطفه
فقم نحتكم للروض عند نسيمه

معطلة منه معطرة النشور
إلى معصمي لما تلتلق في خمري

بدرٌ وليلٌ وجنتاه وشعره
وأرق من شكوى المتيم خصره

جواعل في الشرى قضيباً جبالاً
رقبداً بعد ذلك واعتدالاً

ورنوا بنجلٍ للقلوب كسوالم
فكأنما اتصبت مشون صوام

أترغم أن اللين عندك مما شوى
لتقضى على من مال منا إلى الهوى
وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن المرأة من الأوصاف البارة مع جودة السبك ورقة اللفظ ما
لذي الرمة حتى كانه حضري من أهل المدن لا من أهل الدير، وقال القاضي مجد الدين بن مكناس:

كميلة خود غير السكر حالها
فقيام كغصن البان لبناً وما لها

في قتل صب ما غوى
في النفس يحكم باللهوى

يوماً إلى فصحت من ألم الجوى
فأجاب كيف وأنت من أهل الهوى

عني ساقه كاللؤلؤ البراق
إن القيامة يوم كشف الناق

كلؤلؤ يبدو لعشاقها
وقامت الحرب على ساقها

ظبيٌ ولكنته أنيس
فسمما لأعطافه تميس

ومنهفهف عنى يميل ولم يمل
لم لا تميل إلى يا غصن النقا
ومما قيل في الساق: قال ذو الرمة:

لم أنه إذا قام يكشف عامداً
لاتعجبوا إن قام فيه قيامتي
وقال آخر:

جاءت بسباقٍ أبيض أملس
فانتبت فيها جميع الوري
وقال ابن مقذ:

بدرٌ ولكنته قريبٌ
إن لم يكن قبذه قضيباً

ومما قيل في مثنى النساء: قال بعضهم:

يهزرن للمثنى أطرافاً مخضبة
أو كساهن زاز ردينى تداوله
وقال آخر:

يمشين ممشى قطا البطاح تأوداً
فكأنهن إذا أردن زيارة
ومما قيل في العناق وطيه: لابن المعتز:

ما أقصر الليل على الرافد
كأننى عانقت ريحانة
فلو ترانا في قمم فحش الذجى
وقال آخر:

ومرشح نازعت فضل وثاحه
بات الغيور يشق جلد وجهه
وقال ابن المعتز:

أقول وجَّحُ الذَّجى مَسْجِلُ
ونحن ضجيجعان في مسجد
أيا غداً إن كنت لى محسناً
ويا ليلة الوصل لا تنقص صبرى
وقال آخر:

ليل رقيق الطريتين تظلمت
لهونا بغزلان الصريمة تحته
قال ابن المعتز:
وكم عناق لنا وكم قسبل
نقر العصفير وهي خائفة
وقال ديك الجن:

ومعدولة مهما أمالت إزارها
لها القمر البارى شقيق وإنها
أقول لها والليل مرخ سدوله
لانت المنى يا زين كل مليحة
وقال على بن الجهم^(١):

سقى الله ليلاً ضمناً بعد فرقة
فبتنا جميعاً لو تراق رجاجة

هز الشمال ضحى عيدان نسرين
أبدى الرجبال فزاد المتن فى اللين

قَبَ البطون رواجح الأكسفال
يقلعن أرجلهن من أوحسال

وأهون السقيم على العسائد
تغلبت فى ليلها الجبارد
حسبتنا فى جسد واحد

وأعبرته من ساعدى وشاحها
وأمال أعطافاً على ملاحها

ولليل فى كل فج يد
فله ما ضمنا المسجد
فلا تدن من ليلتى يا غداً
كما ليلة الهجر لا تنفد

كواكبهم من بكرة المشالقي
نميت الهوى ما بين صدر ومرفق

مختلصات حذار مرتقب
من الشواطير يانع الوطير

فنصن وأما قذها فقضيي
لتطلع أحسبنا له فمبيغي
وغصن الهوى غص الثبات رطيب
وأنت الهوى أدعى له فاجيب

وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
من الخمر فيما ينشأ لم تسرب

(١) على بن الجهم: هو على بن الجهم بن بكر أبو الحسن الباسي الفراءى الأحملي، البغدادي الشاعر المشهور صاحب الديوان المشهور، كان ناصياً متحرراً عن على رضى الله عنه، وكان يرب أباه لأنه ساء عليه بغيته من على رضى الله عنه، ولا رضى من باغضه، وقع بينه وبين التوكل عدواة لكونه حبيبا، فنشأه وكتب إلى ابن طاهر الأمير فصيليه يوماً كاملاً ثم أطلقه مات سنة (٢٤٩هـ).

وقال آخر:

يا ليل دمٌ لا أريد براحاً
حسبي به نوراً وحسبي ريقه
حسبي بمضحكه إذا استضحكه
طوقته طوق العناق بباعد
هذا هو اليوم النعيم فخلنا

وقال آخر:

ولم أنس ضمى للحبيب على رضا
ولا قوله لى عند تقبيل غده
ورشفى رضاباً كالرحيق المسلسل
تشفل فلذات الهوى فى التشفل

وما قيل فى السمن: قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: ما رأيت مميئاً عاقلاً إلا محمد ابن الحسن. قال الشاعر:

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمن
إن امرؤ أركب المهر المضممر فى
لكننى أعشق الشمر المهازيل
يوم الرهاب وغيرى يركب القفيل
وما قيل فى مدح الألوان والثياب: مدح الياض: قال رسول الله ﷺ: «البياض نصف الحسن»، وكان ﷺ أبيض
أزهر اللون مشرباً بحمرة. قال الشاعر:

بيض الوجه كرمية أحبابهم
وما قيل فى مدح السواد: قيل لبعضهم: ما تقول فى السواد؟ قال: النور فى السواد أراد بذلك نور العينين فى
سوادهما، وقال بعضهم:

قالوا تعشقتنهما سوداء قلت لهم
إنى امرؤ ليس شأن البيض مرتفعاً
لون العوالى ولون المسك والعود
عندى ولو خلت الدنيا من السود

وقال الحيقطان:

لئن كنت جمعد الرأس واللون فاحم
وإن سواد اللون ليس بضائر
فلئن بسط الكف والمعرض أزهر
إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر

دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم: نعم، فتمثل المأمون ببيت
نصيب، فقال:

إن كنت عبداً فنفسى حرة كرمياً
ثم قال ياعم: أخرجنا الهزل إلى الجد: فأنشد إبراهيم:
ليس يزدى السواد بالرجل الشهم
إن يكن للسواد فيك نصيب
وقال آخر:

لام العواذل فى سوداء فاحمة
وهم فى الخصال أقنوماً وما علموا
كأنها فى سواد القلب عمثال
أتى أهيم بشخصى كله خال

وقيل للمنى: كيف رغبتم فى السواد؟ فقال: لو وجدنا بيضاء لسودناها.

وقال آخر:

يكون الخصال فى خمد قسبيح
فكيف يلام ذو عشقٍ على من
يراهما كلهما فى الخمد خالاً
وقال آخر:

فاستحسنوا الخال فى خمد فقلت لهم
وقال أبو حاتم المدنى ينشد:

ومن يك معجباً ببنات كسرى
وتفاخرت حبشية ورومية، فقلت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم، فقلت الحبشية: أنا حبة منك، وأنت عدل ملح، وقد قال الشاعر:

أحب لحببها السودان حتى
أحب لحببها مسود الكلاب
وقال آخر:

أشبهك المحك وأشبهته
لاشك إذ لونكما واحد
قائمة فى لونه قاعده
أنكمما من طينة واحدة
ومما قيل فى الصفرة: قال الشاعر:

أصفراء كان الهجر منك مزاحاً
كأن نساء الحى ما دامت فيهم
قباحاً فلمّا غبت صرن ملاحاً
وقال آخر:

قالوا به صفرة شانت محابه
عيناه مطلوبة فى نار من قتلّت
فقلت ما ذاك من عيب به نزلا
فقلت تلقاه إلا خائضاً وجلا
ومما قيل فى طول اللحية: قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيبانى إلى رجل ذى لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب، فقال له: يا هذا إنك من لحيتك فى مؤنة، فقال أجمل، ولذلك أقول:

لها درهم يمدح من كل جمعة
ولولا نوال من يزيد بن يزيد
وأخسر للحناء ينتدبان
وقال إسحاق بن خلف فى قصر طويل اللحية:

ما شئت داود فاستضحك من عجب
ما طول داود إلا طول لحيتيه
يظن داود فيها غير موجود
وقال ابن المقفع:

تأملت أسواق العراق فلم أجد
جلوساً عليها يتغشون لحاهم
دكانينهم إلا عليها المواليسا
كما نفضت عصف البغال المخاليسا

ومما قيل فى عظم الخلقة والطول والقصر: قيل: خرب القهنتز فبرزت منه جماجم أصوات، فتصدعت جمجمة فتأثرت أسنانها، فوزن السن منها، فكان وزنها أربعة أذطال، فأتى بها إلى ابن المبارك، فجعل يقلبها ويتمجب من

عظيها، ثم قال:

إِذَا مَا تَذَكَّرْتَ أَجْسَامَهُمْ تَصَاغَرَتِ النَّفْسُ حَتَّى تَهْوُونَ

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل والثاني قصير شديد القوة، فدعا للطويل بقيس بن عباد، فترج قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل، فبلغت ثدييه، فلأموا قيساً على نزع السراويل فقال:

أردت لكبيماً يعلم الناس أنهما
وكي لايقولوا خان قيس وهذه
سراويل عاد أحرزتها ثمود
ومما الناس إلا سيد ومسود

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية، فخيره بين أن يقعد فيقيم أو يقوم فيقتعه، فغلبه في الحاليتين وانصرفا مغلوبين.

وقيل: كان سلمة بن مرة الناموسي أمر امرأ القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان الناموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً. فقالت بنت امرؤ القيس: يا هذا القصير اطلق أبى، فسمعه سلمة بن مرة، فقال:

لقد رعمت بنت امرئ القيس أننى
ورب طولي قد نزعت سلاحه
قصيرٌ وقد أعيا أباه قصيرها
وعانقته والغيل تدمي نحورها

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله وعرضها على قلة العقل وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة، وحسن الخلق والروعة، والتي يطول تحديقها تدل على الحق، والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المتصبية تدل على حمق وهذيان.

وما قيل في القبح والدماغة: أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وحش الصورة بشع المنظر، فلم يقدر على تحليته لفرط دماغة، فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره، فدفعه يذهب إلى نار الله وسقره.

ومر أبى الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير فقال بعض فتيانهم: كان وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها. وقال الجاحظ: ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى الصائغ، فقالت له اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوراً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه المرأة أرادت أن اعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأنت بك إلى لأصوره على صورتك، وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لو يُصْنَعُ الْخَنْزِيرُ مِثْلَ ثَائِيَا
رَجُلٌ يَنْوِبُ عَنِ الْجَحِيمِ بِوَجْهِهِ
مَا كَانَ إِلَّا دُونَ قَبِيحِ الْجَاحِظِ
وَهُوَ الْعَمَى فِى عَيْنِ كُلِّ مُلَاحِظٍ
وَلَوْ أَنَّ مَرَأَةً جَلَّتْ تَمَثَّالُهُ
وَرَأَتْ كَمَا لَهَ كَأَعْظَمِ وَأَعِظِ

وقال الأصمى: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح، فقلت: يا هذه أترضين أن تكونى تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه، فجعلنى ثوابه، وأسأت فيما بينى وبين ربي، فجعله عذابى. أفلا أرى بما رضى الله به. وحج مخنت، فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبي ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لى دمل فى آتبع المواضع، فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر، فدخل اليمن، فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لم أرَ وجهاً حسناً منذ دخلت المسجد منا
 فسيما شقراء بلدة أحسن من فسيها أنا
 وخطب رجل عظيم الأنف امرأة، فقال لها: قد عرفت أني رجل كريم المعاشرة محتمل المكارة، فقالت لاشك في
 احتمالك المكارة مع حملك هذا الأنف أربعين سنة.
 وقال الشاعر في رجل كبير الأنف:

لك وجهٌ وفيه قطعة أنف
 وهو كالقبر في المثال ولكن
 كجدار قد أدموه ببغله
 جعلوا نصبه على غير قبله

وقال آخر:

لك أنف من أنوف
 أنت في القبر تـصلـى
 أنفت منه الأنوف
 وهو في البـيـت يطوف

ومما قيل في الثقلاء: قال مطيع بن إياس:

قلت لعباس أخينا
 أنت في الصيف مـمـومٌ
 يا ثقييل الثقلاء
 وجليـدٌ في الشـمـاء
 أنت في الأرض ثـقـيـلٌ
 وثـقـيـلٌ في السـمـاء

ومما قيل في الملابس والوانها والعمائم ونحوها: قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].
 وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى
 أثر نعمته على عبده». وقال ﷺ: «تعمموا تزدادوا جمالا». وقال ﷺ: «العمائم تيجان العرب». وكان الزبير بن العوام
 يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة، وعليهم عمائم صفراء قد أرخوها. وبعث رسول الله ﷺ عبد
 الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، فتخلف عن الجيش، وأتى إلى رسول الله ﷺ عليه عمامة سوداء من خز، ففضها
 رسول الله ﷺ وعصمه بيده وأسند لها بين كفيه قدر شبر، وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبي
 ﷺ جبة ديباج. فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد، فقيل له في
 ذلك، فقال: إني أجالس ربي. وقيل: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة. وقيل: البس البياض والسواد، فإن الدهر هكذا
 بياض نهار وسواد ليل.

ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس:

رايتك في السـودا قلت بـلـراً
 وألقيت السـودا فـسـقلت شـمس
 بدا في ظلمة الليل البهيم
 محت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خمر العراق، فباع الجميع إلا السود، فشكا إلى الدارمي ذلك، وكان الدارمي قد
 نسك وتعب، فعمل بيتين، وأمر من يثنى بهما في المدينة، وهما هذان البيتان:

قل للعلـيـحة في الخـمـار الـسـود
 قـد كـان شـمـراً للـصـلاة إـزاره
 ماذا فعلت بزاهد مستعبد
 حتى قـعدت له بـيـاب المسـجد

قال: فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتشتق صاحبة الخمار الأسود، فلم يبق في المدينة مليحة إلا

اشترت لها خماراً أسود، فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمى إلى تعبدته وعمد إلى ثياب نكه فلبسها، وقال آخر
فى لآية الأحمر:

وجارية أذبت لها الشطارة
بدت فى قميص لها أخضر
فقلت لها ما اسم هذا اللباس
ثقتنا مرائر قوم به
ترى الشمس من حننها مستعاره
كما ستر الورق الجلناره
فلبدت جواباً لطيف العيباره
فنحن نسقميه شق المراره

وقال آخر فى لآية ثوب خمرى:

وشمس من قضيب فى كشيبي
سقتنى ريقها صرفاً وحيث
وقال الصنوبرى فى لآية أخضر:

فى ثوبها الخمرى قد أقبلت
فملت سكرأ حين أبصرتها
بوجنة حمراء كالجمر
لاتنكروا سكرى من الخمر

وقال حكيم لآيته: إياك أن تلبس ما يديم الملك نظره إليك به، واعلم أن الوشى لا يلبسه إلا الاحمق أو ملك.
وعليك باللباس. وقيل: لباس البخله الاستبرق لطول بقاءه، ولباس الترفين السندس لقلة بقاءه، ولباس المقتصد
الديباغ لتوسط بقاءه. وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل على عاقل، فأتاه برجل: فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيت
يلبس الكتان فى الصيف والقطن فى الشتاء، والملبوس فى الحر، والجذيد فى البرد. وقيل: كان لأبريز عمامة طولها
خمسون ذراعاً إذا تسخت ألغاهها فى النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة وسراويل
مجوهره، وتكة من أنابيب الزمرد، وقيل: الأقية لباس الفرس، والقراطق لبس الهند، والأزر لباس العرب. وسئل
بعض العرب عن الثياب، فقال: الأصفر أشكل، والحمراء أجمل، والأخضر أقيل، والسود أهول، والببيض أفضل، وقال
أفلاطون: الصبغ الشقائقى، والروائع الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الياقوتى والروائع الوردية تحرك السور، وإذا
قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العنيفة، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا
مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطباع كلها، وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شئ راحة، وراحة البيت كنسه،
وراحة الثوب طيه، وقال بعض الأعراب: رأيت فى البصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع، ودخل بعض العنبرين
على معاوية وعليه عباءة، فآذره، فقال يا أمير المؤمنين: إن العبادة لاتكلمك وإنما يكلمك من فيها.

وما قيل فيمن ردل لبسه وعرف نفسه: قال الأصمى: رأيت أعرابياً فاستنشدته، فاستنشدنى أبياتاً، وروى أخباراً،
فتمجبت من جماله وسوء حاله، فسكت سكنة ثم قال:

أخسى إن الخمرى
لاتنكرن أن نقيس
إن كنسان أثوابى وثاناً
ت عركتني عرك الأديم
أخلاك فى طمرى عديم
فإنهن على كسرهم

قال بعضهم: وقيل للشاعرى رحمه الله تعالى:

على ثياب لو تقاس جميعها
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده
بغلى لكان الفلح منهن أكثرا
تفوس الورى كانت أجل وأكبرا
إذا كان عضباً حيث وجهه يرى

ودخل بعضهم . على الرشيد فاجدراه ، فأنشده :

تري الرجل الخفيف فتزدره	وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطير فتبتليه	فبيخلف ظنك الرجل الطير
لقد عظم البعير بغير لب	فلم يستغن بالمعظم البعير
يصرفه الصبي بغير وجه	ويحسبه على الخسف الجير
وتضربه الوليدة بالهرأوى	فلا عار عليه ولا نكير
فإن أك في شرارك موقلاً	فلأتى في خيارك موكشير

ويقال : كل ما تشتهي نفسك والبس ما تشتهي الناس وقد نظمه من قال :

إن العيون رمتك إذ فاجأتهما	وعليك من مهن الشيا بلباس
أما الطعام فكل لنفسك ما اشتئت	واجعل لباسك ما اشتتهه الناس

وفى هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فى التختم والحلى والمصوغ والطيب والتطيب

وما أشبه ذلك

ما جاء فى التختم: عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتختم فى يمينه، وقبض عليه الصلاة والسلام والحاتم فى يمينه. قال بعض من مدحه عليه الصلاة والسلام:

كف الرسالة ليس يخفى حسنها ونعم الكف ليس الحسنى

وذكر السلامى أن رسول الله ﷺ كان يتختم فى يمينه، والخلفاء بعده، فقله معاوية رضى الله تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الاموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين، فبقى إلى أيام الرشيد رضى الله تعالى عنه، فنقله إلى اليسار، وأخذ الناس بذلك، وعن على رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ: «تختموا بخواتم العقيق، فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بيعت خاتمك بألف دينار وجعلتها فى بطن جائع، واستعمل خاتماً من ورق وانتش عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. وكان خاتم على رضى الله عنه من ورق، ونقشه: نعم القادر الله. وكان لأمى نواس خاتمان أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمنى ذنبى فلمما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظم

والآخر حديد صينى عليه: أشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، وأوصى عند موته أن يغسل الفص ويجعل فى فمه. قال جعفر بن محمد رضى الله تعالى عنه: ما انتحرت يد تختمت بخاتم فيروج. وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيروج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصينى للحرز، وقيل للخوف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء فى الحلى: قيل: إن قرطى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كيبض الحمام لم ير مثلهما، ولم يدر قيمتهما.

وقال محمد: يعنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفى، كانت للرافقة جارية خالد بن عبد الله القسرى اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحبة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب، فدخلت عليه بهما فقال: اكب محك بورنهما، فقلت يا أمير المؤمنين: هما أعظم من أن يكتب بورنهما، فقال: صدقت. وبعث معاوية إلى عائشة رضى الله تعالى عنها طوقاً من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار، فقصته بين أزواج النبى ﷺ. وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنى ملكه ريدت فى تاجه خزرة، وكان يقال لها خزرات الملك.

ذكر ما جاء فى الطيب والتطيب: قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك». وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: كأنى أنظر إلى ويص الطيب فى مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم. وعن سهل بن سعد يرفعه: «إن فى الجنة لمرعى من مسك مثل مراعى دوابكم هذه». وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ، فنام ففرق فجاءت أمى بقرورة، فجعلت تسلك العرق فيها فاستيقظ وقال: يا أم سليم: ما هذا الذى تصنعين؟ فقالت: هذا عرقك فجعله فى طيننا، وهو من أطيب الطيب. وعن عمر رضى الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجرأ ما اخترت على العطر إن فاتنى ريحه لم يفتنى ريحه، وتناول التوكلى قنى فارة المسلك فقال:

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب لقد طيبته من يدك الأامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية، فسأله: كم أنفق عليها؟ فذكر مالا جزيلا، فقال: هذه غالية فسميت بذلك. وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء فقال: علميني كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل تريد أن تعلمه جواريك هو لك منى كلما أردته، ثم قالت: والله إني ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيب المطيب عـــــرف أم إيمان فأر مسكٍ بعنبرٍ مســـــحوق

قال أبو قلابة: كان ابن معبود رضى الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه من طيب ريحه، وعن الحسن بن زيد الهاشمي، عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يطلى جسده. فإذا مر فى الطريق قال الناس: أمر ابن عباس أم مر المسك؟ وعنه عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضى الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة. وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لى لكان رأس مالى. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه بقاطمة بنت عبد الملك، أسرج فى مسارجه تلك الليلة بالغالية. وقال الشعبي: الرائحة الطيبة تزيد فى العقل، وقال على كرم الله وجهه: تشمموا الترجس ولو فى العام مرة، فإن فى قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا الترجس. وكان الشعبي يقول: إذا ورد الورد صدر البرد. وكانت الصحابة رضى الله عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يسوا لحاهم بالطيب. وكان من اختلف فى طرق المدينة وجد عرفا طيبا، قيل: ولذلك سميت طيبة. وأقول: والله ما طابت طيبة إلا بالقلب الطاهر عليه السلام وما أحسن ما قيل:

إذا لم أطب فى طيـــــبةٍ عند طيبٍ به طيـــــبةٌ طابت فلأين أطيـــــب

وقيل: إن فارة المسك دوية شبيهة بالخشف تصاد لسترها، فإذا صادها الصياد عصب السرة بعصابة شديدة، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها، ثم يأخذ السرة فيذفنها فى الشعير حتى يستحيل الدم المجمع فيها مسكا ذكيا بعد أن كان لا يرام ننتا. وقد يوجد جردا سود يقال لها فارات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها.

وحكى أن العنبر يأتى على طفاوة الماء لا يدري أحد معذنه، فلا يأكله شيء إلا مات ولا ينقره طائر إلا بقى متقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفارا فيه. وقال الهمذانى: عفا الله عنه: سمعت نامسا من أهل مكة يقولون: هو من ريد بحر مسرنديب. وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق، وأدونه الأسود. وفى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ليس فى العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر. وأما العود، فأجوده المنثلى وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند. وأجوده أصليه وامتحان رطبه أن تطيع فيه نقش الخاتم، فإن انطبع، فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطيع فى الثوب أسيرعا فلا يظل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحنيد. فإذا خرج ظاهرا وضره الهواء انعقد كالصمغ الجامدة على الأشجار. وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر والبان:

لو كنت أحمل جـــــمرا حين ردتكم لم ينكر الكلب إنى صـــــاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يقـــــدمنى والعنبر الند مشبـــــوب على النار

وكانت ملوك القرس تأمر برفع الطيب بأيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرض الورد فى مجلسه، ويطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأهمات الطيب. فالترجس يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك. والبنفسج يقوى بالعنبر، والريحان يقوى بالكافور، والنسرين يقوى بالعود. وقال جالينوس: المسك يقوى القلب، والعنبر يقوى الدماغ، والكافور يقوى الرقة، والعود يقوى المعدة، والغالية تحل الزكام،

والصندل يحل الأورام، وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تردوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف الحمل». تيجر بعض الأمراء وعنده أعرابى. ففرطت من الأمير ريح خفيفة، فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابى أم لا؟ فقال: ما أطيب هذا المثلث! قال: نعم، ولكنك ربتها. وقال الأحنف: إن شم رائحة المسك يحى القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شممت أنفى من ريح مسك شممت من الناس إلا ريح كفك أطيب. فأمر له بألف دينار، ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين

وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم علماً إلا شاباً، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. وقد أخبر الله تعالى به، ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة فقال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحاً﴾ [مريم: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَأِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]. وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. وقد قدم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حدائثه سنة، وعتاب بن أسيد ولاء مكة وبها أكابر قريش، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله كما أن أطيّب الثمار بواكيرها. والشباب أبلغ الشفاعة عند النساء وأكثر الوسائل لقلوبهن. ولذلك قال الشاعر:

أحلى الرجال مع النساء مواقفاً من كان أشبه بهم بهن خدودا

وما يكت العرب على شيء ما يكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً وزماته حبيباً لوسامة صورته وبهجة منظره وجمال خلقته واعتدال قامته لما جاور الله في جنات خلده الشباب، كما قال رسول الله ﷺ: «جرداً مرداً أبناء ثلاثين» وقد جاء في ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثاني: في الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وفي الخبر أن الله تعالى يقول: «الشيب نورى وأنا استحي أن أحرقه بنارى». وعن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبي ﷺ شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ، فقال عليه الصلاة والسلام: «كبر كبر». وبهذه الرواية: «من قر كبراً لكبر منه آمنه الله من فزع يوم القيامة». وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى وعزتي وجلالي وفاقة خلقي إلى إني لاستحي من عبدي وأمتي يشيان في الإسلام أن أعلبهما. ثم بكى، فقيل له: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: أبكى من يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار». وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكب له الحسنات وتحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتي سنة، فبكرة الإنس والجن لحدائثه سنة، وقال النخعي: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن أنس رضي الله عنهما رفعه: «من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغب خيره على شره فليستجهز إلى النار». وعن أنس رضي الله عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام، يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان، فقام وبسط البيت ساعة، ثم خرج من الباب الثاني. ويقال: أطع أكبر منك ولو بليلة. وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم يتبشئ. الإسلام، والقرآن، والشيب. قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيبه فليك أعاجيب لمن يعجب

ما عذر من يعمر بنياته وعمره منهدم يخرب

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها ومصيبة لا يعزى عليها، وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميل مثلك للظلم وعليك من عظم المشيب عذار
والشيب ينقص في الشباب كأنه ليل يصبح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

تكوننى هم لبياض نابتة لها بغضة في مضمرة القلب ثابتة
ومن عجب أتى إذا رمت قصصها قصصت سواها وهى تضحك نابتة

وقال أيضا:

أرى شيب الرجال من الغواني يبلغ شيبهن من الرجال

وقال ابن المعتز:

فطللت أطلب وصلها بتذلي والشيب يغمزها بأن لا تفعلى

قيل: صاح شاب بشيخ أحذب. بكم ابعت هذا القوس يا عماء؟ فقال: يا بنى إني أعطيتها بغير ثمن. ومر رجل اشمط بامرأة عجيبة في الجمال، فقال: يا هذه إن كان لك روح فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت كأنك تخطين؟ قال: نعم، فقالت: إن في عيى، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسى، فثنى عنان دابته، فقالت: على رسلك، فلا والله ما بلغت عشرين سنة ولا رأيت في رأسى شعرة بضاء، ولكنى أحبيت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره سنى، فأنشد، ويقال إنه لابن المعتز:

رأيت الغواني الشيب لاح بمفرقى فأعرضن عني بالحدود النواضر

وقال آخر:

سألها قبله يوماً وقد نظرت شيبى وقد كنت ذا مالٍ وذنا نعم
فأعرضت ومالت وهى قائلة لا والذى أوجد الأشياء من عدم
ما كان لى في بياض الشيب من أرب أفى الحياة يكون القطن حشو فمى

وقال آخر:

قالت أرى مكة الشعر البهيم غدت كافورة قد أحالتها يد الزمن
فقلبت طيب بطيب والتثقل فى معادن الطيب أمر غير ممنهن
قالت صدقت وما أنكرت ذاك بذنا المسك للشم والكافور للكنفن

وقال آخر:

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها
فقهقت ثم قالت من تعجبها
سترتك عك يا سمعي ويا بصري
تكاثر الفش حتى صار في الشعر

وقال ابن نباتة:

تبسم الشيب بوجه الفتي
وكيف لا يكي على نفسه
يوجب مسح الدمع من جفنه
من ضحك الشيب على ذقنه

وقال ابن المعتز:

فما أفتح التفريط في زمن الصبا
فكيف به والشيب في الرأس شامل

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رات وضحا في الرأس منى فراعها
تفاريق شيب في السواد لواع
فسريقان مبيض به ويهيم
فيا حسن ليل لاح فيه نجوم

ويقال في الرجل: إذا شاب، ليله عمس وصبحه تنفس:

إذا نازع الشيب الشباب فأصاها
بسيئتهما فالشيب لا شك غالب

وقال آخر:

أكان شيب العبد من نقرة القفا
وشيب كرام الناس شيب المفارق

وقال المعنى:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها
إن الشيباب جنون برؤ الكبر

وقال علي بن ربيع:

كبرت ودق العظم منى وعقنى
وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا
بنى وزالت عن فراشي العقائد
يقودوننى بيت البسيط الولائد

وقال آخر:

عريت من الشيباب وكنت غصناً
ونعت على الشيباب بدمع عيني
كما يعرى من الورق القضيب
فما نفع البكاء ولا النحيب

فيا ليت الشباب يعود يوماً فأحببه بما فعل المشيب
وقال ابن النقيب:

وكم كان من عينٍ علىَّ وحافظ وكم كان من واثٍ لها ورقيب
فلما بدا شيبى اطمأنت قلوبهم ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبى

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط. قال الشاعر:

شبان لو بكت الدماء عليهما عيناك حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال الجاحظ:

أترجوا أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت في زمن الشباب
لقد كَلَبَتْكَ نفسك ليس ثوبٌ دريس كالجديد من الشباب

ومما جاء في الخضاب: قال عليه السلام: «عليكم بالخضاب فإنه أهيأ لعنوكم وأعجب لنسائكم»، وعن أبي عامر الأنصاري رضي الله عنه: رأيت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يغير بالحناء والكنم. وقيل: خضاب الحناء يصفى البصر ويذهب بالصداع ويزيد في البهاء.

تسود أعلها وتأي أصولها وليس إلى رد الشباب سبيل

وقيل: وقد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي يزن. فقال له: لو خضبت شعرك، فلما رجع إلى مكة اختضب. فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام. فقال:

ولو دام لي هذا الخضاب جمده وكان بديلاً من خليلٍ قد اتصم
تتمعت منه والحياة قصيرة ولا بد من موت نبيلة أو هرم

وقال آخر:

يا خضاب الشيب الذي في كل ثالثية يعود
إن الخضاب إذا نضجا فكأنه شيب جديد
فدع المشيب ومسا يريم سد قلن يعود كما تريد

وقال محمود الوراق:

فما منك الشباب ولت منه إذا سامتك لحيتك الخضابا

الفصل الثالث: في العافية والصحة

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إليك انتهت الأمانى يا صاحب العافية». وغته ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له ألم أصح بدنك وأروك بللاء البارء؟» وقال على رضى الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. هو الأمن والصحة والعافية. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع والأبصار فيم استعملوها وهم أعلم بذلك، وقال ابن عينة: من تمام النعمة طول الحياة في الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه: يا أهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية. ويقال: البحر لا جوار له، والمملك لا صديق له، والعافية لا ثمن لها، قال ابن الرومي:

إذا ما كسالك الدهر سربال صحة ولم تخل من قسوتٍ يحل ويقرب
فلا تغبطن أهل الكثير فلتما على قدر مما يعطيهم الدهر يلب

ويقال: صحة الجسم أوفر القسم. وذكر بعضهم العافية فقال: وأى وطاء وأى عطاء. وقال حكيم: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض وإن كان شيء مثل الموت فالفقر. وقال على رضى الله تعالى عنه: ما المبتلى الذى اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء. وقيل: إن فارة البيوت رأت فارة الصحراء فى شدة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ها هنا؟ أذهى معى إلى البيوت التى فيها أنواع النعيم والخصب، فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذى كانت تسكن قد هيا لها الرصد لينة تحتها شحمة، فاقطعت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها، فهربت الفارة البرية وهزت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً إلا وإن الفقر والعافية أحب إلى من غنى يكون فيه الموت، ثم فرت إلى البرية. وكان عند رومى خنزير فرطه إلى اسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمعه، وكان يجنبه آنان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لاه: يا أماء ما أطيب هذا العلف لو دام. فقالت له: يا بنى لا تقربه، فإن وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومى أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضرب ويتفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه، وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماء انظري هل بقى فى خلال أسناني شيء من ذلك العلف فاقطعيه. فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع: فى أخبار المعمرين فى الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضى الله تعالى عنه: أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «إلا أنبئكم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أطولكم أعماراً فى الإسلام إذا سدودوا». وزعموا أن تبعاً الفزازى كان من المعمرين، وإنه دخل على بعض خلفاء بنى أمية، فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمئة وعشرين سنة فى فترة عيسى ابن مريم عليه السلام فى الجاهلية، وستين فى الإسلام. قال له: أخبرني عما رأيت فى سالف عمرك قال: رأيت الدنيا ليلة فى أثر ليلة ويوماً فى أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ومفرق مال مجموع، وبين قوى يظلم، وضعيف يظلم، وصغير يكبر وكبير يهرم، وحى يموت وجنين يولد، وكلهم بين سرور بوجود ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزى: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلايل ثمانمئة وخمسة وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة وخمسة وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام، فروى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال:

عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمائة وخمسين عاماً. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بنى آدم عمراً. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائتين وعشرين سنة فما فوقها. وعاش أكنم بن صيفى ثلاثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام، وعاش سطيج مسمائة سنة، وعاش قس ابن ساعدة الأيادي مسمائة سنة، وكان من حكماء العرب. وعاش ليبيد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة، وأدرك الإسلام. وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدى بن حاتم الطائي وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العنزي عاش مائتين وعشرين سنة، وهو أحد حكماء العرب في الجاهلية، ومن المعمرين: عمرو بن معد يكرب الزبيدي، ومن المعمرين: عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وإن امرأته بلغت من العمر كذلك، ولقد رأيت منه ما لم أره من بعض شبان هذا العصر في القوة وثلة البأس، ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده، وذلك في صفر تسع وعشرين وثمانمائة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنتها

فاشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، عن رسول الله ﷺ: «من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالاً له، ولاسما عنه أن ينادى كان عند الله من الصديقين، وخفف عنه وعن والديه العذاب وإن كانا مشركين». وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: لم يرن إيليس لعنه الله قط إلا ثلاث رنات، رنة حين لعن وأخرج من ملكوت السموات والأرض، ورنة حين ولد محمد ﷺ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفى أولها بسم الله الرحمن الرحيم. وعن رسول الله ﷺ: «لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم، وإن أمئى يأتون يوم القيامة يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتقبل حسناتهم فى الميزان. فتقول الأمم: ما أثقل موازين أمة محمد، فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ابتداء من كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت ميثات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء».

وأما الأسماء والكنى: ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أسماكنكم إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن. وأصدقها حارث وهمام وأقيها حرب ومرة، وينبئ أن تنادى من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة لا يتأذى بها ولا يكون فيها كذب كقولك يا فقيه، يا أحن، يا فقير، يا سيدى، يا صاحب الثوب الغلانى أو البخل الغلانى أو الفرس الغلانى أو السيف الغلانى وما أشبه ذلك. ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب فيه ألف مثقال، فقال له: أسألك عن شئ إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجاه بما فيه، فقال: سل يا أمير المؤمنين، قال أسألك عن شئ له اسم ولا كنية له، وعن شئ له كنية ولا اسم له، قال: المنارة، وأبو رباح، فعجب المتوكل وأعطاها الجاه بما فيه. وقيل لعثمان «ذو النورين» رضى الله تعالى عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الإسلام، وقيل: لأنه تزوج برقية ثم بأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ، ولم يوجد من تزوج بابنتى نبي غيره. وكان قتادة بن النعمان الأنصارى رضى الله تعالى عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده فردعا رسول الله ﷺ، فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت تعتل أى ترمد عنه الباقية ولا تعتل عنه المردودة، فقيل: ذو العينين. وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: كُتبت بهرة صغيرة كنت أحملها فى حجرى فألعب بها، وكان رسول الله ﷺ يقول: يا أبا هريرة، واختلف فى اسمه، فقيل: عبد الرحمن، وقيل: عبد شمس، وقيل: عمير، وقيل: سليمان، وقال الشعبي رضى الله تعالى عنه كُتبت الدجال أبو يوسف. ذو الشهرة أبو دجانة الأنصارى رضى الله تعالى عنه كان له شهرة يلبسها بين الصفيين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم وولى رئاسة الجيوش والدواوين، ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا، فقال:

والى يوم يوم المهرجان	هديتى فليس فيه اللسان
لك دولتان حديثه	وقديمة وراسماتان
لك فى السورى من هاشم	نبت وبيت خمروان
علم الخليفة كيف أت	ست فمصصرت فى هذا المكان

فأمر له بجميع الهدايا. المطييون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وذوهم بن كلاب، وتعيم بن مرة، والحارث بن فهر غمسا أيدهم فى خلق ثم تحالفوا. شيبه الحمد عبد المطلب لقب بشيبة كانت فى رأسه حين ولد، قال حذافة:

بنو شيبه الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له: عبد المطلب لأن عمه المطلب مر به فى سوق مكة مردوقاً له فجملوا يقولون: من هذا الذى وراكم فيقول: عبد لى. منبذنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقباه العتيق والصديق لجماله وتصديقه بخير الإسراء أو لأنه من صدق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم: لا

يُمد الله اليوم سرًا، فظهر بالإسلام، وفرق بين الحق والباطل. الكامل سعد بن عباد، رضى الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب ويحسن الرسمى والعوم. طلحة بن عبد الله رضى الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الحجير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخاته، رشح الحجير، وأبو الريان عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبغيره، عكة العسل سعيد ابن العاص رضى الله تعالى عنه. الحبر عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه، كان يقال له: مرة البحر ومرة البحر. الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق. الفياض عكرمة بن رعى لقب بذلك لسخاته. المصطلق خزمية بن سعد الخزاعي قيل له المصطلق لحسن صوته وشدته، وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رآوه قالوا: راح يكذب. وأصل الغزال كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين وكان يتبع العجائز فيتصدق عليهم ولم يكن غزالاً. سليمان التميمي كان داره ومسجده في بني تميم ولم يكن منهم وهو شيباني. أبو عمرو الشيباني لم يكن من بني شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن يزيد الشيباني. اليزيدي كان يعلم يزيد بن منصور الحميري فنسب إليه. ذو القروح امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسومة فقرحته، وقالوا: لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب، وهى مفخرهم، وقال بعضهم:

أكنيه حين أتاديه لأكرمهم ولا ألقب به والسوءة اللقب

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيًّا﴾ [طه: ٤٤]، أى كنياء، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم يتغلغل أوحى الله تعالى إليه أن كنه، فقال انطلق أبا خالد، فانطلق، فكان كل فرق كالطود العظيم.

وأما الألقاب: فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَابِرُوا بِالْأَلْقَابِ بِسْمِ الْأَسْمِ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]. سماء الله تعالى فسوفاً. واتفق العلماء رضى الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك. كالأعشى والأعمى والأعرج والأحول والأفطس والأقرع ونحو ذلك، وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم يزل في الأمم كلها يجرى في المخاطبات والمكاتبات من غير تكبر. غير أنها كانت تطلق على حسب الموسمين. وأما ما استحسنت من تليق السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل وذهب التفات وانتقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمفكر، وهب أن العذر مبسوط في ذلك، فما العذر في تليق من ليس من الدين في دبير ولا قبيل ولا له فيه ناقة ولا فصيل بل هو محتو على ما يضاف الدين، ويتأفى كمال الدين وشرف الإسلام، وهى لعمر الله الفضة التى لا تساغ والغبن الذى يعجز الصبر دونه فلا يستطيع، نسال الله تعالى إعزاز دينه وإعلاء كلمته، وأن يصلح فسادنا ويوقظ غافلتنا.

الرجل يكتى باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التنازل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيقول له، وقد يكونون بما يلائم الكنى من غير الأولاد كقول رسول الله ﷺ في على رضى الله تعالى عنه أبو تراب، وذلك أنه نام في غزوة ذى العشيرة، فذهب به النوم، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرع في الشراب، فقال له: «اجلس أبا تراب، وكان أحب أسمائه إليه. وكقولهم أبى لهب لحمرة خديه ولونه. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكونون الكبير الرأس والعمامة بأبى الرأس وأبى العمامة. وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية يا أبا الطويلة. وسمعت عرب البهيرة يكونون بأسماء بناتهم، كأبى زهو، وأبى سلطنة، وأبى ليلى ونحو ذلك، ولا حرج في ذلك، وقد كتى جماعة من أفاضل الصحابة بأبى فلاة منهم سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى. ومنهم أبو أمامة. وأبو رقية تميم الدارى، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب، وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله عليهم أجمعين. أبو عائشة مسروق بن الأجدع، وكان لأبس أخ صغير وله تغير يلعب به فمات، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزينا. فقال: «ما شأنه؟» فقالوا: مات تغيره. فقال: يا أبا عمير ما فعل التغير. ونظر المأمون إلى غلام حسن فى الموكب. فسأله عن اسمه. فقال: لا أدري. فقال:

تسميت لا أدري فإنيك لا تدري بما فعل الحب المبرح فى صدرى

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ووسعوا له في المجلس ولا تقيحوا له وجهاً» وعنه: «ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر من اسمه محمداً أو أحمد فأدخلوه في مشورتهم إلا كان خيراً لهم، وما من سائلة وضعت فحضر عليها من اسمه محمداً أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين وكل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف».

ومما جاء في مدح الأسماء منظوماً: قال بعضهم في مליح اسمه إبراهيم:

رأيت حبيبى في المنام معانق
وذلك للمهجر مرتبة عليا
وقد رقى لى من بعد هجر وقسوة
ومما ضر إبراهيم لو صلق الرويا
وفيه أيضاً:

لا زال بابل كعبه محجوجة
وترابها فوق الجبابه وسيم
حتى ينادى في البقاع بأسرها
هذا المقسم وأنت إبراهيم
وفيه أيضاً:

يا سسمى الخليل إن فـؤادى
فيه من لوعة الغرام جـحيم
وعجيب يا قتاتلى أن قلبى
فيه نار وأنت فيه مقـيم
ولبعضهم في مليح اسمه عمر:

يا أعدل الناس اسمًا كم تجور على
فؤاد مضنك بالهجران والين
أظنهم سرقوك القاف من قمر
وأبدلوا بعين خيفة العين
وفيه أيضاً:

ما عليهم فى الهوى لو نظروا
حين سموك فـتـقالوا عـمر
أبدلوا قـصافك عـيـناً غـلـطاً
أخطأوا ما أنت إلا قـمـمر
ولبعضهم في مليح حامل شعبة موقودة اسمه عثمان:

وافى إلى شـمـعة وضـيـاها
وضيـاؤه حـكـيـا لنا القـمـر
ناديته ما الاسم يا كل النـى
فأجابني عثمان ذو النورين
ولبعضهم في مليح اسمه يوسف:

يا من سبى الشمراء محل عذاره
النجم يشهد لى بأنى مسندف
صبرت قلبى من صدودك فـاطـراً
فـسـامت على بـزـورة يا يـوسـف

وللصفي الحلبي فيمن اسمه داود:

وشقت بأن قلبي من حديد
فلان على هراك ولا عجيب

وله فيمن اسمه موسى:

آتى موسى بآية خال عده
فآية ذا بيضا في موداد
فجاء بضد ما قد جاء موسى
كليم الله في الحسب المواضي

وللقراطي في ملبح اسمه بدر:

سموه بدراً وذاك لما
وأجمع الناس إذا رأوه
أن فساق في حمنه وقما
بأنه اسم على مسمى

ولولفه رحمه الله تعالى في قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني:

وعظ الأيام إيماننا الحبير الذي
فشقى القلوب بعلمه ويوعظه
يكب العلوم كببحر فضل طافح
والعلم يشقى إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لاجتمع بالحاج خليل بن منصور في ضرورة فلم أجده ولم يقم أحد من إخوته بقضاء ما
توجهت بسببه فقلت:

خصال خليل كلهن حميدة
فلا خير في بلتاج إن لم يكن بها
وأوصافه تزي بكل جميل
ولا خير في الدنيا بغير خليل

وقال آخر في مقبل:

يا من تحجب عن محب صادق
من لى يوم فيه تسمع باللقا
ما زال عنه كل يوم يسأل
ويقال لى هذا حبيبك مقبل

ولبعضهم في ملبح اسمه محسن:

وأهيف يعلو على عشاقه
واسمه وهو العجيب محسن
برتبة من الجمال نالها
وكم دموع في الهوى أسالها

ولصفي الدين الحلبي في اسم حسين:

حبيبى وافر والشوق منى
واعجب اننى اهوى حبيبى

ومما قيل فى اسماء النساء فى فاطمة:

عجبت من فائتة لم تزل
تكرر مسأ القباء من وجدها

وقال ابن مكناس فى اسم عائشة:

يا دهر حبرنى بحبك واثنى
ايحل انى فى المحببة ميت

وقال شمس الدين البديرى فى اسم حليلة:

ولما رائتى فى هواها متيماً
فجادت بطيب الوصل منها ولم تحمز

ولبعضهم فى اسم بركة دويث:

لما نصب الهوى لقلبي شرَكَه
يا قلب افق ولا تغل لشرَكَه

مردوفاً ايضاً:

لما نصب الهوى لقلبي شرَكَه
ناديت وقلبي تارك من تركه
يا قلب افق ولا تغل لشرَكَه
تغنيك منين ساعية من بركه

طويل والهوى عندي مديد
وشوق فى محبته يزيد

لمرئى الوصل لها فاطمة
وهى بشوقى والى عاتمة

فسهام فكرى فى أمورك طائشة
وحبيبتي من بعد موتى عائشة

أكابد من حر الغرام أليمه
ومن أين تدرى الجور وهى حلیمه

ناديت وقلبي تارك من تركه
تغنيك منين ساعية من بركه

فلى كل طريقت
لو كان يفتيق
مما الشـرك يلقى
عن كل صديق

ولو تبعته هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فيما جاء في الأسفار والاختراب وما قيل في الوداع

والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحسين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان: فقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: ١٥]. وفي الأثر: سافروا تغتموا، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمساfer لأصبح الناس على ظهر سفر، وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمساfer رحيم». ويقال: الحركة ولود والسكون عاقر. وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه. فقال يوماً:

الا خلتى أمضى لثنائى ولا أكن	على الأهل كلاً إن ذا لشديد
تهيبنى ريب المنون ولم أكن	لاهرب عما ليس منه محيد
فلو كنت ذا مالٍ لقرب مجلسى	وقيل إذا أخطأت أتت رشيد
فدعنى أجول الأرض عمرى لعله	يسر صديق أو يفاظ حسود

وقال رسول الله ﷺ: «عليكم بالدليجة فإن الأرض تطوى بالليل ولا تطوى بالنهار». وقال كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل فى غير رفقة، وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب»، وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة فى ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار فى ليلة مسافة ثمانى ليال، فضرب به المثل، وقال قيس بن الخطيم:

هممنا بالإقامة ثم سرنا مسير حذيفة الخبير بن بدر

وسار ذكوان مولى عمر رضى الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة فى يوم وليلة. وقال المأمون: لا شيء الذ من السفر فى كفاية وعافية، لأنك تحل كل يوم فى محلة لم تحل فيها، وتعاشر قومًا لم تعرفهم. وما قيل فى ترك الإقامة بدار الهوان:

قال الفرزدق:

وفى الأرض عن دار القلى متحول وكل بلاد أوطنتك بلاد

وقال آخر:

ومما هى إلا بلدة مشل بلدتى خيارهما ما كان عونًا على دهر

وقال آخر:

وإذا البلاد تغيرت عن حالها فدع المقام ويادر التحويلا
ليس المقام عليك فرضًا واجبًا فى بلدة تدع العزيز ذليلا

وقال الصفي الحلبي:

تنقل فلذات الهوى فى التنقل
ففى الأرض أحباب وفيها منازل
ولا تستمع قول امرئ القيس إنه
ورد كل صافٍ لا تقف عند منهل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل
مضل ومن ذا يهتدى بمضل

وقال عبد الله الجعدى:

فإن تحف عنى أو تزرنى إهانة
أجد عنك فى الأرض القريضة مذهبا

وما قيل فى الوداع والفراق والشوق والبكاء: قال جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

وقيل: لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ما كان جدك صانعاً فى قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقطع عينه حتى لا يرى مظعن أحبابه ثم أنشد يقول:

وما وجد مخلول بصنعاء موثق
قليل الموالى مسلم بجزيرة
يقول له الحداد أنت مسعذب
بأكبر منى لوصة يوم راعى
بساقيه من ماء الحديد كبول
له بعد نومات العيون الليل
غد له غيد أو مسلم فقتيل
فراق حبيب ما إليه سبيل

وقال الشاعر:

وما أم خشف طول يوم وليلة
تهيم ولا تدري إلى أين تبتهى
أضر بهتا حر الهجير فلم تجد
إذا أبعدت عن خشفها انعطفت له
ببائعة يبداء ظمآن صاديا
موله حزنًا تجول الفيافي
لغتها من بارد الماء شافيا
فالفته ملهوف الجوانح طوايا
ونادى مناد البين أن لا تلاقيا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لى المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارت أحبابك قال: قلت يا أمير المؤمنين:

لله بك على أحبابه جزعا
ما كان والله شؤم الدهر بتركى
إن الزمان رأى ألف السرور لنا
فليصنع الدهر بى ما شاء مجتهدا
قد كنت أحذر هذا قبل أن يقع
حتى يجرعنى من بعدهم جرعا
فدب بالبين فيما بيتا وسمى
فلا زيادة شئ فوق ما صنعنا

فقال والله لأعيتنك فأعطاء عشرة آلاف دينار.

وقال آخر:

وقلقت يوم النوى منهم على بعيدٍ
إني خشيت على الأظعان من نفسي
وقال عمر بن أحمد:

أتى الرحيل فحين جسد ترحلت
من لم بيت والبين يصمدع قلبه
لم يدرك كيف تفتت الأكباد

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحسنت، فأومأ بيده إلى حجر يرمينا به وقال أثلثي يقال أحسنت، ففرغنا منه فقال: أقسمت عليكم إلا رجعتم حتى أنشدكم فإن أحسنت فقولوا أحسنت وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيهمو
وقلبت بخلال السجف ناظرها
وودعت ببنيان زانه عنهم
يا حادى العيس عرج كي أودعهم
إني على العهد لم أنقض مودتهم
فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت! ثم شق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى.

وقال آخر:

لما علمت بأن القوم قد رحلوا
شبكت عشرين على رأسى وقلت له
فحن لي وبكى بل رق لي ورثى
إن الخيام التي قد جئت تطلبهم
وراهب الدير بالتاقوس مشغل
يا راهب الدير هل مـسرت بك الإبل
وقال لي يا فتى ضاقت بك الحيل
بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى^(١):

ما رحلوا يوم ساروا البزل العيسا
من كل فائكة الأخطا مائلكة
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى
أسقف من بنات الروم عاطلة
وحشية ما لها أنس قد اتخذت
إلا وقد حملوا فيها الطوايسا
تخالها فوق عرش الدر بلقيسا
شمساً على فلک في حجر إدريسا
ترى عليها من الأنوار ناموسا
في بيت خلوتها للذكر ناومسا

(١) محيي الدين بن عربي: هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الشيخ محي الدين أبو بكر الطائفي الحائلي الأندلسي، المعروف بابن عربي، صاحب التصانيف الكثيرة في الصوف. ولد في الأندلس (٥٦٠هـ) وتوفي سنة (٦٣٨هـ). له كتب كثيرة منها: (مفاتيح الغيب) و«نسخة الحق» و«فصوص الحكم» و«التجليات» وغيرها.

إن أومأت تطلب الإنجيل تحسبهم
ناديت إذ رحلوا للين ناقصها
غسبت أجناد صبرى يوم بينهم
ساروا وأصبحت أتمى الربيع بعدهم
وقال آخر:

ولما تبذت للرحيل جمالنا
تبذت لنا مذكورة من خبائثها
أشسارت بأطراف البنان وردعت
فقلت لها والله ما من مسافر
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها
وقالت إلهى كن لى عليه خليفة
وقال آخر:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفتك دموعى وهى دامية
وقال البغدادي^(١):

قالت وقد نالها للبين أوجعه
اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت
واعطف على المطايا ساعة فعسى
كأنتى يوم ولت حسرة وأسى
وقال ابن البديرى:

فما حادياً ليلى فإنى وامن
ورما مطاياها قبيل مسيرها
ولا تزجرا بالسوق أظعان عيسها
ولما التقتينا والفغرام يذينا
وقفنا ودمع العين يحجب يتنا
فلا تسالاً ما حل بالبين بيننا

فناقصاً أو بطاريقاً شماميسا
يا حادى العيس لا تحدد بها العيسا
على الطريق كراديسا كراديسا
والوجد فى القلب لا ينفك مغروسا

وجذبنا سيرا وفاضت مدامع
وناظرها باللولؤ الرطب دامع
وأومت بعينيهما متى أنت راجع
يسير ويدرى ما به الله صانع
فسمالت من الطرف الكحيل مدامع
فيا رب ما غابت لديك الودائع

هل من سبيل إلى لقاءك بتفق
ولا وفى لك قلبى وهو يحترق

والبين صعب على الأحباب موقعه
قواء عن حمل ما فيه واضلعه
من شق الهوى بالبين يجمعه
غريق بحر يرى الشاطئ رينعه

وتعجلاً يومنا على من يفارق
ليثذ منها بالتزود عاشق
فلن حبيسى للظمان مائق
ونحن كلانا فى التفكر غارق
تسارقنى فى نظرة وأسارق
ولا تعجبا أنا مشوق وثائق

(١) البغدادي هو عبد الغلظ بن يوسف بن محمد بن علي بن سعد، العلامة موفق الدين البغدادي، الشافعي، النحوي، الكلمي، الطبيب، القيلوف المعروف بابن البلاد، ولد ببغداد فى أحد الرعيحين سنة (٨٥٥هـ) وتوفى ببغداد سنة (٦٢٩هـ) وله تصانيف منها «كتاب أخبار مصر» و«كتاب فى القياس».

وقال أيضاً:

تذكرت ليلي حين شط مزارها
بكيت عليها والقنا يقسرع القنا
وخالفت لوامي عليها وعذلي
ولم استطع يوم النوى رد عبرة
فقال خليلي إذ رأى الدمع دالماً
لئن كان هذا الدمع يجري صباية

وقال آخر:

مددت إلى التوديع كفاً ضعيفاً
فلا كان هذا آخر العهد مكمراً

وقال آخر:

ولما وقفنا للوداع عشية
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة
ولمؤلفه رحمه تعالى:

يا سادة في مريد القلب مسكنكم
أوحشتمونا وعز الصبر بعدكم

وقال آخر:

لو أن مالك عالم بذري الهوى
ما عذب العشاق إلا بالهوى

وقال ابن الوردي^(١):

دعنا أضلحى ضنيننا
يا ليلي الوصل عودي

وقال الشريف الرضي:

عللاني بذكرهم واسقنياني
وخذا النوم من جفوني فاني

(١) ابن الوردي: هو محمد بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الإمام زين الدين بن الوردي المصري، الحلبي، الشافعي، فقيه، أديب، ناثر، لغوي، نحوي، مؤرخ، ولد بعمرة النعمان بسوريا، وولي القضاء بدمشق وتوفي بحلب سنة (٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) وقد جاوز الستين، له تصانيف كثيرة منها «شرح ألفية بن مالك» و«نزهة المجالس» و«غريدة اللغات».

وقال آخر عند ذلك:

نعم وأشفق من دمعى على بصرى
أنى أعزبه بالدمع والسهر

قالوا أترقد إذ غبنا فقلت لهم
ما حق طرف هذاني نحو حنكمو

وقال الموصلى:

وعقولنا وجفنا الجفون منام
يا حبلنا إن صحت الأحلام

فشدت لطلول بعداكم أحلامنا
والطيف قد وعد الجفون بزورة

ومما قيل فى البكاء: قال الشاعر:

وكيف لي به جوع
والمرسلات دموعى

رجوت طيف خيالـه
والناريات جـفـونـى

وقال آخر:

وابعث خيالك فى الكرى
عن حالها يا ما جرى

أرحم رحمت للوعتى
ودموع عيني لا تسل

وقال آخر:

يا ممر السهد فى كراها وينهى
لا تسل ما جرى على الحقد منها

إن عيني مذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الفسوادى

وقال آخر:

روعت ممن تحب بالبين
أخفيه من قلبى سقطت من عيني

يا قلب صبراً على الفراق ولو
وأنت يا دمع إن ظهـرت بما

وقال آخر:

عما غدا كالبحر مرعة سيره
حتى يخوضوا فى حديث غيره

خاض العواذل فى حديث مدامى
فحبسته لأصون سر هواكمو

وقال ابن الماز:

حسرةً إذ قضى الفراق ببسنى
أوقف الدمع قلت من بعد عيني

رحت يوم الفراق أجـرى دموعى
قيل كم إذ تجـرى دموعك تعمى

وقال آخر:

لما لبست لبعده ثوب الضنى
أجريت وقف مدامعى من بعده
وغدت من ثوب اصطبارى عاريا
وجعلته وقفا عليه جاريا

وقال آخر:

ولم أر مثلى غاراً من طول ليله
وما زلت أبكى فى دجى الليل صبوة
عليه كآته الليل يعشقه معى
من الوجد حتى ابيض من فيض آدمى
وقال الموصلى:

عين أفصاصت دموعى
ووجنة الحسد قتالت
لطول صبرى وبين
رأيت غملى بعينى

وقال آخر:

وما فارقت ليلى من سراد
بكيت نعم بكيت وكل ألف
ولكن شفرة بلغت مداها
إذا ماتت حبسبتنه بكها

وفى بعض الكتب السماوية: إن مما عاقبت به عبادى أن ابتليهم بفراق الأحبة.

ومما جاء فى الحنين إلى الوطن: أما محبة الوطن فمتولية على الطباع مستدعية أشد الشوق إليها، روى أن أبان قدم على النبی ﷺ فقال يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر وقد أعفك والنعام وقد أورك، فاغروقت عينا رسول الله ﷺ، وقال بلال^(١) رضى الله تعالى عنه:

ألا ليت شمعى هل أبقيت ليلة
وهل أردن يومنا مسيساه مجنة
برادٍ وحولى إذخسر وجليل
وهل يبسدون لى شامة وطغيل

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقه وإلى مسقط رأسها مشتاقه.

ومن حب الوطن: ما حكى أن سبلنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه. فمضى أهل مصر أولياؤه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حمله موسى إلى مقابر آبائه، فقبه بالارض المقدسة، وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رسته فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه، واعتل سابور ذو الاكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك، وكانت قد عشقته، ما تشهى؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر، فأتته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم فتفجع من علته، وقال الجاحظ: كان النضر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه فى جراب يتداوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بلاد ألغناها على كل حال
ونستعذب الأرض التى لا هوا بها
وقد يؤلف الشيء الذى ليس بالحسن
ومما مازها عذب ولكنها وطن

(١) بلال بن رباح: هو بلال بن رباح الحبشى مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، ويكنى أباً عبد الله وكان من السابقين الأولين الذين ذهبوا فى سبيل الله قال عنه رسول الله ﷺ: «بلال سابق الحبشة»، شهد المشاهد كلها مع رسول الله، مؤذن رسول الله ﷺ أحضه أبو بكر وذهب إلى الشام مؤثراً الجهاد على الأمان إلى أن وافاه أجل سنة (٢٠هـ) وكان سنة عند موته بضع وستون سنة.

ووصف بعضهم بلاد الهند، فقال: بحرهما در و جبالها باقوت، وشجرها عود، وورقها عطر، وقال عبد الله بن سليمان في نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: قد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران، وكان يقال: البصرة خزانة العرب وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها واتخاذ المسلمين بها وطنًا ومركزًا، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية. وأنا أقول مصر كنانة الله في أرضه والسلام.

ومما جاء في ذم السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر، وقال بعضهم:

كل العذاب قطعة من السفر يا رب فارددنا على خير الحضر

وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الاوطان. ومرو إياس بن معاوية^(١) بمكان، فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: بم عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدة نباح غيره، وأراد أعرابي السفر، فقال لامرأته:

عدى السنين لغيبتى وتصبرى وذرى الشهور فلئنهن قصار

فأجابته:

فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا وارحم بناتك إنهن صغار

فأقام وترك السفر. ويقال: رب ملازم لمهته فاز ببغيته.

وقال ابن الهيثم:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) إياس بن معاوية هو إياس بن فرقة بن إياس بن هلال المزني، أبو وائلة البصري، قاضبها، كان يضرب به المثل في الذكاء والدعاء والمقل، توفي سنة (١٢١هـ).

في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦). وقيل: الفسق رأس كل بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسبلة للسرورة لمحبة للحياة. فسقى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدا من ترك الحياء ومن فقد حياه فقد مروته، ومن فقد مروته مقت، ومن مقت لإحدى به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ تَرَوْا وَتَكُنْ أَهْلِيَا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونُوا مَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ». وفي الحديث: «لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَجِبُ الْمَالُ لِجِلْبِ بِهِ رَحْمَةٍ، وَيُؤَدَّى بِهِ أَمَانَتُهُ». وقال على كرم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، وقد استأذن رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر، وقيل: من حفظ دنياه حفظ الأكرمين دينه وعرضه قال الشاعر:

لا تلمني إذا وقعت الأراقى بالأراقى لواء وجـهـى راقى

وقال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر، فلم أؤثراً شيئاً أمر من الفقر، فإن افترقت فلا تحدث به الناس كيلاً يتقصوك، ولكن اسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه أو تضرع إليه فلم يكشف ما به. وكان العباس رضى الله تعالى عنه يقول: الناس لصاحب المال أكرم من الشعاع للشمس، وهو عندهم أعذب من الماء وأرفع من السماء وأعلى من الشهد وأزكى من الورد، خطوه صواب وسيئاته حسنات وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يعلل حديثه، والمقلد عند الناس أكذب من لمان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم ولا يسأل عنه إن غاب، إن حضر أوردوه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صغفوه، مصانحته تنفض الرؤوس، وقرأته تقطع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسى فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعينها، وتوحشت فى البرية فلم أروحة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أرقبياً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كرام ما يذل القوي ويكره فلم أرى شيئاً أذل له ولا أكبر من الفاقة.

وكل مقل حين يغدر لحاجة
وكانت بنو عمي يقولون مرحباً
إلى كل ما يلقى من الناس منقلب
فلما راؤني معدماً مات مرحب

وقال آخر:

وَالْفَقْرُ يَهْدِمُ بَيْتَ الْعِزِّ وَالشَّرَفُ
يَرْفَعُ سَقْفَ الْأَعْمَادِ لَهُ

وقال آخر :

وجرح الليالى ما لهن طبيب
وحسبك أن المرء في حال فقره
ومن يختار بالحادثات وصرفها
وما خبرنى إن قال أعطت جاهل

وعيش الفنى بالفقر ليس يطيب
تحملقه الأقوام وهو لبيب
يبيت وهو مغلوب القواد سلب
إذا قال كل الناس أنت مصيب

وقال آخر :

الفقير يزرى بأقوام ذوى حسب

وقد يسود بغير السيد المال

وقال آخر:

لممرك إن المال قد يجعل الفتى
وما رفع النفس الدنية كالغنى

سنياً وأن الفقير بالمرء قد يزرى
ولا وضع النفس النفيسة كالفقير

وقال آخر:

إذا قل مــــال المرء لانت قناته

وهان على الأدنى فكيف الأبعد

وقال ابن الأختف:

يمشى الفقير وكل شيء ضده
وتراه مسبباً مفسوخاً وليس بمذنب
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً

والناس تغلق دونه أبوابها
ويرى العداوة لا يرى أسبابها
خضعت لديه وحركت أذنابها
نبحت عليه وكشرت أثوابها

وقال آخر:

فقير الفتى يذهب أنواره
والله ما الإنسان فى قومه

مثل اصفرار الشمس عند المغيب
إذا بلى بالفقير إلا غريب

وقال آخر:

إن الدراهم فى المواطن كلها
فهى اللسان لمن أراد فصاحة

تكسو الرجال مهابةً وجمالاً
وهى السلاح لمن أراد قتالاً

وقال آخر:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
يعظمون أخا الدنيا فلان وثبت

فكلما انقلب يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتهى وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب.

وقال الكتانى:

أصبحت الدنيا لنا عبدة
قد أجمع الناس على ذمها

فالحمد لله على ذلكا
وما أرى منهم لها تاركها

وقال الزمخشري:

وإذا رأيت صممورة في مطلب فاحمل صممرته على الدينار
وابعشه فيما تشتت فيه فإنه حجر يلين قوة الأحجار

قال الثوري رحمه الله تعالى: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى لقيم،
وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفظ عري مالك تحظى به ولا تفرط فيه تبقى ذليل
وإن يقرضوك باخل بالمعطا فالبخل خير من مال البخیل
واحفظ على نفسك من رلة يرى عزيز القوم فيها ذليل

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحفظ عليه من المظمين
والمرطحين والمحترفين والموهمين والمتنمين.

فأما المظمون: فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام والتحية والإعظام إلى أن يأتسوا بهم ويعرفوهم
بالمشاهدة، وربما قضوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر
لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما
عليك من المؤن والتفتات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك
وخدمتك، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي لك على مال بل يكون تحت يدي أو تحت يد
أحد من جهتك. ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين: إن اتقنه،
وجعل المال بيده أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح، وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير
من ماله، ثم يحتج عليه ببعض الأوقات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال قابحه، ويرطل من جملة المال صاحب
جاءه، فيلقه ويقول: هذا ربابي، فإن روى صاحب المال وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة، فلا يستوفى
ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم ياتمه وعول أن يكون القبض بيده، والمتاع مخزوناً لديه، وأطأ عليه البائعين والمشتريين
وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري
أو رخص أحوال الأمر على الأقدار وقال: ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المظمين المتعرضون لصناعة الكيمياء وهم الطماعون المظمون في عمل الذهب والفضة من غير معنهما،
فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم، فإن كليهما ظاهر، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم
يتنولون خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا حاجة، وهذا يستحيل. ويحتجون بأن ما ينجحهم إلى ذلك إلا
عدم الإمكان وتعدد المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة، فيأخذها
وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقتنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية وسبيله بعد ذلك إن
كان معروفاً قال: فسد على العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي يتفق عليه: هل لك في المعاودة؟ فإن حمله
الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر للمدة على الفراق بأي سبب كان. وإن كان منكوراً غافل صاحب
المكان ونخرج هارباً، ومن المظمين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال
ويقولون: إنا نعرف علم كثر فيه من الأمارات كيت وكيت ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون: نريد أن تأخذ لنا
عدة تنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك، ويوطن نفسه على أن المدة تكون
قريبة، فيعملون يوماً أو يومين فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يدرجونه إلى أن يتفق عليهم ما

شاء الله تعالى، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء. وإن كانوا منكرين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه؛ فرما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا، فهذا أمر المطمعين.

وأما البرطحون: فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً. وذلك أنهم إذا نذب صاحب المال أحد منهم لشراء حاجة سارع فيها واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نعمته وأمانته ونجح مساعيه، وكذلك إن نذبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد التقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقى مقابله أموره إليه فيستعطفه، ويفوز به، ثم يغير الحال الأول في الباطن. فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهومون: فهم الذين يتعرضون لذوى الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة. فيما يعاينه ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثير من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق أو أكل أو شرب، فتشتره نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة يا فلان: تريد الدنيا كلها لنفسك، لم لا تشركتنا في متاجرك هذه وأرباحها؟ فيقول له: أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل الباوي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكتك لم يصد شيئاً واحتجت إلى أن تطعمه، وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تبسط لهذا كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه. فيكون حاله كحال المطعم إذا صار المال تحت يده.

وأما المتتمسون: فهم أهل الرياء المظهرون التقف والنسك ومجانبة الحرام ومراقبة الصلاة والصيام لكي يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام ثم يلقون ذوى الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهنات بالأيام. وربما يأتي معه بأحد من الأولاد، ويظهرون النزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال وتقوض إليهم الوصايا، ويجلبهم العوام، وتقبل شهادتهم المحاكم وتنبههم الملوك إلى الوصايا والأموال، وهؤلاء أثر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم. قال الشاعر:

صلى وصام لإمر كان أمه حتى حواه فما صلى ولا صاماً

وقيل: لا فقير أفقر من غنى يأمن الفقر. قال الشاعر:

ألم تر أن الغنى يرجى له الغنى وإن الغنى يخشى عليه من الفقر

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم، وجمع المال، فإن الناس طائفتان خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء: إذا اختار الرجل اتهمه من كان به موثقاً، وأساء به الظن من كان ظنه حسناً، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياة، ومن ذهب حياله ذهب بهازه، وما من خلة هي للغنى مدح إلا وهي للفقر عيب، فإن كان شجاعاً سمى أهورج، وإن كان مؤثراً سمى مفسداً، وإن كان حليماً سمى ضعيفاً، وإن كان قورراً سمى بليداً، وإن كان لساً سمى مهذاراً، وإن كان صموئلاً سمى عيباً، قال ابن كثير:

الناس أجبـاع من دامت له نعم والويل للممر إن ولت به القـدم

المال زين ومن قلت دواهمـه حى كـمن مـات إلا أنه صـنم

لما رأيت أخـلاقي وغـالـمـنـتى والكل مـنـتـر عـنى ومـحـتـم

أبدوا جفَاءً وإعراضاً فقلت لهم أذنبت ذنباً فقالوا ذنبك العدم

وكان ابن مقله وزيراً لبعض الخلفاء، فزود عنه يهودى كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة، ثم تحيل اليهودى إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقله حظية هويت هذا اليهودى، فأعطته درجاً بخطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذى كان فى الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقله، وكان ذلك يوم عرفة، وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفى موكبه كل من فى الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية فقتلها أشر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقله أموالاً كثيرة وخلعاً سنياً وندم على فعله واعتذر إليه، فكتب ابن مقله على باب داره يقول:

تَحَمَّلْتُ النَّاسَ وَالزَّمَانَ فَحَيْثُ كَانَ الزَّمَانُ كَانُوا
عَسَا دَانِي الدَّهْرُ نَصَفَ يَوْمٍ فَلَمَّا كَشَفَ النَّاسُ لِي وَيَانُوا
يَا أَيُّهَا الْمَعْرُضُونَ عَنِّي عَمِدُوا فَتَقَسَّدَ عَادَ لِي الزَّمَانُ
ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى، قال بعضهم:

إِنَّمَا قُوَّةُ الظُّهُورِ النَّفْسُودُ وَبِهَا يَكْمُلُ الْفَتَى وَيَسُودُ
كَمْ كَرِيمٌ أَزْرَى بِهِ الدَّهْرُ يَوْمًا وَلَكَيْمٌ تَعَمَّى إِلَيْهِ الْوَفُودُ

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها اللعب بالدينار وشرب الأدوية والمساليق التى يغلى فيها الذهب.
قال الشاعر:

احْرَصْ عَلَى الدَّرْهِمِ وَالْعَيْنِ تَسْلِمُ مِنَ الْعَمِيلَةِ وَالْبَدِينِ
فَقُوَّةُ الْعَيْنِ بِإِسْنَانِهَا وَقُوَّةُ الْإِنْسَانِ بِالْعَيْنِ

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوى القلب قوى سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال. وبالعكس إذا ضعف الفقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه، والشاب يعجز عن ذلك، فعجب منه، فاستحضره، فحادثه فى ذلك، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بني شيان إذ أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك ودرهمك لمعاشك. والكلام فى هذا المعنى كثير. وقد اقتصرمت منه على التزير اليسير. وقد كان فى الناس من يظاھر بالفتى ويراء مروءة وفخراً.

فمن ذلك: ما حكى عن أحمد بن طولون^(١) أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس وقد تفتح وهرة فاستحسنه، فدعا بغداته فتغدى، ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال: على يالغ مثقال من المسك، فثره على أوراق النرجس. ولنذكر الآن نبذة من الدخائر والتحف.

حكى الرشيد بن الزبير فى كتابه الملقب (بالمعائب والطرف): أن أبا الوليد ذكر فى كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح فى سنة ثمان من الهجرة، وجد فى الجب الذى كان فى الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان يهدى للبيت، قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وياع رمة التميمى يوم القادسية

(١) سبق ترجمته.

منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين ألف دينار، وليس سلبه وقيته خمسمائة ألف وخمسون ألفاً، وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إيريقاً مرصعاً بالجوهر، فلم يدر أحد ما قيمته، فقال رجل من الفرس: أنا أخذه بعشرة آلاف دينار، ولم يعرف قيمته، فذهب إلى سعد بن أبي وقاص، فأعطاه إياه وقال: لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار، فباعه سعد بمائة ألف دينار، ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى فى سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فرديتي ونسيت الأخرى، فأصابها المسلمون، فقومت بمائتي ألف دينار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى فى سنة تسع وثمانين وجد فيها قدر ذهب ينزل إليها بسلام. ودفع مصعب ابن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مرآة فصاً من ياقوت أحمر، وقال له: انج به، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال: والله لا يتفجع به أحد بعد مصعب، وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان فى ولايته ظهر على كثر، فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزبرجد، فحملها إلى مصعب بن الزبير، فخرج من قومها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال: إني من أدفعها؟ فقيل: إلى نساك وأهلك. فقال: لا، بل إلى رجل قدم عندنا يداً، وأولانا جميلاً. ادع لى عبد الله بن أبى دريد، فدفعها إليه.

ولما صار موجود عماد الدولة فى قبضة أمير الجيوش وجد فى جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشر مثقالاً، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر، فقومت بتسعين ألف دينار. ووجد فى بستان العباس بن الحسن الوزير عماد له من آلة الشرب يوم قتل، سبعمائة صينية من ذهب وقضة. ووجد له مائة ألف مثقال عتير. وترك هشام ابن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشئ، وعشرة آلاف تكة حرير، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف دينار، ولم تات دولة بنى العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين.

ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش فى شهر رمضان سنة خمس عشر وخمسمائة، خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين إردباً وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر والياقوت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيسوت فى كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لوفاً، وخلف كعبة عتير يجعل عليه ثيابه إذا نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجواهر الفائق الذى لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمة وخلف من الزبادى الصينى والبلور المحكم وسق مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملعة فضة وثلاثة آلاف ملعة ذهب، وعشرة آلاف ريدية مملوءة فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرباب فى كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والحيل والبالغ والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حكة ذهباً وألفى حكة فضة، وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة ثور ذهباً، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الأيووان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يساع لبه فى كل سنة ثلاثين ألف دينار، وخلف من الخواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طيلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً به، فلما رآه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط، فضحكوا منه، ثم أسكه آخر وضربه، فضرط، فضحكوا عليه، فكشروه استهزاء وسخرية، ولم يلدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج، فلما أخبروا بخاصيته ندما على كسره. وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم،

فَسَبَّحَانَ مَنْ يَدُومُ مَلَكُهُ وَبِقَاوِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ:

هَبِ الْبَنِيَّاتِ تَقَادِ إِلَيْكَ عَسْفُورًا

أليس مستحي ذلك للزوال

فَضَمَنْتُ أَنَا هَذَا الْبَيْتَ وَقُلْتُ :

أيا من عاش في الدنيا طويلا

وأفنى العمر في قيل وقيل

وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سَيَفْعَلُ

وَجَمْعٌ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالٍ

هَبِ الدُّنْيَا تَقَادَ إِلَيْكَ عَفْوَاً

أليس مـمـيـر ذلـك للزوال

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وعلی آلہ وصحبہ وسلم.

في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾ (١) أن ربه استغنى (٢) ﴿[الملق: ٦، ٧]﴾. على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان. ومثل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغي من طغي من خلق الله عز وجل إلا بالغنى وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة. وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاماً»، فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أو من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم، فهل عندك ما تمتشى به؟ قال: نعم، قال: فإذا أنت من الأغنياء. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كان النبي ﷺ يبيت طارياً ليالي ما له ولا لأهله عشاء، وكان عامة طعامه الشعير، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وكان ﷺ يأكل خبز الشعير غير منخول. هذا وقد عرضت عليه صفات كثر الأرض، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه، وكان يقول: «اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً واحشروني في زمرة المساكين». وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبي ﷺ على ابنة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: «فجرى يا فاطمة مرارة الدنيا لتعيم الآخرة».

قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٣) ﴿[الضحى: ٥]﴾. وقال ﷺ: «الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختار إلا أولياء الله تعالى». وفي الخبر إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل ملائكته: أدنوا إلى أعبائي، فتقول الملائكة: ومن أعبائك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أعبائي، فيدنونهم منه، فيقول: يا عبدي الصالحين إني ما رويت الدنيا عنكم لهوائكم على ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إلى وتمتعوا ما شئتم. فيقولون: وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما رويت عنا منها، ولقد أحسنت بما صرفت عنا، فيأمر بهم، فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان. وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقراتكم وضعفاتكم، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أمي الجنة قبل أغنيائهم بخمسماية عام، والأغنياء يحاسبون على زكاتهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذي طمرين^(١) لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره - أي لو قال: اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة - ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به، الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم، وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم».

وروى عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جداً، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو، فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك، قال: فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهباً، فإذا هي بكرة في كفه ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إلى وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك، فبهت والله أن أردها عليه، وقال عون بن عبد الله^(٢): صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر مني همّاً لأنني كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك، فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله كما يذهب الطاووس من أجل ريشه

وقال عبد الله بن طاهر:

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى

فمن سره أن لا يرى ما يوهو فلا يتخذ شيئاً يتال به فقد

(١) الطمر: الثوب البالي.

(٢) عون بن عبد الله: هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الإمام الفقيه العابد، أو عبد الله الهذلي الكوفي، أعرفه فقيه المدينة حبيب الله، كان مرجئاً ثم تركه انظر (سير اعلام النبلاء) للذهبي (١٠٣/٥) ترجمة (٣٧).

وكان من دعاء السلف رضى الله تعالى عنهم: «اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر ويطر الغنى». وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويل لمن جمع المال من غير حقه، ويلاّن لمن روثه لمن لا يحمله وقدم على من لا يملّكه. ولما فتحت بلخ فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين يدي الله تعالى أى: بعد العرض، قال الشاعر:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل حزينا على الدنيا رهين غبونها
إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

وقال آخر:

ولا ترهين الفقر ما عثت فى غدٍ لكل غيب رزق من الله وارد

وقال هارون بن جعفر الطالبي:

بوعبدت همتي وقورب مالى ففعالى مقصر عن مالى
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع وهو من بين ما اكتسوا مريالى
ولقد تعلم الحوادث أنى ذو اصطبار على صروف الليالى

وقال أعرابي: من ولد فى الفقر أبطره الغنى، ومن ولد فى الغنى لم يزد إلا تواضعا، فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه، وأعظم أجر من رضى به، وصبر عليه، اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاء

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اعطوا السائل ولو جاء على فرس». وما سئل عليه السلام شيئاً قط، فقال لا. وأتى أعرابى إلى على رضى الله تعالى عنه، فسأله شيئاً، فقال: والله ما أصبح فى بيتى شئ، فضل عن قوتى، فولى الأعرابى وهو يقول: والله ليسالك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة، فيكى على رضى الله تعالى عنه بكاءً شديداً، وأمر برده، وقال يا قنبر: اتنى يدعى الفلانية، فدفعها إلى الأعرابى، وقال: لا تخدعن عنها فطالما كشيئت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ، فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً، فقال: يا قنبر والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهباً وفضة، فتصدقت به، وقبل الله منى ذلك، وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يدى. وقال على رضى الله تعالى عنه: إن لكل شئ ثمرة وثمرته المعروف تعجيل السراج. وقال مسلمة لنصيب: سلتنى. فقال: كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمالة، فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار. وسأل رجل الحسن رضى الله تعالى عنه فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتى أئى أتيتك عام أول فبررتنى، فقال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا، ثم وصله وأكرمه. ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح واللتيم إذا سئل ارتاع.

ولما وفد المهدي من الرى إلى العراق استدحه الشعراء، فقال أبو دلالة:

إنى نلرت لشن رأيتك قـادماً	أرض العـراق وأنت ذو وقـر
لتصلين على النبى محمد	ولتـملأن دراهمـاً حـجرى

فقال المهدي: صلى الله على محمد، فقال أبو دلالة: ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية، فضحك وأمر ببلدة، فصب فى حجره. وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول:

طحننا كـلاكل الأعـوام	وبررتنا طـوارق الأيـام
فأتيناكمو غد أكـمـاً	لالتقـام من زادكم والطـعام
فاطلبوا الأجـر والمشـورة فينا	أيهمـا الزائرون بيت الحـرام

فيكى الرشيد، وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم، فآلقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة وملأوا حجرها دراهم وديناير. وسأل أعرابى بمكة وأحسن فى سؤاله، فقال: أخ فى الله وجار فى بلد الله وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسينى فى الله. قال الشاعر:

ليس فى كل هـلبة وأوان	تـهيـم صانـع الإحـسان
فإذا أمكنت فبادر إليها	حـذرأ من تـعـذر الإمكان

وقال البصرى:

أضححت حوائجنا إليك مناخـة	مـعقولة برحـابك الوصال
أطلق فديتك بالنجاج عقـالها	حتى تـثور بنا بغير عـقال

وعن على رضى الله تعالى عنه قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا فى كسب المكارم ويدخلوا فى حاجة من هو نائم، فوالذى وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابته نائمة

جرى إليها كلاله في انحداره حتى يطردعا عنه كما تطرد غريبة الإبل. وقال الجابر بن عبد الله: يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يتم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها. وكان ليبد^(١) رحمه الله تعالى آلى على نفسه كلما هبت الصبا أن ينحر ويطعم، وربما ذبح الحنائق إذا ضاق الحنائق، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته، ثم بعث إليه بخمس من الإبل وبهذه الآيات:

أرى الجيزار يشحذ مدينيه	إذا هبت رياح بنى عقيقيل
طويل الباع أبليج جعفرى	كسريم الجند كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعمبىرى بما نواه	على العسيلات بالمال القليل

فدعا ليبد بشأ له خماسية وقال: يا بنية إنى تركت قول الشعر، فأجيبى الأمير عنى فقالت:

إذا هبت رياح بنى عقيقيل	تداعينا لهبتتها الوليدا
طويل الباع أبليج عيشى	أعسان على مروءته لببيدا
بأمثال الهضاب كان رعيًا	عليها من بنى حمام قعمودا
أبا وهب جيزاك الله عسيبرًا	نحمرناها وأطعمنا الشريدا
فعمد إن الكريم له معباد	وطنى فى ابن عثبة أن معودا

فقال: لقد أحسنت والله يا بنية لولا أنك سألت وقلت عد، فقالت: يا أبت إن الملك لا يستحيا منهم فى المسألة، فقال: والله أنت فى هذا أشعر منى. ووقد رجل من بنى ضبة على عبد الملك، فأتته:

والله ما ندرى إذا ما فأتنا	طلب إليك من الذى نتطلب
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد	أحدًا سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التى عودتنا	أو لا فارشدنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار، فعاد إليه من قابل، وقال: يا أمير المؤمنين إن الروى لينارنى وإن الحياة يمننى، فأمر له بألف دينار وقال: والله لو قلت حتى تنفذ بيوت الأموال لأعطيتك. وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور، فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتني مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض وبعض البقاع أعز من بعض، فقال: صدقت، وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروى أن أبا دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال له: سئلى حاجتك، فقال: كلب صيد، فقال: أعطوه إياه، فقال: ودابة أصيد عليها، فقال: أعطوه دابة. فقال: وغلاماً يقود الكلب ويصيده به، قال: أعطوه غلاماً، قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية، فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا بد لهم من دار يسكنونها. قال: أعطوه داراً تجمعهم، قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعتك عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة، فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بنى أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة، فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدا بكلب صيد فسهل القضية، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأل، ولو سأل

(١) ليبد بن ربيعة: هو ليبد بن ربيعة بن مالك بن جعفر أبو عقيل الهولاني العامري الشاعر المشهور أحد أشرف قومه، عاش مائة وخمسين سنة، وقيل لم يقل شعراً بعد إسلامه وقال: (أبلى الله به القرآن) وقيل قال بيتاً واحداً وهو:

ما عاتب المرء الكريم كنهه
والمرء يصلحه القرن الصالح

توفى سنة (٤١١ هـ - ٦٦٦ م).

ذلك بديهية لما وصل إليه .

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكرم يوماً: سر بنا نتفرج، فسارا، فبينما هما في الطريق وإذا بمقصة خرج منها رجل بقصة للمأمون يتظلم له، فغرت دابته، فآلقته على الأرض صريعاً، فأمر بفرب عتق ذلك الرجل، فقال يا أمير المؤمنين: إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور وهو عالم به، ويستجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبني لأحسنت مطالبك ولأتت على ما لم تفعل أقدر منى على رد ما قد فعلت. قال: فيحكى المأمون وقال: بالله أهد على ما قلت، فأعاده، فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكرم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغريه؟ والنبي ﷺ يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسته». والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي، فوقفت وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلم هم المأمون بالانصراف قال الرجل يا أمير المؤمنين: بيتان قد حضراتي، ثم أشد يقول:

ما جاد بالوفر إلا وهو معتذر ولا عفا قط إلا وهو مستعذر
وكلماً قصده راد نائله كالنار يؤخذ منها وهي تستعر

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرًا، فلم يوصل إليه، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب، فكان في السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة، وفي السطر الثاني: الضرورة والامل أقدماني عليك، وفي السطر الثالث: الانصراف من غير فائدة شماعة الأعداء، وفي السطر الرابع: أما نعم فمشمرة، وأما لا فمريحة. فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار.

وحكى ابن رجلًا كان جارك لابن عبيد الله، فأصاب الناس قحط بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه، فعزم جبار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد فسى طلب الميعة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهباً للسفر قالت له: إذا سافرت من الذي ينق علبنا؟ قال: إن لى على ابن عبيد الله ديناً ومعى به إسهاد عليه شرعى، فخذى الإسهاد وقدميه إليه، فإذا قرأه اتفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول:

قالت وقد رأت الأخمال محدجة والبين قد جمع المشكو والشاكى
من لى إذا غبت فى المحل قلت لها الله وابن عبيد الله مبولاكى

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة، فقرأها، وقال: صدق ووجك، وما زال ينق عليها ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها فشكره على فضله وإحسانه.

وحكى أن مطيع بن إلياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة، ثم أشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يياسته، فقال يا مطيع: إن شئت أعطيتك وإن شئت مدحتك كما مدحتنا، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار الملح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثناء من أمير خير كسب لصاحب نعمة وأخى ثراء
ولكن الزممان برى عظامى ومالى كالدراهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدراهم من دواء. وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير. قال الشاعر:

هزرتك لا إلى جعلتلك ناسياً لامرى ولا إلى أردت الشفاسيا
ولكن رأيت السيف من بعد سله إلى الهز محتاجاً وإن كان ماضيا

وقال آخر:

ماذا أقول إذا رجعت وقيل لي ماذا لقيت من الجواد الأفضل
إن قلت أعطاني كسبتي وإن أقبل يغفل الجواد بماله لم يجمل
فاختر لنفسك ما أقول فيأتي لا بد أخيرهم وإن لم أسأل

وقال آخر:

لنواب الدنيا غيباتك فانتبه يا نائمنا من جملة النوام
أعلى الصراط تزيل لوعة كبريتي أم في المعاد محمود بالانعام

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب:

ذكر شيء مما جاء في ذم السؤال والنهي عنه: روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضى الله تعالى عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أوسجة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فبسطنا أيدينا وكنا حديثي عهد بالمبايعة، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قال: أن تعبوا الله ولا تشكروا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيئوا الله، وأسر كلمة خفية وهي: ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه»، رواه مسلم. وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه، وكان لقمان يقول لولده: يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام لأن تدخل يدك في فم التين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غنى قد نشأ في الفقر. وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللقيم. وقال أبو محلم السعدي:

إذا رماك الدهر في الضيق فانتزع قديم الغنى في الناس إنك حاسده
ولا تطلبن الخبير عن أفاده حديثنا ومن لا يورث المجد والده

وقال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيأله أعطاه أو منعه». قال الشاعر:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضاً ولو نال الغنى بسؤال
وإذا السؤال مع السؤال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

وقال أحمد الأثري:

لموت الفتى خير من البخل للغنى وللبخل خير من سؤال بخيل
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة فلا تلق إنساناً بوجهه ذليل

وقال سلم الحائري:

إذا أذن الله في حجاجته أذاك النجاسات على رساله

فلا تسأل الناس من فضلكم ولكن سأل الله من فضله
 ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفي هذا المعنى قيل:
 لا تسألن من ابن آدم حاجة
 الله يغضب إن تركت سؤاله
 وقال محمود الوراق^(١):

شاد الملوك قصورهم وتحصنوا
 من كل طالب حاجة أو راغب
 فأرغب إلى ملك الملوك ولا تكن
 ياذا الضراعة طالباً من طالب
 وقال ابن دقيق العيد:

وقائلة مات الكرام فمن لنا
 فقلت لها من كان غاية قصده
 إذا مات من يرجى فمقصودنا الذي
 إذا عشنا الدهر الشديد بناه
 سؤالا لخلوق فليس بناه
 ترجئته باق فلودى ببناه

وقال بعض أهل الفضل:

لما افتقرت لصحبي ما وجدتهمو
 وأها على بلد وجهي للورى سفها
 بلغات لله لبساتي وأغناني
 فلو بذلت إلى مسؤولي والاني

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته، فردني رد أقيح من خلفته. وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيئاً يفرعون إليه وأنا أفرع منك. ويقال: لا شيء أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار. وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

بلوت بنى الدنيا فلم أر فيهم
 فجردت من غمد القناعة صارماً
 فلا ذا يراني واقفاً في طريقه
 غنى بلا سؤال عن الناس كلهم
 إذا ظالماً يستحسن الظلم مذهباً
 فكله إلى صرف اللبالي فإنها
 فكم قد رأينا ظالماً مستمرداً
 فمما قليل وهو في غفلاته
 فأصبح لا مال ولا جاء يرتجى
 سوى من غدا والبخل ملء إهابه
 قطعت رجلائي منهم بئبابه
 ولا ذا يراني قاعداً عند بابيه
 وليس المغنى إلا عن الشيء لا به
 ولج عتواً في قبيح اكتسابه
 سبدي له ما لم يكن في حسابه
 يرى النجم تيهها تحت ظل ركابه
 أماخت صروف الحادئات ببابه
 ولا حسنات تلتقي في كتابه

(١) محمود الوراق: هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي شاعر معروف أكثر من الشعر الحسن في المواضع والحكم، روى عنه (ابن أبي الدنيا) توفي نحو (٢٢٥هـ - ٨٤٠م)

وجوزى بالأمر الذى كان فاعلاً

وصب عليه الله سوط عذاب

وقال آخر:

لا تالّن إلى صديق حاجة
واستغن بالثمن القليل فإنه
من عف خف على الصديق لقائه
وأخوك من وفرت ما فى كفه

فيحول عنك كما الزمان يحول
ما صان عرضك لا يقال قليل
وأخو الخوائج وجهه مملول
ومنى علقت به فأتت تقبيل

وقال آخر:

ليس جوداً أعطيت به سؤال
إنما الجود ما أتاك ابتداء

قد يهز السؤال غير جواد
لم تلق فسيه ذلة الترداد

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موت البلى
كلاهما موت ولكن ذا

إنما الموت سؤال الرجس
أخف من ذاك لذل السؤال

وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه:

قنعت بالقصوت من رمسانى
خبروكما من الناس أن يتسولوا
من كنت عن ماله غنيا
ومن رأيتى بمعين نقص
ومن رأيتى بمعين تم

وصنت نفسي عن الهوان
فضل فلان على فلان
فلا أبالى إذا جففت
رأيتى بالئى رأى
رأيتى كامل المعانى

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّمْتُمْ تَبَعِيَةً فَعْبُوا رَبَّكُمْ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ اللَّهِ قَائِلُكُمْ عَلَى الْغُرَىٰ﴾ [النساء: ٨٦] فسرها بعضهم بالهدية، وقال عليه السلام: «تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحنة». وقال عليه السلام: «الهدية مشتركة». وقال عليه السلام: «من سألكم بالله فاعطوه ومن استعاذكم فاعينوه ومن أهدى إليكم كريماً فاقبلوه». وكان عليه السلام يقبل الهدية ويشيب عليها ما هو خير منها. وفى الآثار الهدية تجلب للمودة إلى القلب والسمع والبصر. ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهدك أهلك ولو حجراً. وقال الفضل ابن سهل: ما استرضى الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلبت السخائم ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا ترقى المحذور بمثل الهدية. وأتى فتح الموصلى بهدية وهى خمسون ديناراً فقال: حدثنا عطاء، عن النبى ﷺ: أنه قال: «من أتاه الله رزقاً من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى». «وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر: فردها، فقال: يا عمر لم رددت هديتى؟ فقال رضى الله عنه: إني سمعتك تقول خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس. فقال: يا عمر إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا أتاك من غير مسألة فأتما هو رزق ساقه الله إليك». وقالت أم حكيم الخزازية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب ويذهب بغوائل الصدور». ويقال: فى نشر الهداية طى المعادة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم عن قصرت به قدرته فأهدى السيرى وكتب معه مكاتبة يعتذر بها:

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة فى يوم واحد. فبلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجوهر من ملك الصين، وإستبرق من ملك الروم، ودره من ملك البحر، وجرافة من ملك النمل، وذرة من ملك البعوض. فآمل ذلك، وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد. وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال المأمون: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ليعلم عز الإسلام ونعمة الله تعالى علينا، فقبلوا ذلك، فلما عزموا على حملها قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسмор. وقال: وكم فى الهدية من ذلك؟ قالو: ماتا رطل مسكاً وماتاً فروة سمور.

وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله فى يوم نيروز فى سنة، اثنين وثلاثين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهب فى عشرة منها مشام غير وإنما أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة فى عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلج وشى قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النصفه عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتد على الله هدية فى بعض السنين من جعلتها عشرة بازات منها بار أبلق لم يرمثه، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيهم طرائف الصين وغرائب، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنساناً ومائة رطب من مسك، ومائة رطل عود هندى، وأربعة آلاف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأويرى ملكة إفريقية وما والاها إلى المكتفى بالله فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين. خمسين سيفاً وخمسين رمحاً وعشرين منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلياً، وعشرين جارية صقلية، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلون فى كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطياف الإفريقية إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً متكرراً وصفت بأجنحتها حتى يعلم ذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحماره وحشية عظيمة الخلفة فى قدر البغل، وآذانها شبه آذن البغل، وهى مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قطاراً من الذهب الأحمر كل قطار منه عشرة آلاف دينار عربية قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكى أن الخيزران^(١) جارية المهدي كانت أدبية شاعرة، فعزم المهدي على شراب دواء، فأنفذت إليه جام بلور فيه شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال، وكتبت إليه تقول:

إذا خرج الإمام من الدواء وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب بهذا الجمام من هذا الطلاء
فسينعم لشي قد أنفدته إليه بزورة بعد العشاء

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين. وأهدى الصابي إلى عضد الدولة^(٢) أسطراباً في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدي إليك بنو الأملاك واحترقوا في مهرجان جديد أنت تبليه
لكن عيبك إبراهيم حين رأي سمو قدرك عن شئ يدانيه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد أهدى لك الفلك الأعلي بما فييه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها بأن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كانت أوقع وأثقم.

وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شئ بجمل أو سمن قال: هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال: ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل، فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية، ويذكرها. قال لشاعر:

إن أمراً أهدى إلي صبيحة وذكرنيها مرة للشميم

وقال صفيان الثوري: إذا أردت أن تزوج فاهد للآم. وكان صفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم، فذكروا الخير، فقال: إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب أما في ثياب مصر فلا. وكتب الحموني إلى جارية اسمها برهان. وقد حجج موالياً، فقال:

حججوا مواليك يا برهان واعتصموا وقد أتتك الهدايا من مواليك
فأطرفني بما قد أطرفوك به ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلا ما جلوت به ثيبتك وما رددت في فيك
وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة يقول:

تفضل بالتقبول على إنى بعثت بما يقل العبد عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز، وكتب إليه يقول: هذا يوم سحرت فيه العادة بالطفاف العيد للسادة، وقد الأمير يجلب عما تحيط به المقفرة، وفي سؤده ما يوجب التفضل ببسط المعفرة، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكر ما جل ولا يستل لعبه ما قل، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطول بإهداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رايت كثير ما يهدى إليكم قليلاً فاقترضت على الدعاء

وبلغ الحسن بن عمار أن الأعمش بقع فيه ويقول: ظالم ولي المظالم، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا، فقيل له: كنت تدمع ثم الآن تمدحه، فقال: حدثني خيشة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «جلبت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها» وقال الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها، الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الخيزران: هي الخيزران بنت عطاء كانت من جوارى المهدي وأعطها وتزوجها فولدت له المهدي والرشيد وهي ملكة حارمة متفحمة بمائة الأصل تلتق الفقه من الإسم الأوزاعي، ولعبت دوراً عظيماً في خلافة ولدها الهادي وشاركته في شئون الدولة توفت سنة (١٧٣هـ - ٧٨٩م).

فى العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل: فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قل». وقال على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه: قليل مدام عليه خير من كثير ملول. وفى التوراة: حرك يدك أفتح لك باب الرزق. وكان إبراهيم بن آدم يسنى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلى بالليل. وعن على رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ما ينفعنى حجة العلم؟ قال: العمل. وعنه ﷺ أنه قال: «الكسب من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني». وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل. وأشد يقول:

ومن المرء إلا حيث يجعل نفسه ففى صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شئ أحسن من عقل راته حلم، ومن عمل راته علم، ومن حلم راته صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عظمى. فقال له الولي: بلغنى رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقرابهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك. فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه. وقيل: من جد وجد، وأشدوا فى المنى:

إنى رأيت وفى الأيام تحميرة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جسد فى أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فساد بالقفر

وتقول العرب: فلان وثاب على الغرض، وقال بعضهم:

وإنى إذا باششرت أمراً أریده تدانت أقاصيه وهان أشدنه

وعن أنس رضى الله تعالى عنه: يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعى الأركان إلى الله، والنية سعى القلوب إلى الله، والقلب ملك والأركان جنود ولا يحارب الملك إلا بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله بهاء إلا موضع العمل، والعمل كله بهاء إلا موضع الإخلاص، هذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَآه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. أى دروع من الحديد، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان يدور فى الصحارى فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه فى أمر داود، فإذا سمعه عابه بشئ يصلحه من نفسه، فسمع يوماً من يقول: إنى لا أجد فى داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام فى محرابه وتضرع بين يدى الله تعالى وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله فى يده كالشمع، فاحترفها واستعان بها على أمره وسار يحكم منها الدروع. وقال رسول الله ﷺ: «وجعل رزقى تحت ظل رمعى فكأن حرفة الجهاد وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف» وقال ﷺ: «إن الله تعالى يغيث العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام: «من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعطيه الله تعالى يوم القيامة. ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل رجلاً شيئاً وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده إن الله تعالى ييسغ كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضى الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «من بات كالأفى طلب الحلال أصبح مغفوراً له». وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إن ها هنا أقواماً يقولون لنجلس فى بيوتنا وتأتينا أرضاً، فقال: هؤلاء قوم حمقى إن كان لهم مثل يتقن إبراهيم خليل الرحمن فليعملوا، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال أيضاً: إنى لأرى الرجل فيمجنى، فأقول: آله حرفة؟ فإن قالوا لا، سقط من عيني، واشترى سليمان وسقاً من طعام وهو ستون صاعاً قليل له فى ذلك فقال: إن النفس إذا أحمرت رزقها اطمأنت، قال بعضهم فى السعى:

عاطر بنفك كى تصيب غنيمة إن الجلوس مع العيسال قبيح

وقيل: إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر^(١)، وكان الناس إنما يزنون بالشاهين. وعن أنس رضى الله عنه قال: غلا السحر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله: سحر لنا، فقال: إن الله الخالق القابض المسحر الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يظلمنى بمظلمة ظلمته بها فى أهل ولا مال.

وأم ما جاء فى المعجز والتوائى: فقد روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال: من أطاع التوائى ضيع الحقوق، ومن المعجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه.

قال الشاعر:

على المرء أن يسعى ويذل جهده ويقضى إله الخلق ما كان قاضياً
ومثله قوله:

على المرء أن يسعى ويذل نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه من سكن إلى عاجز أعده من عجزه، وأمه من جزعه وعوده قلة الصبر. ونساء ما فى العواقب، وليس للمعجز ضد إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من أخذلان مسامرة الأمانى ومن التوفيق بغض التوائى: وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا فى طلب الرزق والخواتج فإن الغدو بركة ونجاح». وقال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه: احرص على ما ينفعك، ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس، وقال على رضى الله تعالى عنه: التوائى مفتاح البؤس، وبالمعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل المعجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة والتوائى هلكة والكسل شوم، وكلب طائف خير من أسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف. وقيل: من المعجز والتوائى تتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات:

كأن التوائى أنكح المعجز بته وساق إليها حين روجها مهرأ
فرائثاً وطيثاً ثم قال لها اتكى فإنكم لا بد أن تلدا الفقرا

وقال آخر:

توكل على الرحمن فى الأمر كله ولا ترغبن فى المعجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله قسّال لمریم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تحنيه من غير هز جتسه ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية رضى الله تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة فقال: العفة والخرفة. وكان أيوب السخيتانى يقول: يا فتیان احترفوا فإنى لا آمن عليكم أن محتاجوا إلى القوم، يعنى الأمراء. وقال رجل للحسن: إني أشتر مصحفى فأقروه بالنهار كله، فقال: اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك فى صنعتك وما لا بد منه. ومر رحمه الله تعالى بإسكاف، فقال يا هذا: اعمل وكل، فإن الله يحب من يعمل ويأكل ولا يحب من يأكل ولا يعمل، وقال أبو تمام:

(١) عبد الله بن عامر: هو عبد الله بن عامر كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف يكنى أبا عبد الرحمن، وأمه دجاجة بنت أسماء بن الصلت، ولد بمكة بعد الهجرة بأربع سنين ولما شب ولده عثمان بن عفان البصرة، وكان رجلاً سخياً شجاعاً، وصلاً لقومه فاستخمت على عهده سجستان صلحاً وأرض الدوار وغزا أرض البازر وقلاع فارس والتحق جُور والكابريان للقتنجان وهما من دار ابجرد، ثم نالت نفسه إلى غراسان فقتنها وفتح أبو شهر عزة وغيرها، وهو أول من لبس الخنزير بالبصرة، وهو أول من اتخذ الخنافس بعروة وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء فلذلك قلّام إلى اليوم، توفى قبل مائة سنة وذلك سنة (٥٩هـ).

أصاذاًنى ما أحسن الليل مركباً
فبينى وأهوال الزمان أقاسها
أرى عاجزاً يدعى جليداً لقسمه
وعقاً يسمى عاجزاً بعفاهه
وليس بعجيز المرء أخطاه الغنى
وقال آخر:

فلا تركزن إلى كسل وعجز
يحيل على المقادر والقضاء

وقال أعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة. ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم، فيمثل له التواني في صورة التوكل، ويريه الهوينا بإحالاته على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكسل والفجور، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً وإذا ضجرت لم تصبر على حق. وقال أبو النعمان:

إذا وضع الراعى على الأرض صدره
فحق على المعزى أن تتبهددا

فالتواني: هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القيام على مصالح النفس وترك التسبب والاحتراف والإحالة على المقادير، وهذا من أقيع الأفعال.

وأما الثانى: فإنه خلاف التواني، وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب. وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. وما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]. وقال رسول الله ﷺ: «من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانه، ولا يفارق شيئاً إلا شاته». وفي التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: العقل أصله الثيب وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوباً: الثانى فيما يخاف فيه القوت أفضل من العجلة في إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم وإذا استوضعت فاعزم. وقالوا: يد الرفق تنجي ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة، وأنشدوا في ذلك:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته
وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا: الثانى حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والثانى: فيما يدرك؟. وقال المهلب: أئمة في عواقبها درك خير من عجلة في عواقبها فوت. وقالوا: من تأتى نال ما تمنى. والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويوجب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب، ولن تصحب هذه الصفة أحد إلا صلب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روى عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الحياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان ﷺ يخطئ ثوبه ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويعلف ناضحه. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطاً. وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطاً. ووقف على بن أبى طالب كرم الله وجهه على خياط، فقال له: يا خياط نكلتك التراكل، صلب الخيط ودق الدبور، وقارب الغرور، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعثر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه، واحذر السقاطات، فإن صاحب الثوب أحق بها، ولا تتخذ بها الأيادي وتطلب المكافاة». وقال فيلسوف: إن من القبيح أن يتولى امتحان الصانع من ليس بصانع. وفي الحديث: «أكذب أمسى الصواغون الصباغون وكذب الدلال مثل». وقالوا: لكل أحد رأس مال ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمن بن شبل سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«التجار هم الفجار، فقيل: أليس الله تعالى قد أحل البيع؟ قال: نعم. ولكن يحدثون فيكذبون، ويحلفون فيحشرون». وقال الفضيل: يخس الموالين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما هلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا وعطلوا الحدود ونقصوا الكيل والميزان.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكَ الْآزْذُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. قيل: هم الحاككة والأساكفة. وقيل: إن حائكًا سأل إبراهيم الخري ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتري ناطقًا ما الذي يجب عليه؟ فبسم إبراهيم، ثم قال: يتصدق بدهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا. قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كل منا ينسج لنفسه في بيته. وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لنادته ذا صناعة رديئة كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا الحاككة، فإن الله تعالى سلب عقولهم ونزع البركة من كبهم، لأن مريم عليها السلام مرت بجماعة من الحياككين، فسألتهن عن الطريق فدلوهن على غير الطريق، فقالت نزع الله البركة من كبكم، وقال أبو العتاهية^(١):

ألا إنما التقوي هي العزم والكرم وحبك للنديا هو الذل والسقم
وليس على عبء تقى نقيصه إذا صمبح التقوي وإن حاك أو حجم

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب. والله الموفق للصواب، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو العتاهية: هو إسحاق بن قاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق المعروف بأبي العتاهية، مولده بين النمر، مولدها بالحجاز قرب المدينة، ومنشأ الكوفة ثم سكن بغداد، لقب بأبي العتاهية، لاضطراب كان فيه، وقيل كان يحب للجون والحلافة وأكثر شعره بحكم وأمثال، وكان سهل القول، بعيد عن التكلف، مولده سنة (١٣٠هـ) مات ببغداد سنة (٢١١هـ) انظر «تاريخ بغداد» للخطيب (٦/ ٢٥٠) ترجمة (٣٢٨٨).

فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره

والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: فى شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه سمعت ذلك من نبيكم ﷺ وكان معاوية رضى الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العصباء لا تسبق، فجاءه أعرابي فسبها، فشق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فقال ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكى عن شيخ من همدان قال: بعثنى أعلی فی الجاهلية إلى ذی الکلال الحميرى بهدايا، فمكنت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف الشرافة من كوة، فخر له من حول القصر سجداً، ثم رأيت من بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص واشترى بدهم لحماً، وسمطه خلف دابته وهو القائل هذه الايات:

أف للندى إذا كُتبت كذا أنا منه في بلاءٍ وأذي
إن صفا عيش امرئ في صحبتها جرعته ممياً كأس الردي
ولقد كنت إذا ما قيل من أئتم العالم عيشاً قيل ذا

وقال يونس بن ميسرة^(١): لا يأتى علينا زمان إلا بكينا منه ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه. ومن قوله ذلك:
رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه
ومثله:

وما مر يوم أرغى فيه راحة فأخبره إلا بكيت على أمي
ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيام عند فسمعن قليل تري الأيام في صور الليالي
وقال رضى الله عنه: ما قال الناس لشيء طويلاً إلا وقد خبأ له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعهد
ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً، فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه، أنا فلان ابن فلان الملك عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وانقضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار امرئ إلى أن بعثت زنبيلاً من الدواهم في رغيه فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فذقت الجواهر واستفيتها فمت مكانى، فمن أصبح وله رغيه وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كما أمانتى. وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولى خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة يتفق في كل يوم ألف درهم على نفسه أنه يكفيه، فرؤى بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلبة مصحفه وأتقها. وقال هشيم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى منارة في يوم شات وهو جالس في قبة مشاة بالسمور، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة يبخر فيه بالعود. ثم رأيت بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس.

(١) يونس بن ميسرة: هو يونس بن ميسرة بن حليس أبو عبيد وابو حليس الجبلي الأهمى عالم دمشق طالع عمره، حدث عن معاوية وعبد الله بن عمرو، روى عنه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز، كان يقرئ القرآن في الجمعة وله كلام نافع في الزهد والفرقة قتل شهيداً سنة (١٣٢هـ).

ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد^(١) ونزل في داره وقعد على فرشه . دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عامر: إن دهرًا أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك . وقال مالك بن دينار: مررت بقصر تضرب فيه الجوارى بالدخوف ويقلن:

ألا يا دار لا يدخلك حــــــزن
ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار تأوي كل ضــــــيف
إذا مسا ضاق بالضيف المكان

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجزور، فسألته عما كنت رأيت وسمعت، فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير والموت غالب كل مخلوق، قد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان.

وقال أبو المتاعية:

لئن كنت في الدنيا بصيراً فإني
بلاغك منها مثل راد المسافر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
فما فاته منها فليس يضائر

وقال عبد الملك بن عمير^(٢): رأيت رأس الحسين رضي الله عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال صفيان، فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها؟ قال: اثنا عشرة سنة.

وقال الشاعر:

إن للدهر سرعة فاحذرها
لا تبين قد أمنت الشـرورا
قد بيت الفتى معافي فيردى
ولقد كان آتاً مـسـروراً
وكان محمد بن عبد الله بن طاهر^(٣) في قصره على الدجلة ينظر، فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبه على رأسها رقعة، فذاع بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تاه الأعرج واستعلي به البطر
فقل له خير ما استعملته الخلد
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

قال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد في السَّير غير القاهر أحد الخلفاء وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير طهارة، ومد يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فتبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أشده يقول:

ألا موت يباع فاشتره
فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا رحم المهيم من نفس حـر
تصدق بالوفاء على أخيه

قال: فرثي له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا. ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة، وأثنى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

(١) مروان محمد: هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو عبد الملك الأموي آخر خلفاء بني أمية، عرف بمروان الجعدي ومروان الحمار، لأنه قيل: أصبر في الحرب من حمار، وكان بطلاً مقدماً داعية، جباراً، دوح الحجوراج بالجزيرة ولد بالجزيرة سنة (١٧٢هـ) وقيل سنة (١٧٣هـ) وعمره يناهز تسع وخمسون سنة قتله عامر بن إسماعيل أحد بني الحارث بن كعب، وبعث برأسه إلى العباس بالخيرة.

(٢) عبد الملك بن عمير: هو عبد الملك بن عمير بن سويد بن جارية القرشي، ويقال: اللخمي أبو عمرو ويقال: أبو عمر الكوفي المعروف بالقطعي، رأى على بن أبي طالب، وأبا موسى الأشعري، وهو صالح الحديث، روى أكثر من مائة حديث، وهو ثقة في الحديث توفي سنة (١٣٦هـ).

(٣) محمد بن عبد الله: هو محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب الحزامي الحرساني الأمير أبو العباس، كان رئيساً محشداً، جواداً، عدلاً، أدبياً شاعراً من أهل الإمارة والعتق، ولاء المتوكل على الله إمرة بغداد، وعظم سلطانه في دولة المتوكل بالله. ولد سنة (٢٠٩هـ - ٨٢٤م) وتوفي بمرض الحوائق سنة (٢٥٣هـ - ٨٦٧م).

مقال مذكّر ما قد نسيه
ألا موت يباع فأنسى به

ألا قل للوزير فسدته نفسي
أبذكر إذ تقول لهنك عيش

فلما قرأها تذكر، فامر له بسمائة درهم ووقع تحت رقبته: ﴿مَنْ الَّذِينَ يُفْقِرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَطَلِّ حَيَّةٍ أَبْتَسَّ سَبْعَ مَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبْعَةِ مِائَةِ حَبٍّ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ثم قلده عملاً يرتوق منه.

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال له: أي الزمان أدركته أفضل، وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذاماً، وأما الزمان فيرفع أوقاماً ويضع آخرين، وكلهم يذكر أن يبلى جديدهم ويفرق عديدهم ويهرم صغيرهم ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

إلا بكيت عليه حين ينصروم

لم أبك من زمن لم أرض خلتني

وقال آخر

ووجوه دنياه عليه مقبلة

يا معروضاً عني بوجه مدبر

أو غشاية إلا انحطاط المنزلة

هل بعد حالك هذه من حالة

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير^(١):

بشوا إلى ورحبوا بالمقبل

ذهب الذين إذا راؤني مقبلاً

ولغ الكلاب تهـارشت في المنزل

ويقت في خلف كان حديثهم

وقال آخر في معناه:

فأبادهم بتفرق لا يجمع

يا منزلاً عـيث الزمان بأهله

كان الزمان بهم يضر وينفع

أين الذين عـهدتهم بك مرة

إلا ونسيه للمكارم مرتع

أيام لا ينسني لذكرك مريع

ويقي الذين حسياتهم لا تنفع

ذهب الذين يعاش في اكتافهم

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي^(٢):

محاسنه مقرونة ومعايبه

وإني رأيت الدهر منذ صحبتـه

على حذر من أن تدم عواقبه

إذا مررتني في أول الأمر لم أزل

وقال بعضهم:

والمنكرون لكل أمر منكر

ذهب الرجال المقتدى بفعـالهم

بعضاً لينفع معور عن معور

ويقت في خلف يزني بعـضه

حتث يمينك يا زمان فكفر

حلف الزمان لـيـسـائين بمثلهم

وكان يقال: إذا أدير الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير، وكان يقال: يتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال. ويقال: زمام العافية بيد البلاء ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نعن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، والشر إلا إقبالاً والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً، اضرب بطرفك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً

(١) عبد الله بن عروة: هو عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو بكر المدني وأمه فاختة بنت الأسود أبي الجعثري، روى عن الحسن بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن الخطاب، وروى له الجماعة سوى أبو داود.

(٢) إسحاق بن إبراهيم: هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي أبو محمد، صاحب الموسيقى والشعر الرائي، والتصانيف الأدبية مع الفقه واللغة، ولد سنة بضع وخمسين ومائة وتوفي سنة (٢٣٥هـ).

بذل نعمة الله كفرة، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وقرًا، أو متسرفاً كان يسمعه من صماع المواظ وقرًا. وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حشيت القلوب، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه».

ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل. بيت:

ما من مسيٍّ وإن طالت إساءته إلا ويكفيك يوم من مسائيه
وقال الأمين:

يا نفس قد حُقَّ الخذلان أين المفسر من القدر
كل امرئ بما يخلو ف ويرتجبه عليه علي خطر
من يرتشف صفو الزمان ن يخص يومئذ بالكدور
وقال بعضهم:

وقائلة ما بال وجهك قد نضت محاسنه والجسم بان شحوبه
فقلت لها هاتي من الناس واحداً صفًا وقتنه والنائبات تنوبه
ولأبى علي بن منذر:

أما والذي لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسفر المكتوم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبي كل ما يبكي العيون أقله وإن كنت منه دائماً أثبم

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وأيم الله ما كام قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلا بلنوب اقترفوها، لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ويزول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان
وكفي بالقرآن واعظاً. قال الله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» [الرعد: ١١]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثاني: في الصبر على المكروه وملح الثبوت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على الثبوت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيه، فمن ذلك قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين» [البقرة: ١٥٣]. فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين. وقوله تعالى: «وإما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» [الزمر: ١٠]. وقواه تعالى «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا» [السجدة: ٢٤]. وقوله تعالى «وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا» [الأعراف: ١٣٧]. وبالجملة، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في ثيف وسبعين موضعاً. وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» [الأحقاف: ٣٥]. وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة، فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر». وقوله ﷺ: «بالصبر يتوقع الفرج». وقوله: «الآفة من الله تعالى والمجلة من الشيطان، فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والثبوت في حركاته وسكناته، وكثيراً ما أدرك الصابر مراده أو كاده. وفات المستعجل فخره أو كاده. وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت يا أمير المؤمنين: إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبر على مفضض الإدلاج في السحر وفي الروح إلى الطاعنات في البكر
إنني رأيت وفي الأيام نجمية للصبر عاقبة محمودة الاثر
وقل من جدد في أمر يؤمله واستصحب الصبر إلا فار بالظفر

فحفظتها منه وألزمت نفسي الصبر في الأمور، فوجدت بركة ذلك. وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا حط الله بها من خطاياها». وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة». وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط». رواه الترمذي، وقال حديث حسن. وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحيط بالأجر، والصبر عند الصلعة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها».

وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: احتفظوا عنى حمًا. اثنتين واثنتين وواحدة. لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجو إلا ربه، ولا يستحى أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد وإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور قُدت الأمور، وأيما رجل حبه السلطان ظلمًا، فمات في حبه مات شهيدًا فإن ضربه فمات، فهو شهيد».

وروى في الخبر لما نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، أليس تمرض، أليس يصيبك الأذى، أليس تمزق؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تمزقون به يعنى جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك، وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحررت جزور بالأس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفي محمد إذا سجد، فأنهيت أشقى القوم فأخذه وأتى به. فلما سجد ﷺ وضع بين كتفيه السلا والفرث والدم، فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر، فقلت: لو كان لي منعة لطرحت عن ظهر رسول الله ﷺ، والتي ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان، فأخبر فاطمة رضي الله عنها، فجات فطرحت عن ظهره، ثم أقبلت عليهم فسبهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وربيعة، والوليد، وأمّية بن خلف، فقال علي رضي الله عنه: والذي بعث محمدًا بالحق رأيت الذين سمعهم صرعى يوم بدر». وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كثرة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من رزقهن فقد رزق خيرى الدنيا والآخرة. الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء».

وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة، فسرقها سارق، فصبرت ورددت أمرها إلى الله، ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق، وتنف ريشها نبت جميعه في وجهه، فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبرًا من أجارنى إسرائيل، فشكا له، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سرت، فقال: لقد أذاك من سرقتها. قالت: قد فعل، ولم تدع عليه. قال: وقد فجعت في بيضاء. قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه، فقيل لللك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتصر الله لها، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة، ويحمد الله ويعلم أن النصر مع الصبر وأن مع السر يسر، وأن المصاب والروايا إذا توالى أعقبا الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

عظمت دونه المحطوب وجلت
سئمت نفسك الحساية ومُلت
فستالروايا إذا توالى تسوكت
كشفت عنك جملة وتخلت

وإذا مـلـك الزمـان بهـمـر
وأنت بـمـد نوابـه أخـمـر
فماصـطـبر وانتظر بـلـوغ الأمانـي
وإذا أوهنت قـسـواك وجـلـت

ولمحمد بن بشر الشارحي:

فالصبر يفتح منها كل ما رنجما
إذا استعنت بصبر أن ترى فرجاً

إن الأمور إذا استدت مسالكها
لا تيسأ وإن طال مطالبه
ولزهير بن أبي سلمى^(١):

ويذهل عنها عقل كل لبيب
وفرقة إخوانٍ وفقد حبيب

ثلاث يعز الصبر عند حلولها
خروج اضطرار من بلاد يحبها
وقال بعضهم:

ولا تظهروا منكم الذبول فتحقروا
ويطرح في البعيد إذا ما تغيرا

عليك بإظهار التجرد للعدا
أما تظن الريحان يشمم ناضراً
ولابن نباتة:

ن وإن أبى القلب الجسـريـح
إما جميل أو قبيح

صبراً على نوب الزمـا
فلكل شئ أخـيـر
وقال أبو الأسود^(٢) وأجاد:

تقلب عصريه لغير لبيب
روية مال أو فراق حبيب

وإن امرؤ قد جرب الدهر لم يخف
ومما الدهر والأيام إلا كما ترى

ومن كلام الحكماء: ما جوهده الهوى بمثل الرأي، ولا استتب الرأى بمثل المشورة، ولا حفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكتسب البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:

وإن لم يكن نازقاً قياماً على الجمر
تفرج أبواب الكريهة بالصبر

ويوم كأن المصطلين بحرّه
صبرنا له صبراً جميلاً وإنما
قال ابن طاهر:

ليس يغنى من القـدر
مثل من باح واشتـهـر
من على مـره صـبـر
فماز بالصبر من صبر

حذرتني وكذا الحـذر
ليس من يكتم الهـوى
إنما يعرف الهـوى
نفس يا نفس فاصـبـر

وكان يقال: من تبصر تبصر. وكان يقال: إن نوابه الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال: لا دواء لداء الدهر إلا بالصبر. ولله در القائل:

والفوت أمتعتني والياس أغثنني
حتى نهيت الذي قد كان ينهاني

الدهر أدبني والصبر رباني
وحنكتني من الأيام تجـرية
وما أحسن ما قال محمود الوراق:

ففي الشائيات لمن أراد مسعولاً
بعرى الغنى فجعلتها لمن معولاً
وجعلت منه غيسره لى منزلاً
فسيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إنني رأيت الصبر خير معول
ورأيت أسباب القناعة أكـد
فإذا نبأ بي منزل جاوزته
وإذا غلا شئ علي تركسته

(١) سبق ترجمته.

(٢) أبو الأسود ظالم بن عمرو: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندب بن يعمر بن حنظل بن عدى بن الذئب بن بكر الدبلي، ويقال الدولي؛ وفي اسمه ونسبه اختلاف كثير، صحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بصري، كان من أكمل الرجال رأياً وأسلم عقلاً، ثقة، كان أول من تكلم في النحو، ولد في أيام النبوة، وأسلم في حياة النبي ﷺ وتوفي سنة تسع وستين في طاعون الجارف الذي وقع بالبصرة.

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة
فإن تصاريـف الزمان عجيبة
فانزع لها صبراً وومع لها صدرا
فيوماً ترى يسراً ويوماً ترى عمرا

وقال بعضهم:

وما متى عرّفت ففوضت أمره
وما أحسن ما قيل:
إلى الملك الجيـّار إلأ تيسّرا

الدهر لا يبقـى على حاله
فإن تلبّـاك بمكرهه
لا بد أن يقـ بل أو يدبر
فاصبر فإن الدهر لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله قال: كنت معتقلاً بالكوفة، فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال وقد راد همى وكادت نفسى أن تزعم وضائق على الأرض بما رجيت، وإذا برجل عليه آثار العبادـة قد أقبل على رآى ما أنا فيه من الكآبة فقال: ما حالك؟ فاخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر متر للكروب وعون على المخطوب». وروى عن ابن عمه على رضى الله تعالى عنه أنه قال: الصبر مطية لاندبر وسيف لا يكل، وأنا أقول:

ما أحسن الصبر فى الدنيا وأجمله
من شدّ بالصبر كفّاً عند مؤلة
عند الإله وأنجـاه من الجـزع
الوث يداه بحبل غير منقطع

فقلت له: بالله عليك ودنى، فقد وجدت بك راحة. فقال: ما يحضرنى شيء عن النبي ﷺ ولكنى أقول:

أما الذى لا يعلم الغيب غيره
لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه
ومن ليس فى كل الأمور له كفـو
لقد يجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب، فسألت عنه، فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك فى الكوفة، ثم أخرجت فى ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لى مرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع فى نفسى أنه من الأبدان الصالحين يقضه الله تعالى لى يوقظنى ويؤدبنى ويسلينى. وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط ويجلد جلدًا بليغاً، ولم يتكلم رصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى، قال: لم لاتصيح؟ فقال: إن فى هذا القرم الذين وقفوا على صديقاً لى يعتقد فى الشجاعة والجلادة وهو يرقبى بعينه، فأخشى إن ضجبت يذهب ماء وجهى عنده ويسوء ظنه بى، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
فمن قلّ فيما يلتقيه اصطباره
ويحمد منه الصّبر عما يصيبه
لقد قلّ فيما يرغميه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها: يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر ولم يكفنى إلا ما كلفوا به، فقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وإنى والله لأصبرن كما صبروا. فإن النبي ﷺ لما صبر كما أمر أسفر وجه صبره عن ظفـره ونصره، وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفـروا وانتصروا، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة، فقال مقاتل رضى الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم، وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. ويقال: ما الذى صبروا عليه حتى ساهم الله تعالى أولى العزم؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه.

أما نوح عليه الصلاة والسلام: فقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة يضرب ثم يلف

في لبد ويُلقي في بيته يرون أنه قد مات، ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أبس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنه، فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يترك، فقال له ابنه: يا أبت مكثي من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشق بها رأسه، وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدبهم، وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿إِنَّهُ لَنْ يُّؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٦) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ ﴿٣٧﴾ حمود: ٣٦، ٣٧. قال: يارب، وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجرى على وجه الماء اغشى فيه أهل طاعتى وأغرق أهل معصيتى، قال: يارب، وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير، قال: يارب، وأين الخشب، قال: اغرس الخشب، ففرس الساج عشرين سنة. وكف عن دعائهم وكفوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه، فقطعها وجففها، وقال: يارب كيف اتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، ويعث الله له جبريل قطعها، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة، فقد اشتد غضى على من عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته، وإهلاك قومه، وعذابهم إلا من آمن معه. وفار التور وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بمطار كافواه القرب، حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالخيال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً، وانتقم الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام. وفي تمام قصت وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام: فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها، لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحقاقه، فأخذوه وحبسوه ببيت ثم بنوا حائزاً كالخوش طول جداره ستون ذراعاً في سفع جبل عال ونادى مناد ملكهم أن احتطبوا لإحقاق إبراهيم ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوى رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحائز، وقذفوا فيه النار، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً، وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم عليه السلام على رأس البنيان، ورفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال: ﴿حَسْبَا اللّٰهُ وَبِعَمِّ التَّوَكُّلِ﴾ (٣٧) [إلى عمران: ١٧٣]. وقيل كان عمره يومئذ ست وعشرين سنة، فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام، وقال يا إبراهيم: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: سل ربك، فقال: حسي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام، فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذبا، قال كعب: ما أحرقت النار غير كسائه، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل: أكثر من ذلك، ونجّاه الله تعالى، ثم أهلك نمrod وقومه بأخس الأشياء وانتقم منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم، فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفؤس أمره إلى الله تعالى في ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءه قصة ذبيح ولده، وأمره الله تعالى بذلك فقبل أمره بالتسليم والامتثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إهمال، وقصته مشهورة، وتفصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولاة وصبره على ما قدره وقضاه عوّضه الله تعالى عن ذبيح ولده أن فداه، واتخذ خيلاً من بين خلقه وإحبياه، وأما النبي صلوات الله وسلامه عليه، فإنه صبر على بلية الذبح.

وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبيح ولده قال: إني أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكين والخيل، وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله تعالى قد أمرني بذبيحك، فانظر ماذا ترى، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِينَ﴾ (٣٨) [الصافات: ١٠٢]، يا أبت اشد وثاقى كي لا اضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فترامى فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقى ليكون آهون لل موت على وإذا لقيت أمي، فأتها السلام عليها، فاقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويكي ويقول: نعم العون أبت يا بني على ما أمر الله تعالى، قال مجاهد: لما أمر السكين على جلقه انقلبت السكين،

فقال يا إبت: اطعم بها طعناً. وقال السدى: جعل الله حلقه كصفحة من نحاس لاتعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودى أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأتاه جبريل عليه السلام بكيش أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكيش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصيره وامثاله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام: فإنه لما ابتلى بفراق ولده وذهاب بصره واشتداد حزنه قال: فصر جميل. وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لما ابتلاه الله تعالى بالفتنة في ظلمة الحب وبصره كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن، وحسبه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما واتساع القدر بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام: فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله، وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله. ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهض جماعة من الأنبياء عن الظلم وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام، فلم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في ملكه، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك، لا طيلين يلاك، فقال إيليس لعنة الله: يارب سلطنى على أولاده وماله، فسلطه، فبث إيليس مردته من الشياطين، فبعث بعضهم إلى دوابه، ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقذفرها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعه وجناته فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازلهم وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله، فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إيليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام، وهو يصلى، فتمثل له في صورة رجل من غلمانه فقال: يا أيوب أنت تصلى ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة، وقذفت الجميع في البحر، وأحرقت زرعتك وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع، ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذى أعطاني ذلك كله، ثم قبله منى. ثم قام إلى صلاته، فرجع إيليس ثانياً، فقال: يارب سلطنى على جسده، فسلطه، ففخ في إيهام رجله فتأفف ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقى أعماله تيبين وهو مع ذلك كله صابر محتسب مقوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستغفروه وألقوه خارجاً من البيوت من تن ربحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فرددت إليه مستفدة، فجاءه إيليس به في صورة شيخ ومعه سخة وقال لها: ليذبح أيوب هذه السخة على اسمي فيبير، فجاءته، فأنجزته، فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدك مائة جلدة. تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى، فطردوها عنه، فذهبت وبقي. ليس له من يقوم به، فلما رأى أنه لا طعم له ولا شراب ولا أحد من الناس يتفقده خر ساجداً لله تعالى وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طوّل هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول وما شكا إلى مخلوق ما نزل به. عاد الله تعالى بالطفاه عليه، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكُشِفْنَا بَهْ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِنْهُمْ مَعَهُ رَحْمَةٌ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الأنبياء: ٨٤]. وأفاض عليه من نعمه، ما أنساه بلوى نعمه، ومنحه من أتمام كرمه إن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَوَحَّدْنَا لَهُ خِطَاباً فَنُصِرَ بِهِ وَلَا تَحْتِ إِذَا وَجِدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب وأسنى المواعب لما أمر الله تعالى به وسله ذوى الحزم وسأهم بسبب صبرهم أولى الحزم، وفتح لهم بصيرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ومنحهم من لذنة غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم، فما أسعد من اهتدى بهداهم واقتدى بهم، وإن قصر عن مدامهم. وقيل: الصبر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهي الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه صبراً وأجرأ، والشقى من ساق القدر إليه جزأً ووزراً.

وما شنف السمع من نهج هذه الإشارة، وانحف النفع في نهج هذه العبارة، ما روى عن الحسن البصري رضى الله تعالى عنه أنه قال: كنت بواسط، فرأيت رجلاً كأنه قد نشى من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: أكنم على أمرى، حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين، فكنت فى أضيق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معى، فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقى،

فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني فقلت: إلهي اشتد الضر وفقد الصبر وأنت المستعان، ثم نعب من الليل أكثره، فأخذتني غشية، وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي: قم فصل ركعتين وقل: يا من لا يشغله شيء عن شيء، يا من أحاط علمه بما خفاً ويرا وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصى وساوس الصدور، وأنت بالمنزل الأعلى، وعلمك محيط بالنزل الأدنى، تعاليت علواً كبيراً، يا مغيث أغثني، وفك أسري، واكشف ضري، فقد نفذ صبري، فقلت وتوضعت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه، ولم تختلف عليّ منه كلمة واحدة، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرائتها قد فتحت، فقممت، فخرجت ولم يعارضني أحد، فأنا والله طليق الرحمن، وأصقيني الله بصبري فرجاً، وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم دعني واتصرف يقصد المحجاز.

وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام، ياداد من صبر علينا وصل إلينا، وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: دقار، فبينما أنا أطوف في غرابها إذا رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الآيات:

يامن ألح عليه الهمة والفكر	وغيت حاله الأيام والغير
أما سمعت لما قيل في مثلي	عند الأيأس فلأين الله والقيدر
ثم الخطوب إذا أحدها طرقت	فاصبر فقد فاز أقوام بما صبروا
وكل ضيق سيأتي بعده سعة	وكل فوت وشيك بعده الظفر

ولما حُس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبه وقلة صبره، فرد عليه جواب رفته يقول:

صبراً أبا أيوب صبراً مُبرج	وإذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذي انعقدت به	عقد الكاره فيك يملك حلها
صبراً فلن الصبر يعقب راحة	ولعلها أن تنجلي ولعلها

فأجابه أبو أيوب يقول:

صبرتني وعظمتني وأنا لها	وستنجلي بل لا أقول لعلها
ويعلمها من كان صاحب عقدها	كروماً به إذ كان يملك حلها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً:

وأنشدوا:

إذا ابتليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسن فإن الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته	فما ترى حيلة فيما قضى الله

الفصل الثالث: من هذا الباب: في التماسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى عليه: لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة، والرخاء مصيبة، وقيل: السهموم التي تعرض للقلوب كسفارات للنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك الله مكروهاً، فقال: كذاكَ دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لابد أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويل أهون من ويلين. وقال ابن عيينة: الدنيا كلها غموم، فما كان فيها من سرور فهو ريع. وقال العتيبي: إذا تناهى الغم انقطع الدمع بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العتق يبي.

وقيل: تزوج مغن بناتحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه إنما الدنيا فرح وحزن وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه^(١): إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء. وقال مطرف: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمت إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرت. وعن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يرفعه: «يود أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تقرض بالمقارضي لما يرون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». وروى أبو عتبة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالا ولا ولداً». ومر موسى عليه الصلاة والسلام يرجل كان يعرفه مطيعاً لله عز وجل قد مزقت السباع لحمه وأضلعه وكبده ملقاة على الأرض، فوقف متعجباً، فقال: أي رب عبدك ابتليته بما أرى، فأوحى الله تعالى إليه إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله، فأحييت أن ابتليته لأبلغه تلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلى، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظماء، فما بلغ دمشق حتى بلغ به كل منهب، فجمع الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله، فقالوا له: اشرب مرقداً، فقال: ما أحب أن أفعل من ذكر الله تعالى، فأحسني له المنشار، وقطعت رجله، فقال ضعوها بين يدي ولم يتوجع، ثم قال: لئن كنت ابتليتني في عضو فقد عوفيت في أعضائي، فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه أطلع من سطح على دواب الوليد، فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضمر، فسأل عن حاله وسبب ذهاب بصره فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى، ولا أعلم حبساً يزيد ماله على مالى، فحرمنا في بطن واد، فطرقنا سيل، فلذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبغير، فشرد البعير، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير، فسمعت صيحة الصبي، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير، فحطم وجهي برجله، فلذبت عياني، فأصبحت بلا عيني ولا ولد ولا مال ولا أهل، فقال الوليد: انهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحوادث المفضة^(٢) مكبة لخطوط جليلة، إما ثواب مدخر أو تطهير من ذنب أو تنبيه من غفلة أو تعريف لقدر النعمة. قال البيهقي: يسلى محمد بن يوسف على حبه:

فــــمن منزــــل رحيــــب إلى ضنك
صفــــا للهب الإبريز قبيلك بالسبك
ثلثك محبوس عن الظلم والإفك
فلأ به الصبر الجميل إلى الملك

ومــــنــــا هــــذه الأيام للأمنــــال
وقــــد دهمــــتك الحــــاديات وإمــــنا
أما فى نبي الله يوسف أسوة
أقام جميل الصبر فى السجن برهة

وقال على بن الجهم لما حبه المتوكل:

حبــــى وأى مهنــــد لا يهنــــد
عن ناظرهيك لما أفساء الفــــرقــــد
لا تصطلــــى إن لم تشــــبرها الأزند
شنعــــاء نعم المنزل المتــــودد
ويؤار فسيه ولا يزور ويحــــمد
لا تــــنــــلــــك بالحبجــــاب الأعبد

قالوا حببت فقلت ليس بضائري
والشمس لو لا أنها محجوبة
والنار فى أحجارها مخبوءة
والحبس ما لم تغشيه لذئبة
بيت يجدد للكرام كرامته
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه

(١) وهب بن منبه: هو وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذى كبر، أبو عبد الله الأندلسى النعمانى، ولد فى زمن (عثمان بن عفان) سنة (٣٤هـ)، توفى سنة (١١٤هـ) وقيل سنة (١١٣هـ).

(٢) الفوضى: جمع للضيعة.

غَرَّ الليلي باديَاتِ عَوْدٍ والمال عارية يعار وينفد
ولكل حى مـمـمـمـمـمـمـمـمـمـم أجلى لك المكروه عـمـا يحمد
لايقسـنـك من تفسـرـج نـكـبـة خطب رماك به الزمان الانكد
كم من عليـل قـسـد تـخـطـأ الردى فنجأ ومات طـيـبـه والعـود
صبراً فلان اليوم يعقبه غدٌ ويد الخـلـافـة لا تـطـاولـهـا يد

قال وأبشد إسحاق الموصلى فى إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هى المقادير تجرى فى اعتـنـها فاصبر فليس لها صبر على حال
يوماً تريك خـسـيس الأصل ترفعه إلى العلاء ويوماً تخفض العـالى

فما أسمى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضى الله عنه، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم بن المدنى حين عزل:

ليهن أبا إسحاق أسباب نعمة مجددة بالعزل والعزل أنجل
شهدت لقد متوا عليك وأحسنوا لأنك يوم العـزل أعلى وأفضل

وقال آخر:

قد زاد ملك سليمان فعـاوده والشمس تنحط فى المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمي^(١) لمعزول: الحمد لله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال، وعافى فى الكبير وهو الحال:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التـجـمـل

وقيل: المال حظ يتقص ثم يزيد، وظل يتحجر ثم يعود. ومثل يزرجمهر عن حاله فى نكته؟ فقال: عولت على أربعة أشياء: أولها أنى قلت القضاء والقدر لأبد من جريانهما، والثاني: أنى قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث: أنى قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع: أنى قلت لعل الفرج قريب، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبو بكر الخوارزمي: هو محمد بن موسى بن محمد أبو بكر الخوارزمي، البغدادى، إمام الحنفية، توفى فى جمادى الأولى سنة (٤٠٣هـ).

ما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة

والفرج والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَأْيِهَا وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]. ويروى عن ابن مسعود رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تنامي الشدة يكون الفرج، وعند تضايق السبلاء يكون الرخاء». وقال علي رضى الله عنه، عن النبي: «أفضل عبادة أمتي انتظارها فرج الله تعالى». وقال الحسن: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٦] [الشرح: ٥، ٦]، قال النبي ﷺ: «أبشروا فلن يغلب عر يسرين».

ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبق هم. وقال أبو حاتم:

إذا اشتعلت على البؤس القلوبُ	وضاقت بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واطمأننت	وأرست قى مكامنهما الخطوب
ولم نر لانكشاف الضرِّ وجهاً	ولا أغنى بحيلتسه الأريب
أتاك على قنوطٍ منك غموتُ	يمن به اللطيف المستجيبُ

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذى أمسيت فيه	يكون وراءه فرجٌ قريب
فيأمن خائف ويغاث عانٍ	ويأتى أهله النائي الغريب

وقال آخر:

تصبرأيها العبد اللبيب	لعلك بعد صبرك مساتخيب
وكل الحوادث إذا نهات	يكون وراءها فرجٌ قريب

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى	ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلماً استحكمت حلقاتها	فرجت وكسان يظنها لا تفرج

وقال آخر:

لئن صمدع البين المشتت شملنا	فللبين حكمٌ فى الجموع صمدوع
وللنجم من بعد الرجوع استقامة	وللشمس من بعد الغروب طلوع
وإن نعمة زالت عن الحرِّ وانقضت	فلأن بها بعد الزوال رجوع
فكن واثقاً بالله واصبر لحكمه	فإن زوال الشر عنك سريع

ولنذكر نبذة عن حصل له الفرج بعد الشدة:

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة، أن اخرج الحسن بن الحسن بن

على من السجن وكان محبوساً واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة موط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ثم نزل يأمر بضربه، فبينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء على بن الحسين عليه السلام، فأفزع له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن، فقال: يا ابن العم مالك ادع الله تعالى يدها الكروب يفرج الله عنك، قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا الله الحليم الكريم لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السموات ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه، وأقبل الحسن يكرهما فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلوماً أخرجه وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره، فاطلق بعد أيام وأتاه الفرج من عند الله تعالى. وقال الربيع لما حبس المهدي موسى بن جعفر، وأتى في المنام علياً رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد ﴿فهل عسى أن أوليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [محمد: ٢٢]، قال الربيع، فأرسل المهدي إلى ليلاً فراعني ذلك، فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان حسن الصوت، فقص عليّ الرؤيا ثم قال: اتنى بموسى بن جعفر، فجئته به فعاثقه وأجلسه إلى جانبه، وقال يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ عليّ كذا فعاهدني أن لا أخرج عليّ ولا على أحد من ولدي، فقال: والله ماذا من شأني، فقال: صدقت، ثم قال: ياربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار ورده إلى أهله بالمدينة، قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً، فما أصبح إلا على الطريق، وقال إسماعيل بن بشر:

وكلُّ حُرٍّ وإن طالَّت بليَّتُهُ يوماً تفُرج غمَّاه وتُكشِفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط يلازم منزلي فعرى إنسان أعرفه، فمقت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتها مع جاريتي لبعض معارفى فباعهما بتسعة دراهم واشترت بها ما قتلها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل وإذا بالباب يطرُق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت، فقال أنت مسلم بن الوليد، قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك فأخرج لي كتاباً وقال هذا من الأمير يزيد بن يزيد، فإذا فيه: قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لغدومك علينا، فادخلته إلى داري وردت في الطعام واشترت فاكهة وجلسنا نأكل ثم وهبت لضيبي شيئاً يشتري به هدية لأهله وتوجهنا إلى باب يزيد بالرقعة فوجدناه في الحمام، فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت، فإذا هو جالس على كرسي ويده مشط يسرح به لحية فسلمت عليه فرد أحسن رد وقال: ما الذي أفعذك عنا؟ قلت: قلّة ذات اليد وأشدته قصيدة مدحته بها، قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري، قال: كنت عند الرشيد منذ ليالٍ أحاده فقال لي: يا يزيد من القائل فيك هذه الآيات:

سلّ الخليفة سيفاً من بنى مضر بمضى فيبخرق الأجسام والهوام
كالدهر لا ينشئ غمّاً بهم قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاماً

فقلت والله لا أدري يا أمير المؤمنين، فقال سبحانه الله، أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟ فسالت فقيل لي هو مسلم بن الوليد، فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه فقبلت الأرض وسلمت فرد عليّ السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمرني بمائة ألف درهم وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم وقال: ما ينبغي لي أن أسأوي أمير المؤمنين في العطاء فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العمر العظيم وما أحسن ما قيل:

الأمن والخوف أيامٌ مبدولة بين الأنعام ويعبد الضيق تتسع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ويقسم الأموال، ضيق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم أفريقية، وكان محمد بن يزيد والياً عليها فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم ورشده في طلبه فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عقود عتب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد، قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يكتني منك، فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك، فقال: والله ما أبارك ولا أعادك، وإن سيقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا أكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك. ثم أمر به فكُفّ ووضع في النطع وقام السيف فأقيمت الصلاة، فوضع النعقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل أفريقية قد أجمعوا على قتله فلما رفع رأسه

ضربه رجل يعمود على رأسه فقتله، وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فبحان من قتل الأمير وفك الأسير.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول اطلق القتاتل، فارتعت لذلك ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن وإذا ورقة إنسان ادعى عليه بالقتل وأقر به، فأمرت بإحضاره فلما رأيته وقد ارتاع فقلت له إن صدقتني أطلقك، فحدثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عظيمة، وأن عجوراً جاءت لهم بامرأة فلما صارت عندهم صاحبت الله الله وغشي عليها، فلما أفافت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوزة غرنتي وقالت إن في هذه الدار نساء صالحات وأنا شريفة جدى رسول الله ﷺ وأمي فاطمة وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم في، فقممت دونها وناضلت عنها فاشتد علي واحد من الجماعة، وقال: لا بد منها وقاتلتني فقتلت، وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً والسكين بيدي فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذا امرى، فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله فقال: وحق اللذين وهبتني لهما لا أعود إلى معصية أبداً. وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن فلما حضر أمر بضرب عنقه فقال: أيها الأمير أخرجني إلى غد، قال: وأى فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن فسمعه الحجاج في السجن يقول:

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقتيه أمر

فقال الحجاج: والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. وأمر بإطلاقه.

وقال بعض جلساء المعتد، كنا بين يديه ليلة فحفق رأسه بالنعاس فقال: لاتبرحوا حتى اغشى سويعة، ففقا ساعة ثم أفاق جزعا مرعوباً وقال: امضوا إلى السجن واتشوروا بمصير الجمال فجاءوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال: سنة ونصف، قال: على ماذا؟ قال: أنا جمال من أهل الموصل وضاق علي الكعب ببلدى فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدى لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجنود قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أمس وجدهم يقطعون الطريف فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه وأخذوا جملي فناشدتهم الله فأبوا وسجنت أنا والقوم، فأطلق بعضهم ومات بعضهم وبقيت أنا فدفع له المعتد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل شهر وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلى هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول اطلق منصوراً الجمال من السجن وأحسن إليه، وأخذ الطاعون أهل بيت فسد بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يضر به أحد ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبه ترضعه مع جرو لها، فبحان القادر على كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه. قال الشاعر:

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً فأصيق الأمر أدناه إلى الفرج

وقال آخر:

فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة فإن اعتكأ الليل يؤذن بالفجر

وقال آخر:

لعمرك ما كل النعاطيل ضائر ولا كل شغل فيه للمرء منفعة

إذا كانت الأرواق في القرب والنوى عليك سواء فاغتنم لذة الدعة

فإن ضقت فاصبر يفرج الله ما ترى إلا رب ضيق في عواقبه سعة

وقال الرباشي: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال:

هي الأيام والسفر عسر وأمر الله يُنتظر

أنيسأس أن ترى فرجاً فسأين الله والقدر

إلا سرى عنى وهبت ربح الفرج.

ويروى أن سلطان صغلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انتقل الآن مراكباً إلى أفريقية بأثوني بأخبارها، فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد امتثلت أمرك وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة ويحدثك مقدم المركب، فأمر بإحضاره فجاء معه رجل فقال له الملك: ما متعت أن تلعب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب فينما أنا في جوف الليل والرجال يهجدون إذا بصوت يقول: يا الله يا الله يا غياث المستغيثين، يكرهوا مراراً، فلما استقر صوته في أسماعنا، ناديتاه: لبيك، لبيك، وهو ينادى يا الله، يا الله، يا غياث المستغيثين فوجدنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فظلمنا به المركب وسألناه عن حاله فقال: كنا مقلعين من أفريقية ففرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت وما زلت أصبح حتى أثنائي الغوث من ناحيتكم، فسيحان من أسهر سلطاناً وأرقه في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الوحدة، فسيحاته لا إله غيره ولا معبود سواه.

وحكى سیدی ابوبکر الطرطوشي فی کتابه (سراج الملوك) قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذؤ قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث في حانوت رجل عطار، فينما أنا جالس معه في الحانوت إذ جاء رجل من الطوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمل على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: اعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها في طبقه وأراد أن يمضي فسقط الطبق من يده فانكب جميع ما فيه فبكي الطواف وجزع حتى رحمناه فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء، فقال سمعاً وطاعة، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له: لا تنزع فامر الدنيا أسر من ذلك فقال الطواف: أيها الشيخ ليس جزعي لضياح ما ضاع لقد علم الله تعالى أنني كنت في القافلة الفلانية قضاع لي هيمان فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك فما جزعت لضياحها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما نحتاج النساء ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم فنشيت أن أشتري بها حاجة النساء فأبقي بلا رأس مال وأنا قد صرت شيئاً كبيراً لا أقدر على التكسب، فقلت في نفسي: أشتري بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى استفضل شيئاً أسد به رمق أهلي ويبقى رأس المال أتكسب به، واشترت هذا العطر فعين أتكب الطبق علمت أنه لم يبق لي إلا الفرار منهم، فهذا الذي أوجب جزعي، قال أبو حفص وكان رجل ضد الجند جالساً إلى جاني يستوعب الحديث فقال للشيخ أبي حفص: يا سیدی أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي، فظننا أنه يريد أن يعطيني شيئاً، قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطواف وقال له: صعبت من جزعك، فأعاد عليه القصة فقال له الجندی: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندی صحة قوله فقال: وما علامة الهيمان وأى موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة، قال الجندی: إذا رأيته تعرفه، قال: نعم، فأخرج الجندی له هيماناً ووضع بين يديه فحين رآه صاح وقال: هذا هيماني والله وعلامة صحة قلبي أن فيه من الفصوص ما كيت وكيت، ففتح الهيمان فوجده كما ذكر فقال الجندی: خذ مالك برك الله لك فيه، فقال الطواف: إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فعلمنا وأنت في حل منها ونفس طيبة بذلك، فقال الجندی ما كنت لأخذ على أمانتي مالا، وأبى أن يأخذ شيئاً ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى ودخل الطواف وهو من الفقراء وغرج وهو من الأغنياء، اللهم اغفر لنا ولسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكى أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيأ الأطباء دراؤه ولم يجدوا له شفاء، فدمروا على قتله وأرصدوا له رجلاً معه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المي الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الحلق فعاواه الله تعالى ويرى أحسن

ما كان، ويضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم وسورا معيشتهم، وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع، فقال رجل منهم: يا هؤلاء لاتنقعوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل وبات خارجاً عنهم، ولم يقرب ذلك المكان، فأصبحو في عافية وحملوا على دوابهم، فبينما هم كذلك إذ دخل الرجل إلى الدار ليقتضى حاجته فخر عليه الحائط فمات لوقته. وقال: وأخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار وأشار إلى دار هناك، قضية عجيبة، قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار من يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمارة فقتل عليه فأمر إنساناً هناك فاعانه على إزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا راد، فقال له الرجل: كن رفيقاً آس بك وتعينني على سفرى ونفقتك ومؤنتك على، فقال له الرجل: وأنا أيضاً اختار صحبتك وأرغب في مراقبتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة واشترى ما نحتاج إليه، ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرفقة ولم ير أحداً فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد السبيل إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه فقالوا: ما أرياه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته. فكر الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً، ففيس منه ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهاراً فقيراً جالماً عرباً منجهداً فاستحنى أن يدخلها نهاراً فتشمت به الأعداء - نعوذ بالله من شمتهم - وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة، فاستخفى إلى الليل ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقتل له من هذا قال فلان يعنى نفسه، فأظهرهالة سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذى جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة، والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت ووجتكم اليوم والله ما وجدنا ما تشتري به شيئاً للنساء، فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا فلا سراج عندنا، فلما سمع ذلك إرداد غمّاً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك فأخذ وعاء للدهن ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ونحو ذلك، وكان البياع أطفأ سراجيه وأغلق حانوته ونام، فناداه فعره فأجابيه، وشكر الله على سلامته، فقال له افتح حانوتك وأعطينا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن، فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت فرأى خرجة الذى هرب به صاحبه فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه، وقال: يا عدو الله اتنى بمالى، فقال له البياع: ما هذا يا فلان؟ والله ما علمتكم متعبداً وأنا أبداً ما جنيت عليك ولا غيركم فما هذا الكلام، قال: هذا خرجى هرب به بخادم كان يخدمنى وأخذ حمارى وجميع مالى، فقال البياع: والله ما لى علم غير أن رجلاً ورد على بعد العشاء واشترى منى عشاءه وأعطانى هذا الخرج فجعلته فى حانوتى وديعة إلى حين يصبح، والحمارة في دار جارنا والرجل في المسجد نائم، قال له: احمل معى الخرج وامض بنا إلى الرجل فرفع الخرج على صافقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً، فقال مالك؟ قال: أين مالى يا حائن؟ قال: ها هو في خرجك فوالله ما أخذت منه فرة، قال فلان الحمارة وأنت؟ قال: هو عند هذا الرجل الذى معك، فعفا عنه وخلي سبيله ومضى بخبرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فومع على أهله وأخبرهم بقتله فإرداد سرورهم وفرحهم وتبركوا بذلك المولود. فسيحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره.

(ولنلتق بهذا الباب ذكر شىء مما جاء في التهنتة والبشار)

كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خيراً استبشر به: سمعت عنك خيراً ما رآ كُتب في الآلواح وامتزج بالارواح، وعد في جملة البشائر العظام، وجرى في العروق وغشى في العظام. وكان خالد بن عبد الله القسري أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع وكان يقول له: إني لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها، فقال له: إن أنا وليتها فلنك العراق فلما ولي أثناء فقام بين الصفيين، وقال يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملاكته وبارك لك فيما ولاك ورعاك فيما استرعاك وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة وعلى أهل الشرك نقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أزين منها لك، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحرص هذه الآيات:

وإن البدر زاد حـسـن وجـوه كان للدرّ حـسـن وجـهـك زينا
وتزیدن أطيب الطيب طـيـباً إن تمسّ به أين مثلك أينا

ودخل على المهدي أعرابي فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة، قال: هاتها. قال: أثنى آت في منامي فقال: انت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الآيات:

لكم أرث الخـلـافـة من قـريش تُزفُ إليكمـو أبداً عـروـسا
إلى هرون تُهـلـدى بـعـد مـوسى تمس وما لها أن لا تمسـا

فقال المهدي يا غلام: على بالجواهر، فحشاه فاه حتى كاد ينشق، ثم قال: اكتبوا هذه الآيات واجعلوها في بخانتك صيانتنا.

وقال إبراهيم الموصلي في تهته الرشيد بالخلافة:

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلمسا أتى هارون أشمق نورها
تلبست الدنيا جمالاً بملكه فهارون واليهـا ويحيى وزيرها

وغناه بهما من وراء الحجاب، فوصله بمائة ألف دينار ويحيى بخمسين ألفاً. ودخل عطاء بن أبي سفيان على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنة والشعزية، فقال: رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نحبه فغفر الله ذنبيه، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتجب عند الله أعظم الرزية واشكر الله على أعظم العطية. ومر عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقعة، فلذا امرأة من بني سليم على سطح لها تمحدث جارة لها ليلاً وهي تقول: لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة بما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصره فيها مائة دينار وقال: قد خلص الله عمر بن هبيرة، فطفيئ نفساً وقرى عيناً. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان

الفصل الأول: فى مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً

عن على رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيدٌ وعبدٌ أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده». وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما (رفعه) «إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادماً لحديجة رضى الله تعالى عنها، اشترى لها يسوق عكاظ، فوهبه لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ: إن رضى بذلك فعلت، فمثل زيد فقال: ذلك الرق مع صحبة رسول الله ﷺ أحب إلى من عز الحرية مع مفارقتة. فقال رسول الله ﷺ: إذا اخترنا اخترناء، فاعتقه وزوجه أم أيمن، وبعدها زينب بنت جحش. وعن على رضى الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نساكنكم إماء الله، ولكن ليقُل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى. وعن ابن مسعود الأنصارى قال: ضربت غلاماً لى فسمعت من خلفى صوتاً: «علم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه». فالتفت فإذا هو النبى ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما إنك لو لم تفعل للضمت النار.

وروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تغفون عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت، فلما كانت الثالثة قال له: أصفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: حدثني أبو القاسم نبي التوبة ﷺ: «من قذف غملاً وهو برئ مما قال جلد له يوم القيامة حداً». وقيل: أراد رجل يبيع جاريته فبكت، فقال لها: مالك؟ فالتت: لو ملكت منك ما ملكت منى ما أخرجتك من بدي، فأعتقها وتزوجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب فى أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم، على ابن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وذلك أن عمر رضى الله تعالى عنه أتى بنات يزيد بن شهرار بن كسرى سبيات، فأراد يبعهن فأعطاهن للذلال ينادى عليهن بالسوق، فكشف عن وجه إحدىهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه فصاح: واعمره، وشكاً إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرّة، فقال على رضى الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا عزيز قول ذل، وغنى قوم افتقر». إن بنات الملوك لا يبعن، ولكن قوموهن، فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن على ومحمد بن أبى بكر وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل: استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة وكان ابن أمة، فتثل عبد الملك بقول عمرو العبدى:

نهيتمكم أن تحملوا فسوقاً خيلكم	هجيناً لكم يوم الرهان فبيدرك
فتمشركم كفاءه ويسقط سوطه	ويخدر ساقاه فمما يتحرك
وهل يستوى المراءن هذا ابن حسرّة	وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلى، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الآيات:

فما أنكحونا طائعين بناتهم	ولكن خطبناهم بأرمأحنا قسرا
فما رادنا فيها السباء مذلّة	ولا كلف خبزاً ولا طبخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سبية	إذا لقي الأبطال يطعنهم شبرا
ويأخذ ريان الطلعان بكفّه	فيوردها ينفساً ويصدرها حمرا

فقبل رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بنى ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بش المال في آخر الزمان المالك». وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمن امرأة على سر ولا تعلق خادماً تريدك للخدمة. ووصف بعضهم عبداً فقال: ياكل فارحاً ويعمل كارحاً ويغش قوماً ويحب نوماً. وقيل لبعضهم: ألك غلام؟ فقال:

ومالي غلامٌ قصاده و به
سوى من أبوه أخوه عمتي

وقال أكم :

الحرق حرق وإن مـهـ القـر
والعبد عبد وإن البسـه الدـر

ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المـه حـرة
رأى خللاً فيـمـا تولي الولائد

فلا يتخذ منهن حرقـمـعـيدـة
فهـن لعمـر الله بشـ القـمـائد

وكان لرجل غلام من أكسل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عبداً وتيناً، فأباطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين، فمرض الرجل، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب، فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر، فقال له عنه فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضى حاجتين في حاجة، فجيئت بالطبيب، فإن شفاك الله تعالى، وإلا حرق لك هذا قبرك، فهذا طبيب وهذا حفار. وقيل: كان عمرو الأعجمي يلى حكم السند، فكتب إلى موسى الهادي أن يرسل من أكسل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرياه وبناته، فلما كبر وشب اشتد به هوى مولاه فرأودها عن نفسها، فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم، فإذا هو على صدر مولاته، فعند إليه فجب ذكره وتركه يتششط في دمه، ثم أدركته على رقة، وندم على ذلك فعاجله إلى أن برئ من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثاره من مولاه ويدير عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان المولاه إبان أحدهما طفلاً والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيبين فصعد بهما على ذروة سطح عال، فنصبهما هناك وجعل يعلمهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه، فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاطئ مع الغلام فقال: ويلك صرقت ابني للتموت، قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جيبتي لأرسلن بهما، فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نقى وإني لأسمح بها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه ويتضرع له، وهو لا يقل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه، فيدليهما من ذلك الشاطئ، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاطئ فتقطعاً، وقال: إن جيبك لنضك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه، فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام، وقال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود، فما ترى أرداً من العبيد ولا أقل خيراً منهم. وأكثرهم رداة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الفدر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكروه، كان لم ير منك شيئاً، وكلما أحسنت إليه تمرد، وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جريت أنا ذلك كثير. وما أحسن ما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقيل: إن العبد إذا شيع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدى لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم الأم من الزوج وأردا، لأن المولد لا يعرف له أباً وربما يعرف الزمعي أبويه. ويقال في المولد: بغل لأنه مجنس بالبغل تكون أمه فرساً وأبوه حملاً، وبالعكس فلا تتق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير وإن كان فذاك نادر والتادر لا حكم له، ولما استغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب

من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أو أباد وعوائل كانوا يرونها فضلا، وقد دل على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَأَثَرُهُمْ لَا يَحْشَوْنَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. قال أهل اللغة: البهيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان الأخير ذكرا بحروا أذنبا أي شقرا أذنبا وامتنعوا من ذكاتها ولا تمتع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا اعتق عبداً وقال: هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث. وأما الوصيلة فغنى الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرا جملوه لأهلتهن، فإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لأهلتهن. وأما الحام، فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمتع من ماء ولا مرعى.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فالخمر: ما خامر العقل، ومنه سميت الخمر خمرًا، والميسر: القمار، والأنصاب: حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان واحدها نصب، والأزلام: سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرى ربي وعلى بعضها نهائى ربي، فإذا أراد الرجل سفرًا أو أمرا يهيم به ضرب بتلك القصد فإذا خرج الأمر مضى لحاجته وإذا خرج الله لم يمش. ومن أوابدهم: وأد البنات أى دفنهن أحياء. كانوا فى الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها وإذا بشر بها ضاق صدره وكظم غيظه، واسود وجهه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَكُمْ فَرْزٌ نَجِسٌ﴾ [الإسراء: ٣١]. وقد قيل: إنهم كانوا يقتلون خوف العار. وبمكة جبل يقال له: أبو دلالة كانت قريش تند فيه البنات. وقيل: إن صعصعة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفداهن من القتل كل بنت بنتاين عشراوين وجمل. وفساخ الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بنى أمية فقال: أنا ابن محبى الموتى، فأنكر الرجل ذلك، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وأما الرفادة فى الحج: فكانت خرجًا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالهم إلى قصى، فيصنع به طعامًا للحجاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصبًا فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم، فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب وهو الذى حفر بئر زمزم وكانت مطعومة، واستخرج منها الفزائين اللعب للذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلوى وسبعة أسياف وخمسة دروع سوابغ، فضرب من الأسياف باب الكعبة وجعل أحد الفزائين اللعب صفائح الذهب وجعل الآخر فى الكعبة.

واعلم وفقى الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زهاد التميمي وابن سمالك الأسدي الذين ضرب بهم المثل. فأسا سعيد بن زرارة فقيل: إنه مرت به امرأة فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا، فقال لها: يا هتاه مثلى يكون من عبيد الله؟! وأما عبد الله بن زياد التميمي، فقيل: إنه خطب الناس بالبصرة فأحسن وأوجز، فنودي من نواحي المسجد كثر الله قيتنا مثلك، فقال: لقد كلمتم الله شططا. وأما ابن سمالك، فإنه أضل راحلته فالتسها فلم توجد فقال: والله لئن لم يرد راحلتى على لا صليت له أبداً. فوجدت وقد تملق رماها ببعض أغصان الشجر، فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصل، فقال: إنما كانت يميني يمينًا قصداً. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف نعب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثا مستشعرا ومثلا بين العالمين مستشعرا،

نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه قيل له: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال: خير منزل إن الله أظفرنى بأناى بلغنى الأمل فيهم، وأعانتى على الانتقام منهم، فكنى أتقرب إليه بدمائهم، فقيل له: من هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلت فى جنب سيئاته. والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب فى الجاهلية: كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاة، وكانت اليهودية فى لمير، وبنى كنانة، وبنى الحرث بن كعب، وكندة، وكانت المجوسية فى بنى تميم، منهم رزارة بن عدى، وابنه على، وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الجزيرة وكانت بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية صنماً من حيس فعبده دهرًا طويلاً، ثم أدركتهم مجاعة فاكلوه. وقد قيل: إن أول من غير الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العمالق يعبدون الأصنام، فأعجبهم ذلك، فقال: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها؟ قالوا: هذه أصنام نستطهرها فتمطرنا، ونستنصرها فنقتصرنا. فقال: أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنماً يقال له: هبل، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأبحار فى بنى إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم وتفرقوا فى البلاد، وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسَنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلف ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال. وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر فى جوف الكعبة يقال له: عبل، وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويضعون. وكان إساف ونائلة رجلاً وامراً، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجبرين واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجل سفراً فمسخ به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله. واتخذت العرب الأصنام واهتموا على عبادتها وكانت لغريش وبنى كنانة الغزى، وكان حجابها بنى شيبه. وكانت اللات لشقيف بالطائف، وكان حجابها بنى مغيث من قحيف. وكانت سناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم. وأما يثوث ويعوق ونسر، فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام وكانوا أتياء عبادة فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا أنظروه، ففكروا ذلك، فقال: اجعلوه فى مؤخر المسجد، ففعلوا وصوره من صفر ورصاص. ثم مات آخر، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم، فصورهم هناك، وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: من نعيد؟ قال: آلهتكم المصورة فى مصالكم فعبدها إلى أن بعث الله نوحاً عليه الصلاة والسلام، فنهاهم عن عبادتها، فقالوا: كما أخبر الله عنهم: ﴿لَا تَدْرُونَ إِلَهُكُمْ وَلَا تَدْرُونَ ذَا وَلَا سَوْاعاً﴾ [نوح: ٢٣]. ولما عم الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً، فأخرجهما الشيطان لمشركى العرب فعبدها.

وذكر الواحدى فى "الوسيط" أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسول الشيطان لغرهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أُنشط لهم وأشوق للعبادة كما أراهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالاحوال فحسَن لهم عبادتها. وأن من سبقهم من قومهم عبدها قسموها بأسمائهم. وقال الواقدي: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويعوق على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أى ذلك كان.

ذكر أبو بلعهم الرتم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصناً منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد اتحل قال: قد خانتني امرأتى، وإن وجده على حالته قال: لم تخنى. الرتبة: ناقه كانت العرب إذا مات واحد منهم غفلوا ناقته عند قبره وسدوا عينها حتى تموت. يزعمون أنه إذا بعث من قبره وكبها. التعمية والتفتة: كان الرجل إذا بلغت إليه المأق قلع عين الفحل. يقولون إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا أودادت على الألف فقا

عينه الأخرى . العر : داه يصيب الإبل شبه الجرب ، كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرئ داه العر . ضرب الثور عن البقر ، كانت البقر إذا امتعت عن الشرب ضربوا الثور ، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصلدون البقر عن الشرب . الهامة : كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة ، فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره .

وكان للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفس وتنازع فى كفياتها ، فمنهم من زعم أن النفس هى الدم وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه . وقالوا : إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد فى الحياة مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حيى فيه حرارة ورطوبة ، فإذا مات ذهب حرارته وحل به اليبس والبرودة . وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل ، ولا يزال متصوراً فى صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشاً له وفى ذلك يقول بعضهم :

مُطِّطُ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم فى صدى المقابر هَامُ

ثم جاء الإسلام ، والعرب ترى صحة أمر الهام ، حتى قال النبى ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام » . وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً وكبير حتى يصير كضرب من اليوم ويتوحش ويصرخ ، ويوجد فى الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى ، يزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت . والصفر : زعموا أن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه الصفر وهى حية تكون فى البطن . تثنية الضربة : زعموا أن الحية تموت فى أول ضربة ، فإذا تثبت عاشت .

الغيلان والتغول للعرب : فى الغيلان والتغول أخبار وأقاويل ، يزعمون أن الغول يتغول لهم فى الخلوات فى أنواع الصور فيخاطبونها وتخطبهم ، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشتم وأنه خرج منفرداً لم يستأنس وتوحش ، وطلب القفار ، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراعى لبعض السفار فى أوقات الخلوات وفى الليل .

وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رآه فى سفره إلى الشام فضربه بالسيف . وقال الجاحظ : الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون فى ضرب من الصور والشياب وفيه خلاف ، وقالوا : إنه ذكر وأنى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى . وأما القطرب فى قولهم ، فهو نوع من الأشخاص التشيطة يعرف بهذا الاسم فظهر فى أكناف اليمن وصعيد مصر فى أعاليه ، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه ، فيلدود دبره فيموت . وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التى ذكرناها أمتكوح هو أو مذعور ؟ فإن كان قد نكحه أيوساً منه ، وإن كان قد ذعر سكن روعه وشجع قلبه ، وإذا رآه الإنسان وقع مشيحاً عليه ، ومنهم من يظهر له فلا يكثر به لشهامته وثبات قلبه .

ذكر الهواتف : أما الهواتف : فقد كانت كثر فى العرب وكان أكثرها إيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وإن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى .

ومن عجيب ما حكى من أمر الهواتف : ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال : خرجنا حججاً ، فصاحبنا رجل وجعل يقول فى طريقه :

● ليت شعرى هل يفت على ●

فلما انصرفنا من مكة قالها فى بعض الطريق ، فأجابه صوت فى الظلام :

نعم نعم وناكها حجية وهو رجل أحمر ضخم فى قفاه كيه

فكث الرجل ، فلما سرتنا إلى البصرة أخبرنا ذلك الرجل قال : دخل جيراني يسلمون على فإذا فيهم رجل أحمر ضخم فى قفاه كيه ، فقلت لأهلى من هذا ؟ قالت : رجل كان ألطف جيرانا بنا ، فجزاه الله خيراً ، فسألته عن اسمه ،

فقلت: حجية، فقلت: الحقى بأهلك.

وأما بكاء المقتول، فكانت النساء لا يبكين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السن، فكانوا يزعمون أن الغلام إذا ثغر، فرمى سنه في عين الشمس بسيابته وإيهامه، وقال: أبدليني بأحسن منها، فإنه يأمن على أسنانه العوج والغليج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية: فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جز النواصي: فكانوا إذا أسروا رجلا ومثوا عليه، وأطلقوه جزوا ناصيته.

وأما الالتفات: فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجبن تهرب من الأرنب لأنها تحيض وليست من مطايا الجبن. ويزعمون أن المرأة إذا أحببت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية، فخاف وباءها، فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها. ويزعمون أن الحرقوص وهو دوية أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبقار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل، فقلب ثيابه اعتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تكن. وكانت لهم خزرة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان. ونكاح المقت من مستهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فالتقى ثوبه على امرأة أبيه فورت نكاحها، فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض أخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال. ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الكهانة والقيافة والزجر والعراقة والفأل والطيرة

والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة: فكانت فاشية فى الجاهلية حتى جاء الإسلام، فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها.

وللكهنة أخبار فمنهم: سطوح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله، وذلك أن الموبدان رأى إبلا صعباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها، فلما أصبح أعلم كسرى بذلك، فتصير كسرى تشجعاً، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريريه وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب يخمود النيران وارتجاس الإيوان فازدادوا غمّاً على غمهم، فكتب كسرى كتاباً إلى النعمان بن المنذر: أما بعد: فوجه إلى رجلاً عالمًا بما أريد أن أسأله عنه. فوجه إليه عبد المسيح الغساني، فقال له كسرى: أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرني الملك فإن كان عندى علم منه وإلا أخبرته بمن يعلم به، فأخبره بما رآه الموبدان فقال: علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام يقال له: سطوح. قال: فاته فأسأله عما سألتك واتنى بالجواب، فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطوح فوجده قد أشرف على الضريح، فسلم عليه وحياه ولم يخبر عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أشد شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ولم يذكر له السبب ففرغ رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسبح إلى سطوح، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الإيوان وخمود النيران ورويا الموبدان، رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عراباً قطعت الدجلة وانتشرت فى بلادها، يا عبد المسيح إذا كثرت التلوة، وفاض وادى سماوة وغازت بحيرة سارة وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطوح شاماً ولا العجم لعبد المسيح مقاماً، يرتفع أمر العرب وأطن أن وقت ولادة محمد قد اقترب، يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرفات وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطوح مكانه، فثار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكى أن أربعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلا شق وسطيح، فأخبرهما وقال لسطوح: إني رأيت مناماً هالتي فإن عرفته فقد أصبت تفسيره، فقال رأيت جمجمة خرجت من ظلمة فوقعت بارض نعمة فأكل منها كل ذات جمجمة، فقال له الملك: ما أخطأت شيئاً ما تفسيره، قال: ليهبطن بارضك الجيش وتلك ما بين أبين إلى جرش، فقال الملك: إن هذا الغائظ موجه فمتى هو كائن أفي ومانى أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين قمضى من السنين ثم يقتلون بها أجمعين ويخرجون منها هارين. قال: ومن ذا الذى يملك بعدهم؟ قال: أراك أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحدًا باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال نبي زكى يأتيه الوحي من العلى، قال: وعن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون فى قومه الملك إلى آخر الدهر. قال: وهل للدر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون. قال: أو حق ما تخبر قال: والشق والقمر إذا اتسق أن ما أثباتك به لحن. ثم دعا بشق فقال مثل ما قاله سطوح. ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفارقة، فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحديق تنحر بمكة، فرضى أمية بذلك وجعل بينهما الخزاعى الكاهن حكماً، فغضبوا إليه شيئاً وخرجوا إليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: قد خبأنا لك خبيئاً فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خيأتكم لى كيت وكيت، قالوا: صدقت أحكم بين هاشم بن عبد مناف وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتاً ونسباً، فقال والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما يالجو طائر وما اهتدى يعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المأثر ولامية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين، ويقال: إنها أول عداوة وقعت بين بنى هاشم وبنى أمية.

وحكى أن هند بنت عتبة بنت ربيعة كانت تحت الفاكه بن المخيرة وكان الفاكه من قتيان قريش وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلأ البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل من كان يقضى البيت فوجبه، فلما رأى هنداً رجع هرباً، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضرها برجله وقال لها: من هذا الذى خرج من عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً قط وما انتهيت حتى نهيتى، قال: فارجى إلى بيت أهلك وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أثروا فيك الكلام فإن يكن الرجل صادقاً صدمت عليه من يقتله فيقطع كلام الناس، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو على صادق. فقال له: يا فاكه إنك قد ربيت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن، فخرج الفاكه في جماعة من بنى مخزوم وخرج أبوها في جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة، فلما شارفوا البلاد قالوا: غداً نرد على هذا الرجل فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكرهه عندك، فقالت: لا والله، ولكن أعرف أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يعنى بسىما تكون على سبة. فقال لها: لا تخشى سوف أختبره، فصر لفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم، ونحر لهم فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئتكم فى أمر وقد خيأتنا لك خبيثة نخشرك بها، قال: خيأتكم لى ثمرة فى كمره. قال: إني أريد أن أبين من هذا: قال: حبة بر فى إحليل مهر، قال: فانظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يأتى إلى كل واحدة منهن ويضرب بيده على كتفها ويقول لها: انهضى حتى بلغ هنداً فقال: انهضى غير رساء^(١) ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية، فنهض إليها الفاكه فأخذ يدها من يده وقالت إليك عنى فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه.

وأما القيافة: فهي على ضربين قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فلاستدلال بصفات أعضاء الإنسان وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج، يعرض على أحدهم مولود فى عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم.

وحكى: من بعض أبناء التجار أنه كان فى بعض أسفاره راكباً على بعيره يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد، قال ولد التاجر: فوقع فى نفسى من ذلك شيء فلما رجعت إلى أمى ذكرت لها القصة فقالت: يا ولدى إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد فخشيت أن يفوتنا ما له فمكنت هذا الغلام من نفسى فحملت بك، ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً فى الدار الآخرة لما أعلمتك به فى الدنيا. وأما قيافة الأثر فلاستدلال بالأقدام والخوافر والخفاف وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به. ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ والمرأة من الرجل واليك من الثيب والغريب من المستوطن. ويذكر أن فى قطية ونجر البرلس أقواماً بهذه الصفة وقد وقعت من قريش حين خرج النبى ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد وأحجار صم ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحجبهم الله تعالى عن نبيه ﷺ بما كان من نسيج العنكبوت وما لحق الضائف من الحيرة، وقوله إلى ههنا انتهت الأقدام. هذا ومعهم الجماعة من قريش أبصارهم سليمة ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعنى فى علمها ما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى. وقيل: القيافة لبني مدلج فى أحياء مضر. واختلف رجلان من القافة فى أمر بعير وهما بين مكة ومنى فقال أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هى ناقه، وقصداً يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بنى عامر فزاد بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم، فوجداه خشى فأصابا جميعاً. ومنهم من كان يخط الرمل فى الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتى بعد. وقال رجل شردت لى إبل فجشيت إلى خراش فائتته عنها، فأمر بته أن تخط لى فى الأرض فخطت ثم قامت فضحك خراش ثم قال: أتدري قيامها لى شيء؟ قلت: لا، قال: قد علمت أنك تجد إبلك وتتزوجها، فاستحييت ثم خرجت فوجدت إبلى ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غاريين، فمرا يامراً وهى تخط للناس فى الأرض فضحك منها مالك هزواً وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرج من مسجستان حتى تموت وتتزوج عمرو هذا ورجلك فكان كما ذكرت.

(١) الرسعاء: القبيحة من النساء.

وأما الزجر والعرافة: فأحسنه ما روى أن كسرى أبريزيعة إلى النبي ﷺ حين بعث راجعاً ومصوراً، فقال للزاجر انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصور اتنى بصورته، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أوجب به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك. وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسولا وقال له: انظر إليه وامل إلى جانبه وانظر إلى ما بين كفيه حتى ترى الخاتم والشامة، فقدم الرسول فرأى النبي ﷺ على تشز عال واضعاً قدميه في الماء وعن يمينه على رضى الله عنه فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحول فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر فقال: ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمي، فتفاد بالنشز العلو ويسالمه الحياة. وقال المدائني: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز ابن مروان، حين أتاها فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك، فقال: اواه ما أظن أبى أرجع إلى القسطنطين. فمات ولم يرجع. وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة: ادعني فانظري إليها، فذهبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلها ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها فقلقتها معاوية، وتزوجها بعده رجلاً حبيب ابن مسلمة والشمعان بن بشير فقتل أحدهما ووضع رأسه في حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه ينتقد الأمور إذ تصعدت رجاصة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عراف وقيل قياف، فقام فتبعه ثوبان مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان سئل عن الشمس بملك مروان بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندى واضح البرهان، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان.

وروى المدائني أن علياً رضى الله عنه بعث معقلاً، في ثلاثة آلاف ليقم بالرقعة وذلك في رقعة صفيين، فسار حتى نزل الحلبية فينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين يتطحنان فجاء رجلاً نازحاً كل واحد منهما كبشاً فذهب به، فقال شداد بن أبي ربيعة الحنظلي الزاجر: إنكم لتصرفون من وجهكم هذا لا تغلبون ولا تغلبون أما ترى الكبشين كيف انتحما حتى حجز بينهما فترقا ولا فضل لأحدهما على الآخر.

وحكى: أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تسبح ثوباً فلما رآه قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت تستول من الملك، قال: فغضب عند ذلك فقالت له: لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت على والشفقة بيدي أدير طولها وعرضها، ودخلت على الآن والشفقة في يدي أريد قطعها لأنى قد فرغت من نسجها فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك.

وحكى: أن سيف بن ذي يزن لما استجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم، فخرج إليهم ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة، وكان بين عينيهِ ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم، قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له رهير فتأمل ذلك منه ثم قال لأميره: اصبر لتنظر ما يكون من أمره، قال: فتحول مسروق من الفيل إلى جمل فقال: اصبر، فتحول بعد ذلك إلى فرس ثم إلى بغل ثم إلى حمار وكانه ألف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار لما أنه استصغره واستحقره، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى وقال: أحملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكى: أنه كان عراف من الطريقين يفتاد يخبر بما يسأل عنه فلم يخطئ فسأله رجل عن شخص محبوبس هل ينطلق، قال: نعم ويخلص عليه. قال: فقلت له: بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتي التفت يميناً وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس وتفرغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلعة، قال وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل: فقد روى أن النبي ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن. وروى أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له يا بشار ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضى الله عنه: أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار. وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل؟ فقال: هو أن يكون مريض فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واجد وما

أشبه ذلك.

وأما الطيرة: فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة. وقيل: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «من عرض له من هذه الطيرة شيء، فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». وعنه ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له». وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر». وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضاً في دبرها فقد برئ مما نزل على محمد». وأشد المبرد هذه الآيات يقول:

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبحه
والفأل والزجر والكهان كلهم
إلا كواذب ما يجري به الفأل
مضللون ودون الغيب أقفال

وقال ليلى:

لعمري ما تدرى الطوارق بالحصى
ولا واجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر:

تعلم أنه لا طير إلا
يلس شيء يوافق بعض شيء
على متطير وهو الشبـور
أحاييتنا وباطله كـشـير

وكانت العرب تتطير بأشياء كثيرة منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها: العاطوس كانوا يكرهونها وكانوا إذا أرادوا سفر خرجوا من الغلس والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها، فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، ومنه قول امرئ القيس:

وقد اغتدى والطير في وكناتها
مكر مفر مقبل مـدبر مـا
بمنجرد قيد الأوابد هيكل
كجلمود صخر حطه السيل من علي

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ويسمونه حائماً لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذ كان أصح الطير بصراً، وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب البين صاح فقل به
لأنت على العشاق أقبح منظر
ترقى رماك يا طير بالبعيد
وأبشع في الأبصار من رؤية الأحـد
وتبرز في ثوب من الحزن مسود
كأنك من يوم الفراق على وعد
متى صحت صح البين وانقطع الرجا

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالأبل، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من الرحل. وفي ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد:

رسموا بأن مطيهم سبب النوى
والمؤننات بفارقة الأحـباب

وقالوا: من تطير من شيء وقع فيه.

وحكى عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلى محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول: يا عم إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا، فجتته وقد بطل له على سطح زبيدة وعنده سليمان بن أبي جعفر وجاريتيه نعيم فقال لها: غنيا شيئاً فقد سررت بعمومتي فغنت وهي تقول هذه الآيات:

همسوا قتلوه كي يكتونوا مكانه كما فعلت يوماً بكبرى مراربه
بني هاشم كيف التواصل بيئنا وجند أخيه سيفه ونحائبه

قال: فغضب وتطير وقال لها: ما قصتك ويحك انتبهي وغنى ما يسرنى. فغنت تقول:

كليب لعمرى كان أكثر ناصرًا وأكثر حزمًا منك ضررًا بالدم

فقال لها: ويحك ما هذا الغناء في هذه الليلة غنى غيره فغنت تقول هذه الآيات:

مارال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفتانوا ورب الدهر عداءه
تبكى فراقهم عيني فأرقفها إن التفريق للمشتاق بكاءه

قال: فانتهرها وقال لها قومي إلى لعنة الله فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لاني غير هذا وما ظننت إلا أنك تحبه. ثم إنها قامت من بين يديه وكان بين يديه قدح بلور وكان أبوه يحبه فأصابه طرف رداها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلى وقال: يا عمي أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت: كلا بل يبيك الله يا أمير المؤمنين ويسرك فسمعت هاتفاً يقول: قضى الأمر الذي فيه تستغيثان. فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئاً وما هذا إلا توهم فإذا الصوت قد علا فقال: يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال: قانصرفت من عنده وكان هذا آخر عهدي به. وخرج أبو الشعمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أول درب منها فتطير لذلك فأنشده أبو الشعمق يقول:

ما كان مندق اللواء لربيبة تخشى ولا أمر يكون مبدلاً
لكن هذا الرمح ضحك منته صغر الولاية فاستقل الموصل

فمر خالد وأمر لابي الشعمق بعشرة آلاف درهم. ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شساعت الوجوه وتبت الأيدي ويؤتم بغضب من الله إذا انكسر عود جلع ضعيف تحت قدم أسد شديد تضام بالشؤم، وإني على إهداء الله تعالى لأنك من الغراب الأبقع وأشام من يوم نحس مستمر، وإني لأعجب من لوط وقوله لو أن لي بكم قوة أو أرى إلى ركن شديد، فأى ركن أشد من الله تعالى أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين وقد وليت عليكم أخى محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً في أهل اليمن فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وقد أمرته أن يسئ إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن مسيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون ببدلى لا أحسن الله له الصعابة، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولى هذا واستغفر الله العظيم لى ولكم. وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضر به وأمر بجمه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال فقال: لا حاجة لى به ولكن ائذن لى فى الكلام، فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتنى فضررتنى وحبتنى وتلقيتنى فصدت وسلمت فأينا أشام صاحباً على صاحبه؟ فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكى أيضا أن صاحب قرطبة أصابه وجع فامر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذى الـيـالى علمنا أن سـتـطويـنا فـشـعـشـعـينا بماء المزن واسقينا

قال: فتطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكى: أن نور الدين محمود وهما الدين ركباً في يوم عيد وخرجا للفرج، فتجاولا في الكلام ثم قال محمود: يا من درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: قل هل نعيش إلى آخر هذا الشهر، فإن العام كثير قال فأجرى الله على منطوقهما ما كان مقدراً في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ومات الآخر قبل تمام العام.

وأما القراسة: فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن تَوَسَّمٰ﴾ [الحجر: ٧٥]. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمنين فإنه ينظر بنور الله». وقال على رضى الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضى الله تعالى عنهما على على رضى الله تعالى عنه بشئ فلم يعمل به، ثم ندب فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخزاز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته فأنفت نفسى منه، فنفس ذلك منى فقراً ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروهم﴾ [البقرة: ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله في قلبى فنفس ذلك أيضاً فقراً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما: إنه غار وقال الآخر: إنه حداد، فسألاه عن صنته فقال: كنت حداداً وأنا الآن نجار.

وحكى أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية قال: من رآه: ولقد رأيته متكئاً على دكة ويده مروحة يروح بها عليه، فقلت: السلام عليكم يا فلان، فلم على وتعارفنا ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باق على حاله أم لا؟ فقال له: لا أذكر منه إلا آية واحدة وهى قوله تعالى: ﴿رَبُّمَا يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]. قال: فكيت عليه وتركته وانصرف. وكان الحسن ابن السقاء من موالى بنى سليم ولم يكن في الأرض أحرز منه، كان ينظر إلى السفينة فيحز ما فيها فلا يخطئ وكان حرزه للمكيول والموزون والمعدود سواء. كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الأس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطئ. وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالفداء ويقول لشئ ما عند الله خير وأبقى فاعلم إن في جواره وليمة ولم يدع إليها، وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا، فاعلم أن شهادتهم لم تقبل. وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شئ، فاعلم أن امرأته قبيحة، وإذا رأيت إنساناً يمشى ويلفت، فاعلم أنه يريد أن يحدث. وإذا رأيت فقيراً يمدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غنى. وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالى وهو يقول يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صقع. ويقال: عين المراء عنوان قلبه. وكانوا يقولون: عظم الجبين يدل على البله، وعرضه يدل على قلة العقل وصغره يدل على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل القطة، وحسن الخلق والمروءة، والتى يطول تحديقها تدل على الحق، والتى يكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر في الأذن يدل على جودة السمع والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان، وكانت الفرس: تقول إذا فشا الموت في الوحوش دل على ضيقة، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب، وإذا نتق غراب فجوابته دجاجة عمر الخراب، وإذا قوت دجاجة فجوابها غراب غرب العمار. والله أعلم بكل شئ. عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. وعنده مفاتيح الغيب لا يعملها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب، ولا يابس إلا فى كتاب مبين.

وأما النزم والسرور وما جاء فيهما: فقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال: «أشراف أمتى حملة القرآن وأصحاب الليل». وروى أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت: يا بنى لا تكثر النوم

بالليل فإن صاحب النوم يجئ يوم القيامة مفلساً. وكان زمعة بن صالح يصلي ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركب المرموننا أكل هذا الليل ترققـدونا

فيتأثبون بين بك وداع ومتضرع فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. (وأشددوا):

يا أيها الراقد كم ترقـدُ قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ
وخـد من الليل ومـاعـاتـه حفظاً إذا مـسـا هـجـع الرقـدُ
من نام حـسـى يـنقـضـى ليلـه لم يـلـج المـنـزل أو يـجـهـد
قل لذى الألباب أهل التـقـى قنطرة الحـشـر لـكـم مـوعـد

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون وأشد بعضهم:

ألا إن نومات الضحى تورث الفسى غمومًا ونومات العصور جنون

وعن ابن العباس بن عبد المطلب أنه مر يوماً بآبائه وهو نائم نومة الضحى فركزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك أتنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب إنها مكلة مهزلة منسية للحاجة. والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الحرق ونومة الخلق ونومة الحق، فنومة الحرق: نومة الضحى ونومة الخلق: هي التي أمر النبي ﷺ بها أمته فقال: «قلوا فإن الشياطين لا تقبل»، ونومة الحق: النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطحب بالنوم فإنه شؤم وتكد. وقال الثوري لطبيب: دُلني على شيء إذا أردت النوم جاني، فقال: ادخن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاوس يقول: لأن تختلف السياط على ظهري أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة، والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على القلى ويقول اللهم إن النار تمنعني النوم وأشددوا في المعنى:

غـيـرت مـوضـع مـرقـدي يـومـًا فـنـفـسـارقـى المـكـونُ
قل لى فـسـاؤك لـيـلتـى فـي حـفـرـتـى أـنى أـكـونُ

وأشد أبو دلف:

أما الكفى ردى على رقـاديا ونومى فقد شردته عن وساديا
أما تسفين السله في قتل عاشق أمت الكرى عنه فاحببا الـيالـيا

وأشد أبو غاتم الثقفى:

رقدت رقـاد الهيم حتى لو أتنى يكون رقـادى مـفـنـمـا لغـيت

فقيل: لمن هذا؟ فقال: لرقاد من رقاد العرب. وقيل: إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبداً أسود قيل: إنه نام أسبوعاً وقيل إنه تماوت على أهله وقال اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فجى ونام وتذب فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا: فقد قيل فيها أقاويل وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكنون النفس وهدوء الروح. ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأخطمة والأغذية والطباع. وزهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلط وإن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحورا وعيوناً ومياعاً كثيرة ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أجداثاً وأسواراً مكثفين بسواد وبكاه وأشياء مفرقة، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الأحمر والرياحين وأنواع الملاهي والثياب المصبغة. والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزء من النبوة، وكان النبي ﷺ أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجئ على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكى: أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرقاً فقال: لمن هذه؟ فقيل: لآلئ جهل بن هشام فقال: ما لآلئ جهل والجنة والله لا يدخلها أبداً. قال: فأتاه عكرمة ولده مسلماً، فتأولها به وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع يلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاماً. وكذلك حين قال لآلئ بكر رضى الله تعالى عنه: إني رأيت كأنى رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف، فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله أقبض بعدك بستين ونصف. ورأت عائشة رضى الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فأولها أبوها بموته، وموت النبي ﷺ، وموت عمر رضى الله تعالى عنهما، ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

وحكى: أن أم الشافعي رضى الله تعالى عنه لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانفض بمصر ثم فرق في كل بلد قطعة، فأول بعالم يكون بمصر ويشتتر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

وحكى أيضاً: أن عاملاً أتى عمر رضى الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتتلا، فقال له عمر: مع من كنت؟ قال: مع القمر، فقال: مع الآية المحوثة والله لا وليت لى عملاً فعزله. ثم اتفق أن علياً رضى الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما من مهر في تعبيري الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأنى أسقى شجرة زيتون ريشاً، فاستوى جالساً فقال: ما التي تحك؟ قال: علية اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطوها فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدتها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأنى في يدي خاتماً اختم به فروج النساء وأقواء الرجال، فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل قسطنطين الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارية لى قد ذهبت في بيت من دارها، فقال هي امرأة تكحت في ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم لذلك ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع زوجته في ذلك البيت. وجاءه رجل معه جراب فقال له: رأيت في النوم كأنى أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً، فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم، فقال لمن حضره: ينبغي أن يكون هذا الرجل يخفق الصبيان وربما تكون في جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقات فسلموه إلى السلطان. وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأنى القمر دخل في الثريا، ونادى مناد من خلفي أن اتى ابن سيرين فقص عليه، فتلصقت يده وقال: ويلك كيف رأيت هذا؟ فأعادت عليه فقال لآخته: هذه تزعم أنى أموت لسبعة أيام وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال: رأيت كأنى أخذ البيض وأقشره فأكل بياضه وألقى صفاره، فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان ذلك.

وحكى: أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي، وقال: يموت الحسن وأموت بعده. وهو أشرف منى فمات الحسن ومات بعده بمائة يوم.

وحكى أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبي الله صلبك حق؟ قال: نعم، فبهروا على بعضهم، فقال تكذب رؤياك يقول تعالى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ [النساء: ١٥٧] ولكن هو عائد على الراى فكان كذلك. وأتى ابنه مغيث أت في المنام فقال لها:

لك البشيري بولد أشببه شيء بالأسد إذا الرجال في كبد
تغالبوا على بلد كمان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة. وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كائى بلت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا، قال: هو عبد الملك، فقال: يلى أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعى رضى الله تعالى عنه: رأيت علياً رضى الله تعالى عنه فى المنام فقال لى: ناولنى كتبك فتناولته إياها فأخذها وبدها فأصبحت أنا كتابة، فاتيت الجعد فاخبرته فقال: سيرف الله شأنك وينشر علمك.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: من رأى فى منامه فقد رأى حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بى، وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: رأيت كأن رأسى قد قطع وأنا انظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأى عين كنت تنظر إلى رأسك فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفى وأولوا رأسه بنيه ونظروا إليه باتباع سته، وقال رجل لعلى بن الحسين: رأيت كائى أبول فى يدى، فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: رأيت كائى نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدرى فهالنى ذلك فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغى لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحين سنة نبيك ﷺ. وقال النبى ﷺ «الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة فى الدنيا والآخرة» وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: تضرعت إلى ربي سنة أن يرينى أبى فى النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسألت فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك. إنه سألنى عن عقاب بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز فصاح وضرب بيده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقى الطاهر فكيف بالمفترف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهى حسنة ما لم يستبح بها محذور، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل فى الفقه فقال: علمكم الله ذلك فإنه قال: ﴿وَعَذِّبْنَاهُ حَيْثُ مَا ضَرَبَ بِهِ وَلَا تَحْسَبْ أَنَا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وكان ﷺ إذا أراد غزوة، ورى بغيرها، كان يقول: «الحرب خدعة». ولما أراد عمر رضى الله عنه قتل الهرمزان استقى ماء فأتوه بقدر فيه ماء، فأمسكه فى يده واضطرب فقال له عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فآلقى القدر من يده فأمر عمر بقتله: فقال: أولكم تؤمنى؟ قال: كيف أمتك. قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه وقولك لا بأس عليك أمان ولم أشربه، فقال عمر: فأنك الله أخذت منى أماناً ولم أشعر. وقيل: كان دهاء العرب أربعة، كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال: ليس العاقل الذى يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذى يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم لنصرانى: لو أسلمت، فقال: ما رلت محباً للإسلام إلا أنه يعنى منه حى للخرم، فقال: أسلم واشربها، فلما أسلم قال له: قد أسلمت، فإن شربتها حدينك وإن ارتددت فتناك، فاعتز لنفسك، فاختار الإسلام وحن إسلامه، فأخذته بالحيلة.

وقيل: دليت من السماء سلسلة فى أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التى فى وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاضرون عندها فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ومن كان كاذباً لم يبلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة، فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة، فخبأها فى مكانه فى عكازة، ثم أن صاحبا طلبها من الذى أودعها عنده فأنكرها، فتحاكما عند السلسلة، فقال المدعى: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن منى السلسلة، فدننت منه فسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعى وقال: اللهم إن كنت تعلم أبى رددت الجوهرة إليه، فلتدن منى السلسلة، فدننت منه فسها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم، فارتفعت بشؤم الخديعة، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن أحكم بين الناس بالبين واليمين. فبقي ذلك إلى قيام الساعة. وكان المختار بن أبى عبيدة الضفى فى من دهاء ثقيف وثقيف دهاء العرب، قيل: إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد، ثم دعا برجل من خواصه، فدفع إليه حمامة يبيعها وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فارسلها، ثم قال للناس: إنى لأجد فى محكم الكتاب، وفى اليقين والصواب أن الله يمدكم بملائكة غضاب صعب، تأتى فى صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة، فأرسلها، فتصايح الناس: الملائكة الملائكة وحملوا، فانتصروا وقتلوا ابن زياد. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فخرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا النيب على صبي إحداهما فأكله، فاختصما فى الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: اتوني بسكين أثق الغلام نصفتين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى: أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم، قالت: لا تفعل ونصيبى فيه للكبرى، فقال: خذيه، فهو ابنك، وقضى به لها، وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وقال: يا نبي الله إن لى جيراناً يسرقون أروى، فلا أعرف السارق، فتأدى الصلاة جامعة، ثم خطبهم وقال فى خطبته: وإن أحدمكم ليسرق أرو جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه، فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وبنى من العرب امرأة، وكان شاباً جميلاً، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها، فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب، وعانين جماله علم أنها تؤثر عليه، فاقبل على الفتى وقال: لقد أوتيت جمالاً، فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعدد محاسنه ثم سكت، فقال له المغيرة: كيف حسابك من أهلك؟ قال: ما يخفى على من شئ وإنى لاستنرك منه أدق من الخردل. فقال المغيرة: لكنى أضع البدة فى بيتى، فينفقها أعلى على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألونى غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذى لا

يحاسبني أحب إلى من هذا الذي يحصى على مثقال الذرة، فتزوجت المخيرة.

ويلغ عضد الدولة أن قومًا من الأكراد يقطعون الطريق، ويقومون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم، فاستدعى بعض التجار ودفع إليه بغلا عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، وذنابير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء، ففعل التاجر ذلك، وسار أمام القافلة، فنزل القوم، فأخذوا الاتسعة والأموال، وانفرد أحدهم بالبغل، وصعد به الجبل، فوجد به الحلوى، فقيح على نفسه أن يتفرد بها دون أصحابه، فاستدعاهم، فأكلوا على مجاعة، فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم.

وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة، فأقامهما بين يديه، ثم دعى بشرية ماء، فجئ له بكوز، فرماه بين يديه، فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سيلك، وقال للآخر: أنت أخذت المال، وتلذذت به، وتهددت فأقر، فمثل عن ذلك، فقال إن اللص قرى القلب، والبرئ يجزع ولو تحرك عصفور لغزع منه.

وقصد رجل الحج، فاستودع إنسانًا مالا، فلما عاد طلبه منه، فوجدته المستودع، فأخبر بذلك القاضي إياسًا، فقال: أعلم بأنك جتني قال: لا، قال: فعد إلى بعد يومين، ثم إن القاضي إياسًا بعث إلى ذلك الرجل، فأحضره، ثم قال له: أعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سفرًا بعيدًا وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين منزلك، فقال: حبًا وكرامة. قال: فأذهب وهي موضعا للمال وقومًا يحملونه، فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة. فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك، وقل له ادفع إلى مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس، فلما جاء، وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه، فأخذه وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي ترك السفر امض لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك. ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للدخول عليه ليقتله: إني لذلك على شيء فيه غناك لوجوب حقتك عليّ. قال: وما هو؟ قال: الصندوق القلاني، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر، فأخرج الصندوق فإذا فيه حق فيه حب، ورقة مكتوب فيها: من تناول منه حبة واحدة اتفض عشرة أبنكار وكان لشيرويه غرام في الباء، فتناول منه حبة فهلك من ساعته، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء، فقال له الرشيد: لم تخلف؟ فقال: عاقني عائق، فقال: اقرأوا عليه كتاب البيعة، فقال يا أمير المؤمنين: هذه البيعة في عتقي إلى قيام الساعة، فلم يفهم الرشيد ما أراد، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس. وقال المخيرة بن شعبة: لم يخدمني غير غلام من بني الحرث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلا يقبلها، فأعرض عنها، فتزوجها الفتى، فلمته، وقلت ألم تخبرني أنك رأيت رجلا يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباه يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف، فلطمه، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: جعل لي جعل على أن الطم سيد بنى تميم، فقال: لست بسيدهم عليك بحاوة بن قدامة، فإنه سيدهم، فمضى إليه، فلطمه، ففقطت يده.

وقال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم، فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا، ولكني رجل من العرب، فكتب لي عبد الملك رقعة ودفعها لي، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا، قال فيها: «العجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره». قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك، فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يشرك شيئًا إلا سألني عنه، وأنا أجيبه، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي. فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي.

ولما ولي عبد الملك بن مروان أخاه بشرك الكوفة، وكان شابًا ظريفًا غزلاً، بعث معه روح بن زنباع وكان شيخًا متورعًا، فقتل على يشر مرافقته، فذكر ذلك لستدماته، فتوصل بعض دثماته إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية، فكتب على حائط قريب في مجلسه هذه الأبيات:

إذا نعلناك لأهل المغرب الناصي

يا روح من لبثت في أرملة

فاحتل بنفسك يا روح بن ونباع

إن ابن مروان قد حانت منيته

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك، وقال: ثقلت على بشر وأصحابه، فاحتالوا لك.

ومن الحيل الطريفة: ما حكى أن النبي ﷺ لما فتح خيبر وأمرس بصفية، وفرح المسلمون بجاهه المحتاج بن علاط السلمي، وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال يا رسول الله: إن لي بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبه ولي مال متفرق عند تجار مكة، فأذن لي يا رسول الله في العود إلى مكة عسى أسبق خير إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلي أخلصه، فأذن له رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل، وأنت في حل، قال المحتاج: فخرجت، فلما انتهيت إلى الشيبة ثيبة البيضاء وجدت بها رجلا من قريش يتسعمون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمر الله عنده الخبر، أخبرنا يا حجاج، فقد بلغنا أن القاطع يعنون محمدا ﷺ قد سار إلى خيبر، قال: قلت إنه سار إلى خيبر وعندي من الخبر ما يسركم، قال: فاحذقوا حول ناقتي يقولون: إيه يا حجاج؟ قال: فقلت: هزم هزيمة لم تسعموا بملها قط، وأسر محمد وقالوا: لا تقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلونه بين أظهرهم بين كان أصاب من رجالهم. قال: فصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهرهم. قال: فقلت أهيئوني على جمع مالي من غرائي فإني أريد أن أقدم خيبر، فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك، فقاموا معي، فجمعوا لي مالي كآحسن ما أحب، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل على حتى وقف إلى جاني، وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: فقلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله قال: قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، واجمعت على الخروج، لقيت العباس، فقلت له: احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل، فإني أخشى أن يتبعوني، فآتكم على ثلاثة أيام، ثم قل ما شئت. قال: لك على ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيبر، وغنم ما فيها، وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت أي والله، ولقد أسلمت، وما جئت إلا مسلماً لأخذ مالي خروفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة، فإظهار أملك فهو والله على ما تحب، قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له وتخلق بالطيب، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة، فطاف بها، فلما راوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة، قال: كلا والذي حلفتكم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرر أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولأصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: فقلت عدو الله أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شان. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل المحتاج بفطته واحتياله إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الحندق، وقصدوا المدينة، وتظاهروا وهم في جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان، وقبائل العرب وبنو النضير، وبنو قريظة من اليهود، وتناولوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب للمسلمين، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ رِذَآءُ الْأَبْصَارِ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١٠١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فعرني بما شئت، فقال له رسول الله: خذل عتا إن استطعت فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كائناً،

فإن البلد بلدكم وبه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرهم عليه وأموالهم، وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم، وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتصموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم يكونون بأيديهم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً، قالوا: أشرت بالرأي، ثم أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان بن حرب: وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبار قريش: قد علمتم ودى لكم، وراقى محمداً، وإنه قد بلغنى أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم، فاستمعوه على. قالوا: نعم، قال: اعلموا أن معشر يهود بنى قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه يقولون: إننا قد ندمنا على نقض العهد الذى بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجلاً من أشرفهم، فنسلمهم إليك، فتضرب رقابهم، ثم تكون معك على من بقى منهم، فنستأصلهم، فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود بنى قريظة يلتصون منكم رهائن من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم سئل ما قال لقريش وحذرهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤس بنى غطفان إلى بنى قريظة يقولون لهم: إننا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاعدتوا للقتال حتى نأجر محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه، فأرسلوا يقولون لهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نأجر محمداً، فإننا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تمشروا إلى بلادكم وتتركوا الرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود حق، فأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون: إننا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجائنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا وقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذى ذكره نعيم بن مسعود حق، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمسوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إننا لنقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم، وأرسل عليهم الريح، فنفروا وارتحلوا. وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهداه إلى اليقظة التى عم نفعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء فى اليقظة والتبصر فى الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه والبسها لباس التحفظ أبس عدوه من كبد له وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشى، فمن تدرب بها أمن من الاختلال والغدر والجور والكيد والمكر. وقيل: إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلعاً فى خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور، وكان يث العيون على الرعايا والجوائيس فى البلاد ليقتب على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم الفساد فيقابه بالناديب، والمصلح فيجازه بالإحسان، ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه، وسقطت من القلوب هيئته.

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ليلة من الليالى يطوف يتفقد أحوال المسلمين، فرأى بيتاً من الشعر مضروباً، فلم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع فيه اثنين امرأة، ورأى رجلاً قاعداً، فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله، قال: فما هذا الأئين؟ قال: امرأة تمخض قد أخذها الطلق. قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا، فانطلق عمر والرجل لا يعرفه فجاءه إلى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما: هل لك فى أجر قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت، قال: فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدعج، واتتى بقرن وشحم وجيوب. فجاءت به، فحمل القدر، ومثيت خلفه حتى أتى البيت، فقال: ادخلى إلى المرأة، ثم قال للرجل: اوقد لى ناراً، ففعل، فجعل عمر يتفح النار ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحية حتى أتضجها وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضى الله عنها: بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل، وقال: واخجلنا منك يا أمير المؤمنين أهكلنا

تفعل بنفسك؟ قال: يا أخا العرب: من ولى شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره، فإنه عنها مسئول ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضى الله عنه، وأخذ القدر من على النار وحملها إلى باب البيت، وأخذتها لم كلثوم. وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضى الله عنها للرجل: قم إلى بيتك وكل ما فى البرمة، وفى غد آت إلينا، فلما أصبح جاء، ففجئاً بما أغناه به وانصرف.

وكان رضى الله عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال وإقامة قسطاس العدل وإزاحة أسباب الفساد وإصلاح الأمة يعس بنفسه، ويباشر أمور الرعية سرّاً فى كثير من الليالى، حتى أنه فى ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى فى بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثاً، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبداً أسوداً قدامه إناء فيه مزر وهو يشرب ومعه جماعة، فهم بالدخول من الباب، فلم يقدر من تحصين البيت، فتصور على السطح ونزل إليهم من الدرجة، ومعه الدرة، فلما رآه قاموا، وفتحوا الباب وانهزموا فمسك الأسود، فقال له: يا أمير المؤمنين قد أخطأت وإنى تائب، فاقبل توبتي، فقال: أريد أن أضربك على خطيئتكم. فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت فى واحدة، فسأنت قد أخطأت فى ثلاث: فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وأنت تجسس، وقال تعالى: ﴿وَأَنزِلُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت أنبت من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٤٧]، وأنت دخلت وما سلمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستسبه، واستحسن كلامه.

وله رضى الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

وكان معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى ذلك، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية فى ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه فى حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه، فقال: أنا فلان ابن فلان فتبسم زياد وقال له: أنت تعرف إلى، وأنا أعرف بك منك بنفسك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك وجدتك، وأعرف هذه البردة التى عليك وهى لفلان، وقد أبارك إياها، فهبت الرجل وارتعد، حتى كاد يغشى عليه.

ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم وهو: عبد الملك بن مروان، والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق، واقتضى بأثار ذلك الفريق إلا المنصور الثانى خلفاء بنى العباس ولى الخلافة بعد أخيه السفاح، وهى فى غاية الاضطراب فنصب العيون، وأقام المتطلعين، وبث فى البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والراعى، فاستقامت له الأمور، وذات له الجهات ولقد ابتلى فى خلافته بأقوام نازعوه، وأرادوا خلمه، وتغردوا عليه، وتكاثروا، فلو أن الله تعالى أعانته يتقظه ويتصره ما ثبت له فى الخلافة قدم، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف من انطوى على خلافه فعالجه بإتلافه، وأطلع على عزائم المماندين فقطع رؤوس عاهدهم بأسياقه، وكان بكمال يقظته يتلقى المحذور بدمعه دون رقه، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب، فمن آثار يقظته وقطته ما نقله عنه عقبة الأردى قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتاني، فلما خرج الجند أداني وقال لى: من أنت؟ فقلت: رجل من الأرد، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إنسى لأرى لك هبة وفيك نجاية، وإنى أريدك لأمر وأنا به معنى، فإن كفيته رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين، فقال: اخف نفسك واحضر فى يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم، وحضرت، فلم يترك عنده أحداً، ثم قال لى: أعلم أن بنى عمناء هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتيالهم ولهم شيعنة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والطفاف بلادهم، فخذ معك عيماً من عندى، والطفاف، وكتباً، واذهب حتى تأتى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب، فاقدّم عليه متخشعاً، والكتب على السنة أهل تلك القرية والطفاف من عندهم إليه، فإذا راك، فإنه سيردك ويقول لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاهده وقل له: قد سيرونى سرّاً، وسيروا معي الطافاً وغيماً، وكلما جبهك، وأتكر اصبر عليه، وعاهده، واكتشف باطن امره، قال عقبة: فأخذت كتبه والعيون والالطفاف، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن، فلقيت بالكتب،

فأنكرها ونهرنى وقال: ما أعرف هؤلاء القوم قال عقبة: فلم أنصرف، وعادته القول وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم، وأنا معى الطائفاً، وعيناً، فأنسى، وأخذ الكتب وما كان معى. قال عقبة: فتركته ذلك اليوم، ثم سأله الجواب، فقال: أما كتاب، فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابى إليهم، فافترتهم السلام وأخبرهم أن أبى محمد وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا، قال عقبة: فخرجت من عنده، وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لى المنصور: إنى أريد الحج، فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقانى بنو الحسن وفيهم عبد الله، فأنى أعظمه وأكرمهم وأرفعه، وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله، ونظرت إليه، فتمثل بين يدى، وقف قدماه، فإنه يصرف وجهه عنك، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم أنصرف عنه، وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه وحاده، فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه، فلما فرغوا أمر برفعه، فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال: يا أبا محمد قد علمت أن ما أعطيتى من العهود والمواثيق أنك لا تريدنى بسوء ولا تكيد لى سلطاناً، قال: فانا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبة: فلحظنى المنصور بعينه، فمقت حتى وقفت بين يدى عبد الله بن الحسن، فأعرض عنى، فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلى، فرفع رأسه وملأ عينيه منى ثم وثب حتى جثى بين يدى المنصور وقال: أقتلى يا أمير المؤمنين أقالك الله. فقال له المنصور: لا أقتلنى الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمد وإبراهيم ويستعلم أخبارهما. قال علي الهاشمى صاحب غدائه، دعانى المنصور يوماً فإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقينى، فوالله ما أريد إلا الألفة، ولئن صدقتينى لأصلن رحمه ولأتابعن البر إليه. وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب. وهى تقول: لا أعرف له مكاناً، فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها، فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تلتف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شمس الطيب وصب الماء البارد على وجهها وأن تسقى السويق، ففعلوا بها ذلك، وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقته سألتها عنه، فقالت: لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها: أتعرفين فلانة الحجابة، فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك من بنى سليم قال: صدقت. هى والله امتى ابتعتها بمالى ورزقى يجرى عليها في كل شهر، وكسوة شتائها وصيفها من عندى، سيرتها وأمرتها أن تدخل منازلكم وتجمعكم وتعرف أحوالكم وأخباركم، ثم قال لها: أتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو فى بنى فلان، قال: صدقت هو والله غلامى دفعت إليه مالا، وأمرته أن يتتبع به ما يحتاج إليه من الأمتعة، وأخبرنى أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء، وحوائح، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد بن عبد الله بن الحسن فى بعض الضياع بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحديثه بكل ما أراد. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات
وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

حرف الهمزة: (الأسد) من السباع، والآنثى أسدة، وله أسماء كثيرة، فمن أشهرها: أسامة، والحريث، وقورة، والغضفر، وحيدرة، والليث، والضرغام. ومن كناه: أبو الإبطال، وأبو شبل، وأبو العباس، وهو أنواع: منها ما وجهه وجه إنسان، وشكل جسده كالبقرة، وله قرون سود نحو شيسر، ومنها ما هو أحمر كالغراب وغير ذلك، وتلد أمه قطعة لحم، وتستمر حمرة ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينزع فيه، فتخرج أعضاؤه وتشكل صورته، ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلوقة سبعة أيام، ثم تفتح ويقوم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر، ثم يتكلف الكلب بعد ذلك وله صبر على الجوع والعطش وعندئذ شرف نفس يقال: أنه لا يعاود فريسته، ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء وله فيه كلب وفي ذلك يقول بعضهم:

سأترك حبيبكم من غير بغضي وذلك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعامي رفعت يدي ونفسي تشتهي
وتجتنب الأسود ورود ماءي إذا كان الكلاب يلغى فيه

وإذا أكل نেশ نهشاً، وريقة قليل جداً، لذلك يوصف بالبحر^(١)، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته الإقدام على الأمور، وعدم الاكراهات الغير، ومن جنه: أنه يفر من صوت الديك والسنور، والقط، ويتحير عند رؤية النار. ومن كرمه: أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً. وقيل: أربع عيون تضيء بالليل، عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى.

وروي أنه لما تلا رسول الله ﷺ: ﴿والتجم إذا هوى﴾ [النجم: ١] قال عتبة بن أبي لهب: كبرت برب النجم يعني نفسه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه، فخرج مع أصحابه في عبر إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء، رآه الأسد، فجعلت فرائضه ترتعد، فقالوا له: من أي شيء ترتعد فرائضك^(٢)، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء فقال: إن محمداً دعا عليّ: ووالله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد. ثم وضعوا العشاء، فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم، فحاطوا أنفسهم بمناعمهم، وجعلوه بينهم، وناموا، فجاء الأسد يشهمس وشهمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه، فضغطة ضغطة كانت إياها، فسمع وهو يأخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس. ولبعضهم في الأسد:

عبوس شمس مصلخد مكابد جرى على الأقران للقرن قاهر
برائته شثن وعينه في الدجى كجمر الفضى في وجهه الشر ظاهر
يدبل بأنياب حديد كائنها إذا قلص الأشداق عنها خناجر

قائلة: إذا أقبلت على واد مسيع، قتل: أعوذ بدانيال والجب من شر الأسد^(٣)، وسبب ذلك ما قيل: إن يختصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود، فجعل يأمر بقتل الأطفال، فخافت أم دانيال عليه، فجاءت إلى بشر، فالتقت فيه، فأرسل الله له أسداً يحرسه، وقيل: إن يختصر توهم ذلك في دانيال، فغضى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما، فلم يوذياه، وصارا يصبصان حوله، ويلحسانه، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم استهوى الطعام والشراب، فأوحى الله تعالى إلى أرميا بالشم أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا. قال أرميا: فسرت إلى ذلك الموضع، فلما وقفت على رأس الجب ناديت، فعرفتي فقال: من أرسلك إليّ؟ قلت: أرسلني الله إليك بطعام

(١) البحر: الشئ يكون في القم وغيره.

(٢) القرعة: لحمة عند أنف الكلب في وسط الجنب عند منبض القلب، وهما فريستان ترتعدان عند القرع.

(٣) طلب العوذ لا يكون إلا من الله.

وشراب، فقال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من قصده، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاةً وغفراناً، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كرينا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الخيل عنا. قال: ثم صعد به أرمياء من الجب، وأقام عنده مدة، ثم فارقه ورجع.

وحكى أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مرّ بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام، فسمع منه صوتاً يقول: سبحان من تميز بالقدرة وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء.

وحكى أن إبراهيم بن أدهم كان في سفره ومعه رفقة، فخرج عليهم الأسد، فقال لهم: قولوا اللهم احرمنا بعينك التي لاتنام واحفظك بركتك الذي لايرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله قال: فولى الأسد هارباً. وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام في سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، وهي أول حمى نزلت في الأرض، ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير، فعض فخرج منه الفار، فلما كثر وزاد ضرره، فشكوا ذلك لنوح عليه السلام، فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد، فعض، فخرج منه الهر، فحبب الفار عنهم، ويحرم أكل السبع لنيهيه عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلي به يده لم يقر به سبع، ومراة الذكر منه تحمل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج، وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقر به سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره، وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ما ذكر، وعلاوة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

(الإبل) قيل: ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل. إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن نحررت أشبعت. وفي حديث: «الإبل عز لأهلها والغنم بركة، والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»، وهي من الحيوان العجيب، وإن كان عجيبة قد سقط لكثرة مخالطته الناس، وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل: إن قطاراً كان يبعث حبله دهن، فمرت فارة، فجنبت، فسار معها القطار بواسطة جذبها له، وهي مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]. ولما كانت مراكب البر والبر فيه ما ماله قليل، وما مأواه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل: إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر. وفي الحديث: «لأنسبوا الإبل فلإنها من نفس الله تعالى أى بما يوسع به على الناس». حكاه ابن سيده. والذي يعرف: لأنسبوا الريح فلإنها من نفس الرحمن، قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه، فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله، ويخرج له عند رغائه شقشقة لاتعرف من أى شيء هي من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل: إنه لايتزو لا على أمه ولا على أخته حتى قيل: إن بعض العرب ستر ناقته بثوب ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله، فأكله، ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مراة، ولذلك كثر صبره. وقيل: يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة في العين كحلاً، وفي معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيع، ويحل أكله بالنص والإجماع، وأما تحريم يعقوب عليه السلام أكلها فباجتهاد منه، وذلك أنه كان يسكن البوادي، فاشتكى عرق النساء، فلم يجد ما هو يلائمه إلا ترك أكل لحومها، فلذلك حرّمها. وأما انتقاض الرضوء بكل لحمة، فاختلف العلماء في ذلك، فذهب الأكثرون إلى أنه لاينقض، وعليه الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي، وابن عباس، وأبو النرداء، وأبو طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة، وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، وخالف في ذلك أحمد وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة، واختاره البيهقي، وهو مذهب الشافعي القديم.

خواصه: قال ابن زهير وغيره: أكله يزيد في الباه وفي الإنعاط بعد الجماع، ويوله يفيق السكران، ووبره إذا أحرق وذرّ على دم سائل قطعه، وقراة إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه.

(الأرضة) يفتح الهمة والراء، دوية صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال القزويني: إذا أتى على الأرض سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال: إنها الدابة التي دلت الجن على موت سليمان عليه الصلاة والسلام، ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفل إلى أعلاه، وله في إحدى جهاته باب مربع، ومنه تعلم الأوائل وضع التواويس لموتاهن، والنمل عدوها، وهو أصغر منها، فيأتي من خلفها ويحتلها ويمشي بها إلى جحره لأنه لو أتاها مستقبلاً لا يغلبها.

(الأرنب) حيوان شب العناق قصير الجدين طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى وله شدة شيق وربما تسد وهي حبلى، ويكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى. ومن عجائبا أنها تنام وعيناها مفتوحتان، فيأتي الصياد، فيظنها مستيقظة، قيل: من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج أو رآه عند قيامه من نومه، واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم، ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان، وتغفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران، وعند ولادتها يتحل شعرها وهي تحضن الأولاد إلى عشرين يوماً، ومن طبعه أنه أبله، وفيه قوة وشدة وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالساكنين، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة، وعند سفاده تدبر له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فلأنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها.

قائلة: ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقاً له اصطاد أرنباً وله أنثيان وذكر وفرج. وقيل: انشققت الأرنب غمرة فاختلسها الثعلب، فأكلمها، فانطلقا يتخاضمان إلى الضب، فقال الأرنب: يا أبا حبل، فقال: سمياً دعوت. قالت: أيتناك لتختصم قال: عادلاً حكيماً. قالت: فاعرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت غمرة حلوة قال: فكلها. قالت: اختلسها الثعلب. قال: لنفسه بنى الخير. قالت: فلفطته. قال: بحق أخذت، قالت: فلفطمني. قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيت، فذهبت أقواله أمثالاً.

ومن ذلك ما حكى أن عدى بن أرطأة أنى شريحاً القاضي في مجلس حكمه، فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الخائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاء والبنين، قال: شرط أهلها أن لا أخرجها من بيتهم، قال: أوف لهم بالشرط. قال: فأنأ أريد الخرج. قال: الشرط أمك. قال: أريد أن أذهب. قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاسق: من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش المعارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر، ولدت ذكراً، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحري من السموم فلا يحل أكله.

(الأفمى) الأنثى من الحيات والذكر أفعوان، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال، ويصرف بالشجاع، والأسود، وهو أشر الحيات وأشرها حيات وأفاعى سجستان، ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانسدت جبهته.

وحكى أنها نهشت ناقة وفصلها يرضع، فمات قبل أمه، وقيل: لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له: يا شبيب أدخلت سجستان؟ فقال له: نعم. قال: صف لى أساعياها قال يا أمير المؤمنين: هي دقاق الأعناق، صفار الأذنان، مقلصة الرؤوس، رقص برش، كأنها كسين أعلام الخيرات، كبارهن ختوف، وصفارهن سيوف، وقيل: إنها تندفن في التراب أربعة أشهر في البرد، ثم تخرج، وقد أظلمت عينها فتمر بشجر الزاياتج وهو الشمر الأخضر، فتحك عينيه بها، فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك، وقال الزمخشري: إذا عمت الأفمى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن تأتي البساتين تلقى نفسها على هذه الشجرة، وتحك عينيه بها فتبصر، وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان وإذا قلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام، وهي أعدى عدو للإنسان، وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين، فجعلت تضرب به الحجارة ميماً ويساراً حتى كسرت القرنين، وابتلعت وقرنيه والله تعالى أعلم، وقيل: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من اللز، وقيل: إن بالحيشة حيات لها أجنحة تطير بها، وقيل: إن جلدها ينسلخ عنها في كل سنة مرة وقيل:

إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهى تبيض على عدد أضلاعها، أى ثلاثين بيضة، فيجتمع عليها النمل، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً. ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ولا ترده ولكنها إذا شممت رائحة الحمر، فلا تكاد تصبر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكوت، فتمرضت للتلل، والذكر لا يقيم فى الموضع، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأى جحر وجدته دخلت فيه، وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور وإذا قلعت عادت. ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان وتضرب بالثار وتقرب منها، وتحب اللبن حياً شديداً، وإذا دخلت بصدرها فى جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه، ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أطفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكى عمر بن يحيى العلوى قال: كنا فى طريق مكة، فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق أن العرب سرقوا منا، فطار جمال على أحدها ذلك الرجل قال: ثم بعد أيام جمعنا المقادير، فوجدته قد برئ، فسلأناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذوني جعلوني فى أواخر بيوتهم، فكانت فى حالة أتمنى فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذ أتوا يوماً بأفأصى اصطادوها وقطروا رؤوسها وأذناها وشووها بعد ذلك، فقلت فى نفسى: هؤلاء اعتادوها، فلا تضرهم، فلملئ إن أكلت منها مت فاسترح، فاستلعمتهم، فأطعموني واحدة، فلما استقرت فى بطنى أخذنى النوم، فمنت نوماً ثقيلاً، ثم استيقظت، وقد عرفت عرقاً شديداً، واندفعت طبيعتى نحو مائة مرة، فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمر، وقد انقطع الألم، فطلبت منهم ما كؤلاً، فأكلت، وأقمت عندهم أياماً، فلما نشطت، وثقت من نفسى بالحركة أخذت فى الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

قائدة: قيل إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى، وإنما وجد فى زمانه، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً فى بعض مترجاته إذ جهاته حية، فانسابت بين يديه، وتمرغت وصارت تنقلب مثل الذى يشكى، فأراد بعض الجنود قتلها، فمنعهم الملك، ثم قال لهم: انظروا أمرها، فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذى تريده، قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال: فتظنوا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فخنسها بعضهم برمح، فقتلها، وتركوها رجعوا، فأخبروا الملك بذلك، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفى فمها بزر فشرته بين يدي الملك، وذهبت، فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا أجعلوه فى الأرض لننظر ما يكون من أمره قال: ففعلوا ذلك، فطلع منه الريحان قال: فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال: وكان به زكام، فشمه فبرئ.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالا، ولم يكن عنده ما يرزئهم به، فاعتم لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً فى ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت فى سقف آخر قال: فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذى خرجت منه. فلما رآه وجد كوة فنظر فى داخلها، فإذا هى مطمورة، فدخلها، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار، فأمر بإخراجها وإنفاقه على عسكره.

ومن الطغاف ما اتفق له أيضاً: أنه كان بثلث البلد خياط أطروش^(١)، وكان الملك الذى قبله قد أودع عنده دمية مال قال، فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذى يخطط للملوك قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الدمية فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له: إن فلاناً الملك لم يدع عندى سوى اثني عشر صندوقاً، ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها، فأحضرها فأخضعها لعماد الدولة، ووسع بها على جنده، وتعجب من هاتين القهيبتين فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له. وأمر النبى ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنثر ثلاث مرات، وقيل: ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت، فالإنذار لها متعين. وفى الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فليقتضه، ومن أوى إلى فراشه فليقتله».

الخواص: يقال إن دمها يجلو البصر وقلها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر وضررها إذا علق على من به وجع الفرس سكن الآمين للآمين والأيسر للأيسر، ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة.

(الأنثى) وتسميه الرواة الأنثية لأنه من طيور الواجب عندهم وهو طير له لون حسن غناؤه الفاكهة وماز: الانهار والبساتين والغياض وله صوت حسن كالقمرى.

(١) أطروش: أصم.

(الأوز) طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: فى جوفه حصاة تنفع المبطون ودعنه ينفع من ذات الجنب وداء الثعلب إذا طلى به، ولسانه ينفع لقطار البول وغذاؤه جيد إلا أنه بطئ الهضم.

(الأيل) بتشديد الياء المكسورة، ذكر الوعل، وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش وإذا خاف من الصيد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرر بذلك، وإذا لسته حية ذهب إلى البحر فاكل السرطان فيشفي.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك، ولذلك أكثر ما يكون بقرق البحر والصيدون يعرفون ذلك، فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتى لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسته، فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك، ثم تمجد تلك الدموع فتصير كالشمع، فتؤخذ وتجعل دواء للسم، وهو الذى يسمى بالبتزهر الحيوانى، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع فى فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين ويبتنان فى أول الأمر مستقيمين، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ولا يزال يزيد إلى ست سنين، فحينئذ يصيران كسختين، ثم بعد ذلك يلقيهما فى كل سنة مرة، ثم يبتنان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصيفر والأصوات المطرية، فإنه يحب الطرب والصيدون يشغلونه بذلك ويأتونه من ورائه، فإذا رآه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت وإحليله من عصب لا عظم فيه ولا لحم وهو من الحيوان الذى يزيد فى السن، فإذا حصل له ذلك فر من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله.

الخواص: إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التى فيه، وإذا أحرق واستاك به الذى به صفرة الأسنان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شئ منه ذهب نومه، ومن خواصه: أن دمه يفتت الحصاة التى بالمثانة شرباً، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرف الباء الموحدة: (باز) كتبه أبو الأشعث وهو من أشد الحيوانات تكبراً، وأضيقها خلقاً، قال القزوينى: إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها من جنس الحداة أو الشواهيين، ولأجل ذلك تختلف ألوانها، وهو أصناف منها البارى، والباسق، والشاهين، والبيدق، والصقر، والبارى آخرها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش، فلذلك لا يفرق الماء والأشجار المتسعة والظل والظليل، وهو خفيف الجناح سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه، لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قل ريشه، واحمرت عيناه مع حدة فيها. قال الشاعر:

لو استقصاه المرء فى إدلاجيه بعينه كفتته عن سراجيه

ودونه الأرق الأحمر العينين والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمودة: أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجوف، غليظ الذراعين مع قصر فيها.

لطيفة: من عجب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد، فأرسل باراً، فغاب قليلاً ثم أتى وفى فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك، فقال مقاتل يا أمير المؤمنين: رويتنا عن جلدك ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: إن الجوف معمور بأسم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ویش، فأجار مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

(باله) سمكة عظيمة. قال القزوينى: يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره: خمسون، ويقال لها: العنبر وهى تظهر فى بعض الأحيان لأصحاب المراكب، فإذا رأوها طبلوا بالطبول حتى تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتها أغرقتهم، فإذا بقيت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذننها ولا خلاص لها منها، فتنتزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك، فيقلدها الريح إلى الساحل، فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر.

(بيغاء) هى أصناف كثيرة منها الأخضر والرمادى والأصفر والأبيض يتخلها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها ونفاستها.

حكى: أنه أهدى لمز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمتقار ويقال إن نوعاً منها يقرأ القرآن.

الخواص: من أكل لسانها تصفح وإذا جفف دمها وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة وزيلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر.

(بجع) طائر أبيض اللون يميل إلى الصفرة طويل المتقار كبير البطن أكثر أكله السمك.

(بج) طائر لطيف يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط.

(براق) هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ وهو دون البغل وفوق الحمار أبيض اللون.

(برغوث) نوع من الخيل دون الفرس العربى، وفى الحديث أن النبي ﷺ ركبها وكذا عمر رضى الله تعالى عنه فلما ركب عمر جعل يتخلخل به فتزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علم الله من علمك هذه الخيلاء ولم يركب برغوثاً قبله ولا بعده وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه. وأشد السراج الوراق فى ذم البراذين يقول:

لصاحب الأحبـاس برذونـة	بعميدة العهد عن القـرط
إذا رأـت خيـلاً على مـريرط	تقول سـبحـانك يا مـعطى
تمشى إلى خلف إذا مـا مشـت	كأنما تكـتب بالقـبطى

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تميل أبداً وزيله يخرج المشيمة والجنين الميت وإذا جفف وفر منه على من به الرعاف انقطع رعاؤه وكذا الجرح.

(برغوث) تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر وأبو عدى وأبو وثاب وهو يشب إلى وراه.

حكى: أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبيض ويفرخ وأصله أولاً من التراب لاسمها فى الامكان المظلمة وسلطانه فى أواخر الشتاء وأول فصل الربيع، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخروطوم، وقال بعضهم ديبها من تحت أشد من عضها وليس ذلك بديب ولكن البرغوث خبيث يستلقى على ظهره ويرفع قوائمه فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشى تحت جنبه وكان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يغلى ثوبه فيلتقط البراغيث ويدع القمل، فقال له أنس فى ذلك فقال: أبداً بالفرسان وأكر على الرجالة، وأشد أعرايى:

ليل البراغيث أعينى وأنصبنى	لا يبارك الله فى ليل البراغيث
كأنهن وجلدى إذ خلون به	أيتام سوء أغاروا فى المواريث

وقال أبو الرماح الأردى:

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن	بوادى النضى ليلى على يطول
تورقنى حـدب قـصـار أدلة	وإن الذى يسؤذبنه لندليل
إذا جلت بعض الليل منهـن جـولة	تعلقن فى رجلى حيث أجـول
إذا ما قتلناهن أضـعفن كـثرة	علينا ولا ينـعى لهن قـتـيل
ألا ليت شمـرى هل ابـيقن لـيلة	وليس لبرغـسوت على سـبـيل

وقال ابن أبيك الصفى:

أشكو إلى الرحمن ما نالنى	من البراغيث الخفاف الثقـال
تـعـمـمـوا بالليل ما دروا	أنى تقشعت بطيف الخـسـيال

ولا يسب البرغوث لما ورد أن النبي ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً فقال: لا تسبه فإنه أيقظ نبياً إلى صلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوث من يقبض روحه فقال: أله نفس؟ قيل: نعم. قال: الله يتوفى الأنفس حين موتها.

ولقد شكّا عامل إسرائيلية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ: ﴿وَمَا تَأْتِي
تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١٢] الآية. وقال حنين بن إسحاق: الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت
فتدخن به في البيت فإنها تفر من ذلك. وقيل يرش البيت بماء السذاب، وقيل: مثاق المراكب يحرق في البيت مع قشور
التارنج.

(بعوض) قيل: إنه على خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء منه فإن للفيل أربعة أرجل وللبعوض ستة ويزيد عليه بأربعة
أجنحة وله خرطوم مجوف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم وما
ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتبع ساء العروق فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم وعنده شره في
مصه حتى قيل إنه لا يمض شيئاً فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من
ذوات الأربع فيتركه طريحاً. وقال الجاحظ: من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً وأن ذلك الدم غذاء لها وأنها
إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بملاط شديدة التفت رهيبة الحد
لانكرت فنباحاً من رزقها على ضعفها بقوته وقدرته. قال بعضهم:

أقول لنال البستان طوي	لميشك لم تشك فيه البعوض
يملله فليس له قسار	ويشخنه فليس له نهوس
حمام قمره وطنيه أن	يسيت وعينه فيها غموض
كذلك حين تهدي بالأغصاني	تكر وفي مامعك المروض

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياها أن جعل الله فيها قوة الحافظة والفكر وحاسة اللمس والبصر والشم ومنفذ
الغذاء وجوفاً وعروقاً ومخاً وعظاماً فنباحاً من قدره فهدى ولم يترك شيئاً سدى، وقال الزمخشري في تفسير سورة
البقرة في ذلك:

يا من يرى مد البعوض جناحها	في ظلمة الليل البهيم الأجل
ويرى مناط عروقها في نحرها	والخ من تلك العظام النحل
ويرى خريز الدم في أوداجها	مستقلاً من مفصل في مفصل
ويرى وصول غدا الجنين بيطنها	في ظلمة الأحشا بنير تمقل
ويرى مكان الوطء من أقدامها	في سيرها وحشيشها المستعجل
ويرى ويسمع حس ما هو دونها	في قلاع بحر مظلم متحول
استن على بتوبة محمو بها	ما كان منى في الزمان الأول

(بغل) معروف وكتبه أبو قموص وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة وهو مركب من الفرس والحمار ولذلك صار له
صلاة الحمار وعظم الحيل وهو عقيم لا نسل له.

روى ابن عسار في تاريخ دمشق عن علي كرم الله وجهه أنها كانت تتنازل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت
تسرع في نقل الحطب لنار التجنيق فقطع الله نسلها وهو أثر الطباع لأنه تجاهبه الأعراق لتضادة الأخلاق المتباينة
والعناصر المتباينة، ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار.

(الخواص): يقال إن حافر البطة السوداء ينفع لبرد الفأر إذا بخر به البيت وإذا سحق حافره بعد حرقه وغلط بدهن
الأس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره وزيله إذا شمه المزكوم وال ركاه على ما ذكر.

(بقر) هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان وهو من أنواع الجواميس وهي أكثر البائت وكل حيوان إنثاه
أرق أصواتاً من ذكره إلا البقر وأنثاه يضرها الفعل في السنة مرة وإذا اشتد شبقها تركت المرعى وذهبت وإذا طلع عليها

الفصل الثوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابه ذكره . قال المسعودى : رأيت بالرى البقر تحمل كالبعير فترك على ركبتيها ثم تنور بالحمل .

(عجيبه) حكى فى الاحياء أن شخصاً كان له بقره وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه ، فجاء السيل فى بعض الأودية وهى واقفة ترعى فمر عليها ففرقتها ، فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بني : يا أبت لا تندبها فإن المياه التى كنا نخلطها بلبنها اجتمعت ففرقتها .

قائلة: ذكر ابن الفضل فى كتابه عن وهب بن منبه أنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة ، فخلق الله تعالى ملكاً فى نهاية العظم والقوة وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبىه فدخل وأخرج يداً من المشرق وبدأ من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء فى وسطها سبعة آلاف ثقب فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمى الملك ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له كيوان له أربعة آلاف عين ومثلها أنوف وأذان وأفواه وألسنة وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام ، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقروته ثم لم يكن للشور قرار فخلق الله تعالى حوتاً يقال له يهومت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ثم جعل الحوت على ماء ثم جعل الماء على الهواء ثم جعل الهواء على ماء أيضاً ثم جعل الماء على الثرى ، ثم جعل الثرى على الظلمة ثم انقطع علم الخلاق .

الحواص: شحم البقر إذا خلط بزرنج أحمر طرد العقارب وإذا طلى به إناء اجتمعت البراغيث إليه وإذا شرب لبنها زاد فى الإنعاط وقرنها إذا سحق وجعل فى طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ، وموارثها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء وإذا طلى به على الأثر الأسود فى البدن أزاله ، وخصية الفحل إذا جفت وسحقت وجعلت فى عسل وأكلت فإنها تزيد فى الباه وشعرها إذا أحرق واستيك به تنفع من وجع الأسنان وإذا خلط مع السكتك ين وشرب نفع من الطحال على ما ذكره .

(بومة) وكتبها أم الخراب وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير فى وكرة وتاكل أفراخه ولعاده الطيور لها يجعلها الصيادون فى أشراكهم حتى يقع عليها الطير . ونقل المسعودى عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسنة وهى أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها .

الحواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها والأخرى مفتوحة فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فم خاتم ، فمن لبسه لم ينم ما دام فى يده وعكسها المغموضة ، وإذا أردت معرفة ذلك فالحقهما فى الماء ، فالراسية للذوم والطافية للبقعة ، وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهى نائمة تحدثت بجميع ما فعلته فى نومها .

(بوقير) طير أبيض يأتى منه فى كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد يقال له جبل الطير ، فيه كوة ، فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شئ فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب ، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب ، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدية وأهل تلك الناحية تعرف ذلك ، وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ .

حرف التاء: (تمساح) حيوان عجيب على صورة الضب له فم واسع وفيه ستون ناباً ، وقيل ثمانون ، وبين كل نابين سن صغيرة وهى أنثى فى ذكر إذا أطبق فمه على شئ لا يفلته حتى يخلعه من موضعه وله لسان طويل وظاهر كالسحفة ولا يعمل الحديد فيه وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا ببيل مصر . وقال المسافرون : إنه يوجد ببحر الهند وطوله فى الغالب ستة أذرع إلى عشرة فى عرض ذراعين أو ذراع ، ويقم فى البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك فى زمن الشتاء ويتنوط من فيه فى الغالب ، ويحصل فى فيه الدود فيؤذبه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيمسك الله تعالى له طيراً يقال له القطقاط فيدخل فى فيه فيأكل ما فيه من الدود فيحصل له راحة فعند ذلك يطبق فاه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى فى جناحيه كريشة الفصاد فيؤله فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاء مجازاة التمساح ، وزعم الباحثون عن أحوال التمساح أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد

ستين مرة بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً ويعيش ستين سنة، فإذا أفرغ فما صعد الجبل صار ورلاً وما نزل البحر صار تمساحاً، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدرة، وإذا أراد السفاد أخذ أثناءه وطلع بها إلى البر وقلعها وجامعها، فإذا قضى حاجته قلبها ثانياً لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت، وما ذلك إلا لأنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته، وقد سلب الله تعالى عليه أضعف الحيوان وهو كلب الماء يقال إنه يتلطف بالطين ويغافل التماسح ويقذف بنفسه في فيه فينتله لتعومته فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مرقا بطنه فيقتله.

الحواص: عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صم نفعه.

(تتبن) ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق وجسده كالليل أحمر العينين لهما بريق واسع الفم والجوف يتلح الحيوآن، وأول أمره يكون حية متمردة ثم تغضى وتتسلط على حيوان البر فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر فترقب فيه مدة ثم تتسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها في النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج.

وروي ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يسلب الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين نتيئاً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تيناً نفع على الأرض ما نبت فيها خضراء».

حرف التاء: (ثعلب) وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل في طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت ويتغنى بطنه ويرفع قوامه حتى يظن أنه مات فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده، وحيلته هذه لا تمت على كلب الصيد. ومن حيلته أنه إذا تعرض للقتل فنش شوكه فيسلب^(١) هو عليه فيلم شوكه فيقبض على مرقا بطنه ويأكله وسلحه أثن من سلح الحبارى.

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلط عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقبها في الماء ويخرج وفروه أدنى الفراء وفيه الأبيض والرمادي وغير ذلك، وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور الساماني ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقتهما.

لطيفة: ذكر ابن الجوزي في آخر كتاب (الأذكياء) والحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فتم عليه الذئب فقال الأسد: إذا حضر فأعلمني، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبر بما قاله الذئب فقال الأسد: أين كنت يا أبا الغوارس؟ قال: كنت أطلب لك الدواء. قال: وأى شئ أصبت؟ قال: قيل لى خورة في عرقوب أبي جعد. قال: فأضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدماه ولم يجد شيئاً فخرج ودمه يسيل على رجله واتسل الثعلب فمر به الذئب فناداه: يا صاحب الحنف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأسمانات. وقيل: خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش وضياً وزغالا ثم جلسوا يتشمون فقال الأسد للذئب: أقسم علينا فقال: حمار الوحش لى والغزال لى الحمرث والضب للثعلب فضر به الأسد في رأسه فرضخا فقال الثعلب: أنا أقسم حمار الوحش لى الحمرث يتغذى به والغزال لى الحمرث يتعشى به والضب لى الحمرث يتنقل به فيما بين ذلك فقال له الأسد: لله درك من فرضى، ما أعلمك بالفرائض من علمك هذا؟ قال: علمنى التاج الأحمر الذى ألبسته هذا، وأشار إلى الذئب.

وحكى: أن الثعلب مر في السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً فقال له: أما تنزل نصلى جماعة؟ فقال: إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرط وولى هارباً فناداه: أما تأتى لنصلى؟ فقال: قد انتقض وضوئى فاصبر حتى أجد لى وضوءاً وأرجع.

ومن العجيب في قسمة الأوراق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى

(١) يسلب: يخرج ما في بطنه من البراز.

فياكلها والأقوى تصيد العصفور والعصفور يصيد الجراد والجراد يصيد الزنابير والزنابير تصيد النحل والنحل تصيد الذباب والذباب يصيد البعوض والبعوض يصيد النمل والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ما صنع .

الخواص: رأسه إذا نازك في برج حمام حرب الحمام منه ونابه يشد على الصبي يحسن خلقه ومرارته تجعل منها في أنف المصروع يبرأ وحمه ينفع من اللقوة والجذام وخصيته تشد على الصبي تنبت أسنانه وفروه أنفع شئ للمربوط ودمه إذا جعل على رأس اقرب نبت شجرة إذا كان دون بلوغ وطحاله يشد على من به رجيع الطحال يبرأ .

(ثعبان) هو الكبير من الحيات ذكر أو أنثى وهو عجيب الشأن في هلاك بنى آدم يلتوى على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عذو إلا النمس ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر .

لطفة: قيل إن عبد الله بن جعدان كان في ابتداء أمره صعلوكاً وكان شريفاً يفتك ويقتل وكان أبوه يعقل عنه فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهية الثعبان فلما منه وقال لعله يشب على فيقتلني وأستريح ، قال : فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب وعيناً ياقوتان ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم وإذا بهم رجال من جرهم وفي وسط البيت كوم من الباقوت الأحمر والزمرد والذهب والفضة واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغاثهم ورجع فلم يدر مكان الشق قال رسول الله ﷺ : «لقد كنت أستظل بجففة عند عبد الله بن جعدان من الهجير ، قالت عائشة : يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال : لا لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» .

حرف الجليم: (جراد) حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة وإنما يكون هائماً هارباً وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضرها بلذنه فتفرج له فيلقى بيضه فيها وله ستة أرجل وطرفاً أرجله كالمشاش وهو ألوان عديدة وفيه خلقه عشرة من الجبابرة وجه فرس ، وعينا فيل ، وعنت ثور ، وقرنا إبل ، وصدر أسد ، ويطعن عقرب ، وجناحا نسر ، وفخذاً جمل ، ورجلا نعامة ، وذنب حية ، وهو من الحيوان الذي يتقاد إلى رئيسه كالعسكري إذا ظعن أميره يتابع خلفه ، وفي الحديث أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالبرائة نحن جند الله الأكبر ولنا تسعة وتسعون بيضة ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها فقال عليه الصلاة والسلام : «اللهم اقلل كبراه وأمت صغارها وأشد بيضها وسد أقواها عن مزارع المسلمين وعن معاشهم إنك سميع الدعاء» . قال : فجاء جبريل فقال : إنه قد استجب لك في بعضها وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى خلق ألف أمة ، ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه . قيل كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد وقلوب الشجر وكان يقول من أئتم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه ، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول .

(جرو) بكسر الجيم وفتحها وضمها وهو الصغير من أولاد الكلاب والسياب ، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه فأنخر ، قال : فلقىه النبي ﷺ بعد ذلك فقال : ما أخرت عن وعدي فقال : ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب فأمر بقتلها ، وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولقظها أن جرواً دخل تحت سرير في بيته ﷺ فمكث هناك ، فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي قال : لعله حدث في البيت شئ فخرج للمسجد فنزل عليه الوحي قالت خولة فقممت البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجبية: حكى أن رجلاً لم يولد له ولد فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك وقالت : يؤاخذك الله بذلك فقال : لو أخذ لفعل في يوم كذا وضار بعدد أفعاله لها فقالت له إن صامك لم يمتلئ ولو امتلأ أخذك قال : فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلتهما وطرده الجرو قال : فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فأتوا إلى نبي لهم فأخبروه بذلك فقال : ألهما لعبة كان يلعبان بها؟ قال : جرو كلب . قال : اتقني به فأتاه به فجعل خافه بين يديه ثم قال له أنصب خلقه فأى بيت دخله ادخل معه فإن أولادك فيه قال : فجعل الجرو يجوب الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متفرقان بدمهما وهو قائم يحفر لهما مكاناً يدفنهما فيه فأسكوه وأثوا به أنبيهم فأمر بصلبه فلما رآته زوجته على الخشبة قالت : ألم أحذرك من هذا اليوم تقول ما

(١) قممت : كنت .

تقول الآن امتلا صاعك وسيأتى الكلام على الكلب فى حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

(جمل) دوية معروفة تسمى أبا جمران والزعقوق بعض البهائم فى وجهها قهقر مت وهو أكبر من الخنفساء شديد السواد فى بطنه لون حمرة للذكر قرنان يوجد كثيراً فى مراح البقر والجاموس قيل : إنه يتولد من اختلاهما ومن شأنه جمع الروث وادخاره ومن عجب أمره أنه إذا شم الورد مات ويعيش بعوده للروث وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار وله ستة أرجل ومنام مرتفع جداً وهو يمشى القهقري ، ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يغطو تبعه ليأكل من رجليه وذلك من شدة شهوته للغائط .

حرف الحاء : (حجل) طير فوق الحمامة أغبر اللون أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر وهو صفنان لمجدي وتهامى ، النجدى أغبر والتهامى أبيض وله شدة الطيران وإذا تقاتل ذكران تبع الأثنى الغالب وله شدة شيق وأفرأخه تخرج من البيض كاسية ويعمر فى الغالب عشرين سنة وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحفضه ، ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التى باضته ، ومن طبعه أنه يخدع غيره فى قرقرته ولذلك يتخذ الصيادون فى أشراكهم .

غريبة : قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سباطه بحجلتين مشويتين فلما رآها ضحك فقال : مم تضحك؟ قال : كنت أقطع الطريق فى عفوان شبلى فمر بى تاجر فأخذته فلما أردت قتله تضرع إلى فلم أقتله فلما علم أنه لا بد لى من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقرتنا فقال : اشهدا لى أنه قاتلى ظلماً فقتلته ، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حقه فى استشهاده بهما فقال أبو نصر والله لقد شهدتا عليك عند من أقادك بالرجل ثم أمر به ففصرت عنقه .

الخواص : لحمها جيد معتدل الهضم ومرارتها تنفع الغشاوة فى العين وإذا سعط بها إنسان فى كل شهر مرة جاد عنه وقل نسيانه وقوى بصره .

(حداة) بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة أنس الطير تبيض ويبيضين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً ومن ألوانها الأسود والرمادى ، وهى لا تصيد إلا خطافاً وفى طبعها أنها تتقف فى الطيران وهى أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاءت لا تأكل أفرأخ جارها ويقال إنها طرشاء وفى طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء وهى سنة ذكر وسنة أنثى كالأرنب .

عجيبة : روى الحافظ النسفى فى فضائل الأعمال أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء فى زمانه قال : أصابنى خصاصة فجئت إلى بعض إخوانى فأخبرته بأمرى فرأيت فى وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت : يا سامع الأصوات يا مجيب الدعوات يا قاضى الحاجات اكفى بحلالك عن حرامك واغنى بفضلك عن سواك ، قال : فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقرى فإذا بحداة قد طرحت كيساً أحمر فقمت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً وجوهره ملفوفة فى قطن قال فأنجبرت بذلك واشترت لى عصاراً وتزوجت .

الخواص : مرارتها تخفف فى الظل وتنع فى إناء زجاج ، فمن لسع وقطر منها فى ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أسبال أبرته ودمسها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

(حرياء) دوية صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس العجل . إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت ، ولها أربعة أرجل ومنام كهية الجمل ولها كنى كثيرة منها أم قرة ، ويقال لها جمل اليهود وهى أبداً تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها . ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوى فى حلقها ، فذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتلعه ، والأثنى من هذا النوع تسمى أم حيين ويقال إن الصبيان ينادونها أم حيين انشرى بردك إن الأمير ناظر إليك وضارب بسوطه جنيك ، فإذا رادوا عليها نشرت جناحيها وانتصب على رجليها فإذا اردادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة ، وإذا مشت

تطافئ براسها وتتلون ألواناً ولذا يقال يلتون كالحرياء .

(حمام أهلي) معروف ليس في الحيوان من يتزو على غير جنسه إلا هو والفرس، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً وكتيته أبو محمود وأبو جحش وغير ذلك، وهو أنواع، فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة، ومنه ما هو بضد ذلك، ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة: في الحديث عن النبي ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماماً أسود فكلمه فقال: ما اسمك؟ فقال: يزيد من شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حماماً كلها لا يركبها إلا نبي ولم يبق من الأنبياء غيرك، وكنت أتوقعك لتركني وأنا عند يهودي يجيع بطني ويضرب ظهري، وكنت أعثر به عمداً فسماه النبي ﷺ يعفوراً وقال له: أنتهي الإنان؟ قال: لا . وكان ﷺ يركبه في حوائجه وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب يرأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضي حاجته، فلما مات النبي ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبي الهيثم فتردى فيها جزعاً على النبي ﷺ فكانت قبره وقيل هذا الحديث منكر، وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام، وللناس في ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض . فمن مدحه أن أبا صفوان وجد ركباً على حمام قليل له في ذلك فقال: عير هي من نسل الأكراد يحمل الرجل ويبلغ العقبة ويمسح أن أكون جباراً في الأرض . وقال آخر: أقل الدواب مؤنة وأكثرها معونة وأخفها مهوى وأقربها مرتماً . وكان حمام أبي يسارة مثلاً في الصحة والقوة وهو حمام أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة . وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمام ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال: لا تركب الحمام فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك وإن كان يليداً أتعب رجلك وقيل: ما ينبغي لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال . وقال أعرابي الحمام بنس المطية إن أوقفته أدلى وإن تركته ولي: كثير الروث قليل الغوث سريع إلى الفرارة بطئ في الغارة لا توقى به الدماء ولا تجر به النساء ولا يحلب في الإناء، قال الزمخشري:

إن الحمام ومن فوقه حمامان شرهما راكب

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد .

قيل: كان لرجل بالبادية حمام وكتب وديك فالديك يوقفه للصلاة والكلب يحرسه إذا نام والحمام يحمل أثنائه إذا رحل . قال: فجاه الثعلب فأكل الديك فقال: عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عسى أن يكون خيراً، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمام فقال عسى أن يكون خيراً، قال: ثم إن جيرانه من الحى أغير عليهم فأتخذوا فأصبح ينتظر إلى منازلهم وقد خلت قليل لهم إنما أخذوا بأصوات دوابهم فقال: إنما كانت الحيرة في هلاك ما عندي فمن عرف لطف الله رضى بفعله .

(حمام) هو أنواع كثيرة والكلام في الذي ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما يرى وهو الذي يوجد في القرى والآخر أهلي، وهو أنواع وأشكال، فمنه الزواعب والمراعيش والشداد والغلاب والنسوب، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان في مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار، ومنه من يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أطير منه، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعترى الحمام إذا رأى الأسد والشاة إذا رأت الذئب والفأر إذا رأى الهر، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ويجب الملاعبة والتعبيل ويسفد لتمام أربعة أشهر ويحمل أربعة عشر يوماً ويبيض بيضتين ويحضن عشرين يوماً ويخرج من إحدى البيضتين ذكر والأخرى أنثى واتخاذها في البيوت لا بأس به، غير أنه لا يجوز تطييرها والاستئغال بها والارتقاء بها على الأسطحه وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: «شيطان يتبع شيطانه حين رأى شخصاً يتبع حمامه»، فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها . قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام في بيوتكم فإنها تلهي الجن عن صبيانكم واللعب بها من عمل قوم لوط» . وقال النخعي: من لعب بالحمام لم يميت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شيء أبه من الحمام، فإنه تؤخذ أفراسه، فتذبح في مكان ثم يعود في ذلك المكان ويبيض فيه ويفرخ .

وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تستباح بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره، وهو الهادر الذي جاور الغاية. قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ولو حدثت أن بردونا أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمراً، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنائير، والفرخ بعشرين، فمن كان له روج منه قام في الغلة مقام ضيعة وأصحابه يتنون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أتى.

الخواص: دمه ينفع الجسرات العارضة للمعين والغشاوة، ويقطع الرعاف ويبرئ حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وذيل الأحمر منه ينفع للسع المقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصاة.

حرف الحاء: (الخطاف) أنواع كثيرة، فمنه نوع دون العصفور رمادي اللون يسكن ساحل البحر، ومنه ما لونه أخضر، وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يآلف الجبال ونوع أصفر يآلف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبايل ويقال: إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة، فخلق الله له هذا الطير يؤنسه، فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت، وهي تبنى بيتها في أعلى مكان بالبيت وتحكم بيتها وتطينه، فإن لم تجد الطين نعتت إلى البحر فتمرغت في التراب والماء وأتت فطنته، وهي لا تزبل داخله بل على حافته أو خارجاً عنه وعنده ربح كثير لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ولا يتلصص منهم شيئاً، ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كن راهداً فيمّا حوته يد الورى تبقى إلى كل الأثام حبيباً
وانظر إلى الخطاف حرم رادهم أضحي مقيماً في البيوت ريباً

ومن شأنه إنه لا يفرح في عش عتيق بل يجده له عشاً، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراعه بالزعفران، فينعب، فيأتى بحجر اليرقان، ويلقيه في عشه لئومه أن اليرقان حصل لأولاده وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله. ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتمتع فيها، فيقن من غشوته ويفتح عينه.

لطفية: قيل: إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافه، وراودها عن نفسها، فامتنعت، فقال لها: تتمتعين منى ولو شئت قلبت هذه القبة. قال: فسمع سليمان، فدعاها وقال: ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبى الله إن العشاق لا يؤاخذون بالقولهم.

الخواص: مراته تسود الشعر ولحمه يورث السهر وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافاً، ودمه يسكن الصداع.

(خفاش) طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ولا في ضوء القمر وقوته البعوض، وهذا الوقت هو الذى يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه، فيأكله الخفاش، فيسلط طالب رزق على طالب رزق، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة وهو يعمر مثل النسر وتعاذه الطيور فتقتله، لأنه قيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سألته النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى فهي تكبره لأنه مابين خلقتهما ومن طبعه اخنو على ولده حتى قيل: إنه يرضعه وهو طائر.

(خنزير) حيوان معروف وله كنى كثيرة، منها أبو جهم وأبو ذرعة وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسيح لأنه ذو ناب، ويأكل العشب والعلف، وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل، فيترهم الراى أنه حيوان بستة أرجل وهو ليس كذلك والذكر منها يطرد الذكر مثله، فمن غلب استقل بالزور على الأنثى وتحرك أذناها في زمن هيجانها وتطاطأ رأسها وتغير أصواتها وتعمل من نزوة واحدة، وتعمل ستة أشهر وتضع عشرين ولداً، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل: أربعة باختلاف البلاد، وقيل: ثمانية، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أفند الحيوان، والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فيقطع مالاقيه، وإذا التقى نساها من الطول مات لأنهاما حينئذ يتعنانه من الأكل. ومن

عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها، وإذا عض كلباً سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان يفق، ومن عجيب أمره أيضاً أنه إذا ربط على ظهره حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات، ولا يسلم جلدُه إلا بالقتل مع شيء من لحمه على ما ذكروا.

(خنفساء) دويبة تولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب سودة، وكتبتها أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائدة: قيل إن رجلاً رأى خنفساء، فقال: ما يصنع الله بهذه، فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها، فبينما هو ذات يوم إذا بطرقى يقول: من به وجع كذا إلى أن قال: من به قرحة، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به، قال: اتنوني بخنفساء، فضحك منه الحاضرون، فقال: اتنوه بالذي يطلب، فأتوه بها، فأخذها، فأحرقها، وأخذ رماحها وجعل منه على تلك القرحة فيرث، فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى وإن في أخس المخلوقات أهم الأدوية، فسبحان القادر على كل شيء.

الحواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر الحمام في ذلك البرج والاحتفال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر ويجلو الغشاوة واليباض، وإذا بخر المكان بورق الدلب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

(خيل) جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها، وهي من الحيوان المشرف، ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة». وقال: «عليكم بإنات الخيل، فإن ظهورها عز ويطونها كثر». وروى عن ابن عباس أو على رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب، وقال: إني خالق منك خلقاً، فاجتمعى، فاجتمعت، فأتى جبريل، فأخذ منها قبضة، فخلق الله منها فرساً كبيراً، وقال: خلقتك عربياً وفضلتك على سائر الهائم، فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، ويصهيك أرباب المشركين وأعز المؤمنين، ثم رسمه بغرة وتحصيل، فلما خلق الله تعالى آدم قال: يا آدم اختر أى الدابتين: الفرس أو البراق، فقال: الفرس يارب، فقال الله تعالى: اخترت عرك وعز أولادك، وفي الحديث: «ما من فرس إلا ويقول في كل يوم اللهم من جعلتنى له فاجعلنى أحب أهله إليه» وقيل: الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وهى المغزو عليها، وفرس لك وهى التى تسابق عليها، وفرس للشيطان وهى التى جعلت للخيلاء. وفي الحديث: «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا فى مسابقة الخيل وملاعبة الرجل أهله». ولقد سابق النبي ﷺ على الخيل، وقيل: إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى، ولا يرد علينا ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى لأن ذلك من حكمة الله تعالى تعالى حتى تبعته أحصنهم، فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الحجر تبعه، وقيل: إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبره، وهم خلفه، فأعمى أعينهم عن الماء، فكانوا يرون بلعماً، والخيل تراه ماء، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم، وهى أصناف منها: الصافات، وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف، وقيل غير ذلك وكانت الصافات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام، فعرضها يوماً ففاته الصلاة، قبل صلاة العصر، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح، فكانت فرسه وقيل: إنما عقرها على وجه القربى كالهذى وقيل: إن الفرس لا يحب الماء الصافى ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها فى الماء الكدر، فرحاً به، فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى فيفرقه، ولا يراه فى الماء الكدر، وقد قيل فى الحث على حب الخيل:

أحسبوا الخيل واصطبغوا عليها	فإن العز فيها والجمالاً
إذا ما الخيل ضييعها أناس	ربطناها فأشركت العيلاً
نقاسمها المعيشة كل يوم	وتكسبنا الأباعر والجمالاً

حرف الدال: (هابة) اسم لكل ما دب على الأرض وأما التى ذكرها الله تعالى فى سورة سباء، فقيل: الأرض، وقيل السومة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصغر له

يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب، فقال له: كيف دخلت من غير استئذان؟ فقال: أذن لى رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه فقال: سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء فقال: طلبت مالم يخلق قال: وكان قد بقى من بناء المسجد الأقصى بقية، فقال له يا أخى يا هزرايل أمهلنى حتى يفرغ قال ليس فى أمر رى مهلة قال: قبض روحه، وكان من عادته الانقطاع فى التبعد شهرين وثلاثة، ثم يأتى، فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان مستوكاً على عصاه، واستمر ذلك مدة، والجن تتوهم أنه مشرف عليها، فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام حتى أراد الله ما أراد، فسلط على العصا الأرضة فاكلتها، فخر ميتاً، ففرقت الجن عنه، وقيل إن واحداً منهم مر عليه، فسلم، فلم يجبه فلما منه، فلم يجد له نفساً، فحركه، فسقطت العصا، فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، والعصا التى اتكا عليها من غروب، قال الله تعالى: ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين﴾ [سبأ: ١٤]. قال: فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت.

وأما الدابة التى من أشرط الساعة، فاختلف فى أمرها، فقيل: تخرج من الصفاء وهو الصحيح، وقيل: من الطائف، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم، وهى مختلفة الألوان وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بنى أو سائر إلى منى ومعها عصا موسى وخاتم سليمان لا يدرها طالب ولا يفوتها هارب تلقى المؤمن، فتضربه بالعصا فتكتب فى وجهه مؤمن وتدرك الكافر، تقسمه بالخاتم وتكتب فى وجهه كافر. وروى أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقل الخير.

(داجن) وهو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج وغير ذلك، وفى حديث الإفك: «ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن تعجن وتنام فتأتى الداجن، فتاكل العجين».

(دب) من السباع وكنيته: أبو جهل وأبو جهينة وغير ذلك، ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء وإذا جاع يحس يديه ورجليه، فيندفع جوعه، وهو كثير الشيق وينعزل بأنتاه، وتضع جرواً واحداً، وتصد به إلى أعلى شجرة خوقاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم، ثم لا تزال تلحسه وترفعه فى الهواء حتى تنفجر أعضاؤه وتخشى ويصير له جلد، وفى ولادتها صعوبة وربما ماتت منها وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للقتل به، وقيل: إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجور، ثم يصعد فيرمى بالجرور إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجر الغصن العتل الضخم الذى لا يقطع إلا بالقاس، والجهد، ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتل.

(دجاجة) وكنيتها أم ناصر الدين وأم الوليد وغير ذلك، وإذا هرمت لم يبق ليضها مخ، وتوصف بقلة النرم. وقيل إن نومها بقدر ما تنفس وعنتها خوف فى الليل، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً وتخشى الثعلب. قيل إنها إذا رآته ألقت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع، وقيل: يعرف الذكر من الأنثى بإمساك منقاره، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام، وفى الحديث «إن النى ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء، واتخاذ الدجاج للفقراء» ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له كما خلق الطفل من اللبن وجعل دم الحبيض غذاء له، فتبارك الله أحسن الخالقين.

الحواصى: لحم الدجاج الذى يزيد فى العقل ويصفى اللون، ويزيد فى المنى ويقيم الباه والمداومة عليه تورث التقرس والبواسير على ما ذكر.

(دج) طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً وبالقرب من الإسكندرية، والناس يصطادونه ويأكلونه..

(دود) اسم جنس، ومنه دود القز ويقال لها الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أولاً مثل بزر الثين ثم تصير دوداً، وذلك فى أوائل فصل الربيع، ويكون عند خروجه مثل الدود فى قدره ولون، ويخرج فى الأماكن الدافئة إذا كان

مصروراً في حق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثمين بصرتة، فيخرج وغللاه ورق الثرت الأبيض. قال: ولا يزال يكر حتى يصير بقدر أصبح، ويتنقل من السواد إلى البياض وكل ذلك في مدة ستين يوماً. قال: ثم يأخذ في التسج بما يخرج من فيه إلى أن ينفلج ما في جوفه ثم يخرج شيئاً كهيئة الفرائس له جناحان لا يسكتان من الاضطراب، وعند خروجه يهبج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتصمان مدة، ثم يفترقان. قال ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء فينثران البرز عليها، ثم يموتان، هذا إذا أريد منهما البرز وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراقهما من التسج، فيموت، وهو سريع العطب، حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ومس المرأة الحائض والرجل الجنب، ورائحة الدخان والحر الشديد والبرد الشديد، ونحو ذلك، قال أبو الفتح البستي:

الم تر أن المرء طول حياسته
معنى بأمر لا يزال يعالجه
كذلك دود القز ينسج دائماً
ويهلك غمماً وسط ما هو ناسجه

وقال آخر:

يفنى الحريص بجمع المال مدته
وللحوادث ما يبقى وما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها
وغيرها بالذي تبنيه يتلف

(ديك) وكنيته أبو حسان وأبو حماد وغير ذلك، ويسمى الأنيس والموانس، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدى إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر منها أنه يساوى بين أرواجه في الطعمة، ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليسوقه ويقسمه، وربما لا يخرم في ترويقه، وفي الحديث: «إذا سمعتم صباح الديك، فاذكروا الله تعالى، فإنه يصبح بصياح ديك للعرش». وروى الغزالي عن يمين بن مهران أن الله ملكاً تحت العرش على صورة الديك، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه، وقال: ليقيم المسلمون، فإذا مضى الثلث الثاني ضرب بجناحيه وقال: ليقيم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال: ليقيم الغافلون، وعليهم أورارهم، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن لله ديكا أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش وقوامته في الهواء، فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحيه وقال سبحان الملك القدوس، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحيه وقال: قدوس قدوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو». وروى الثعلبي بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار». وفي الحديث: «لا تسبوا الديك، فإنه يؤقت للصلاة». وروى أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله.

نادرة: قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريماً عليه، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحي عليه، فامرأته بنبحه واتخاذ طعام منه وخرج إلى المصلى، فأرادت المرأة أن تمسكه، ففر، ففتبعته، فصار يخترق من سطح إلى سطح، وهي تتبعه، فسألها جيرانها وهم هاشميون عن موجب ذبحه، فذكرت لهم حال زوجها، فقالوا ما نرضى أن يبلغ الاضطراب بأى إسحاق إلى هذا القدر، فأرسل إليه هذا شاة وهذا شاتين وهذا بقرة وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار، فلما جاء ورأى ذلك قال: ما هذا؟ فقضت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك لكريم على الله، فإن إسماعيل نبى الله فدى بكبش واحد، وهذا فدى بما أرى.

حرف اللال: (ذباب) وكنيته أبو جعفر وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة. ومن عجيبي أمره أنه يلقي رجليه على الأبيض يسود وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء، وفي الحديث: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، فليغمسه، فإن في أحد جناحيه دواء وفي الأخرى داء»، وإن من طبعه أن يلقي نفسه بالجناح الذى فيه الداء.

وحكى أن المنصور كان جالساً، فالتح عليه الذباب حتى أضجره، فقال: انظروا من بالباب من العلماء، فقالوا: مقاتل ابن سليمان، فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لآى حكمة خلق الله الذباب؟ قال: لئلا به الجبايرة. قال: صدقت، ثم أجازوه. ومن خصائص النبی ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط، وقال المأمون: قالوا إن الذباب إذا ذك به موضع لسة

الزنبور سكن الله، فلسعى زنبور، فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة، فما سكن له ألم، فقالوا هذا كان حتماً قاضياً، ولولا هذا العلاج لفتلك، وقال الجاحظ: من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحل به المرأة كانت عنها أحسن ما يكون، وقيل: إن المواشي تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل: إن الذباب إذا مات وألقى عليه براءة الحديد عاش، وإذا بخر البيت يورق القرع هرب منه الذباب.

(ذئب) حيوان معروف وكنيته أبو جعدة وأبو جاعد، وأبو ثمانية لونه رمادي وهو من الحيوان الذي ينأى بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى لئلا، فيغمضها، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه:

ينأى بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى النايأ فهو يقظان حاج

وإذا أراد السفاد اختفى، ويطول في سفاده كالكلب. وإذا جاع عوى، فتجمع الذئب حوله، فمن هرب منها أكلوه وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس في الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكثيره صوت بين لحية إلا الذئب، فإن لسانه يبرى العظم برى السيف ولا يسمع له صوت، وقيل: إذا أدماء الإنسان، فشم الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشد الناس قلباً وأقهم سلاحاً، كما أن الحية إذا خدشت طلبها الذر فلا تكاد تنجو منه، والكلب إذا عض الإنسان يطلبه الغار فيسول عليه، فيكون في ذلك هلاكه، فيحتال له بكل حيلة، وقيل: لا يعرف الالتحام عند السفاد إلا في الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء، والله أعلم.

حرف الراء: (رخ) طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين، قال أبو حامد الأندلسي: ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعناً وبريقاً، فتقدموا إليه، وإذا هم بشئ مثل القبة قال: فاجعلوا يضربون فيه القوس إلى أن كسروه، فوجدوه كهشة البيضة، وفيه فرخ عظيم قال، فتعلقوا بريشه وجروه، ونصبوا القدور، وخرجوا يحيطون من تلك الجزيرة حطياً يقال له: حطب الشباب فلما أكلوا ذلك الطعام أسودت لحية ولمة كل ذي شيب قال، فلما أصبحوا جاءهم الرخ، فوجدوه قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فلذهب، وأتى في رجله بحجر عظيم وتبعهم بعدما ساروا في البحر وألقاه على سفيتهم، فسبقت السفينة، وكانت مشرعة بتسع قلع، ووقع الحجر في البحر، فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم قال: وقد كان بقي معهم أصل ريشة قيل: إنهم كانوا يجعلون فيها ماء فتقع مقدار قربة، فبحان الخالق الأكرم.

(رخم) طير أغبر أصفر المنقار معروف وهو من أشر الطيور ويقال: إنها صماء وسبب ذلك ما قيل في بعض الحكايات: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما مات تكلمت بموته، وكانت تعرف مكانه، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه.

حرف الزاي: (زرافة) حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجلها، وهي ألوان عجيبية يقال: إنها متولدة من ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والضبع، فينزو الضبع على الناقة فيأتي بذكر فينزو ذلك الذكر على البقرة فتولد منه الزرافة، والصحيح أنها خلقت بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة.

(زنبور) حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة في بنيانه بيته وذلك أنه يبنيه مربعاً له أربعة أبواب كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ويبقى إلى أيام الربيع، فينبغ الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير، وفي طبعه التهافت على الدم واللحم، ومن خاصيته أنه إذا وضع في الزيت مات وفي الخل عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

حرف السين: (سعلانة) نوع من التشيطنة. قال السهيلي: هو حيوان يترأى للناس بالنهارة ويغول بالليل، وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعلانة بإنسان وأمستته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالغار قال: وربما صادها الذئب وأكلها وهي حيث تدفع صوتها وتقول: أدركوني فقد أخذني الذئب، وربما قالت: من يتقضى منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك، فلا يلتفتون إلى كلامها.

(سقنقور) ذابة شكلها كالورقة إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مشقال راد في الباه وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال: إنه يهدى إليهم فيذبحوه بسكين من الذهب، ويحشونه من ملح مصر، فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع نفعا عظيماً.

(سمندل) حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجيب أمره أنه يبيض في النار، ويفرخ فيها ويؤخذ ويبره، فينجم ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار، فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكى أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشف بالزيت وجعلت في النار، وأوقدت ساعة ولم تحترق.

(سنجاب) حيوان كهية الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره ك شعر الفأر وهو ناعم، فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً بليس، وطبعه موافق لكل طبع وأحس الأزرق.

(سنور) حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات، كناه وأسماءه كثيرة.

حكى أن أعرابياً صاد سنوراً، فرآه شخص، فقال: ما تصنع بهذا القط، ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الخيط؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الحيط؟ ولقيه آخر، فقال: ما تصنع بهذا الهر؟ قال: أبيعه. قال: بكم؟ قال: بمائة درهم، فقال: إنه يساوي نصف درهم، قال: فرمى به، وقال: لمت الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته، وهذا الحيوان يبيع في زمان الشتاء في شهرين منه وتراه ينترددن صارخات في طلب السفاد، فكم من حرة خجلت وذى غيرة هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته، وطيب فم السنور كطيب فم الكلب في النكهة، وقيل: إن الهرة تحمل خمسين يوماً، وهو يجمع بين العض والنبأ والحمش بالخلاب، وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال، فيعطس ويتمطى، ويقبل وجهه بلمابه ويلطخ بیره بلمابه حتى يصير كآئه الدهن يسرى في جلده، وقيل: إذا بال الهر شم بوله ودفنه قيل: لأجل الفأر، فإذا شمه علم أن هناك هراً، فلم يخرج، وأما سنور الزباد، فهو بأرض بالهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذه.

(سوس) هو دود الحبوب والفاكهة. ومن القوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم، فقال:

فقسمته ضيزى عن الحق خارجه	ألا كل من لا يقصده بأئمة
سعيد أبو بكر سليمان خارجه	فخذهم عبيد الله عروة قاسم

حرف الشين: (شاد هوار) حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يهش، وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن، وأخرى تورث الفرح والضحك، وأنه أهدى إلى بعض الملوك شيء من شعبها، فرأى ذلك، ويقال إن من الحيوانات شيئاً يوجد بالغياض في قسبة أنه إذا تنفس سمع له صوت كصوت الزمار، فتأني الحيوانات لتسمعه، فتدشش، فيفعل بعضها من الطرب، فيشب عليه، فيأخذه، ويأكله، وهي تعلم ذلك منه وتجتر، فإذا لم يمسك منها شيئاً ضاق خلقه وصاح بها صيحة، فتهرب وتركه.

(شاهين) طير يكون كهية الصقر إلا أنه عظيم الهامة واسع العينين، ومزاجه أيس من مزاج الصقر، وحرته من العلو إلى أسفل أقوى، ولذلك ينقض على الطير بشدة، فرمى يخطه فيضرب نفسه بالأرض بشدة، فيموت، وقيل: أول من صاد به قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه، وسار. قال: فطار واحد منها وانقض على صيد، فأخذه، فأعجب الملك ذلك وصار يصيد به.

(شحرور) طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات مطربة.

حرف الصاد: (صرد) حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم

(صحو) طير من صفار العصفائر أحمر الرأس.

حرف الضاد: (ضأن) نوع من الحيوانات ذوات الأربع، وهو من الحيوانات المباركة لحمل الأثني منه بواحد واثني، وفيها البركة، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة، وليس فيها بركة، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الشعر، ومن عجب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع. قال بعض القصاص: مما أكرم الله تعالى به الكباش أن خلقه مستور العورة من قبل ومن دبر، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتك الستر مكشوف العورة من قبل ومن دبر، ويقال الضأن من دواب الجنة، وهي صفوة الله من البهائم، ويقال في الملح: هو كبش من الكباش وفي الذم هو تيس من التيس، وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

تقول لى الإخوان حين طبختها أتطبخ شطرنجاً عظماً بلا لحم

ومن العجب أنه يأتي غنم من الهند للكباش منها آلية في صدره وآليات في كتفيه، وآلية على ذنبه، وربما تكبر آلية الضأن حتى تمنعه من المشي، ومن عجب أمرها أنها إذا تسافتت وقت المطر لاتحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً، وجنوبية حملت أنثى، والله أعلم.

ومن خواصها: أن لحمها ينفع للسوداء، ويزيد في المنى والباه، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها، وإذا غطى إناثه العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر والله أعلم.

(ضب) حيوان يجمل جحره في الأرض الصلدة وعنده بله، فرجاً لا يهتدى لجحره إذا خرج منه، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كدوية أو إشارة، وهو من الحيوان الذى يعصر. قيل: إنه يعيش سبعماية سنة، ومن طبعه أنه يصير على الماء، يقال: إنه لا يشرب، فإنه يبول في كل أربعين يوماً قطرة، والأثني تبيض سبعين بيضة وأكثر، وتجعلها في الأرض، وتعالدها في كل يوم إلى أربعين يوماً، فيخرج، ويبيضها قدر بيض الحمام، وهذا الحيوان شديد الخوف من الأمي، ولذلك يجمل المقارب في جحره حتى يمتنع بها، ويخرج من جحره كليل البصر، فيستقبل الشمس، فيحصل له بذلك حدة في بصره، وإذا عطش نشق النسيم فيروى، وبينه وبين الأفاعي مناسبة، وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء.

فائدة: قيل: إن أعرابياً أتى النبي ﷺ وفي كفه ضب قد صاده، وقال: لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك، وسررت الناس بقتلك، فقال عمر: دعني يارسول الله أقتله، فقال عليه الصلاة والسلام: مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً؟ قال: ثم أقبل الأعرابي على النبي ﷺ وقال: والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب، وأخرجه من كفه قال: فعد ذلك قال النبي ﷺ يا ضب: فأجابته بلسان فصيح ليك ومعديك يارسول رب العالمين، فقال: من تعبد؟ قال: الذى فى السماء هرشه، وفى الأرض سلطانه، وفى البحر سبيله، وفى الجنة رحمته، وفى النار عذابه، فقال: من أنا يا ضب؟ قال: رسول رب العالمين قد أفلق من صدقك وقد خاب من كذبك، قال: فقال الأعرابي عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدي من البرية يشهد لك بالرسالة. أنا أولى منه بذلك، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله حقاً، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضا مني إليك، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه أحد أكثر محبة مني إليك، ولأنت الساعة أحب إلي من أعلى ولدي وما تملك يدي، فقد آمن بك شعري ويشري وداخلي وخارجي وسري وعلانيتي، فقال النبي ﷺ الحمد لله الذى هداك لهذا الدين الذى يعلمو ولا يعلمو عليه، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة. قال: فعلمني يا حبيبي. قال: فعلمه سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وقال: من قرأها ثلاث مرات، فكأنما قرأ القرآن. قال: إلهنا يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: يا حبيبي ليس في بنى سليم أفقر مني، فقال لأصحابه: اعطوه، فأعطوه حتى اتقنوه، فقال عبد الرحمن بن عوف يارسول الله: عندى ناقة عشارية أعطيها له، فقال: إن الله يعطيك ناقة في الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر وعينها من الياقوت الأحمر، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق. قال:

فخرج الأعرابي من عنده، فتلقاه ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي ﷺ فأخبرهم بقصته، فأسلموا عن آخرهم، وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد عليهم، وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتمامها، والبيهقي والحاكم، وابن عدى.

الخواص: قلبه يلعب الحزن والحفصان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد في الباه، وكعبه يشد على وجه الفرس يراً، وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء، ويعره يلعب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لا يعطش زمناً طويلاً.

(ضبع) حيوان معروف ومن كناه أم عامر ومن طبعه حب الأدمى حتى قيل: إنه ينش القصور وإذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم فكل من كان به سحر، وجعل الحاتم في قليل ماء وشربه زال سحره.

(ضفدع) حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى، ومن العفونات وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود، ثم ينمو، ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا تم جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة. قال سفيان: ليس من الحيوان أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع، وفي الآثار أن داود عليه السلام قال: لأصبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلي، فتأذنه صفده بأداود تم على الله بتسبيحك، وأنا لى تسعون سنة ما جف لساني عن ذكر الله تعالى قال: فما تقولين في تسبيحك؟ قالت أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: ما عسى أن أقول. وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الطاء: طير مليح ذو ألوان عجيبة وعنده الزهو في نفسه والعجب، ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس من الحيوان، والأشئ تبيض حين يمضى لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الألوان يكمل ريش الذكر ويتم لونه، وتبيض الأشي مرة واحدة في كل شهر، ففي السنة اثنا عشرة بيضة أو أقل أو أكثر، ويسند الذكر في أيام الربيع، ويرمي ريشه في أيام الخريف، كالشجر فإذا بدأ طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حفصته ثلاثون يوماً.

فائدة: قيل: إن آدم لما فرس الكرمه جاء إليس لعنه الله، فلبع عليها طاموساً، فشربت دمه، فلما طلعت أوراقيها ذبح عليها قروداً، فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً، فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً، فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربه وتدب فيه يزهو بنفسه، ويعيس عجباً كالطاموس، فإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفت بيديه كالقرود، فإذا قوى سكره قام وعريد، كهيشة الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم والناس تشامم بإقامته بالدور، قيل: لأنه كان سبياً لدخول إليس الجنة وخروج آدم منها، والله على كل شيء قدير.

حرف القاء: (ظي) واحد الغزلان، وهو ثلاثة أصناف: الأول الآرام، وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي مسمينة العنق، والثاني العفر لونها أحمر وهي قصيرة العنق والثالث الآدم وهي طويلة العنق وتوصف بحسنة البصر، وقيل: إن الظبي يقضم الخنظل ويضعفه مضطاً وماؤه يسيل من شذيقه ويرد الماء المالح فيشرب للماء الأجاج ويغصم غرطومه فيه كما تغمس الشاة لحبيها في العذب، فأى شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلي مرارة الخنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها، ويعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً حافظاً.

(ظربان) دوية فوق جرو الكلب منتنة الريح تزعم العرب أن من صابها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يلى الثوب. ويحكى من شومها أنها تأتي بيت الظبي، فتضو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه، وتأكله بعد ذلك.

حرف العين: (هجل) حيوان معروف وهو ذكر البقر وسمى بذلك لاستعجال بني إسرائيل بعبادته والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة ثم أمها بعشر وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء فابتلى الله به بني إسرائيل، فقال: اتوني يحلى قال: فأتوه بجميع حليهم فصنع منه

عجلاً جسداً وألقى عليه قبضة من التراب الذي كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى، فمكفوا على عبادته من دون الله تعالى، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهية الكلام فيتعجبون من ذلك ويقولون أنه تكلم، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يظلمهم.

قائلة: نقل القرطبي عن سبى أبو بكر الطرطوشى رحمهما الله أنه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان فيقرأون من القرآن ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ويغنون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة هل الحضور معهم حلال أم حرام فقال: ملعب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا المعجل، فهذه الحالة هي حالة عباد المعجل وإنما كان النبي ﷺ مع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الرقار والسكينة، فينبغى لولاء الأمو وفقهاء الإسلام أن ينصروهم من الحضور فى المساجد وغيرها ولا يهمل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب الشافعى وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

(هقرب): هو من الحشرات. قال الجاحظ إنها تلد من فيها مرتين وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهية القمل كثير العدد، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهية الذر ثم يكثرون ويظفون بالأرض، ولها ثمانية أرجل، ومن عجب أمرها أنها لاتضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه، والخنائس تأوى إليها وربما لسعت التين العظيم قتلتها.

غريبة: قال ذو النون المصرى، بينما أنا فى بعض سياحتى إذا مررت بشاطئ البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر، فظننت أنه يشرب فقممت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأثناء فحملته على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب، قال ذو النون: فأتزرت بجزى وعمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة، فوجدت تحته غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه تين عظيم، قال: فلصقت العقرب برأس التين ولسعته فقتلته ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعبس بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذى جاءت منه قال ذو النون فتعجبت من ذلك وأنشدت:

يا راقباً والجليل يحفظه من كل سموم يكون فى الظلم
كيف تنام الميرون عن ملك يائسك منه فسوائد النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال: فلما سمع ذلك قال: أشهدك على أن قد تبث عن هذه الحصلة، ثم جرينا ذلك التين ورميناه فى البحر وليس ذلك الغلام معاً وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يملك الزمان فحارب وياعبد إذا لم تتنفع بالاقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما ثوت الأقاصى من سموم العقارب
فقد هذ قدماً عرش بلقيس هدهذ وخرب فإن قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال هممك فاحترز عليه من التضييع فى غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر علينا جيشه بالعجائب

قائلة: إذا لدغ أحد فأقرأ عليه هذه الكلمات وهي: سلام على نوح فى العالمين وصلى الله على سيدنا محمد فى المرسلين أعينك من حاملات السم أجمعين لأدابة بين السماء والأرض إلا ربي آخذ بناصيتها كذلك يجزى عباد المحسنين إن ربي على صراط مستقيم نوح قال لكم من ذكرنى لاتلدغوه إن ربي بكل شيء عليم وصلى الله على سيدنا محمد الكريم. وقال بعض العلماء: من قال عقدت زيان العقرب ولسان الحية ويد السارق بقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله آمن من العقرب والحية والسارق.

وفي البخاري «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله ماذا لقيت من عرق لدغتنى البسارحة فقال له النبي ﷺ: أما إنك لو قلت إذا سميت أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق لم تضرك»، وروى الترمذي «أن من قال حين يمس أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات ثم قال سلام على نوح في العالمين لم يفسده الحية والعقرب»، والسر في ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب في السفينة سأله الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضرا من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الحواص: من بخر البيت بزينخ أحمر وشحم بقر هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برئ أيضاً لوقته.

(هقق) طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحه أكبر من جناحي الحمامة وهو لا يأوى إلا الأماكن العالية وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب خوفاً عليه من الحفاش لا يفسده.

الحواص: دمه إذا جعل على قطن والصبغ على موضع النصل والشوك الغائبة في البدن أخرجه.

(هلق) دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والأدمل فإذا علق بك فرش عليها ماء وملحاً وإذا علق بقرم فيخبره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه. ومن خواصه أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلى به مكانه منع نباته.

(هتقاء) اختلف فيها فقال بعضهم: هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان وفيه من كل حيوان لون وقال بعضهم هو طير غريب الشكل بيض أيضاً كالجبال ويعد في طيراته، رسميت بذلك لأنه كان في عنقه طوق أبيض، قال القزويني: إنها تخطف الفيلة لمظلمها وكبر جنتها كما تخطف الحداة الفار، قال: وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بعلها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان فشكواها إليه فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التي خلف خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالفيل والكرند وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفي سنة ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشري في «ربيع الأبرار»: أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له: العتقاء له وجه كوجه الإنسان، وأربعة أجنحة من كل جانب وخلق له أنثى مثله ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أني خلقت خلقاً كهنية الطير وجعلت رزقه الوحوش والطير التي حول بيت المقدس قال: فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفي موسى عليه الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق، فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العبيسي، فشكواها له، فدعا عليها، فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت.

(عنكبوت) دوية لها ثمانية أرجل وستة عيون وهي من الحيوان الذي صيده الذباب ولده يخرج قوياً على النسيج من غير تعليم ولا تلقين ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير وتصير عنكبوتاً وتكمل صورته.

فائدة: قيل إن امرأة ولدت جارية، ثم قالت لخادم لها اقتبس لها ناراً، فخرج، فوجد باباب سائلاً، فقال له: ما ولدت سيدتك؟ فقال: بتاً، فقال: لا تقرب حتى تبني بألف رجل ويتزوجها خادماً ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم، وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل، فصبر حتى قامت أمها لتقضي بعد شؤونها وعمد إلى البيت، فشق بطنها بسكين وهرب، قال فجاءت أمها، فوجدتها على تلك الحالة، فدعت بمن يعالجها حتى شفيت، فلما كبرت بغت، قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر، فأقامت هناك تبني قال، وأما الرجل فإنه صار من التجار، وقدم لتلك المدينة ومعه مال كثير، فقال لامرأة عجوز هناك اخطبي لي امرأة حسنة أتزوج بها قال: فوصفتها له وقالت: ليس هنا أحسن منها، ولكنها تبني، فقال للعجوز اتني بها، قال: فدعيت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها: حباً وكرامة، فإني قد تبنت من البغي، فتزوج بها، وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً، وكان يود أن يراها متجردة، فلم يمكنه ذلك حتى إذا كان في بعض الأيام خرج على عادته لقصاه أشغاله ودخلت هي الحمام، وعرضت له حاجة، فرجع إلى الدار، وصعد إلى قصرها، فلم يرها، فسأل عنها، فقيل له هي في الحمام، فدخل عليها، فرآها

متجردة، ورأى في بطنها أثر كالحياطة، فقال: ما هذا؟ قالت: لا أعلم إلا أن أمي أخبرتني أنه كان لنا خادماً وأنه يوم ولادتي غافل أمي وشق بطني بسكين وهرب وأنها حين رأيته كذلك دعت بعض الأطباء، فحاط بطني وعالجني حتى اندمل جرحي، وشفيت، وبقي هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم، وحكى لها السبب، وأن ذلك السائل أخبره أنها ثبوت بالعنكبوت، ثم إنه اهتم بأمرها وجمع مهندسي البلدة التي هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت، فقالوا: كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لعمومه لا ينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصراً من البلور، وبذل لهم ما أرادوا، فعملوه وفرشه، وأمرها أن تقيم فيه لا تخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت، قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج في ذلك القصر، فقام إليه، فرماه وقال لها هذا الذي يكون موتك منه قال: فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة: أهذا الذي يقتلني، فشدخته، فتملق بطرف إبهامها من مائه شيء فعمل بها حتى رمت ساقها، ثم وصل الورم إلى قلبها، فقتلها، فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿أَيُّمَا كُتُوبًا يُنْزِلُكُمْ الْمَوْتَ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قائمة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبي ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أبيس لما بعثه النبي ﷺ خالد الهذلي، فقتله، وحمل رأسه، ودخل به في غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لما صلب عرياناً، وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلعه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمه، ويجلو الفضة إذا دلتك به والذي يوجد من نسجها في بيت الخلاه ينفع المحموم إذا تبخر به.

(ابن عرس) حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة وهو عدو للفأر وعنده الحيل، قيل: إنه عدا خلف فأر، فصعد منه على شجرة، فصعد خلفه، وأمر أئنه أن تقف تحت الشجرة، ثم قطع الغصن الذي كان عليه الفأر، فسقط، فأخذته أئنه. وما حكى أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجبية: قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وجبه تحت طاسة، فجاء أبوه، فوجده، فذهب وأتى بلبنتار، فوضعه، فلم يفلته، ثم ذهب وأتى بآخر وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دناتير، فلم يفلته، فلم يخرقه، فلم يفلته، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله به فلم علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء، فافلته له.

حرف الغين: (غراب) وكنيته أبو حاتم وله كنى غير ذلك، وهو أنواع كثيرة، منها الأكحل، وغراب الزرع، والأزرق وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه، والعرب تتفاذل بصياح الغراب، فتقول: إذا صاح مرتين فشر، وإذا صاح ثلاثة فخير، وهو كالإنسان عند الجماع، وفي طبعه الاستار عن الناس عند مجامعته، والأشئ تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، وتحضن ذلك والاب يسمى في طعمتها إلى أن تفرخ، فإذا فرخت خرجت أفرانها قبيحة المنظر، فتشفرق عنها وتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتغذى به ثم لا تزال تتعاهد حتى ينبت لها الريش فتأبها ومه قول الحريري:

يا رارق النعصاب في عشمه وجبابر العظم الكسير المهيض

ومن طبعه أنه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها ويقم من الأرض ما وجد ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء، فوجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب لغة وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها ومعه الذئب لا يضره.

الخواص: إذا غمس الغراب في الحبل ثم جفف وسحق ورشه وطلسى به الشعر سوده، وإذا علق متقاره على إنسان رالت عنه العين. وزيل الغراب الأبقع ينفع الحواتيق والختايزير طلاء، وإن صر في خرقة على من به السعال زال.

(غرغر) دجاج بني إسرائيل يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهامة، فطغت وبغت وتجهرت وكفرت، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة وكلابهم الأسود وعينهم الأراك وجوزهم المفل ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحيشة فلا ينفع لحمه لراحتة الكريهة، وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الفاء (فاخته) طير اغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها، وفي طبعها الأثس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت، وهي من الحيوان الذي يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمسا وعشرين سنة.

الخواص: دهما ينفع من الآثار في العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

(فأرة) وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفوسقة، وذلك أن النبي ﷺ اتبه ليلة، فوجد لها قد جذبت الفتيلة، وأحترقت طرف سجادته، فقتلها، وأمر بقتلها، وهي التي قطعت حبل سفينة نوح، وأذاها لا يكاد ينحصر منه: أنها تأتي إلى إناة الزيت، فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذنها، فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأقرعته فيه حتى يعلو لها الزيت، فتشربه، وربما وضعت فيه حجرا، فكسرت، ويقال إنها بقايا المسوخين الذي كانوا يهودا ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن نافه في إناء، فإن لم تشربه فهي منهم.

الخواص: عينه تشد على الماشي يسهل تعب، وإذا بخر البيت يزيل الذئب أو الكلب ذهب منه القار.

(فرس البحر) حيوان غليظ أبيض الوجه ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقير وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، وجدده يوجد بالنيل ووجهه أوسع من وجه الفرس يصعد البر ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره.

(فهد): حيوان شرس الأخلاق. قال أرسطو: هو متولد من الأسد والثور في طبيعته مشابهة بطبع الكلب، ونومه ثقل، وفي طبيعته الخنوع على أنثاه وقيل: أول من صاد به كليب بن وائل وأول من حملة على الخيل يزيد بن معاوية وأكثر من اشتهر باللبع به أبو مسلم الخراساني.

(فيل) حيوان يوجد بأرض الهند، وكنيته أبو الحجاج، والأشئ أم سيل وهو ينزوي على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه ستين ثم تضع ولا يقربها الذكر في مدة حملها، ولا بعده ثلاث سنين ولا يلدح إلا ببلاهة وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لا يثبتان، فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات، فإنها تأكله، وهو عند شدة غلمته كالجلجل، ويهيج في زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، وقيل: إن ثدييه في صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان، وأعظمه حجماً، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيقي، وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بمروره لحفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن آتياب الفيل، وقرناه يخرجان مستطبتين حتى يخرقان، وخرطوم الفيل أنفه ويده وبه يتناول الطعام إلى جوفه وبه يقتال وبه يصيح، وصياحه ليس في مقدار جرمه، وقيل: إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطوميه كما يغيث الجماموس جميع بدنه، إلا منخره ويقوم خرطوميه مقام عقه وأخرق الذي في خرطوميه لا ينقذ، وإنما هو وعاء إذا ملاء من طعام أو ماء أوجله في فيه لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى، وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضاً يقتال مع جنسه، فمن غلب دخلوا تحت أمره، وقيل: جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور.

حكى عن هارون مولى الادر أنه خيأ معه هراً ومضى سيف إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر هارياً وكبر المسلمون، وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشعمق:

يا قومُ إني رأيت الفيل بعدكم تبارك الله لى فى رؤية الفيل
رأيت بيتاً له شئ يحسركه فكذبت أقبل شياً فى السراويل

وقيل إذا اغتم الفيل لم يكن لسواهم هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه، ومن عجب أمره أن سوطه الذى به يثت ويضرب معجن حديد أحد طرفيه في جهته والآخر في يد راكمه، فإذا أراد شيئاً غزاه به في لحمه وأول شئ يؤديون به الفيل يعلمونه السجود للملك.

قيل: خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل وأحدق به ثلاثون ألف فارس، فلما رآه الفيلة سجدت له، فلما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالبحاجن وراضتها الفيالون، وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولا يعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة، وإن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جوهر نابه أكرم وأتمن، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحف بن قيس على أهل الكوفة في قوله: نحن

من أن يحس به، وإذا طار سار سطرأ يقدمه واحد كهية الليل، ثم تتبعه البقية.

(كلب) معروف وهو نوعان: أهلى وسلوقى، وهذان النوعان سواء إلا أن الأئى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حليم، وعنده رياضة، وفى طبعه إكرام الأجلال من الناس.

وحكى أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم فى منزله، ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجعها، فوثب الكلب عليهما، فقتلهما، فرجع صاحب المنزل، فوجدهما قتيلين، فأنشد يقول:

وما زال يرعى ذمتى ويحوطنى ويحفظ عهدي والحليل يخونُ
فواعجباً للخل يهلك حرمتى وواعجباً للكلب كيف يصون

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبابة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب له، فضره ورماه بحجر، فلم يته، ولم يرجع، فلما قد رضى الكلب بين يديه، فجاء عدو له فى طبعه، فلما رآه خاف على نفسه، فإذا بثر هناك قرية القصر، فنزل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهلبا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سيبلهما، وصار الكلب ينيح حوله فلما انصرف العدو أتاه الكلب، فمزال ينيح فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه، فتفنس الرجل، وعر به أناس، فتناولوه وردوه إلى أهله، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه، وجعل عليه قبة يسمى ذلك قبر الكلب وفى ذلك قيل:

تفرق عنه جاره وشقيقه وما حاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً قتل ودفن، وكان معه كلب فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك، فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا، فكشفوا عن ذلك وحفروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلًا، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينيح عليه الكلب وضره، فأقر بقتله، فقتل، وهو من الحيوان الذى يعرف الحسنة، وقيل: إن الأئى تحبض فى كل شهر سبعة أيام، وأكثر ما تضع اثنا عشر جروًا، وذلك فى النادر، والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحدًا، ويمشي الكلب فى الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة، ووصف للمتركل كلب بآرمينية يفترس الأسد، فأرسل من جاء به إليه، فجوع أسدًا وأطلقه عليه، فتهاوشا وتواثبا حتى وقعا ميتين، وقيل: كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى لأنه يرى من نعمته ويؤس نفسه ما يفتت كبده، وقيل لرجل: ما بال الكلب يرفع رجله إذ بال؟ قال: يخاف أن يلوث ذراعيه. وقيل: أو للكلب ذراعان؟ قال: هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه سمع شخصًا من وراء النهر يروى أحاديث مثله، فصار إليه، ودخل عليه فوجده يطعم كلبًا، وهو مشتغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت فى نفسى، وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إلى، ثم قال: حدثنى أبو الزناد عن الأهرج، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قطع رجاء من ارتجاء قطع الله رجاءه يوم القيامة»، فلم يبلغ الجنة، وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب، وقد قصصنى هذا الكلب، فخشيت أن أقطع رجاءه. قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله: هذا الحديث يكفينى، ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذى: لما أبعط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع، وكان أشدها الكلب، قال: فنزل عليه جبريل عليه السلام، وأمره أن يضع يده عليه، ففعل، وأطمان إليه، وألفه وصار يحرسه، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة، وقيل: إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعملون بالليل، فيفسدون ما صنع فى السفينة بالنهار، فأمره الله أن يتخذ كلبًا حارسًا، ففعل، قال: فكان الكلب إذا أتاه منسد قام عليه، فيتبسط نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل: كان كلب أهل الكهف أسمر، واسمه قطمير، وقيل: أصفر، وقيل: خلنجى اللون، وليس فى الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو وكبش وإسماعيل وناق صالِح وحمار العزيز وبقراق النبی ﷺ.

فائدة أخرى: إذا نبح عليك كلب، وخفت منه فاقرا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْمِعْتُمْ أَنَّ قَتَلُوا مِنْ أَطْفَالِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَاتِلُوا لَا تَقْتُلُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ (الرحمن: ٣٣). وقل بعد ذلك: لا إله إلا الله، فإِنَّكَ تكفاه.

حرف اللام (لفلغ) طير معروف. قيل: إنه من طيور الفواخت ويأتى إلى أرض مصر فى أيام الشتاء، فيأكل ما قسم الله له من الرزق، ويأكل منه من له فيه رزق، ثم يرحل إلى بلاده.

حرف الميم: (مالك الحزين) طير يوجد بالضحفاح غداؤه السمك وسمى بذلك لأنه قيل: إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء، وإذا نشف النفسضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم، ونظيره دوية بأرض فارس معروفة عندهم يقال: إن غداؤها التراب، فإذا أكلت لانتشع خوفاً من أن يفرغ.

(حرف النون): (نحل) قال عليه الصلاة والسلام: «ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه، وقلن له السم والبصر، وسوى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستردك الفكر كيف دبت على الأرض، وسعت فى منابجها، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع فى حرها لبردتها وفى وردها لصبرها لا يخلل عنها المنان، ولا يجرمها الديدان، ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف بطنها، وما فى الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعجباً، فتعالى الذى أقامها على قوائمها، وبنها على دعائمها لم يشركه فى فطرها فاطر، ولم يمنعه على خلقها قادر، لا إلا لا هو ولا معبود سواه». وقيل: إذا خافت على حيها أن يعفن أخرجه إلى ظهر الأرض ليحف، وقيل: إنها تخلق الحبة تصفين خوفاً من أن تنبت، فتفسد إلا الكزبرة، فإنها تغلفها أريعاً لأنها من دون الحب ينبت نصفها، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك، وقيل: إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعت على أنفك لم تجد له رائحة، وإذا عجزت عن حمل شيء استعانت برفقتها، فيحملونه جميعاً إلى باب جحرها، وقيل: إذا افتتح باب قرية النمل، فجعلت فيه زريناً أو كبريتاً هجرتها، والله أعلم.

(نحل) حيوان له له نظر فى العواقب وله معرفة بفصول السنة، وأوقاتها وأوقات المطر، وفى طبعه الطاعة لأميره والانتقاد له، ومن شأنه فى تدبير معاشه أنه يبنى له بيتاً من الشمع شكلاً مسدداً لا يوجد فيه اختلاف كالفقطة الواحدة إذا طار ارتفع فى الهواء وحط على الأماكن النظيفة، وأكل نوار الزهر، والأشياء الحلوة وشرب من الماء الصافى، وأتى، فأخرج ذلك، فأرسل ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل وقيل: إنه يقسم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسل، وفى طبعه النظافة فيجعل رجيعة خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماه، وعند الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله أفات تقطعه كالظلمة والغيم والريح، والمطر والدخان والنار، وكذلك المؤمن له أفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، ونار الهوى.

فائدة: قيل مرض شخص، فقال: أكتوى بماء وعسل، فأتوه بذلك، فخلط الجميع وشربه فشفى، وروى أن شخصاً شكى النبي ﷺ بطن أخيه، فأمره بشرب العسل، فشربه، ثم جاء ثانياً، فأمره بشربه، ثم جاء فى الثالثة، فقال يارسول الله: إن بطني لم يزل، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً، فسقاه الثالثة فشفى».

نادرة: قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ لَكُمِ مِنْ كُلِّ الْفَرَاتِ فَاسْكَنْهُمْ سَبِيلَ رَبِّكَ ذَلَّا يُخْرِجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ (٢٤)﴾ [النحل: ٦٩] أهل البيت فإنهم النحل، والشرباء القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل الله طعامك وشرباك ما يخرج من بطون بنى هاشم، فضحك الحاضرون عليه، وأبهته.

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص، واكتحل به نفع من نزول الماء فى العين والتلطيخ به يقتل القمل، ولعنه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم.

(نسر) هو سيد الطيور ويعمر طويلاً، قيل: إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل: إنه يقطع من المشرق إلى المغرب فى يوم، وجثته عظيمة حتى قيل: إنه يحمل أولاد القيلة، وله قوة حاسة الشم، حتى قيل: إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمئة فرسخ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هبة له حتى يفرغ من الأكل، وعند شربه، قيل: إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضغف الناس لو أراد إمساكه فى تلك الحالة أمسكه، وإذا بانض ذهب وأتى بورق الدلب، فجعله فى عشه خوفاً من الخفافش أن يفسد بيضه، وهو لا يحضن البيض، وإنما يبيض فى الأماكن

العالية ويقيه في الشمس، فتكون حرارتها له بمنزلة الحفص، ومن طبعه أنه لو شمّ الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل: إنه ليموت كمدًا، ويقال للأنثى منه أم قشعم، وفي الحديث: «أتاني جبريل عليه السلام فقال يا محمد: لكل شيء سيد، سيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيبي، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربي، وسيد الحريى القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد الذئب وعلق على شخص كان مهلباً عند الناس مقضى الحاجة، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها.

(نعام) يذكر ويؤنث، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم، ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طويلاً متساوية القدر وتجعلها ثلاثاً ثلاثاً للحصن وثلاثاً تاكله في حصنها، وثلاثاً تكسر، وتفتح فيتعفن ويلود فيكون منه غذاء أولادها، وعندها الحق أنها تخرج من حصنها فتجد بيض غيرها، فتحضنه وتترك بيض نفسها.

قائلة: روى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه أن الله تعالى لما خلق القمح وأثّله على آدم كان على قدر بيض النعام، وقال له: هذا رزقك ورزق أولادك قم فأحرث وازرع، قال: ولم يزل الحب على ذلك مدة، ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق وكان في زمن العزيز على قلبه الحمص، وقيل: كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالآخرى إلا النعام، فإنه يركب إلى أن يموت، وخلق الله تعالى له قوة الشم البليغ حتى قيل: إنه يشم رائحة القناس من مسيرة نصف ميل، وهى لا تشرب الماء كالضب ويقال: إن القناس إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء إما شعب أو جحر تظن أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصران والجمر، وفي طبعها الأذى، يقال: أنها تخطف الخلق من أذن الصغير، وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأقاربه مادام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رآياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى، فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلا أو يعجزهما هرباً، وقيل: أشد ما يكون عدواً إذا استقبلت الريح وتقول العرب صفان من الحيوان أصمان لا يسمعان النعام والأفاعي، وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع، فقال: يعرف بعينه وأنفه ولا يحتاج معهما إلى سمع.

(غير) حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صنفان: صنف عظيم الجثة صغير الذنب، والآخر بالمعكس. قال الجاحظ: وهو يحب الشراب وعنده شراسة في خلقه، ويقال: إن أنثاه لاتدع ولدها إلا مطوقاً بحية ولا يضرها نهشها، وذلك لأجل الصيد حتى لا يظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ، وفي طبيعة عداوة الأسد، وعنده شرف في نفسه يقال: إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره، ولا يملك نفسه عند الغضب، وأذى وثبة عشرون ذراعاً وأكثرها أربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئاً صار مهلباً عند الناس، ومن كان به بواسير فجلس على جلده رالت بواسيره.

(حرف الهاء): (هلهلد) طير معروف، وهو من رمل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حدة البصر حتى قيل: إنه يرى الماء تحت الأرض وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا، فذهب لينظره فدخلت الشمس من مكانه، فأرآه سليمان عليه الصلاة والسلام، فستغفده وطلبه، فلما حضر قال يا نبى الله: إني رأيت كيت وكيت، وقص عليه القصة، ويقال: إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه، يا نبى الله: اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى، فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه وريشه إذا حملة إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حاجته وظفر بما يريد، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من الفسولنج، وإن بخر بمخه برج الحمام لم يقربه شيء، يؤذيه، ومن علق عليه لحية الأسفل أحببه الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(حرف الزاوي): (ورشان) طير يتولد بين الحمام والفاختة، وهو حسن شديد الحنو يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناس أولاده من شدة حنوه، وقال بعضهم: إنه يقول في صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب، والهدهد يقول: إذا

نزل القضاء عني البصر، والفاخته تقول: لبت هذا الخلق ما خلقوا وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قدموا خيراً تجدوه عند ربكم، والحمامة تقول: سبحان ربي الأعلى، والباري يقول: سبحان ربي وبحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان، والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كاللدة وبعد صوته في الصائين كالقارئ.

(حرف الباء): (يا جوج وما جوج): سمو بذلك لكثرتهم، وقيل: بل هو اسم أعجمي غير مشتق، قال مقاتل: وهم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام، وقول من قال: إن آدم نام، فاحتلم، فالتصق منه بالتراب. فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي الحديث: «يا جوج وما جوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة» انتهى. وهم أصناف منهم: ما طولاه عشرون ذراعاً، وما طولاه ذراع وأقل وأكثر. وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إن لهم مغالب الطير، وأناب السباع، وتداوى الحمام، وتساءد البهائم، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد، وإذا مشوا في الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان، يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويعتصمهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويأكلون كل شيء يرون به، ومن مات منهم أكلوه، ويقال: إن صنفاً منهم له أذان إحداهما صلعة، والأخرى ويرة، فهو يلتحف بإحداهما ويفترش الأخرى، وفي الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام: سئل هل يلغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «دهوتهم ليلة أسرى بي، فلم يجيبوا، فهم خلق النار». وفي الحديث أيضاً: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار، فيقول يارب، وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار وواحدة للجنة. قال: فاشتد الأمر على المسلمين» فقال رسول الله ﷺ: أبشروا، فإن من يا جوج وما جوج ألفاً ومنك واحداً، وفي الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالردم. فقال: صفة، فقال يارسول الله: انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه، فدخلت في بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعني، فارتعدت منها قال، فقال صاحب البيت لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم، أترصد أن تنظر إليه فإذا بئس مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل، كله من حديد كأنه البرد المخبر، فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى من رأى الردم، فلينظر إلى هذا الرجل»، قال المفسرون: وهذا هو السد الذي بناه ذو القرنين، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم، فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دوداً يطلع في حلاتهم، فيهلكهم الله به، والأخبار في ذلك كثيرة.

(يجمور) دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر، وقيل: هو كالآليل يلقى قرنيه في كل سنة، وهما صامتان. وقال الجوهري: هو الحمار الوحشي.

نادرة: قيل: ترافق رجلان في طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر: قد صار لي عليك حق، وإنني رجل من الجان ولي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا وصلت إلى المكان الفلاني من هذه المدينة، فهناك عجور عتمة ديك، فاشتره منها واذبحه، فقال له الآخر: وأنا أيضاً لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قال: إذا ركب الجني إنساناً ما يعمل له قال: تشد إبهامي بيسير من جلد اليمحور وتقطر في أذنيه من ماء السذاب في اليمنى أربعاً، وفي اليسرى ثلاثاً، فإن الراكب له يموت تفرقاً ودخل الأنسى ففعل ما أمر به الجني من شراء الديك، وذبحه، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له: أنت ساحر. ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها، فلا تفلتك إلا إلى صاحب المدينة، قال: اتوني بيسير من جلد اليمحور وقليل من ماء السذاب، ودخلت على الصبية، فشددت وقطرت ماء السذاب في أذنيها، فسمعت صوتها يقول: آه علمتكم على نفسي، ثم مات من ساعته، وشفى الله تلك الشابة.

فصل: فى خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والخنزير لايقتيان شيئاً من أستانهما أبداً، وكل حيوان يعوم بالطبع، إلا الإنسان والقرد وكل ذى عين، فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فإنه فى الجهتين، والفرس لاطحال له والبعير لا مرارة له، والتظليم لا منح لعظمه، والحيات لا ألسنة لها، والسمكة لا رفة لها لأنها تنتنس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن وما لا قرن له فله حافر، والحيوان المتهم باللواط القرد، والخنزير والحمار، والسنور، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد والنمر والأفعى والسنور، والذى يدخر القوت من الحيوان الإنسان والفأر والغراب والنحل والنمل، والذى يحبض من الحيوان الإنسان والفرس والكلب والأرنب والضب والحفاش، ويقال أيضاً: الرعاد من السمك فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيرادها فى هذا الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتها

ذكر المسعودى فى كتابه عن بعض العلماء: أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلف، وهى أنواع منها: ذوات أجنحة وكلامهم قرقعة، ومنها ما له أبدان كالأسود ورووس كالطير، ولهم شعور وأذناب وكلامهم دوى، ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلفه، وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه نصف الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرائق، ومنها ما وجهه كالأدم وظهوره كالسحفاة وفى رأسه قرن وكلامهم مثل عوى الكلاب ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالقبر، ومنها ما له آليات بارزة كالخناجر وأذان طوال، ويقال: إن هذه الأمم تتكاثر وتتأسل حتى صارت مائة وعشرين أمة، ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة منها ستمائة فى البحر، وأربعمائة وعشرون فى البر، وفى الإنسان من كل خلق، فلذلك سخر له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق والفصح والبكاء، والفكرة، والفطنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهى والوعد والوعيد والتعيب والعذاب، وإياه خاطب ربه قرب، وخلق الله تعالى إسرائيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفى الحديث: «لأنتم ربوا الوجوه»، فإنها على صورة إسرائيل. وآيات الله تعالى فى البشر أكثر من أن تحصر: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (٣١)﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب (تحفة الآليات): دخلت إلى باسقره فرأيت قبر عاد، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندي فى باسقره نصف ثنية أخرجت لى من فك أحدهم الأسفل، فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألف ومائة مثقال، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعاً وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع. وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام. قال: ولقد رأيت فى بلغار ستة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلاً طويلاً طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً وكان يسمى: دنقى أو دبقى وكان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته يكرس يده ساق الفرس ويقطع جلده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة بيضاء عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ فى يده شجرة من البلوط كالعمسا لو ضرب بها الفيل لقتله، وكان خيراً متواضعاً، كان إذا لقينى يسلم علىّ ويرحب بى ويكرمنى، وكان رأسى لا يصل إلى ركبتيه رحمة الله تعالى عليه، ولم يكن فى بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات فى بلغار، وقال لى قاضى بلغار يعقوب بن النعمان: إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها وكان اسمه آدم وكان أقوى أهل بلغار قيل: إنها ضمت إليها، فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته.

وروى عن وهب بن منبه فى عروج بن عنت أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل: إنه كان يخوض فى الطوفان، فلم يبلغ ركبتيه، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً، وكان يجتاز المدينة فيتخطاها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهرأ طويلاً حتى أذنك موسى عليه السلام، وكان جباراً فى أفعاله يسير فى الأرض براً وبحراً ويضد ما شاء، ويقال: إنه لما حصر بنو إسرائيل فى الشيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدميه واحتملها على رأسه ليقلعها عليهم فبعث الله طيراً فى منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذى على رأسه، فانتقب من وسطه وانخرق فى عنقه، وأخبر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة والسلام بذلك، فخرج إليه وضربه بمصاقله، ويقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، وقفر فى الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه، فتبارك الله أحسن الخالقين، ومن ذلك ما قيل عن أمه عنت بنت آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوهة الحلقة لها راسان، وفى كل يد عشرة أصابع، ولكل أصبع ظفران

كالتجليل. وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: هي أول من بنى في الأرض وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر، وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة طيعه الشياطين بها وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترق بها، فغافلتها عنق وسرقتها واستخدمت بها الشياطين، وتكلمت بشيء من الكهانة، فدعا عليها آدم، وأمنت على ذلك حواء، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل، فهجم عليها وقتلها، وذلك بعد ولادتها عوجاً بستين.

ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل: أنه شاهد بيلاده الأكراد المحمدية في جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع وهو صبي لم يبلغ الحلم وكان يأخذ بيده الرجل القوى ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه، فقيل له في عقله خيل، فتركه.

وروى عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة اليمن، فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين وأياد أربعة، وهما ياكلان ويشريان ويتقاتلان ويتلاطمان ويصططحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت، فقيل لي: أحسن الله عزاءك في أحد الشقين، فقلت: وكيف صنع به؟ فقيل: ربط في أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل، ثم قطع ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهباً وراجعاً.

ومنه: ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة، وهو رجلان في جسد واحد، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تموجعان وتعطشان معاً؟ قال: نعم. فقالوا له: لا يمكن فصلهما، ويقال: إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما، فأخبر أنهما يختصمان في بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما.

ومن ذلك: ما ذكر أنه أهدى إلى أبي منصور الساماني فرس له قرنان، وتعلب به جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما، وإذا بعد الصقهما، وذكر القاضي عياض رحمة الله تعالى عليه أنه: ولد له مولود على أحد جنبه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا لا يعد، فإنه يوجد كثيراً في السور الدبركي، وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلها أيد، وذكر أنه كان لبعض ولاد مصر ملوك يدعى طقو، فولاء قرص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولد له ولد، ثم اتقلب امرأة فتزوج بها وولدت ولدين، وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين، والمخرج واحد، فكثير، وعجائب الله في مصنوعاته غير متناهية، فله الحمد على ما أنعم به علينا لاتحصى ثناء عليه.

ومن ذلك: إنسان الماء وهو حيوان يشبه الأدمى، وفي بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء، ويستشر الناس في تلك السنة بالخصب.

ومن ذلك: بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدي وفروج، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم، وضحك ولعب، ولهن رجال من جنهن ويقال: إن الصيادين يصطادونهن ويجمعنهن، فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء، ثم يعيدوهن في البحور ثانياً، ويقال: إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد على ما ذكر.

وحكى عن الشيخ أبي العباس الحجازي قال: حدثني بعض التجار أنه في سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فتقربوا إليها وجعلوا فيها الحبال، وأخرجوها، ففتحت أفئتها، فخرجت جارية حسناء بيضاء سوداء الشعر حمراء الخدين كحلاء العينين من أحسن ما يكون من النساء ومن صرتها إلى نصف سابقها شيء كالثراب يشتر قبلها وديرها ودائر عليها كالإزار، فأخذها الرجال إلى البر، فصارت تلطم وجهها وتنفث شعرها، وتعض يدها وتصيح كما تصيح النساء حتى ماتت في أيديهم فلقوها في البحر، فبارك الله أحسن الخالقين.

وحكى القزويني عن بعض البحرين: أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار، وأنهار، فأقاموا بها مدة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً، فخرج من المركب جماعة وكسوا في جانب البحر، فلما جاء

الليل خرج بنات الماء على عادنهن، فوثبوا عليهن، فأخذوا منهن اثنتين، فتزوج بهما شخصان، فاما أحدهما فوثق بصاحبه، فأطلقها، فوثبت في البحر، واما الآخر فبقي مع صاحبه زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها، فأطلقها، فأغفلت وألقت نفسها في البحر، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ودنت من المراكب وألقت لصاحبها صدفاً فيه در وجوهر، فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية: ما ذكره ابن رولاق في (تاريخه) أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسنة الوجه سوداء الشعر حمراء الخدين نغلاء العينين كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين وأحبها حباً شديداً وأولدها ولداً ذكراً، وبلغ من العمر أربع سنين، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه، ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها في البحر، فكاد أن يلقى نفسه خلفها حرة عليها، فلم يملكه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفاً كثيراً فيه در، ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، وما لم نشاهده ونسمع به أكثر، فبحان القادر على كل شيء. لا إله إلا هو ولا معبود سواه، فالعالم يعرف الجائز، والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدره الله تعالى قليل، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنه ولم يكذب قائله: والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله، وتزييف ناقله، وذلك لقلة عقله، وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقد أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [٥: ١٠٥]. فلا تكن منكر العجائب، فكل الأشياء من آياته:

فيا عجباً كيف يُعصى الإله	هـ أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وكذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص ويتقبب الياقوت والفلواز، ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذي أودعه هذا السر قادر على كل شيء، فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته، فإن الله تعالى قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]. قال صاحب (تحفة الباب): إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم. وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك، وذكر في بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء، ولا يعيش في أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن في ماء عندهم، فيجبلن من ذلك، وتلد كل امرأة منهن بنتاً ولا يلدن ذكراً أبداً، وقيل: إن ولد تبع اليماني وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين، وأن ولد تبع هذا كان اسمه إفريقش، وهو الذي بنى إفريقية، وسماها باسمه، وأنه وصل إلى واد السبت، وهو واد يجرى فيه الرمل كما يجرى فيه السيل لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت، فسكن جريانه فغيره إلى أن وصل إلى الظلمات، فيما يقال والله سبحانه وتعالى أعلم، وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم أعينهم في مناكبهم وأفواههم في صدورهم، وهم كثيرون كالبهايم يتسالمون ولا مضرة على أحد منهم، وأما الملك العظيم والعدل الكثير والنعم الجزيلة والسياسة الحسنة، والرخاء والأمن الذي لا خوف معه، ففي بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة التي لا يقدر أحد سواهم على أمثالها، وفي بلادهم جزائرهم ينبت العود وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقنقل والسنبل والدارصيني، والكمبابية، والبسباسية، وأنواع العقاقير والأدوية، وعندهم حيوان المسك، وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك في سرتة، وعندهم حيوان الزباد وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود تخين يسيل من جسده وتزيد راحته بالتغرب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر، ويخرج من بلادهم

أنواع اليواقيت، وأكثرها فى جزيرة سرتديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال. وحكى أنه كان بابل سبع مئائتين كل مدينة فيها أعجوبة كان فى إحدها تمثال الأرض، فإذا الترى على الملك بعض أهل مملكته واستمعوا عن القيام بالخروج خرج أنهارها عليهم فى التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سد الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسد التمثال لا يسد فى ذلك البلد، وفى الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحب من الشراب، فصبه فى ذلك الحوض، فاحتلطت الأشربة، فكل من سقى من ذلك الحوض كان شربه الذى جاء به، وفى الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه، فلو كان حياً سمر له صوت، وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت.

وفى الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها، فأبصروه على أى حالة هو عليها، كأنهم يشاهدونه، وفى الخامسة أورة من نحاس، فإذا دخل الغريب صوتت الأورة صوتاً يسمعه أهل المدينة، وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتى الخصمان، فيمشى المحق على الماء حتى يجلس مع الغاضيين، ويقع للمطل فى الماء، وفى السابعة شجرة ضخمة لا تنظر إلا ساقها، فإن جلس تحتها أحد أظلمت إلى ألف شخص، فإذا أرادوا على الألف واحداً جلسوا فى الشمس كلهم، ولو بسطت القال فى ذلك لامتص المجال، وقد اقتضت فى ذلك على ما ذكرت والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى، وعلى آله وصحبه وسلم.

في خلق الجن وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب (تحفة الألباب) أنه قال: قرأت في بعض الكتب المقدمة الماثورة عن العلماء وحكماء الله تعالى أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجن خلق نار السموم وخلق من مارجها خلقاً سماه جناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. وقيل: إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، والجن من لهبها والشياطين من دخانها، وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعاً من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً في الأرض قد طبقوها برأً وسحرًا، سهلاً وجبلاً، وكان فيهم الملك والنبوّة والدين والشريعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطفخوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة، وذكر المسعودي أن القرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يشرق السمح، ومنهم من ينط مع لهب النار، ومنهم من يطير، ولكل قبيلة ملك، وكان من جعلتهم إبليس لعنه الله، ثم بعد خمسة آلاف سنة انشققوا وملكوا عليهم ملوكاً، وأقاموا على ذلك مدة طويلة، ثم تخاسدوا على الملك، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء ويختلط بالملائكة، فبعت الله تعالى بجيوش من الملائكة، فهزم الجن، وقتلهم، وتلك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأعجب آدم إلى الأرض وعظم شأنه، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم اتقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد بل يخلق كالطير، ويبيض ويفرخ قيل: إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان، فيسلطهم على الخلق، وأقر بهم إليه وأدانهم منه، ومن مجلسه أكثرهم إيداء للخلق. وفي الحديث: «إن إبليس لعنه الله قال يارب أنزلتني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رجيماً فأجعل لي مسكناً قال: مسكنك الأسواق قال: فأجعل لي طعاماً قال: ما لم يذكر اسمي عليه. قال: فأجعل لي شراباً قال: كل مسكر. قال: فأجعل لي مؤذناً قال: المزاسير. قال: فأجعل لي صيداً، أو قال مصاد قال: النساء».

فصل: في مكايده لعنه الله

منها: أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصا وله جار له بنت فحصل لها مرض، فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برصيصا ليدعو لها، قال فجاء إبليس إلى العابد، وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بنتاً مريضة، فما ضررك لو حملتها عنك في جانب البيت ودعوت الله لها عقب عبادتك، ففسى أن تشفى من مرضها، قال: فلما أتاه جاره بالبت قال له العابد: دعها وانصرف. قال: فتركها عنده مدة حتى شفيته، فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها، فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه الله فقال له: اقتلها لتلا تفتضح قال: فقتلها، ودفنها. قال: فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقبضوه، فعارضه إبليس اللعين في الطريق، فقال له: إن سجدت لي خلصتك منهم، فسجد له، فعند ذلك تبرأ منه ومات الرجل كافراً. اللهم احصنا من مكائد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين.

ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها، فعارضه إبليس لعنه الله، وقال له: تركت عبادتك وجئت لشيء لا يعود عليك نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه، فصصره العابد، وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم ثلاثة أيام، فلما رآه لا يرجع قال له: أترك قطعها، وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك، وعاهدته على ذلك، فرجع. قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين، ثم قطع ذلك عنه، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة،

فعارضه إبليس فى الطريق، وتحاور معه، وتحاذبا، فصرعه إبليس وجلس على صدره، وقال له: إن لم ترجع عن قطعها، وإلا ذبحتك، فقال له العابد: خل عني، واخبرني كيف غلبتني، فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتك.

ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محل استيفائها. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَمَنْ لَكُمْ عِدٌّ بَشَرٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ [الكهف: ٥٠].

فصل: فى المشيطة وهم أنواع كثيرة

منها: الولهان يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان.

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعمة يريد أخذ المركب، وصاح بهم صيحة عظيمة، خروا منها على وجعهم، وأخذ بعض من فى المركب، ومنها السعلاة يحكى أن صنفاً منها يتزيا بزي النساء، ويترأى للرجال. وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً، فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح، فنظرت، فرأت ناراً من بعد عند الجبانة، فاضطربت، وقالت: ألم تر نيران السعالى، وتغير لونها، وقالت: بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً، ثم طارت ولم تعد إليه، ومنها نوع يقال له: المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم.

وحكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها، فأثاء شخص سراج وطعام، فتعجب العابد من ذلك، فقال له شخص بالصومعة: إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى، والله إني لأعلم أنه شيطان، وقال بعض الصوفية: المذهب أصناف منهم من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من يتشد الشعر.

وقال بعض المسافرين أبى لى غلام، فخرجت فى أثره، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفردوق وجريز، قال: فنزلت منهم، وسلمت عليهم، فقالوا: ألك حاجة؟ فقلت: لا، فقال بعضهم: تريد غلامك قلت: وما أعلمك بغلامى؟ قال: كعلمى بجهلك، قلت: أو جاهل أنا؟ قال: نعم، وأحمق، قال: ثم غاب وأتاني بالغلام مقيداً، فلما رأيته غشى على، فلما أفقت قال: انفخ فى يده، ففعلت، فانفج القيد عنه وصرت لا أنفخ فى شئ من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برى وخلص صاحبه، ومنها نوع يقال له: العفريت يخطف النساء، يقال: إن رجلاً اختطف ابنته فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

وقال بعض المسافرين: بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة، فانفردت عن رفيقتى، وضللت عنهم، فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة وخيمة، فجئت إلى جانبها، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها، فالتفتها عن حالها، فقالت: أنا من فزارة اختطفنى عفريت يقال له: ظليم وجعلنى ههنا، فهو يئيب عني بالليل، ويأتيني بالنهار، فقلت لها: امضى معى، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا، فياخذنى ويقشك، فقلت: لا يستطيع اخذك ولا قتلى، ومازلت أرددها الحديث حتى رضيت، فأنخت لها ناقتى، فركبتها، وسرت بها حتى طلع الفجر، فالتفت، فإذا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض، فقالت: ها هو قد أتانا، فأنخت ناقتى وخططت حولها خطاً، وقرأت آيات من القرآن، وتعوذت بالله العظيم، فقدم وأشد يقول:

يا ذا الذى للحين يدعوه القـ
خل عن المحسناء ثم رسلاً مـ
وإن تكن ذا خـبـرة فـينا اصـطـبر

قال، فأجبت:

يا ذا الذى للحين يدعوه الحـمـق
نخل عن الحـسـناء وسـلـاً وانـطـلق
مـسا أنت فى الجنِّ بأوّل من عـشـق

قال: فتبدى لى فى صورة أسد، وجاذبنى وجاذبته ساعة، فلم يظفر أحد منا بصاحبه، فلما أيس منى قال: هل لك فى جز ناصيتى، أو إحدى ثلاث خصال؟ قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخدمك أيام حياتى، أو ألف دينار الساعة، وخلّ بينى وبين الجارية، فقلت: لا أبيع دينى بدنياى، ولا حاجة لى بخدمتك، فاذهب من حيث آتيت. قال: فانطلق، وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها، وتزوجت بها، وجاءنى منها أولاد.

وقيل: لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام: أيها الجن أجيئوا نى الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والعيان والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: لبيك لبيك والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم حتى حشرت بين يدى سليمان عليه الصلاة والسلام طائفة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها، فإذا هى سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس أسد وبدنه بدن الفيل، ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر، وغير ذلك من الأنواع. قال: فعند ذلك تعجب نى الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال، وسجد شكراً لله تعالى، وقال: إلهى ألبسنى هيئة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم، وهم يجيبونه، ثم فرهم فى الصنائع: من قطع الصخور والأحجار والأشجار والغوص فى البحار، وأبنة الحصون، وفى استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٤). ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير، والله المسئول فى تيسير كل عسير، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر البحار وما فيها من المعجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول: فى ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر إليها ميز الهيبة، فذابت وصارت ماء، فاضطرب الماء، فخلق الربيع ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضع على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧].

واعلم أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر، وأن بحر الهند خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التى ذكرناها أصلها من البحر الأسود الذى يقال له: البحر المحيط. وأما بحر الخزر وبحر خوارزم، وبحر أرمينية، والبحر الذى عند مدينة النحاس، وغير ذلك من البحار الصغار فهى منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد، وقيل: مثل النى ﷺ عن الجزر والمد، فقال: هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله فى البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل الجزر، وقيل: إنما سمى البحر الأسود لأن ماءه فى رأى العين كالخمر الأسود، فإن أخذته الإنسان فى يده شيئاً رآه أيضاً صافياً إلا أنه أمر من الصبر مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء فى بحر الروم تراه أخضر كالزنجار، والله تعالى يعلم لآى شيء ذلك، وكذلك يرى فى بحر الهند خليج أحمر كالدّم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن تتغير هذه الألوان فى هذه المواضع، والماء فى نفسه أبيض صاف، وقيل: إن تغير الماء بلون الأرض.

وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره، فقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر، وأمر علينا أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه تنلقى غير قريش، وروودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا قرة لمحسها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فأشوفنا على ساحل البحر، فرأينا شيئاً كهية الكتيب الضخم، فأتيناه، فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر، فاقمتنا شهراً نأكل منها، ونحن ثلاثمائة حتى سمننا، ولقد رأينا نذرف من الدهن الذى فى قوب عينها بالغلال، ونقطع منه القطعة كالثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم فى قوب عينها، وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها، ثم رحل أعظم بعر معنا، فسر من تحتها وتزودنا من لحمها، فطعمونا، فأرسلنا له منه، فأكله، وقيل: يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتبعتها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتهرب منها إلى مجمع البحرين، فتبعتها، فتضيق عليها مجمع البحرين، لعظمها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك الله رب العالمين.

وقال صاحب «تحفة الآباب»: ركبت فى سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبى ينخلع، وسقطت على وجهى أنا وغيرى، ثم ألبت السمكة نفسها فى البحر، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً، وعظمت أمواجه، وغصنا الغرق، فنجانا الله تعالى بفضلته، وسمعت الملاحين يقولون هذه سمكة تعرف بالخل قال: ورأيت فى البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كاستان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيننا وبينها فى البحر أكثر من فرسخ، فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين، ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبو سفينة فى البحر، فأرسلوا على جزيرة فخرجوا إلى تلك الجزيرة، فغسلوا ثيابهم واستراحوا ثم أوقدوا ناراً ليطيخوا، فتحركت الجزيرة، وظلّت البحر، وإذا بها سمكة، فبصحن القادر على كل شيء لا إلا هو، ولا معبود سواه، وقيل: إن فى البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها يقال: إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة، تنلقى نفسها عليها، فتحطمها، وتهلك من فيها، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا وكبروا وضجوا وضربوا الطبول

وتغروا الطورت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات، ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضلهم ورحمته.

وقال الشيخ عبد الله صاحب «تحفة الألباب»: كنت يوماً في البحر على صخرة، فإذا أنا بذنب حية صفراء منقطعة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلي، فاشتدعت عنها، فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت الصخرة، فقلت خنجرًا كبيرًا كان معي فطعنت به رأسها، فغار فيها، فلم أقدم على خلاصه منها، فامسكت نصابه بيدي جميعاً وجعلت أجريه حتى ألصقتها بباب الجحر، فتركت الجحر، وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هي خمس حيات في رأس واحدة، فتعجبني من ذلك، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال: هذه تعرف بأسم الحيات، وذكروا أنها تقبض على الأدمى في الماء فتصكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً وأنها تقلب الزوارق، وتأكُل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدها أرق من جلد البصل، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً. قال: ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارنج الأحمر الطرى الذي كأنه قطع من شجرة، فقلت في نفسي: هذا قد وقع من بعض السفن، فلعبت إليه، فقبضت منه نارنجة، فإذا هي ملتصقة بالجحر، فجلبتها، فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي، فلففت يدي بكم ثوبي، وقبضت عليه وعصرته، فخرج من فيه مياه كثيرة، وضمر، فلم أقدر أن أقبله من مكانه، فتركته عجزاً عنه، وهو من عجائب خلق الله تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا الفم، والله سبحانه وتعالى أعلم لأي شيء يصلح ذلك.

قال: ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عقود عنب أسود كبير الحب أخضر الصرجون كأنما قطف من كرمه، فأخذته، وكان ذلك في أيام الشتاء، وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب، فرمت أن أكل منه، فقبضت على حبة منه، وجذبته، فلم أقدر أن أقتلها من العقود حتى كسأها من الحديدية قوة وصلابة، فجلبتها جذبة أقوى من الأولى، فانقشرت قشرة من تلك الحبة فكشّر العنب وفي داخلها عجم كمعجم العنب، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك، وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل، وله أنياب كأنها السباع، وجلده له شعر ك شعر العجل، وله عتق وصدر وبطن، وله رجلان كرجل الضفدع، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودي، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر، ويلقي نفسه في البر ولا يتحرك، ولا يأكل، ولو قتل، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد، فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخبته وقوته وجلده، يتخذ منه نعل لصاحب النفرس، فلا يجد له الماء مادام ذلك الجلد عليه، وهو من العجائب، وقيل: إن في بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع، وأكثر، وله أنياب كأنها الفيل تؤخذ وتباع في بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد وهي أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجواهر، ويتخذون منه نصيباً للسكاكين، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالمصاص، وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد إذا دخل في شبكة، فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على حبل من حبالها تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يردد صاحب الحمى، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة، فإن أعادها عادت إليه الرعدة، وهذا أيضاً من العجائب، فبجحان الله جلّت قدرته.

وقال صاحب «تحفة الألباب»: حدثني الشيخ أبو العباس الحجازي قال: حدثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة في بحر الهند، فرأى طائوساً قد خرج من البحر أحسن من طائوس البر وأجمل ألواناً. قال: فكبر لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه، وينثر أجنته، وينظر إلى ذنبه ساعة، ثم غاص في البحر، وفي البحر دابة يقال لها: الدردين تنجى الغريق لأنها تدنو منه حتى يضع يده على ظهرها، فيستعين بالاتكاء عليها، ويتعلق بها، فتسبح به حتى يتجبه الله تعالى بقلته، فبحجان من دبر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة، ورددوا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويهيموا لسماعه، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون في البحر حفاراً، ثم يجلسون ليضربون بالمصارف وآلات الطرب، فيجتمع السمك، ويقع في تلك الحفائر، وقيل: إن الدردين وأنسواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل: إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهي صفة خيل البر. وقيل: إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فوعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان، وقيل: إن في البحر المحيط شيئاً يترأى كالحصون، فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة، ويغيب، ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهي كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلّة

طلوع الشمس عندهم ويجعلونه في بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف. وعجائبه لا تحصى، ولا يمكن حصرها، ويقال: إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مر بجزيرة بها أمة رؤوسهم مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه، وحاربوه، ثم تخلص منهم وسار، فرأى صوراً متلونة بالوان شتى وسمكاً طوله مائة ذراع، وأكثر، وأقل، ف سبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه.

ويقال إنه مر في بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قتاديل لافطاف، ومن جزائر البحر جزيرة القمر يقال: إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طواف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسك وأعرض وأثمن، ويقال: إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التي بها يتعلمون بمذهب الإمام الشافعي رضى الله تعالى عنه، وهم في غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العود القماري والأبنوس والطاويس، وبها مدن كثيرة، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له: اصطفيون داخل البحر الجنوبي، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ورأى هذه الملكة، وهي جالسة على سرير، وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أيكار، وفي هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز، وخيار الشبر ويحمل حملاً كهية الإنسان، فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق، ثم يسقط، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيمهم ومقاردهم كلابهم وأطواقهم من الذهب، ومنها جزيرة الصين يقال: إن بها ثلاثمائة مدينة وثقاً سوى القرى والأطراف، وأبوها اثنا عشر باباً، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاورت السفينة الأبواب سارت في ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذي تريده، وفيها من الادوية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه، فتبارك الله رب العالمين.

ويقول: إن الإسكندر لما فرغ من بناء مدنه حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أعلى ومد الأفاق، فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم، ففرعوا، فقال: ما لكم؟ فقالوا له: انظر ما حل بنا، فقال: ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها، وقد منعتي من العدو فلا يسقط عليّ حيواناً من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك، وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر، وقد رأيت هذا السد بنى وخرب سبع مرات، ولم يزد على ذلك، ثم غاب في البحر، فتبارك من له هذا الملك العظيم، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ويقول: إن بجزيرة التناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر، وطولها نحو ستة فراسخ، وهي حصينة ذات كروم ونخيل، وأشجار، وغير ذلك، وإذا أراد الإنسان الدخول فيها حتى في وجهه بالتراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل: إنها معمورة بالجان، وقيل: بخلق من التناس، ويقال: إنهم من بقايا عاد الذي أهلكهم الله بالريح العقيم، وكل واحد منهم شق إنسان، ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قاتلاً يقول من الشجر: يا أبا بجير الصبح قد أسفر، واللبل قد أدير، والفتاص قد حضر، فالحنجر الحنجر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كليين كانا معنا نحو الشجرة، فسمعت صوتاً يقول: نأشدتك. قال، قتلنا لريقتي. دعهما، قال: فلما وثقا بنا نزلا هارين، فتبعهما الكلبان وجداً في الجري، فأمسكا شخصاً منهما قال: فأدركناه وهو يقول:

السويل لى مما به دهانسى دهري من الهـموم والاحـزان
فـنـا قـليلاً إيهـا الكـلبان إلى مـنـى إلى عـجـريـان

قال: فأخذناه ورجعنا، فذبحه رفيقي وشواه، ففتمته ولم أكل منه شيئاً، فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثامن: في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]. قال المفسرون: هو المطر، ومعنى سلكه أدخله في الأرض، وجعله عيوناً ومجاري كالعروق في الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته، ومنها ما ينبع من الأرض، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة، وبين ذلك، وكلها تبتدئ من الجبال وتنتهي إلى البحار والبطائح، وفي عمرها تسقى المدن والقرى وما فضل منها ينصب في البحر المالح ويختلط به، ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول:

النيل المبارك: ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام، وشهرين في بلاد النوبة، وأربعة في الحراب، وقيل: إن مسافته من منبعه إلى أن يصب في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً. قال ذلك صاحب (مباحج الفكر ومنابع العبر). واختلف في زيادته، فقيل إن الأنهار والعيون تحده في الوقت الذي يريده الله تعالى. وفي الحديث: «إنه من أنهار الجنة»، وقال أهل الآثار: إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبله في أرض الذهب، ثم تمر بالبحر المحيط، ونشق فيه. قالوا ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور.

نهر الفرات: يوجد بأرض أرمينية. فضائله كثيرة، والنيل أصدق حلوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قطاراً بالدمشق، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً، وفي وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات.

جيحون: نهر عظيم متصل به أنهار كثيرة، ويمر على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم، ولا يتقنع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها منفصلة عنه، ثم يصب في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر، والماء يجري من تحت الجسد، فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها، وإذا اشتد جموده مسروا عليه بالقوافل والعجل المحملة، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون: نهر عظيم. قيل: إن مبدئه من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرافنة، وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن.

اللدجلة: نهر بغداد. وله أسماء غير ذلك وماؤه أعذب المياه بعد النيل، وأكثرها نفعاً. قيل: مقداره ثلاثمائة فرسخ، وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينجو غريقه.

حكى أنه وجد به غريق فيه الروح، فلما أفاق سأله عن حاله، فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحدًا يحمله ويصعد به، وروى في الآثار أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه ويتفتنون به، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكننا نذكر منها طرفاً فنقول:

نهر حصن المهدي: قال صاحب (تحفة الأجباب): إنه بين البصرة والاهواز، وإنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل، ولا يعرف أحد شأنه.

نهر آذربيجان: قيل إن بالقرب منه نهراً يسرى فيه الماء ستة، ثم ينقطع ثمان سنين، ثم يعود في التاسعة، وقيل إنه يتعقد حجراً ويستعمل منه اللبن ويبنى به. وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تحف فلا يوجد فيها ماء ولا سمك، ولا طين سبع سنين، ثم يعود الماء والسمك والطين، فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

نهر صقلاب: يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع ثم يتقنع ستة أيام.

نهر العاصي: بأرض حماة. وقيل: يحمص وهو نهر معروف. وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمص كعبه القصف أصبحت يظوف بها الداني ويسمى لها القاصي
بها روضة من حننها متدسية تعلق في أكفاف أذيالها العاصي

نهر العمود: بأرض الهند عليه شجرة ناشئة من حديد، وقيل: من نحاس ونحتها عمود من نحاس وقيل: من حديد. طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع، وعلى رأسه ثلاث شعب مستوية محددة، وعند رجل يقرأ كتاب الله تعالى، يقول: يا عظيم البركة طوبى لمن سعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود، فيدخل الجنة، وقال أهل تلك الناحية: من يريد ذلك فليصعد على تلك الشجرة ويلقى نفسه، فيقطع.

نهر باليمن: قال صاحب (تحفة الألباب): إنه عند طلوع الشمس يجرى من المشرق إلى المغرب، وعند غروبها يجرى من المغرب إلى المشرق.

نهر بيلاد الحبشة والسودان: يجرى إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه، وأرضه بها الحصب والبركة وبها شجر كالآراك يحمل ثمرأ كالبطيخ داخله شيء يشبه القند^(١) في الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجرى في بلادهم ثمانية أشهر، ثم ينصب في البحر المحيط، فسبحان من دبر هذا التعبير، وأحكم هذه الصنعة، لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث: في ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحب أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن بيبابل بئر هاروت وماروت، فسرت إليها، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتا، فدخلت في بعضها، فوجدت شخصاً، فسلمت عليه، فرحب بي وسألني عن حاجتي، فذكرت له غرضي فأمر يهودياً يذهب معي، فيوقني على البئر، ويطلمني على الملكين. قال، فسرتنا إلى البئر، ففتح مرداباً ونزلنا، فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال: فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجليلين العظيمين منكبين على رؤوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد: فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى. قال: فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل. قال، ففر اليهودي، فتعلقت به، فقال: أما امرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت: يقرب حضرموت، وهي النسي قال النبي ﷺ إنها مجمع أرواح الكفار. قال عليّ كرم الله وجهه: أبيض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود من أن تأوى إليها أرواح الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر صفان: ماؤها يستشفى به، قيل إن النبي ﷺ نفل فيها، قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما: كنا نغسل المريض منها، فيعافى. وقيل: إن النبي ﷺ تروضا منها.

بئر معروفة بأرض حلب: خاصيتها أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ما لم يجاور الأربعة، وينسابور آبار كثيرة، وهي معادن الفيروز، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لحة واحدة ويجري، فينتفع به في سقى الزرع، ثم يعود إلى ما كان، وعجائب الله كثيرة لا تكاد تحصر. لا إله إلا الله ولا معبود سواه.

(١) القند: حبل قصب الكر إذا جمد.

في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والحراب

روى وهب بن منبه رضى الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لسه تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران في الحراب إلا كخردلة في كف أحدكم». وقال روة الأثر: إن لله عز وجل دابة في مرج من مروجيه في غامض علمه رزقها في كل يوم بقدر رزق العالم بأسره. وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة، وقيل غير ذلك، وأقاليم الأرض سبعة. الإقليم الأول الهند، والثاني الحجاز، والثالث إقليم مصر، والرابع إقليم بابل، والخامس إقليم الروم والشام، والسادس إقليم الترك، والسابع إقليم الصين. وأوسط الأقاليم إقليم بابل، وهو أعمرها، وفيه جزيرة العرب، وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا وبغداد في وسط هذا الإقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله، فسلموا من شقرة الروم وسواد الحيشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودماة أهل الصين. والممالك المشهورة التي ضيقت عندها في زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسمها ثلاثة أشهر وأضيقتها ثلاثة أيام. وقال أهل الهيئة: إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتانان في سنة واحدة، وأنه يكون في بعض البلاد ستة أشهر ليل وستة أشهر نهار وبعضها حر وبعضها بارد، فسبحان من خلق كل شيء، فائقته. لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني: في ذكر الجبال

قيل: إن الله تعالى لما خلق الأرض ساجت واضطربت، فخلق الجبال وأراسها بها، فاستقرت، ومجموع ما عرف بالاقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً، فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ. ولتذكر منها ما هو مشهور ومعروف بين الناس.

فمن أعجبها جبل سرنديب: وطوله مائتان وثنيون ميلاً وفيه أثر أقدام آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الياقوت وفي أوديته المناس الذي يقطع به الصخور ويثقب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد.

جبل الروم: الذي فيه السد طوله سبعمائة فرسخ ويتهى إلى بحر الظلمات.

جبل أمي قيس: سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس، وقيل غير ذلك.

جبل القمص: جبل شريف مبارك فيه غار يسمى بالليل من غير سراج، ويزوره الناس.

جبل أروند يهملان: برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة تقصد من كل وجه يستشفى بها.

جبل بالشام: لونه أسود كالنعم وترابه أبيض تبيض به الثياب.

جبل الأندلس: فيه غار إذا دهمت فتيلة وادخلها فيه أوقدت، وبها جبل به عيان إحداهما باردة والأخرى حارة، والمسافة التي بينهما مقدار شهر، وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر.

جبل سمرقند: يقطر منه ماء في الصيف يصير جليداً وفي الشتاء يحرق من حرارته.

جبل الصور: بكرمان يكرر حجره، فيه ج منه كصور الأدميين قاتمين وقاعدتين ومضطجعين، وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك.

جبل الأرجان: بطيرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدداً أو مثناً.

جبل هرمز: ينزل منه ماء إلى ودة، فإن صاح إنسان صيحة وقف فإن شئ جرى.

جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ويدخل في كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة، وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الحصب في تلك السنة. ولتقتصر على ذلك، ومن أراد الرقوف على جميعها فليبه بتاريخ مرآة الزمان.

الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ، ونقله الأخبار: إن أول بناء بنى على وجه الأرض الصرح الذي بناه عمرد الأكبر بن كوش بن حام ابن نوح عليه الصلاة والسلام ويقع بكوثر من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات. قالوا: كان طوله خمسة آلاف ذراع بناء بالحجارة والشمع واللبن ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة، فقبلت بها السنة الناس، فسميت أرض بابل لإرم ذات العماد: التي لم يخلق مثلها في البلاد.

حكى الشعبي في كتاب (سير الملوك): أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى رادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى، فقال له شداد: إن آمنت بإلهك فسادا لي عنده؟ قال: يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد: أنا أبني مثل هذه الجنة ولا احتاج إلى ما تدعى به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جيابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء طيبة الهواء بعيدة من الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب. قال: فخرج أولئك الأمراء، ومع كل أمير ألف رجل من خنمه وحشمه، فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن، فرأوا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء، فأعجبتهن تلك الأرض، فأمروا المهندسين والبنائين، فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها أربعون فرسخاً من كل جهة عشرة فراسخ، فحفرها الأساس إلى الماء وينوا الجدران بحجارة الجزع اليماني حتى ظهر على وجه الأرض ثم إحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع وغشوه بصفائح الفضة الموهبة بالذهب فلايكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا، فاستخرج منها الذهب واتخذ له بيتاً، ولم يترك في يد أحد من الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤسائه ملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهاراً، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاهها من الذهب والجواهر واليواقيت وحلى قصورها بصفائح الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار جذوعها من الذهب والجواهر واليواقيت واللاكيء، وطلّى حيطانها بالملك والعنبر، وجعل فيها جنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت ومما في أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسومة الصادح والمفرد، وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة يرسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً وستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة، فأتخذوها جميعاً ما أمر به، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته، وقصد مدينة إرم ذات العماد، فلما أشرف عليها ورأها قال: قد وصلت إلى ما كان هود يعدني به بعد الموت، وقد حصلت عليه في الدنيا، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً، فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرقه عين، فسحروا على وجوههم صرعى.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [التجم: ٥٠]. وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس، فكانوا يرون بالليل في تلك البرية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً.

وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: عبد الله بن قلابة الأنصاري دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل، فخرج في طلبها، فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره، وقال في نفسه: هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين في الآخرة، فقصده باباً من أبوابها، فلما وصل إليه أتاه راحلته، ودخل المدينة، فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار، ولم ير في المدينة أحداً، فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة، وقال قربها من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعدما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضى الله تعالى بدمشق،

وأخبره بجميع ما رآه، فقال له معاوية: في اليقظة رأيته أم في المنام؟ قال: بل في اليقظة، وقد حملت من حصبتها وأخرج له شيئاً مما حملته من الجواهر والياقوت فتعجب معاوية من ذلك، ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه، فلما دخل عليه قال له معاوية: يا أبا إسحاق هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنبينا ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَدَّرْنَا بِكَ عِبَادًا﴾ (٦) ﴿وَمَذَّابُنَا عِبَادًا﴾ (٧) [الفجر: ٦ - ٨]. وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري، ثم التفت، فرأى عبد الله بن قلابة فقال: ها هو يا أمير المؤمنين، وصفه واسمه في التوراة، ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل: إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وإن الرجل الذى دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم يكرهه ولا من كان حاضراً بل قال إن النبى ﷺ قال يدخلها بعض أمته، والله سبحانه وتعالى أعلم.

جاری بنوہ ابا الغیلان عن کچر
وحسن فعل کما یجزی سنمار

ومن المبادئ العجيبة الأهرام: وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا. قيل: إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ألفا ذراع من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هراً، وتعجب من بينائها وصفقتها وقيل: إن كل حجر من حجارته ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة أذرع، وقد أحكم الإصاغة ونحته وتسويته ولا يفتقر التجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهي من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور للملك عظام أرواما أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم كما تميزوا عنهم في حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بتقيها، فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل، فوجد داخله مزاليق ومهاوى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها، ووجد في أعلا بيت وفي وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا لمة بالية، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه. ويقال: إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراب من سرياق لرؤيا رآها وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان، فقالوا: إنه بناها في سنة أشهر وقال: قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستماعة سنة، والهلم أسير من البنيان، وكونواها الدياج الملون، فليكنها حصراً، والحصر أهون من الدياج، والأمر فيها عجيب جداً، والله سبحانه وتعالى اعلم.

طولها كان ألف ذراع، وفي أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر، فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو، فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت تصويماً مطرباً، ويقال: إنه كان بأعلاها مسرة من الحديد الصنيى عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرص، وقيل: كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرأة مقابلة الشمس، واستقبلوا بها السفن، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر، ويهلك كل من فيها، وكانت الروم تؤدى الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودى: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً، وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفنان، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنا تلك الأموال وقالوا للوليد: إن تحت المنارة كنوزاً وكنوزاً خفية بها كنز وكذا ألف دينار، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها فهدموها، فلم يجدوا تحتها شيئاً، وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه، فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالأجر ولم يقصدوا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أقومها نصبوا عليها المرأة كما كانت، فصدت، ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً، وبطل إحراقها، فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وقد عملت الجبل سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجوزع اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يشي خلفه لصفاتها، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه.

وفي مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها: اللجاة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه السنة العقلاء. كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ليس في السدار خشبة واحدة بل أبوابها وغرفها، وسقوفها ويبرتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يمسسه من الخشب، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلمة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحي من العدو دخلوا إلى تلك المدينة، فينزل كل إنسان في دار بجميع عياله وخيله، وغنمه وبقرة، ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار، فيما يقال، ولا يعلم أحد من بنائها، وسمتها العرب اللجاة لأنهم يلجأون إليها عند الخوف.

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنوشروان: بناء سابور ذو الاكتاف في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين، بناء بالأجر، والجص، وجعل طول كل شرافة من شرايفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً.

وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آتاه في بنائه، فقيل له: إن نقضه يشكلك بقدر العمارة، فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أتفق عليه، فوجد الأمر كذلك، وقيل إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه: هو آية الإسلام، فلا تهدمه.

وحكى أنه كان بمدينة تيسارية كنيسة بها امرأة إذا اتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرأة، فيرى صورة الزاني، فانفق أن بعض الناس قتل غريمه، فعند أهلها إليها، فكسروها والله مبيحاته وتعالى أعلم، وقد اقتصر من ذلك على هذا القدر البسيط، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس ومنها ما لا يعرفونه وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة: وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير، والأسرب، والحارصيني، ولنبداً أولاً بذكر:

(الذهب) قليل طبعه حار لطيف لشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية. قيل: إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولا يلبى ولا يصدأ، وهو لين براق، حلو الطعم، أصفر اللون، فالصفر من تارته، واللينة من دهنته، والبراقة من صفاء مائه.

خواصه: يقوى القلب ويدفع الصرع تعليقاً، ويمنع القزح والخفقان ويقوى العين كحللاً ويجلوها إذا كان ميلاً، ويحسن نظرها وإذا ثقت به الأذن لم تلتحم وإذا كوى به لم ينقط ويبرأ سريعاً، وإسكاه في الفم يزيل البخر. (الفضة) قريبة منه وتصدأ وتحترق وتبلى بالتراب، وإذا أصابته رائحة الرصاص والزئبق انكسرت أو رائحة الكبريت اسودت.

ومن خواصها: أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه، وإذا أذيت مع الزئبق وطلى بها البدن نفع ذلك من الحكمة والجرب وعسر البول.

(النحاس) قريب منها ولكنه أبيض، وأغلظ في الطبع.

ومن خواصه: إذا صدئ وطلى بالحامض زال صدؤه والأكمل في آتيه يولد مرضاً لا دواء لها.

(الحديد) كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل.

ومن خواصه: أنه يمنع غليظ النائم إذا علق عليه، وحمله يقوى القلب ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسر النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحللاً واليواسير تحملاً.

(القصدير) صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض.

ومن خواصه: أنه إذا ألقي في قدر لم ينضج ما فيها.

(الأسرب) هو الرصاص. ومن خواصه: أنه يكسر المس، ومن خواص المس الدخول في كل شيء، وإذا شد من الرصاص قطعة على الخناير، والفرد أبرأتها.

(الحارصيني) حجر لونه أسود، لونه يعطى حمرة.

ومن خواصه: إذا عمل منه مرآة ونظر فيها في الظلمات نفعت للقرة وإذا تنف الشعر بمقاط منه لم يبت.

الأحجار الجوهريّة: أصل الجواهر، وهو الدر على ما قيل إن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ويفتح أذنه يلتقط بها المطر، ويضمها ويرجع إلى البحر، فينزل إلى قراره ولا يزال طابقاً أثناء على ما فيها خوفاً أن يختلط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها، ويصير دراً، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرّة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان في بطن هذا الحيوان شيء من الماء المر كانت الدرّة كدرة، وإن لم يكن كانت صافية، وقيل غير ذلك. والدر نوعان: كبير، وصغير. قيل: إنه تصل الواحدة إلى مقال.

ومن خواصه: إنه يفرح القلب ويسط النفس ويحسن الوجه، ويصفى دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شد عصب العين.

(الياقوت) سيد الأحجار، وأصول ألوانه أربعة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والإسماغوني، ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرماني الشبيه بحب الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب ببياض، ثم الوردى، ثم الحمري، ثم المعصري وأرذوه الأزرق، الذي لونه يشبه زهر السوسن وأقله قيمة الأبيض.

خواصه: أنه لا يعمل فيه الفولاذ ولا حبر الماس ولا تنسج النار ويورث لابسها مهابة ووقاراً، ويسهل قضاء الحاجات ويبدد الريق في النعم ويقطع العطش ويدفع السم ويقوى القلب، وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً، والأيض منه يسطئ النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

(البليخش) هو مقارب الباقوت في القيمة ودونه في الشرف.

ومن خواصه: إنه يورث قبض النفس وسوء الخلق والحزن وهو ألوان: أحمر، وأخضر، وأصفر.

(البليخش) أصناف أحمر مفتوح اللون صاف وأحمر قوى الحمرة، وأسود يملوه حمرة مطومة بزرقة خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

(هين الهر) حجر يتكون من معدن الباقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائته رقيقة شفاقة وفي مائته سر إذا حرك يميناً تحركت يساراً وبالعكس.

ومن خواصه: إذا حلق على العين آمن عليها من الجلدري على ما قيل.

(الماس) يوجد بواد بالهند يقال: إنه مشحون بالحيات، فيأتي من يريده استخراجها من ذلك الوادي فيضع في الوادي مرآة كبيرة، فتأتي الحيات تنظرن إلى خيالها في المرآة فتفر من ذلك الجانب فينزل، فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها في ذلك الوادي، فيأتصق الماس وغيره باللحم، فتأتي الطير، فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر، فيأخذله صاحب اللحم، وقيل: إن الحيات لها مشتى ستة أشهر في مكان، ومضيف ستة أشهر في مكان آخر، فإذا ذهبت إلى مشاتها ومصيفها أخذ الحجر في غيبيتها، والله أعلم بصحة ذلك، ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل في أنبوبة قصب وضرب فإنه يفتت وكلما إذا جعل في شمع أو قار، وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار قاب.

ومن خواصه: أن الملك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقليل السمسة خرقت الأمعاء.

ومن خواصه الجليلة: أنه يبرق عند وجود السم أو الطعام المسموم.

(الزمرد) ويسمى الزبرجد وهو ألوان أخضر، وزنجاري وصابوني، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل.

ومن خواصه: إنه يدفع العين ويفرح القلب ويقوى البصر، ويصفى الذهن وينشط النفس.

(الفيروزج) نوعان: إسحاقى، وخلتجى، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى.

خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقويه، وينشط النفس، ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق، وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه: ما افترقت يد تختتم فيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقض لونه، ولا يزال كذلك حتى ينطفئ.

(العقيق) معدن يأرض صنعاء باليمن، وهو ألوان يوجد عليه غشاوة ويحمى عليه بعر الإبل، ثم يسرد ويكسر، وقيل: يوجد بالهند ولكن اليمن أجود.

خواصه: التختم به وحمله يورث الحلم والأمانة، وتصويب الرأى ويسر النفس، ويكسب حامله وقاراً، وحسن خلق، ويسكن الحدة عند الخصومة، قال رسول الله ﷺ: من تختم بالعقيق لم يؤذ في برقة.

(الجزع) هو حجر أبيضاً يؤتى به من اليمن والصين، والوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهم والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتمسر قضاء المطامع، ويكثر بكاء الصبي وسيلان لعابه، ويشغل اللسان إذا سخن وشرب ماؤه، وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الرلادة تعليقاً.

(البيلور) هو صف من الزجاج، يحكى أن بيلاد كيسان جبيلين: أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور في ذلك الموضع قطع في الليل لأنه في النهار يكون له شعاع عظيم.

خواصه: النظر فيه يشرح القلب، ويسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

(المرجان) هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه ينشجره شبه النبات، ويتحجره يشبه المعدن، ولا يزال ليناً في معدنه، فإذا فارقته تحجر ويس.

خواصه: النظر فيه يشرح الصدر ويسط النفس ويفرح القلب، ويلهب بالداء المحتبس في العين، ويسكن الرمد، وسحاته المخلوطة بالخل تهلو قلع الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ، وأنواعه كثيرة: أحمر، وأرق، وأبيض، وأصله من البحر، قيل: إنه شجر ينبت، وقيل: إنه من حيوانه.

(حجر المايطيس) هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد، والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجن ولا لجل ذلك كان الإسكندر يجعله في عسكره.

(الحجر الماهاني) من تختم به أمن من الروح والهم والحزن والغم، ولونه أبيض وأصفر، ويوجد بأرض خراسان.

(حجر مراد) يوجد بناية الجنوب.

وخاصيته: إن الجن تتبع حمله وتعمل له ما أراد.

(الدعج) خاصيته: أنه إذا سقى إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإذا سقى شارب السم منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن وينفع من خفقان القلب وإذا طلى بحكاته يبيض الرض أثره، وإن علق على إنسان غلب عليه الباء.

(السيج) خواصه: أنه يقوى النظر الضعيف من الكبر أو نزول الماء، ولبسه ينفع عسر البول وإدمان النظر فيه يحد البصر، وسحاته تهلو البصر، وإذا علق على من به صلع زال عنه.

(المفتايطيس) يوجد في بحر الهند، وهناك لا يتخذ في السفن حديد، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً وأجوده أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة.

خواصه: الاكتحال بسحاته يورث اللفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تليقاً، ومن نختم به كانت حاجته مقضية، وتعليقه في العنق يزيد في الذهن، وإذا سحق وشرب من سحاته من به سم بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

(حجر الخطاف) الخطاف يوجد في عشه حجران، أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على من يفرع في نومه زال فرعه، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه.

(حجر الزاج) إذا دخن البيت بسحاته هرب منه الفأر والذباب.

(حجر الزنجفر) أصله من الزيتق واستحال.

وخاصيته: أنه يذبل الجراحات وينبت اللحم.

(حجر الملح) هو أنواع، وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط، وقد جعله الله قواماً للدينار.

ومن خاصيته: أنه يحسن الذهب، ويزيد في صفوته، وعن النبي ﷺ أنه قال: «يا علي أبدأ بالملح واختم به»، فإن فيه شفاء من سبعين داءً.

(حجر التطرون) قال أرسطو: يتفع الأرحام التي غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقى في المعجين طيه ويضفه وتنشفه، وهو نوعان: أبيض وأحمر.

(حجر اللازورد) مشهور، قال أرسطو: من تختم به عظم في أعين الناس، وينفع من السهر، والله أعلم، ومن أراد التمتع في ذلك، فعليه بالكتب الموضوعة له، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف، والحمد لله على كل حال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت ذلك إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، ومجال الهوى، ومسلية الكتيب، وأسس الوحيد، وزاد الركاب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذته بمجامع النفس.

فصل: في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]. هو الصوت الحسن، وعن النبي ﷺ أنه قال: «أندرون متى كان الحذاء؟ قالوا: لا بأينا أنت وأمتنا يارسول الله. قال: إن أياكم مضى خرج في طلب مال له، فوجد غلاماً قد تفرقت إبله، فضره على يده بالعصا، فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح: وإياه، فسمعت الإبل صوته، فطفت عليه، فقال مضى: لو اشتقت من الكلام مثل هذا لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتقت الحذاء». وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما أحسبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزامراً من زماسير آل داود»، وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيصة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضغطان جسده ضغطاً شديداً خيفة أن تتخلع أوصاله عما كان يتجنب، وكانت الوحوش والطيور تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول: يا داود مسجنت اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. وقال سلام الحادى للمنصور، وكان يضرب المثل بحدائه: مر يا أمير المؤمنين بأن يظلموا إيلاً ثم يوردوا الماء فأنى أخذ في الحذاء فترفع رؤوسها، وترك الشرب، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق، فيصفو له الدم، وتمو له النفس ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء، حتى يرقص ويطرب، وزعمت الفلاسفة: أن النغم فضل بقى من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقتة النفس وحنّت إليه الروح. ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفقر على إبدانهم ترموا بالألحان، واستراحت إليهما أنفسهم، وليس من أحد كائنات من كان إلا وهو مطرب من صوت نفسه، ويعبجه طنين رأسه، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكسب من مأكول ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاناة على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع، فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام، والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويغتنى في ضميره، ولأهل الرهبانية نعمات، وألحان شجوة يجادلون الله تعالى بها، ويكون على خطاياهم، ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد، وفيه الغناء، فيجعل مكان السرور به بكاء، كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد نغن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم، وكان صاحب الفلاحات يقول: إن التحل أطرب الحيوان كله على الغناء، قال الشاعر:

والطير قد يـسـوقـه للصوت إصـنـعـاؤه إلى حنين الصوت

ورعوا أن في البحر دواب ربما زمرت أصواتاً مطربة، ولحونا مستلثة يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها، فاعتنى بها، وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم، فلم ييلغوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن اللطافة وصوله إلى الدماغ وعمازته القلب. ألا ترى إلى الأم كيف تناغى ولدها، فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلوى عن البكاء، والإبل تزداد نشاطها وقوتها بالحذاء، فترفع آذانها بمئة وسرة، وتبخر في مشيتها، وزعموا أن السماكين ينواحى العراق يتنون في جوف الماء حفاظ ثم يضربون عنثها بأصوات شجوة فيجتمع السمك في الحفاظ، فيصيدونه، وقد نهت على ذلك في باب ذكر البحار، وما فيها من العجائب، والراعى إذا رفع صوته، ونفخ في براسته تلتفه الغنم بآفاتها، وجذت في

رعيتها، والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصغير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذ به أخف مؤونة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خمدت نأرها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتمل منها ما خمدت وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض، وتشغله عن التفكير، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني:

وسماع مسمعة يعللنا حسنى ننام ننام العجم

وحكى أن البعلبكي مؤذن المنصور رجع في أذانه ليلة وجارية تصب الماء على يد المنصور، فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية، فهي لك لاتعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قينة:

ألم ترها لا أبعد الله دارها إذا رجعت في صوتها كسيف تصنع

تدير نظام القبول ثم تردده إلى صلصل من صوتها يترجع

وبعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب، وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لاسيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

رب سماع حسن

مقرب من فرح

لا فراق قاتلى أبداً فى صحن من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى يقول جرير:

قل للجبان إذا تأخر مرجئه هل أنت من شورك المنيعة ناجى

إلا شاجن شجعت نفسه، وقوى قلبه، أم هل على الأرض من يخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغنى يقول حاتم الطائي:

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى فى ماله سبلا

إلا انبسط أنامله، ورشحت أطرافه، واختلف الناس فى الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه ما روى أن النبی ﷺ قال لحسان: «شن الغطاريف على بنى عبد مناف، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام». واحتجوا فى إباحة الغناء، واستحسانه بقول النبی ﷺ لعائشة رضى الله تعالى عنها: «أهديت الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغنى؟ قالت: لم تفعل. قال: أو ما علمت أن الانتصار قوم يعجبهم القول، ألا يعثم معها من يقول:

أنيمناكم أنيمناكم فحيونا نحييكم

ولولا الحبيبة الممراء لم نُحلل بواديكُم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرم، ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها، فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح أو مندوب، ويدل عليه ما روى من إنشاد النساء بالدف والأحان عند قدوم النبی ﷺ حيث قلن:

طلع البدر علينا من ثنية ذات السواد

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فسمينا جئناك بالأنسر المطاع

ويدل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «رأيت النبی ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إلى الحبيشة

يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسامه، ويدل عليه أيضاً ما روى في الصحيحين من حديث عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله تعالى عنها «أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جارتان في أيام منى يدفعان ويضربان والنبي ﷺ متشرب به، فانتهرهما أبو بكر، فكتف النبي ﷺ عن وجهه، وقال: دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد»، وعن قرّة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للتائفة الجعدي: اسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك، فاسمعه كلمة، فقال له: وإني لقاتلها. قال: نعم قال: طالما غيت بها خلف جمال الخطاب، وعن عبد الله بن عوف قال: أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فسمعت يغني بالركابية يقول:

فكيف ثواني بالمدينة بعددما قضى وطراً منها جميل بن معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر قال: فلما استأذنت عليه قال لي: اسمعت ما قلت؟ قلت: نعم. قال: إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم، وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتزنيه عنها، وإن كانت غير مكروهة، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن، وما جعلت العرب الشعر مودوناً إلا لمد الصوت والسندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المتثور. ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه ينفر القلوب ويستفز العقول، ويحث على اللهو، ويحضر على الطرب، وهذا باطل في أصله، وتأولوا في ذلك قوله تعالى: «ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليل من سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً» [لقمان: ٦]. وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السيرة، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون: إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً، وقال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال: نعم العون على طاعة الله تعالى يصل الرجل به رحمه ويواسي به صديقه. قال: ليس عن هذا أسألك. قال: وصم سالتني؟ قال: أن يغني الرجل. قال: وكيف يغني؟ فجعل الرجل يلوى شديقه ويفتح منخريه، فقال الحسن: والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن إلا تشويه وجهه وتعويج فمه، وسمع ابن المبارك سكران يغني هذا البيت:

أذلنى الهوى فأننا الذليلُ وليس إلى الذي أهوى سبيلُ

قال: فأخرج دواة وقراطاً، وكتب البيت، فقبل له: أكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران، فقال: أما سمعت المثل: رب جوهرة في مزبلة. وكان لأبي حنيفة جار من الكيلان مغرم بالشراب، وكان يغني على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كسريهه وسداد شجر

قال: فأخذ العسس^(١) ليلة وحيسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له، فقال لأمله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذ العسس، وهو في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى، فاستأذن عليه، فأصرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى، وسأله عما جاء ببيبه، فقال: أصلح الله الأمير: إن لي جاراً من الكيلان أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبي حنيفة، فأقبل الكيال على أبي حنيفة يشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك بافتي؟ يعرض له بشعره الذي ينشده قال: لا والله ولكنك بررت وحفظت. وكان عروة بن أدية ثقة في الحديث روى عنه مالك ابن أنس، وكان شاعراً مجيداً ليقاً غزلاً، وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره وينحلهما للمغنين. قيل: إنه وقتت عليه امرأة يوماً وحواله التلاميذ، فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح، وأنت تقول:

إذا وجَّعت أوار الحب في كبدى عمدت نحو سقاء القوم أيتردُ
هبي بردت بببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تنقيدُ

(١) العسس: اسم للجمع، وهو الخدم.

وكان حيد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة. قيل: إنه مر يوماً بسلامة وهي تغنى، فأقام يسمع غناها فرأه مولاهما، فقال له: هل لك أن تدخل، وتسمع، فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغنته، فأصعبته، ولم يزل يسمعها، ويلاحظ النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غت:

رَبِّ رَسُولَيْنِ لَنَا بِلَاغَا رَسَالَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَحَا
الطرف للطرف بمشاهم ففرضاً حاجاً وما صرحاً

قال فأخفى عليه، وكاد يهلك، فقالت له: إني والله أحبك. قال: وأنا والله أحبك، قالت: وأحب إن أضيع فمي على فمك. قال: وأنا والله كذلك. قالت: فمنا يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عدواة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا لِلَّذِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها، وأتينا يقول:

قَدْ كُنْتُ أَصْدَلُ فِي الْفَاقَةِ أَهْلَهَا فَأَعَجَبُ لِمَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ
فَالْيَوْمَ أَعْلَمُهُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّمَا سَبَلُ الضَّلَالَةِ وَالْهَدَى أَقْصَامُ

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام، فأثّر له في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه، فغاض ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر، فجمادت إلى معاوية فقالت: هلم، فاسمع ما في منزلك الذي جعلته من لحمك ودمك، وأزيلت بين حرمك، فجاء معاوية، فسمع شيئاً حركه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تنخر له، ثم انصرف، فلما كان في آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر، وهو قائم يصلي، فنبه فاختة، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعته، هؤلاء قوم ملوك بالنهار وريان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة، فقال لخادمته: اذهب فانظري من عند عبد الله بن جعفر، وأخبره إني قادم عليه، فذهب وأخبره، فأقام عبد الله كل من كان عنده، فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله، فقال: مجلس من هذا؟ قال عبد الله: هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: مره، فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد. قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوى الأذان يا أمير المؤمنين. قال إن أذن عليله، فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس يديع المغنى، فأمره عبد الله بن جعفر، فرجع إلى موضعه، فقال له معاوية: داو أذن من علتها، فتناول العود وغنى وقال:

وَدَعْ سَمَادَ فُلَانٍ الرِّكْبَ مَسْرُوحًا وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعِيَا إِيهَـا الرَّجُلُ

قال: فحرك عبد الله بن جعفر رأسه، فقال له معاوية: لِمَ حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لقيت لأبليت، ولو مثلت لأعطيت، وكان معاوية قد غضب. قال، فقال ابن جعفر ليدبح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية من أعزّ جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه، فغنى يديع وقال:

أَلَيْسَ عِنْدَكَ شُكْرٌ لِلْمَتَى جُمِعْتُ مَا أَبْيَضُ مِنْ قَادِمَاتِ الرَّأْسِ كَالْحُمَمِ
وَجِدَدُكَ مِنْكَ مَا قَدْ كَبَانَ أَخْلَقَهُ صَرَفَ الزَّمَانَ وَطُولَ الدَّهْرِ وَالْقَدَمِ

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر يا أمير المؤمنين إنك سألني عن تحريك رأسي، فأجبتك وأخبرتكَ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك، فقال: كل كريم طروب، ثم قام، وقال: لا يريح أحد منكم حتى يأتي له إثنى، ثم ذهب، فبعت إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب. وحدث ابن الكلبي، والهيثم بن عدي قالوا: بينما عبد الله بن جعفر في بعض أروقة المدينة إذ سمع غناء، فأصغى إليه، فإذا صوت رقيقين لغنية تغنى وتقول:

فنزله عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن، فلما رأوه قاموا إجلالاً له، ورفعوا مجلسه، فأقبل عليه صاحب المجلس، وقال يا ابن عم رسول الله ﷺ: أئندخل مجلسنا بلا إذن، وليس هنا من شأنك؟ فقال عبد الله: لم أَدخل إلا بإذن. قال: ومن إذن لك؟ قال: قيتك هذه سمعتها تقول: قل للكرام ببنا يلجوا، فولجنا، فإن كنا كراماً، فقد أذن لنا، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين، فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلتُ فداك، والله ما أنت إلا أكرم الناس، فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه، فحضرت ودعا بشيا وبطيب، فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل، وقال: هذه أحلق بالغناء من جارتك. وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً فى عسكره، فقال: اطلبوه، فجاءوا به، فقال: أهد على ما غنيت به، فغنى واحتفل. وكان سليمان أغبر الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل فى الشوك، وما أظن أننى تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصى.

أصل الغناء ومعدنه:

قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والهزج، فأما النصب: فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد: فالثقل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج: فالخفيف كله وهو الذى يستغز القلوب ويهيج الحليم. وقيل: كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى، فاشياً ظاهراً، وهى المدينة والطائف وخيبر وفدك ووادى القرى، ودومة الجندل، واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب، ويقال: إن أول من صنع العود لأمك بن قاتن بن آدم، وبكى به على ولده، ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحن الثمانية، والله سبحانه ونعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قيل: إن أول من غنى في العرب قيتان للنعمان يقال لهما: الجرادتان، ومن غناهما:

ألا يا قين ويحك قم فسهـنـم لعل الله يسقينا غـمـا

وإنما غتا هذا حين حبس الله عنهم المطر، وقيل: أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غناها، وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت:

قد برأني الشـوق حـتى كـدت من وجـدى أذوب

ثم نجم بعد طويس بن ظنور، وأصله من اليمن، وكان أهرج الناس وأخفهم غناء، ومن غناها:

وفتيان على شرب جميعاً دلفت لهم ببساطية هدور

فلا تشرب بلا طرب فـئـى رأيت الخليل تشرب بالصفير

ومنهم حكم الوادى، ومن غناها:

أمدح الكاس ومن أعـمـلـها وأهـج قـومـاً قـتلـونا بالعـطـش

إنما الراح ربيع باكـسـر فـإذا مـا وافت المـرء اتـعـش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم: إبراهيم الموصلى، وابن جامع السهمى وغيرهما، وكان له زامر يقال له: برصوما، وكان إبراهيم أشجعهم تصرفاً في الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة، فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ قال يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذى من حيشا ما ذقته فهو طيب. قال: فإبراهيم الموصلى؟ قال: يستأن فيه جميع الأزهار والرياحين، وكان ابن محرر يغنى كل إنسان بما يشتهي كأنه خلق من قلب كل إنسان، وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكر أيام الحمى ثم أنشئ على كبـدى من عـشـية أن تصـدعـا

فليست عـشـيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عـيـنـيك تدمعـا

بكت عيني اليسرى فلما نهيتها عن الجـمـل بعد الحـلم أسـبـلتـا معـاً

قال: فاستخف الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم.

وحديث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء وأنبههم فيه، وكان من أصيق الناس خلقاً إذا قيل له غن قال: مللى يقال غن على عتق رقبة إن غنيت يومى هذا، فلما كان في بعض الأيام سال وادى العقيق، فلم يبق في المدينة مخبأة ولا مخدرة ولا شاب ولا كهول إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى وهو معتجر بفضل رداءه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم، وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته، فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلما ما أسركما به لأنكلن بكما، فقالا: يا مولانا قل ما أمرتا به، فلو أمرتا أن نقتحم النار فعلنا. قال: فاذعبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل رداءه فأمسكاه، فإن لم يفعل ما أمره به ولا فاقظا به في العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما أخذان منكميه، فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة، فقال: ليك ومصدقك أبى أنت

وحدث أبو جعفر البغدادي قال: حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا على بابه المشدود، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلني أستفيد حكمةً أكتسبها، فقال: ادخل إلى أبي عيسى. قلت: أمثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: أعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة، فما ليث إلا ساعة حتى يخرج الغلمان إلى فحولوني حملاً، فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أظرف منها هيئة فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي: ما يعيش من يحتشم اجلس، فجلست، فأتينا بطعام كثير، فلما انقضى أتينا بشراب، وقامت جارية تسقينا شراباً كالشعاع في زجاجه كأنها كوكب دري، فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه ولا سلبه ما وبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمثنين وهم المشدود ودييس وريقق. ولم يكن في ذلك الزمان أحق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ الشدود وغنى يقول:

لما استقلَّ باردافَ تحمَّاذُبه
وأشرقَ الوردُ من نسرين وجنته
كَلَمَته بجفون غير ناطقة

وصاحبُ الحبِّ صبُّ القلبِ دائبُهُ
يومَ الفراقِ ودمَ العينِ مأكبُهُ
أرفقُ بقلبك قد عَزَّتْ مطالُهُ

الحبُّ حلوُّ أمرته عواقبُهُ
استودع الله من بالطرف ودعنى
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتفُ بى

قد لاح عارضه واخضر شاريه
أو ينطق القول يوماً فهو كاذبه
فقام يشدر وقد مالت جوانبه

بل من الإنس حشفته كسواكبه
إن يوعد الوعد يوماً فهو مخلّف
عاطيته كدم الأوداج صافية

من يصعُ عنك فإني لستُ بالصاحي

با دیرِ حنّۂ من ذات الاکـــــبر

EEY

واحدل هديت إلى شيخ الأكيراح
من العبادة ألا نضو أشباح
كانها دمنة في جفن سباح

دع البسبساتين من آس وتفاح
واحدل إلى فتية ذابت لحوسهم
وعمرة عثقت في دثها حقا
ثم مكث وغنى رقيق:

واشرب على الورد من مشمولة الراح
اغناء لالأوها عن كل مصباح
والليل ملتحف في ثوب أمباح
بما دير حنة من ذات الأكيراح

لائحفلن بقبول اللاتم الااحى
كأنا إذا انحدرت في حلق شاربها
ما رلت أسقى نديى ثم التمه
فقسام يشدو وقد مالت سوافه

ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غن لي شعري فغناه:

أم للكرى من جفون العين ممنوع
بعقرب الصدغ من مرلاى ملسوع
فالقلب من فرق الأحزان مصدوع
ثواب الجملال على خذيه مخلوع

يا بلجة الدمع هل للغمض مرجوع
ما حيلتى وفؤادى هائم ذنف
لا والذى تلفت نفسى بفرقتيه
ما أرق العين إلا حب مبسود

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك المجلس ولو لا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

وحكى عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: من بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بن أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده، فدخل، فقال: هات يا هاشم، فغناه من شعر جميل حيث يقول:

جرى الدمع من عيني بشينة بالكحل
ويا ويح عقلى ما أصعب به أهلى
قتيلاً بكى من حب قاتله قبلى

إذا ما تراجعنا الذى كان بيننا
فيا ويح نفسى حب نفسى الذى بها
خليلى فيما عشتما هل رأيتما

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً، وقال: أحسنت لله أبوك، ثم قلده عقداً نفيساً، فلما رآه هاشم ترقرت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكىك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لى الأمير حديثه به، قال: قد أذنت لك. قال يا أمير المؤمنين: قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية، ومعه قيتان لم ير مثلهما جبلاً وحشاً، فلما وقعت عينه على قال: هذا أعرايى قد ظهر من البوادي ادعو به لتسخر به، فدعائى، فمرت إليه، ولم يعرفنى، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لى، فأعطاه الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت، ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرايى يعيب علينا غماناً؟ فنظر إلى كالنكر، فقلت يا أمير المؤمنين: أنا أبين لك الخطأ، فلتصلح وتر كذا، ووتر كذا، ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا فى هذا اليوم، فقامت الجارية مكبة على وقالت: أستاذى هاشم ورب الكعبة، فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وكشفت عن وجهى، وأقمت معه بقية يومنا، فأمر لى بثلاثين ألف درهم، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أأأذن لى فى بر أستاذى؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فحلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعت فى عنقى، وقالت: عو لك، ثم

قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة، وطلعت مع إحدى الجاريتين، وأتبعتهما صاحبتى، فأرادت أن ترفع رجلها، وتطلع السفينة فسقطت في الماء، ففرقت لوقتها، وطلبت، فلم يقدر عليها، فاشتد جزع الوليد عليها، ويكى بكاء شديداً، وبكى أنا عليها أيضاً بكاء شديداً، فقال لى يا هاشم: ما نرجع عليك بما وهبناه لك، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرك به، فبغنى إياه، فعوضنى عنه ثلاثين ألف درهم، فلما وهبته العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته، وهذا سبب بكائى، فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم. وقال على بن سليمان التوفلى: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأتيت أماناً كفى لمطايانا برؤياك هادياً
ذكرتلك بالدريزين يوماً فسأشرفت بنات الهوى حتى بلغن التراقياً
إذا ما طواك الدهرُ يا أم مالك فشان المنايا الفاضيات وشانياً

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمن على. قال: أتمنى الهنىء والمرء وهما ضيعتان غلتها أربعون ألف دينار في كل سنة، فأمر له بهما، فقبل له يا أمير المؤمنين: إن هاتين الضيعتين من جلاتهما يجب أن لا يسمع بملتهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداده ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه، فسأمره فيهما حتى وقفا معه على مائة ألف دينار، فراضى بذلك، فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاهما.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلى قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الأخان العجيبة ويغنى بها شعره، وشعر غيره، فقال له يوماً: يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر في كل شيء، فغنى شعراً ارتاح إليه، وأطرب عليه يومى هذا، قال إسحاق: فغنيته هذه الأبيات:

ما كنت أعلم ما فى البين من حرقى حتى تناودا بأن قد جىء بالسفن
قامت تردى والدمع يغلبها فهممتم بعض ما قالت ولم تبين
مالت إلى وضعتنى لتشرشفنى كما يعيل نسيم الريح بالفصن
وأعرضت ثم قالت وهى باكبة يا ليت معرفتى إياك لم تكن

قال: فخلع على خلعة كانت عليه وأمر لى بمائة ألف درهم، وقال وغنيته يوماً:

كفى ودعينا ياسعداً بنظرة فقد حان منا يا سعاد رحيل
فيا جنة الدنيا وبها غاية المنى وبها سؤل نضى هل إليك سبيل
وكنيت إذا ما جئت جئت لعل فأفانيت علانئ فكيف أقول
فما كل يوم لى بأرضك حاجت ولا كل يوم لى إليك وصول

فقال: والله لا سمعت يومى غيره وألقى على خلعة من ثيابه، وأمر لى بصله ما أمر لى قبلها بملها.

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم: ما حكى عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً، فهل من مساعد؟ فقلت: جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك وأسر بمشاهدتك، فقال: بكر بكون الغراب، قال: فأتيته عند الفجر، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد، فما ولنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها أفخر الطعام وأطيبه، فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم خلعت علينا ثياب النادمة، وضممنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدت الشاتر وغنت

القيينات فظللنا بأنعم يوم ثم إنه داخله الطرب، فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ولو كان عبد الملك ابن صالح بنفسه، فاتفق بالامر المقدر أن عم الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت وكان صاحب جلالة رهيبة ورفعة، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهر لا يطلع على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم ودخل به الحاجب علينا فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالاً له فنقبل يده وقد ارتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه، ثم صاح بغلام، فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال: فما كان أسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم وقدمت إليه موائد الطعام والشراب، فطعم وشرب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء ما فعلته والله قط قال: فتسهل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك، فقال له: جعلت فداك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت قال: بلى إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغير على فتسأله الرضا عني، فقال جعفر: قد رضى عنك أمير المؤمنين قال: وعلى عشرة آلاف دينار، فقال جعفر: هي حاضرة لك من مالى ولك من مال أمير المؤمنين مثلها، قال: أريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين قال: قد روجه أمير المؤمنين بابتة الغالية قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه قال: وقد ولأه أمير المؤمنين مصر، فانصرف عبد الملك بن صالح وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيب أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية والمال والرضا إلا المصاهرة. قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح فخرج إبراهيم وقد عقد تكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر الرايات والألوية تخفق على رأسه وخرج كل من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح، قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح وأحببتم سماع ذلك، قلنا هو كما ظننت قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس؟ فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح فكان متكئاً فاستوى جالساً، وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألتني رضاك عنه يا أمير المؤمنين، قال: بم أجبتك؟ قلت: قد رضى عنك أمير المؤمنين، قال: قد رضى عنه، ثم ماذا؟ قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار، قال: فبم أجبتك؟ قلت: قد قضاه عنك أمير المؤمنين، قال: وقد قضيتها عنه، ثم ماذا؟ قلت: ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه قال: فبم أجبتك؟ قلت: قد روجه أمير المؤمنين بابتة الغالية، قال: قد أجبتك إلى ذلك، ثم ماذا؟ قلت: قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: فبم أجبتك؟ قلت: قد ولأه أمير المؤمنين مصر، قال: وقد وليته إياها، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته قال إبراهيم ابن المهدي: فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط أم إقدام جعفر على الرشيد أم إضفاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر، فهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لا أتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود، فقلت له: أعد على ما سمعت فقال: والله لو كان عندي قري^(١) أقرىكه لقلعت، ولكنى أجعله قراق، فزنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فاشبع، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط، أو عشتان فأروى، ثم اندفع يفضي ويقول:

وكنْتُ إذا ما جئتُ سعدى أزوهرها أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعيدُها
من الخفصرات البيض وُدِّ جليها إذا ما انقضت أحدوة لو تعيدُها

قال عمر: فحفظته منه، ثم تغنيت به على الحالات التى وصفها إلى فإذا هى كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) قري: كل ما يؤتى من كرم الضيافة.

فى ذكر القينات والأغاني

حكى على بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين التوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر من خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت فى الجمال والأدب وأجادت قول الشعر، وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين التوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة، ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاه، فهجرها، قال على بن الجهم: فبينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذا أبغظنى، فقال: يا على قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: قد رأيت الليلة فى منامى كأنى رضىت على محبوبة وصالحتها، فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك إنما هى جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله إنا لقى حديثها إذ جاءت وصيفة فقالت: يا أمير المؤمنين سمعت صوت عود من حجرة محبوبة. فقال: قم بنا يا على ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هى تضرب العود وتقول:

أدور فى القصر لا أرى أحداً	أشكر إليـــــــــــــــــه ولا يكلمنى
كأننى قد أتيت معصية	ليس لهما توبة تخلصنى
فهل شفيع لنا إلى ملك	قد زارنى فى الكرى وصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا	عاد إلى هجره وصارمنى

قال: فصاح أمير المؤمنين، فلما سمعته تلتته، وأكبت على رجله تقبلهما، فقال: ما هذا؟ قلت: يا مولاي رأيت فى منامى هذا الليلة كأنك قد رضىت عني، فأنشدت ما سمعت، قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك، ثم قال يا على: هل رأيت أعجب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان.

قيل: وكان أمير المؤمنين الوائى إذا شرب رقد فى موضعه الذى شرب فيه ومن كان معه من ندمائه وشرب رقد ولم يخرج، فشب يوماً وخرج من كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر الشراقة فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كب المغنى رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى	مسترشفاً من ريق فيك البارد
وكان كفك فى يدى وكأننا	بتنا جميعاً فى الحساف واحد
ثم انتبهت ومنكبك كلاهما	فى راحتى وتحث خدك مساعدى
فقطعت يومى كله مستراقداً	لأراك فى نومي ولمت براقداً

فكبت إليه على ظهرها تقول:

خبيراً رأيت وكلا ما أملتـه	سبتاله منى برغم الحسامد
وتبيت بين غيلاخلى ودمالـجى	وتحل بين مـراثىفى وتواهدى
وتكون أتعـم عاشقين تعاطيـا	ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمى إليه بالرقعة رفع الوائى رأسه فأخذها من يدها وقال: ما هذا؟ فحلها له أنه لم يجر بينهما قبل ذلك كلام ولا كتاب ولا رسول إلا أن العشق قد خامرهما قال: فأعنتها من وقتها و زوجها به، وقال: خنعا ولا تقرنا

بعد اليوم. وكان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكراً ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال: فتلاعب عليها أبو نواس، فتمنت فوقع في قلبه منها ما وقع وأحبته هي أيضاً، فجعل أبو نواس كلما أمسكها تمتعت، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر، فأمسكها، فبكت وقالت له: يا سيدي الموت دون ذلك، فقال أبو نواس: هذا جزع الأبيكار، فاتفق أنه خرج يوماً من القصر وقد تفرق الدجا فوجدتها نائمة في سدة وهي سكرى لا تفيق، فتقرب منها وحل سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة، فارتاع وظن أن يكون أتاها دم، فلم يجده، فقام عنها وندم على ما كان منه وأشد يقول:

وناهدة السديين من خديم القصر	مرقوفة الحدين ليلية الشعر
كلفت بها دهرأ على حسن وجهها	طويلاً وما حب الكواعب من أمرى
فما زلت بالأشعار حتى خدعتها	وروضتها والشعر من خدع الحر
أطالبها شيئاً فقالت بمجرة	أموت ولا هذا ودمعتها تجرى
فلما تعارضنا توسطت لجة	غرقت بها يا قوم في لجج البحر
فصحت أغشى يا غلام فجاءني	وقد زلقت رجلى وصرت إلى الصدر
ولولا صياحى بالغلام وإنه	تداركنى بالخبيل صرت إلى القمر
فأقمت عمري لا ركبت سفينة	ولا مسرت طول الدهر إلا على ظهر

ومن ذلك ما حدث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها، وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحدثها فقال فيها هذه الأبيات:

ومظاهرة خلقت الله ودأ	وتلقى بالتححية والسلام
أتيت لبابها أشكو إليها	فلم أخلص إليه من الزحام
فيما من ليس يكفيها خليل	ولا ألفاً خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى	فهم لا يصبرون على طعام

وقال أبو سرید: حدثني أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان ميلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبته، وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوبت وصفت الرياح على الأشجار فتعاليات، فقلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، وكان مطرقاً، فرفع رأسه، وقال: أبا زيد في مثل هذا الحين تصاحبنا، فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرقت ملياً ورفع رأسه وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تتولها غادة مضمومة لفاء أثرها من كفها وأمسح قمى بخدها، فأطرق سليمان ملياً لا يرد جواباً تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق، فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه، فقال: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم صورك والله لأضربن عتقك أو تخبرني ما آثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب امكندراني بين منه يياض يندو وندوير سرتها ونقش نكتها، وفي رجلها نعلان صراران قد أشرق يياض قدميها على حمرة نعلها بذرايتين تضربان إلى حقوبها لها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها، وعينان غلوان سحرأ،

وانف كانه قصبة بلور، وفم كانه جرح يقطر دماً وهي تقول: عباد الله من لى بدواء ما لا يشتكى وعلاج ما لا يسمى طال الحجاب وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عارب والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رسة الله على قوم عاشوا تجلداً وماتوا كملداً، ولو كان إلى الصبر حيلة أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جسيلاً، ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها، فقلت لها: أيها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك وأدعلتني حسن منطقك، فترت وجهها بكهما كأنها لم تترى، ثم قالت: اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا ساعد، والمفاساة لعب معاند، ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمع في عيني لحسنها فقال سليمان: أبا زيد كاد الجهل يستغزني، والصبا يعاودني، والحلم يعزب عني لسجو ما سمعت. اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنما الذلفاء يا قسوتة أخرجت من كيس دهنان

شراؤها على إنسي ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات ما يموت إلا بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلة وفي توقع الموت نهي، قم أبا زيد في دعة الله تعالى، ثم قال: يا غلام نفلة بيبرة، فأخبتها وانصرفت، قال فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء مونة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاتح وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له: سنان، به يأتس وإليه يمكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه، فنزل به جماعة من إخوانه فقالوا له نريد قرأ أصلحك الله، قال: وما راكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع، قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غير أمير المؤمنين ونهي عنه إلا ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامكم وشربكم إن لم نسمعنا. قال: فاختاروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كلنا، فرفع صوته يغني بهذه الأبيات:

محجوبة سمعت صوتي فأرقها من آخر الليل لما نبه البحر
في ليلة البدر ما يندى مضاجعها أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق فدمعها لطروق الصوت منحدر
لو مكنت لشت نحوى على قدم تكاد من لينها في الشئ تنفطر

قال فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن الفسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة قد لا رأت ذلك كله في نفسها وهبتها، فحرك ذلك ساكناً من قلبها، فهلمت عيناها، وعلا نحيبها، فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقال:

ألا رب صوت راتع من مششوه قبيح المحيا واضح الأب والجعد
برودك منه صوته ولعله إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام على بستان، فدعت الذلفاء خادماً لها، فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان، فحضرته، فلك عشرة آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان، فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أتئك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين حملتي على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن

عبده، فليفلح، قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا سهل دقت له الحجر، وأن الفحل إذا هدر ضيبت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك وإياك والعود إلى ما كان منك، فيطول غمك.

وحكى: أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظايه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها حسنة الوجه جميلة الظلعة بديعة المعيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الآيات:

فصدت عرقاً تبغى صحة	البسك اللب به العافية
فأشرب بهذا الكأس يا سيدي	واهناً به من كف ذى الجسارية
واجعل لمن أنفذه خلوة	تغضى بهما فى الليلة الأنبية

قال: فظفر الرشيد إلى الوصيفة التى جاءت بالقدر فاستحسنها، فانتفضها، ثم أرسلها فعملت مولاتها بذلك، فكتب إليه رقعة تقول فيها هذه الآيات:

بعثت الرسول فأبطأ قليلاً	على الرغم منى فصبراً جميلاً
وكنن الخليل وكنان الرسول	فصرت الرسول وصار الخليل
كسداً من يوجه فى حاجة	إلى من يحب رسولاً جميلاً

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أما عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلبى إلى المهلبى جارية، فحظيت عنده، فواعدته البيت عنده ليلة، فمتنها الحيف، فكتب إليها يقول:

لا هجرن حبيباً خان مواعده	وكان منه لصفو العيش تكدير
فأرسلت إليه تحية:	

لا تهجرن حبيباً خان مواعده	ولا تذهبن وعداً فيه تأخير
ما كان حبس إلا من حدوث أذى	لا استطاع له بالقول تفسير

وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمت تباع ولو تباع بورنها	دراً بكى أسفها عليها البائع

وكان للمأمون جوييرة من أحسن الناس، وأسبقهم إلى كل نادرة فحظيت عنده، فحبسها الجوارى وقتل لا حسب لها، ففتشت على خاتمتها حبس حتى، فإزداد بها المأمون عجباً، فسمتها الجوارى، فماتت، فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اخستلست ريعاننى من يدى	أبكى علبسها آخسر الأبد
كانت هى الأنى إذا استوحشت	نفسى من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها موتى	ومنها كان بها موردي
كانت يدى كان بها قوتى	فأخستلست الدهر يدى من يدى

وللمتوكل فى قينة:

أما رحها فتغضب ثم ترضى فكل فعالها حسن جميل
فإن غضبت فأحسن ذى دلال وإن رضيت فليس لها عديل

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدثنى إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى قال: كان فى المدينة رجل من بنى هاشم وكان له قيتان يقال لإحدهما رشا وللأخرى جوزر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يقبض عن مجلس المستظرفين، فأرسل الهاشمى إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أثنأ قال له: أصلحك الله إنك لفى لذتك ولا لذة لى قال: وما لذتك؟ قال: تحضر لى نبيذاً، فإنه لا يطيب لى عيش إلا به، فأمر الهاشمى بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمى وغمز جاريته عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرر قال فى نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا بماتيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحض، فقال لهما: يا حبيبتى أين المراحض؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا قال يقول غياني:

رحضت فزوادى فخليتنى أهيم من الحب فى كل وادى

فاندفعنا تغنيانه: فقال فى نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عنى، وما أظنهما إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج، فقال يا حبيبتى أين المخارج؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غياني:

خرجت لها من بطن مكة بعددما أقام المنادى بالعشى فأعتما

فاندفعنا تغنيانه، فقال فى نفسه لم يفهما عنى، وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب، فقال: يا حبيبتى أين المذاهب؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول حبيبتنا؟ قالت يقول غياني:

ذهبت من الهجران فى كل منعب ولم يك حقاً كل عذا الشجنب

ففتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لم يفهما عنى، وما أظن القيتين إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلا، فقال: يا حبيبتى أين بيت الخلا؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غياني:

خلا على بقاع الأرض إذا ظنوا من بطن مكة واسترعانى الحزن

قال ففتاه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال: يا حبيبتى أين الحشوش؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غياني:

أوحشونى وعز صبرى فيهم ما احتشالى وما يكون فعالى

قال: فاندفعنا تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف، فقال لهما: يا حبيبتى أين الكنف؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل قالت: ما يقول: قالت: يسأل أن تغنى له:

تكنفنى الهوى طفلاً فشيبنى وما اكتهلاً

فقال: واويلاء، واعظم مصيئته، هذا والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا راتيتان إن لما تعلماني به أنا أعلمكما ثم رفع ثيابه وسلخ عليهما وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشى عليه من شدة الضحك، وقال: ويلك ما هذا تسلخ على وطائي؟ فقال الرجل: حياة نفسي أعز على من وطأتك، وقيل إنه لما قيل له: ويلك ما هذا؟ قال المضحك هذه الآيات:

تكتفى الملاح واضججرونى
على مابى بنىبات الزواني
فلمما قل عن ذاك اصطبارى
قذفت به على وجسه الغواني

قال، فانبط الهاشمي ودفع إليه مالا ومضى إلى سبيله.
قال على بن الجهم: قلت لفقية:

هل تعلمين وراء الحب منزلة
تدنى إليك فإن الحب أقصاني
قالت: تأتى من باب النعب وأنشدت:

اجعل شفيعك مقوشاً تقدمه
فلم يزل مدنيماً من ليس بالداني

وكان أشعث يختلف إلى قبة بالمدينة، فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به قالت: إنه من ذهب، وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود، فلعلك أن تعود، وناولته عوداً من الأرض وكان بعض الغنيات من الجمال والحسن بجانب ثم أصابها علة فتغير حالها، فكانت تنشد:

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبداً ليست بذات قروح
أبأها على الناس لا يشترونها
ومن يشتري ذا علة بصحيح

وكان المتصم يحب قينة من حظاياها فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها فى بعض الطريق، فاشتاق إليها، فغلبه الوجد، فدعا مغنياً له وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة بنت فلان، فألقني الشوق إليها فعسى أن تغنين شيئاً فى معنى ما ذكرته لك، فأطرق ملياً ثم غناه:

وددت من الشوق المبرح أننى
أعوار جناحي طائر فأطير
فما لتعيم ليس فيه بشاشة
ومما لسرور ليس فيه سرور
وإن امرؤ فى بلدة نصف قلبه
ونصف بأخبرى غيرها لصبور

والحكايات فى معنى ذلك كثيرة ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات، ولكن ما قل وجل خير من كثير يل، وفيما ذكرته كفاية، واللّه المسئول أن يمدنى به باللطف والعناية ونسأله التوفيق والهداية، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف

وأخبار من مات بالعشق وما فى معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، وقال أعرابي: العشق خفى أن يرى وجلى أن يخفى فهو كامن ككمون النار فى الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى، وقيل: أول العشق النظر وأول الحريق الشر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل يرقع حبيبته، والمرأة تشق رداء حبيبها ويقولان: إنهما إذا لم يفعلوا ذلك هرض الغبض بينهما، وقال عبد بن الحساس:

وكم قد شققنا من رداء محببر ومن برقع عن طفلة غير عسانس
إذا شقَّ برد شقَّ باللب سرد برقع من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حبك لفلانة؟ قال: إني لأذكرها وبينى وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك، وقيل: رأى شبيب أخو بثينة جميلًا عندها، فوثب عليه وآذاه، ثم إن شبيبًا أتى مكة وجميل فيها، فقيل لجميل: دونك شبيبًا، فخذ بئارك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها فنقلت أتى الحبيب أخو الحبيب

وأشد الأخش الحداد يقول:

مطارق الشوق منها فى الحشى أثر يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى فى الجسم موقدة ومسبرد الحب لا يبسقى ولا يذر

وفى «الجلس الأتيس» لأبى العالية الشامى قال: سأل أمير المؤمنين للمؤمن يحيى بن أكرم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرأة، فيهب بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس متع، وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكة ضيقة ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها، والعقول وآرامها وأعلى عنان طاعتها وقوة تصرفها توارى عن الأبصار مدخله، وخفى فى القلوب مسلكه، وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة ولكم حياء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا: لا. قال: اعشقوا، فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البلبد، والبخيل، ويبحث على التلطف وتحسين اللباس وتطييب الطعام، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وتشريف الهمة وقال المجنون:

قالت جنت على ذكوى نقلت لها الحب أعظم مما بالمجنانين
الحب ليس يفتق النحر صاحبه وإنما يصبرع المجنون فى الحين

قال ذو الرياسين: إن بهرام جور كان له ابن وكان قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة عامل النفس مسمى الأدب، فقمعه ذلك، فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه وكان يسألهم عنه، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة آبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يومًا، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء فى فلاحه، قال: وما ذاك الذى حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المزيان، فمشقها،

فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بابي الجارية فقال له: إنى مسر إليك سرّاً، فلا يصدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن يتكهنها إياه، وأمره أن يأمرها بإطامعه فى نفسها ومراسلته من غير أن يراها، وتقع عينه عليها، فإذا استحكمت طمعه فيها تحتبه وتهجره، فإن استعملها علمت أنها لا تصلح إلا للملك، ثم لتعلمنى خبرها وخبره، ولا تطلعهما على ما أسرهما إليك، فثبيل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب، والموكل بأبيه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهته لأجله أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر فى ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء، وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك، وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه، فقال له: إن الموضع الذى وضع به ابنى نفسه من خير هذه المرأة لا يدري به، فتقدم إليه وأمره أن يدفع أمرها إلى ويسألنى أن أزوجها إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه، فدعا بابيها وزوجه إياها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهى فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه، فقال: يابنى لا يضمن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست فى خباثك فزنى أمرتها بذلك وهى أعظم الناس منة عليك بما دعيتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذى تصلح معه للملك من بدعى فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به وأحسن ثواب أبيها، ورفع منزلته لصيانة سره، وأحسن جائزة المؤدب لامثال ما أمره به.

وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية، فزارته يوماً، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن، فقال: رويدك حتى تزول الشمس أى حتى تقوم الجارية، وقالت ليلي العامرية فى قيسها:

لم يكن المجنون فى حـالة إلا وقد كنت كما كانت
لكنه باح بمسـر الهـوى وإننى قد ذبت كسـتـمـانـا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنى ليسر ضـمـنى المـر بـبابـها وأقنع منها بالشـسـتـيـمـة والزـجـر
وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشق المـسـذب صـبراً فخطايا أخى الهوى مـقـفـورة
رفـرة فى الهـوى أحط لذنب من غـسـزة وحـجـة مـسـبـورة

وقال عمر بن أبى ربيعة: كنت بين امرأتين هذه تساررنى وهذه تعضننى فما شعرت بعضه هذه من لغة هذه، وأنشد شيبان العلوى يقول:

لو حـز بالسـيف رأسى فى مـحبـتـها لطار يهوى مـرـيـعاً نـحوها رأسى

وقال يحيى بن معاذ الراوى: لو أمرنى الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً.

الفصل الثامن من هذا الباب: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «من عشق نَفْع، فمات، فهو شهيد»^(١). وقال ﷺ: «عفا نَفْع نساؤكم»^(٢). وقال بعضهم: رأيت امرأة مستقبلية البيت في غاية الضعف والحاجة رافعةً يديها تدعو، فقلت لها: هل من حاجة؟ فقالت: حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزدود كل الناس زاداً يقيهم وميالى زاد والسلام على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بقى نحيل الجسم قد أقبل إلى، فقال: أنا الزاد، فمضيت به إليها، فلما زاد على النظر واليكاء، ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءكما يقتصر على هذا، فقالت: امك يا هذا. أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد؟ قال إبراهيم بن محمد المهلب:

كما قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني منه الحسياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيمنعني منه الفكاهة والشائس والنظر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسه وليس لي في حرامهم وطير
كذلك الحب لا إيمان معصية لا خير في لذة من بعدها سقر

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامح اللحاظ فإني والذي يملك الفؤاد عفيف

ونحو ذلك قول القائل:

فسيالت بحق الله لا أتيستنا إذا كان ليل شببه الطيالى
فجئت وما في القوم يقظان غيرها وقد نام عنها كل واش وحارس
فسيستنا بلبيل طيب نستلذه جسميماً ولم أقلب لها كف لاس

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له، فأدبره في منزله وتركه فيه، وسافر لبعض حوائجه، وقال لامرأته: أوصيك بصيغ هذا حيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها: كيف ضيفنا؟ قالت: ما اشتغل بالعمل عن كل شيء، وكان الصيف قد أظن عيني، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ولا إلى مرله إلى أن عاد من سفره، وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحرم ولا يرد. ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان، فقال لها: يا بثينة ما أرى فرجت شيئاً عما كان يقوله جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إليّ بعينين ليستا في رأسك، قال: فكيف رأيته في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

والذي تستجد الجيباء له ميالى بما تحت ذيلهما خبيبر
ولا بفسيهما ولا هممت بهما مـا كان إلا الحسد والتظنـر

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول، فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز. وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجيه آثار الموت، فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقى الله ولم يسفك دماً، ولم يشرب خمرًا،

(١) ذكره ملا على القاري في الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة؛ صفحة (٣٣٨)؛ تحقيق رقم (٥٠٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٦-١).

ولم يات فاحشة أترجو له الجنة؟ قلت: أى والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك، فذكرت له بيته، فقال: إني لفي آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لا نالتي شفاة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسى بريية قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب: أبى النبی ﷺ أنه دعه بغيرى إلى نفسها، وبئلت له مالا، وكانت تكهن وتسمع بإتيان رسول الله ﷺ، وكانت جميلة، فأرادت أن تخدم عبد الله رجاء أن يكون النبی ﷺ منها للنور الذى رآه بين عينيه، فأبى وقال:

أما الحرام فالحمام^(١) كونه
فكيف بالأمر الذى تبتغيه
والحل لا نابى ونستدينه
يحمى الكريم عرضة ودينه
وقال آخر:

وأحور مخضوب البنان محجب
بخلت بنفسى عن مقام يشتهيها
دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجهها
ولست مريداً ذاك طوعاً ولا كرها
ورأود شاب ليلي الاغيلة عن نفسها فاشعرت ، وقالت:

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه
فليس إليها ما حبيت سبيل
وانت لآخرى صاحب وخليل
وقال ابن ميادة:

موانع لا يعطين حبة خردل
ويكرهن أن يسمعن فى اللهور ربة
وهن دوان فى الحـديث أوانس
كما كرهت صوت اللجم الشوامس
وقال آخر:

حور حرائر ما هممن بريية
يحين من لين الكلام فواسقاً
كظباء مكة صيدهن حرام
ويصدهن عن الخنى^(٢) الإسلام
وكان الأصمى يستحسن بيتى العباس بن الأحنف :

أناذنون لصب فسى زيارتكم
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به
فعدكم شهوات السمع والبصر
عف الضمير ولكن فاسق النظر

واختفى إبراهيم بن المهدي فى هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبى جعفر، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها فى الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فهبوها إبراهيم، وكره أن يراودها عن نفسها، فغنى يوماً وهى قائمة على رأسه:

يا غسزالألى إليه
أنا ضيف وجوزاء الـ
شافع من مسقاتيه
ضيف إحسان إليه

(١) الحمام : الموت.

(٢) الخنى : الفحش.

فهمت الجارية ما أراد، فحككت ذلك لمولاتها فقالت: انعمي إليه، فاعلمي أنني وهبتك له، فعادت إليه، فلما رآها أهد البيتين، فأكبت عليه، فقال لها: كفى، فقلت بخائف، فقالت: قد وهبتى لك مولاتى وأنا الرسول، فقال: أما الآن نعم، وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحش مددت يدى ولا مسشت بى لزلة قدم

وقال آخر:

يقولون لا تنظر فذاك بليّة بلى كل ذى عسّنين لايد ناظر
وهل باكـحال العين بالعين ربيّة إذا عف فيمما بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا ينشد شعراً، ومتى أشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فينما هو فى الطواف يوماً إذا نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه، فقال له: يا هذا اتق الله أفى مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لحنى، ولكنها ابنة عمى وأعر الناس على وإن أبهاا منعى من تزوجها لفقرى وفاقتى، وطلب منى مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب، ولم أقدر على ذلك. قال: فطلب الخليفة أبهاا، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر، فقالت له جارية من حطاياه: أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر، أفنيت ما نذرت أم نراك قد هويت، فأنشد هذه الأبيات يقول:

نكسول وليستنى لما رأتنى طريت وكنت قد أسليت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت عهداً وأورثك الهوى داءً دفسينا
بحقك هل سمعت لها حديثاً فشاقك أو رأيت لها جبيناً
فسللت شكاً إلى أخ محب كم مثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجـو القديم وإن تمرى محب حين يلقى العاشقين

ثم عد الأبيات فإذا هى خمسة أبيات، فأعتق خمس رقاب، ثم قال: لله درك من خمسة أعتقت خمسة، وجمعت بين رأسين فى الحلال. وروى عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فترلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنها فتمثلت بقول نصيب:

بزينب ألم قسبل أن يرحل الركب وقل لا تملينا فمما ملك القلب

فقلت: يا هذا أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب، فقالت: أتعرف زينب؟ قلت: لا. قالت: أنا زينب. قلت: حياك الله وحياك. قالت: أما والله إن اليوم مرعه، وعنى العام الأول بالاجتماع فى هذا اليوم، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه. قال: فينما هى تكلمنى إذا أنا براكب قالت: ترى ذلك الراكب؟ قلت: نعم. قالت: إني لأحبه إياه، فأقبل فإذا هو نصيب، فترل قريباً من الخيمة، ثم أقبل فلم، ثم جلس قريباً منها، فسألته أن ينشدنا، فأنشدنا، فقلت فى نفسى محبان قد طال التالى بينهما، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، فممت إلى بعيرى لأشده عليه، فقال: على رسلك إني معك، فجلست حتى نهض معى فسرنا وتسامرنا، فقال لى: أقلت فى نفسك محبان التيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة؟ قلت: نعم قد كان ذلك. قال: ورب البيت منذ أحببتها ما

جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتمجبت لذلك، وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيى المثنى قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح أن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم هو يشير إليها، وتشير إليه ويعدها وتعدّه، فإن التفيا لم يتشاكيا حباً ولم يتناشدا شعراً بل يقوم إليها، ويجلس بين شحبتها كأنه أشهد على نكاحها أباً هريرة، وقال الأصمعي قلت لأعرابية: ما تملكون العشق فيكم؟ قالت: الضمة والغمرة والقلبة، ثم أنشأت تقول:

مما الحب إلا قسيلة وغمم كف وعوض
مما الحب إلا هكذا إن نكح الحب ففسد

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرونها ونفريق بين رجلها. قالت: لست بعاشق أنت طالب ولد، ثم أنشأت تقول:

قد فسد العشق وهان الهوى وصلو من يعشق مستعجلاً
يريد أن ينكح أحسبابه من قبل أن يشهد أو ينحلا

وقيل لرجل: وقد دفت عشيقته على ابن عم لها: أيسرك أن تنظر بها الليلة؟ قال: نعم والذي أمتنى بحبها وأشقاني بطليها. قيل: فما كنت صانعاً بها قال: كنت أطيع الحب في لثمها وأعصى الشيطان في لثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح أخباره إلى إذن للثيم لم يلدني كريم.
ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في ليلة في بعض سكك المدينة، فسمع امرأة تقول:

ألا طال هذا الليل واورور جاتبه وليس إلى جنبى خليل الأعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه تحرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياة يعفنى وإكرام بعلى أن تنال مسراتبه

قال: فسأل عمر رضي الله تعالى عنه عنها، فقيل له: إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر، فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر.

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب (تلقيح فهوم الأثر) عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذا سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمير فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل مهل المحيا كريم غير ملجأ
تيممه أمراق صدق حين تنسبه أخى وفاء عن المكروب فرج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن. على بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لناخذن من شعرك، فأخذ من شعره، فخرج من عنده وله وجنتان كأنهما شقتا قمر، فقال له: اعتم فاعتم، فافتت الناس يعينيه، فقال له عمر: والله لا تساكنتي في بلدة أنا فيها، فقال يا أمير المؤمنين: ما ذنبى؟ قال: هو ما أقول لك،

ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدو من عمر إليها شيء فندست إليه المرأة آياتاً وهي:

قل للإمام الذي تخشى بوادره
لا تجعل الظن حقاً أن تبينه
مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
إن السبيل سبيل الخائف الراجي
إن الهوى زم بالتقوى فتحبسه
حتى يقرر بالجسم وإسراج

قال: فبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذى زم الهوى بالتقوى قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر فلذا هو قد خرج فى إزار ورداء وبه الدرة، فقالت له: يا أمير المؤمنين والله لا ألقن أنا وأنت بين يدي الله تعالى، وليحاسبك الله أيبتن عبد الله وعاصم إلى جنيتك، وبينى وبين ابني الغيافي، والأودية، فقال لها: إن ابني لم تهتف بهما العواتق فى خدودهن، ثم أرسل عمر إلى البصرة يريد إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة: من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر ابن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد، فاسمع منى هذه الآيات:

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني
فأصبحت منفياً على غير رية
وما نلت من عرضي عليك حرام
وقد كان لى بالمكتن مقام
لئن غنت الذلغاء يوماً بمنية
وبعض أماني النساء غسرام
ظننت بى الظن الذى ليس بعده
بقاء ومالي جرمة فالام
فيمنعنى مما تقبول تكرمي
وأباه صديق سالفهمون كرام
ويمنعها مما تقبول صلاتها
وحال لها فى قومها وصيام
فهاتان حالان فهل أنت راجعي
ففسد جب منى كساهل وسام

قال: فلما قرأ عمر رضى الله تعالى عنه هذه الآيات قال: أما ولى السلطان، فلا وأقطعهم داراً بالبصرة فى سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث من هذا الباب: فى ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثني أبي قال: كان بالمدينة قتيبة من أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأكثرهم أدباً قد قرأت القرآن ورويت الأشعار وتعلمت العربية فوقع عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم: ويحك أملك لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيغه وأسدي إليه معروفاً؟ قالت: يا أمير المؤمنين أما قرابة فلا ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه فكتب إلى عامله بالمدينة فى إحضارهم إليه وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم فى الدخول عليه فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم فأما اثنان منهم فذكرنا حوائجهما ففضلهما، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال: يا أمير المؤمنين ما لى حاجتي، قال: ويحك أولست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين ولكن حاجتى ما أظنك تقضيها فقال: ويحك فأسألكى فإنك لا تسألنى حاجة أقدر عليها إلا قضيتها، قال: فلى الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التى أكرمتها بسببها تغنى ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أطلال فافعل، قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها فقالت: وما

عليك يا أمير المؤمنين فأمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فنصبت فقعذ يزيد على أحدها والجارية على الآخر والفتى على الثالث ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ثم قال للفتى سل حاجتك فقال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

لا أستطيع سلواً عن مودتها أو يصنع الحب بى فسوق الذى صنعنا
أدعو إلى هجرها قللى فيمعدنى حتى إذا قلت هذا صادق نزعنا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت وقال للفتى سل حاجتك فقال: مرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

تخيرت من نعمان عود أراكه لهند ولكن من يبلغسه هندنا
ألا عرجاً بى بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى وشربت الجارية ثم أمر بالأرطال فملئت ثم قال للفتى: سل حاجتك؟ قال: تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغنى بهذا الشعر:

منى الوصال ومنكم الهجر حتى يفسق بيننا الدهر
والله لا أسدركم مرة أبداً ما لاح بدماء وبدا فحجر

فأمرها فغنت قال: فلم تتم الأبيات حتى غر الفتى مغشياً عليه فقال يزيد للجارية: قومي انظري ما حاله فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد: ابكيه، فقالت: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حى فقال لها: ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكر الغناء والجواري المغنيات والعشيق فقال عبد الملك لعبد الله: حدثنى بأمر ما مر لك فى هذه الأغاني وما رأيت من الجوارى؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلى فى شأنها فكتب إليه: والله لا تخرج منى ببيع ولا هبة فأمسك عنى فكانت عندى على تلك الحالة لا أراد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتت عجوز من عجائزنا فذكرت لى أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ويراهم وأنه يجرى كل ليلة متكرراً فيقف بالباب فيسمع غنائها ويبكى شغفاً وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذى قالت عليه العجوز فإذا به قد أقبل مقتعاً رأسه وقعد مستخفياً فلم أدع لها فى تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعها فإذا بها تكلمه ويكلمها ولم أر بينهما إلا عتياً ولم يزالا كذلك حتى أبيض الصبح فدعوت بها وقلت لقيمة الجوارى: أصلحى فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزيتها، فلما جاءت بها قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فأنابه مذعوراً فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هى هبة منى إليك، فدعش الفتى ولم يجيبني فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببختك فقم وانصرف بها إلى منزلك فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره قال عبد الملك: لقد حدثنى بمعجب فما صنعت الجارية قلت: ماتت والله بعده أياماً بعد نحول عظيم وتعليل وماتت كمدماً ووجدت على الغلام. وقيل: إن عبد الله بن عجلان الهندي رأى أثر كف عشيقته فى ثوب زوجها فمات.

وذكر محمد بن واسع الهيثمى أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الشقفي يقول فيه: بسم الله

الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد... إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات أبكاء يكون إليهن المنتهى في الجمال واكتب لي بصفة كل جارية منهن ومبلغ ثمنها من المال فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين، وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فصاروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلم يزلوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهن مثل قال: وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة وأن ثمنهن ثمن واحدة منهن ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعن الله تعالى ببقائه يذكر فيه أني اشتري له ثلاث جوار مولدات أبكاء وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثنما فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين: فإنها جارية عطاء السوالم عظيمة الروادف كحلل العيين حمراء الوجنتين قد أنهدت نهذاها والتفت فخذاهما كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلها دج كأنها فضة قد شابهها ذهب

وثنما يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم، وأما الثانية: فإنها جارية خافقة في الجمال، معتدلة القد والكمال، تشفى السقيم بكلامها الرخيم، وثنما يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة: فإنها جارية فاترة الطرف لطيفة الكف عديمة الردف شاكسة للقليل، ماعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثنما يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطلب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى إلى أمير المؤمنين فقال أحد النخاسين: أيد الله الأمير إني رجل كبير ضعيف عن السفر ولي ولد يتوب عني أفنأذن لي في ذلك؟ قال: نعم، فتجهزوا وخبرجوا ففى بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا فى بعض الأماكن فنأت الجوارى فهبت الريح فأنكشت بطن إحداهن وهى الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتم فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جليلاً ففتن بها لساعة فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكنوم عيسى لا تحمل من البكا
وأمكنوم كم من عاشق قتل الهوى
وقلبى بإسهمام الأسى يتشرشق
وقلبى رهين كسيف لا أتعششق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا
ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيئه وأتى نحو الجارية فوجدتها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب بها فلفظن به أصحابها فأخذوه وكشفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان فلما مثلوا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب ففتحته وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ولم توافق الثالثة ورأى فى وجهها صفرة وهى الجارية الكوفية فقال للنخاسين: ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التى ذكرها الحجاج فى كتابه وهذا الاصفرار الذى بها والانتحال فقالوا: يا أمير المؤمنين نقول ولنا الأمان، قال: وإن كذبتم هلكم هلكم فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغباً
مقراً بالقبيح وسوء فعلى
وقد شملت إلى عنقى يديا
ولست بما رمست به برياً
وإن تعفرو فمن جود عليا
فإن تقتل ففروق القتل ذنى

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، استخفاف بنا أم هوى الجارية، قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية فقال: هي لك بما أعدت لها فأخذها الغلام بكل ما أعده لها أمير المؤمنين من الحلوى والحلل وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله حتى إذا كان ببعض الطريق نزلاً بمرحلة ليلاً فتعاقبا وناما فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نهوهم فوجدوهما ميتين فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتمجب من ذلك.

ومن ذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه أخرج خبالد بن الوليد المخزومي رضى الله تعالى عنه إلى مشركى خزاعة قال خالد: فأخرجنى إليهم رسول الله ﷺ فى عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس قال: فجذب بنا المسير إليهم فسبق إليهم الحير فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً حتى تعالى النهار وطار الشرار وهاجت الفرسان وتلاحمت الأفران فلولاً الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركتنا الله برحمته من فهزمتهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه ثم طلبنا البيوت فنهينا وسبينا فلما هذى القتال والنهب أمرت أصحابي بجمع السبايا لنقدم بهن على رسول الله ﷺ فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهم الخلم ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشاة جميلة فقلنا له: يا غلام انزل عن النساء فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا فوالله لقد قتل منا فى بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابي قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه فملك منهم جواداً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد قال: فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعراً فوالله لم يهلنى حتى أتم شعري بل حمل على قطعنا حتى تكسرت القنا ووضارنا بالسيوف حتى تقلقت فوالله لقد اقتحمت الأهوال ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ولا أسرع من هجماته فينما نحن نترك إذا كبا به فرسه فصار بين قواته فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له: اقد نفسك بقول اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنا أردك من حيث جئت، قال: يا خالد ما أنصفتنى ارتكنى حتى أجد من نفسى القوة، قال خالد: فتركه وقلت: لعله أن يسلم ثم شدته وثاقاً وصفدته بالحديد وأنا أبكى إشفافاً على حسن شبابه ثم أوثقت على بعير لى فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمى على ناقة أخرى إلى جانبى؟ قال خالد: فأخذتها وشدتها على ناقة أخرى إلى جانبه وولكت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الاشعار ويكيان إلى آخر الليل فسمعتهم يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً فأخذت السيف وضربت فريت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة فأبركتنا الأياعر وحفرنا ودفناها فلما قدما على رسول الله ﷺ قبلنا نحدته بعجب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدثونى شيئاً أنا أحدثكم به فقلنا: من أعلمك به يا رسول الله ﷺ قال: أخبرنى جبريل عليه السلام وتمجب رسول الله ﷺ من موافقتهم وموافق أجليهما.

ومن ذلك، ما حكاه الثورى، قال: حدثنى جيلة بن الأسود وما رأيت شيخاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت فى طلب إبل لى ضلت، فما زلت فى طلبها إلى أن أظلم الغلام وخضيت الطريق فسرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدهما فينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً وبكاء شديداً فشجاني حتى كدت أسقط عن فرسى فقلت: لأطلين الصوت ولو تلفت نفسى فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو ينشد ويترنم:

وكنـت إذا ما جئت سعدى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الحفـرات البيضى ود جليـسها إذا ما انقضت أحـدوتـه لو تعيـدها

قال، فدونت منه وسلمت عليه فرد السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به الممالك أناك يستجير بك ويستعنيك، قال: مرحباً وأهلاً أنزل على الرحب والسعة فعندى طاء وطوى وطعام غير بطوى. فنزلت فنزع شملته وبسطها تحتى ثم أتاني بتمر وزيد ولبن وخبز ثم قال: اعذرني فى هذا الوقت فقلت: والله إن هذا خير كثير فمال إلى فرسى فربطه وسقاه وعلفه فلما أكلت تروضات وصلبت وإنكأت فإني لبين النائم واليقظان إذ سمعت حس شئ وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادى فضحت الشمس حسناً فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلا

يتحدان فقلت: هذا رجل عربى ولعلها حرمة له، فتأوت وما بى نوم فما زال فى أحسن حديث ولذة مع شكوى ورفرات إلا أنهم لا بهم أحدهما لصاحبه بقيق فلما طلع الفجر عاتقها وتفسا الصعداء ويكى ويكى ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبغنى عنى كما أبطأت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنى أنتظر الوائين والرقباء حتى يناموا ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويكى، فبكيت رحمة لهما وقلت فى نفسى: والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة وأنظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلنى الله فداءك الأعمال بخواتيمها وقد نالتى أمس نعب شديد فأحب الراحة عندك اليوم، فقال: على الرب والسعة لو أقمت عندي بقية عمرك ما وجدنتى إلا كما تحب ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلى فأكلت وأكل معى إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهاري ذلك ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان ولم أعلمه بشيء مما رأيت فلما أقبل الليل وطأت وطأتى فصليت وأعلمت أنى أريد الهجوع لما مرى من التعب بالأمس، فقال لى: نم هنياً، فاطهرت النوم ولم أقم انتظرتها إلى هنيهة من الليل فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلن قللاً شديداً وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوى فحركنى فأوهمت أنى كنت نائماً فقال: يا أختى، هل رأيت الجارية التى كانت تمهدنى وجمادى الباردة: قلت: قد رأيتها، قال: فتلك ابنة عمى وأعر الناس على وإنى لها محب ولها عاشق وهى أيضاً محبة لى أكثر من محبتى لها، وقد منعتى أبوها من تزويجها لى لفقرى وفاقستى وتكرى على فصررت راعياً يسيبها فكانت تزورنى فى كل ليلة وقد حان وقتها الذى تأتى فيه واشتغل قلبى وتحدثت نفسى أن الأسد قد أفرسها، ثم أنشأ يقول:

ما بال مية لا تأتى كعادتها أعاقها طرب أم صدها شغل
نفسى فذاك قد أحلت بى سقماً تكاد من حره الأعضاء تنفصل

قال: ثم انطلق عنى ساعة فغاب وأتى بشيء فطره بين يدى فإذا هى الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضائها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطا هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطره ثم أنشأ يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفسيه هلكت لقد جريت حقاً لك الشرا
وخلفتى فرداً وقد كنت آنساً وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال: بالله يا أختى إلا ما قبلت ما أقول لك فإنى أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة فإذا أنا مت فخذ عيادتى هذه فكفى فيها وضم هذا الجسد الذى بقى منها معى، وإفناً فى قبر واحد وخذ شويهاتى هذه وجعل يشير إليها فوف تاتيك امرأة عجوز هى والدتى فاعطها عصا هذه وشويهاتى وقول لها مات ولدك كمدماً بالحب فإنها تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا منى السلام، قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح ووضع يده على صدره ومات لساعته، فقلت: والله لأصنعن له ما أوصانى به ففعلته وكففته فى عيافته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقى جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزناً فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالولاهة فقالت لى: هل رأيت شاباً يرمى غنماً فقلت لها: نعم، وجعلت تلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا الألفظها إلى أن أقبل الليل وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برمة فقصدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك فحركتها فإذا هى ميتة ففعلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشدت فرسى وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهر يجمعنا والشمل مجتمع والدار والوطن
فمزق الدهر بالتفريق ألفتنا وصار يجمعنا فى بطنها الكفن

قال: فأخذت الغنم ومضيت إلى الحى لبنى عمهم فأعطيتهم الغنم وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحى بكاءً شديداً ثم مضيت إلى أهلى وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخير فقال: والله لأحجن لعلى أفرد من عزة بنظرة، قال: فينما الناس فى الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جملة حبيته ومسحت بين عينيه وقالت له: حيث يا جمل فبادر ليلحقها ففاته فوقف على الجمل وقال:

حيثك عزة بعد الحج وانصرفت فحى ويحك من حبيبك يا جمل
لو كنت حبيبها ما كنت ذا سرف عندى ولا مسك الإدلاج والعمل

قال: فسمعه الفردوق تجسم وقال له: من تكون يرحمك الله، قال: أنا كثير عزة فمن أت يرحمك الله؟ قال: أنا الفردوق بن غالب التميمي، قال: أنت القائل:

رحلت جسمالهم بكل أسيلة تركت فزادى هاتماً مخبولا
لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودع قلبى المتسبولا
ساروا بقلبى فى الحادوج وغادروا جسمى يعالج زفرة وعمولا

فقال الفردوق: نعم، فقال كثير: والله لولا أنى بالبيت الحرام لأصبحن صبيحة أفزع هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه، فقال الفردوق: والله لأعرفن بذلك هشاماً ثم توادعا واغترقا، فلما وصل الفردوق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرفه بما اتفق له مع كثير فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لتطلق عزة من زوجها وتزوجها ليها، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانة وهو يقلى نفسه ورشه يتساقط فاصفر لونه وارتاع من ذلك، وجد فى السير ثم إنه مال لىقى راحلته من حى بنى فهد وهم زجرة الطير، فبصر به شيخ من الحى فقال: يا ابن أخى أرايت فى طريقك شيئاً فراعك؟ قال: نعم، رأيت غراباً على بانة يتفلى ويتف رشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب والبانة بين والتفلى فرقة، فازداد كثير حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجد فى السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فتزل وصلوا معهم، فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغضلك يا كثير عن هذا اليوم، فقال: ما هذا اليوم يا سيدى؟ فقال: إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر منشياً عليه، فلما أفاق أنشأ يقول:

فلما أعرف الفهيدى لا دره وألجره للطير لا عز ناصره
رأيت غراباً قد علا فوق بانة ينتف أهلى ريشه ويطايـره
فقال غراب واغتراب من النوى وبانة بين من حبيب تعائـره

ثم شهن شهقة فارقت روحه الدنيا ومات من ساعته ودفن مع عزة فى يوم واحد.

وحكى الأصمى: قال: بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أي معشر العشاق بالله خبروا إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته:

يبدارى هواء ثم يكتم ————— ويخسب في كل الأمور ويخسب

ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته:

فكيف يدرى والهوى قاتل الفتى وفى كل يوم قلبه يتقطع

فكتبت تحته:

إذا لم يجد صبراً لكمان مره فليس له شيء سوى الموت أنفع

ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقد كتب قبل موته:

سمعنا ألعنا ثم متنا فبلغوا سلامى على من كان للوصول يمنع

وحكى أيضاً عن الأصمى رحمه الله تعالى أنه قال: بينما أنا نائم في بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تندب وتقول:

بروحى فتى أوفى البرية كلها واقواهم في الحب صبراً على الحب

قال: فقلت لها يا جارية بم كان أوفى البرية وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا، إنه ابن عمى هوينى فهو يته فكان إن أباح عنفوه وإن كتّم لأموه فأنشد بيتي شعر وما زال يكررها إلى أن مات والله لأتدبته حتى أصير مثله في قبر إلى جانبه فقلت لها: يا جارية فما البيتان؟ قالت:

يقولون لى إن بحث قد غرك الهوى وإن لم أبح بالحب قالوا تصبراً
فما لا مرى يهوى ويكتم أمره من الحب إلا أن يموت فسمعوا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا رحمة الله تعالى عليها والحكايات في ذلك كثيرة، وفى الكتب مشهورة ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعنا في هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر رقائق الشعر والموايا والدوييت وكان وكان
وللوشحات والزجل والحماق والقومة والأغاز
ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: فى الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام: مرقص كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمس لا تشرب خمير السندى فى الروض إلا من كؤوس الشقيق
ومطرب كقول رهير:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخسار من لم تزود
ومسموع عما يقام به الورن دون أن يحجه الطبع كقول ابن المعتز:

مضى الطيرة ذات الظل والشجر ودير عبيدون هطال من المطر
ومتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر:

تقلقت بالهم الذى قلقل الحشى قللهم هم كلهن قلال

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حبباً بوب أبو تمام فى الحماسة، وقال عبد العزيز بن أبى الأصم
الذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهى: غزل، ووصف، وفخر، ومدح، وهجاء، وعتاب، واعتذار،
وأدب، وزهد، وخمريات، ومراث، وبشارة، ونهائى، ووعيد، وتحذير، وتحريض، وملح، وباب مفرد للسؤال
والجواب. ولنتذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكور (ابن
نباتة):

أغصان بان ما أرى أم شمائل ويبيض رفاق أم جفون فرائر
وتلك نبال أم لحاظ رواشق بروجى أفدى شادناً قد ألفته
أمير جمال والملاح جينوده له حاجب عن مقتلئى حجب الك
رفعنت إليه قصبة الدمع شاكياً وأقمار تم ما تضم الغلائل
وسمر دقاق أم قدرد قوائل لها هدف من الحشى والمقاتل
غدوت رى شغل من الوجسد شاغل يجور علينا قده وهو عادل
رى وناظره الفتان فى القلب عامل فوقع بهجرى فهو فى الخد سائل

شكوت فما ألوى وقلت فما صنى
طويل الثوائى دله مستواتر
أطارحه بالنحو يومساً تعلقاً
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى
تفقت فى عشقى له مثل ما غدا
فيا مالكى ما ضر لو كنت شافى
فلانى حينفى الهوى مستحبل

كمال الدين بن التيه:

الله أكبر كل الحسن فى العرب
صبح الجبين لبيل الشعر منعقد
تفتت عن عبير الراح ريقته
لا فى العذيب ولا فى بارق غزلى
كلأنه حين يرمى عن حنيتته
يا جاذب القوس تقريباً لوجتته
ليس من نكد الأيام يحرمها
من لى بأغيد قاسى القلب مبتم
فكم له فى وجود الذنب من سبب
تميل أعطافه تيسهها بطرته
أشار نحوى وجنح الليل معتكر
بكر جلأها أبوها قبل ما جليت

البها رهير:

يعاهدنى لا خسانتى ثم ينكث
وذلك دأبى لا يزال ودأبه
أقول له صلتى يقول نعم غسداً
وما ضر بعض الناس لو كان رارنى
أمولأى إنى فى هواك معذب
فخذ مرة روحى ترحنى ولا أرى
فلانى لهذا الضيم منك لحامل
أعبدك من هذا الجفاء الذى بدا

وجلد بقللى حبيبته وهو هازل
مديد التجنى وافتر الحسن كسامل
فيبدر للإعتراب فيه دلائل
وينصب هجرى عاسداً وهو فاعل
خبسيراً بأحكام الخلاف يجبادل
بوصلك فافعل بى كما أنت فاعل
بعشقتك لا أصفى وإن قال قائل

كم تحت لمة ذا التركى من عجب
واخذ يجمع بين الماء والهب
وافتر مبسمه الشهدى عن حبيب
بل فى جنى فمه أو ريقه الشب
بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
والهائم الصب منها غير مقترب
فمى ويلثمها سهم من الحب
لا عن رضا معرض عنى بلا غضب
وليس لى فى قيام العذر من سبب
كما تميل رماح الخط بالعذب
بمعصم بشعاع الكاس مختضب
فى حجرة الدن أو فى قشرة العنب

وأحلف لا كلمتته ثم أحنث
فيا معشر العشاق عنا تحذثوا
ويكسر جفناً هاوتاً بى ويميث
وكنا خلونا ساعة تتحدث
وحشام أبقى فى الخمرام وأمكث
أموت مراراً فى النهار وأبعث
ومتظر لطفاً من الله يحدث
خلاتك الحسنى أرق وأدمث

تردد ظن الناس في فاكثروا
وقد كرم في الحب من شمائل

النايل:

ما كنت أعلم والضمائر تصدق
حتى سمعت بذكركم فهو يتكم
ولقد قنعت من اللقاء بـاعة
قد نعتش العطشان بلغة ريقه
فمعي عيوني أن ترى لك سيدي

أبو الحسن الجزار:

في خده من بقايا اللثم تخميش
ظبي من التبرك أغنته لوحظه
إذا تشنى فقلب الغصن منكسر
يا عاذلي إن تكن عن حسن صورته
كم ليلة بات يبقيني المدام على
والغصن كالجيش يرتج الوجود له
في مجلس ضحكك أرجأوه طرباً

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

تري متى من فتور اللحظ ينتشط
قد رقي لي خصمه المضي فنامجني
وقد خفي الردف عني من تشاقله
وصدرة الرجب قد عانقته محرراً
وفيه تلك النهود المشتهة ترى
إن الصواب لتعجيل السرور فقم

القاضي مجد الدين بن مكاتس:

أهدى تحييته وجاد برعده
بلر جوى ماء الحياة بثفره

أحاديث فيها ما يطيب ويخيب
ويسال عني من أراد ويبحث

إن المسمع كالنواظر تعمش
وكذلك أسباب المحبة تعلق
إن لم يكن لي للدوام تطرق
ويغص بالماء الكثير ويشرق
وجهها يكاد الحسن فيه ينطق

ربي لتشويش ذاك الصدغ تشويش
عما حوته من النيل التراكيش
وإن تبدي فطرف البدر مدهوش
أعشى فإني عما قلت أطروش
روض له بشياب الغيم ترقيش
والبرق رايت به والرعد جأوش
لأنه يبدع الزهر مفروش

من قلبه بحببال الشعر مرتبط
فقلت خير الأمور الأتوب الوسيط
فقلت هذا على ضعفي هو الشطوط
والقلب منبعث الآمال منبسط
رماتها فيه قلبي أمسه قرط
قبل الفوات فأوقات الهنا غلط

أفنديه من قمر بدا في سعده
وترددت فضلاته في خده

أمكنته قلبي فأوقد خنده
من لي به حلو الشمائل أهيف
يا عاذلي في حبه لو أبصرت
لمذرت كل متتيم في حبه
فو حق موتي في هواه صجابه
ما جاد غيث الدمع إلا عن هوى
قم يارسول وأبلغ العشاق ما
وإذا سألتك أن تؤدى في الهوى

عز الدين الموصلي:

والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه:

نفس عن الحب ما أغشت وما غفلت
دعها ومدمعها الجاري لقد لقيت
أنديك من ناشط الأجفان في تلقى
وأوضح الحسن لو شامت ذوائبه
معمبل بنمماس في لوحظه
من لي بألحاظ ظلي يدعى كسلاً
وحمرة فوق خديهِ ومرشفه
أما كفاني تكحيل الجفون أسي
أستودع الله أعطافاً ثوت كبدي
ومهجة لي كم ألفت بممعها

غيره للفاضل:

شرح الشباب بحبك أفئته
وأنا الذي لو مسري من نعوكم
كيف التعمرض لللو وحبيكم
لله داء في القسود أجنه
قالوا حبيبي في التجنى مسرف
أروم من كلني عليه تخلصاً
ولو استطعت بكل اسم في الوري

نيران أحشائي عليه ووجدته
روت العوالي عن مشقف قنده
عينك فوق الردف مسبل جمعه
وعلمت أن ضلاله في رشده
وحياة مبسمه الشهى ويرده
خلع القلوب يسرقه ويرعبده
ألقاه من جور الحبيب ومعه
خبري فصف فعل الغرام وأبده

بأي ذنب وقالك الله قد قتلت
ما قدمت من أسي قلبي وما عملت
والسحر يوم طرقي أنها كسبت
في الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
ألسا تراها إلى كل القلوب حلت
وكم ثياب فني حاكمت وكم غزلت
هذي محاسنها تزهو وذى ذبلت
حتى المرافف منه باللمى كحلت
وكلمما رمت تجسيد الوصال قلت
إلى الملام ولا والله مما قسبت

والعمر في كلف بكم قضيت
داع وكنت بحفرتي لبميت
حب بأيام الشباب شريت
يزداد نكساً كلما داويت
قاس على العشاق قلت فديته
لا والذي بطحاء مكة بيته
من لغة الذكرى به سميت

وللشيخ بدر الدين الدمامي:

ملء سيفاً من الجفون صقيلاً
صح عن جفنه حديث فتور
من أبدى لنا من الحصر ردفاً
ذو قوام كلته الغصن لكن
كامل الحمن وافر ظل وجدى
فاتك الجفن ذو جمال كثير
قلت إذ لاح طرفة عينه ولما
كيف حالى وهل لصب إليه

وقال آخر:

لو أن قلبك لى يرق ويرحم
ومن العجائب أننى لا سهم لى
يا جامع الضمدين فى وجناته
عجيبى لطرفك وهو ماض لم يزل
ومن المروءة أن تواصل مدنفاً

وقال آخر:

تصدق بوعده إن دمعى مائل
فخذك موجود به التبر داتماً
أيا قمرأ من شمس طلعة وجهه
تنقلت من طرف مع القلب والهوى
جعلتك للتمييز نصباً لحاطرى

وقال ابن صابر:

قبلت وجته فالتفت جبينه
فأنهله من خديه فسوق عناره
فكأننى استقطرت ورد خمدوده

وقال آخر:

مذ تصدى جللاه رحت قتيلاً
وهو ما زال من قديم عيلاً
فأرانا مع الخفيف ثقيلاً
بالهوى نحو وصلنا لن ييلاً
فيه يا عاذلى مديداً طويلاً
أثلف العاشقين إلا قليلاً
فاتر اللحظ بكرة وأصيلاً
من سبيل فقال لى مل سبيلاً

ما بت من ألم الجوى أنالهم
من ناظريك وفى فؤادى أسهم
مساء يرق عليه نار تضمر
فمعلام يكسر عندما تتكلم
والدهر سمح والحوادث نوم

ورود فؤادى نظرة فهو راحل
وحسبك معدوم لديه المائل
وظل عذازيه الدجا والأصائل
وهاتيك للبدر المنير منازل
فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل

خجلاً ومال بعطفه المياس
عرق يحاكى الطلل فسوق الأس
بشصاصد الزفرات من أنفاسى

وغزال كل من شبيهه
قال إذا قبلت وهماً فمه
وقال آخر:

بأبي غلام لست غير غلامه
ذو حاجب ما إن رأيت كونه
وقال جمال الدين بن مطروح:

ذكر الحمى فصبا وكان قد ارعوى
تجمرى مدامعه ويخفق قلبه
وإذا تاللق يسارق من بمارق
فخذوا أحاديث الهوى عن صادق
وبهجتي رثا أطالت عسلكي
قالوا أفيه سوى رثاقه قد
ما أبصرته الشمس إلا واكتست
يروى الأراك محاسناً عن ثغره
وقال آخر:

عبث النسيم بقده فتأودا
رثماً تفرّد فيه قلبي بالهوى
فأسوء بالغمصن الرطيب جهالة
حسن الغصون إذ اكتت أوراقها
وقال غيره:

يا حنناً مالك لم نغصن
رقصت بالورد وبالسوسن
وقد أبى خلدك أن أجبتني
يا حسنه إذ قال ما أحسن
قلت له كلك عندي سنأ
فغفوق السهم ولم يخطنني
وقال كم من عاشق حنيني
يرحمني الله على أننى

بهلال أو بيسلر ظلمه
قد تعدت وأسرفت فمه

مذ جاد لي بسلامه وكلامه
أبدأ وصدغ ما رأيت كلامه

صب على عرش الغرام قد استوى
مهما جرى ذكر العقيق مع اللوى
فهناك ينشر من هواه ما انطوى
ما ضل في شرع الغرام وما غوى
ففيه الملام وقد حوى ما قد حوى
ونشور عينيه وهل موتى سوى
خجلاً ولا غصن النقا إلا التوى
يا طيب ما نعل الأراك وما روى

وسرى الحياء بخمده فتوردا
لما غدا بجماله متفردا
تأله قد ظلم للشبّه واعتدى
وتراه أحسن ما يكون مسجودا

إلى قلوب في الهوى متعبه
صفحة خد بالسنا مذهبه
منه وقد أسمعني عقيقه
ويا لذلك اللفظ ما أعذبه
وكل الفاظك مستعذبه
ومذ رأني ميتاً أعجبه
وحبيه إياي قد أتمبه
قتلى له لم أدر ما أوجببه

وقال آخر:

ويخرججل بدر التيم عند شروقـه
وما فيه شيء بازد غير ريقه

مليح يغار الغصن عند اهتزازـه
فما فيه معنى ناقص غير خصره

وقال يحيى بن أكنم:

فلما رأى ذلى ثنى عطفه دلا
واقعدنى صبراً وأعدنى عقلا
وأعرض مزوراً فليل الحشى ملا
يناديه فرط العجب من عطفه كلا

دنا هاجرى نحوى بمقلته الكعلا
فنيئمنى شوقاً وأنحلتى أسمى
شكوت فما ألوى وولى وما لوى
إذا ما دعاه فرط سقمى لزورة

وقال أيضاً:

بين العذيب وبين شطى باردق
فأجابتني عنها بوعد صادق
ومن النجوم الزهر تحت سرادق
صهبا كالمسك الذكى لناشق
وذابتاه حمائل فى عاتقى
رحزحته عني وكان معاتقى
كى لا ينام على فراش خافق
قد شاب فى لم له ومفارق
صعب على أن أراك مفارقي

بابى غزالاً غازلته مقلتى
وسألت منه زورة تشفى الجسوى
بنا ونحن من الدجا فى خيمة
عاطيته والليل يسحب ذيله
وضمته ضم الكى لسيفه
حتى إذا مالت به سنة الكرى
أبعدته عن أضلع تشتاقيه
لما رأيت الليل آخر عميره
ودعت من أهوى وقلت تأسفاً

وقال ابن نباتة:

فما أبهى الغزالة والغزالا
ولكن قند وجلدت به الضلالا
سواد العين فيه فخال خالا
وجلدت له من الألفاظ لالا
لنا دراً وقصد سكن الزلالا
رأيت على مسوالف نمالا
وقصد أهدى إلى قلبى الوبالا
وأشكر من صناعه الجسمالا

بدا ورنست لواحظه دلالا
وأففر عن سنا قمر منير
صقيل الخلد أبصر من رآه
وممنوع الوصال إذا تبلى
عجبت لشغره البمام أبدي
شهدت بشهد ريقه لأمي
فيا عجبا لمن قد حواه
سأشكو الحزن ما بقيت حياتي

القاضي فخر الدين بن مكائس:

يا غصناً في الرياض مالا
يا رائحاً بعد أن سبباني

وله أيضاً:

أجبارك الله قد رثت لي
وعسا ذلي منذ رأى ضلوعي

ابن رفاعه:

يقولون هل من الحبيب بزورة
فقالوا لنا غوصوا على قلده وما

الشيخ برهان الدين القيراطي:

ووردى خد نرجسي لواحظ
وواوات صدغيه حكين عقارباً
ووجنته الحمراء تلوح كجمرة
وودي له باق ولست بسامع
ووالله ما أملو ولو صرت رمة

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضاً:

شبهه السيف والسنان بعيني
فأبى السيف والسنان وقالوا

وله أيضاً:

بأبى أهيف المعطاطف لذن
ذو جفون مذ رمت منها كلاماً

وقال آخر:

لملك رقى شادن قد هويته
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه

حملتني في هواك مالا
حسبك رب السما تعالي

عما الاقى عدا وحسب
تعبد سقماً بكى وعدد

ومتاكم المطلوب قلنا لهم منا
يحاكي إذا ما اهتز قلنا لهم غصنا

مشايخ علم البحر عن لحظه رووا
من المك فوق الجلائر قد التوا
عليها قلوب العاشقين قد اكتوا
لقول حشود والعواذل إذ عوا
فكيف وأحشائي على حبه انطوا

من لقتلى بين الأنام استحلا
حسنا دون ذاك حاشي وكلا

حسد الأسمر المشقف قد
كلمتني سيوفهن معده

من الهند معمول اللمى أهيف القد
عنوا حنركم قد سل صارمه الهندي

ومما قيل في الغزل المؤنت للشيخ شمس الدين بن البديري:

وطيفها عن عياني غير محتجب
والقلب ما زال عنها غير منقلب
ولا لوائى خيلى بات يلعب بى
ومر هجراتها أحلى من الضرب
تشيب فيه الليالى وهو لم يشب
وغير طاعته فى الحب لم يحجب

خيال سلمى عن الأجفان لم يغيب
وذكرها أنس روى نائية
لم أصغ فيها لراح يعذلى
عذابها فى الهوى عذب ألد به
فإن نات أو دنت وجدى كما علمت
دعها فأمر هوى المحبوب متبع

وقال عفا الله عنه:

وحياه من دمعى مذاب وجامد
وأرض ناك عنها قفار جلامد
ولو كسرت متها على الموارد
وظلت ليالى به بلمى تساعد
ويقظان طرف البين عنى راقب
وأوقاتنا بالوصل خضر أمال
ونحن كنا فى الحقيقة واحد
ولم يطرده فسينا من البين طارد
تلوح علينا للنغمات شواهد
ولم نحسب الأيام فينا تعاند
كما كنت لى أم حاد بالقلب حائد
على عادة الأيام منك العوائد
وأناك حفظ الود هذا التباعد
وقولك لا عاش الخسبون المعاهد
وهل أنت أحللت الذى أنا عاقب
وفيك يقينى بالوفاء منك شاهد
ولا اختلفت فيما علمت العوائد
وكيف سلوى والحبيب مباعد
فمردى طريف فى هواك وتالد
لعمري وجدى بالحشاشاة واقد
فى يضرب الأمثال من هو وارد
صبر على البلوى شكور وحامد

سقى ظللاً حلت به سلمى معاهد
فريع به سلمى مصيف ومريع
وحيث ثوت أرضاً فأعذب مسود
رعى الله دهرأ ما لتنى صروفه
وقد غفل الواشون عنى ولم أزل
وإيماناً بالقسر ببيض أزاهر
وأرواحنا مزوجة وقلوبنا
وكم قد مرجنا فى مروج صباة
تجر ذبول اللهو فى قمص الهوى
ولم يخطر التفريق منا بخاطر
فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى
وهل ودنا باقى ولا تغيبرت
وهل محبت آثار رسم حديثنا
وهل تذكيرين العهد إذ نحن بالولوى
وهل أنت غيبرت الذى أنا حافظ
وهل بدلت منك المودة بالجففا
وإنى ما بدلت عهدك فى الهوى
ولا بت مسروراً وعيشك ليلة
فإن كنت حبل الود صرمت طرفه
وإن قلت إن الحب غسيب السوى
وإن أوردوا يوماً صباة عاشق
فما شئت كرونى إنى بك ملتف

ومنك تـساوى عندى الوصل والجـلفا
ولو رمت السوى من هواك أعنتى
نصبت شراك الحب صدت حشائتى
بعدت وقلت البين يلى أخا الهوى
وما غير التفريق ما تعهدينه
وجل منأى القـرب منك وإنما

وقال عفا الله عنه:

تهـددنى بتـبـريح وبين
وتخلف لى لتلبسنى سقـاماً
وترمسينى بنبل من جفـفـون
وتغرقتى بنار الصـد حتى
فقلت لها ودمعى فى انكـاب
ومن لى أن يقـال قـتـيل وجد

وقال عفا الله عنه:

كُـلُوى عنك شىء ليس يـروى
ولم يمرر سـواك على ضـمـيرى
ومالك عن سـواد العين يـوماً
وما اخـضـرت دواعى الشـوق إلا

وقال عفا الله عنه:

قفسا نيك داراً شط عنا مسـزارها
وعوجا بأطلال محتها يدى النوى
فمقدنا بها رماً من الإنس إن رنت
نصبيد قلوب العاشقين أتوبه
ويهبزاً بالأغصان لين قـوامها
وليس لبيد التـم قامـة قدـها
منارلها منى الفـود وإن نأى
يمثلها بالوهم فكرى لناظرى
وهيج دمعى حر نار صـبـابتى
وساعدنى بالأيك ليلاً حمائم
بكين ولم تـسـفـح لهن مـدامـع

وفيك لقد هانت على الشـدائد
لقاد زمامى نحو حبك قائد
فكيف خلاصى والهوى منك صائد
وهل يلى ذا الأثـجان هذا التـبـاعد
وسوق سـوى فى المحبين كاسـد
إذا عظم المطلوب قلّ المـسـاعـد

وتوعـدنى بتـفـسيق وصد
تهى جـلدى به وتـذـيب جـلدى
فتـضـينى وتـصـمـمنى وتردى
تذيب حشائتى كمدأ وكـبـدى
يفيض دماً على صـفـحات خـدى
وأذكـر فى هواك ولو بصـدى

وحبى فـيك سـار مع الـركـاب
ووجدى فـيك أيسره عـذابى
وما لسـواد قلـى من حـجـاب
هزرت إليك أجنحة التـصـابى

وأـنـحـلنا بـعد البـعـاد أدكـارها
فـسـأـظلم بالنأى المـثـت نـهارها
بمـقـلتها بـدمى القـلوب احـرارها
ويحسن منها صـلـدا وتـفـارها
إذا مال فـوق الغـصن منها خـمـارها
وما هو إلا حـجـلـها وسـوارها
عن العين مـشـواها فـفى القـلب دارها
وأكثر ما يـضـنى النـفـوس افـتـكارها
وما خـمـدت بالدمع منى نارها
تهافت شـجـواً لا يـقـر قـرارها
وعينى فـاضت بالدموع بـحـارها

ولولفه رحمه الله تعالى، وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يال الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدهو له بمغفرة ذنوبه:

بلطف وقل عن حال صـبك سائلـي
قـريح جـفـسـون من دـمـسـوع هـوامـل
حـلـيف الضـنـى لم يـصـغ يـومـاً لـمـاذل
يـشـن غـرامـاً فـارحـمـيه وواصـلي
وـهـاجـت بـتـبـريـح الخـرام بلا بـلي
فـلم يـخـط قـلـبي والحـشـا ومـقـاتـلي
بـسر فـناحـت أدمـعي بـرـسائـلي
فـقـد عـاد لـي حـال لـه رـق عـاذـلي
بـوعـد بـعـد الوـعـد إن شـئت مـاطـلي
فـبـالـسـقم أـعـضـائـي وهـت ومـفـاصـلي
وعـظـم أثـنـي لا يـرآنـي مـسـائـلي
وفـاضـت عـلى حـالـي عـيـون عـواذـلي
ومـا فـزـت فـي الأيـام مـنك بـطـائـل
ضـى جـمـدى فـالوجـد لا ثـك قـاتـلي
نـبي لـه فـضـل عـلى كـل فـاضـل

نسـيم الصـبـا بـلـغ سـليـم رـسائـلي
فـقـد صـار بـالـسـقم صـبـا مـعـذبـاً
صـبـوراً عـلى حـر الخـرام ويرد
يـيـت عـلى جـمر الغـضـى مـتـقـلبـاً
ألا يا سـليـم قـد أـضـر بـي الهـوى
رـمـيت بـسـهم مـن لحـاظـك قـاتـل
كـنـمت غـرامـي فـي هـواك ولـم أـبـح
سـليـم سـلي مـا قـد جـرى لـي مـن التـرى
لـعل تـجـودـي لـلـكـثـيب وتـمـمـحـي
عـسى تـطـفـي بـالـوعـد نـاري وأشـتـفـي
عـفـيت عـن العـوـاد لـولا تـأوـهي
فـرقـي فـقـد رـقت عـداي لـذـلتـي
قـطـعت زـمـانـي فـي عـسى ولـعـلـها
فـمـا آن أن تـرضـى عـلى وتـرحـمـي
تـومـلت بـالـمـخـتـار فـي جـمـع شـمـلـنا
وله رحمه الله تعالى:

حـتى قـتـلت بـفـرط الـهـجـر مـضـناكـي
مـن فـي الـوزـي يا تـرى بـالقـتـل أقتـاكـي
فـي النـوم طـيف خـيـال مـن مـحـياكـي
أضـحـي عـليـلاً حـزـيناً لم يـزل بـاكـي
فـهـل تـرى تـسـمـحـي يـومـاً بـرؤـياكـي
فـالـله يـعـلم أنا مـا نـسـيناكـي
أضـحـي فـؤادـي أسيـراً لـحـظ عـيناكـي
ولا عـذاب نفـوس قـبـل أهـواكـي
أمسـى أسيـراً سـوى فـي حـسن مـعـناكـي
ولا تـطـيـل بـحق الـله جـفـواكـي
ومـهـجـة تـلـقت يا هـند مـا أقـساكـي
وأنت يا هـند لا تـزـشـي لـضـناكـي
ولو فـتـيت غـرامـاً لـست أـتـساكـي

يا ربة الحسن من بالصد أوصاكـي
ويا فـنـاة بـفتـان القـوام سـبـت
لـقـد جـنت غـرامـاً مـذ رآي نظـري
ومـذ رآه جـفـا طـيب النـام وقـد
عـذبـتي بـالتـجـنى وهـو يـعـذب لـي
إن كـنت لم تـذكـرنا بـعـد فـرقتـنا
مـا آن أن تـعـطـفي جـوداً عـلى فـقـد
مـا كـنت أـحـب أن العـشـق فـيـه ضـى
حـتى تـولـع قـلـبي بـالخـرام فـمـا
وقـي لـعـبـدك جـوداً واعـطـفـي وذـرى
يا هـند رـفـقاً بـقـلـب ذاب فـيـك أسي
رق العـذول لـحـالـي فـي الهـوى ورثـي
والله لو نـت مـا أـفـلاك يا أـمـلي

وقال آخر:

يسير أمام العيس وهو ذليل
فؤادى سرى فى الرب وهو عجزول
لتعلم ما هذا إليه يسول
فمن باب أولى أن يجد رحيل
وما زال لبل العاشقين طويل
فقلت وجسم العاشقين نحيل
يسوم وداع ما إليه سبيل
لكيلا أرى يوماً على تقيل

كان فؤادى يوم سمرت دليل
فسمرت عقيب الطاعنين لكي أرى
وقائلة لى كيف حالك بعدنا
فقلت لها قديم قبل ترحلى
وقلت فليلى طال همًّا فأنشدت
فقلت وجسمى لم يزل مسترجفًا
فقلت لها لو كنت أدري فراقنا
قلعت لعينى فى هواك بأصبعى

وقال الواواء الدمشقي^(١) عفا الله عنه:

مالي ومالك قد أطلت سهادى
أبعدتنى ولقد سكنت فؤادى
روحى وقلبي والحسنا وقبادى
قلبي أسيراً ما له من فؤادى
فلكم صرعت بها من الأكادى
والحسن منها عاكف فى بادية
ودعى السيوف تفر فى الأغمار
فبعيم مبكمى شفاء الصادى
ولقد فى صبرى وعاش سهادى
يا حسبيذا لأراك من عوادى
من خلدك المترقرق الوقاد
مالي سواك ولو حرمت مرادى
وبه سألنى الله يوم ميعادى

يا من نغت عني لذيد رقبادى
فببأى ذنب أم بآية حالة
وصددت عني حين قيد ملك الهوى
ملككت لحاظك مهجتي حتى غدا
لا غرو إن قتلت عيونك مغرما
يا من حوت كل المحاسن فى الورى
رفقاً بمن أسرت عيونك قلبه
وتعطفى جوداً على بقيلة
ماتت أطال الله عمرك سلوتي
ومن المنى لو دام لى فسبك الضنى
وأجسيل منك نواظرى فى ناضر
وأقول ما شئت اصنعى يا منيتى
إلا مديح المصطفى هو عمادتى

وقال إليها زهير:

أتوح كما ناح الحمام المطوق
وتحس بحار بالجووى تنفق
تفك الأمارى دونه وهو موثق
ولا أنا عمون عليه فيعنتق

إذا جن ليلى هام قلبي بذكركم
وفوتى سحاب يحطر الهم والأسى
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها
فلا أنا مقتول ففى القتل راحة

(١) الواواء الدمشقي: هو محمد بن أحمد الدمشقي، المشهور بالواواء الدمشقي أبو الفرج شاعر، كان فى مبدأ أمره نادياً بدار البلخ بدمشق من آثاره «الدويان» الذى هو صغير الجرم غطيف الحجم تولى سنة (٢٨٥هـ) وقيل ٢٩٠هـ - نحو ٩٩٠م).

مجنون ليلي:

وقد خبّروني أن تيماء منزل
فهذه شهر أنصيف عنا مستقضى
أعسد الليالي ليلة بعد ليلة
وأخرج من بين البيوت لعلى
ألا إلهما الركب اليمانيون عرجوا
يمناً إذا كانت يمناً فإن تكن
أصلّى فما أدري إذا ما ذكرتها
خليلى لا والله لا أملك الهوى
خليلى لا والله لا أملك الذى
قضاها لغيرى رابتلاني بحبيها
ولو أن واش باليمامة داره
وددت على حصى الحياة لو أنه
على أنى راض بأن أحمل الهوى
إذا منا شكوت الحبّ قالت كـ
فلا حبّ حتى يلصق الجلد بالحشى

وقال آخر:

قالت لطيف خيال وارنى ومضى
فقال خلفه لو مات من ظمأ
قالت عهدت الوفا والصدق شيمته

كمال الدين بن النيه:

أما ويصاح مبسمك النقى
ودمان من الكافور تعلو
وقد كالفضيّ إذا ثنى
لقد أسقمت بالهجران جسمى
إلى كم أكنتم البلى ودمعى
وكم أشكو للاهيسنة غرامى

صفي الدين الحلبي:

أبت الوصال مخافة الرقيباء

لليلى إذا ما الليل ألقى المراسيا
فما للنوى يرمى ليلي المراسيا
وقد عشت دهرًا لا أعُد الليالي
أحدث عنك النفس بالليل خالي
علينا فقد أمسى هوانا يماني
شمالاً ينادى الهوى عن شمالي
اثنتين صليت الفصحى أم ثماني
إن علم من أرض ليلي بدا لى
قبضى الله فى ليلي ولا ما قضى ليا
فهلا بشئ غير ليلي ابتلاتيا
ودارى بأعلى حضر موت اعتدى ليا
يزاد لها فى عمرها من حياتيا
وأخلص منه لا على ولا ليا
فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا
وتغرس حسنى لا تحبيب الناديا

بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
يا يرد ذاك الذى قالت على كـ

وسمرة مسكة اللحم الشهى
عليه طوالع النذ السندى
خشيت عليه من ثقل الحلى
وأعطتنى ومالك بمسد رضى
يروح بمضمرة المر الحفى
فصول للشجى من الحلى

وأنتك تحت مدارع الظلماء

أصفتك من بعد الصمدود مودة
أحييت بزورتهما النفوسَ وطالما
أمنت بليلي والنجوم كأنهما
أمنت تعاطيني المدام وبيتنا
آت إلى جمدي لتظن ما انتهت
ألفت به وقع الصفاح فراعها
أمصيبة منا بنيل لحاظها
أعجبت بما قد رأيت وفي الحشا
أسمى ولست بسالم من طعنة
وله رحمه الله تعالى:

قفي ودعينا قبل وشك التفريق
قضيت وما أودى الحمام بمهجتي
قنعت أنا بالذل في مذهب الهوى
قرنت الرضا بالخط والقرب بالنوى
قبلت وصايا الهجر من غير ناصح
قطعت زمانى بالصمدود وورثتى
قضى الدهر بالتفريق فاصطبرى له
وقال عفا الله عنه:

جاءت لتتظن ما أبقت من المهج
جلت علينا محيياً لوجلته لنا
حورية الخلد تسمى ورد وجنتها
جوزت إساءة أفعالي بمغفرة
جادت لعرفاتها أنى المريض بها
جئت يدي لتري ما بي فقلت لها
جفوتني فرايت الصبر أجمل بي
جارت لحاظك فينا غير راحمة
وقال ابن نباتة:

رقت لنا حين هم السفر بالسفر
راض الهوى قلبها القاسى فجادلنا
رأت غميدة النوى نار الكلیم وقعد

وكسدا الدواء يكون بعمد الداء
فنت بها قسقت على الأحياء
در بباطن غيممة زرقاء
عتب غنيت به عن الصهباء
من بعمدتها فيه يد البرحاء
جزعاً وما نظرت جراح حشائي
ما أخطأته أسنة الأعمداء
أضعاف ما عاينت فى الأعضاء
نحلاء أو من مقلة نحلاء

فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى
وشيت وما حلّ البياض بمفرقى
ولم تفرقى بين المنعم والشقى
ومزقت شمل الوصل كل ممزق
وأحببت قول الهجر من غير مشفق
عشيمة رمت لتترحل أينقى
ولا تذمى أنعماله وترفقى

فعطرت سائر الأرجاء بالأرج
فى ظلمة الليل اغتتنا عن السرج
بحارس من تبال الغنج والدعج
فكان غفرانها يؤنى عن الحجج
فما على إذا أذنت من حرج
كفى فذاك جوى لولاك لم يهج
والصممت فى الحب أولى من اللهج
ولفة الحب جهور الناظر الغنج

وأقبلت فى الدجى تسمى على حذر
وكان أبخل من تمور المطر
شربت فلم تبقي من قلبى ولم تذر

رشيقة لو تراها عندما سفرت
رأيت بلدين من وجه ومن قمر
رشف دة الحميا من مقبلها
رنت نجموم الدجي نحوى فما نظرت
راق العناب وابدت لى سرائرها
وقال ابن الساعاتى:

قبلتها ورشفت خمرة ريقها
ودخلت جنة وجهها فاباحنى
وقال آخر:

بكت للفراق وقد راصها
كان الدموع على خدّها
الواراء الدمشقى تضمين:

قالت متى الظعن يا هذا فقلت لها
فأطمرت نولوا من نرجس وسقت
لاين نباتة:

عذولى لت أسمع منه قولا
له طرف ضريز عن سناها
وقال آخر:

ورب ليالى فى هواها سهرتها
حديث عال فى السهاد لانى
السراج الوراق^(١):

يا لانسى فى هواها
ما يعلم الشوق إلا
وقال آخر:

وعدت أن تزور ليلاً فآلوت
قلت هلاً صدقت فى الوعد قالت
لعز الدين الموصلى:

قد سلونا عن الغسزال بخسود

والبدر ساه إليها فهو معتذر
فى ظل جنحين من ليل ومن شمر
إذ نبهتني إليها نسمة السحر
من يرشف الراح قبلى من قم القمر
فى ليلة الوصل بل فى غرة القمر

فوجدت نار صباة فى كثر
رضواتها المرجو شرب السكر

بكاء المحب لبسماء الديار
بقية طل على جنان

إنما غدا رعموا أو لا فبعد غد
وردا وعشت على العناب باليسود

على غيداء مثل البدرقا
ولى أذن عن الفحشاء صفا

أراعى نجموم الليل فيها إلى الفجر
رويت أحاديث السهاد عن الزهرى

أسرفت فى اللوم جهلا
ولا الصباة إلا

وأنت فى النهار تسحب ذبلا
كيف صدقت أن ترى الشمس ليلا

ذات وجه بها الجمال تفنن

(١) السراج الوراق: هو عمر بن الحسن الوراق (سراج الدين) لبيب، كاتب، شاعر، كان كاتباً لوالى مصر الأمير يوسف بن مبارك من آثاره ديوان شعره فى سبعة أجزاء كبار، ونظم دة الغواص للحريرى، توفى بالقاهرة فى جمادى الأولى سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٦م) وقد قارب التسعين أو جاورها بقليل.

ورجعنا عن الشهتك فيه

وقال آخر:

قالت وناولتها سواك

سواى ما ذاق طعم ريقى

وقال آخر:

سالتنها أن تعيد لفظا

حديثها سكر شهى^١

ابن نباتة:

وملولة فى الحب لما أن رأته

قالت تغيرنا فقلت لها نعم

وقال أبو الطيب المتنبى^(١):

بأبى الشموس الجاثحات غواربا

الناهبات عيوننا وقلوبنا

الناعمات القتلات المحييات

حاولن تفديتى وخفن مراقبنا

ويسمن عن برد خشيت أذييه

يا حبذا المتجملون وحبذا

كيف الرجاء من المخطوب تخلصا

وله أيضاً من جملة قصيدة:

ولما التقينا والنوى ورقبنا

فلم أر بدراً ضاحكاً قبل وجهها

الشريف الرضى:

وقميس بين مزعفر ومصفى

هيفاء إن قال الشباب لها انهضى

إذا مالت الوصل قال جمالها

ودفستنا بالتي هي أحسن

ماد بغيبها على الأراك

قلت لها ذاقه سواكى

قالت محب دعوه يعذر

وأحسن السكر المكرر

أثر القمام بجسمى المنهاض

أنا بالقمام وأنت بالإعراض

اللايات من الحرير جلابيا

وجناتهن الناهبات الناهبا

المبديات من الدلال غسراتيا

فوضعن أيديهن فوق ترائبنا

من حر أنفاسى فكنت الذائبنا

وإد لثمت به الغزالة كاعبنا

من بعد أن أنشبن فى مخالبنا

غسفلان عنا ظلت أبكى وتبسم

ولم تر قبلى مينا يتكلم

ومسعنبر ومك ومصنديل

قالت روادفها أقسعدى وقملى

جودى وقال دلالها لا تفعلى

(١) أبو الطيب المتنبى: هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفى الكوفى للشئى الشاعر، ولد سنة (٣٠٣هـ)، وأكثر المقام بالبادية لاقتباس اللغة، تماطى قول الشعر فى صغره حتى طبع فيه للغاية، ومار شعره فى الدنيا، بالإضافة لفرقه على أهل زمانه، مدح الملوك كسيف الدولة وكافور الإخشيدى، وادعى النبوة فى عصره فأخذ وحس واشرف على الهلاك ثم استأبوه وأطلقوه، كانت وفاته بالقرب من النعمانية بمكان يقال له الصافية بعد أن تعرض له فائتق بن أبى جهل الأسدى فى عدة فى أصحابه وكان المتنبى مع جماعة أيضاً وابنه محمد وعلماه مفلح وقلق سنة (٣٥٤هـ) ومن آثاره ديوان شعره.

ابن إسرائيل:

حوراء ناظرها حسام مرهف
در وريقها سلاف قرقف
غصنا يمس به النسيم مهفف
وعدت ولكن الزمان يموف
وردا جنيا باللواحف يقطف
وعبر ناظرها الحسام الاطف
اجفانك المرضي ولا تنعطف
وسواد شعرك وهو ليل مسدف
ما لي إلى أحد سواك تشوف

وعدت بوصل والزمان مسوف
نشوانة خصباء منهل ثغرها
وتخال بين البدر منها والنقا
لا تحبين الخلف شيمة مثلها
يا بانه قد اطلعت اغمصانها
وغزالة يحكي الغزالة وجهها
ما تأمرين لمغرم تطو به
قما بوجهك وهو صبح مشرق
ويهرز غصن البان منك على النقا

ولنذكر إن شاء الله تعالى في هذا الباب نيفة من ملح النظم ورفاق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس الدين بن البديوي:

وأيقنت أني بالغرام اذوب
ليطفى غرام في الحشا ولهيب
لمن هو في الأولى إلى حبيب

ولما نأت سلمى وشط بها النوى
علقت بأخرى غيرها ستلاهيًا
وكان هيامي والهوى وصباي

وله في المعنى:

وقلت لقلبي هذه هي رينب
فأغرمت نارا في الحشا تلهب
ثمك بالموج الذي يتقلب

تلاهيته عنها في الغرام بغيرها
وقبلت فاهًا مبركا لصباي
فكنت كمن هو ذا غريقا بلجة

وقال أيضا:

وهل عند الفؤاد لها التفات
فقلت الحب فيه تغلبات
ويعتاد المحب تغيرات
فتفضحك التصابي الواردات
وتنحلك الوعود الكاذبات
فما يغنيك إن فات الغوات

سألت القلب هل سيلي لليلي
فقال الآن لا لكن تأني
فلأن الحب يهجم بعد يأس
فلا تظهر لها يومًا سلوا
وترمي بالمصنود وبالتجنى
فكن جليلا ولا تك ذا لجج

وقال البيطار:

دنت بك أرض نحوها وسما

يقولون هذي أم عمرو قريبة

إلا إنما قُرب الحبيب ويعدده
وقال غيره:

وقالوا بع حبيبك وابغ عنه
إذا كان القديم هو المصافى
وقال آخر:

لم أنس إذ قلت من وجدى لها غلطاً
سلوت عنك فقلت وهى ضاحكة
وقال آخر:

أمن المروءة أن أبیت مسهلاً
وتبيت ريان الجسفون من الكرى
وقال آخر:

إلى الله أشكو جور أهيف شادنٍ
جرحت بعينى خذه وهو جارح
وقال آخر:

قد كنت أسمع بالهوى فأكذب
حتى بليت بحلوه وبمره
وقال آخر:

سألتها الثقبيل من خذلها
فمذ تلاقينا وقباتها
وقال آخر:

يا من سقامى من سقام جفونه
قد كنت لا أرضى الوصال وفوقه
وقال آخر:

صبحت عند المساء فقال لى
فأجبتة إشراق وجهك غررتى
أبو عبد الله الغواص:

من عذيرى من عذول فى رشا
قمر لم يبق منى حسنه
وقال آخر:

جاذبتها والريح تجذب برقماً

إذا هو لم يوصل إليه سواه

حبيباً آخرًا تحميا سعيذاً
وخيان فكيف ألقن الجسديداً

ووجهها مشرق فى حدس الظلم
لشقرعن على المن من ندم

قلقنا أبل ملابى بدموعى
وأبيت منك بليلة الملسوع

وقعت فما لى من يديه خلاص
بعينه قلبى والجروح قصاص

وأرى المحب وما يقول فاعجب
من كان يشهم الهوى فيجرب

عشرماً وما زاد يكون احتساب
غلطت فى العذ وضاع الحساب

وسواد حظى من سواد عيونه
واليوم أقنع بالخيل ودونه

تهزى بقدرى أو تريد مزاحاً
حتى توهمت المساء صباحاً

فأمر القلب هواه فقمر
وهواه غسير مقلوب قمر

من فوق خد مثل قلب العقرب

وقال ديك الجن^(١):

ولى كعبد حبرى ونفس كائها
كان على قلبى قطاة تذكرت

وقال عبد الله بن طاهر:

أقسام ببلدة ورحلت عنه
أقل الناس فى الدنيا سرورا

وقال آخر:

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى
لكن خشيت بأن أموت صبابة

وقال ابن المعتز:

هب لعينى رقادة
وارحم المقللة التى
كن صلاحا لها كما

وقال آخر:

وقالوا دع مراقبة الثريا
فقلت وهل أفراق القلب حنى

وقال آخر:

ولى فؤاد إذا طال النزاع به
يفسدك بالنفس صب لو يكون له

وقال آخر:

وما هجرتك النفس يامى إنها
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا

وقال المحاربى:

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى
ترى حرقسات يلدغ القلب حرما

وقال الأقرع بن معاذ:

أقول لفت ذات يوم لقيته
بحقك أخبرنى أما تأثم التى

بكف عدو ما يريد سراحها
على ظمأ وردا فهزت جناحها

كلنا بعد صاحبه غريب
محب قد نأى عنه الحبيب

والله لا ملأ ولا لتجنب
فيقال أنت قتلتته فتقاد بى

وانف عنها سهادها
كنت فسيها سوادها
كنت دهرًا فسادها

ونم فالليل مسود الجناح
أفسرق بين ليلى والصباح

طار اثنيان إلى لقا معذبه
أعز من نفسه شيء فذاك به

قلت ولا أن قل منك نصيبها
بقول إذا ما جئت هذا حبيبها

بأهل الهوى فافقد حبيبًا وجرب
بأنضج من كى النفسى المتلهب

بمكة والأنضاء ملقى رحالها
أضر بجسمى منذ مر عيالها

(١) ديك الجن: هو كبر الشعراء، أبو محمد، عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي الحمصي السلماني، الشهى لطيف ماجن غير خليج بطل حرف (يديك الجن) أصله من سلمية وولد بدمشق توفي سنة (٢٣٥هـ - ٨٥٠م) وله ديوان.

فقال بلى والله أو سيصيبها
فقلت ولم أملك سرايق عبيرة
عفا الله عنها كل ذنب ولقيت

وقال آخر:

بالله ربكما عرجا على سنى
وعرفناى وقولا فى حديثكما
فلان تبسم قولاً عن ملاطفة
وإن بدا لكما من سيدى غضب

وقال عبد الله بن أبى الشيص:

ومعرضة تظنُّ الهجر فرثا
كأنى قد قتلت لها قتيلاً
وقال الحسين بن الضحاك^(١):

بعضى بنار الهجر مات حريقاً
لم يشك عشقاً عاشقاً فسمعت
وقال آخر:

وأجـيل فـكرى فى هوا
أدعو عليك بحرقـة
وقال آخر:

يا ويح من خبل الأحبة قلبه
عزوا ومال به الهوى فأذله
انظر إلى جسد أضرب به الهوى
من كان خلواً من تباريح الهوى
وقال أحمد بن طاهر:

تقول العاذلات تلّ عنها
فكيف ونظرة منها اختلاصا
وقال إسحاق بن مولى المهلب:

هينى يا معذبتى أمات
فأين الفضل منك قدتك نفى

من الله بلوى فى الزمان تنالها
سريع على جيب القميص انهمالها
منها وإن كانت قليلاً نوالها

وعاتباه لعل العتب يعطفه
ما ضرّ لو بوصال منك تسعف
ما بال عبيدك بالهجران تتلفه
فغالباه وقولا ليس نعرفه

تغال لحاظها للضعف مرضى
فما منى بغير الهجر ترضى

والبعض أضحى بالدموع غريقاً
إلا ظنتك ذلك المشـروقاً

ك بلا لــــــان ناطق
من غـيـر قلب صادق

حتى إذا ظفروا به قتلوه
إن العزيز على الذليل يتسيه
لولا تقلب طرفه دفتوه
فسأنا الهوى وحليفه وأخوه

وداو عليل صـبـرك باللو
الذ من الشـمـانة بالعدو

وبالهجران قـبـلكم بدأت
على إذا أسأت كما أسأت

(١) الحسين بن الضحاك: هو الحسين بن الضحاك بن ياسر، أبو على البصرى، خراسانى الأصل مولى باهلة، شاعر معروف بالكهـلج، أقام بخنداد بنادم الخلفاء دهرًا طويلاً وهو حسن الانتان فى غروب الشعر وأتواعه وبلغ سنًا عالية، تولى بخنداد سنة (٢٥٠هـ)، وقد قارب مائة سنة.

وقال أبو العتاهية:

يقول أناسٌ لو نعتَ لنا الهوى
سقاً على جسمى كثيرٌ موسعٌ
إذا اشتدَّ ما بى كان أفضلَ حيلتى
وقال بشار:

يا قرةَ العينِ إني لا أسـمـيـكـي
أخشى عليك من الجاراتِ حاسدةٍ
لولا الرقيبـان إذا ودعت غادةٍ
يا أطيب الناس ريقاً غير مختبرٍ
قد ررتنا مرةً في الدهر واحدةٍ
وقال آخر:

ألم تعلمي يا أحسن الناس أننى
أحبك ما لو كان بين قبائلٍ
وقال آخر:

أقول لشادنٍ في الغن أنسى
ملككت الحسن أجمع في نصاب
وذاك بأن تجود لستهمام
فقال أبو حنيفة لى إمام
وقال آخر:

سقى الله ريعاً كنت أخلو بوجهكم
أقمنا زماناً والعيون قريرة
وقال آخر:

ألم تعلمي يا عذبة الماء أننى
ومما زلت بى يا بينٌ حستى لو أننى
أبو العباس الشهير بالنفيس^(١):

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفتك جفونى وهى داميةٌ

روا الله ما أدرى لهم كيف أُنعتُ
ونومٌ على عسبى قليل مسفوتٌ
له وضع كفى فوق غسدى واسكت

أكنى بأخري اسميها وأعنيك
أو منهم غيران يرمينى ويرميك
قَبِلتُ فاك وقلت النفس تفديك
إلا شهادة أطراف المصاويك
بالله لا تجعلها بيضة الديك

أحبك حباً مستكناً وبادياً
من الناس أهدأ بجر الصافيـا

يصيد بطرفه قلب الكمي
فأذكر كساء منظر كالبهي
برشف من مقبلتك الشهي
يرى أن لا ركساء على الصمبي

وثغر الهنا فى روضة الحسن ضاحك
وأصبحت يومئاً والجفون موافك

أظنُّ إذا لم أسق ماءك صاديـا
من الوجد أمتبكي الحمام بكى ليا

هل من سبيل إلى لقياك يتفقُ
ولا وفى لك قلبى وهو يحترقُ

(١) أبو العباس: هو أحمد بن عبد الغنى بن أحمد بن عبد الرحمن بن خلف بن سلم اللخمي، المصري، المالكى القطرى للمسوت بالنفيس (أبو العباس) أديب، شاعر، مشارك، فى الفقه وعلوم الفلاسفة له «ميوان شعر» توفى سنة (٦٠٣هـ - ١٢٠٦م).

الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع:

لأعذبُ العينَ غيرَ مفسُكِرٍ
ولا هجرنُ من الرقـَّادِ لذِيذُهُ
هي أوقـَّعتني في حـِبالِ فتنةٍ
مفككتُ دمي فلأسفـُحـنْ دموعها
وقال العتي:

أضحت بخدي للدموع رموم
والصبر يحمد في المواطن كلها
الرفاء الأندلسي:

ومـهـفـهـفٍ كـالـغـصـنِ إلّا أنه
أضحى بنام وقد تكـلـل غـنـه
وقال آخر:

أخضرٌ وأصفرٌ لأعتلالٍ
كانَ نـسـريـنَ وجـتـيـه
يرشح منه الجـحـيـن مـاءً
وقال آخر:

ما زال يهـلُ من صـرفِ الطـلا قـمـرى
وقام يخطر والأرداف تُقـمـمـده
فـمـائـلٌ فـعلت فعل الشمـسـول به
جاذبته لعنـاقـي فـاتـنى خـجـلاً
وقال لي بـفـسـتـسـورٍ من لـواحـظـه
وقال آخر:

بأركان هذا البيت إلى لطائف
زعي الهـ أبامـاً ونامـاً عـهـدـتـهم
وبى ذهبي اللون صـيـغـ لـحـنـتى
يذيب فـوـاداً وهو لا غشـ عـنـده
وقال آخر:

أسنى ليلـالى العـمر عـنـدى لـيـلةٍ
فرقت فيها بين جفنى والكـرى

فيها بكت بالدمع أو فاضت دماً
حتى يعود على الجفون محرراً
لو لم تكن نظرت لكنت مسـلـماً
وهى التى بدأت فكـانت أظـلـماً

أسألك هـلـك وفى القـوـاد كـلـوم
إلّا عليك فسـبـانـه مـذـمـوم

تـحـيـسـر الـأبـنـاب عـند لـقـائـه
عـرـقـاً فـقـلت الـوـرد رُش بـائـه

فـصـار كـالـنـرجـس المـضـغـف
بشـمـر أصـداغـه مـغـلف
كـانـه لـولـو مـنـهـف

حتى غدت وجتاه البيض كالشفق
طواراً وحاول أن يـسـمى فـلم يـطـق
فـسـلـ التـمـيم بـغـصـن البـانـة الـورق
وكـلـت وجـتـاه الحـمـر بـالـعـرق
إنّ العـناق حـرام قـلت فى عـنـقى

وفى الكون أسرارٌ وفـيـه لـطـائـف
جـيـاداً ولـكنّ الـيـالى صـيـارـف
يـرـيـد امـتـسـحـانـتى ومـا أنا رافـف
فـسـيـا ذهـبى اللون إنك خـائـف

لم أخـلـ فيها الكـاس من أصـمـالى
وجـمـعت بين القـرـط والـخـلـخال

ومعا قبل في الرقباء:

لو أن لي في الحب أمراً نافلاً
لقطعت السنة العواذل كلها
وقال أعرابي:

بهم الحب كَلَمَ في فؤادي
تَمَكَّنَ ناظره به واضحى
ومن حنّ الرقيب إذا التقينا
ولولاه تشاكينا جميعاً
وقال آخر:

من عاش في الدنيا بغير حبيب
عين الرقيب غرقت في البحر العمى
وقال أحمد بن أبي سلمة:

يعملني فيه جميع الورى
أظن نفسي لو تشقتنيها
وأنا الغريب فلا ألام على البكا
وقال آخر:

وما فارتعت معدى عن قلاها
بكيت نعم بكيت وكل ألف
وقال آخر:

وقائلة ما بال دمك أبيض
ألم تعلمي أن البكا طال عمسه
وعمّا قليل لا دمور ولا دمأ
وقال آخر:

ولم أر مثلي غار من طول ليله
وما زلت أبكي في دجى الليلة صبوة
وقال آخر:

رجسوت طيف خيال
والذاريات جفوني
وقال آخر:

يا نارح الطيف من نومى يعساودنى

وملكت بسط الأمر في التملذيب
ولكنك أفلح عين كل رقيب

ولا كالكلم من عين الرقيب
مكان الكاتبين من الذنوب
نسلم كالغريب على الغريب
كما يشكو المحب إلى الحبيب

فحياته فيها حياة غريب
لا أنت لا بل عين كل رقيب

كأننى جئت بأمر عجيب
بليت فيها بلام الرقيب
إن البكا حسن بكل غريب

ولكن شقوة بلغت مداها
إذا بانث حبيبته بكاهها

فقلت لها يا علو هذا الذى بقى
فشابت دموعى عندما شاب مفترقى
ولم يبق إلا لوعتى وتحسرقى

عليه لأن الليل يعشقه معى
من الوجد حتى أبيض من فيض آدمى

وكيف لي بهجوع
والمرسلات دموعى

فقد بكيت لفطر النارحين دما

أوجبت غللاً على عيني بأدمعها
وقال آخر:

أرحم رحمت للوعتي
ودموع عيني لاتسل
وقال آخر:

أملت أن تعطفوا بومالككم
وعلمت أن فسراقكم لايد أن
وقال آخر:

إن عيني منذ غاب شخصك عنها
بدموع كأنهن الغوادي
وقال آخر:

يقولون لي والدع قرح مقلتي
أدمعك جمر قلت لاتعجبوا
وقال البدر الذهبي:

قالوا تباكي بالدموع وما بكى
فأجبتهم هو من دمي لكنه
قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أمسى على تلقى مصرواً
ولا تسمح بوصلك لي فإني
وقال آخر:

أغضب عاك عليك من نظري ومنى
ولو أنى خبأتك في جفوني
المظفر بن عمر الأمدى:

قلت للذين جفوني إذ لهجت بهم
أحبتكم وهلاكى فنى محبتكم
وقال غيره:

لم أنس أيام الصبى والهوى
ذاك زمان مرّ حلوا الجنى
الشريف الرضى:

عللانى بذكركم واسقيانى

فكيف وهى التى لم تبلغ الحلم

وابعث خيسالك فى الكرى
عن حالها يا ما جرى

فرايت من هجرانكم ما لا ارى
يجرى به دمي دماً وكذا جرى

يامر السهد فى كراها وينهى
لاتسل ما جرى على الخد منها

بنار أسى من حبة القلب تقودح
فكلّ وعاء بالذى فيه ينضج

بدم على عيش تصرم وانقضى
لما تصاعد صار يقطر أبيضاً

لقلت ممزجى بالله زدننى
أغار عليك منك فكيف منى

ومنك ومن مكانك والزمسان
إلى يوم القيامة ما كفانى

دون الأنام وخير القول صدقته
كمابذ النار يهوها ومحرقة

لله أيام النجى والنجساح
ظفرت فيه بحبيب راح

وامزجنا لى دمعى بكأس دهاق

وخسدا النوم من جفونى فإنى
وقال آخر:

قالوا أترقد مذ غبنا فقلت لهم
ما حقّ طرف هذاني نحر حسنكم
عن الدين الموصلى:

فَسُدْتُ لَطُولَ بَعَادِكُمْ أَحْلَامَنَا
وَالْظَيْفُ قَدْ وَعَدَ الْجَفَفُونَ بَزْرَةَ
وَمَا قِيلَ فِي السَّهْرِ وَطُولَ اللَّيْلِ وَنَحْوَ ذَلِكَ: قَالَ الشَّاعِرُ:
وَرَبُّ لَيْلٍ سَهْرُنَاءَ وَقَدْ طَلَعَتْ
كَأَنَّمَا أَدْهَمَ الظُّلُمَاءُ حِينَ نَجَا
وقال آخر:

ليل المحبين مطوى جوائيه
ما ذاك إلا لأنّ الصّبح نَمَّ بِنَا
وقال غيره:

فلم أرَ مثل ليل ذوى التّصايبِ
فَيَشْكُو طَوْلَهُ أَهْلُ النَّجَافِ
وقال آخر:

ليلى ولىلى سواء فى اختلافهما
يجسود بالطول ليلى كلما بخلت
وقال آخر:

إنّ الليلى لىلى للأنام مناهل
فقصصارهن مع الهموم طويلة
وقال غيره:

ربّ ليلٍ لم أذق فـيـه الكرا
كلّما هيج ليلى حـسـرقى
وقال آخر:

يا ليل ظلّ أو لا تظلل
لو بات عندي قـمـمـرى
وقال يشار بن برد:

خليلى ما بال الدجى لا يزحزح

قد خلعت الكرى على العشاق

نعم وأشفق من دمعى على بصرى
أتى أعذبه بالدمع والسهـر

وعقولنا وجفا الجفون منام
يا حبيذا إن صحت الأحلام

بقية البدر فى أولى تـبايره
من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

مشمر الذيل منسوب إلى القصـر
فاطلع الشمس من غيظ على القمر

وكلّ يشتكيه بكل حال
بالطول ليلى وإن جادت به بخلـا

قد صيرانى جميعاً فى الهوى مثلاً
بالطول ليلى وإن جادت به بخلـا

تطوى وتنشر بينها الأعمار
وطوالهنّ مع السرور قصـار

حظّ عيني فيه دمع وسهر
صحت بالليل أما فيك محر

لا بدّ لى من سهـر
ما بت أرى قـمـمـر

وما بال ضوء الصبح لا يوضّح

أَضَلَّ إِلَيْهَا الْمُسْتَنِيرَ طَرِيقَهُ
وَقَالَ آخِرُ:

كَأَنَّ الشَّرِيَا رَاحَةً تَشْبِيرُ الدَّجَى
فَلَيْلَى تَرَاهُ بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرَبٍ
وَقَالَ ابْنُ مَتْقَدٍ:

لَمَّا رَأَيْتَ النَّجْمَ سَبَّأَهُ طَرَفُهُ
وَنَشَاتَ نَعْشِي فِي الْحَمْدَادِ مَوَافِرُ
وَقَالَ آخِرُ فِي لَيْلَةِ مَحْطَرَةٍ:

أَقُولُ وَاللَّيْلِ فِي امْتِنَادٍ
أُظِنُ لَيْلَى بِغَضَبِي شَكَّ
وَمَا جَاءَ فِي الْأَشْعَارِ الْخَمْرِيَّةِ قَوْلُ صَفِيِّ الدِّينِ الْخَلِيِّ:

بَدَتْ لَنَا الرِّيحُ فِي تَاجٍ مِنَ الْحَبِّ
بَكْرًا إِذَا رَوَّجَتْ بِالسَّاءِ أَوْلَدَهَا
بَقِيَّةً مِنْ بَقَايَا قِسْمِ نُوْحٍ إِذَا
بَعِيدَةُ الْعَهْدِ بِالْمَعْصَارِ لَوْ نَطَقَتْ
بَاكْرَتِهَا بِرَفَاقٍ قَدْ ذَعَبَتْ بِهِمْ
بِكُلِّ مُشْجَعٍ بِالْفُضْلِ مَوْزَنَرٍ
بَلْ رَبُّ لَيْلَى غِلْدًا مِثْلَ الْإِهَابِ غَدَتْ
بَذَلَتْ عَقْلِي صَدَاقًا حِينَ بَتَ بِهِ
بَتْنَا بِكَاسَاتِهَا صَرَعِي وَمَطْرِينَا
بَعَثَ الْمَ قَلَمٌ نَعْلَمُ لِفَرْحَتِنَا
بِرَوْضَةِ طَلٍّ فِيهَا الطَّلُّ أَدْمَعَهُ
وَقَالَ أَيْضًا:

تَابَ الزَّمَانُ مِنَ الذُّنُوبِ فَوَاتٍ
تَمَّ السُّرُورُ فَتَقَمَّ يَا صَاحِبِي
تَوَجَّ بِكَامَلَاتِ الطَّلَاهِمِ الرِّبَا
تَغْدُو سَلَالِفَ الْقَطْرِ دَائِرَةً بِهَا
تَلَفَّ النُّضَارَ عَلَى الْعَقَارِ غَنِيمَتِي
تَرَكِي لِأَكْيَاسِ النُّضَارِ جِهَالَةً
تَبَتَّ يَدَا مِنْ تِيَابِ عَنْ رَشَفِ الطَّ

أَمْ النَّعْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ

لِيَعْلَمَ طَالَ اللَّيْلِ أَمْ قَدْ تَعَرَّضَا
يُقَاسُ بِشَبِيرٍ كَيْفَ يَرْجَى لَهُ انْقِضَا

وَالْقَطْبُ قَدْ أَلْقَى عَلَيْهِ سَبَابَاتَا
أَيَقُنْتُ أَنَّ صَبَّاحَهُمْ قَدْ مَاتَا

وَأَدْمَعُ الْغَيْثِ فِي انْتِفَاحٍ
قَلَابَاتٍ يَكِي عَلَى الصَّبَّاحِ

فَخَرَقَتْ حُلَّةَ الظُّلُمَاءِ بِاللَّهَبِ
أَطْفَالُ دَرٍ عَلَى مَهْدٍ مِنَ الذَّهَبِ
لَا حَتَّ جَلَّتْ ظِلْمُ الْأَحْزَانِ وَالْكَرْبِ
لَحْدَتُنَا بِمَا فِي سَالِفِ الْحَقْبِ
قَبْلَ السَّلَافِ سَلَالِفُ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
كَأَنَّ فِي لَفْظِهِ ضَرْبًا مِنَ الْغُسْبِ
تَنْقُضُ فِيهِ كُؤُوسَ الرِّيحِ كَالشَّهْبِ
أَرْوَجُ ابْنَ مَسْحَابٍ بِأَبْنَةِ الْعَنْبِ
يَعْمِدُ أَرْوَاحُنَا مِنْ شِدَّةِ الطَّرِبِ
مِنْ نَفْخَةِ الصُّورِ أَمْ مِنْ نَفْخَةِ الْقَصَبِ
وَالزَّهْرُ مَبْتَسِمٌ عَنْ ثَغْرِهِ الشَّنْبِ

وَإِغْنَمُ لِلْبَيْتِ الْعَيْشِ قَسِيلُ فَوَاتٍ
تَسْتَلْزِمُكَ الْمَاضِي بِنَهْبِ الْآتِي
فِي رَوْضَةٍ مَطْلُولَةِ الزُّهْرَاتِ
وَالْكَأْسِ دَائِرَةٍ بِكَفِّ سَقَاةِ
وَقِسْوَاعِ رَاحِلَاتِي عَلَى الرَّاحَاتِ
مَنْ ذَا أَحَقَّ بِهَا مِنَ الْكَاسَاتِ
بَلَاوِ الْكَاسِ مَتَقَدُّ كَخَدِّ فِتَاةِ

تابع إلى أوقاتِها داعي الصبا
ثم بها نقص السرور فإتتها
وقال أيضاً:

حيّ الرفساق وطفُ بكاس الراح
حتّ الكؤوس على جِـوْمٍ أصبحت
حاش الأنام وعاطنى مشموله
حمره لو ترك السقاة مزاجيسها
حجبٌ تظلُّ به الكؤوس كائنها
حَجَبَ الحبابُ شعاعها فكائه
حكم الزمان وغضّ عنا طرفه
وقال آخر:

قد قلت إذ أضحي يعبسُ كلما
تالله ما أنصفتها يا سيّدى
عز الدين الموصلى:

لئن شبّه الساقى المدام بعسجدٍ
ولكن رآها جـوهرًا سُـمِّيتَ طلاؤ
يزيد بن معاوية:

وشمة كرم يربحها قعر دنها
مدامٌ كـتـيـرٍ فى إناءٍ كفضّةٍ
وقال آخر:

كأنّ الندامى والمسقاةُ ودنا
شمسوسٌ واقـمـارٌ وفلكٌ وأنجمٌ
وقال آخر:

فكائنها وكأنّ حامل كاسها
شمس الضحى رقعت فنقط وجهها
وقال كشاجم:

صـدح الـديك فى الدجى فاسقنيها
لست أدري من رقصةٍ وصـفـفـاءٍ
كمال الدين بن النيه:

قم يا غلام ودع مقالة من نصح

واصجب لما فيـهـا من الأياتِ
عند الكرام تتسممة اللذاتِ

واطرز بكاسك حلة الأفـراح
فيـهـا المدام شريكة الأرواح
ظنّت فسادى وهى عين مسلاحى
أغنى تلألؤها عن المصباح
خـصـر الفـتـاة عنقٌ بوشاح
شفقٌ تلهب تحت ذيل صبحاح
يا صـاح لاتقنع بآتك صـاح

دارت عليه بالدماء الأكـوـسُ
تأتيك باسممةٍ وانت تعبسُ

فقد مال بالانشبيه عن صيغة الأدب
فميز ما قد حلت الكاسُ بالذعبِ

وظلمتها الساقى ومغربها فمى
وماقٍ كبدرٍ مع ندامى كالنجم

وكاساتنا فى الروض تملئ وتشرب
ونورٌ ونوارٌ وشـرقٌ ومـغرب

إذ قام يجلوها على الندماء
بدر الدجى بكراكب الجـمـوزاء

خمرةٌ تترك الحلیم سفيها
هى فى الكأس أم هو الكاس فىها

فالذيك قد صدح الدجى لما صدح

جولان العاذلي:

إذا ما الخمر في الكاسات صُبَّتْ
وإن جليت على الندمان يوماً
وقال في الشراب الطيوخ:

يا منْ يعلِّبُ ماء الكرم بحرقه
إنَّ الشَّيْءَ طَبَخَتْهَا الشَّمْسُ أَنْفَعُ لِي
وقال أيضاً:

وعتيقة رقت وراق مزاجها
لم يبق منها غيرُ نَزْرِ ساطِعٍ
ترنو إليك من الحجاب بأعينٍ
وقال غيره:

لأنعصرنْ زيباً واعتصر عنباً
هذا من الخى للأحياء معتصراً
وقال غيره:

عابوا على مداماً
واسبتكروها وقبالوا
وقال آخر في الشراب على الرد والبرق:

أما ترى الرعد بكى فاشتكى
فاشرب على غيم كصبيغ الدجى
وانظر لما النيل في ممدّه
وقال آخر:

يا ليلة جمعت لنا الأحبابا
بشنا بها نُقَى سلفاً قرقفاً
من كف غانية كأن بناتها
وقال آخر:

أما ترى الغيث كالبياكي بأدمعه
فقم فديتك نشكو ما تكابده
ابن نباتة:

أما ترى الليل قد ولت غياهبه
فاشرب على وردة وردية قدمتُ
ومن شعر عضد الدولة:

رأيت لها شمساً في بروج
تراحمت الهيموم على الخروج

بالنار في أي شيء تظلم العنب
ولت أخسر لا قلداً ولا حطباً

لطفناً وأحلها الزمان الغابر
لا يستطيع يجول فيه الناظر
خلقت ولم تخلق لهنّ محاجر

فبين هذين فرقنا بتصرّيح
وذاك يعصر من جسم بلا روح

أخبرتها لصبحوحى
ارتعنت قلت روحى

والبرق قد أومض فاستضحكا
أضحك وجهه الروض لما بكى
كأنه صندل أو مصطكا

لو شئت دام لنا الشعيم وطابا
يلد الصبحيح بعقله مرتابا
من فضّة قد قمعت عتابا

والأرض تضحك والأزهار في فرح
من الزمان وما تلقى إلى القدح

وعارض الفجر بالإشراق قد طلعا
كأنها خد ريم ريم فامتعا

طربت إلى الصَّبوح مع الصَّباح
وكسان الثلج كالكَافور نثراً
فمشمومي ومشرومي وناري
لهيب في لهيب في لهيب
ابن وكيع:

وصفراء من ماء الكروم كأنها
كأن الحباب المستدير بطوقها
صبت عليها الماء حتى تعوّثت
وقال آخر:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده
حكّت وجنة المعشوق صرقاً فسلطوا
وقال آخر:

إذا الكروان صاح على الرمال
وجعد وجهه بركتنا هبوباً
وحركت الغصون فشاهاها
فبهات الكأس متسرعة ودعنى
فكل جماعة لاشك يوماً
وقال آخر في الشراب على الغيم:

أرى غيماً تولفه جنوب
فوجه الرأى أن تدعو برطل
وقال آخر:

فيما بكر باكر بكرة بكر كبرمة
وداو خمار الخمر بالخمر إنما
وقال الصنوبري:

لأتبكين على الأطلال والذمن
وقم بنا نصطح صهباء صافية
بكرأ معتقة عذواء واضحة
حمرأ مروقة صفراء فاقعة
يسمى بها غنج في خده ضرج
في ريقه عسل قلبى به خبل
كأنه قمر ما مثله بشر

وشرب الرّاح والغرر الملاح
ونارى بين نارنجسى وراحى
وثلجى والصباح مع الصَّباح
صباح في صباح في صباح

فراق عدو أو لقاء صديق
كواكب در في سماء عقيق
قميص بهار من قميص شقيق

أتت بين ثوبى نرجس وثقائت
عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

وحلّ البسدر في برج الكمال
ثمّ به الجنوب من الشمال
قدود سقائنا في كل حال
أبادر لذتى قبل ارتحال
يفرق بينهم صرّف الليالى

ويوشك أن يوافقنا بهطل
فتشربه وقدعو لى برطل

تقرّب بكور باكرتك بها بكر
دواء خمار الخمر من دائها الخمر

ولا على منزل أقسوى من السكن
تنفى الهموم ولا تبقى على الحزن
تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن
كأنما مزجت من طرفك الوسنى
فى ثغره فلج يئسى إلى اليمين
فى مشيه مئيل أرى على القمصن
فى طرفه حور يرنوا فيجرحنى

سبحان خالقہ یا وبع عائقہ
فی روضۃ زہرت بالنبت قد حنت
یا طیب مسجلنا والطیر یطربنا
کمال الدین بن النبیہ:

طاب الصبوح لنا فسهلك وهات
کم ذا التوائی والزمان ماعد
قم واغشبق من شمس کاسک واصطیح
حمراء صافية توقد نورها
ینسل فی قاع الظروف حبابها
عنوا واقعها المزاج أما ترى
یسمی بها عجل الروادف أهیف
یهور فتنبقه ذوالب شعره
لو قسمت أرواقتا بیسمیه
وقال ایضاً:

باکر صبحوک اهنی العیش باکره
واللیل تجمری الدنای فی مجرته
وکوکب الصبح نجاب علی یده
فانهض إلی ذوب یاقوت لها حب
حمراء من وجنة الساقی لها شبه
ساقی تكون من صبیح ومن غسق
بیش سوافقه لعمس مراشفه
مفلج الشجر معسول اللمی غنج
مهفف القد یددی جسمه ترقا
تعلمت بانه الرادی شمائله
کانه بمراد اللحظ مکحل
غلو رات مقلتا هاروت آیته ال
خذ من زمانک ما أعطاک مفتما
فالعمر کالکاس تستحلی أوائله
واجمر علی فرص اللذات محثقرا
وقال آخر:

شربنا بالبیسواطی ثم رحنا
ولولا غمیفة الإجمام قلنا
برهان الدین القیراطی:

یهدی لرامقه صفاً من الشجن
کأثها فرشت من وجهه الحسن
والعود یسعدنا مع منشد لن

واشرب هنیشاً یا اعنا اللذات
والنهر مسح والحبيب موالی
یکواكب طلعت من الکامات
فمجببت للنیسران فی الجنات
والدر مسجلت من الظلمات
مندیل هدرتها بکف سقاء
خث الشماثل شاطر الحركات
ملتفت کاساره الحیات
عدل الزمان علی ذوی الحاجات

فقد نرتم فسوق الایک طائره
کالروض تطفو علی نهر ازاره
مخلق تملا الذنیبا بشائره
تنوب عن شجر من تهوی جواهره
فهل جناها من العنقود عاصره
فایض خداه وامسودت غدائره
نعم نواظره عسرس أساوره
مؤت الجفن فحل اللحظ شاطره
مخصر الخصر عجل الردف وافرہ
وزورت سحر عینیه جاذره
ورکت فوق صدغیه محاجرہ
کجری لأمن بعد الکفر ساحره
وانت ناه لهنذا النهر أموره
لکنه ربما مسرت أواخیره
عظیم ذنبک إن الله غافره

نعلل بالکؤوس وبالقنات
لماقیها أدرها بالذنان

آری جرار الحمر تغلو وقد
جئنا الحمار وقلنا له
قال ربي جئنا تريدون أم
قلنا له حمرًا فنادى زنوا
وقال أيضا:

صـرف الزبيـب لـصـرف هـمى
أهـمـا عـلى مـكـرة لـعـلى
وقال:

قالوا اترك الخمر واجتنبها
قلت أراها للسروح قسوتنا
ومما قيل في شرب الفقهاء:

يحمون بالفقه عرض الدين من سفه
وبعضهم يكرع الصهباء مغتتمًا
وما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس في يده:

وَمُشَادِنِ نَطْقِهِ جَارٍ إِذَا شَفَعْتَ
بِظُلِّ يَحْكِي وَكُـأْسِ الرِّاحِ فِي يَدِهِ
وَمَا قِيلَ فِي كَرِيمِ السَّكْرِ لَيْثِمِ الصَّحْوِ:

إذا هزّ اللّهُمَّ الكُفْرَ يَوْمًا
يجود بماله في الشرب مكرًا
وقيل في شجاع الكفر:

إذا شرب الجبان الخمر يوماً
وعند الصبح وتلقاه جزوعاً
وفيه أيضاً:

يقول جبران القوم في حال سكره
 وابن الخيول الأعوجيات في الوضي
 ومن لى بحسب ليس تخمد نارها
 ففي السكر قيس وابن معدى وعامر
 وقال في شرب الثلاثة :

ثلاثة في مجلس طيب
هذا يغنى ذا وهذا الذي
وقيل في شرب الأربعة:

ألا إنما خير المجالس مجلس
فتاة ومناق والمغنى وصاحب

عزّت وبالإفلاس حالى عجيب
احمل إلينا جرةً كى نطيب
خميراً فإنّ الكلّ منى قريب
فى جرةٍ عشّشرين قلنا الزبيب

نَصْرٌ عَلَى نَفْسِهِ طَبِيبِي
 أَنْ أَخْلَطَ الِهْمُ بِالزُّمَيْبِ

لا تتعمد الحرام حذاً
وطالب القسوت ما تعمدي

علمًا بمصريف أحوالٍ وتحقيق
تحت الظلام بأفـسـواه الأباريق

في مجلس الشرب كاسات بطاسات
حكاية عرضها عرض المموات

بدا في بذل مال فيه ضنا
وياكل كفه في الصحو حزنا

أعارته الشجاعة باللسان
إذا اشتدّ اللقاء يوم الطعان

وقد شرب الصهباء هل من مبارز
أناقل فمِـهـا كلّ لبثٍ مناهز
لعمري إنّي لت فيها بعاجز
وفي الصبحو تلقاه كبعض المجاز

وعيشهم ما فيه تكدير
يسقى وذا بالشراب مسرور

به وله صفو الزمان مساعدا
وخامسهم هم على الكل رائدا

وقيل في شرب الشنة:

خير للمجالس خمسة أو ستة
فإذا تعدى صار شذلاً شاذلاً
فأهرب إذا ما كنت تاسع مجلس
ومما قيل في الشرب مع التجار:

شريت مع التجار وكان يرموا
فذاك يقول كم أطلقت بيعاً
وهذا قال عندي كل شيء
فلسا فحسبهم أبداً ندامى
ومما قيل فيمن أكل على الشراب:

وندمان إذا ما الكاس دارت
ندم دابسه في السكر أكل
وقيل في قدح:

غرامى وجسدى بالذى كان في الثرى
قضى ما عليه من ورود جهنم

محمد بن جعفر الأنصاري يستدعي بعض أصدقائه إلى الشراب:

بساط الأرض منك وعبير
وقد صفى الذنان الخمر حتى
ومن يرد السرور يحش هنيئاً
وعندي اليوم فتيان كرام
وقطب الأمر أنت وهل لأمر
فرايك في الحضور فحق يومي
وقال آخر:

باكر صبوحك واشربها مشبعة
حمرء من بعدما أحمرت مودة
كان في كامها والماء يقرعها
لا صاحبتي يد لم تغن ألف يد
وقال آخر:

بادر بجودك بادر قبيل عاقبة
سيف الدولة بن حمدان في ساق:

أو سبعة وعلى الكثير ثمانية
وتكثرت بين الرجال الأنثى
ولئن أتيت به فأمك راتبه

جعلت حضورنا فيه وداعاً
ووفيت الذي بعت الفراعناً
ولكن لا أبيع ولا أبايع
فتكذب من مجالسهم صداعاً

بغير الأكل ارتعدت يداه
فلسا يبقى على شيء يراه

مهناً فأضحى في المجالس حاكماً
فصار لجنات التعميم ملازماً

وزهر الروض وشى أو حـ
لقد عادت لدينا وهى نور
إذ العيش الهنىء هو السرور
وجوههمو شموس أو بدور
بغير القطب فيه رحى تدور
عليك وقد دعاك له الحضور

واعنا بعيش حميد غير مغموم
طافت علينا فـرت كل مهموم
أكـارع النـمى أو نقش الخـواتيم
ولم ترد القنا حمر الخـياشيم

فإن خلف الفتى عندي من اللوم

وساقى فى صبيح المصباح دعوته
يطوف بكلمات العقار كأنهم
وقد نشرت أيدى النجوم مطارفا
يطررها قوس السماء بأصفر
كأذيال خسوف أقبلت فى غلاتل

ابن نباتة:

سقى وواعدنى وصلأ الذى به
قبيلة الله من ساق مواءمه

وقال آخر فى ساق:

وساق كالأهلال سمى بكأس
فسقلت تأملوا بدرأ منيسراً

وفيه لابن النيه:

ساق صحيفة خذته ما سودت
جمد الذى ييممينه فى خذته

فى جارية ساقية:

نديتى جارية ساقية
جارية أعينها جنة

فيمن حبس الكأس فى يده:

قالوا الذى تهواه يحبس كاسه
فأجبتهم كقبوا الملام فلأته

وقال آخر فى مجلس أنس:

ومجلس راق من واش يكذره
ما فيه ساق سوى الساقى وليس له

صفى الدين الحلى فى عود:

ولس عود به عباد السرور لأنه
يغرب فى تغريده فكأنه

وقال آخر فى زامرة:

وناطقة بالنفخ عن روح رهها
سكتا وقالت للقلوب فطارت

ومما قيل فى فانوس لابن نمير:

انظر إلى الفانوس تلق متيماً
يبدو تلهب جسمه لنحو له

وفيه لابن قول:

فقيام وفى أجفانه سنة الخمس
فمما بين منقش علينا ومنقش
على الجوى أدكتا والحواشى على الأرض
على أحمر فى أخضر تحت مبيض
مصبغة والبعض أقصر من بعض

عند المنام ولا والله ما وصلأ
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً

لربة نرجس فسقى وحيا
سقى شمساً وحيا بالثريا

عبيثاً بلام عذاره وينونه
وجرى الذى فى خذله ييممينه

ونزهتى ساقية جارية
وجه أعينها جارية

فى كفه من غير ذنب موجب
قمر ينزه طرفه فى كوكب

ومن رقريب له بالعلوم إيلام
على الندامى سوى الريحان تمام

حوى اللمس قدسنا وهو ريان ناعم
يحيى لنا ما لفته الحمام

تعبير مما دوننا وتترجم
فنحن مكوت والهسوى يتكلم

ذرفت على فقد الحبيب دموعه
وتعد من تحت القميص غلوعه

وكأنما الفانوس فى غسق الدجى
اضلعه خفيت ورق أدية
ولبعضهم فى شمة:

حكنتى وقد أودى بى السقم شمة
ضنى وسهافاً واصفراراً ورقه

وما قيل فى الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواير ونحو ذلك. قال الشاعر:

متجاوب فى أيكه أطياره
والورد يضحك بينها وبهارة
هكذا هواك وهى أثاره

سحيراً وأوداج الأباريق تفك
من النور يجرى دمه وهو يضحك

بخضرة واكتسى بالنور عاريها
وللربيع ابتسام فى نواحيها

لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر
إلا إذا رمدت من شدة المطر

جنونى فنوناً بأفئدتها
لتقبيل أقدام أغصانها

وتفارقت بعد التمتع رجلاً
فراى المراقب فائضى متوجعاً

طرفى برونق حسنهما مدهوش
فكانما هو مغمص متقشوش

وأظل منها تحت ظل صافى
والماء واقفانى بقلب صافى

قد حيانا باللطف والإكرام

هذا الربيع وهذه أزهاره
وبدا البنفسج والشقائق مونق
فأشرب على وجه الحبيب وغن لى
وقال غيره:

غلدونا على الروض الذى طله الندى
فلم نر شيئاً كان أحسن منظراً
وقال آخر:

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها
فللماء بكاء فى جوانبها
وقال غيره:

إن السماء إذا لم تبك مقلتها
والأرض لا تنجلي أنوارها أبداً
وقال ابن قنص:

أيا حسنهما من رياض غلدا
مضى الماء فيها على رأسه
وقال آخر:

انظر إلى الأغصان كيف تعانت
كالصباول قبلة من إلفه
وقال ابن تميم:

وحديقة يناب فيها جسدول
يبدو خيال غصونها فى مائه
وقال أيضاً عفا الله عنه:

لم لا أعيم إلى الرياض وحسنها
والزهر حياني بشفسر باسم
وقال آخر:

قد سمعنا نبغى زيارة دوح

ناولتنا أيدي الغصصون ثمارا

أخرجتها لنا من الأكمام

(ومما قيل في الأزهار والثمار) قال بعضهم في الورد:

يا راقداً ونسيم الصبح متببه
الورد ضيف فلا تجهل كرامته
سقيًا له زائر تحيا النفوس به

في روضة القصف والأطياف تتحب
فهاتها قهوة في الكاس تلتهب
يجود بالوصل شهراً ثم يحتجب

وقال آخر فيه:

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبحا
واستقبلا عيشنا بالكأس مشرعة

مما دام للورد أنوار وأزهار
لا طولت للناس أعمام

وقال آخر:

اشرب على الورد من حمراء صافية
وامستوف بالكأس من لهر ومن طرب

شهرًا وعشرًا وخمسمًا بعدا عددا
فلست تأمن صرف الحادثات غدا

وقال آخر:

اشرب على ورد الحدود فلأنها
ما الورد أحسن منظر من وجنة

أيام ورد والصباح يطيّب
حمراء جاد بها عليك حبيب

وقال بعضهم:

ولقد رأيت الورد يلطم خدّه
لا تقريوه وإن تضرع نشوره

ويقول وهو على البنفسج يحق
من بينكم فهو العدو الأزرق

(ومما قيل في البنفسج) قال ابن المعتز:

ولاوردية أفنت بزورتها
كسما فوق طاقات صففن بها

بين الرياض على زرق اليواقيت
أوائل النار في أطراف كسبريت

وقال آخر:

اشرب على زهر البنفسج قهوة
فكانه قمر صرخ بهف هف

تهلدي السرور لكل صب مكمد
أو أصين زرق كسحلن بأئمد

ولبعضهم في الورد:

أن البتفسح أركى منه في المهج
أثار قمرص يد في غمد ذي غنج

للورد فضل على زهر الريح سوى
كأنه وعيسون الناس ترمقه

وقال آخر:

يرتاح صلدري له وينشـرح
بأن ضيق الأمور ينفسح

يا مهدئاً لي بنفسجاً أرجأ
بشرتي عاجلاً مصحفه

وقال غيره في الترجس:

عيون لم تذق طعم الغماض
فنككت الرؤوس إلى رياض

وقضب زمرد تعلق عليها
توهمت الغمام لها رقيباً

وقال آخر فيه:

لـزهـور الأرض ست
أن أوراقك ست

أنت يا نمرجس روض
ودليل القبول فـيـك

وقال آخر:

إلى وللنمام حـسـولى المام
علينا وحـتى فى الرياحين نمام

أقول وطرف الترجس الغضـ شاخص
أيا رب حـتى فى الحـدائق أهين

وقال أيضاً فيه:

وراح من إعـجـابه يـراس
واصفـر من غـيـظ به التـرجـس

لما جمادى الورد فى زهوه
تتلون المنشـور عـا به

وما قيل في الليفولابن المزمز المصرى:

نسـيمه يشبه نشر الحبيب
حتى إذا الشمس دنت للمغيب
وغاص فى البركة خوف الرقيب

ويركبة زهو بليغوفسـر
مفتح الأجفان فى نومه
أطبق جفنيه على غده

وقال تميم بن المزمز المصرى:

فسلقت مما شأنك وسط البرك

رايت فى البركة ليفولابرا

وصادني ظبي الفلأ بالشرك
فنيك وما هذا الذي غسيـرك
صفر ولو ذقت الهوى صفرـك

فقال لي غرقت في أدمعي
فقلت ما بال اصفرار بدا
فقال لي ألوان أهل الهوى

ومما قيل في البان:

وعن قليلي تسام الخسرا
قد قلب الفرو إلى تبرا

قد أقبل الصيف وولى الشتا
أما ترى البان بأغصانه

وقال آخر فيه:

كل الغصون بقده المياس
يختال في المنجاب والبرطاس

أو ما ترى البان الذي يزهو على
وافى يبشر بالربيع وقربه

وقال في الشقيق:

ورأى الرقيب فشق ذاك عليه
أضعاف ما حملت يداي إليه

حيث به شقائق في مجلي
فاحمر من خجلي فأبنت غده

وقال آخر:

أحداق نرجسها إلينا تنظر
بات النسيم بذيله يتعمـر

لو لم أعانق من أحب بروضة
ما انشق جيب شقيقها حسدا ولا

وقيل إن ابن الرومي رآه قبر أخيه يوما فوجد الشقائق قد نبئت على قبره فأنشد يقول:

ولرب أخبـر ناطق
فلأنا الشقيق الصادق

قالت شقائق قبره
فأراقـتـه ولزمتـه

ومما قيل في المشور:

كأنما صيغ من در وعقيان
هذا هو المعيش إلا أنه فنانى

تخال مشورها في الدوح متشورا
والطير ينشد في أغصانه سحرا

وقال آخر:

كالدر والياقوت في نظمه
ومخ من يشناك مثل اسمه

قد أقبل المشور يا سيدي
شناك لا زال كسائفـه

ولبعضهم فيه:

في روضة للزهر فيها معرك
مع أقحوان وصفه لا يدرك
تتروى إليه وتفسر هذا يضحك

ولقد خلوت مع الأحبة مرة
ما بين مشهور أقلام ونرجس
هذا يشير بأصبع وعيون ذا

وما قيل في الياسمين:

والأفق يسفّر تارة ويقطب
والياسمين لها طراز مذهب

والأرض تبسم عن ثغور رياضها
وكان مخضر الرياض ملاءة

وقال آخر:

وقد أهدى إلى الياسمين
ولا تيسر فسين الياسمين

رأيت الفيل يشترى بخمير
فلا تحزن فإن الحزن شين

وما قيل في السوسن لاخطل الأهوازي:

بعد الهدى بها قرع التراقي
على الميسادين أذناب الطواويس

سقيًا لأرض إذا مانت نبهني
كان مونها في كل شارقة

وما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي:

بأقحوان يحاكي ثغر مبسم
لثمًا وأشف من ريق له شميم

أفدى الذي وارى سرًا فأنحفني
فبنت من فرحي أفنى مقبيله

ولبعضهم فيه:

بثغر حبك واستولى به الطرب
لقد حكيت ولكن فباتك الشنب

إن فاء ثغر الأقاحي في تشبهه
فقل له عندما يحكيه مبتسمًا

وما قيل في الجلتار:

على أعالي شجره
أحمره وأصفره
في خرقه معصفره

وجلنار مسشرف
كلأه في غصنه
قراضبة من ذهب

وما قيل في الأس:

غصناً نضيراً ناعماً من آس
وكأنما تحكيه في الأنفاس

أهديت مشبهه قلدك المياس
فكأنما يحكيك في حركاته

وعما قيل في الريحان:

نما بين غصني نرجسي وشقائق
شمائل معشوق وقلّة عاشق

وغصن من الريحان أخضر ناضر
يريك إذا كف الصبا عشت به

وفيه أيضاً:

يلذ بشممه شرب الكؤوس
وقد قاموا مكاشيف الرووس

وريحان يمس بحسن قد
كسودان لبس ثياب خنز

وقال آخر:

إذا ما بدا للعين لون الزرجد
عثار تبدى في سواف اغيد

قضيب من الريحان شاكل لونه
فشبهته لما بدا متجمداً

(وعما قيل في الفواكه والثمار على اختلافها) قال ابن الرومي في الأترج:

تشابهت منكم الأخلاق والخلق
حملاً ونشراً وطاب العود والورق

كل الخلال التي فيكم محاسنكم
كأنكم شجر الأترج طاب معاً

ولبعضهم فيه:

ناعمة مقدودة غصه
وجسمها الناعم من فضه

حيّاك من تهوى بأترجة
فجلدها من ذهب أصفر

وقال آخر:

تمسدت للنفس الطرب
لها غششاء من ذهب

يا حبيب لدا أترجة
كأنها كافورة

في الليمون قول أبي الحسن رئيس الرؤساء:

حلو المقبيل المي بارد الشنب
واستودعها غلاًقاً صيغ من ذهب

يا حسن ليمونة حيا بها قمر
كأنها أكّرة من فضة خرطت

وفيه أيضاً:

والطَّيِّبُ لَمْ يَغْفِرْ
تَرْضَى بِعَمَلِي شِئْنُكَ
مِنْ كَفِّ سَبَاقِ أَغْنِيكَ
مِنْ خَمَلِ هَذِهِ الْمَوْرِدِ
لَنْةَ يَوْمٍ لَسْتُ بِكَ
غَسَمَنْ مِنَ الزَّيْرِجِدِ
مَمْلُوءَةٌ مِنْ عَسَلِ الْجِدِ

وصاحب ناديتُ
أنه هُفْضُ إِلَى السَّحَابِ وَلَا
وَأَشْرَبُ مَلَأْنَا قَرْقَنًا
قَدْ أَكْتَسَتْ تَلْهُجًا
وَلَا تَدْعُ مَجْهَدًا
أَمَا تَرَى اللَّيْمُونَ فِي
كَأَكْسَرَةٍ مِنْ فُضْفُضَةٍ

في النارنج لعبد الله بن المعتز:

كسجمرة نار وهي باردة للشمس
فشبها المريح في دارة الشمس

نظرت إلى نارنجية في يمينه
فقربها من غده فتألفت

وقال آخر:

على غصن رطبٍ كقمامة أغيد
بدت ذهباً في صولجان زبرجد

ونارنجية بين الرياض نظرتها
إذا ميلتها الريح مالت كأكسرة

وقال آخر:

ومنه ما نرى كالصولجان
غلائلها صبغن بزهران

ونارنج يلوح على غصونٍ
أشبهها ثديا ناهداتٍ

وقال آخر:

حقيق عقيقٍ قد ملتن من الدر
قدود عذارى في ملاحفها الخضر
فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

وأشجار نارنج كأن ثمارها
نطالعها بين الغصون كأنها
أنت كل مشتاقٍ بريا حبيبته

في التفاح لبعضهم:

دعوت بكاسي وهي ملأى من الشفق
خدود الأغاني قد جمعن على طبق

ولما بدا التفاح أحمر مشرقاً
وقلت لتأقبها أدرها فعندنا

وقال آخر في تفاحة:

وتفاحية من سندس صيغ نصفها
كان الهوى قد ضم من بعد فرقة
ولبعضهم فيه:

تفاحية كسيت لونين خلتهما
تماثقا فبدا واشي فراعهما
وقال آخر:

وتفاحية وردية ذهبية
كان سلاف الخمر روى أديمها
تذكرني شكل الحبيب وحسنه

وقال آخر:

حمرة التفاح في خضرته
فعلى التفاح فاشرب قهوة
وفيه أيضاً:

أهدى لنا التفاح من كفه
وخط بالمك على بعضهما
ومما قيل في السفرجل:

حار السفرجل لذات الوري ففدا
كالراح طعمًا وشم المسك رائحة
وقال آخر:

سفرجلة صفراء تحكى بلونها
إذا شمها المشتاق شبه ريحها
وطيبة عند المذاق فطعمها
وقال آخر:

سفرجلة جسمت أروعها

ومن جلتار نصفها وثقاتق
بها خد معشوق إلى خد عاشق

خدى محب ومحبوب قد انصفا
فاحمر ذا خجلًا واصفر ذا فرقا

تجلى عن المهيوم ليل همومه
بخمر فجاءت بأحمرار أديمه
خديه وطيب نسيمه

أشبهه الألوان من قوس قزح
واسقنيها بنشاط وفرح

من لم يزل يجنيه من خده
قد عطف المولى على عبده

على الفواكه بالتفصيل مشهورا
والنوبر لونًا وشكل البدر تدويرا

محيا شجاء للحبيب فراق
بريح حبيب لذ منه عناق
كريق حبيب طاب منه مذاق

فكان لها كل معنى عجيب

صنار النضار وطعم العنقار

ولون المحب وريح الحبيب

وقيل في الكمثرى:

وكمثرى لذيق الطعم حلو
مناقير الطيور إذا اقتتلنا

شهى جلاء من دوح الجنان
مغبرة بلون الزعفران

ابن برغش متغزلاً:

وكمثرى بباني منه طعم
لذيق خلقه لما أتانا

قطعم الشهد شبيب بماء ورد
نهود السمير في معنى وقد

ما قيل في الشمس:

بدا مشمش الأشجار يذكو شهابه
حكى وحكت أشجاره في اختضاره

على غصن أغصان من الروض مُبد
جلجل تبر في قباب زرجند

ما قيل في الإحاص:

انظر إلى شجر الإحاص قد حملت
تراه في اخضر الأوراق مستتراً

أغصانه ثمرًا ناهيك من ثمر
كما اختبى الزنج في خضر من الأذر

ما قيل في الخوخ:

أهدى إلى الصديق خوخًا
من كل مضمومة بحسن
حمراء صفراء مستعير
كوجنة مهبها خلوق

منظرة منظر أنيق
معتاه في مثلها دقيق
بهجتها التبر والعقيق
فزال عن بعضها الخلق

وما قيل في الفتق:

تفكرت في معنى الثمار فلم أجد
سوى الفتق الوطأ الجنى فإنه
غلالة مرجان على جسم فضة

لها ثمرًا يبدو بحسن مجرد
زها بمسكان رينت بشمس مجرد
وأحشاء ياقوت وقلب زرجند

ما قيل في البنديق:

ولقد شريت مع الحبيب مدامةً

حمراء صافية بغير مزاج

فَسَفَلَ الطَّيْبُ الْبَهْمَى بِيَنْدُقِ
فَكَرَّتْهُ فَوَجَدَتْ ثَوْبًا أَحْمَرَ

وَمَا قِيلَ فِي النَّقْ:

وَمَسَدُ دَرَّةٍ كُلِّ يَوْمٍ
كَأَلَمَّا النَّبِيُّ فَمِيزَهَا
جَلَّاجِلَ مَنْ نَضَّارَ

وَمَا قِيلَ فِي اللَّوْزِ:

وَمَهْدُ إِلَيْنَا لَوْدَةٌ قَدْ تَضَمَّتْ
كَأَنَّهُمَا حَبَانُ فَارَا بَخْلَوَةٍ

فِي الْعَنْبِ لِبَعْضِهِمْ:

هَدِيَّةٌ شَرَفَتْنَا مِنْ أَخٍ شَقِيَّةٍ
نَوْعَانِ مِنْ عَنْبٍ جَاءَهُ عَلَى طَبَقٍ
فَأَبْيَضَ الْعَيْنُ يَحْكِي لَوْنُ أَبِيضِهِ

وَقَالَ فِي قَصَبِ السَّكْرِ:

وَرَمَّاحٌ لَغَيْرِ طَعْنٍ وَضَرْبٍ
كَسَلَتْ فِي اسْتَوَاتِهَا وَاسْتَقَامَتْ

وَمَا قِيلَ فِي الْبَطِيخِ الْأَصْفَرِ:

أَتَانَا غِلَامٌ فَنَاقَ حَسَنًا عَلَى الْوَرَى
فَشَبَّهَتْهُ بِلَدَا يَقْدُ أَهْلَةً

وَقَالَ آخَرُ:

وَبَطِيخَةٌ وَافَى بِهَا فَوْقَ كَفِّهِ
فَنُخِيلُ لِي شَمْسُ الْأَصِيلِ أَهْلَةً

وَمَا قِيلَ فِي الْبَطِيخِ الْأَخْضَرِ:

وَنَظَبَى أَمْسَى فِي الْكَفِّ مِنْهُ بِمَدِيَّةٍ

شَبَّهَتْهُ بِيَنْدُقٍ مِنْ سَاجٍ
قَدْ لَفَ فِيهِ بِنَادِقٍ مِنْ عَاجٍ

مِنْ حَسَنَاتِهَا فِي فَنُونٍ
وَقَدْ حَلَا فِي الْعَمِيُونِ
قَدْ عُلِقَتْ فِي الْغَمَامُونِ

لَبَصَرُهَا قَلِيلِينَ فِيهَا تَلَاصَقًا
عَلَى رَقَبَةٍ فِي مَجْلِسٍ فَتَعَانَقَا

نَعَمْ الْهَدِيَّةُ إِذَا وَافَقَتْكَ مِنْ يَدِهِ
كَأَنَّ طَيِّبَهُمَا مِنْ طَيِّبٍ مُحْتَدِهِ
وَأَسْوَدَ الْعَيْنِ يَحْكِي لَوْنُ أَسْوَدِهِ

بَلَّ لَأَكْلٍ وَمَصَّ لَبٍ وَرَشَفٍ
بَاعْتَدَالٍ وَحَسَنٍ قَدْ وَلُطَفٍ

بِطَطِيخَةٍ صَفَرَاءَ فِي لَوْنٍ عَاشِقٍ
مِنْ الشَّمْسِ مَا بَيْنَ النُّجُومِ بَبَارِقٍ

إِلَيْنَا غِلَامٌ فَنَاقَ كُلَّ غِلَامٍ
يَقْطَعُهَا بِالْبَسْرِقِ بَلَدُ غَمَامٍ

وَقَدْ لَاحَ فِي خَدَيْهِ شَبَّهَ شَقِيقٍ

فمال إلى بطيخة ثم شقها
فشبهت بها لما بدت في أكفهم
صفائح بلور بدت في زبرجد

وقال آخر:

وبطيخة خضراء في كف أغيد
وأقبل يضربها بمديته وقد فرى

ومما قيل في القناء:

أنظر إليهما أتأبيباً منقداً
إذا قلبت اسمها بانت ملاحتهما

ومما قيل في الباذنجان:

وكأنما الأبنج سود حمام
نقرت مناقره الزمرد سمساً

(ومما قيل في الأنهار والبرك والنواهير):

أما ترى البركة الغراء قد كسيت
والنهر من فوقه يلهيك منظره
كأنه السيف مصقولاً يلقبه

وقال آخر في البركة:

يا من يرى البركة الحسناء ورويتها
فلو غمر بها بلقيس عن عرض
كأنها الفضة البيضاء سائلة
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً
فحاجب الشمس أحياناً يفاحكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها

وقال آخر:

ويركبة للمسيون تبعد

وفرقتها ما بين كل صديق
وقد عملت فيهم كؤوس رحيق
مرصعة فيها فصوص عقيق

أناها بها فارتاح ذو الهم وابتهج
طرفه الساجي القلوب مع المهج

من الزمرد خضراً ما لها ورق
وصار في عكسه أئى بكم أئق

أوكلاه خمل الربيع المبكر
فامتدعت حواصلها من عنبر

نوراً من الشمس في حافاتهما طلعا
شهب سماوية فارتج والتمعا
كف الكمي إلى ضرب الكماء سمى

والآنات إذا لاحت مغنايتها
قالت هي الصرح تمثيلاً وتشبيها
من السبائك تهرى في مجاريها
مثل الجواشن مصقولاً حواشيها
وريق الغيث أحياناً يياكيها
ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

في غاية الحسن والصفاء

كانها إذا صفت وراقت

فى الأرض جـزء من السـماء

وقال محمد بن سارة المغربى:

النهر قد رقت غلالة صبغه

وعليه من صبغ الأصـيل طرا

تشرقق الأمواج فيه كأنها

عكن الخـصور تهزها الأعـجاز

وقال آخر:

يوم لقنا بالنيل مختصر

ولكل وقت مـرة قصـر

فكانما أمواجـه عكن

وكأنما دارته سـرر

وقال آخر فى نهر يسبح فيه الغلمان:

خليج كالخـمام له صقال

ولكن فيه للرائى مـسره

رايت به الملاح تمجيد عومنا

كانهم نـحوم فى المـجره

وقال آخر فى النيل:

النيل قـال وقـوله

إذ قال ملء مـسامعى

فى غـيظ من طلب العـلا

عم الجـلاد منافـعى

وعيونهم بعد الوفا

قلعتـها بأصـابعى

وقال آخر:

كان النيل ذو فـهم ولـب

لما يـدو لعين الخـاس منه

فيا ترى عند حاجـتهم إليه

ويـضى حين يـستغـفنون عنه

وقال آخر فيه:

وفت أصـابع نـيلنا

وطفت وطافت فى البـلاد

وأنت بكل مـرة

مـا ذى أصـابع ذى أيد

وقال آخر:

سد الخـليج بكـره جـبـر الـورى

طرا فكل قد غدا مـرورا

والماء سلطان فكيف تواترت

عنه البـشائر إذا غـدا مـكـورا

وقال آخر:

غدت طوعاً له في كل أمر
إليه بها فبأغلها ويجرى

ونهر خالف الأهواء حتى
إذا عصفت على الأغصان ألقت

وقال آخر في ناعورة:

فغدت تنوب عن الغمام الهامع
ومسير مشتاق وأنه جازع

وكريمة سقت الرياض بلدها
بلسان محزون ومدمع عاشق

وقال آخر:

وأضلعتها كادت تعد من القم
وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وناعورة قالت وقد حال لونها
أدور على قلبي لأني فقدته

وفيها أيضاً:

يفيض لها دمع كمتثر العقد
فليس لنا من ذلك الفعل من بد
وأبكي بإفراط الصبابة والوجد
ودمعي من عيني يفيض على خدي

وحانة من غير شوق ولا وجد
أحن إذا حنت وأبكي إذا بكيت
ولكنها تبكي بغير صبابة
وأدمعها من جدول مستعمارة

وفيها أيضاً قال الخطيري:

فارقتك فقد غدت لي تحكي
وعلى القهقهة تدور وتبكي

رب ناعورة كأن حبيباً
أبدأ هكذا تشن بشجـو

ابن نجيم:

ودمعهما بين الرياض غدير
فأصبح ذا يجري وذاك يدور

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
كان نسيم الجوّ قد ضاع منهما

فصل: في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف في قاض مليح:

يمـ _____ رب عن منطقي لذيد
قلنا له داعم الشفقـ _____ ذو

دوب قـ _____اضي لنا مليح
إذا رنا لي بـ _____هم لحظ

وقال في فقيه مليح:

وهو المهذب في الرثاقاة والحدود
لكن وجيز الحصر منه المختصر

وبهجتي ظبي غدا متفقهًا
أسمى بسيط الشمير منه مطولا

وقال في محدث مليح:

شرد عن جفني الومس
كلامها عندى حسن

علقته محددًا
حديثه ووجهه

وقال في إمام:

يخجل البدر في ليالى السعد
حين يومي بوجهه للسجود

جاء يعمى إلى الصلاة بوجه
فتضمنت أن وجهه أرض

ابن الرومي في عروض وأجاد:

موتى فنيه حياة
فءات فءات فءات

بى عروضى مليح
عذلاتى فى هواه

في مؤذن مليح:

لكنه بالوصل أى شحيح
من بعد ذلك أعيش بالتسبيح

ومؤذن أصحى كرمًا وجهه
أبدًا أموت بهجره لكتنى

لاين عربى:

لم يفلنى شكوى الفرام إليه
واضع أصبعيه فى أذنيه

وينفى مؤذن قد سبباني
كيف أصغى لما يقول حبيب

وقال آخر في مرید:

مخسباً فى الزوايا
ففى الزوايا خبباً

مراد قلبى مبريد
وليس ذا بعجب

وفي فقير مليح:

بينا وجهه منير
فترامى بالفقير

بى فقير يثبتي
لا تلمنى فى افتحاحى

في أمير شكار لابن دانيال:

وجدت يذيب الجــــــــــــــــوارح
حنث إليــــــــــــــــه الجــــــــــــــــوارح

بى من أــــــــــــــــمر شكار
لما حكى الظبى حــــــــــــــــنا

في مليح مفن:

رغدا يلين لحسنه الجلمود
وإذا شــــــــــــــــدا فكأنه داود

أضحى يخر لوجهه قمر الدجا
فــــــــــــــــإذا بدا فكأنما هو يوسف

في مليح حواد:

أمسى به قلبى المضى على خطر
فراحت الروح بين السهم والوتر

غنى على العمود ظبى منهم ناظره
دنا إلى وجسست كففه وترأ

في مليح كاتب:

بديعاً ما رأينا منه أجمل
بوجته غدا دمي مسلسل

بروحى كاتباً كالبلدر حسناً
على ريعان عارضه المندى

غيره:

ففيه تزايد عششقى
لكان مــــــــــــــــالك رقى

وراقنا ذا النفســــــــــــــــدى
فلو يجسود بوصلي

وفيه أيضاً:

قد راق في التقيل عندى ورق
ما أحسن الأغصان بين الورق

يا حــــــــــــــــن ورق أرى خــــــــــــــــده
تميل في الذكــــــــــــــــان أصطافه

للسيد الشريف صلاح الدين الأسوطى فيه أيضاً:

لمطلق بالوصــــــــــــــــال يكاد يبلى
محب يسأل الرواق وصلا

فسديتك أيها الوراق قلبى
وقد طلب الوفاء وغير بدع

في مليح صيرفى:

أمسى بعيد الدار فاقد ألفه
قد مت من جور الزمان وصرفه

يا سائلاً عن حالى ما حال من
بى صيرفى لا يرق لحالى

فى مليح بخانقى:

ولا يرضى بــــــــــــــدر التمس نائب
وأصبح راكبًا تحت العصائب

تسلطن فى الملاح بــــــــــــــخانقى
وقد صفت له الأتراك جندا

فى مليح فراء:

وزاد صــــــــــــــدًا وطال هــــــــــــــجــــــــــــرا
فقال لما عشتقت فــــــــــــرا

قلت لفــــــــــــراء فــــــــــــرى آدمى
قد فر نومي وفر صــــــــــــبرى

سدى أبو الفضل بن أى الوفاء فى مزين:

بعـد البــــــــــــمــــــــــــاد بنشطه
بــــــــــــكــــــــــــاأس راح وبــــــــــــطــــــــــــطه

حــــــــــــــــبــــــــــــــــى المزيــــــــــــــــن وافى
ومص دمــــــــــــل قــــــــــــــــلبــــــــــــــــى

فى مليح قصاص:

بالهجر والصد أنواعًا من الغمص
أيضًا تقص علينا أحسن القصص

أشكر إلى الله قصاصًا يجرعنى
إن تحسن القص يئنه فمقلته

فى مليح صباد:

يمدها وشـــراك
تصـــسيد قـــبال كـــراكى

ومــــــــــــــــولح بــــــــــــــــفــــــــــــــــخــــــــــــــــاخ
قــــــــــــــــانت له العين مــــــــــــــــافــــــــــــــــا

فى مليح رامى بندق:

طائر قلبى عليــه واجب
يرمى إلى البــدر بالكواكب

وأهيف القــد ذى دلال
كالشــــــــــــــــمس فى كســــــــــــــــفه هلال

وقال آخر فى راع:

قوامه فاق الغــــــــــــــــصــــــــــــــــون الرشاق
ما القــــــــــــــــصــــــــــــــــد يا مــــــــــــــــرلاى إلا العناق

أفنديه من راع كــــــــــــــــبــــــــــــــــدر الدجى
ضــــــــــــــــيفــــــــــــــــتى بالهــــــــــــــــمدى ناديتــــــــــــــــه

الغرايطى فى مليح طعان:

بلحــــــــــــــــاطٍ وبــــــــــــــــسامــــــــــــــــه
يجعل الغــــــــــــــــمــــــــــــــــز علامــــــــــــــــه

حسن طــــــــــــــــحــــــــــــــــان ســــــــــــــــبــــــــــــــــانى
غــــــــــــــــلاف من واش فــــــــــــــــســــــــــــــــاضــــــــــــــــحى

الغاضى بدر الدين البلقيني فى تراب:

رب تراب ملىح
قللت لى أن بلى لى

وقال آخر فى ملىح عوام:

يا حمن عوام كغصن النقا
وتقنع العشاق منه بأن

ابن نبأة فى ملىح حبشى:

بروحى مشروطاً على الخد أسمرًا
وقال على اللثم اشتربنا فلا تزد

وله أيضًا:

ومن عجب تدعى للطفك سنبلاً
وسمك إقبال وحسبك مرشد

وقال آخر لىمن به صغرة:

قالوا به صغرة شانت محاسنه
عيناه مطلوبة فى نار من قتلت

للشيخ شهاب الدين ابن حجر فى ملىح اسمه زائد:

ورائر قلىبى
مدحنته فتجنى

وقال آخر فى ملىح أرمذ:

شكا رمدك فقلت الآن كلت
وقالوا سيف مقلته تصدى

لمجد الدين بن مكانس فيه:

تورمت مقلة المحبوب من رمد
وبات يرمى محبيه بأنهمه

أورث القلب عسلاً
لى كنت تراباً

يجل بالوصل لمن هاماً
يريهم الأرداف إن عسماً

دنا ووفى بعهد التجنب والخط
فقبلته القفا على ذلك الشرط

ونشرك كافور وذكرك عنبر
وخلقك ربحان ولغظك جوهر

فقلت ما ذاك من عيب به نزل
فلست تلقاه إلا خافئاً وجلاً

للطرف با طرف شهاد
تيسها على بزائد

لواظله من الفستكات فىنا
فقلت نعم لقتل العاشقيننا

وبات يشكو لهيب القلب والالما
فىا له من حبيب قد شكاً ورما

وقال في ملح خياز:

في حشبا الصب من جصفاء كلوم
وهو بدر والحبيبز فيه نجوم

إن عجبنا الملبح المغددي
خلت دكانه البديع سماء

وقال في ملح حائك:

كالبدر في كفيه مساموره
عابنت في كفيه مأموره

وحائك يا صاح أبهرته
فلسم أرح إلا وروحى لنا

وقال في ملح لاعب شطرنج:

رشاقة الأغصان من قده
والشم الشامسات من عده

لعبت بالشطرنج مع أهيف
أحل عقده البند من غصره

وفيه أيضاً قال:

فنادمنى حتى سكرت من الوجد
تدور على الشامسات وهي على الحد

تلاعبت بالشطرنج مع أحبه
وأنشدنى مالى أراك مفكراً

في ملح خياط:

بديع حسن فريد شكل
لما جففتنى وكفّ ويلي

خياطنا الفسائن المغددي
فصل للجسم ثوب مقم

وقال غيره:

له طلعة أبهى ضياء من الشمس
فتقسم حقاً أنه آية الكرسي

فيتت بخياط بديع ملاحه
تراه على الكرسي للثوب غانطاً

الصفى الحلى في ملح قلع ضرره:

وجاء لقلع ضررك بالحال
وسلط كلبتين على غزال

حيا الله الطبيب لقد تعبدى
أعناق الظبي فى كلنا يديه

وقال في ملح سلم عليه:

به قوم ومهمهم الضلال
وقالوا إن معجزه محال

تباً فيك قلبى فاستعربت
وصلهم الهوى أن يؤمنوا بى

ومــنــد سـلـمـت سـلـمـت الـهـرـايـا

وقال في مـلـيـح يرمى بالسهم:

وظبى بشـمـر فـوق طـرف مـفـوَّق
كـبـسـدر بـأفـق يـرق بـكـؤُـه

وقال في مـلـيـح يـضـرب بالعود:

فـتـن الـأنـام بـعـودـه وبـشـودـه
حـتـى كـان لـنـانـه يـمـيـنـه

وقال أيضاً فيه:

واغـنَّ قـد أـبـدى لـنا مـن عـودـه
بـيـدٍ إذا سـخـطـت عـلى أوتـارـه

وقال في مـلـيـح مـثـب:

يـا نـافـخ الطـور بـل يـا بـاعـث الصـور
قـرنت حـنـك بالإحـسان فـيـه لـنا
ضـمـت للـصـحـب إقـبال الـمرور كـما
صـوت بـسـيـط به أرواحنا اتـبـسـطـت

وقال في مـلـيـح سـاق:

وسـاق مـن بـنى الـأثـراك طـفل
أـمـلـكـه قـيـادى وهـو رقى

وقال أيضاً في رسول مـلـيـح أتاه من عند من يحبه:

مـن كـنت أنت رـسـولـه
يـا طـلـمـعة الشـمـس الـذى
لـم يـبـد وجـهـك قـبـلـه
فـلـذا كـ إذ واجـهـهـتـنى

في مـلـيـح قـارىء:

إلى وقـيـل كـلـمـه الغـزـال

بـقـوس رمى فـى النـعـ وحـشـا بـأسـهم
هـلال رـمى فـى الـلـيـل جـنا بـأنـجـم

شـاد تـجـمـعـت المـعـاسـن فـيـه
وكان ما بـيـمـيـنـه فـى فـيـه

نـغـمـا أصـح به القـلوـب وأمـرـضـا
نال الـرفـاق بسـخـطـها عـين الـرـضـا

مـن رـقـدة الـسـكر لا مـن رـقـدة الـخـمـر
فـكان فـيـك مـراد الـسـمـع والبـصـر
ضـمـمت نـايـك نـاى الـهـم والفـكر
إذ جـثـت فـى الـلفـظ والمـعنى عـلى قـدر

أتـيـه به عـلى جـسـم الـرفـاق
وأفـدـيه بـعـيـنى وهـو سـاقى

كـيـان الجـواب قـبـولـه
جـاء الصـبـح دليـله
إلا أرتـقـى بـت رـصـولـه
بـلّ الـفـؤاد غـلـيلـه

يوم الزيادة قارنًا في المصحف
تسبي وتضنى كل صب مدنف
وجلا محيا مثل صورة يوسف

نفسى الفداء لشادن شاهدة
فمن الأنام بيهجته وبهجة
فتلا مليًا جل صورة يوسف

وقال آخر في مليح مكمل العذار:

فصصدنى وادور من قبلتى
وأنت ما تفكر فى حبيبتى

وكمال المعارض قبلته
وقال كم أنهاك عن مثل ذا

وقال آخر في مليح حجام:

فغدا على سفك الدماء يواطى
منه اللحاظ كليلة المشراط

كلفت بحججهم تحكم طرفه
أضحى كثير الاضططاط ولم تكن

فصل: فى الألفاظ

فى غزال:

ظاهر فى صروروفسه
زال باقى حـروروفسه

اسم من قـروروفسه
فـإذا زال ريعـه

فى كوز فقاغ:

له فى السجين ثوب من رصاص
يقبيل فساك من فـرح الحـلاص

ومحـربوس بلا ذنب جناه
إذا أطلقـته وثب ارتفعـاعا

فى زر موزة:

تحمـله وهو لها حـامل
لا تشـرب الدهر ولا تـاكل

مطـيبة نـارـسـهما راجل
واقـفة بالـباب مـزبولة

وقال فى طاحون:

تراها مـدى الأيام تخشى ولا تشـعب
وتاكل مع طول المـدى ولا تشـرب
ولا ثلث ثمن من فـراع ولا اقـرب

ومـسرعة فى سـيرها طول دهرها
وفى سـيرها ما تقـطع الأكل ساعـة
وما قـطعت فى السـير خمـة أذرع

فى دواة:

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم
وفى بطنها الكين والشدى رأسها

وفى دواة أيضاً:

وما أم يجامعها بنوها
كأنهم إذا ولجسوا حشاها

فى قلم:

وأهيف مدبوح على صدر غيره
تراه قصيراً كلما طال عمره

وفيه أيضاً:

بصير بما يوحى إليه وما له
كان ضمير القلب باح بمره

وفيه أيضاً:

وأصفر عارٍ أحل السقم جسمه
حمى الجليش مغطوئاً كما كان تحتى

فيه أيضاً:

وذى نحولٍ راكم ما جدد
ملازم الخمس لأوقاتها

فى مريلة:

ممشوقة لذوات العز قد صنعت
كأنها من صروف الدهر خائفة

فى كتاب:

وذوى أوجهٍ لكنه غسير بائع
تاجيك بالأسرار أمرار وجهه

لهالين ما لذ قط لشارب
وأولادها مدخورة للنوائب

وليس عليهم نجب الحسدود
أفعاى فى أمكانها رقود

يتترجم عن ذى منطقٍ وهو أبكم
ويضحى بليقاً وهو لا يتكلم

لسان ولا قلب ولا هو سامع
إليه إذا ما حركته الأصابع

يشتت شمل الخطب وهو جموع
به الأسد فى الغابات وهو رضيع

أعمى بصير دمعته جارى
مجتهد فى طاعة البارى

حزينة ما تراها قط تبتم
تبكى دماء على ما سطر القلم

بسر وذو الوجهين للسر يظهر
فسمعها بالعين ما دمت تبصر

ما اسم محبوب للقلوب لانه
تصحيفه اى حبيباً كلما
لو جاد لى يوتاً بروية وجهه

فى شباة:

وما صفراء شاحبة ولكن
مكتوبة وليس لها بنان
تصبح لها اذا قلبت فاما
ويحلو المدح والشبيب فيها

وفىها ايضا:

ومقروحة الاجفان مثلى شجيرة
تزوجهاعشر وذاك محرم
إذا وطنها قوم تصرخ صرخة

وفىها أيضاً:

منقبة مهما خلت مع محبوبها
وتصحيفها فى كف حاملها فقل

فى دملج:

إلى النماء يلتجى
الجمسم منه فضة

فى خلخال:

أيا عجباً من صابر صامت ولم
أقام ولم يبرح مكثاً ثوى به

فى شعر اللحية:

وفى عديد كالرمل سام مسحله
يحاذر من موسى ويهرب باسمه

حسن الحروف يجود بالإحسان
صحفت أحرفه بحمن بيان
ثلث المراد وعشت بالسلطان

تزينها النضارة والشباب
منقبة وليس لها نقاب
أحاديث تلذ وتخطاب
وليت لاسعاد ولا الريب

تئات عن الأهلين أسقمها البعد
ولا حرج كلا ولا وجب الحمد
يلين إليسها كل قلب ولو صد

يزودها لثماً وينظرها شزرا
إذا شئت فى اليمنى وإن شئت فى اليسرى

وعندهن يوجسد
والقلب منه جلمسد

يفه بكلام قط فى ساعة الضرب
على أنه أضحى يدور على الكعب

جميل على كل الملاح له حق
وفى قلب هرون له الهلك والمحق

وفي التين:

ناعم الملمس لين
وهو في التماسك حفيف بين

أَي شَيْءٍ لَذِطْعَمِهِ
كَيْفَ لَا يَبْغِدُوهُ وَفُوحًا

في الموز:

تلقاه عند الناس مـورونا
واؤ ونوئا صـار مـورونا

ما اسم شيء حسن شكله
تراه مـعـدوداً فإن رده

في حمزة:

أروى بغصن البان لينة قد
ويقلب عاشقه لشدة صده

من لى بمعدل القوام مهنه
فى فيه تصحيح اسمه ويخذه

وفيه أيضاً:

وطول دهری اُخشی من تجنیہ
بیدو فی خدہ اِبْضًا رفی فیہ

اسم الذى أنا أهواه وأعشقه
تصحبته فى فؤادى دائماً ابداً

في ماقية:

أشاهدنا تمري وليس لها رجل
وليس لها ثدي وليس لها بعل

وجارية لولا الحوافي ما جرت
وترضع أطفالاً ولا هي أمهم

وفيها أيضاً:

بلا ألم فيها ولا ضرب ضارب
ومسا كان شق القوم إلا بواجب

وجارية تبكى إذا الليل جنبها
عليها رجال شققوا بعد حرقهم

في زر وعروة:

وليس عليهم ما فيه جناح
وفي أمناقهم ذاك النكاح

ومما أخت يجامعها أخوها
نرى بجمـــــــــــــواز الحكام طراً

في رواية:

وإن شئت نسقيك من فرد يد
وثناهما واحدا في العدد

وسوداء تشرب من رأسها
ولونها مثل لون اختها

وتحبل في الوقت هي وأختها

وفي ماعة يفسمان الولد

في شطرنج:

يا ذا النهى مما اسم له حالة

يحار فيسها الذهن والفكر

له حروف خمسة إنما

ثلاثة منها له شطر

في ليل:

أيما اسم تركيبه من ثلاث

وهو ذو أربع تعالى إليه

حيوان والقلب منه نبات

لم يكن عند جوعه يريه

فيك تصحيفة ولكن إذا ما

رمت عكسا يكون لي ثلثاه

في جمع:

ما طائر في قلبه

يلوح للناس عجب

منقاره في بطنه

والعين منه في الذنب

في نار:

ومما اسم ثلاثي به النفع والضرر

له طلعة تغنى عن الشمس والقمر

وليس له وجه وليس له قسفا

وليس له سمع وليس له بصير

يمد لسانا يختشى الرمح بأمه

ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر

يموت إذا ما قمت تستقيه عامدا

ويأكل ما يلقى من الثبت والشجر

فيا قارىء الأبيات دونك شررها

والأفم عنها ونبه لها عمر

وفيها أيضا:

وأكلت بغدير فم وبطن

لها الأشجار والحيوان قوت

إذا أطعمتها انتفعت وعاشت

وإن أسقيتها ماء تموت

في يد الهاون:

قل لي مما شيء يرى ناعسا

منصب القامة طول الزمان

أطول من شبر له حزة

مسفى مثل الرأس قوى الجنان

يسمع في القمر له رنة

ويظهر الصنفق بأعلى مكان

وفيه أيضًا:

أوسع ما فيه فممه
يرفله ويلكممه
ولم يجد من يرحمه

خججرونى أى شيء
وابينه فى بطنه
وقد علا صاحبه

فى خشخاش:

لهما علم يحكى الملاحمة بالظرف
يكونون القفا أو يزيدون عن ألف
ويقلبها عسفا على راحة الكف

وما قبة مبنية فوق شاهق
وأولادها فى بطنها فى جماعة
ويأخذها الطفل الصغير بجعله

فى كوز زير:

له قلب بلا لب
فقل ما شئت فى الصب

وذى أذن بلا سمع
إذا استولى على صب

فى اسم على:

أولسه فسمى ناظمه
فلإن لى فى آخره

اسم الذى أعشقه
إن فلتتنى أوله

فى موسى للصفدى:

يكلم من يلامسه بحلقه
وهذا الرأس صارت تحت حلقه

وما شيء له حد وخرى
وكل حلقه من تحت راس

فى حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى:

تصحيفه أخرى بأرض العجم
وجذته طيسرًا تنجى النغم

ما بلدة بالشام قلب اسمها
وثلثه إن زال من قلبه

وقال فى سمرقند:

ترى فيه أجزاء تدم وتشكر
وثلت مع الكتاب يطوى وينشر
على مدى الأيام نشر معطر
حديث شهي فى الليالى يذكر

وما اسم سداسى إذا ما لمحتة
له ثلث باتى به الموت فجساءة
وثلث رعاك الله يا صاحبى له
وفى نصفه لما تحرك بعضه

وفي نصفه الثاني إذا ما أعدته
ففسر لنا ذا اللقز إن كنت ذا حجبى
إلى النار لتحليل والعقد سكر
فليس على ذى العقل لغز معسر

وقال فى كمون:

يا أيها العطار أهرب لنا
تراه بالعين فى يقطعة
عن اسم شيء قل فى مومكا
كسما ترى بالقلب فى نومكا

وقال فى قالب الطوب:

وما أكل فى قعدة ألف لقمة
إذا أنزل المأكول جنبه لم يقم
ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
سوى لحظة أو لحظتين ينطقنه

فى العين:

وباسطة بلا عصب جناحها
إذا ألقتها الحجر اطمأنت
وتسبق ما يطير ولا تطير
وتجزع أن يساشرها الحرير

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه وما نبهت من هذا الفن عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فن الشعر القريض وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها.

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار والفنون السبعة المذكورة عند الناس هى الشعر القريض، والموشح، والدويبة، والزجل، والمواليات، والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة، وفى ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لا يفتقر اللحن فيها، وهى الشعر القريض والموشح والدويبة، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً، وهى: الزجل، والكان وكان، والقوما، ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا، وقيل: لا يكون البيت منه بعض الفاظه معربة وبعضها ملحونة، فإن هذا أفتح العيوب التى لا تمحوز، وإنما يكون العرب منه نوعاً بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحوناً لا يدخله الإعراب وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الحلبي فى ديوانه، وسماه: «بالعاطل الحالى، والمرخص الغالى» ولو بسطت المقال لاتسع المجال وكثر المقال، ولكن الاختصار يذهب الأوجال، والحمد لله رب العالمين على كل حال.

فصل: فى بيان الفن الثانى وهو الموشح

لاين المبارك:

قد أنحل الجسم اسمر أكحل
وأوجل القلب فسيه مذ حل

دور:

أمسيل له فلا يميل
يحسول وعنه لا أحسول

اقسول إذا راد بى النحسول

أما حل عقد الصدود ينحل وترحل عن نجم المرحل
دور:

كم أبعده وكم أبيت مكمنه ويعمد بهجره لا فقد
وأجهد لأرتصاد من قد
نحمل والحاصل دون رحل تحمل والوعيد منه ما حل
دور:

متزوج بالحسن هذا الأبلج مديح عنذره البغضج
مفلج وطرفه ذا الأدمج
مكحل وثغره منحل مخلخل بعنبر معجل
دور:

برغمي من يستحل ظلمي ويرمي بحبريه لسلمي
وجسمي من التزام سلمي
منحل وقد غدا مرحل فمن حل دمي وما حل
دور:

قلاني واشتط ذا الفلاني غزاني بطرفه اليماني
تراني أنشد لن يراني
قد أنحل الجسم أسمر أكحل وأحل القلب قبيح مذ حل
لاين سناء الملك:

كللي يا سحب تيجان الربا بالخلى واجعلى سوارك منعطف الجدول
دور:

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما كلما أخفيت نجمًا أظهرت انهما
وهي ما تهطل إلا بالطلى والدماء
فماطلى على قطوف الكرم كي تملئ وانقلي للذن طعم الشهد والقرنفل
دور:

تسقى كالكوپ الدرى للمرتصد يعتقد فيها المجوسى بما يعتقد

فلا تشذ يا ساقى الراح بها واعتمد

وامل لى حستى ترانى عنك فى معزل قل لى فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور:

لا اليم فى الشرب صهبا وفى عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم

لا اهم إلا بهذين فقم يا نديم

واجل لى من اكؤس صيرت من فوغل الذى لى من نكهة العنبر والمندل

دور:

خذ هنى واعطى كاسى مثل كاسك هنى واسقنى على رصاب الفطن الملمن

والهنى ببعض ما صيغ من الالمن

لو تلى مدح مناه مع رشاشا اكحل لذلى على منا الصهباء والطل

دور:

أزهت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت

أخبرت فقلت للظلماء مذ قصرت

طولى يا ليلة الوصل ولا تنجلى واسلبى بنرك فالعبيب فى منزلى

دور:

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالالام يجول فى باطنه والندم

والقلم يكتب فيه عنت لسان الأمم

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يعزى لالحاظ الرشاشا الاكحل

وله أيضاً:

تري هل يشـتـفى منك الغليل ويشـفى من صـبـابـته العليل

لقد أسرفت في هجرى وصدى بلا سبب سوى كلفى ووجدى

وماذا فى سـلـو عنك يجـدى

خضاب الوجـد ليس له تصـول وأسياف الهوى فىنا تصـول

دور:

لئن شـحـيت عنى بالسلام وطيفك قد جفنا لجفنا المنام

فقد جادت بأربعة سجام

جفون بالبكا كادت تحـول على خـد أسف به التحـول

دور:

لقد أرسلت فى طى النسـيم حديث هوى عن الوجـد القديم

فعدت وهى عطرة الشمـيم

تخـبـرُ أن ظعنهم نزول بدارٍ لا يلمُّ لهمـا نزـيل

دور:

تلقتـه المـوالى والمـوالى بألـحـاظ وورق من نصـال

وأعطافٍ وسـمـرٍ من عـوالى

وله أيضاً:

شمس الحـيـا أم القـمـر أم يارق الشـفـر بشـر

أم البـهـا حـفـه الحـفـر بطـرـز خـديـك مـسـطر

سلسلة:

قم تبـاهـا بما تبـاهـا ولا تلاها

قفلة:

فكل أحـبـابنا حـضـروا والمعـود يشـجـيك والوتر

الدور :

أفنديك بالسمع والبصر
بدر بدا في دجى الشـمـس
سلسلة :

إذا تجملنى وقــد تجــد
قفلة :

تجـمـيـر فى وصـفـه الفـكر
الدور :

فسهـاك حـدثت عن الطرب
إذا سقـاها مع الغـرب
سلسلة :

فى ظل بان على المـشـى
قفلة :

إلا النـدامى إذا سـكـروا
وقال رحمه الله تعالى :

وانـسيمَ السـحر هل لك خـبر
فـما رقتـسـونى ولم أقض الوطر
قلت يا قلب صـبـراً ما صـبر
ما كـسـمت الهوى إلا ظـهر
دور :

ليش تمنع وصـالك يا حـبيب
راقب الله وارجع من قـسـريب
لست ألقى لدائى من طـبـيب
لو رأى حـالى العـاذل عـلـى
دور :

يا قـمـر فوق غـصـن من نقـا
يا رعى الله لـويلات اللـقـا
ليلة السعد ما فيها شـقا
صـفـرها لا يـعـارجه كـدر
غيره :

حـملت مـذ سـارت الحـمول

يا أهـيف وصله وطـرى
قـمـد لـذ فى حـبه سـهـرى

سـلى عـلىـك يـجـلى

والعـقل والسمـع والنظر

وعن سـلاف ابنة العنـب
بدر بأفـق الجـمـال رى

بـانى من غـيـر ثـانى

والروض والماء والشـجـر

عن عـريب همـو بالـمنـعى
من لقـسـامهم ولا نلت المـنى
والنـى مـسا الهـوى إلا عـنا
مع شـهـود المـدامع والـضى

عن مـحبك وهو لا يـعـشـق سـواك
قـبـل يـلى جـسـمه فى هـواك
غـيـر رثـفى يا حـبـيـبى من لـماك
حـيـنـما يـنـظر جـمـالك والـنا

أثـخـنتنا مـطـالك والصـبـود
لـيـتـها يا خـلُ يـومـنا لى تـعـود
كـيـف تـشـقى وطـالـمـها سـعـود
بالمـسـرات وأوقـات الـهـنا

وجـد مـضى العـمر وهو بـاقى

دور :

ساروا وسار الفؤاد لكن جسمي مقيم على المساكن
وعن الحب سار ظاعن

مالي إلى وصله وصل لو سرت بالبرق والبراق
دور:

وغداة كالقضيبي قدنا والورد والياسمين خندا
كانتها البدور إذ تجدي

وشعرها أسود طويل كأنه ليلة الفراق
دور:

هونا اثنا ثيل مبيلا سحابة كالسحاب ذبلا
فقلت شمس تزور ليلا

وما دري كاثح عدول فلذاك من أعجب اتفاق
دور:

وسدتها ساعدى لعدى ويثأرعى رفاض وردى
وخمر ريق كذوب شهد

لو ذاقها مدنف حليل لعاش والروح فى التراقى
دور:

لما راكتى أذوب سقمما ومن ورود الرضاب أظما
قالت كلمت الخدود لثما

ما يشتفى منك ذا الغليل بغير نومي وشيل ساقى
فصل: فى الفن الثالث وهو الدوبيت

ليدى شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى :

أهوى قسما رك له الممانى رقى من صبح جسبيته أضواء الشرق
تدري باله ما يقول البرق مسما بين ثناياه وبينى فـرق
وقال أيضا :

أهوى رشما كل الأمى لى بعثما منذ هابه تصبرى مالبثما
ناديت وقد فكرت فى خلقته سبحاتك ما خلقت هذا عبثما
وقال أيضا :

عسرج بطويلع فلى ثم هوى راقص قصصى عليهم وابك على
واذكر غبىر الغرام واسند إلى قل مات ولم يحظ من الوصول بشى

وقال أيضاً:

روحى لك يا وائراً فى الليل فـدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا
يا مـونس وحدتى إذا الليل هذا
لا أنسفر بعد ذاك صبح أبدا
وقال آخر:

يا شمس ضمى جبينه وضاح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم
ماتوا كمداً وبالهوى ما باحوا
وقال آخر:

أهواه مهفها ثقيل الردف
ما أحسن واو صدغه حين بدت
كالبدر يجل حـته عن وصف
يارب عسى تكون واو العطف
وقال التلعفرى:

قلبي ذهب لبعـدكم راحتـه
بنتم فرئى لما به شامتـه
ما الصبر على بعدكم عادته
لا كان فراقكم ولا ماعته
وقال المنشدى:

إحسانك طول الدهر لا أنساه
إن أبعدك الزمان عنى حسدا
لا أذكر بعد خالقي إلا هو
مولاي خليفتى عليك الله
وقال آخر:

إن جئت ربا الحمى ولاحت لجمـد
قد كنت أناسى الصديق حتى رحلوا
فأذكر ولهى وما جناه البعد
باليتمهم عادوا وعاد الصـد

فصل : فى الفن الرابع وهو الزجل

حمل للغبارى:

قل للغزلان وادى مصر والشام يقصروا ذا النـار
لهم اجعل حشاشى مرعى وفؤادى قنـار

دور:

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود

ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر لويحيون نجل سود
وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقد الأغصان جهار
وذا بدر الكمال ظهر فى الليل وذا شمس النهار

دور:

تدر بالله إيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود

قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود
واتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار
وتخشب تفاحنا الأحمر فوق بياض الحدود
أتم التسفاح وما نقصد منكم إلا الحجار

دور:

وملاح مصر قالت إنا أصحاب الوجوه الملاح

والخلاوة وطيبة الأحلاق فى الخلقت مباح
وفى الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حد صار
دور:

حسن حىى الفراجى فرحه بدر فى السعد لاح

فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح
ومن البیضة قد خرج نافر رد جفنى بنار
دور:

وقع الطل خط بالابيض فى اخضرار الطروس

قم يا ساقى على بساط زهرى تحت ظل العروس
عروس لها صفو النسیم ولطف الممى وإبتهاج الثمار
دور:

خمر فيها سر لو جعل أشیاف رد الاعمى بصیر

اقطع القطف أسود يحاكى الليل شفق أحمر يصیر
وترى النوردا عليه يلعب ذاك من إیش استنار
دور:

فهو عطار عندو وشراب هندى ویرانى جفاه

كل من مص من لسانو ريقو يلتقى فيه شفاء
جبل آس عارضو أمر قلبى والكبار والصغار
دور:

دورونى الملاح على كمى ونصوا نصوص

بلا دعوى التف لف البیر فى هواهم خصوص
والبساط انطوى وحين مارأوا خلف له همه ولو اصطبار
دور:

لحیى ثغر من جوهر والشقیفات عقیق

وعوارض ما ضرهم عارض غیر نبات الشقیق
يحرص الورد خال عنبیر تحت أهداب غزار
دور:

فى ریاض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف

كيف لا ترقص والنسیم بها موصول وورقها دفوف
واعجب من النهر إذا صفق لو من الموج كفوف

والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أهلى مطار
باختلاف الألحان سحر فى الروض صاح على عود وطار
دور:

أشرف الخلق بين الإسلام والهندى والضلال

والشرايع والحق والباطل والحرام والخلال
ننى من بين أصابعه تحقيق نبع الماء الزلال
ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد البحار
والخلايق تكتب مديحوته كل كاتب وحرار
دور:

خلف أستاذ فى الفن ما ينطق ذاق عداء المتون

ما يعبىو فى الفن غير ناقص عقل زايد جنون
شيخ مصدر لبىب قيم فى جميع الفنون
باتضاعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار
وأهل الفنون تحمىرو وما تلحق للغبارى غبار
غيره لناصر الغيطى:
كنز روضى طالبو بسعد ياخليع قم فى دجى الاسحار
تلتقى دو الندى يرهج فوق قصوص غرائب النوار
دور:

كنز روضى نزوة الطالب جوهر وبين الندى يرهج

ولجين الما بيتكرر يا خليع هيا تما اتفرج
بين عنابر تلتقى الخلع كل حد مع إلفو يدرج
وامش فى عرض الرياض وارتع بين اغصان وأطيار فوق
بساط مرمر ذو قصبان كل وردة أحكت لنا دهنار
دور:

وترى الياسمين بحال فضه ضربت لأهل النزه صلبان

والشحارير لابسين أمود وقلانس كنهم رهبان
وكذا الكتاب وهو أصفر بعماتم زرق للناس بان
والمجلى بين القسوس فى الحان وعلينا دارها الخمار
والقطيع الراهى يحكى لشماس لابس الزنار
دور:

الفراق نار والوصال جنة والخلاتق بعضهم يشق

دا حبيب قلبو عليه راضى ودا محبوبو عليه يشق
ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشق
والمليح عندى وأنا مطمئن وسط روضا زهر لها معطار فى
نعيم مع حور ومع ولدان والعذول مسكين صبح فى نار
دور:

وعمل فى الروض سماع باكر بين الاغصان والزهور أنغام

والنسيم شبب والتقدير صفق والخليع من كتر وجدو هام
والنخيل باكماتها ترقص وأقبل الريحان بحال أعصام
والمصافير شيخهم ريق لو طريق بين الأزاهر طار
والبلبل بالغنا يشجى فكانوا ناي أو مزمار
دور ناصر الغيطى:

يا خلأيا صحبت إنسان أكرر الصحة وعادانى

وبغضى حين بقيت مسمى والإله بالفضل أسمانى
فى بلاد قبلى وأرض الشام يشكرونى ساير أقرانى
والشجيع الشاطر المذكور فى جميع الأرض لو تذكر
والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شىء مع الشطار

جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر
وعليه قد دب بالسرقة جيت لطرفو قلت يا كسلان
بعد حين نظرت في خدو النقى العارض وهو داير
هكذا في عادة الحراس قال لى اعذرني أما نعتان
دور:

بدر شعبان ميتى لما فى بروج السعد لاح نجمو
قلت لو دام الله اطلاقك فالجزين قلبو المشوم قسمو
قلت لو أقضى بفيض دمعى أطلقوا واجراء على رسمو
قال قد أذنب حين قطرتو دا يمسغلط قول بالبهتان
دور:

حين تدبح احمرار خدو ياخضرار العارض أسبانى
ضحك فابيض وابتم واسوداد شعرى وأيكانى
وحين أضحت باصفرار لونى اثلثت أغبر فى هوا عانى
ذقت تبريح الغرام ناديت فى هواك ذقت الهوان ألوان
دور:

قلت لو حين عنى تخلف لله كن لى يا رشيد مهدي
قد تلون دمعى من بعدك وتجرى اليوم على خدى دار
إلى إنسان مقلتى قال لو أنت من عندك نظر بعدى
ما ترى ما قد جرى منك على الحدود قال يا فتان
دور:

ذا الغزال النافر الانسى للغزالة قد أعار النور
كسر قلبى كسير جفتو فاعجبوا للكاسر المكور
ويخمر الدن قد عربرد وادعى أنى أنا المخمور
وابتم لى عن نقا ثغرو وخطر والبشر فىا بان
للصنى الحلى:

أنت يا قـــــــــــــــــبلة الكرام
الله يعطيك فـــــــــوق ذا المقـــــــــام
زينبة المال والسبــــــــــــــــين
ويعــــــــــــــــيدك على السنين
دور:

أنت يا شاما بين الأنام الله يحرس شعابك
ويزيذك بالدوام كى نعيش فى فواضلك
ما ينطوى ذكر الكرام لم تنشر فضابك
ونهنك لكل عام والخلائق تقسول آمين
دور:

ما رأيتنا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم
كل من جا ليلالك ليش تقول له سوى نعم
أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت فى الجود كالغمام وسماك فوق مباردين
دور:

لا عدنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا
كل ليلة ولك يوم ينشبر الذكر والشنا

دور:

حتى تقضى ذا الصيام ويليه باقى الحنين
غيره :

خال عبد الرحيم نقطة حبر من غير قاف ولا م
شال المعد فوق راسو عين ولا م وميم
مليح ما رايت مثله ظا ويا ويا
ذقت من صدد حى غين وصاد وصاد
النرم من جفون عيني خا ولا م وصاد
قلت يوم لمن كان لى سين ونون ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال
جمل في اللفاز: (المظلم في العين):

وما طير أكلوا الحجر يا كرام
ولس الحسير يؤذيه ورش النعام
دور في الراج:

وما بحر ما هو ما وفي الليل يزيد
وقيه شيء صفات حية لا وكر استفيد
بلا شك ينظره القريب والبعيد
يخيب في النهار لكن إذا جا الظلام
وسهر بحال عاشق حليف الغرام
دور في جوة الكنافة:

وما هي التي تركب على ستمين ألف
مليحة وقصيفة وتلبس ترف
لها عشرة أعران حالهم مختلف
لها فحل يخدمها عليه السلام
وأكثر تعبها في ليالي الصيام
دور في الغريال:

وما هو الذي يا سعد كله عيون
وهو بين خشب مصلوب لتلك القنون
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون
وكم من رقيص في صنمته باهتمام
ويحتاج له الناس كل يوم في الدوام

وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

وميم نغم معشوقى الفتان نون وعين وميم
دلالى قد هوا قلبي صداد ويا ويا
ما أحلاه عندهما يلبس كاف ويا ويا
ولما رأيت صبرى نون وقاف وصاد
وأصبحت وجود فكري عين ودال وميم
أصلد في النوى صبرو نون وفا ودال
ما أنلم قط يا ناس من ظا ولا م وميم

وجوهه حبابه يفسد أهل الصلاح
يصول بين جناحين مود كبيض الصفاح

وينقص ولا هو خسوس ولا هو غريق
لها جواهره في فمها يا رفيق
ويخفي ويظهر كل يوم عن حقيق
تشوفو يضئ بين الوجوه الصباح
قتيل الهوى بين الربا والبطاح

وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
وتحمل وتوضع كل يوم فى السعير
يشيلو أودعا الكبير والصغير
يحادى سراها فى المني والروح
وذا اللغز قلته ومن غير مزاح

ولا يعلم ضوء الظلام والضياء
وميت وهو يحيى أصول الحيا
ولا حد يعرض مرضعه لوعيا
مكابد عجاجه فى المساء والصباح
على شان فنونه دول فنون ملاح

الفن الخامس فى المواليا

وله وزن واحد وأربع قوافى فمن تلك الأربعة واحد لصفى الدين الحلى:

يا طماع الخليل والأبطال قد غارت
وماطل السحب من كفيك قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت
وقال أيضاً:

سل مقتليك الكحال عمن سلاسلها
وعارضيك التى مدت سلاسلها
ومرشنيك من رشف منها سلاسلها
وقال آخر:

قصد أوعدونا الغضابا أننا نخلو
والطل من فسوقنا قد بلنا نخلو
ومن كلام الأعادى قط ما نخلو
وقال آخر:

قسماً وبالله مفرقها وجامعها
لو حل مع بثيتى عايد وجامعها
ومن اثنين واثنين قال آخر:

قوم اسقنى ما تبقى فى إباريقو
مع شادان كلما دار شنفاريقه
أما ترى الصبح قد لاحت إباريقو
سقى المداما وإن عزت سقى ريقو
وقال:

البارحة رأيت بعينى فى الدجاجيين
ناديتهم فين كتم يا خفاجيين
اثنين مثل البدورة فى الدجى جيين
قالوا لمن قد وعدنا فى الخفاجيين
وقال:

قد زدت هجرك فجد بالعفو عن صبك
يكفيك بهجير تكدر قلب من حبك
أرحم خفسوعى وخف فى قتلتى ريك
ما ظن فى الناس أقسى قلب من قلبك
غيره غمرى عاطل:

كساس الطلا لطلاها طلال لما سر
مندان لو طعم كله حلو ما هو مر
وصار لما حوى حمراء مكلل در
ما حل مملوك إلا صار ملك حر
غيره حروبى:

لك يا إمام الرغبا فى كل موقع حرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب
سماع يطرب له السماع وينفى الكرب
سيوف تنفى وكفك لا يحمل الضرب
الصفى الحلى فى المدح:

أغنت وأقتت كنفوفك فى الندى والحرب
وفيض جودك ومسيقك بالعطا والضرب
فى القرب والبعد من شرقتها والغرب
ذا الكرب فخرج وهذا قد رمى فى الكرب
وقال أيضاً:

من قال جودة كنفوك والحبيا مثلين
ما جذت إلا وتغرك مبيتهم يارين
وقال فى التهنئة:

رأيت العبيد أول يوم فى عصرك
وديت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك
فى المعاتبة:

عن تمليت وأصيف الجسفا مليت
لما تمليت بالأعمال لى مليت
وقال أيضاً:

يا قلب إن غدورا فاغدر وإن خاناوا
فلن وإن قريبا فاقرب وإن بانوا
وقال آخر:

حلف عليا جكاره أن يقاطعنى
كم ذا يصعد وكم يرجع يصعدنى
وقال آخر هجواً:

قطع قفا ابن أخت خالك وابن أخو عمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك
وقال آخر:

إن ردت سلم بطول الدهر ما تبرح
ولستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح
وقال آخر:

إن كنت عساقل وريك بالثقى برك
وإن تعدى حمودك والحمد ضرر
وقال آخر:

يا قلب إن خانتك المحبوب لا تدبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر

الفن السادس كان وكان:

وله وزن واحد وقافية واحدة ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى فتمت هذه الوعظيات:

ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار
لينك على ذى الحسالة تقلع عن الإصرار
فكيف يا متخلف محسب من الحصار

يا قاسى القلب مالك تستمع وما عندك خبر
أفانيت مالك وحالك فى كل ما لا ينفعك
لحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشغل

ويحك تنبه يا فتى وافهم مقالى واستمع
يحصى دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه
تلوت قسولى ونصحي لمن تدبر واستمع
وقال أيضاً:

صرح بذكر المحبة ما فى المعنى فائدة
ودع حديث العوازل ليس الخبر مثل النظر
من أين للبدر حسن يحكيه أو شمس الضحى
إن غبت فهو أنيس وإن حضرت نديى
فمنه روى وراعى إذا سكرت وراحتى
قولوا لمن يلحانى فى الحب قصر واعتبر
الصفى الحلى:

شاهدت فى الليل طيرى وقمت حتى أنصب شرك
طيرى الذى كان إلفى لو ردت مثله ما حصل
قد كان شرطى وخلقى لبرج غيرى ما عرف
من قبل ما أبصص له يجرى ويدخل قصورى
وقال آخر:

ما ذقت عمرى جرعة أمر من طعم الهوى
الناس تعلم منى حال الجلالة والقوى
لى حب مثل الخوخة لو لون وطعم وريحة
أنا عرفتو حظى وكل ما أحسن لويسى
وله فى الفراقيات:

يا سادة هجرونى وهم نزول بخاطرى
أو حشمت العين منى وأنسكم فى خاطرى
قد انتهى الصبر منى وما بقى فيما رمى
لم يبق غير خيالى يلوح كالشبح الخفى
ودعتمونى وسرتم والقلب يتبع ركبكم
ما مر ما ريت ضدى يقول لى من فرحته
لو لم أسل روى وأرض نفسى باللى
وقفت لمارحلتى حيران بين أظعانكم
طول الليالى أساهر كنى أريد الكيمياء
ما أطول ليالى جفاكم ساعتهب مثل العنة

ففى المجالس محاسن تحجب عن الأبصار
وكيف تعزب عنه غوامض الأسرار
ما فى النصيحة فضيحة كلا ولا إنكار

وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
أنا عاشق لحبيب كل المعانى فيه
حاشا لذاك المحيا من مشبه يحكيه
وإن شربت مدامى فالكأس هو ساقبه
وفيه عزى وذلى يهيجتى أفسديه
هذا الذى قد عشقته قد حار وصفى فيه

ما كل صيد يحصل يفرح الصياد
وهو على معبود وأنا عليه معتاد
كأننا فى الصحبة جينا على ميعاد
أنا أرصده فى مطاره خائف عليه ينصاد

الله يصبر قلبى على الذى يهواه
وما أطيق التجلد على أليم جفاه
ما أكثر مغايب حبيبى وما أقبل وفاه
لو كنت أعشقت ظلى ما كنت قط أراه

لا أوحش الله منكم فى سائر الأوقات
والقلب فى النور منكم والعين فى ظلمات
هيهات إلى أحياء من بعدكم هيهات
أعد بين الأحياء وأنا مع الأصوات
إيش ضر لو كان جسمى من جملة التبعات
هنا تشق المرأير وتسكب العبيرات
لكان قلبى تقطع من بعدكم حشرات
أخفف جناح الملة وأرفع الأصوات
أقطر الدموع منى وأصد الزفرات
وما أقصر أيام وصلى كأنها ساعات

وسيسببنا الأعداء تبدلت حينات
كذا العبيد تنابع أوامر السادات
والدهر من عاداته يقلب الحسابات

مالي أرى حناتي بالسببنا تبدلت
خالفتموني وعمري ماوت أتبع أمركم
أسكت وأصبر عنكمو ويفعل الله ما يشا

الفن السابع فى فن القوما:

قيل أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر والصحيح أنه مخترع من قبله. وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليحريه على مفروضه، فتعذر عليه ذلك، فصر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المحررين ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة إليه وطرب له، فكان أول ما قاله قوله:

لك بالكرم عادات
تعميش أبويا مسات

يا سبيد السادات
وأنا بنى ابن نقطة

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار، فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعف ما كان لأبيه.

ومنها للصفى الحلى:

ووصل بيض الخ
وقد جلس فى الص
ورام لزوم الص
من بينهم م
من عاتق م
يرى جمال الج
وجوه مثل الج
وغربها فى الص
بين الظب وال
خيامهم والخ
مثل الكواكب تدور
يقضى بضيق الص
أنا على يسكم أدور
من بينهم م

من كان يهوى الب
بالبيض والصف
من حب بيض الخ
يسمع وإلا فب
كم بين سجع الخ
يسرعى الكواكب تعملو
بين الحلل والخ
إشراقها فى المحاجر
قد كنت فوق الص
فصرت أحسد من أ
نوابب المنق
من بعد طيب الخ
غيبىرى يلازم الص
واصطفى الص

وقال أيضاً:

يريد جلد ص
يبقى من أهل الق
يحظى برفق الس
يمحى من الدس
أموال مثل الج

حال الهوى مسخ
يصون مسره وإلا
من كان هواه م
ومن هتك سر ح
أبذل لبنيض الن

إن أردت تملك وتظف
قم فـاـهـلـك المـلـحـمـور
تريد هـلـى المـلـحـمـور
كم حـلـلـك الخـمـور
مـلـلـك الدـوـالـيـب تـجـمـر
من يـرـكـب المـلـحـمـور
يـظـفـر بـحـبـبـه ويـلـغ
كـن بـالـهـمـور مـمـر
واجـمـل تـراب أـعـتـابـهـم
طـرق المـلـحـمـور
من فـلـتـك يـض السـوـالـف
كم عـاشـق مـذـمـور
يـفـلـس قـلـبـهـم ولـكـن
كم بـيـنـهـم يـعـفـفـور
من أهـل بـدر فـلـدـيـتـه

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليحمر بعض الخلفاء في رمضان:

لا زال مـمـلـك جـمـيـد
ولا بـرـحـت مـهـنـى
فـى السـدـر أـنت الفـسـفـسـر
والـخـلـق شـمـمـر مـنـقـح
يـا مـن جـنـابـه شـمـمـد
ومـن يـلـاقـى الشـمـمـد
لا زلت فـى تـأـيـيـد
ولا بـرـحـت مـهـنـى
نـحـن لـذـكـرـك نـشـمـد
وتـبـعـث أوصـاف مـدـحـك
ظـلـك عـلـيـنا مـمـد
وكم غـمـمـرت بـفـضـلـك
لا زلت فـى كـل عـمـد
عـمـمـرك طـوـيـل وقـلـدرك

ولـداتـهـم والـخـمـور
وفـى المـطـا لا تـجـمـور
قـلـوب مـلـلـك المـلـحـمـور
مـن عـاشـق مـذـمـور
دـمـوعـهـا وتـدـور
هـو فـى الـهـمـور مـمـد
قـصـصـهـم ويـوفـى النـمـور
ولا تـبـيـت مـمـفـرور
لـاجـنـفـان عـيـنـك درور
كـم بـيـنـهـا مـمـد
عـلـى مـسـوـاد الشـمـمـور
فـى حـب بـيـض الشـمـمـور
مـدـامـعـه مـا تـغـور
كـالـظـبـى أـتـس نـفـور
إـش مـا عـمـل مـمـفـور

دائم وجدك مـمـيـد
بـكـل صـمـوم وعـيـد
وفـى صـفـاتـك وـحـيـد
وأنت بـيـت القـصـمـيـد
ولـطـف رآيـه مـمـد
بـقـلـب مـلـلـك الخـمـور
فـى الصـمـوم والتـمـيـد
بـكـل عـمـام جـمـمـيـد
بـقـولـنا والنـشـمـيـد
عـلـى خـمـيـسـول الجـمـر
مـا فـسـوق جـودك مـزـيـد
قـرـيـنا والبـسـمـيـد
تـحـظـى بـجـد مـمـيـد
وافـر وظـلـك مـمـد

وظل جـودك مـديـد
 كما يوقى الولـيـد
 على أقل العـيـد
 منا كـحـبـل الـورـيـد
 دائم وبـاسـك شـديـد
 في صـوم فـطـر وعـيـد

فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول: فى النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء». وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوار عندكم». وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً وأرخصهن مهراً فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب فى ذات الدين وأن يختار الحسب والشرف».

كما حكى أن نوح بن مريم قاضى مرو أراد أن يزوج ابنته، فاستشار جارا له مجوسياً، فقال: سبحان الله يستفتونك وأنت تستفتينى! قال: لا بد أن تشير على: قال: إن رئيسنا كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين، فانظر أنت بأيهم تقتدى. وقال رجل للحسن: إن لى ابنة فمن ترى أن أزوجها له؟ قال: زوجها عن يتقى الله عز وجل، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة. فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوها إياها، ويستحب أن يختار البكر لقوله ﷺ: «عليكم بالابكار فإنهن أطيب أفواهاً وأتقى أرحاماً» وقالوا: أشهى المطى مالم يركب وأحب اللألى ما لم يتقب، وأشد بعضهم:

أشهى المطى إلى مالم يركب
نظمت وحسبة لؤلؤ لم تشقب

قالوا تكحت صغيرة فأجبتهم
كم بين حبة لؤلؤ مشقوية
فاجابته امرأة:

حتى تذلل بالزمام وتركبها
حتى يؤلف بالنظام ويشقبها

إن المطى لا يلذ ركوبها
والسدر ليس ينافع أربابها

قال خالد بن صفوان^(١):

بذات الشبا الغسرة والأعين النجل

عليك إذا ما كنت فى الناس ناكحاً

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام فى التزويج، فقال له: سل سليمان وأخبرنى بجوابه، فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكباً نصبة فسأله فقال: عليك بالذهب الأحمر أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضربك. فلم يفهم الرجل ذلك، فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة، ومن وراءهما كالفرس الجموح. وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم»، وقال ﷺ: «انظر فى أى شئ تضع ولدك، فإن العرق دساس». وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وإياكم وخضراء الدمن». قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء فى المنيب السوء، وأشدوا فيه:

وامسال عن الغصن وعن مشبته

إذا تزوجت فكن حساذقاً

وقال بعضهم:

وأول حيث القوم حيث المناكح

وأول حيث الماء حيث ترابه

(١) خالد بن صفوان: هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأعمش التميمى المقرئ البصرى أحد فصحاء العرب، ومن مشاهير الأخيارين، وله أخبار فى البخل، كان يجالس عمر بن عبد العزيز، وعشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالبصرة، وكان أبى أهلها مالاً، ولم يتزوج، له كلمات سائرة، ومن كلامه عندما سئل: أى إخوانك أحب إليك؟ قال: الذى يقصر رلى، ويقل على، ويسد خللى، عاش إلى أن أدرك أخفة السباح العباسى وحظى عنه، وكان لقصافته أكثر الناس على مدح الشئ، وذمه، توفى بعد أن كف بصره سنة (نحو ١٣٣ هـ - نحو ٧٥٠ م).

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العشاء فإن اللبن يهدى». وقيل: إن جعفر بن سليمان بن عليّ عاب يوماً على أولاده، وأنهم ليسوا كما يجب، فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عدت إلى فاسقات مكة والمدينة وإمام الحجاز فأرغبت فيهن تنطق ثم تريد أن يتجنبن، وإنما نحن كصاحبات الحجاز فهلفعلت في ذلك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها، فزوجهها منك، وأنشدوا:

صفتُ من يستحب الشرع خطبتهَا
صبيّة ذات دين رائه أدبُ
غريبة لم تكن من أهل خطبها
فبيها أحاديث جادت وهي ثابتة
وقال آخر:

مطيّات السرور فريقت عشير
فإن جزت المسير فسرّ قليلاً
وقال آخر:

فليأذك وإياك العجوز ووطأها
فمما هو إلّا مثلُ سمّ الأراقم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لاتسكن النفس إلى عشرينها ولا تفرّ العيون برؤيتها. وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفهية تهدمه.

وروي أنه لما حضّر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومعه بنو هاشم وروساء مضر، خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته وموأسى حرمة، وجعل لنا بيتاً محبوباً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكماء على الناس، ثم إن محمداً بن عبد الله ابن أخي من لا يورث به رجل من قرين إلا رجح به برأ وفضلاً وكراً ومجداً ونبلاً، فإن كان في المال قلٌّ، فاللّ ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وأجله من مالى كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمرو بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم ياس وأجابته إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخولها بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفه وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة ليكون لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشرأ يكن لك ذخراً، فأما الأولى والثانية: فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهية، وتغيص النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله والإرعاء على حشمه وعياله، وأما التاسعة والعاشر: فلا تعص له أمراً، ولا تفش له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمن غدره، وإياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. فقبلت وصية أمها، فأنجبت وولدت له الحرث ابن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدي الطائي عن الشعبي قال: لقيتني شريح، فقال لي: يا شعبي عليك نساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولاً، فقلت: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهر، فمررت بدورهن وإذا أمابجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كآحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت إليها، واستقيت وما بى عطش. فقلت لي: أي الشواب أحب إليك؟ قلت ماتير قالت: ويحك يا جارية اتيني بلبن، فإني أظن الرجل غريباً، فقلت للمعجوز: ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت: هي ريس بنت جبرئيل إحدى نساء بني حنظلة. قلت: هي قارعة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة.

(١) شريح: هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي قاضي الكوفة، ويقال: شريح بن شراحيل، وابن شراحيل، ويقال: هو من أبناء الفرس الذين كانوا باليمن. يقال: له صبة، ولم يصح، بل هو بن أسلم في حياة النبي ﷺ وانتقل من اليمن زمن الصديق مات سنة (٦٧٨هـ).

قلت: أتزوجينها؟ قالت: إن كنت كفوا -ولم تقل كفوا- وهي بلغة بنى تميم- فتركناها ومضيت إلى منزلي لأقيل فيه، فامتعت منى الغائلة، فلما صليت الظهر أدخلت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة والأسود والمسيب، ومضيت أريد عمها، فاستقبلنا وقال: ما شأنك أبا أمية؟ قلت: ربيب ابنه أخيك قال: ما بها عنك رغبة، فزوجنيها، فلما صارت في حبالى ندمت وقلت أى شيء صنعت ينسأه بنى تميم، وذكررت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أدخل بها، فإن رأيت ما أحب -وإلا كان ذلك- فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهينتها حتى أدخلت على. فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلى ركعتين. ويسأل الله تعالى من خيرها ويتعوذ من شرها. فتوضأت: فإذا هي توضأ بوضوئى وصليت فإذا هي تصلى بصلاتي، فلما قضيت صلاتي أثنيت جواربها فأخذت ثيابي والبستني ملحفة قد صبغت بالزعفران فلما خلا البيت دنوت منها، فعددت يدي إلى ناصيتها، فقالت: على وسلك أبا أمية. ثم قالت: الحمد لله أحمدته واستيعته، وأصلى على محمد وآله، أما بعد، فإني امرأة غريبة لا علم لى بأخلاقك فينبى لى ما تحب فأتيه، وما تكره فأجتبه، فإنه قد كان لك منكح في قومك ولى في قومي مثل ذلك، ولكن إذا قضى الله أمركا كان مفعولاً، وقد ملكك، فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إنا إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين. قال: فأحوجتني وآله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمدته واستيعته، وأصلى وأسلم على محمد وآله أما بعد، فإني قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك حقاً لى، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، وما رأيت من حسنة فأبشيتها، وما رأيت من سيئة فاستريتها. فقالت: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملئ أصحابى. قالت: فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه، قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة، ومكثت معى حولا لا أرى منها إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، وإذا أنا بعبور فى الدار تأمر وتنهى. وقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أم حليلتك، قلت: مرحباً وأهلاً وسهلاً، فلما جلست أقبلت المعجوز، فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً قالت: كيف رأيت زوجتك قلت: خير زوجة وأوفى قرينة لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضة فأحسنت الرياضة، فجزاك الله خيراً، فقالت: أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها فى حالتين قلت: وما هما: قالت: إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن أمة مريب فعليك بالسوط، فوالله ما حار الرجال فى بيوتهم أثر من الروعاء المدللة، فقلت: والله لقد أدبت، فأحسنت الأدب، وريضة فأحسنت الرياضة، قالت: كيف تحب أن يزورك أصحابك؟ قلت: ما شاموا، فكانت تأتيانى فى رأس كل حول فتوصينى بتلك الوصية، فمكثت معى ياشعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيئاً. وكان لى جار من كندة يفرع امرأته ويضربها، فقلت فى ذلك:

رأيت رجلاً لا يضربون نساءهم	فشلت يميني يوم تضرب ربيب
أضربها من غير ذنب أثت به	فما العدل منى ضرب من ليس يذنب
فزيب شمس والنساء كسواكب	إذا طلعت لم يبد منها كسوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية، فأجابه إلى ذلك، وحملها إلى العراق، فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق، فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة. ومعه الناس. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد: لكنت أئت لا مرحباً بك ولا أهلاً. قال: مهلاً يا ابن أختى، فقلت أهلاً لهذه المقالة منك، قال: بلى، والله وبشر منها، قال: وفيهم ذلك؟ قال: لأنك عدمت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة نساء بنى عبد مناف. فعرضتها لعبد ثقيف يتخذها بتخذ. قال: وفى هذا عتبت على يا ابن أختى؟ قال: نعم فقال عبد الله: وآله ما أحق الناس أن لا يلومنى فى هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمتى ويعفون حقى، وإنيك وأباك متعتمانى فعدكما حتى ركبني الدين أما وآله لو أن عبداً حبشياً مজেداً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه إنما قدبت بها رقيبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنه ومضى حتى دخل على عبد الملك، فقال: ما لك يا أبا عباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بنى عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيرة، فكتب إلى الحجاج

يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل، قال: ولم يكن قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا ومازالوا أصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتي عليه الحول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكى أن المخيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عميةا مترهبة، فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جئت لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تشرف في محافل العرب، فتقول: تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأى خير في اجتماع عميةا وأور. وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً وأبرهم بوالديه. فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً. فثقل ذلك على أبيه، فمر به أبو بكر يوماً، وهو في غرفة له، فقال: يا بني إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك، فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك، قال: أقسمت عليك إلا ما طلقته، فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها، فجزع عليها جزعاً شديداً، وامتنع عن الطعام والشراب، فقبل لأبي بكر: أهلك عبد الرحمن، فمر به يوماً، وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس يقول هذه الآيات:

فَوَاللَّهِ لَا أَنَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقُ
وَمَا نَاحَ قَمَرِي الْخَمَامُ الْمَطْوِقُ
فَلَمْ أَرْ مِثْلِي طَلَّقَ الْيَوْمَ مِثْلَهَا
وَلَا مِثْلَهَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ يَطْلُقُ
لَهَا خَلْقٌ صَفٌّ وَدِينٌ وَمَحْتَدٌ
وَخَلَقٌ سَوَى فِي الْحَمِيمِ وَمَنْطِقُ

فسمعه أبوه فرق له وقال له: راجعها يا بني، فراجعها، وأقامت عنده حتى قتل يوم الطائف مع رسول الله ﷺ أصابه سهم فقتله، فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فَالْكَيْتُ لِاتْنَفِكُ نَفْسِي حَزِينَةً
عَلَيْكَ وَلَا يَنْفِكُ جُلْدِي أَغْصَبَراً
فَتَى طَوَّلَ صَمْرِي مَا أَرَى مِثْلَهُ فَتَى
أَكْرَ وَأَحْمَى فِي الْهَيْجِ وَأَصْبَراً
إِذَا شَرَعَتْ فِي الْأَمْنَةِ خَافِضُهَا
إِلَى الْقَرْنِ حَتَّى يَشْرَكَ الرَّمْعَ أَحْمَراً

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه في خلافته، ودعا الناس إلى وليته، فأثروا، فلما فرغ من الطعام، وخرج الناس قال له علي بن أبي طالب رضى الله عنه: يا أمير المؤمنين ائذن لي في كلام عاتكة حتى أهنئها، وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة، فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح، فائذن له يا أمير المؤمنين، فأذن له، فرفع جانب الحدر. فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق، فقال لها يا عاتكة: ألسن القائلة:

فَالْكَيْتُ لِاتْنَفِكُ نَفْسِي حَزِينَةً
عَلَيْكَ وَلَا يَنْفِكُ جُلْدِي أَغْصَبَراً

وقيل: إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام، وكان رجلاً غيوراً، وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها، فشق ذلك عليه، وكان يكره أن ينهأها عن الخروج إلى الصلاة لحديث رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه، فضرب يده عجزيتها ثم اتصرف، فقعذت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد، وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس وما بهم من بأس، وأما الآن فلا. ثم قُتِلَ عنها الزبير قتلته عمرو بن جرهمود بوادي السباع وهو نائم، ثم تزوجها بعده محمد بن أبي بكر، فقتل عنها بمصر، فقالت: لا أتزوج بعده أبداً إلى لأحسبني أني لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكى عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أتري أخطب إلى أحد فيودنى. قال: نعم، قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي، قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده، فوجئناه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت

خاطباً. قال: لست هناك، فأنصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً، فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك، فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال: ذلك سيد العرب الحارث بن عوف، فقالت: فمالك لاستترله؟ قال: إنه استهجنني. قالت: وكيف؟ قال: لأنه جامني خاطباً. قالت: ألست تزعم أنه سيد العرب. قال: نعم. قالت: إذا لم تزوج سيد العرب في رمانه. فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدارك ما كان منك، قال: فيماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف، وقد فرط مني إليه ما فرط، قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر، فلك المعذرة فيما فرط مني، فارجع ولك عندي كل ما طلبت، قال: فركب في أثرهما، قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني الصفات فرأيت. فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا، فقال: ما أضعب به، فلما رأنا لائقف قال: يا حارث أربع على. فوقفتا له. وكلمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً، قال خارجة بن سنان: فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلاة أكبر بناته. فأتته. فقال لها: أرى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جامني خاطباً. وقد أردت أن أزوجك منه. فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأنني في خلقي رداءة وفي لساني حدة. ولست بابنة عمه، فيراعي رحمى ولا هو بجارك في البلد فيستحي منك. ولأمان أن يرى مني ما يكره، فيظلمني، فيكون عليّ بذلك مسبة، قال لها: قومي ببارك الله فيك، ثم دعا ابنته الأخرى، فقال لها مثل قوله لاختها، فأجابته بمثل جوابها، فقال لها: قومي ببارك الله فيك. ثم دعا بالثالثة، وكانت أصغرهن سناً، فقال لها مثلما قال لاختها، فقالت له: أنت وذاك. فقال لها: إني عرضت ذلك على أخيتك، فأبته، ولم يذكر لها مقالتهما، فقالت: والله إني الجميلة وجهاً، الرفيعة خلقاً، الحسنة رأياً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه فقال لها: بارك الله فيك ثم خرج إليه فقال لزوجتك يا حارث بابتي هنية، قال: قد قبلت نكاحها، وأمرأها أن تهينها له، وتصلح شأنها، ثم أمر بيت فصر به، وأنزله إليه، ثم بعثها إليه، فلما دخلت عليه لبث هنية ثم خرج إلى، فقلت له: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت له: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه أعتد أبي وأخوتي هذا، والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معاً وسرنا ما شاء الله. ثم قال لي: تقدم، فتقدمت، فعدلت عن الطريق، فما لبث أن لحقني، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت ولم؟ قال: قالت تفعل بي كما يفعل بالامة السيئة الاخيلة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم وتدعو العرب وتعمل سا يعمل مثلك لثلى، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، فقال: صدقت. قال: وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة، فوردنا إلى بلادنا، فأحضرنا الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلى، فقلت: أفرغت من شأنك، قال: لا والله. قلت: ولم ذاك؟ قال: دخلت عليها أريدتها، فقلت لها أحضرت من المال ما تريد، قالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك، قلت: ولم ذاك؟ قالت: أنتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً، فكان ذلك في أيام قيس وذيبيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: أخرج إلى القوم، فاصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك قلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً، قال: فآخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهما الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير، فأنصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها، فقالت له: أما الآن، فنعيم، فأقامت عنده في الد عيش وأطيبه، وولدت له بنين وبنات وكان من أمرهما ما كان، والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال: حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بني سعد مرث به جارية لامية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال، وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك، ثم أتبعها رسولاً يسألها ألها زوج ويذكرها لها وكان جميلاً، فقالت للرسول وما حرفته، فأبلغه الرسول ذلك، فقال: ارجع إليها وقل لها:

وسائلة ما حرفة قلت حرفتي	مقارعة الأبطال في كل شارق
إذا عرضت خليل لحليل رأيته	أمام رعييل الحليل أحصى حفاقي
أصبر نفسي حين لم أر صابراً	علي ألم البيض الرقاق البوارق

فلحقها الرسول، فأنشدها ما قال، فقالت له: ارجع إليه، وقل له أنت أسد، فأطلب لك لبوة، فليست من نساك، وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغى جـــــــــــــــــــــواذاً بماله	كريعاً محبباًه كثير الصدقات
فنى همه مذ كان خسود خريدة	يعانقها في الليل فوق النمارق

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن عبد الحكم عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوى الرجلان رجل صحيحة وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

ثم تعود وتقول:

وما يستوى السوبان ثوب به البلى وثوب بأيدى البائعين جديداً

فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يآلفه القسي وحنيننه أبداً لأول منزل

وقال عمرو بن العلاء، وكان أعلم الناس بالنساء:

فإن تملأوني بالنساء فليأتني بصير بأدواء النساء طبيباً

إذا شأب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودّه نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة^(١) عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مؤاساة، والغرائب أنجب، ومضارب رموس الأقران مثل ابن السوداء، وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة، فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية، قال الشاعر:

لا تشتر من امرأة ممن يكون له أم من الروم أم سوداء عجماء

فإنما أمهات القوم أوعية مسودعات وللأنساب آباء

وقال الأصمعي: أتاني رجل من قریش يستشيرني في امرأة يتزوجها، فقلت: يا ابن أخي أقصيرة النب أم طويلة؟ فلم يفهم عني، فقلت: يا ابن أخي، أما القصيرة النب فالتى إذا ذكرت آباها اكتفت به، والطويلة النب فهي التى لا تعرف حتى تظلي في نساءها، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم، فتضيع نيك فيهم. وخرج رجل من أهل الكوفة في غزاة، فكذب جارية وفرساً وكان مملوكاً على ابنة عمه، فكتب إليها يعيها ويقول:

ألا بلّغوا أم البنين بأننا غنيا وأغتننا الغطارفة التجرد

بعميد مناط المشكين إذا جرى ويبضاء كالتمثال زينها العقد

فهذا لأيام العمدو وهذه لحاجة نفسي حين تنصرف الجند

فلما ورد عليها كتابه وقرأه قالت يا غلام: هات الدواء، وكتبت جوابه تقول:

ألا فاقسراً منى السلام وقل له غنيا وأغتننا الغطارفة المرد

إذا شئت أغتاني غلام مزجل ونازعته في ماء معتصر الورد

وإن شاء منهم ناشيء مذ كفه إلى عكن ملء أو كسفل نهدي

فما كتم تقضون حاجة أهلکم شهوداً فتقضوها على النأي والبعد

فما قبل إلينا بالبراج فرائه مناناً ولا ندعو لك الله بالرد

فلا قبل الجند الذى آت فيهم وزادك رب الناس بعدداً على بعد

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الغرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه، فكان أول شيء بدأها به يعد

(١) المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن محب بن مالك بن كعب بن عمرو بن مسعود بن هوف الثقفي، أبو عيسى ويقال: أبو عبد الله، أبو محمد، صحابي، أسلم عام الحندق، وشهد الحديبية وما بعدها وولى العراق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكان من رجال النضر حزناً وداً ودعاءً، يقال له (مغيرة الراي) شهد البصرة وفتح الشام والعراق، كان أول من وضع ديوان البصرة، توفي سنة (٥٠هـ) وقيل (٥١هـ) وقيل (٥٨هـ) والأول أرجح.

السلام أن قال لها: بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك، فقالت له: الله في قلبى أعظم وأجل وأنت في عيني أدل وأحرر من أن أعصى الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة، فوهب لها الجارية، وانصرف إلى الغزاة، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الثانى: فى صفات النساء المحموده

كتب الحجاج إلى الحكيم بن أبوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة فى قومها، ذليلة فى نفسها، مؤاتية لبلعها، فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثدييها، فكتب إليه لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدييها، فتدفع الضجيع، وتروى الرضيع، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لى أحسن النساء؟ قال: خلدها يا أمير المؤمنين لمساء القدمين، ردها الكمين، ناعمة الساقين، ضخمة الركبتين، لفاء الفخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلأ العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العينين، شباه الثغر، محلولة الشعر، غيداء الحنق، مكسرة البطن. فقال: ويحك وأين توجد هذه؟ قال: تجدها فى خالصة العرب وفى خالصة الفرس. وقال حكيم: عليكم بمن تربت فى النعيم ثم أصابتها فاقة فأتى فيها الغنى وأدبها الفقر. وقال رجل لحاطب: ابغ لى امرأة لاتؤنس جواراً ولا توطن داراً، يعنى لاتدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها، وفى مثل هذه قال الشاعر:

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلفٌ
خودٌ من الخفسرات البيض لم يرها

عطاء غامضة الكعين معطار
بأحاة الدار لابلعٌ ولا جار

وقال الأعشى:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جملي
ولم تر الشمس إلا دونها الكلل

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً، وكان هو من أقيح الناس وجهاً، فقال لها يوماً: أنا ولياك فى الجنة إن شاء الله تعالى. فقالت له: وكيف ذلك؟ فقال: لأنى أعطيت مثلك فشكرت وأعطيت مثلى فصبرت، والصابر والشاكر فى الجنة. وقال بعضهم: رأيت فى طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً، فقتعدت أنظر إليها، وأتعجب من جمالها، فجاء شيخ قصير، فأخذ بردانها وسار بها ومضى فلقيتها مرة أخرى، فقلت لها: من هذا الشيخ؟ قالت: زوجى، قلت: كيف يرضى مثلك بمثلها فأنشدت:

أيا عجباً للخود يجرى وشاحها
دمانى إليه أنه ذو قرابة

تزف إلى شيخ بأقبح تمثال
يعجز علينا من بنى العم والحال

وسمع بعضهم قائلًا يقول:

ومن لا يرد مدحى فإن مداحي
نوافق عند المشتري الحمد بالندى

نوافق عند الأكـرومين توامى
نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال: يا ابن أبى ما بلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام؟ قال: كن من أجمل النساء وجوهاً وكان أبوهن إذا زوجهن يسوقهن ومهزهن إلى بعلتهن. فقال: يا ابن أبى لو فعل هذا إليس بيناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون. وقال عبد الملك لابن أبى الرقاع كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم بالناس بهن، وجعل يقول:

قضاعية الكعابين كندية الحشا
لهما حكم لقمان وصووة يوسف

خزاعية الأطراف طائفة الغم
ومتطق دارود وعنفة مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث فى الكن والتضخم بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافى الأديم إذا تحجل يحمر وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم ديباج الوجه، يريدون تلونه من رقته، قال على بن أبى زيد فى وصفه:

حمرة خلط صفرة فى بياض
مئل ما حاك حالك ديباجا

(وقال على بن عبد ربه):

بيضاء يحمر غدها إذا عجلت كما جرى ذهب في صفحتي ورق

وقالوا: إن الجارية الحسناء تلون بتلون الشمس فهي بالضحى بيضاء وبالعشى صفراء فقال ذو الرمة:

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من قسوة ومن ذهب

قالوا: ليس المرأة الجميلة التي تأخذ بصرك جملة على بعد فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التي كلما كررت بصرك فيها زادتك حسناً، وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فاغضبها ثم قع عليها قال الشاعر:

تمن حملن به وهن عواقب حُبك النطاق فعماش غير مهبل

حملت به في ليلة مـزورة كرها وعقد نطاقها لم يحلل

الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام: «إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه». وقيل: المرأة السوء غل يلقيه الله تعالى في عتق من يشاء من عباده. وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء، صف لنا شر النساء؟ فقال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، المحياض، الممراض، المصفرة المشومة، العرة المشومة، السلطة البطورة، النفرة الرعيمة الوثبة، كان لسانها حرية، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أتف في السماء وإست في الماء، عرقوبها حديد، متنفخة الوريد كلامها وعيد، وصوتها شديد، وتلغ الحشرات وتغشى السيثات، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكثت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء تاكل لما، وتوسع ذماً، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها مهزول، وبشها مزيل، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجامع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من رواه، وإن كانت محبة له لاتقلع عن النظر إليه، قال بعضهم:

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قرين السوء باق مـمـمـر

فيآليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذبها فيه نكير ومنكر

وقال زيد بن عمير:

اصاتبها حتى إذا قلت أقلعت أبي الله إلا غزبها فتعمود

فإن طمشت قادت وإن طهرت دنت فهاتيك تزني دائماً وتقرود

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالنتاج المربص بالذهب كلما رآها قرت عينه برويتها، والله أعلم.

الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف ولم أجد واحدة في جميع النساء. وقيل: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمرة عليها أحمال فسأله، فقال: أحمل تمارة وأطلب مشرين، فقال: ما أحدها؟ قال: الجور، قال: ومن يشتريه؟ قال: السلاطين. قال: فما الثاني؟ قال: الحمد. قال: فمن يشتريه؟ قال: العلماء، قال: فما الثالث؟ قال: الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال: التجار. قال: فما الرابع؟ قال: الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال: النساء. وقال حكيم: النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. وقالت الحكماء: لا تمتن بامرأة ولا تغتر بحال، وإن كثر. وقال: النساء حبال الشيطان. قال الشاعر:

تَمَتَّعَ بِهَا مَسَاسًا عَفْثَكَ وَلَا تَكُنْ
وَعَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ تَقَى لَكَ إِنَّهَا
وَإِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللَّيْبَانَ فَإِنَّهَا
وَإِنْ حَلَفْتَ أَنْ لَيْسَ تَقْضِي عَهْدَهَا
وَإِنْ سَكَيْتَ يَوْمَ الْفِرَاقِ دَمْعُوعَهَا
وَقَالَ ابْنُ بَشَّارٍ:

رَأَيْتُ مَبْرَاعِيْدَ النِّسَاءِ كَأَنَّهَا
وَمُتَطَرُ الْمَوْعِدِ مِنْهُنَّ كَالَّذِي

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَمْ تَنْتَ الْمَرْأَةُ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا فَعَلْتَهُ، وَقَالَ الْغَنَوِيُّ:
إِنَّ النِّسَاءَ مَشَى بِنَهْنٍ عَنْ خُلُقٍ فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لِأَبَدٍ مَسْفُوعٍ

وَقَالَ النَّخَعِيُّ: مَنْ اقْتَرَبَ السَّاعَةَ طَاعَةَ النِّسَاءِ، وَيُقَالُ: مَنْ أَطَاعَ عَرَسَهُ فَقَدْ أَضَاعَ نَفْسَهُ، وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعِزُّهُنَّ إِلَى وَهْنٍ، أَكْثَفَ أَبْصَارُهُنَّ بِالْحِجَابِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ غَيْرُ لَهْنٍ مِنَ الْأَرْتِيَابِ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَضَرَّ مِنْ دُخُولِ مَنْ لَا يُوَثِّقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفَنَّ غَيْرُكَ فَاغْفُلْ، قَالَ السَّمْعَانِيُّ:

لَا تَأْمَنْ عَلَى النِّسَاءِ وَلَوْ أَحَدًا
إِنَّ الْأَمِينَ وَإِنْ تَحَفَّظَ جِهْدَهُ

وَقَالَ غَيْرُهُ:

لَا تَرْكَنْ إِلَى النِّسَاءِ
فَرَضَاؤُهُنَّ جَمِيمُهُنَّ

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: لَا تَطْلَعُوا النِّسَاءَ عَلَى حَالٍ، وَلَا تَأْمَنُوهُنَّ عَلَى مَالٍ، وَلَا تَفْرُوهُنَّ إِلَّا لِتَلْبِيْرِ الْعِيَالِ، إِنْ تَرَكْنَ وَمَا يَرِدْنَ أَوْرَدْنَ الْمَهَالِكَ، وَأَفْسَدْنَ الْمَالِكَ، يَنْسِينَ الْخَيْرَ، وَيَحْفَظْنَ الشَّرَّ، يَتَهَافَتْنَ فِي الْبَهْتَانِ، وَيَتَمَادَيْنَ فِي الطَّغْيَانِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ذَلْ مِنْ أَسْنَدِ أَمْرِهِ إِلَى امْرَأَةٍ. وَقِيلَ: إِنْ صَادَا أَمَى أَبُو رِيْزٍ بِسَمَكَةٍ. فَأَعْجَبَهُ حَسَنُهَا وَسَمَنُهَا، فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَخَطَّائِهِ سِيرِينَ رُوحَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَقَالَتْ لَهُ: إِذَا جَاءَكَ فَقُلْ لَهُ أَذْكَرُ كَانَتْ أَمْ أُنْثَى؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ ذَكَرٌ، فَاطْلُبْ مِنْهُ الْأُنْثَى، وَإِنْ قَالَ لَكَ أُنْثَى فَاطْلُبْ مِنْهُ الذَّكَرَ، فَلَمَّا آتَاهُ سَأَلَهُ، فَقَالَ: كَانَتْ أُنْثَى، فَقَالَ: اتَّخَذْتُ بِذِكْرُهَا، فَقَالَ عَمَّرَ اللَّهُ الْمَلِكُ كَانَتْ بِكَرًا لَمْ تَتَزَوَّجْ، فَقَالَ: زَهْ وَأَمَرَ لَهُ بِسَمَكِيَّةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: اكْتَبُوا فِي الْحِكْمَةِ: الْغَدْرُ وَمُطَاوَعَةُ النِّسَاءِ يُؤْدِيَانِ إِلَى الْغَرَمِ الْخَبِيلِ. وَقَالَ حَكِيمٌ: اعْصِ النِّسَاءَ وَهَوَاكَ وَافْعَلْ مَا شِئْتَ. وَقَالَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَكْثَرُوا لَهْنٍ مِنْ قَوْلِ لَا، فَإِنْ نَعَمْ تَفْرِيهِنَّ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، قَالَ: اسْتَعْيِزُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ النِّسَاءِ، وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حُلٍّ.

وَمَا قِيلَ فِي الْبَاءَةِ: ذَكَرَ الْجَمَاعَ عِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: قَالَ هُوَ نُورٌ وَجْهِكَ، وَمِنْ سَائِلِكَ، أَقْبَلْتُ مِنْهُ أَوْ أَكْثَرَ. وَقَالَ مَعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ نَهْمًا فِي النِّسَاءِ إِلَّا عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. وَخَلَا تَمَامُ بِجَارِيَةٍ لَهُ لَفَعِيزٌ عَنْهَا. فَقَالَ: مَا أَوْسَعَ حَرْكَ، فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

أَتَيْتُ الْفِدَاءَ لَنْ قَدْ كَانَ يَلُودُ وَيَشْتَكِي الضَّيْقَ مِنْهُ حِينَ يُلْقَاهُ

وَقَالَ آخَرُ:

شَفَاءُ الْحُبِّ تَقْبِيلُ وَلَسْ
وَرَهْزُ تَذْرِفُ الْعَمَلِيَّاتُ مِنْهُ
وَسَحْبُ بِالْبَطُونِ عَلَى الْبَطُونِ
وَأَحْسَدُ بِالْمَتَاكِبِ وَالْقَسْرُونَ

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة، فسألت عنها، فقيل: هي مع زوجها في القيطن، فسمعت شهيقاً، وشخيراً لم أسمع مثله ثم خرجت إلى وجينها يتصب عرقاً، فقلت لها: ما ظننت حرة تفعل هذا بنفسها، فقالت: إن الحيل تشرب بالصغير. وعابت امرأة زوجها على قلة إتيانها، فأجابها بقول:

أَنَا شَيْخٌ وَلِي امْرَأَةٌ عَجُوزُ
وَقَالَتْ رَقٌّ إِيْرَكَ مَذْ كَبِيرُنَا
تَرَاوَدْنِي عَلَى مَسَا لَا يَجُوزُ
فَقُلْتُ يَلْ قَدْ اتَعَ الْقَفْصِيْزُ

وكان لرجل امرأة تخاصمه وكلما خاصمته قام إليها فواقهها، فقالت: ويحك كلما تخاصمني تأتييني بشفيح لا أقدر على رده. وأتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه وقال: إن لى امرأة كلما غشيته تقول قتلتنى، فقال: اقتلها بهذه الفتلة وعلى إثمها. وقالوا: من قلّ جماعه فهو أصبح بدأ وأنقى جلدأ وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير، وهى أكثرها سفاذاً، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس: فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخى الأصمى قال: قال عمى للرشد فى بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغنى أن رجلاً من العرب طلق فى يوم واحد خمس نساء، قال: وكيف ذلك، وإنما لايجوز للرجل غير أربعة، قال يا أمير المؤمنين: كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهن يوماً، فوجدن متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا النزاع؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلاة لامرأة منهن اذهبى. فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصح. فقال لها: وأنت أيضاً طالق، فقالت له الثالثة: حبك الله، فوالله لقد كانتا إليك محبتين، فقال لها: وأنت أيضاً أيتها الملعنة أباديهما طالق، فقالت الرابعة، وكانت هالاية ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق. فقال لها، وأنت طالق أيضاً، فسمعت جارة له، فاشرفت عليه، وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك، ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نساءك فى ساعة واحدة، فقال لها، وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعينك طالق إن أجازنى بملك، فأجابه زوجها قد أجزت لك ذلك فعجب الرشد من ذلك، وطلق رجل امرأته، فما أرادت الارتحال قال لها: اسمعى وليسمع من حضر إنى والله اعتمدتك برغبة وعاشتك بمحبة ولم أجد منك رلة ولم يدخلنى عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً، فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً فما استغلت خيرك ولا شكوت غيرك ولا تميت غيرك ولا أجد لك فى الرجال شبيهاً وليس لقضاء الله مدفع ولا من حكمه علينا منع. وقال رجل لابن عباس رضى الله تعالى عنهما: ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فبيعها نفسه: قال الهيثم بن عدى: كانت تحت ابن الغراب بن الأسود بنت عم له، فطلقها فبعتها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع، فكتبت إليه تقول:

إِنْ كُنْتُ ذَا حَاجَةٍ فَاسْأَلْ لَهَا بَدَلًا
فَكُتِبَ إِلَيْهَا يَقُولُ:

إِنْ كَانَ ذَا شَيْءٍ فَاللَّهُ يَكْلُوهُ
وَقَدْ قَضَيْنَا مِنْ اسْتَظْرَافِهِ وَطَرًا
فَقَدْ لَهَوْنَا بِهِ وَالْحَبْلُ مَوْصُولُ
وَفِي اللَّيَالِي وَفِي أَيَّامِهَا طُولُ

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ولك عشرة آلاف درهم، قال: آقبضنها، فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات

رسالتك، قال: انتها، فأنشدنا:

أسعدى هل إليك لنا سبيلُ
بلى ولملْ دهرًا أن يواتي
ولاحسنى القيسامة من تلاقٍ
بموتٍ من خليلك أو فسراقٍ

قال، فأتانا أشعب، فاستأذن عليها، فأذنت له، فدخل، فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: ياسيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواربها: عليكن بهذا الخيث فقال: ياسيدتى إنه دفع إلى عشرة آلاف درهم، فهى لك، واعتننى لوجه الله، فقالت: والله لا أحققك أو تبلغ إليه ما أقول لك، قال: ياسيدتى فاجعلنى لى جعلاً قالت: لك بساطى هذا، قال: قروى عنه، فقامت. فآخذته، وألقاه على ظهره، وقال: هاتى رسالتك، فقالت:

أبكي على سعدى وأنت تركتها
فقد ذهبت سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كلمة فقال لأشعب: اختر منى إحدى ثلاث إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر. وإما أن ألقيك إلى هذه البياض فتفترسك، فتجير أشعب وأطرق ملياً ثم قال: يا سيدى ما كنت لتعذب عينا نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلقى سبيله، ومن طلق امرأته فبعتها نفه الفرزدق الشاعر طلق النوار. ثم ندم على طلاقها، وقال:

ندمت ندامة الكسعى لما
فأصبحت الفداة ألوم نفسى
وكانت جثى فخرجت منها
ولو أنى ملكت بهمساً يمينى
غسدت منى مطلقسة نوار
بأمرٍ ليس لى فيه اختيار
كلآدم حين أخرجه الضرار
لكان علىّ للقدر الخيار

ومن طلق امرأته، فبعتها نفسه فندم قيس بن خريح، وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشأ يقول:

فنى صبرى وعساودنى رداعى
تكتفى الوشاة فأزعجوني
فأصبحت الفداة ألوم نفسى
كمفجبون يعضُّ على يديه
وكان فراق لبنى كالأخضاع
فيل للناس للوائى المطاع
على أمرٍ وليس بمستطاع
تبين غيبته عند الببغاء

وحدث العتي قال. جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتى هذه شجنتى فسألها عبد الرحمن، فقالت: نعم يا مولاي غير متعمدة لذلك، كنت أصالح طيباً فوقع الفهر من يدي على رأسه وليس عندي علم ولا يقوى بدنى على القصاص، فقال للرجل: علام تمسكها، وقد فعلت بك ما أرى؟ فقال يامولاي: إن صداقها على أربعة آلاف درهم، ولأطيب نفسى براقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها، قال: نعم، قال: هى لك، قال: فهى إذن طالق. فقال لها عبد الرحمن احبى علينا نفسك، وأنشأ يقول:

يا شيخ يا شيخ من دلائك بالفزل
رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها
قد كنت يا شيخ عن هذا بمعزل
فاعدت لنفسك نحو القرح والذل

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها

قد أنزل الله تعالى فى الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فكان من المسلمين من شارب، ومن تارك إلى أن شرب رجل، فدخل فى الصلاة فهجر، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضى الله تعالى عنه، فأخذ بلحى بعير وشج به رأس عبد الرحمن ابن عوف، ثم قعد بنوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكـائن بالقلـيب قـليب بدر	من الفـتـيان والعـرب الكـرام
أيوـعدنى ابن كـبشة أن سـحيا	وكـيف حـياة أصـداء وهـام
أيوـجـز أن يرـد الموت عـنى	ويـنشـرنى إذا بـليت عـظامى
ألا من مـبلغ الرـحمن عـنى	بائى تارك شـهر الصـيام
فـقل لاه يـمنعنى شـرابى	وقـل لله يـمنعنى طـعامى

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مضطرباً يجر رداءه، ورفع شيئاً كان فى يده، فضربه به، فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فانزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. فقال عمر رضى الله تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها فى تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر». وقوله ﷺ: «أول ما نهانى ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحة الرجال». ومن تركها فى الجاهلية عبد الله بن جدعان، وكان جواداً من سادات قرش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الشقى، فضربه على عينه، فاصبحت عين أمية مخضرة فخاف عليها الذهاب، فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فكت. فالح عليه، فقال: ألت ضاربها بالأس. فقال: أو بلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر على حرام لا أدوقها بعد اليوم أبداً.

ومن حرمها فى الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم، وذلك أنه سكر ذات ليلة، فقام لابنته أو لأخته، فهرت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر القصة، فحرم الخمر على نفسه، ومن حرمها فى الجاهلية أيضاً العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم، وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة، فجعل يتناول القمر ويقول: والله لا أبرح حتى أنزله، ثم شب الوثبة بعد الوثبة ووقع على وجهه، فلما أصبح وأفاق قال: ما لى هكذا؟ فأخبروه بالقصة. فقال: والله لا أشربها أبداً، وقيل للعباس بن مرداس: لِمَ تركت الشراب، وهو يزيد فى ساحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومى وأمسى سفيهم. ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده، فأعجبه إنشاده وشعره ووصله، ثم دعا بالطعام، فطعم منه، فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين جلدى أسود، وخلقى مشوه ووجهى قبيح، وتكنيتى مجالستك، ومواكلتك، ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه، فأعجبه كلامه ووصله. وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج فى وفدة وفداه عليه: هل لك فى الشراب؟ قال يا أمير المؤمنين: لا خلاف لما أمرت ولكن أنا أمتع أهل عملى منه وأكره أن أمتنع عن شيء ولا أمتنع منه. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا يُرِيدُ أَنْ خَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]. وقيل لأعرابي: لِمَ لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلى. وقال الضحاک بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعمى، قال: أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر؟ قال ابن أبى أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا بالقسوى ليس فى الخمر رفعة
فسلّتى رأيت الخمر شيئاً ولم يزل
وقال الحسن: لو كان العقل يشتري لتغالى الناس فى ثمنه، فالعجب من يشتري بماله ما يفسده، وقال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء جبال الشيطان، والخمر داهية إلى كل شر». وقال بعضهم:
بلوت نبيذ الخمر فى كل بلدة
إذا دارت الأرض أرواحك بالمنى
وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ فيبينا أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم إذ ولت بك القدم، فجروك على شوكة السلم، فاحفظ قول القائل فيه:

وكل أناس يحفظون حريمهم
فإن قلت هذا لم أقل من جهالة
وللأعرج الطائي:

تركت الشعر واستبدلت منه
كتاب الله ليس له شريك
وقال الصنفى:

دع الخمر فالراحات فى ترك راحها
وكم البست نفس الفتى بعد نورها
وفى كأسها للمرء كسوة عار
مدارح قار فى مدار عتار

نكتة: اجتمع نصراني ومحدث فى سفينة، فصب النصراني خمراً من زق كان معه فى شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جعلت فداك إنما هى خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر، فشربتها للمحدث على عجل، وقال للنصراني: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، ويزيد بن هارون، أفنصدق نصرانياً عن غلامه عن يهودى، والله ما شربتها إلا لضعف الأستاذ.

ومن المجون فى ذلك ما حكى أن سكراناً استلقى على طريق، فجاء كلب فلحس شفتيه، فقال: خدعك بنوك ولاعذموك، فبال على وجهه، فقال: وماء حاراً أيضاً بارك الله فيك، وقيل: حالة السكرانى ثلاث: قرد حرك رأسه فرفص، وكلب هارش فنيح، وحية زويت فنامت. ومر عقاب الناصب بمرداس بن خدام الأسدى، فاستقاه لبناً، فصب له خمراً وعلاء بلين فشربه، وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام فقال:

سقيت عقاباً بالعشيرة شربة
فمالت بعقل الكاهلى عقالى
قرعت بأم الخل حبة قلبه
فلم ينتعش منها ثلاث ليالى

ويقال: الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور، اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين.

فى المزاج والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول: فى النهى عن المزاج

قال رسول الله ﷺ: «المزاج استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن على: ما مزح أحد مزحة إلا مجّ الله من عقله مجة. وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكا، وإن حكيت ذلك عن غيرك. وكتب عمر رضى الله عنه إلى عماله: امتنعوا الناس من المزاج، فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدور، وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاج وتكد الهزل، فانهما يابان إذا فحا لم يخلقا إلا بعد خم. وقال آخر: لكل شيء بلر ويلر العداوة المزاج، وعن محمد ابن المنكدر قال: قالت لى أمى: لا تمارح الصبيان تهن عندهم، وخرج أعرابى بالليل، فإذا بجارية جميلة فراودها، فقالت: أمالك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك، فقال: والله ما يوانا إلا الكواكب، فقالت له: يا هذا، وأين مكوكبها؟ فانحمله كلامها، فقال لها: إنما كنت مازحا، فقالت:

فإياك إياك المزاج فـلـئـنـه يـُـجـرئ
عليك الطفل والرجل النذل
ويذهب ماء الوجه بعد بهاته
ويورث بعد العز صاحبه ذلا

وقال الأحف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاج تذهب المروءة، ومن لزم شيئا عرف به، وما روى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتحدثون ويتناشدون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم كأنهم لم يعرفوا أحدا.

الفصل الثانى: فيما جاء فى الترخيص فى المزاج والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفها، والله تعالى وعد فى اللطم بالتجارز والعفو فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَاءَ الْإِنِّمْ وَأَقْفَاحِشَ إِلَّا اللَّطْمَ﴾ [التنعم: ٣٢]. وقيل: إن يحيى بن زكريا لقى عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ما لى أراك لا يها كائنك آمن، فقال له عيسى: ما لى أراك عابسا كأنك آيس، فقالا: لا تبرح حتى ينزل علينا الوحى، فأوحى الله اليهما إن أحبكما إلى أحسنكما ظنا بى، ويروى أن أحبكما إلى الطلق البسام. وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بلجوة: خلقنى خالق الخير وخلقك خالق الشر. فبكت الجارية، فقال عمر: لا بأس عليك فوان الله خالق الخير والشر، قال الشاعر:

إن الصديق يريد بسطك مـاـرـحـا
فـإذا رآى منك المـلـاة يـقـصـر
وترى العـبـد إذا تـيـقـن أنه
يؤذيك بالمزح العنيف يـكـثـر

وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا، فمن مزحه ﷺ أنه جاء رجل، فقال: يا رسول الله احملنى على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال يا رسول الله: إنه لا يطيقنى فقال له الناس: ويحك، وهل الجمل إلا ولد الناقة. وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقى زوجك ففى عينيه بياض، فسعت إلى زوجها مرعوبة، فقال لها: مادها؟ قالت: إن النى ﷺ قال لى إن فى عينيك بياضا، فقال: نعم والله وسودا، وأنه أيضا عجوز أنصارية، فقالت: يا رسول الله ادع الله لى أن يدخلنى الجنة، فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، فولت المرأة تبكى، فبسم ﷺ وقال لها: أما قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۝ فَعَجَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧]. وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: سأبت رسول الله ﷺ فسبته، فلما كثر لحنى سابت، فسبته، ففرض بكفى، وقال: هذه بتلك، وعنها أيضا قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأما اللعب مع صويحاتى ولا يعيب على. وسئل النشى: هل كان اصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان فى قلوبهم

مثل الجبال الرواسى، وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك، قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك، فمن مزحه إنه مريوماً بمخرمة بن نوفل الزهرى وهو ضير، فقال: له قذنى حتى أبول، فأخذ يده حتى أتى به إلى المسجد، فأجلسه فى مؤخره، فصاح به الناس إنك فى المسجد، فقال: من قاذى؟ قالوا: نعيمان، قال لله على نذر أن أضربه بمعضى هذه إن وجدته، فبلغ ذلك نعيمان، فجاء إليه وقال له: يا أبا النور هل لك فى نعيمان، قال: نعم، قال: ها هو قائم يصلى وأخذ يديه وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى، وقال: هذا نعيمان، فعلا بالعضا، فصاح الناس: أمير المؤمنين، فقال: من قاذى؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعد، وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبسر يقص علينا حتى يبيكننا، وربما لم يقم حتى يضحكنا. وكان رجل يسمى تاج الوعد يعطى الناس ويقص عليهم حتى يبيكنهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويسقط آمالهم.

فمن لطافته أنه حكى يوماً بعدما فرغ من ميعة قال: سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع فى قلبى أن اتعلمه، فدخلت فى سوق الكتيبة واشترت كتاباً فى التصحيف، فأول ما تصحفته وجدت فيه سباج تصحيفه شك تاج، فرمت الكتاب من يدى وحلفت أنى لا أشتغل به أبداً، فضحك الناس حتى غشى عليهم. ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، فوجده يتأوه، فقال يا أمير المؤمنين: لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ويأسطك استرحت؟ فقال: لست بصاحب لهو، فقال: ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: هاج بى عرق النسا فى ليلتى هذه، فبلغ منى ما ترى، فقال: إن بديحاً مولاي أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح أرق رجلى، فقال يا مولاي أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها، وجعل يقول ما لا يسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية، أين فلانة التوتنى بها تكتبها لثلاث يبيع بى الروع بالليل، فقال له بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جاتزتى، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جاتزتى إلى بيتى، فقال: تحمل، فحملت، فقال: يا أمير المؤمنين الطلاق يلزمه ما رقيت رجلك إلا بماسطة يقول نصيب حيث قال:

ألا إن ليلى العامرية أصسحت على البعد منى ذنب غيسرى تنقُمُ

فقال: ويلك ما تقول؟ فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: أكتبها على، فقال: كيف، وقد سارت بها الركيان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط، وروى أن ابن سيرين كان يشد قول الشاعر:

أثبت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء فى الشرطج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه: أما النهى عنه، فقد قيل: إن علياً كرم الله وجهه مر بوقم يلعبون الشرطج، فقال لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ وكان أبو القاسم الكسرى يقول: لاترى شرطجياً غنياً لا بغيلاً، ولا فقيراً إلا طفلياً، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشرطج. واحتضر شرطجى فصار يقول: شاء مات غنياً شاء مات مكان الشهادتين حتى مات. وأما الترخيص فيه، فقد مثل الشعبي عن اللعب بالشرطج، فقال: لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل، وقال بعضهم: كنا فى السجن مع ابن سيرين، فكان يرانا ونحن نلعب الشرطج، فيقوم، فيأتى ويقول: ارفع القرس ارفع كذا افعل كذا، ولا ييب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب الشرطج مع صديقى فى بيته حين خفت الحجاج. ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشرطج، وقيل للعامون:

أرض مربيعة حمراء من آدم ما بين حرين مسروروفين بالكرم
تذكر الحرب فاحتالا لها فطناً من غير أن يأتعا فيها بسفك دم

هذا يغشيه على هذا وذلك على
فلانظر إلى همم جاشت بمركبة
هذا يغشيه وعين الحزم لم تتم
فى عسكرين بلا طيل ولا علم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال، فإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فياخذها الغالب من غير قتال. وقيل: إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر والقطعة منه بثلاثة آلاف دينار.

وما جاء فى لعب الفلمان ما حكى أن غلماناً من أهل البحرين خرجوا يعلبون بالصوالة وأسقف البحرين قاعد، فوقعت الكرة على صدره، فأخذها، فجعلوا يطلبونها منه فأبى، فقال غلام منهم: سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا، فأبى لعنة الله وسب رسول الله ﷺ فأقبلوا عليه بصوالجهم، فمأزالوا يخطونه حتى مات لعنة الله عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضى الله عنه فو الله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الفلمان لذلك الأسقف، وقال: الآن عز الإسلام إن أطفالاً صغاراً شتم نبيهم فغضبوا له وانتصروا وأهدر دم الأسقف، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في النوادر وفيه فصول

الفصل الأول من هذا الباب: في نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد، فغار به فرسه حتى وقع في خياه أعرابي، فقال: يا أعرابي هل من قرى، فأخرج له قرص شعير، فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبذ في زكوة فسقاه، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: بارك الله لك في موضعك، ثم سقاه مرة أخرى، فشرّب فقال: يا أعرابي: أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: لا. أنا من قواد أمير المؤمنين، قال: رحبت بلاك وطاب مرادك، ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال يا أعرابي: أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين، قال: لا، ولكني أمير المؤمنين. قال: فأنخذ الأعرابي الزكوة، فوكأها^(١) وقال: إليك عنى فوالله لو شربت الرابعة لأدعيت أنك رسول الله، فضحك المهدي حتى غشى عليه، ثم أحاطت به الخيل، ونزلت إليه الملوك والأشراف، فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك، ولا تخرف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل. ووجد أعرابي يأكل ويتغوط ويقلى ثوبه، فقيل له في ذلك، فقال: أخرج عتيقاً وأدخل جديداً، وأتكل عدواً. وقيل لبعض الأعراب: إن شهر رمضان قدم، فقال: والله لا يلدن شمله بالأسفار. وسمع أعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿والأعراب أشد كفرًا ونفاقًا﴾. [التوبة: ٩٧] فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعته يقرأ: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾. [التوبة: ٩٩]. فقال: لا بأس هجا ومدح. هذا كما قال شاعرنا:

هجموت زهيراً ثم إني مدحنته وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن يزيد فقال لأصحابه: أغربوا لأخيكم، فقال الأعرابي: لا حاجة لى بإلراجكم إن أطناني طوال يعنى سواعده، فلما مد يده ضربه، فضحك يزيد، فقال يا أبا العرب: أظن أن طيننا من أطنابك قد انقطع. وروى أعرابي يغطس في البحر ومعه خيط، وكلما غطس عقد عقدة، فقيل له: ما هذا؟ قال: جنابات الشتاء أقضيها في الصيف. وسرق أعرابي غاشية من على مرج ثم دخل المسجد يصلى فقرأ الإمام: ﴿هل أنك حديث الغاشية﴾ [الغاشية: ١] فقال: يا فتية لا تدخل في الفضول، فلما قرأ: ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ [الغاشية: ٢]، قال: خذوا غاشيتكم ولا يخنس وجهي لا بارك الله لكم فيها ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابي مجلس قوم فتذكروا قيام الليل فقيل له: يا أبا أمانة أتقوم الليل؟ فقال: نعم، قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنام. وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلى، وكان اسمه موسى، فقرأ الإمام، ﴿وما تلك يمينك يا موسى﴾ [طه: ١٧]، فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعي قال: ضلت لى إبل، فخرجت في طلبها، وكان البرد شديداً، فالتجأت إلى حى من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون ويقرهم شيخ ملف بكساء، وهو يتعدى من البرد وينشد:

أي رب إن البرد أصبح كالسبا وأنت بحسبالي يا إلهي أعلم
فإن كنت يوماً في جهنم مدخلي فني مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعي: فتعجب من فصاحته، وقلت: يا شيخ أما تستحي تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير، فأنشد يقول:

أبطمع ربي في أن أصلي عارياً ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت ما عشت عارياً عشواء ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يرم شمس دفيئة وإن غيمت فالويل للظهر والمصر
وإن يكنى ربي قميصاً وجبة أصلي له مهما أعيش من العمر

(١) وكأها: ألغاه ورعى بها.

قال: فأعجبني شعره وفصاحته، فترعت قميصاً وجبة كانا على ودفعتهما إلي، وقلت له: البسهما وقم، فاستقبل القبله، وصلى جالساً وجعل يقول:

إليك اعتذاري من صلاتي جالساً
فمالي ببرد الماء يا رب طاقة
ولكنني استغفر الله شاتياً
وإن أنا لم أقعمل فأنت محكم
على غير طهر مومئياً نحو قبلي
ورجلاي لا تقوى على ثني ركبتي
واقضيها يارب في وجه صيفتي
بما شئت من صفى ومن تنف لحيتي

قال: فعجبت من فصاحته، وضحكت عليه وانصرف. وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام: ﴿قل أرايتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتا﴾. [الملك: ٢٨]. فقال الأعرابي: أهلكك الله وحكك. إيش كان ذنب الذين معك، فقطع القوم الصلاة من شدة الضحك. وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون، فقرأ الإمام: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [النساء: ٣]. وجعل يردد، فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لاختها فقالت: يا اختاه سارال الإمام يأمرهم أن يتكحونا حتى خشيت أن يلقوا عليّ. وصلى أعرابي خلف الإمام، فقرأ الإمام: ﴿إنا نهلك الأولين﴾. [المرسلات: ١٦٦]، وكان في الصف الأول، فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿ثم ننبئهم الآخرين﴾. [المرسلات: ١٧]. فتأخر، فقرأ: ﴿كذلك نفعل بالجرمين﴾ [المرسلات: ١٨]. وكان اسم البدوي مجرمًا، فترك الصلاة وخرج هاربًا، وهو يقول: والله ما المطلوب غيبي، فوجده بعض الأعراب، فقال له: مالك يا مجرم؟ فقال: إن الإمام أهلك الأولين والآخرين وأراد أن يهلكني في الجملة، والله لا رأيته بعد اليوم. وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندانسه فاحتاج إلى بيت الخلاء، فقلوه عليه، فلما دخل جعل يضرب ضراطاً شنيعاً، فضحكوا عليه، فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائط
فمن كان ذا عقل فيعجزه ضراطاً
تراخت بلا شك مصاريح فحشيه
ومن كان ذا جهل ففني وسط لحيشه

وكان لسابور ملك فارس تلميذ مضحك يسمى مرزيان، فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب وعوى الذئاب ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال، ثم احتال حتى دخل موضعاً يقرب بخلوه الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا، فعوى عوى الذئاب، فتنزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هاربًا، ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه صهيل صهيل الخيل، فاقترحوا عليه وأخرجوه عريانًا، فلما وصلوا به إلى الملك، ورآه مرزيان ضحك الملك ضحكًا شديدًا، وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الله عز وجل مسخني كلبًا وذنبًا وحملاً وفسدًا لما غضب على الملك قال: فأمر الملك أن يخلع عليه وأن يرد إلى مرتبته الأولى. ومن الملح قول بعض الشعراء:

أبا من فاق حسنًا وإعسلاً
أما في مال ردفت من زكاة
ولج في عطية الشهبابا
فتدخل فيه لي هذا النصابا

وحكى الأصمعي أن عجموزًا من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتیان يشربون نبيذًا، فسقوها قدحًا، فطابت نفسها، فتبسمت فسقوها قدحًا آخر، فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها ثالثًا، فقلت خبروني عن نساكم بالعراق أيشرين النبيذ؟ قالوا: نعم، قالت: رنين ورب الكعبة، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه، وصلى أعرابي خلف إمام، فقرأ: ﴿إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ [نوح: ١٠]، ثم وقف وجعل يردد، فقال الأعرابي أرسل غيره يرحمك الله، وأرحنا وأرح نفسك. وصلى آخر خلف إمام، فقرأ: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾ [يوسف: ٨٠]، ووقف وجعل يردد، فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نفل نحن ووقوفًا إلى الصباح، ثم تركه وانصرف. ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث، فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث: حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه

عليه الصلاة والسلام: إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابداوا بالعشاء، وحديث عائشة عنه أيضاً: ليس من البر الصوم في السفر، وقيل لأعرابية: ما صفة الأبر عندكم؟ قالت: عصابة ينفخ فيها الشيطان، فلا يبرد أمرها. وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى، فإذا هو بشيخ من الأعراب على حمار وهو رطب العينين، فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك، قال: خذ عيدين الهواء وغبار الماء فصبه في قشر بيض الذر واتكحل به ينفحك، فاتحنى الشيخ وضرب ضربة قوية وقال: خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك، وإن ردت زدناك. فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته. وخرج معن بن زائدة فسي جماعة من خواصه للصيد، فاعترضهم قطع طياء، فتفرقوا في طلبه، وانفرد معن خلف ظبي حتى انقطع عن أصحابه، فلما ظفر به نزل، فذبحه، فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار، فركب فرسه واستقبله، فلم عليه فقال: من أين وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدية، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقثاة، فطرح في غير وقتها، فجمعت منها ما استحسنته، وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور، وفضله المشهور ومعروفه الماثور وإحسانه الموفور، قال: فكم أملت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال: لك كثير. قال: خمسمائة. قال: فإن قال: لك كثير. قال: ثلاثمائة. قال: فإن قال لك كثير. قال: مائة. قال: فإن قال لك كثير. قال: خمسين. قال: فإن قال لك كثير. قال: فلا أقل من الثلاثين، قال: فإن قال لك كثير. قال: أدخل قوائم حمارى في حر أمه وأرجع إلى أهلى خائياً. فضحك معن منه، وصاق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل في منزله، وقال لحاجبه: إذا أتاك شيخ على حمار بقاء فادخل به على، فأتى بعد ساعة، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيبته وجلالته، وكثرة حشمه وخدمه وهو متصدر في دسسته، والخدم والحفدة قيام عن يمينه وعن شماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذى أتى بك يا أخا العرب؟ قال: أملت الأمير، وأتيت بقاء في غير أوان، فقال: كم أملت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير، فقال: والله لقد كان ذلك الرجل ميثوماً على، ثم قال: خمسمائة دينار، قال: كثير فما زال إلى أن قال: خمسين دينار، فقال له: كثير، فقال: لا أقل من الثلاثين، فضحك معن، فعلم الأعرابي أنه صاحبه، فقال: يا سيدى إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب وها معن جالس، فضحك معن حتى استلقى على فراشه، ثم دعا بوكيله، فقال: أعطه ألف دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائة دينار وخمسين ديناراً وثلاثين ديناراً، ودع الحمار مكانه، فنسلم الأعرابى المال وانصرف.

الفصل الثانى: فى نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا في دهليز عثمان بن شيبة، فخرج إلينا فقال: ن والقلم في أى سورة؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ: ألم غلبت الترك في أدنى الأرض، فقال له: الروم. فقال له: كلهم أعداؤنا قاتلهم الله. وكان جماعة يجلسون إلى أبى العيناء وفيهم رجل لا يتكلم فقليل له يوماً: كيف علمك بكتاب الله؟ قال: أنا عالم به، فقليل له هذه الآية في أى سورة: الحمد لله لا شريك له، فقال له: في سورة الحمد، فضحكوا عليه، وجاء رجل إلى فقيهه، فقال: أظفرت يوماً في رمضان، فقال: اقض يوماً مكانه، قال: قضيت وأتيت أهلى وقد علموا مأمونية، فسبقتنى يدى إليها، فأكلت منها، فقال: اقض يوماً آخر مكانه، قال: قضيت، وأتيت أهلى وقد علموا هريسة، فسبقتنى يدى إليها، فقال: أرى أن لا تصوم إلا وبك مخلولة إلى عنقك. وجاء رجل إلى بعض الفقهاء، فقال له: أنا أعبد الله على مذبح ابن حنبل وإنى توفضات وصليت، فبينما أنا فى الصلاة إذ أحسست ببلى فى سراويلى يتلرق، فشمست فإذا راحته كريهة خبيثة، فقال الفقيه: عافاك الله خريت بإجماع المذاهب. وجاء رجل إلى فقيهه قال: أنا رجل أفسو فى ثيابى حتى تقوح رواشى، فهل يجوز لى أن أصلى فى ثيابى؟ قال: نعم لكن لا كثر الله فى المسلمين مثلك. ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما، فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهدهنك فيه عمش عيني، ودقة ساقيه، وضعف ركبتيه، وتنت إبطيه، وبخر فيه، وجمود كلي، فقال له الأعمش: قم قبلك الله فقد أرتيتا من عيوري ما لم تكن تعرفه. وسكن بعض الفقهاء فى بيت سقفه يقرع فى كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة، فقال له: أصالح السقف، فإنه يقرع، قال: لا تخف، فإنه يسبح الله تعالى قال: أخشى أن تلدرك رقة فيسجد.

الفصل الثالث: في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة. فقرأ يوماً في المصحف. «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها» [هود: ٦]، فقال لغلامه: اطلق البغلة ورزقها على الله، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتاكل من قشور الباذنجان وقشور الرمان وقشور البطيخ، وقمامات الطريق، فماتت، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم، فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها وقالوا: ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا، وسيدنا رجل غنى وله أشياء كثيرة، العدالة، والتزويج، والعقود، والورقة، والسجن، والإطلاق، وحاكمية الحكم، وأجرة اليمين، والتدريس، والأوقاف، فقال لهم القاضي: ائتلى يقال هذا، وأنتم لكم اثنا عشر باباً من المنافع، منها: الوسخ، والزفر، والهلع، والولع، وبيت النيلة، وشركة النفوس، وجباية الأسواق، وحرق النار، وسلب الشطار، ولكم الصياح، وثمن الإصلاح، وما تروحوا من هذه البغلة بلا شيء، جلدها للذباغين وذنبها للغرابلية ومعرفتها للشعاع وتطبيقاتها للبيطار، قال: فتقدم أحدهم إليه، وقال: بحق من تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلا شيء.

تفسير هذه الألفاظ: الزفر: النساء الزائيات، والوسخ: المراهيض. والهلع: جباية الأسواق، والولع: القمار، وبيت النيلة: محل المزرة، وشركة النفوس: كل من حمل ميتاً، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه. وسلب الشطار: كل من شقوه لهم سلبه. وولى يحيى بن أكنم قاضياً على أهل جبلة، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة، فقال لأهل جبلة: إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير. فوعده بذلك، فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه، فسرّح القاضي لحيته، وكبر عمته وخرج، فرأى الرشيد في الحراقة ومعه أبو يوسف القاضي، فقال يا أمير المؤمنين: نعم القاضي قاضى جبلة عدل فينا، وفعل كذا وكذا. وجعل يشتى على نفسه، فلما رآه أبو يوسف عرفه، فضحك فقال له الرشيد: مم تضحك؟ فقال يا أمير المؤمنين: ائتلى على القاضي هو القاضي، فضحك الرشيد حتى فحس برجله الأرض، ثم أمر بعزله ف عزل. وأحضر رجل ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدى هذا يشرب الخمر ولا يصلى، فأنكر ولده ذلك، فقال أبوه: يا سيدى أفتكون صلاة بغير قراءة، فقال الولد: إني أقرأ القرآن، فقال له القاضي: اقرأ حتى أسمع فقال:

علق القلب الربابا بعدما شابت وشابا
إن ديسن الله حسيق لا أرى فيسيه ارتيابا

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه، فقال القاضي، وأنا الآخر أحفظ آية منها وهي:

فأرحمى مضى كسيباً قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضي: قاتلكم الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

وتقدم اثنان إلى أبى عصامة القاضي، فادعى أحدهما على الآخر بطيور، فأنكر فقال للمدعى: ألك بيعة؟ فقال: لى شاهدان فأحضر رجلين شهدا له، فقال المدعى عليه: سلهما يا سيدى عن صناعتهما، فأخبر أحدهما: أنه نباد، وقال الآخر: أنه قواد، فالتفت القاضي إلى المدعى عليه، وقال: أتريد على بطير أعذل من هذين؟ ادفع إليه بطيوره. وتحاكم الرشيد وريذة إلى أبى يوسف القاضي فى الفالوذج واللويزنج أيهم أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد بإحضارهما، وقدماً بين يدي أبى يوسف، فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعذل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما اتى الآخر بحجته. وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدى إن امرأتى حببنا، فقال له القاضي: طلقهانا، فقال: عشقنا، فقال: قودمانا، وادعى رجل عند قاض على امرأة حسنة بدين، فجعل القاضى يميل إليها بالحكم، فقال الرجل: أصلح الله القاضي حجبتى أوضح من هذا النهار، فقال له القاضي: اسكت يا عدو الله، فإن الشمس أوضح من النهار، قم لا حق لك عليها، فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفى خيراً فقد قويته، فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتى خيراً فقد أوهيتها،

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغى الفقرة، ورعت أنه يول في الفراش كل ليلة، فقال الرجل للقاضي: يا سيدي لا تجعل على حتى اتص عليك قصتي، إني أرى في منامي كائي في جزيرة في البحر وفيها قصر عال، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل وأنا على ظهر الجمل، وإن الجمل يطأطن برأسه ليشر من البحر، فإذا رأيت ذلك بليت من شدة الخوف، فلما سمع القاضي ذلك بال في فراشه وثيابه وقال: يا هذه أنا قد أخذت البول من حول حديثه، فكيف من يرى الأمر حيًا.

وحي أن تاجرًا عبر إلى حمص، فسمع مؤذنًا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمدًا رسول الله، فقال: والله لأمضين إلى الإمام وأسأله، فجاء إليه، فراه قد أقام الصلاة وهو يصلي على رجل ورجله الأخرى ملوثة بالعلوة، فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر، فسأل عنه فقيل: إنه في الجامع يبيع الخمر، فمضى إليه، فوجده جالسًا وفي حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمرًا وهو يحلف للناس بحق المصحف أن الخمرورة صرف ليس فيها ماء، وقد أودحت الناس عليه وهو يبيع، فقال: والله لأمضين إلى القاضي وأخبره، فجاء إلى القاضي، فدفع الباب، فافتتح فوجد القاضي نائمًا على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة، فقال التاجر: قلب الله حمص، فقال القاضي: لم تقول هذا؟ فأخبره بجميع ما رأى. فقال: يا جاهل أما المؤذن، فإن مؤذنًا مرض فاستأجرنا يهوديًا صيًّا يؤذن مكانه، فهو يقول ما سمعت، وأما الإمام، فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مرعًا، فنلوثت رجله بالعقرة وضاق الوقت، فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى، ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم، وعنه ما يؤكل، فهو يعصره خمرًا ويبيعه ويصرف ثمنه في مصالح الجامع، وأما الغلام الذي رأيته، فإن أباه مات وخلف مالا كثيرًا وهو تحت الحجر، وقد كبر وجاء جماعة شهدوا عندي أنه بلغ، فانا أمتحه، فخرج التاجر من البلد، وحلف أنه لا يعود إليها أبدًا.

الفصل الرابع: في نوادر النحاة

وقف نحوي على يباع يبيع أرزًا يعسل وبقلًا بغل، فقال: يكمل الأرض بالاعسل والاخلل بالأقل؟ فقال: بالاصنع في الأروس والأضرط في الأذقن. ووقع نحوي في كنيف، فجاء كناس ليخرجه، فصاح به الكناس ليحمل أهر حتى أم لا، فقال له النحوي: اطلب لي حبلاً دقيقًا وشدني شدًا وثيقًا واجذبني جذبًا رقيقًا، فقال له الكناس: امرئي طالق إن أخرجتك منه، ثم تركه وانصرف. وكان لبعضهم ولد نحوي يتقعر في كلامه. فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت، فاجتمع عليه أولاده، وقالوا له: ندعوك لك فلانًا أخنابًا، قال: لا إن جامني تلتني، فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم، فدعوه، فلما دخل عليه قال له يا أبت: قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة وتقوز من النار، يا أبت: والله ما أشنلتك عنك إلا فلان، فإنه دعاني بالأمس، فأهرس، وأعدس، واستنيدج، وسكيج، وطهيج، وأفروج، ودجج، وأبصل، وأمضر، ولوزج، وأفلوزج، فصاح أبوه غمضوني، فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي.

وجاء نحوي يعود مريضًا، فطرق بابه، فخرج إليه ولده فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجله، قال: لا تلحن قل: رجلاه، ثم ماذا؟ قال: ثم وصل الورم إلى ركبته. قال: لا تلحن قل: إلى ركبته. ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله في نظر عيالك وعيال سيويه ونظويه وجشويه. وعاد بعضهم نحويًا، فقال: ما الذي تشكروه؟ قال: حمى جاسية، نارا حامية، منها الأعضاء واعية، والعظام بالية، فقال له: لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس: في نوادر المعلمين

قال الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة، وصولجان وكرة، وطبل، وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندي صغار أرباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي بضربة، فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي فأضرب الكرة في الصولجان وأضربه فاشبه، فتقوم إلى الصغار كلهم بالألوح فأجعل الطبل في عنق والبوق في فمي وأضرب الطبل وأنفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك، فيسارعون إلى ويخلصوني منهم.

وحكى الجاحظ أيضاً قال: مررت على خربة. فإذا بها معلم وهو يبيع نبيح الكلاب. فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار، فقبض عليه المعلم. وجعل يلطمه ويصبه، فقلت: عرفنى خيره. فقال: هذا صبي لتيسم بكزه التعليم وهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظن أنه الكلب فيخرج فأسكه. وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه فقال له: إما أن تنتهي وإلا فعلت بأمك. فقالت يا معلم: هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعينه ويتوب، فقام وفعل بها أمام ولدها، وقال الجاحظ: رأيت معلماً في الكتاب وحده فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون فقلت: أحب أن أراهم فقال: ما أشير عليك بذلك فقلت: لا بد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تمى. وقال بعضهم: رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما: هذا عض أذننى، فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذى عض أذن نفسه، فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل بعض أذن نفسه. وقال بعضهم: رأيت معلماً وهو يصلى العصر فلما رجع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون، وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذى عملت وسوف اكافئك إذا فرغت من الصلاة.

وحكى عن الجاحظ أنه قال: ألثت كتاباً في نوادر المعلمين، وما هم عليه من التغفل، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك، فدخلت يوماً مدينة، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد على أحسن رد ورحب بي فجلست عنده، وباحته في القرآن، فإذا هو ماهر فيه، ثم فاجتته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الآداب، فقلت: هذا والله مما يقوى عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنيت أختلف إليه وأزوره، فجت يوماً لزيارته، فإذا بالكتاب مغلق ولم أجد، فسألته عنه، فقيل: مات له ميت، فحزن عليه وجلس في بيته للزماء، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب، فخرجت إلى جارية، وقالت: ما تريد؟ قلت سيدك، فدخلت، وخرجت، وقالت: باسم الله، فدخلت إليه، وإذا به جالس، فقلت: عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت. فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذى توفي ولداً؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: أخاك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا. فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتى. فقلت في نفسى: هذه أول الناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها، فقال: أنظن أنى رأيتها؟ قلت: وهذه منحة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: اعلم أنى كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي علي فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعين به فكيف يلعب بالإنسان إنساناً

فقلت في نفسى: لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها، ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب وجلست في الدار، فقلت: يا هذا إنى كنت ألثت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إيقائه وأول ما أبداً أبداً بك إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس: في نوادر المتنبيين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد، فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى يقال عنك؟ قال: إني نبي كريم، قال: فأى شئ يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت، قال: أريد أن تجعل هذه الممالك المرد القيام الساعة بلحى، فاطرق ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحى وأخير هذه الصورة الحسنة، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مرداً في لحظة واحدة، فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة. وتباً إنسان، فطالبوه بحضرة المأمون

بمعجزة، فقال: اطرح لكم حصاة في الماء فتذوب. قالوا: رضىنا فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت، فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا فدفعها تذوب. فقال: لستم أجمل من فرعون ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى: لم أرض بما تفعله بخصاك حتى أعطيك عصا من عندى تجعلها ثعباناً. فضحك المأمون وأجازه. وتنبأ رجل في أيام المعتصم، فلما حضر بين يديه قال: أئت نبى؟ قال: نعم، قال: وإلى من بعث؟ قال: إليك، قال: أشهد أنك لسفيه أحمق، قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشئ، وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل، فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين، قال: وما براهينه؟ قال: أضمرت له ناراً وألقى فيها، فصارت عليه برداً وسلاماً، ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمناً بك، قال: أريد واحدة أخف من هذه، قال: فبراهين موسى، قال: وما براهينه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى، وضرب بها البحر فانقلب، وأدخل يده فأخرجها بيضاء. قال: وهذه على أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى. قال: وما هى؟ قال: إحياء الموتى. قال: مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضى يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة، فقال يحيى: أنا أول من آمن بك وصدق. وتنبأ آخر في زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيخاً في هذه الساعة. قال: أمهلنى ثلاثة أيام: فقال ما أريده إلا الساعة. قال: ما أئسفنى يا أمير المؤمنين، إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجني إلا في ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام، فضحك منه ووصله. وتنبأ آخر في زمن المأمون، فلما مثل بين يديه. قال له: من أنت؟ قال: أنا أحمد النبى. قال: لقد ادعيت زوراً، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبى، فهل تدمه أنت، فضحك المأمون منه وخلقى سبيله. وتنبأ آخر في زمن المتوكل، فلما حضر بين يديه قال له: أئت نبى؟ قال: نعم. قال: فما الدليل على صحة نبوتك قال: القرآن العزيز يشهد بنبوتى في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. [النصر: ١]. وأنا اسمى نصر الله، قال: فما معجزتك؟ قال: اتونى بامرأة عاقرة أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بى، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامت، فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبى الله، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به. فضحك المتوكل وأطلقه. وادعى رجل النبوة زمن خالد بن عبد الله القسرى وعارض القرآن فأتى به إلى خالد فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفُورَ﴾. [الكوفور: ١]. وقلت: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجُمَاهِرَ، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فغضب عنقه وصلب، فمر به خلف بن خليفة الشاعر، فغضب بيده على الخشب وقال: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْعُودَ فصل لربك من تعود وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتى المأمون برجل ادعى النبوة، فقال له: ألك علامة على نبوتك؟ قال: علامتى أنى أعلم ما فى نفسك، قال: وما فى نفسى؟ قال: فى نفسك أنى كاذب، قال: صدقت، ثم أمر به إلى السجن، فأقام فيه أياماً. ثم أخرجه، فقال: هل أوحى إليك بشئ؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الجبوس. فضحك منه وخلقى سبيله. وأتى بامرأة تنبأت في أيام المتوكل، فقال لها: أنت نبية؟ قالت: نعم. قال: تؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم. قال: فإنه ﷺ قال: لا نبى بعدى، قالت: فهل قال لا نبية بعدى؟ فضحك المتوكل وأطلقها، وتنبأ رجل يسمى نوحاً، وكان له صديق نهاء، فلم يقبل. فأمر السلطان بقتله، فمر به صديقه، فقال له يا نوح: ما حصلت من السفينة إلا على الصارى.

الفصل السابع: فى نوادر السؤال

وقف أعرابى بباب يسأل، فقال له صغير من باب الدار: بورك فيك، فقال: قبح الله هذا القم لقد تعلمت الشر - صغيراً، ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: فتح الله عليك، فقال السائل: يا قرنان كنت تصير لعلى جئت أدعوك إلى وليمة. وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: إني جائع، فقالوا له: كلته، فقال جربوني برطلين من الخبز ورتلين من اللحم. ووقف سائل على باب، فقالوا: يفتح الله عليك، فقال كسرة، فقالوا: ما تقدر عليها، قال: فقيل من بر أو قول أو شعير، قالوا: لا تقدر عليه، قال: فقطعه دهن أو قليل زيت أو لبن. قالوا: لا نجده، قال: فشرية ماء. قالوا: وليس عندنا ماء، قال: فما جلوسكم ها هنا قوموا فاسألوا، فأنتم أحق منى بالسؤال.

الفصل الثامن: فى نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن: ما نسمع أذانك، فلر رفعت صوتك، فقال: إني أسمع صوتي من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذناً أذن ثم غدا يهرول، فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذاني أين بلغ. واختصم رجلان في جارية فأودعها عند مؤذن. فلما أصبح وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا الله ذهبت الأمانة من الناس. فقالوا له: كيف ذهبت الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التي وضعت عندي قيل إنها بكر، فلما أثبتتها وجدتها ثيباً. وسمع مؤذن حمص يقول في سحور رمضان: تسحروا قد أرتكم وعجلوا في أكلكم قبل أن أؤذن، فيسبحم الله وجوهكم. وشهد مؤذن يؤذن من رقعة. فقيل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضي، فأتوه، فقالوا: السلام عليكم، فأخرج دفترًا وتصفح وقال: وعليكم السلام، فعذروا المؤذن. وسمعت امرأة مؤذنًا يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول الصلاة خير من النوم، فقالت النوم خير من هذه الصلاة. ومر سكران بمؤذن ردى الصوت فجعل به الأرض وجعل يدوس بطنه، فاجتمع الناس فقال: والله ما بى رداءة صوته، ولكن شمانة اليهود والنصارى بالمسلمين.

الفصل التاسع: فى نوادر النواتية

حكى أن بعض النواتية^(١): تولى أحد الكراسى السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتًا وراء الباب فقال لزوجته: إني أسمع غاعة فى البر حلى قلعوى واعملى أسفيرتى على جامورى وقدمى إلى إسقالة الوجل، وقيمى بمدرة، فامتثلت كلامه، فنزل وجلس على مصطبه وقد علت مرتبه، واصطفى المقدمون بين يديه ووقفت الخبيرة حواله، وإذا شيخ قد أقبل وثيابه مقطعة وعمامة فى حلقه والدم نازل من أنفه وهو يصيح بصوت عال: أما بالله وبإلوالى، فقال: تعال يا شيخ مالى أرى أطمونك فى حلقك وشوبرتك مكسورة وأنت يتزلع ماء متغير وتقيم الهليل فى الساحل دخل عليك شرد غريبى وإلا دخلت على بواجى، فقال الشيخ: والله يا سيدنى بعض نواتية البحر عمل بى هذا، فقال: يا أولاد جيبوا غريمو بخسنوا عدته وقشطوا ظهره وجروه على مقدمه، فامتثلوا كلام الأمير وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر أنت الذى قطعت القللى وخرجت فى الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مسخلمته وكسرت استقائته، لو انصلح كنت عملك فى بدراوة وعلفتك فى الصارى، فلما سمع الرجل كلام إلوالى علم أنه من أولاد المعيشة، فقال له بهمسة النواتية: والله يا خوند هو كار زنى فى معاشى اجصطن على الوحشة وأنا هايم فى الليل إلا وشرد جاني من الشرق كابس هز أطرافى وكسر شابورتى وقطع لبائى وها هو يحمد الله على بر السلامة، وإن كن انصلح فيه شئ فانا بمرسوم الأمير أجيب له القلقا. أسد فتحة وأعيد له وسقه وأخليه يروح فى طريقه، فقال له إلوالى: أنت تقذف فى وجهى وتطرح مقاديفك حتى تعبى على الحجر، يا رجالة الصارى سلسلوا أطرافه وعروا مقاديفه، وبلو شينة اللبان واتزلوا عليه وأوسقوه الجنين والظهر حتى تلعب المية على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برآ وجنب جوا قدام الحن وراء الصارى، فاكل علقه من كعبه إلى أذنه، فقالت النواتية: يا خوندا هو خنسفت عليه الطمية البحرية؟ قال: مدراتين وقيموه فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خوندا سألتك بهبوب الرياح وطيب النسيم الرب لا يهلك بجر اللبان فى الخلافى، وأنت حافى فى الصياحى، ويحكىك شر الأربينات قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفاء عند بخسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد وعياط الركاب عند قيام الموجة وبعد البر فى أيام الليل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد أسقالتك وأقعد فى زوايدك حتى أخلى ظهرك جيقة، فقال له: والله يا خوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوثق العظيم ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعى لوح وفرقتى بالقائم، فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة وأخرج فى دى الطيابة وكتب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية للنواتية لك الله لى يا عملاى على أبوس.

(١) اللاح الذى يَئُر السفينة فى البحر.

الفصل العاشر: في نوادر جامعة

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة، فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت: يكفيني كفارة سنة أشهر منها شهر رمضان، وأسلم مجوساً في شهر رمضان ثقّل عليه الصيام، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس. وسئل بعض القصاص عن نصراني قال: لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذهباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وأُعيد إلى سالم القصاص خاتم بلا نص، فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطى في الجنة غرفة بلا سقف. وبنى بعض المغفلين نصف دار وبنى رجل آخر النصف الآخر. فقال المغفل يوماً: قد عولت على بيع النصف الذي لي، واشترى به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها. وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنه فقال: لا أدري إلا أن أسها ذكرت أنه ولدتها في أيام البراغيث. وقيل لطيفي: أي سورة تعجبك من القرآن؟ قال: المائدة. قال: فأى آية؟ قال: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣] قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿تَنَا غَدَاَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَسْتَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. وقيل لثمان بن دراج الطيفي يوماً: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال: أتوح على بابهم فيطيطون من ذلك، فيدخلوني، وقيل له: اتعرف بستان فلان؟ قال: إني والله إنه الجنة الحاضرة في الدنيا، قيل: لم لا تدخله وتأكل من ثماره وتستظل بأشجاره وتسبح في أنهاره؟ قال: لأن فيه كلباً لا يمتنعض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يوماً: ما هذه الصفرة التي في لونك؟ قال: من الفترة من الصحنين. وقال: مرت بنا جنازة يوماً ومعى ابني ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء، ولا وطاء ولا خبز ولا ماء، فقال ابني: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكى عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إني أرقت هذه الليلة وضاق صبري ولم أعرف ما أصنع، وكان خادمه مسرور وواقفاً أمامه فضحك، فقال له: ما يضحكك استهزاء بي أم استخفافاً؟ فقال: وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمداً ولكن خرجت بالأمس أتشمي بظاهر القصر إلى أن جئت إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس يقال له: ابن المغازلي، فضكرت الآن في شيء من حديثه وكلامه، فضحكت والعفو يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: اتنتي الساعة به، فخرج مسروراً على أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال: سمعاً وطاعة، فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشئ يكون لك منه الربع والبقية لي، فقال له: بل اجعل لي النصف ولك النصف، فأبى فقال: الثلث لي ولك الثلثان، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم، فأبغ وترجم فأحسن، ووقف بين يديه، فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحككتي أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحككتي أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات، فقال ابن المغازلي في نفسه، وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب؟ وظن في نفسه أن الجراب فارغ، فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أنفعاً عجيباً تضحك الجلود، فلم يضحك الرشيد، ولم يشم، فتعجب ابن المغازلي وضجر وخاف، فقال له الرشيد: الآن استحيقت الضرب، ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان، فضربه ضربة، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور، فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين. قال: قل ما بدا لك. قال: إن مسروراً شرط علي شرطاً واتفقت أنا ولها على مصلحة، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان وفيه الثلث وما أجباني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم. وقد شرط على أمير المؤمنين ثلاث ضربات فتصيب منها واحدة ونصبي اثنتان، وقد أخذت نصيبتي وبقي نصيبه. قال: فضحك الرشيد ودعا مسروراً، فضربه، فصاح، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقى. فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة دينار، ورجع ابن المغازلي شاكرًا والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول: فى الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. [البقرة: ١٨٦]. اختلف فى سبب نزولها، فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء فى رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأنشبهه بذلك ورجع مغتصاً، وكان ذلك قبل الرخصة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. [البقرة: ١٨٦]. وروى الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: إن قوماً قالوا للنبي ﷺ: أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فتناجيه؟ فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. [البقرة: ١٨٦]. أى قبل عبادة من عبدي. فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء، فإما أن يجعل الإجابة فى الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعي وإما أن يدخر له فى الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من السيئة بمثلها». وروى أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة فى الجنة، فبينما العبد المؤمن فى قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه يتحف من عند الله. فيقول ما هذا، ليس الله قد أنعم على وكرمنى؟، فيقولون: ألسنت كنت تدعو الله فى الدنيا؟ هذا دعاؤك الذى كنت تدعوه قد ادخر لك.

واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط، فشرط الداعي أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط فى قبضته، ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنباً لآكل الحرام ولا يمل من الدعاء، ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور المجتازة الطلب والفعل شرعاً، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»، فيدخل فى الإثم كل ما يأتى به من الذنوب، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. قال ابن عطاء الله: إن للدعاء أركناً وأجنحة وأسباباً وأوقافاً، فإن وافق أركانه قوى وإن وافق أجنحته طار إلى السماء وإن وافق موافقته فاز وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب، والخشوع، وأجنحته: الصدق، وموافقته: الأسحار، وأسبابه: الصلاة على النبي ﷺ. ومن شروط الدعاء: أن يكون سليماً من اللحن، كما قال بعضهم:

ينادى ربه باللحن ليث كذلك إذ دعاه لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطى، ولا جاب، ولا عشار، ولا صاحب عرطية، وهى الطنبور، ولا صاحب كوبة، وهى العليل الكبير الضيق الوسط. ومن آداب الدعاء: أن يدعو الداعي مستقبل القبلة ويرفع يديه. لما روى عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يركم حتى كرم ليستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً». وأن يمسح بهما وجهه بعد الدعاء، لما روى عن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ: «ليتنين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن الله أبصارهم». وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. [الأعراف: ٥٥]. وعن أبى عبد الرحمن الهمداني قال: صليت مع أبى إسحاق الغدأة فسمع رجلاً يجهر فى الدعاء فقال: كن كتركيا ﴿إِنَّ نَادَى رَبِّهِ نَدَاءٌ خَفِيًّا﴾ [مریم: ٣٦]، وينبغى للداعي أن لا يتكلف وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع، لقوله ﷺ: «ياكم والسجع فى الدعاء بحسب أحدكم». يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل». وأقول: ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة

والانطلاق. وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات، فما مدونها، كما في آخر سورة البقرة. وعن سفيان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه. فقد أجاب الله دعاء شر الحلق إيليس، إذ قال: «رب انظرني إلى يوم يمشون» (الحجرات: ١٣٦). وعن النبي ﷺ: «إذا سأل أحدكم مسألة فخير الإجابة، فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ومن أبداً عليه من ذلك شيء فليقل: الحمد لله على كل حال. وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربّي الأعلى الوهاب». وعن أبي سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً.

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة، وذلك وقت السحر، ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيبين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي الثلث الأخير من الليل لما جاء في الحديث: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه». وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فاكثروا الدعاء»، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء وأوقات الاضطراب وحالة السفر والمرض، هذا كله جاءت به الآثار. قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثة أيام، يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فصرفت السور في وجهه. قال جابر: ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فادعوا فيها فأعرف الإجابة. وفي بعض الكتب المنزلة: يا عبدي إذا سألت فاسألني فأني غني وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فأني قوي، وإذا أفشيت سرك فافشه إلي فأني وفي وإذا أقرضت فأقرضني فأني ملي، وإذا دعوت فادعني فأني حفي.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فاستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له». وقال وهب بن منبه: بلغني أن موسى مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبداً؟ فأوحى الله تعالى إليه: «يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفق يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له». قال: يا رب لم ذلك؟ قال: لأن في بطنه الحرام. وممر إبراهيم بن آدم بسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا إسحاق ما لنا ندعوا الله فلا يستجاب لنا؟ قال: لأن قلوبكم مانت بعشرة أشياء: الأول: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، والثاني: زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سته، الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به، الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها، الخامس: قلمتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه، السادس: قلمتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها، السابع: قلمتم إن النار حق ولم تهربوا منها، الثامن: قلمتم إن الموت حق فلم تستعدوا له، التاسع: انتسبتم من النوم واشتغلتكم بغير الناس وتركم صيوبكم، العاشر: دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم.

وكان يحيى بن معاذ يقول: من أقر الله بإساءته جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته، ومن أخلص لله في دعوته من الله عليه بإجابته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ارفعوا أوجاج البلاء بالدعاء. وعن أنس رضي الله تعالى عنه (يرفعه): «لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمه الله تعالى: اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته، ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهي لك أذل وعليك أدل. وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم إن كنا عصيانك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك.

ومن دعاء سلام بن مطيع: «اللهم إن كنت بلغت أحدًا من عبادك الصالحين درجة بلاء فبلغنيها بالعافية». وقيل لفتح

الموصلى: ادع الله لنا فقال: اللهم هبنا عطافك ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم لا تحرمنا خير ما عندك لشر ما عندى فإن لم تقبل تعبى ونصى فلا تحرمنا أجر المصاب على مصيبتى، اللهم لا تكنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضج. وقال الحسن: ومن دخل المقابر، فقال: اللهم رب الأرواح الغائبة والأجساد البالية والعظام المتخثرة التى خرجت من الدنيا وهى بك مومنة أدخل عليها روحاً من عندك وسلاماً منى، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات.

وحكى عن معروف القاضى أن الحبيج كانوا يجتهدون فى الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو، ففتح قلبه وبكى فقال بلغته: اللهم إنك تعلم أنى لا أحسن شيئاً من الدعاء. فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا، فرأى بعض الصالحين فى منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركمانى لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة. وقال الأصمى: حدثت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت. وهى: اللهم إن ذنوبى وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى. وركب إبراهيم بن أدهم فى سفينة، فهاجت الريح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك، وكان إبراهيم نائماً فى كساء، فاستوى جالساً وقال: أرئيتنا قدرتك فأرنا عفوك، فذهب الريح وسكن البحر. وقال الثورى: كان من دعاء السلف، اللهم زهدنا فى الدنيا ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا آوى إلى فراشه قال: اللهم إنى أكفر بكل ما كفر به محمد وأؤمن بكل ما آمن به، ثم يضع رأسه. وسمعت بدوية تقول فى دعائها: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عريض الجفنة يا أبا المكارم، فزجرها رجل، فقالت: دعنى أصف ربى وأمجد إلهى بما تستحسنه العرب. وقال الزمخشري فى كتابه «ربيع الأبرار»: سمعت أماً من يدعو من العرب عند الركن اليمانى: يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الشاء على الله تعالى بالكرم والزهادة عن التقيح على طريق الاستعارة، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبى المكارم ولا بين الجواد والعريض الجفنة ولا بين المتزه والابيض الوجه. وقيل لأعرابى: اتحسن أن تدعوك ربك؟ قال: نعم. قال: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك. وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى، فيدعو فيتطير عنه الإجابة، فقال: بلغنى أن الله تعالى يقول: كيف أرحمه من شئ به أرحمه. وقال طائوس: بينما أنا فى الحجر ذات ليلة إذ دخل على على بن الحسين، فقالت: رجل صالح من أهل بيت الخير لاسمعن دعاءه، فسمعتة يقول: عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك فقيرك بفنائك. فما دعوت بهما فى كرب إلا فرج عنى، ودعا أعرابى فقال: اللهم إنا نبات نعمتك. وقال ابن المسيب: سمعت من يدعو بين القبر والنبر اللهم إنى أسألك عملاً باركاً ورزقاً داراً وعيشاً قاراً، فدعوت به. فما وجدت إلا خيراً. ودعت أعرابية بالموقف، فقالت: أسألك شريك الذى لا تزله الرياح ولا تخزقه الريح. وقيل: اتقوا مجاميق الضعفاء أى دعواتهم، ودعا أعرابى فقال: اللهم امع ما فى قلبى من كذب وخيانة واجعل مكانه صدقاً وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك ويادى القيام، ف جذب ثوبه وقال: أمأ لك إلى ربك حاجة؟ وقال سفيان الثورى: سمعت أعرابية تقول: اللهم إن كان رزقى فى السماء، فأنزله، وإن كان فى الأرض فاخرجه، وإن كان بعيداً فقربه، وإن كان قريباً فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيراً فبارك لى فيه.

وقال أبو نواس:

أحببت من شعر بشار وكلمته
يئساً لهجت به من شعر بشار
يا رحمة الله حلى في منارنا
رجاورينا فندك النفس من جبار

وكان بشار يعنى بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتغزل فيها، ونعنى بها هنا رحمة الله التى وسعت كل شئ. وسمع على بن أبى طالب رضى الله عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل ولا يبرمه إلحاح الملحين، أدقنى برد عفوك، وحلاوة مغفرتك، فقال على: والذى نفسى بيده لو قلتما وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك. ومن دعائه رضى الله تعالى عنه: اللهم صن وجهى باليسار، ولا تبدل جاهى بالإتسار. فاسترق طامعاً رزقك من غيرك، واستعطف شرار خلقك وأبلى بجمد من أعطانى، وأفتق بدم من منعنى، وأئت من وراء ذلك كله، ولى الإجابة والتمع. وعن أبى عباس رضى الله تعالى عنهما، عن النبى ﷺ قال: «ما انتهت إلى الركن اليمانى قط إلا وجدت جبريل قد سبقنى إليه يقول: قل يا محمد: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر

والفقر والفاقة وهي من مواقف الحزى». وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك: قل يا كير الخير يادائم المعروف رد على ابني، فقالها فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الحراساني إذ نابه أمر قال: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. وقال جعفر بن محمد: ما المبلى الذي اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافى الذي لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهري يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللهم إني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة. وعن عتبة بن عبد السافر: دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية. واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات.

وعن أبي الدرداء قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتاً، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: من الداعي على الكلب أتشأ؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: لقد دعوت الله باسمه الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. قال: كيف دعوت الله؟ قال: قلت اللهم إني أسألك بأن الحمد لك لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام. وقيل: إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصة فعاجلها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صمائه فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن، فشكا له ما أصابه من الخصة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو: «يا على يا عظيم يا حليم يا عليم». قال الراوي: فما برحنا حتى خرجت الخصة من أذنه، ولها طين حتى ضربت الحائط. وعن أنس إذا قال العبد: يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل: لبيك عبدي، وعنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين، فقال له الرسول ﷺ: سل حاجتك. فقد نظر الله إليك.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له». وروى عن علي بن أبي زفر عن أخ له، وكان فاضلاً صالحاً، فقال: دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، فقمتم ليلة أصلى فسمعت قمعقة في سقف البيت، ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالنور فقراته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام. ومن دعاء الكرب ما روى عن وهب أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال له: هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللهم إني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصائتين، فإن لكل مسألة منك سمعاً حاضراً وجواباً عتيماً، ولكل صامت منك علماً ناطقاً محيطاً، أسألك بمواعيدك الصادقة وبأيديك الفاضلة ورحمتك الواسعة أن تفعل بي كذا وكذا، فقال ابن عباس: هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحداً يحسنه. وعن وهب أيضاً قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة، فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم، هل أعلمك شيئاً تنفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال قل: اللهم أقم النعمة حتى تهني المشيشة، اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرنى ذنوبي، اللهم اكفني مؤنة الدنيا وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة معافى. وعن معروف الكرخي قال: اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام بزعيمهم، وأهبط الله تعالى عليه جبريل وفي باطن جناحيه مكتوب: اللهم إني أدعوك باسمك الأجل الأزع، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد، وأدعوك باسمك العظيم السوتر، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المشعالي الذي ملأ الأركان كلها، أن تكشف عني ضر ما أصبحت وأمسيت فيه، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن ارفع عبدي إلى، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: عليكم بهذا الدعاء، ولا تستبطوا الإجابة، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنسان هذا متصل إلى معروف الكرخي، ثم هو منقطع، ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً في قبوله والعمل به.

حدث عبد الله بن إبان الثقفي رضى الله عنه قال: وجهني الحجاج بن يوسف في طلب أنس بن مالك، فظننت أنه يتوارى عني، فأتيته بغيلولي ورجلي، فإذا هو جالس على باب داره ماداً رجله، فقلت له: أجب الأمير، فقال: أي الأمراء؟ فقلت: أبو محمد الحجاج، فقال غير مكثرت به: قد أذله الله ما أراني أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله، والدليل من ذل بمعية الله، وصاحبك قد بغى وطني واعتدى وخالف كتاب الله والسنة، والله ليبتقم الله منه، فقلت

له: أقصر عن الكلام وأجب الأمير، فقام معنا حتى حضر بين يدي الحاجاج، فقال له: أنت أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذي تدعوا علينا وتسينا؟ قال: نعم، قال: وم ذاك؟ قال: لأنك عاص لربك، مخالف لسنة نبيك، تزع أعداء الله، وتذل أولياء الله. فقال له: أتدري ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا، قال: أريد أن أقتلك شر قتلة، قال أنس: لو علمت أن ذلك يبيدك لعبدتكم من دون الله، قال الحاجاج: ولم ذاك؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء، وقال من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل، وقد دعوت به في صباحي هذا، فقال الحاجاج: علمني؟ فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد مادمت أنت في الحياة. فقال الحاجاج: خلوا سبيله. فقال الحاجاج: أيها الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه، فكيف تخلو سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسلدين عظيمين فاتعنين أفواههما، ثم إن أنسا رضى الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله خير الأسماء باسم الله الذي لا يضر مع اسمه أدنى، باسم الله الكافي، باسم الله المعافي، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسي ودين، باسم الله على أهلي ومالي، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربى، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف، واحذر الله ربى لا أشرك به شيئاً، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد، وشيطان مريد، ومن شر قضاة سوء ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها، إني ربي على صراط مستقيم. وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل وتركاه لطوله وهو: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وسواس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لى من كل هم وغم أصيبت أو أميت فيه فرحاً ومخرجاً، إني على كل شيء قدير، اللهم إني أعفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئى، وسترك عن قبيح عملى أطمعنى أن أسألك ما لا أستوجبه منك ما قضيت لى أدعوك آمناً وأسألك مستأنفاً لا خائفاً ولا رجلاً لأنك أنت المحسن إلى وأنا المسئ إلى نفسى، فيما بينى وبينك تتودد إلى بالنعم مع غناك عنى، وأبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك، فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لئيم مثلى، لكن الثقة بك حملتنى على الجرأة على الذنوب فأسألك بجدوك وكرمك وإحسانك مع طولك، أن تصلى على محمد وآله وأن تفتح لى باب الفرج بطولك، وتحبس عنى باب الهم بقدرتك ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ النسفى بإسناده عن الزهرى، عن أبى مسلمة، عن أبى هريرة قال: مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول فى سجوده: اللهم إنى استغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلى، فأبما عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى مال أو بدن أو عرض علمتها أو لم أستطع أن أتعملها، فأسألك أن ترضيه عنى بما شئت وكيف شئت، ثم تهبها لى من لذلك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله يا رب ما تصنع بعذابى ورحمتك وسعت كل شيء، فلتسمنى رحمتك، فأنى لا شيء، وأسألك يا رب أن تكرمنى برحمتك ولا تهنى بذنوبى وما عليك أن تعطينى الذى سألتك يا رب يا الله، فقال رسول الله ﷺ: أرفع رأسك فقد غفر الله لك إن هذا دعاء أنس شيعب عليه السلام. وقال صالح المزنى: قال لى قاتل فى ثمانى: إذا أحببت أن يستجاب لك، فقل: اللهم إنى أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطاهر الطاهر المقدس، فما دعوت بها فى شيء إلا تعرفت الإجابة.

وقيل: إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنى أسألك بالعزة التى لا ترام والملك الذى لا يضم، والعين التى لا تام، والنور الذى لا يطفأ، والوجه الذى لا يبلى والديمومة التى لا تنفى، وبالحياة التى لا تموت وبالصلمية التى لا تفقر، وبالربوبية التى لا تستذل، أن تجعل لنا فى أمورنا فرجاً ومخرجاً حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين. وقال سعيد بن السب: دخلت المسجد فى ليلة مقمرة وأظن أنى قد أصبحت وإذا الليل على حاله، فقممت أصلى، وجلست أدعو وإذا بهاتف يهتف من خلفى يا عبد الله قل قلت: ما أقول؟ قال: قل: اللهم إنى أسألك بأنك ملك وأنت على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط فى شيء إلا رأيت نجحه. وعن الشيخ كمال الدين الدميرى قال: رويت عن قاضى القضاة عز الدين بن جماعة قال: أتينا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزارى خطيب دمشق، أتينا الشيخ زيد الدين أبو البقاء خالد بن

يوسف النابلسي بقرآني عليه، قال: أثبتنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبي محمد بن الحافظ أبي القاسم علي ابن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه، وأنا أسمع، قال: رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين، قال: نزلنا بنهر ثيرا، فأتانا أهل ذلك النزل فقالوا لنا: ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه فرحل أصحابي وتخلفت، فلما أمسينا قرأت آيات، فما تمت حتى رايت أقواما قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفرا وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلي، فلما أصبحت رحلت فلقيني شيخ على فرس ومعه قوس عربية، فقال لي: يا هذا إنسي أنت أم جنني؟ فقلت: بل أنا من بني آدم، قال: فما بالك لقد أتيتك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيننا وبينك يسور من حديد، قلت: حدثني ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ في ليلة ثلاثا وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار ولا سبع ضار، وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح، فنزل عن فرسه وكسر قومه وأعطى الله تعالى عهدا أن لا يعود لهذا الأمر، وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ إلى قوله.. ﴿المفلحون﴾. وآية الكرسي إلى قوله: هم فيها خالدون، وأمن الرسول إلى آخر السورة وأن ربيكم الله الذي إلى قوله المحسنين ﴿وقل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ [الإسراء: ١١٠] إلى آخر السورة، والصفات صفًا إلى قوله تعالى لا إله إلا الله، وما معشر الجن والإنس إن استطعتم إلى قوله فلا تنصرون، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا إلى آخرها، وأنه تعالى جد ربنا إلى قوله: شططا زاد البوني إلى قوله شهابا رصدا، والله من ورائهم محيط إلى قوله: محفوظ، قال محمد بن سيرين: فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب، فقال: كنا نسميها آيات الخرز ويقال: إن فيها شفاء من مائة داء، وعدوا منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن علي: قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فاذبه الله تعالى ذلك الفالج، قال البوني: هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور لا ينكرها إلا غبي أو غيور، وقد جربها المشايخ، وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ، وقدر شامخ، وهي على ما رويها بل ما رأينا أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني: سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: سمعت أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار أن من قال: لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداؤه من النار، فعملت ذلك رجاء بركة الوعد، ففعلت منها لأملي وعملت أعمالا ادخرتها لنفسي وكان إذ ذاك بيت معنا شاب يكاشف باجته والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلا على صخر سته، وكان في قلبي منه شيء، فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله، فنحن نتناول الطعام والشواب معًا إذ صاح صيحة منكرة، واجتمع في نفسه وهو يقول: يا هم هذه أمي في النار ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه من أمر، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت اليوم أجرب صدقه. فآلهمني الله تعالى السبعين ألفا، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى، فقلت في نفس الأثر حق والذين روه لنا صادقون: اللهم إن هذه السبعين ألفا فداء أم هذا الشاب من النار، فما استتمت هذا الخاطر في نفسي أن قال: يا عم هذه أمي أخرجت من النار، والحمد لله فحصل عندي فائدتان امتحاني لصدق الأثر وسلامتي من الشاب وعلمي بصدقه. ومن خاف إنسانا فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول: يا شديد المحال يا عزيز أذللت بمزتك جميع من خلقت. صل على محمد وآله واكفني فلانا بما شئت، كفا الله تعالى شره. وروى الثقي رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن هلى بن الحسين رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بني من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فإذا انصرف من صلاته يقول: يا موضع كل شكرى، يا سامع كل غوى ويا شاهد كل بلوى ويا منجى موسى والمصطفى محمد والخليل إبراهيم عليهم السلام، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعت حركته وقلت حيلته، دعاء الغريب الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قال على بن الحسين رضى الله عنهما: لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه، وقيل الاسم الأعظم هو بسم الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد يا شاعداً غير غائب يا غالياً غير مغلوب يا حى يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، أسألك بأسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات ووجلّت له القلوب أن تصلى على محمد وهلى آله وإن تعطينى كذا وكذا إنك على كل شيء قدير. وهذه آيات الفرج لأحمد بن حمزة البرنى قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهذه هي:

إني لأرجو عطفة الله ولا
لا بد أن ينشسر ما كان طوى
وربما ينشسر ما كان زوى
وكل شئ ينتهي إلى ملى
لطائف الله وإن طال الملى
كم فرج بعد إياس قد أتى
من لاذ بالله نجفا فيمن نجما
سبحان من نهفوا ويعفو دائماً
يعطى الذى يخطى ولا يمنعه
ومن المنظوم أيضاً:

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع
يا من يرجى للشهداء كلها
يا من خزائن رزقه فى قمر كن
مالى سوى فقري إليك وسيلة
مالى سوى قرعى لبابك حيلة
ومن ذا الذى أدعو وأهتف باسمه
حاشا لجودك أن تقتط عاصياً
ثم الصلوة على النبى وآله
وقال آخر:

يا غالى الخلق يارب العباد ومن
إنى دعوتك مضطراً فخذ يدي
نجيت أيوب من بلواه حين دعا
وأطلق سراحي وأمن بالخلاص كما

أقول إن قيل متى ذاك متى
جوداً وأن يطر ما كان خوى
وربما قلدر ما كان لوى
والشئ يرجى كشفه إذا انتهى
كلمحة الطرف إذا الطرف رمى
وكم سرود قد أتى بعد الأسى
من كل ما يخشى ونال ما رجى
ولم يزل مهما هذا العبد عفا
جلاله من العطا لذى الخطا

أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من إليه المشتكى والمفزع
أمن فإن الخبير عندك أجمع
فبالافتقار إليك فقري أدفع
فلئن رددت فلأى باب أقصرع
إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
الفضل أجزل والمواهب أوسع
خير الأنام ومن به يتشفع

قد قال فى محكم التنزيل ادعوني
يا جاعل الأمر بين الكاف والنون
بصبر أيوب يا ذا اللطف نجىنى
نجيت من ظلمات البحر ذا النون

ثم يقرأ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال بعضهم:

وقد تجدد بى ما أنت تعلمه
فمن سواك لهذا العبد يرحمه

يارب مالزال لطف منك يشملنى
فاصرفه عنى كما عودتى كرماً

وقال آخر:

عقود النوائب والشدائد
وإليه أوسر الخلق عائد
صمد تنزه عن مضاد

يا من تحمل بذكوره
يا من إليه المشتكى
يا حى يا قيوم يا

ساد وأنت في الملكوت واحد
 عك والمثل لكل جاحد
 م جيوثها نحرى نظارد
 يا من له حسن الموالد
 ن به على الزمن المعداد
 سب والمسهل والمساعد
 ببا يا إلهى لا تباعد
 ت من الأقارب والأبعاد
 ولكه الغسر الأمجاد
 ما غير للرحمن ساجد

أنت الرقيب على العباد
 أنت المعزز لمن أطا
 إنى دعوتك والهمم
 فافرج بحولك كسرتى
 فحرفى لطفك يستعما
 أنت المسير والمسجد
 يسر لنا فرجاً قريباً
 كن راحمى فلفد يشهد
 ثم الصلاة على النبى
 وعلى الصالحين أجمعين

دعاء عظيم مأثور: اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلنى، إلى بغض يتجهمنى، أو إلى قوى ملكته امرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى أعوذ بنورك وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك، أو ينزل بى سخطك، فلك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يارب العالمين.

وما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض: دعا رجل لآخر فقال: سر الله بما ساءك ولا ساءك فيما سر لك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق. ودعا أعرابي لآخر فقال: ربح وادبك وعز نادبك، ولا ألم بك ولا طاف بك عدم، وسلمك الله، ولا أسلمك. وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول: سلمك الله تعالى من الرحق والوهق، وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل، وسلمك الله من الشاردات والواردات، وسلمك الله بين الأعتة والأستة. ودعا أعرابي لمجد الله بن جعفر رضى الله عنه فقال: لا ابتلاك الله تعالى بلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار، وتناخض الظلم والأنوار، ودعا بعضهم لآخر فقال: زدك الله تعالى الأمن فى مسيرك والسعد فى مصيرك، ولا أخلاك من شهر تستجده وخير من الله تستمده، وعزى شبيب بن شبة يهودياً. فقال: أعطاك الله على مصيبتك ما أعطى أحداً من أهل ملكك.

وما جاء فى الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم: دعا أعرابي على ظالم فقال: لا ترك الله لك شرفاً ولا ظفراً، أى عيناً ولا يداً. ومن دعاء العرب: «فنه الله فتاً رحته حناً وجعل أمره شتى». وخرج أعرابي إلى سفر وكانت له امرأة تكرمه، فاتبته نواة وقالت: شط نواك ونأى سفرك، ثم أتبعته روثة وقالت: رثك أهلك وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة، وقالت: حاص رزقك وحص أثرك. ودعا أعرابي على آخر فقال: أطفأ الله ناره وخلع نعليه، أى جعله أعمى مقعداً. ودعا أعرابي على آخر فقال: ساء الله دم جوفه أى قتل ابنه، وأخذ دينه فشرّب لبها. ودعا أعرابي على آخر فقال: بعث الله عليه سنة قاتورة تحلقه كلما يعلق الشعر بالنورة، ودعا رجل على أمير فقال:

فقد ثقلت على عنق الليالى

أزال الله دولته سريراً

وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها:

إلا وأخسر يستلبوه بآمين
 وليتنى قبله قد صرت للصين

ومما دعوت عليه حين البعثه
 فليسته كان أرض الروم منزله

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم الأحزاب: «اللهم كل سلاحهم، واضرب وجوههم، ومزقهم في البلاد تمزيق الريح للجراد». ودعا رجل، فقال: اللهم اكفنا أعداءنا، ومن أردنا بسوء، فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلاد بتراب الولاد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب القيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنتختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك، إلهي إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت. وبعار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالخال أعلم، إلهي ما عصيتك جهلاً بعقابك، ولا تعرضاً لعذابك، ولكن سولتُها نفوسنا وأعانتنا شقوتنا، وغرنا مسترك علينا، وأطمعنا في عفوك برك بنا، فسالآن من عذابك من ينقذنا؟ ويحبيل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ واخجلناه غداً من الوقوف بين يديك، وافضيتناه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك، اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت. إلهي إن كنا عصيانك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا يبالي، إلهي تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً، لساناً كان لك ذاكراً، وداعياً لا بالذي دنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك، وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك، فإن حقّه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزله لديك أشرف المنازل، سيد خلقك، ومعدن أسرارك، صل يارب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إمهالك، وأطعمهم كثرة أفضالك، فقد ذلوا لعزك وجلالك ومدوا أكفهم لطلب نوالك، ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجري في العالم، من حركة، وسكون، وخير، وشر، ونفع، وضرر، وإيمان، وكفر، وطاعة، ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته وعشيته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره، فهو كائن لا محالة كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر فإن تعسر شيء فبغيره، وإن اتفق شيء فبغيره، فمن رام أمراً من الأمور ليس الطريق في تحصيله أنه يغلث بابه عليه ويغوض أمره لربه، ويتنظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه له فيه.

وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزمت عليه الأحزاب يحترس به من العدو وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لامة الحرب ويهين الجيوش ويأسرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم، واسترقى وأمر بالرقية، وتداوى وأمر بالمداواة، وقال: الذي أنزل الداء أنزل الدواء، فإن قيل: قد روى أن النبي ﷺ قال: من استرقى أو اكسوى فهو برئ من التوكل، قلنا: ليس قد قال: اعقلها وتوكل. فإن قيل: فما الجمع بين ذلك؟ قلنا: معناه من استرقى أو اكسوى متكللاً على الرقية أو الكي، وأن البرء من قبلهما خاصة، فهذا يخرج عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله. وقد أمرنا بالكسب والتسبب. ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام: ﴿ وهزي إليك الجذع ﴾ [مريم: ٢٥] فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى قمها وأنشدوا في ذلك:

ألم تر أن الله ————— يسأل لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن نجنيه من غير هذا
جنته ولكن كل شيء له سبب

وقد تقدم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطائناً»، فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح. وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا: إنها كالعذلين على ظهر الدابة، إن حمل في واحد منهما أرجع عما في الآخر سقط حمله وتعب ظهره وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره وتمت بغيته. وضررنا فيه مثلاً عجيباً، فقالوا: إن أعصى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر لا قائد للأعصى ولا حامل للمقعّد، وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتساباً لله تعالى، فلم يزلوا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلما أياماً واشتد جوعهما وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعصى يحمل المقعد فيدله المقعد على الطريق يبصره، فاشتغل الأعصى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق وأهل القرية يتصدقون عليهما، فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا. فكذا القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد في بيته لم يظأ زوجته ولم يبلر أرضه محتقناً في ذلك على الله والثاقا به أن تلد امرأته من غير مواءمة، وأن ينبت الزرع من غير بذر، كان عن المقول خارجاً، ولأمر الله كارهاً.

قال الغزالي: أما المغيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتكبيراً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً، وقال: اتفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا. وقال عبد الله بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن آدم، وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه، وإذا بحية في فمها ساقاة ترجس، فمارالت تذب عنه حتى انتهت. فحسبك توكل يؤدي إلى هذا. وعن عبد الله الهروي قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل ابن قبيس فقال: لو أن رجلاً صدق في توكله على الله ثم قال لهذا الجبل اهتز لاهتز،

فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك، فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فسكن، وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقتض الف دينار، فجاء إلى رجل من التمولين فسأله في ذلك وقال له: تمهل على يديك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي مالا أتيتك به، وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا، فقال له: هذا غرر، فإنا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لي كفيلاً إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك، فإن رضيت فافعل، فدخل الرجل خشية الله تعالى، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذى ذكر، فلما قرب الأجل الذى بينه وبين صاحبه جوه المال وقصد السفر إلى البحر فحضر عليه وجود مركب، ومضت المدة ويسعدا أباه وهو لا يجد مركباً، فاغتم لذلك، وأخذ الألف دينار وجعلها فى خشبة وسمر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها، وقد تعذر على وجود مركب وعزمت على طرحها فى البحر وتوكلت عليك فى إيصالها إليه، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال، وطرحها فى البحر بيده وأقام فى البلدة مدة بعد ذلك، إلى أن جاءت مركب فأسافر فيها إلى صاحب المال، فابتدأ وقال: أتت سيرت الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: قد أرسلها الله تعالى إلى، والله نعم الكفيل، فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتزد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك، فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلى ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجمعها حطباً، فلما كسرها وجد ما فيها، فأخبرني بذلك، فقرأت ما عليها، فعلمت أن الله تعالى أملك لما توكلت عليه حق التوكل، وقيل: إن سبب بداية ذى النون المصرى رحمه الله تعالى أنه رأى طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى، فينمى هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر، فإذا هو بسكرجيتين^(١) برزتا من الأرض إحدهما ذهب والأخرى فضة، هذه فيها ماء والأخرى فيها قمع، فللقط القمع وشرب الماء. ثم غابا بعد ذلك فذهل ذو النون، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكى أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصياغة، وكان أوحده أهل زمانه، فساء حاله واقتصر بعد غناه، ففكر الإقامة فى بلده، فانتقل إلى بلد آخر، فسأل عن سوق الصاغة، فوجد دكاناً لعلم السلطنة وتمت يده صنع كثيرة يعملون الأشغال للسلطة، وله سعادة ظاهرة ما بين عماليك وخدم وقماش وغير ذلك، فتوصل الصانع الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم وأقام يعمل عنده مدة، وكلما فرغ النهار دفع له درهماً من نفضة، وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم، فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم، فاتفق أن الملك طلب المعلم ونأوله فردة سوار من ذهب مرصعة بفضوص فى غاية من الحسن قد عملت فى غير بلاده كانت فى إحدى يد محافيه، فانكسرت، فقال له: الحيمها، فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه فى عملها، فلما أخذها وأراها للصانع الذين عنده وعند غيره فما قال له أحد إنه يقدر على عملها، فآزاد المعلم لذلك غماً، ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع، فاشتد الملك على إحضارها، وقال: هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ولا يحسن أن يلحم سواراً، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال للمعلم قال فى نفسه هذا وقت المروءة اعلمها ولا أؤاخذ به بخله على وعدم إنصافه ولعل يحسن إلى بعد ذلك، فحط يده فى درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت، ونظم عليها جواهرها، فعادت أحسن مما كانت، فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً، ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسنها وادعى المعلم أنها صنته، فأحسن إليه وخلع عليه خلعة سنية، فجاء وجلس مكانه، فبقى الصانع يرجو مكافئته عما عامله به. فما التفت إليه المعلم، ولما كان النهار ما واده على الدرهمين شيئاً، فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه وأكد عليه فى تحسين الصفة وسرعة العمل، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك، فاستل مرسومه ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين، وهو لا يزيد شيئاً على الدرهمين فى كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير ولا يتجمل معه، فرأى المصلحة أن يتش على زوج الأساور أحياناً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك، فتش فى باطن أحدهما هذه الآيات نقشاً خفياً يقول:

(١) سكرجة: بضم السين والكاف والراء والتشديد، وهى: إناء صغير يؤكل فيه الشئ القليل من الأدم، وهى فارسية.

مصاب الدهر كفى	إن لم تكفى فـ
خرجت اطلب رزقى	وجـدت رزقى
فـلا يـرزقى أحظى	ولا بهنـعة كـفى
كم جـاهل فى الثـريا	وعـالم مـتـخـفى

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الآيات للمعلم شرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك، ثم لفهما في قطن وتاولهما للمعلم فرأى ظاهرها ولم ير باطنهما لجله بالصنعة، ولما سبق له في القضاء، فأخذها المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك، وقدمهما إليه، فلم يشك الملك في أنها صنعة، فخلع عليه وشكره، ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع، وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما في يديها، فأخذها ليعيد نظره فيها وفي حسن صنعتهما، فقرأ الآيات، فتعجب وقال: هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب، فغضب عند ذلك، وأمر بإحضار المعلم، فلما حضر قال له: من عمل هذين السوارين؟ قال: أنا أيها الملك، قال: فما سبب نقش هذه الآيات؟ قال: لم يكن عليهما آيات. قال: كذبت. ثم أراه النقش. وقال: إن لم تصدقني الحق لأضربن عنقك، فأصدقته الحق. فأمر الملك بإحضار الصانع، فلما حضر سأله عن حاله، فحكى له قصته، وما جرى له مع المعلم، فرسم الملك بعزل المعلم وإن تسلب نعمته وتعطى للصانع، وأن يكون عوضاً عنه في الخدمة ثم خلع عليه خلعة سنية، وصار مقدماً سعيداً، فلما نال هذه الدرجة. وتمكن عند الملك تطف به حتى رضى عن العلم الأول وصاراً شريكين ومكناً على ذلك إلى آخر العمر. ورحم الله من قال:

إذا كان سعيد المرء في الدهر مقبلاً
تدانت له الأشياء من كل جانب
وقال آخر:

مَا سَلَكَ اللَّهُ هُوَ السَّالِمُ
تَجَرَّوْهُ الْمُقَادِيرُ الَّتِي قَدَّرَتْ
وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ:
لَيْسَ كَسَمَاعٍ يَزْعُمُ الزَّاعِمَ
وَأَنْفَ مَنْ لَا يَسْتَرْضِي وَاعِمَ

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
سمي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسمي الفتى لأمر ليس يذركها
والنفس واحدة والهم متشعر
والمرء ما عاش محمود له أمل
لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمر

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه . فقال له الطائر : يا نبي الله : هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيده بي وأنا أنظر إليه ؟ قال : فذهب عنه ذلك الشيء عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ ، فقال له : عجباً لك ألست القاتل كذا وكذا أنف ؟ فقال : يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين . ويروي أن رجلاً قال لبرجمهم تعال نتناظر في القدر . قال : وما تصنع بالنظرة ؟ قال : رأيت شيئاً ظاهراً استدلت به على الباطن ، رأيت جاهلاً ميروراً وعالماً محروماً ، فعلمت أن التدبير ليس للعباد . ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب : أنت أدهى الناس وأعلمهم ، فكيف طرحت نفسك في يد سليمان ؟ فقال : إن الهدى ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ، وبصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم ، ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك :

وإذا خشيت من الأمور مقدراً وقررت منه فنهضه توجّه

وقال آخر:

مطاياء وغـرد حـاديها	أقام على السـير وقد أثـمحت
على نفـسى وإن ألقى رداها	وقال أخاف عادية الليالى
ومن كتسبت عليه خطأ مشاها	مشيئتها خطأ كتبت علينا
فليس يموت فى أرض سـواها	ومن كانت منيته بأرض

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد فى منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل. وإذا كان الغدر فى الناس طبعاً فالشفقة بكل أحد عجز. وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس وجعفر بن محمد رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ نَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]. إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجب لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

وحكى الطروشى رحمه الله تعالى فى كتابه «سراج الملوك» قال: من عجيب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففى بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فأنقلت فى بعض الطرق وترامى فى بئر والمدينة إذ ذاك مسرده بسرداب يمشى الماشى فيه قائماً، فمارال الرجل يمشى إلى أن لاحت له بئر مضيئة، فطلع منها فإذا البئر فى دار النائب، فلما طلع أسكه النائب وأدبه، فكان فيه المثل السائر: الغار من القضاء الغالب كالتقلب فى يد الطالب. وأنشدوا فيه:

قالوا تقسيم وقد أحسـاط	بك العـدد ولا تقـسـر
لا نلت خـيـراً أن يـقـسـم	ت ولا عـددائى الدهـر شـر
إن كنـت أمـلـم أن	غـيـر الله ينـفع أو يـضـر

فى التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة. وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [التور: ٣١]. ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التورى: ٢٥]. وفتح باب الرجاء فقال: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وروى فى الصحيح عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإني أتوب إلى الله تعالى فى اليوم مائة مرة».

وروى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت بيوم، فقال الشاني: أئت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم، فقال الثالث: أئت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحية، أو قال بضجعة، فقال الرابع: أئت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته، فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال: أرجع إلى المكان الذى ضللتها فيه وأموت، فإني مكانه فغلقت عينه فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فآله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده». وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» (رواه البخارى) وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يسط يد بالليل ليتوب مسئ النهار، ويسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» (رواه مسلم) وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن قتل رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راعب فآناه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وكمل به المائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فآناه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم. ومن يحل بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناس يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أمرك الموت فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فاتاهم ملك فى صورة آدمى فحكمو بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو أقرب لها، فقاوسه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة (متفق عليه وفى الصحيحين) فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشير فجعل من أهلها.

وعن أبى نعيم بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعى رضى الله عنه، أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حيلة من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حداً فاقمه على فدعا نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال عمر: يا رسول الله تصلى عليها وقد زنت؟ قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من جادت بنفسها لله عز وجل (رواه مسلم).

وعن أبى بصرة قال: لقيت مولى لأبى بكر رضى الله عنه فقلت له: سمعت من أبى بكر شيئاً، قال: نعم، سمعته

يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكى.. أن نيهان التمار وكتبت أبو مقبل أنه امرأة حسنة تشتري غرًا، فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه، فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فانزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [آل عمران: 135] إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت عليًا يقول: إني كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله حديثًا ينفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استخلفته فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: ما من عبد يذنب ذنبًا فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له.

وروي في الصحيح أيضًا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أذنب العبد ذنبًا فقال يارب أذنبت ذنبًا فاغفره لي، قال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له. ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنبًا آخر، فقال: يارب أذنبت ذنبًا فاغفر لي، قال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ماشاء». وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دلائمكم ودوائكم، أما دواؤكم فالاستغفار، وأما دواؤكم فالذنوب، وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة، قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقال رسول الله ﷺ: «من صام عشرًا حين يصبح وحين يمسي: استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج. ومن قال سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل ديب النمل».

وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر وزيد البحر محبتك إذا استغفرت بهذا الاستغفار، وهو هذا: اللهم إني أسألك واستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي ثم لم أوف لك به، واستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، واستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك، يقول الله عز وجل ملائكتك: ويع ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فاغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فاغفر له لا هو يترك الذنب من مخافتى ولا يئأس من مغفرتى، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت له.

وقال بشر الحافي: بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين ترفعوا عليه سبع ساعات، فإن استغفروني فلا تكتبوها وإن لم يستغفروني فأتكتبوها.

نكتة.. قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات وهلك الحيوان، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلًا من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقرَّبوا قربان تذللهم وخشوعهم ودموعهم تجرى على خدودهم ثلاثة أيام، فلم يمطر لهم، فقال موسى اللهم آت القائل: ادعوني استجب لكم وقد دعوتك وعبادتك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذاه حرام وفيهم من يسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يارب حتى نخرجهم من بيننا؟ فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا غام. ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعاظم يتوبوا معكم فأجود بإنعامي عليكم، فنادى موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه والعصاة يسمعون، فلرقت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جئناك من أروانا هارين، ورجعنا إلى بابك طالبين فارحمنًا يا أرحم الراحمين، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يارب العالمين. أوحى الله إلى داود عليه

الصلاة والسلام: يا داود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم، لآتوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود هذه إرادتى فى المدبرين عنى فكيف إرادتى بالمقبلين على، ولقد أحسن من قال:

أسى فبجزى بالإساءة إفضالاً	وأعصى فسيولنى برّاً وإسهالاً
فحتى متى أجفوه وهو يبرنى	وأبعد عنه وهو يبدل إيهالاً
وكم مرة قد زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن سئر القسبح ولا رالا

وهذا آخر ما يسهه الله تعالى فى هذا الباب والله أعلم بالصواب.

فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء

وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الأمراض والعلل وما جاء في ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد الله بن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أهمكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله، قال: أتحبون أن تكونوا كالخمير الصواله، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات والذي بعثنى بالحق نبياً إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فينتليه الله تعالى ليبلغ درجة لا يبلغها بعمله، وقال ﷺ: ما من مسلم يعرض إلا حط الله من خطاياه كما تحط الشجرة ورقها، وكان يقول: لاتزال الأوصاب والمصائب بالمعدتي تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة».

وقيل: إن الناس قد حُموا في فتح خير، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض وقطعة من النار، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء في الشنان، ثم صبروا عليكم بين المغرب والعشاء، ففعلوا ذلك فزال عنهم.

وعن أنس رضى الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه بما يخاف».

وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى، أنها سمعت رجلاً يقول: ما أشد العمى على من كان بصيراً، فقالت له: يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا. والله لوددت أن الله وهب لى كنه معرفته ولم يبق منى جارحة إلا أخلعها.

وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره، فكتب إليه: أما بعد. . فقد همت كتابك فيه شكاية ريك، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام.

وقيل لعطاء في مرضه: ما تشتهي؟ قال: ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة. وأصاب ابن أدهم بظن فوضاً في ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابي في مرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنة، فقيل: أفلا ندعوا لك طبيباً؟ قال: طيبى هو الذى أمرضنى.

الفصل الثانى من هذا الباب: في ذكر العلل كالبحر والمرج والعمى والصمم

والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة

قيل: تسارر أبخر وأصم، فقال له الأصم: قد فهمت ثم فارقه. فسأله رجل فقال: والله لا أدرى غير أنه فسا في أذنى. وقيل: إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعرض يوماً على تفاحة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال: ما تصنعين بها؟ قالت: أميط الأذى عنها. فشق عليه ذلك منها فطلقها. وسارر أبو الأسود الدؤلى سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر، فستر سليمان أنفه بكفه فغير أبو الأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيخوخ البخر. وقيل: أطول انطباع الغم يورث البخر وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه. وقيل: إن الزنج أطيب الناس أفواهاً، والسباع موصوفة بالبخر، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البخر والكلب من بينهما طيب الفم، وليس في البهائم أطيب أفواهاً من الظباء.

وحكى. . أن أبخر تزوج بامرأة. فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها. ثم أنشدت تقول:

يا حبُّ والرحمن إنَّ فـاكا
أهلكنى فولنى قـفاكا
إذا غدوت فاتخذ مـواكا
من عـرط إن لم تـمد أراكا
لا تقـرنى بالذى مـواكا
إنى أراك ماضئاً عـراكا

فى ديوان المشور: كم من ذى عرج فى درج المالى عرج، وكم من صحيح قدم ليس له فى الحير قدم. وقيل: إن من الصم من يسمع السر، فإذا وقعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشى. وقيل: إن طريقاً الشاعر مدح عمرو بن هذاب، وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله: أبرص فياض اليدين مهذب. صاح به الناس وقالوا قطع الله لسانك، فقال عمرو مه إن البرص مما تتفاخر به العرب أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أبشـتمنى زيدُ بأن كنت أبرصاً
وكل كـريم لا أبالك أبرصُ
قال:

كفى حزناً أتى أعاشر معشراً يـخ
سـوضون بعض الحديث وأـمك
وماذاك من عي ولا من جهالة
ولكنه ما فى للهوت مـلك
فإن سد متى السمع فالله قادرُ
على فتحه والله للعبد أملك

ومما جاء فى العمى: ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: من عدم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة. وكان أبو عبد الرحمن بن الحرث بن هشام يطعم الطعام، وكان أعور، فجعل أعرابى يطيل النظر إليه حاسباً نفسه عن طعامه، فكلمه الغيرة فى ذلك فقال: والله إنى ليعجبنى طعامك وتربيتى عينك، قال: فما يريك من عيني؟ قال: أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال. فقيل له: إن عينه أصيبت فى فتح الروم فقال: إن الدجال لا تصاب عينه فى سيل الله. وعن أس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تحسه النار. وقال على كرم الله وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده، وقال أبو على البصري:

لئن كان يهدينى الخلام لوجهتى
ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
لقد يستضى القوم بي فى وجوههم
ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب
وقال:

إذا عـدمت طلبة العلم ما لها
من العلم إلا ما تسطر فى الكتب
غدوت بشـمير وجدّ عليهم
ومحبرتى سمعى وها دفترى قلى
وقال:

إن يأخذ الله من عيني نورهما
فهمى ذكى وقلبي ضير ذى غفل
وقال:

عـزماك أبها العين الكوب
وكنـت كـريمـتى وسـراج وجـهى
وحـققك أئـها ثوبُ ثـنوب
وكـسـات لى بك الدنـيا طـيب

على الدنيا السلام فما لشيخ
يموت المرء وهو يمدح حسينا
ضربوا العين في الدنيا نصيب
ويخلف ظنه الأمل الكنوب
إذا ما مات بعفك فابك بعضا
فإن البعض من بعض قريب

وحكى... أن ربيعة رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم انشد يقول:

عينا ربيعة رمدوا فاحتسبي
إن تكتحل بك عينا فلا رمد
بنظرة منك تشفني من الرمد
على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: داء الأنبياء الفالج والقوة. قال الجاحظ: ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام، وأكثر ما يعزى للتوسطين من الناس لأن الشباب كثير الحرارة والشيخ كثير اليبس. وقيل: إن أبا بن عثمان كان أفلج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان، وكان معاوية ألوق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم، وعمن فلج ابن أبي داود قاضى قضاء المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه، قال الشاعر في رجل ضرب غلامه:

اتضرب مثله بالسوط عسراً
ضربت بفالج ابن أبي داود

وشجة عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهم، وكان بارعاً في الحسن والجمال فزادته حسناً إلى حسنه حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد، وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بنى أمية، وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول: إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر في جبهته، قال أصبغ: الله أكبر هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلاً. وقال أمّود لأبي الأسود: ما الشيء ونصف الشيء. ولا شيء فقال: أما الشيء فالصبر كأننا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشيء فأتت يا أعور. اللهم اكفنا شر العاهات يرحمك ومنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث من هذا الباب: في التداوى من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ تداؤوا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء. وقال ﷺ: ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفة من عرفه وجهله من جهله. وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى؟ قال: هما من قدر الله تعالى. وقال عبد الله بن عكرمة: عجب لمن يحتمى من الطعام خوف الداء، ولا يحتمى من الذنوب خوف النار. وقيل: إن الربيع بن خثيم لما مرض قالوا له: ألا تدعوا لك طبيعاً، فقال لهم: إن مرضى من الطبيب وأنه متى أراد عافاني، ولا حاجة لي بطبيكم، وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيباً لطبي
وعاد الفرزدق مريضاً فقال:

يا طالب الطب من داء تخوفه
فهو الطبيب الذى يرجى لعافية
لا من يذيب لك التبريق بالماء
إن الطبيب الذى أهلكك بالداء

قال: ولما مرض بشر الحافي^(١) رحمه الله تعالى قالوا: أئندعوا لك طبيباً؟ فقال: إني بعين الطبيب يفعل بي ما يريد،

(١) بشر بن الحارث: هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء، يكنى أبا نصر، المعروف بالحافى مروى. سكن بغداد، كان من شاق أهل عصره بالورع والزهد وتفرغ بولور العقل، وأتباع الفضل، وحسن الطريقة، واستقامة المذهب، وعزوف النفس، كان كثير الحديث، إلا أنه لم يتعب نفسه للرواية، وكان يكرهها ويدفن كتبه لأجل ذلك، توفي ببغداد سنة (٢٢٧هـ).

فألقى عليه أهله وقالوا: لابد أن ندفع ساءك إلى الطبيب، فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء في قارورة وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حاذقاً في الطب، فأتوه بجاءه في القارورة فلما رآه قال: حركوه فحركوه ثم قال: ضمّوه ثم قال: ارفضوه. فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: وسم وصفت لكم؟ قالوا بالحق والمعرفة، قال: هو كما تقولون غير أن هذا الله إن كان ماء نصراني فهو رهاب. قد فتنت كبده العبادة، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الحافى فإنه أوحده أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى، قالوا: هو ماء بشر الحافى، فأسلم النصراني وقطع زناره فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب، فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجتم من عندي هتف لي هاتف وقال: يا بشر ببركة مالك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة. ففلق الربيع بن خيثم فقيل له: هلا تداويت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق، ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأوجاع كثيرة والأطباء أكثر فلم يبق المداوى ولا المداوى وقد أبادهم الموت. ثم قال هذا المفرد:

هـلِكَ الْمَدَاوِي وَالْمَدَاوِي وَالْمَدَاوِي جَلِبَ الدَّوَاءُ وَبَاعَهُ وَالْمَشْتَرِي

وقيل لجالينوس حين نهكه العلة: أما تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من السماء بطل الدواء من الأرض، وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المريبوب. وسر قوم جاء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات مطيبات وهن من أجمل الناس، فأحبوا أن يروهن فحسوا ساق أحدهن حتى آدموها ثم قصدوهن فقالوا: هذا جريح مريض فهل من طبيب؟ فخرجت صغراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت: ليس هو بمرض بل خدشه عود بالث عليه حية فإذا طلعت الشمس مات، فكان الأمر كما قالت. وقيل دواء كل مريض بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله في مائنها وشربه، لم يمرض فيها وعوفي من وبائها، واحتسب أحد بن المحدث لعله أصابته فبرئ. فقال: الحمية طالع الصحة لاهل الدنيا تبرئهم من المرض، ولاهل الآخرة تبرئهم من النار. وقيل: إن الأبدان المعتادة بالحمية أفتها التخليط، والمعتادة بالتخليط أفتها الحمية، لأن الحكماء يقولون عودوا كل جسد بما اعتاد. وكان كسرى أبو شروان يسك عما تميل إليه شهوته ولا يهتمك عليه، ويقول: تركنا ما نحب لنستغي عن العلاج بما نكره. وقال لقمان: لا تطلوا الجلوس على الخلاء فإنه يورث الباسور. وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش أي الكتف. وقيل: كفى بالمرء عاراً أن يكون صريع مأكوله وقتل أنامله.

فكم أكلة أكلت نفس حـــــ وكم أكلة جلبت كل ضـــــ

وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام، أنه كان إذا أصابه علة جمع بين ماء زمزم والمسل واستوبه من مهر أهله شيئاً، وكان يقول قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ [ق: ٩]. وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٦٩]. وقال عليه الصلاة والسلام: ماء زمزم لما شرب له. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ جِئْتُمْ بِكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَذَكِّرُوا هَذَا مُرَبِّاً﴾ [النساء: ٤]. من جمع بين ما يورث فيه، وبين ما فيه شفاء، وبين الهنئ المرئ، يوشك أن يلقى العافية، وقيل خمسة من المهلكات: دخول الحمام على الشبع، والمجامعة على الشبع، وأكل القديد، وشرب الماء البارد على الريق، ومجامعة المرأة المعجوز. وقال: لا تنكح المعجوز ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجِه. وقال الإمام على رضي الله عنه:

تَوَقَّ مَدَى الْأَيَّامِ إِدْخَالَ مَطْعَمٍ عَلَى مَطْعَمٍ مِنْ قَبْلِ هَضْمِ الْمَطَاعِمِ
وَكُلَّ طَعَامٍ يَعْجِزُ النَّفْسَ مَضْفُوعٌ فَلَا تَقْرِصْهُ فَيَهْوَ شَرَّ لَطَاعِمِ
وَوَفَّرْ عَلَى الْجِسْمِ الدَّمَاءَ فَيُنْهَمَا لِقَوَّةِ جِسْمِ الْمَرْءِ غَيْرِ الدَّعَائِمِ
وَلِيَّاكَ أَنْ تَنْكَحَ طَوَاعِنَ مِنْهُمْ فَإِنَّ لَهَا سَمّاً كَسَمِّ الْأَرَاقِمِ
وَفِي كُلِّ أَسْبُوعٍ عَلَيْكَ بِمَقِيَّةٍ تَكُنْ أَمّاً مِنْ شَرِّ كُلِّ الْبِلَاغِمِ

وما يورث الهزال، التوم على غير وطاء وكثرة الكلام برفع الصوت. وقال النظام رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر في المرأة وكثرة الضحك والنظر إلى النجوم. وفي الحديث احتجم رسول الله ﷺ في أم مفيت وهي وسط الرأس، وكان ﷺ يستجم في الأخدعين، ونهى عن الحمامة في نفرة القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال، فقال في آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليتنازل بالخل، ففعلوا فعاغاهم الله. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر في عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك، قرب شظية حقيرة قلعت عيناً خطيرة. وقيل: كانت الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء: يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس: البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج، والإسهال الذريع، والإقحام، وصنفاً من الجذام يقال له: الفهدلا يسمع صاحبه ولا يبصر، نال الله العفو والعافية. وقيل: البطنة تورث الصداع، والكمة في العينين، والضريان في الأذنين، والقولنج في البطن، فمليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى واتق الليل وطعامه جهك. وقال جالينوس: الغم المفرط يبيت القلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه. وقيل: إنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لوزاً فكان يصف وهو على المائدة منغعة كل لون ومضرتة. فقال يحيى بن أكرم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأتت جالينوس في معرفته، أو في النجوم فأتت هرمس في صناعته، أو في الفقه فأتت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في علمه، أو في السخاء فأتت حاتم في كرمه، أو في الحديث فأتت أبو ذر في صدق لهجته، أو في الوفاء فأتت السموال بن عدياء في وفائه، فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما أفضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذلك لكانت الناس والبهايم سواء. وقال طبيب الهند: إن منغعة الحفنة للجسد كمغقة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر. وقيل: الشراب في آتية الرصاص أمان من القولنج. وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هي قارورتك لأنه ماء ميت وأنت حي تكلمتي، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتاً. وقيل: إن ملكاً من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطبيب فأمره أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصى فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتك؟ نزعنا فذهبت لحيتك. وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطروس، فأحضر طبيباً كان عنده فلم يتفعه علاجه. فبلغ يقصر فأرسل إليه قلتسوة وكتب له: بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك، فخاف أن تكون مسمومة فوضعا على رأس القاصد فلم يصبه شيء، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعا على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ثم أنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوباً فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى في عرق ساكن وغير ساكن حم عسق لا يصدعون عنها ولا يتزفون من كلام الرحمن خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ادهنوا بالتفسيح فإنه حار في الشتاء بارد في الصيف. وقال أيضاً رضي الله عنه: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ويشد العصب ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم. وعنه رضي الله عنه: إن لم يكن في شيء شفاء ففي شرطة حاجم أو شرية من عسل. وقال الحجاج لطيبه: أخبرنا بجوامع الطب. فقال: لا تنكح إلا فتناً ولا تأكل من اللحم إلا فتناً، وإذا تغذيت فم وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخلن بطبك طعاماً حتى يستمرى ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلا، وكل الفاكهة في إقبالها وذرها في إيدارها.

وأوصى حكيم خليفته وصية ووعدته أنه إذا لارمها لا يمرض إلا مرض الموت. فقال: إياك أن تدخل طعاماً على طعام ولا تمش حتى تميا، ولا تجمع عجوراً، ولا تدخل حماماً على شبع، وإذا جمعت فكن على حال وسط من الغذاء، وعليك في كل أسبوع بقية، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نصعها ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغذيت فم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة، ونم على يسارك لتقطع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها، وتسترخ الكبد من حرارة المعدة. ولا تنم على يمينك فيبطئ الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاه إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتاج. واقعد على الطعام وأنت تشتهي وقم عنه وأنت تشتهي. قال بعضهم:

شَرَهُ النَّفْسُ عَلَى الْجَسَدِ بِهَيْئَةٍ
مَا مِنْ فِتْنَةٍ شَرَّهَتْ لَهُ نَفْسٌ وَإِنْ
وَقَالَ أَبُو الْفَيْضِ الْقَاضِي يَدَّحِ الْفَضْلُ وَقَدْ فَصَدَ:
أَرَقَّتْ دُمًّا لَوْ تَكَبَّ الْمَرْءُ مِثْلَهُ
دُمًّا طَيِّبًا لَوْ يُطْلَقُ الشَّرُّ شَرَّهُ

الفصل الرابع: فيما جاء في العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ : ثلاثة في ظل العرش، عائد المريض، ومشيح الموتى، وطائع الوالد. وفي رواية ومعرى الشكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة. مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فاطلوا الجلوس عنده فقال: المريض يعاد والصحيح يزار، قال الشاعر:

يمدّن مريضاً من هين جداءه
ألا إنما بعض العـــــوالد دائــــم

وقيل: إذا دخل العرّاد على الملك فحقّهم أن لا يسلّموا عليه فيحوجّوه إلى رد السلام ويتهبّوه، فإذا علموا أنه لاخطئهم دعواه وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرتك بالعلم من الخطايا وتمتّع بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة. ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بِإِغْوَاؤِكَ الْإِنسَانَ لَلْكِبْ كُلِّ مَأْ
فَكَفَّلُوا لَهُمُ امْرَأَتَهُمْ بِقَدَرِ احْتِمَالِهِ
(وقال آخر):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مالي مريض فلم يمدني عائدُ
منكم ويمرض كلجكم فأعوذ

فسمي بعد ذلك عائد الكلاب. وعاد مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه بعض المرضى فقال:

عَادَنِي مَالِكٌ فَلَسْتُ أَبَالِي
بِعَدٍّ مِنْ عَادَنِي وَمَنْ يَعْدُنِي

وقال علي بن الجهم^(١):

أراقـد الليل مسروراً عـدمت إذا
عـيشي وأحمد يرعى ليله وصبا

الله يعلم أنى قـلـد نـفـرت له
صيام شهر إذا ما أحمد ركبـا

(١) علي بن الجهم: هو علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود الشامي، أبو الحسن الشاعر المشهور، أحد الشعراء المجلين، له ديوان مشهور، وكان جيد الشعر علماً بفنونه، نقاه المتوكل إلى غراسان، ولي في عهد المأمون بريد اليمن وطرازا، وولي له الشفور. توفي في سنة (٣٤٩هـ).

(وقال آخر):

إذا مرضتُم أتيانكم نعوذكمو وتذنبون فنأتيكم ونعتنلر

(وقال آخر):

أعاذك الله من أشيَاء أربعة الموت والعشيق والإفلاس والجربُ

وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

قالتُ مرضتُ فعدتها فتجرت فهي الصحيحة والعليل المائد
والله لو أن القلوب كقلبها ما رق للولد الصغير الوالد

(وعلى الثاني قول بعضهم):

حق العيادة يوم بعد يومين وجلسةٌ مثل خلس اللحظ بالعين
لا تُسرِمَ عليلاً في مُساءلة يكتيك من ذاك تالٌ بحرفين

وفضل العيادة مشهور، وشرفها مذكور، وبها تعظم الأجور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق للصواب.

فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات لأحدكم ميت فحسبوا كفته وعجلوا إنجاز وصيته وأصغوا له فى قبره وجنبوه جار السوء، قيل: يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة؟ قال: وهل ينفع فى الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: وكذلك فى الآخرة. ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر: زر القبور تذكر بها الآخرة، ولا تزرها بالليل وغسل الموتى يتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى، وقيل: جزعك فى مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك فى مصيبتك أحسن من جزعك. ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد. ودخل عمرو بن العاص رضى الله عنه على معاوية فى مرضه، فقال له: أعانك أنت أم شامت؟ فقال له عمرو: ولم تقول هذا، والله ما كلفتنى رهماً ولا أصدعتنى زلفاً ولا جرعتنى علقاً، فلم أستطع حياتك ولم أستطيع وفاتك. فأنشد معاوية يقول:

فهل من غيبالدين إذا هلكنا وهل فى الموت بين الناس عــــــــــــــــار

ولما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه، وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لى فراشاً وأسندوني وأوسعوا رأسى دهاناً ثم أكلوا عيني بالإثمد ثم اتذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قياماً ولا تجلسوا عندى أحداً، ففعلوا ذلك، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول:

وتجلى للشامتين أريهم أنى لرب الدهر لا أتضــــــــــــــــع
وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل قــــــــــــــــمة لا تنفع

وقيل: لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموت لامنجى من الموت والذى نحساذر بعهد الموت أدهى وأظن

قال: ثم رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة وأعف عن الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة، وليس لى خطيئة منك مهرب. ومات رحمه الله تعالى. وذكر أبو العباس الشيبانى قال: وفد على أبى دلف عشرة من أولاد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى العلة التى مات فيها فاقاموا ببابه شهراً لا يؤذن لهم لشدة العلة التى أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه بشر: إن قلبى يحدثنى أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فاتفتح الباب ولا تمنع أحداً، قال: فكان أول من دخل آل على رضى الله عنه فسلموا عليه ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفينا من ولده وقد حطمتنا المصائب وأجحفت بنا النواصب، فإن رأيت أن نجبر كسيراً وتغنى فقيراً لا يملك قطيراً فافعل. فقال لخادمه خذ بيدي وأجلسنى. ثم أقبل معتزلاً إليهم وردعا بدواة وقرطاس وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض منى ألف دينار، قالوا: فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعتها بين يديه قال لخادمه: على بالمال. فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع فى كفى، فإذا لقيت محمداً ﷺ فى القيامة كانت حجة لى أن قد أغنيت عشرة من ولده ثم قال: يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف دينار يتفقها فى طريقه حتى لا يتفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل إلى موضعه، قال: فآخذناها ودعونا له واتصرفنا ثم مات رحمه الله. وقيل: لما دفن عمر بن العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء، فوجدوا بركة مكتوب فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار) وقيل لأعرابى: إنك تموت. قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه، ويكى الخولانى عند موته فقيل له: ما ييكىك؟ قال: أبكى لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عتبة ولا أدرى إلى أين أبسط وإلى أى مكان أسقط. ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذى لا يهاب الملوك ولا تمنع منه القصور ولا يقبل الرشا، فقال: إذن أنت ملك الموت، وإنى لم أستعد بعد، فقال له: يا داود أين فلان جارك، أين فلان قريبك؟ قال:

مانا. قال: أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام (وفي الخبر) من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: إن الملائكة تكتف العبد وتحتسبه ولولا ذلك لكان يدلو في الصحراء والبراري من شدة سكرات الموت. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم فليكن المزمع على أهبة من ذلك، وقيل بينما حسان جالس وفي حجره صبي يطعمه الزيت والعسل إذ شرب الصبي فمات. فقال:

اعمل وأنت صحيحٌ مطلقٌ فرح
سأدمت ويحك يا مغرور في مهلٍ
يرجو الحياة صحيحٌ ربّما كمنت
له المنيسة بين الزبد والعسل
وقيل: إن المأمون لما قريت وفاته دخل عليه بعض اصنقائه فوجده قد فرش له جلد دابة ووسط عليه الرماد وهو يتعرج فيه ويقول: يا من لا يزول ملكه أرحم من زال ملكه.

ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بقل وقيد وقال: ألسوني إياهما فلأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر ابن آدم بنفسه، ثم استقبل القبلة، وقال: اللهم إنك أمرتنا فعصينا ونهيتنا فارتكبنا، وهذا مقام العائد بك فإن تغف فأت أهل العفو، وإن تعاقب فيما قدمت يداي. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ثم مات وهو مغلول مقيد، فبلغ ذلك الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفعه.

ولما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة ما يمر بظهر المجلود، وسمع أبو الدرداء رجلاً في جنازة يقول: من هذا؟ فقال: أنت، فإن كرهت فأتنا. وقيل: مات عكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكثير عزة في يوم واحد. فقال رجل: اللهم كما جمعتكما في زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم النشور. فما بقى في المدينة أحد إلا استحسّن كلامه.

ولما احتضر إبراهيم الخليل عليه السلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليله؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟ قال: فإقبض روحي الساعة. وقيل: إننا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها. وقال بعضهم:

إذا ما حرامُ المزمع كان يبلى
دعته إليها حاجة فيطيرُ
حكى أن شاباً تقياً من بني إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه، فيبني ما هو عند سليمان في مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب صفر لونه وارتعدت فرائضه وقال: يا نبي الله إني خفت من هذا الرجل، فمر الريح أن تنهب بي إلى الهند، فأمر سليمان الريح فذهبت به، فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: ممّ تتعجب؟ قال: أعجب أني أمرت بقبض روح الشاب الذي كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك، فصرمت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيت هناك وقبضت روحه فهذا عجيب. فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب مني أن تحمله الريح إلى الهند فأمرتها فحملته. وفي ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومستعجب الروح مسترتاحٌ إلى بلدٍ
والموت يطلبه في ذلك البلد
وقيل: إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة وضياء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم. وقيل: إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاطيه، فجنز عليها جزءاً شديداً، فقال لبعض أصدقائه: أما تري ما بليت به؟ ما أحببت أحداً لإلامات. فقال يا أمير المؤمنين: أحببني، فقال: ويحك إن الحب ليس هو شيء يرضع إنما هو شيء يقع في القلب تسوقه الأسباب. فقال: قل أنا أحبك، قال: نعم أحبك. فمّم من وقته ومات.

وفي الحديث (الرفوع): «كسر عظم الميت ككسره في حياته». وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضى في الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنائز، وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضى الله عنه بالطائف، فلما

وضع ليصلى عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه، ثم دخل فيها فالتصتاه فلم تجده، ولما سويها عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٧٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى. وقال عطاء: بلغنى أن قبره تحت المنارة التي وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكى ما لا يبيكه عند ذكر الجنة والنار، فقيل له في ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه». وعن معاذ بن رفاعه الزرقى قال: أخبرني رجل من قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش، فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فوجده قبض، وقال الحسن رضي الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات، فمن رآه على لهو أو لعب أو معصية أو ضاحكاً حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراه به، ثم يقول له: اعمل ما شئت، فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتبتك. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء إذا وضعت في الحدى، فاكشف الثوب عن وجهه، فأرأيت نورا ساطعاً، فحمدت وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك. قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه، فأرأيت نورا ساطعاً، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. وقال أيضاً: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان، وهو يقلب طرفه يميناً وشمالاً، ثم رفع يده فقال: اللهم أنت ربي أمرتني فقصرت، ونهيتني فمضيت، فإن غفرت فقد منت وإن عاقبت فما ظلمت، إلا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك المصطفى وتيبك المرتضى، بلغ الرماله، وأدى الامانة، ونصح الأمة، فعليه السلام والرحمة، ثم قضى نحبه رحمه الله، وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت عند أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه بعدما ضربه ابن ملجم إذ شهق شهقة بعد أن أغمى عليه، ثم أفاق وقال: مرحباً الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء، فقيل له ما ترى؟ قال: هذا رسول الله ﷺ وهذا أخى جعفر وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة ينزلون على يشرؤنى بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصانفها من الحور العين، وهذه منازل ليحل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعرضنيك كالمرأة الوكعاء، ولكن انتزى وشعر والبس جلد النمر وضعنى فى حفرتى وخلنى وشأتى، وعليك شأنك. وادع الناس إلى بيعتك فمن قال براهه هكذا، قتل له بسيفك هكذا، ثم بعث إلى محمد وخالد ابني يزيد بن معاوية، فقال: هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد؟ فقالوا: لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة، فقال: أما إنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما، ثم رفع كنار فراشه فإذا تحته سيف مسلوق تحت يمينه، كل هذا وروحه تتردد فى حنجرتة، وهو يقول: الحمد لله الذى لا يبالى أصغيراً أخذ أم كبيراً، لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم بعد ساعة نفذت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بنتاه ييكون، فتمثل بقول الشاعر:

ومستخبرٌ عنا يريد بنا الردى
وقال محمد بن هارون:

كلأتى بإخوانى على جنب حفرتى
فيا أيها المردى على دموعه
عفا الله عنى أنزل القبر شأواً
يهريلون فوقى والعيون دماً تجرى
ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى
أرأى فلا أدرى وأجفى فلا أدرى

وكان يزيد الرقاشى يقول: من كان الموت موعده، والقبر بيته، والثرى مسكنه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف تكون حالته، ثم يبكى حتى يفسى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل، ولا يفتخر بالأمل، فإن من عاش مات ومن مات فات. وكل ما هو آت أت. نسأل الله أن يهلمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتنب نواهيه، وأن يجعل الموت خير غالب نتنتظه وأن يختم لنا بالخير وأن يتقدمنا برحمته إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الصبر

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال ﷺ: «ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهدا فأحدث استرجاعاً إلا أخذت الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها». وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزينا أصبح سائطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله، ومن تواضع لغنى سأل ما في يده أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهان به حتى دخل النار، أبعد الله عن رحمته لأنه هو الذي فعل ذلك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن».

وروى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لا يلج النار إلا نخلة القسم، يعنى قوله تعالى ﴿وإن منكم﴾ إلا واردة» [مريم: ٧١]. وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إن الله وإننا إلي راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وأعقبني خيراً منها، إلا فعل الله به ذلك»، «وروى أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ ذرفت عيناه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم تنه عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحقين والندب، ولكن هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوبنا، ومن لا يرحم لأرحم، فإن القلب يشفع والعين تدمع، وإننا بك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضى الله ربنا إننا لله وإننا إليه راجعون». وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ إننى أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي، من استسلم لقضائي وصبر على بلائي وشكر نعمائي كتبته صديقاً وبعثته مع الصديقين، ومن لم يستسلم لقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكو نعمائي فليخذ رباً سواي. وقال ابن المبارك: إن المصيبة واحدة، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان لأن لإحداهما المصيبة بعينها والثانية فغاب أجره وهو أعظم من المصيبة. وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكت فاطمة فقال: لا تبكي يا بنتا قولي إذا مت: إننا لله وإننا إليه راجعون، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومنى. وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته مصيبة فليذكر مصيبتى بي فإنها من أعظم المصائب». وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: من أخذت حبيبته يعنى عينيه فصبر واحتسب أدخله الله الجنة. وقيل: إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك، فقال لها: ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها، فلم يلبث إلا يسيراً وأن عوفى. وقيل: الصبر مفتاح الفطر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل: من لم يلق نوابك الدهر بالصبر طال عبه عليه. وقيل: إن معاوية رضى الله تعالى عنه خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارَةَ الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب، فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتأتى نعى سيد شباب العرب، فقال له: ابنى أو ابنتك قال: بل ابنتك. قال: للموت تلد الوالدة. وما قيل: اصبر لحكم من لا تحمد مولاً إلا عليه ولا مفزاعاً إلا إليه. وقال سويد اللوسى:

بتقوى الذى أعطاكمم ويراكمم
وصبرٍ لأمر الله فيما ابتلاككمم

فأوصيكمم يا ابنى سدوسٍ كلاككم
بشكرٍ إذا ما أحدث الله نعمكم

وقال:

لا وترقى إلى العلياء غير مزاحم
فما صابرٍ فيما يروم بنادم

أيا صاحبي إن رمت أن تكب العـ
عليك بحسن العنبر فى كل حـالة

وقال آخر:

هو الدهر قد جرّبته وبلوته فصبراً على مكروهه وتحلدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فقالت: نضر الله وجهك، وشكر صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلّاً بإدبارك عنها، وللآخرة معزّاً بإقبالك عليها، ولئن كان رزؤك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ وأكبر الأحداث بعده، فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر، فاقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ومستعينة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك، توديع غير قالية لحياتك، ولا راحة على القضاء فيك.

ولما مات ذر الهمداني جاء أبوه، فوجده ميتاً وكان موته فجأة، وعياله يبكون عليه فقال: ما لكم، والله ما ظلمناه ولا فهرناه ولا ذهب لنا بحق ولا أصابنا فيه، ما أخطأ من كان قبلنا في مثله، ولما وضعه في حفرته قال: رحمك الله يا بني وجعل أجرى فيك لك، والله ما بكيت عليك وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولّى نافعاً وكنت لك محباً وما بي إليك من وحشة وما بي إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلع لتميت ما صرت إليه، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لى من الأجر إلى ذر صلة منى فلا تحرمنى ولا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه، فإنك رحيم بى وبه، اللهم وقد وهبت لك إسماته لى فهب لى إسماته إليك، فإنك أجود منى وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً وجعلت لى عليه حقاً قرنته بحقك. فقلت: ﴿اشكروا لولوالبك إلى الصبر﴾ [لقمان: ١٤]. اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقى، فاغفر له ما قصر فيه من حقك، فإنك أولى بالجدود والكرم. فلما أراد الانصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركتك ولو اتقمتنا عندك ما نفعناك.

وفى الحديث: إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة: ماذا قال عبيدى عند قبض روح ولده وثمرة فؤاده؟ فيقولون: إلهنا حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتى أنى بيئت له بيئاً فى الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه دفن أباه له وضحك عند قبره. فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان، فيبغى للعبد أن يشكر فى ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة. وقد وعد الله تعالى فى المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها، واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُغْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُغْكُمْ بَيْنِي مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرِاتِ وَتَبْشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثامن من هذا الباب: فى التمازى والتناسى

روى الترمذى فى كتاب السنن للبيهقى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «من عَزَى مصاباً فله مثل أجره». وروينا فى كتاب الترمذى أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ قال: «من عَزَى ثكلى كسى برداً فى الجنة». وروينا فى سنن ابن ماجه والبيهقى بإسناد حسن، عن عمرو بن حزم عن النبى ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزى أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة».

واعلم أن التعزى هى التصيير وذكر ما يسلى صاحب الملت ويخفف حزنه ويهون مصيبته وهى مستحبة، فإنها مشتقة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى أيضاً داخلة فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. وهى من أحسن ما يستدل به فى التعزى. وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال: «الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه».

واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده، وتكره بعد ثلاثة أيام، لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام، فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه. وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين، وهما إذا كان المزي أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن فاتفق رجوعه بعد الثلاثة، وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه فبأي لفظ عزاه حصلت، واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحسن عزاءك وغفر ليحك. وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك ولا نقص لك عدداً.

روى أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه فقالوا: يا رسول الله بنى الذي رأيته هلك، فلقى النبي ﷺ، فسأل عن بنيه، فقال: يا رسول الله هلك، فعزاه فيه ثم قال: يا فلان أيما كان أحب إليك أن تستمع به عمرك أو لا تأتي غداً باب من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه، فيفتحه لك؟ فقال: يا رسول الله سبقه إلى باب الجنة أحب إلى من التمتع به في دار الدنيا. قال: ذلك لك. وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمه الله: أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخى عز نفسك بما تعز به غيرك واستبجح من نفسك ما تستبجح من غيرك، وأعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمع مع اكتساب ورزق ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً. وروى عن ابن المبارك قال: مات لي ابن فمر بي مجوسى وقال: ينهى للمعالي أن يفعل اليوم ساء يفعله الجاهل. بعد خمسة أيام، فقال: أكتبوها منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: مات لي ابن، فكتب إلى رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل، سلام عليكم، فإنني أحمد الله الملك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر وورقنا وإياك الشكر، ثم أعلم أن أئسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقتبضها لوكت معلوم، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة. تمتك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت، فاصبر واحتسب، وأعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزيناً. روى أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزاً قال: ليس مع العزاء مصيبة ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك. وعزى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إننا نـمـزـيك لا أنا على ثـقـة من الحـيـاة ولكن مسنة الدين
فما المـعـزى بـاق بعد مـيـته ولا المـعـزى ولو عاشوا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ يعزيه: أنت يا أخى أعزك الله عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وأنها لم تعط إلا أخذت، وكم تسر ألا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر، لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون، وعزى رجل بعض الخلفاء بأبن لن فكتب إليه يقول:

تـعـزّ أـمـير المـؤمـنـين فـلـإنه لما قد ترى يغفلو الصـغـير ويولد
هل الابن إلا من سـلـالة آدم لكل على حـوض النـيـبة مسورد
وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:
الموت أخـفـى سـوأة لـبـنات ودفنـها يـرى من المـكـرمات
أما رأيت الله سـبـحـانه قد وضع النـعش بـجـنب البنات

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخى والقضاء نازل والموت حكم شامل، وإن لم تلذ بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نواب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة والدعوة الساكبة حاجباً من فضلك وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومناصراً من بيتك، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمشح إذا لم تقابل بالشكر، فصبراً صبراً، ففحور الرجال لا تستغرها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزيز على أن أخاطب

مولاي معزياً وأكاتبه سليماً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو ينتهي إلى جملة، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم والركن الأمد والسهم الأسد والشهاب الأسطع والحسام الاقطع، لكن التعزية سير سائرة وسنة ماضية غابرة، وقدرة الله هو المقدر وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكري تنفع والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضح، لاجللت مولاي أن أفاقمه معزياً وأخاطبه مسلماً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم والسابق لا يتقدم فبمولاي يقتدى في الصبر على التواب وبوره يهتدى في مشكلات المذاهب، ولكل ما كان من الردى أوجع كان الأجر عليه أوسع جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه.

وعزى رجل فتى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بني سوء الخلف أضر علينا من فقد السلف. ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بكرة من المال وقال: من بالغ في تعزيتي فهي له، فدخل عليه أعرابي وقال: عظم الله أجر الملك فكيف المؤنة، وسرت العورة، ونعم الصهر القير، فقال: قد أبلغت وأوجزت ثم دفعها له. وعزى أعرابية قوماً فقالت: جاني الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وأجركم ورحمه. وكان لعلى بن الحسين مجلس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً، فعزاء على بن الحسين رحمه الله وعظه فقال: يا ابن رسول الله إن ابني كان مسرفاً على نفسه، فقال: لا تجزع، فإن من ورثه ثلاث خلل. أولهن: شهادة أن لا إله إلا الله، وإن سيدنا محمداً رسول الله، والثانية: شفاعة جدي ﷺ، والثالثة: رحمة الله التي وسعت كل شيء، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلل. وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن في كبدى جمرة لا يطفئها إلا هبرة، فقال عمر: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر، فنظر إلى رجاء كالمتريح بمشورته فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين، فما بذلك من بأس، لقد دسمت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وقال: إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول ما يخطئ الرب، وإنا بك يا إبراهيم لحزونون. فأرسل سليمان بعينه حتى قضى أمره ثم أقبل عليهم، قال: لولا نرفت هذه العبرة لا تصدع كبدى، ثم إنه لم يك بعدها. وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدى لهم طعاماً وركلى بالابواب من يمنع من أصابته مصيبة في أم أو أب أو أخت أو ولد، ففعلت، فلم يدخل إليها أحد، فعلمت أن الإسكندر عزأها في نفسه.

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيبها فيه فقال: يا أماه لا تحزنى على الفضل، فأتانا خلف منه، فقالت: كيف لا أحزن على ولد عوضى عنه خليفة مثلك، فعجب المأمون من جوابها، وكان يقول: ما سمعت قط أحسن منه ولا أجلب للقلوب. فقال لها: عليك بالصبر، فإن فيه مزيد الأجر. وعن جزع على ولده جعفر بن علي لما قتله الحرث قام نساء الحى يبكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقاة فذبحه وألقاها بين أيديها وقال لها: ابكين معى على جعفر، فما زالت النوق ترغو والشياخ تعير والنساء يصرخن ويبكين وهو يبكي معهن، فلم ير مأثم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح.

ومما قيل في التأسى والتسلى بالخلف عن السلف: قيل: عزى بعض الشراء يزيد بن معاوية في والده فقال:

أصبر يزيد فقد فارقت ذائقته واشكر إلهك من بالملك حباباك
لا رزه أصبح في الأيام نعرته كما رزئت ولا عقبى كعقباك

وقال آخر:

لا بد من فقد ومن فاقد هيهات ما في الناس من خالد

وقال آخر:

تبصروا فلو أن البكاء رد هالكاً على أحد فأكثر بكاك على عمر

وكتب بعضهم إلى أولاد صديق يعزيهم ويصلهم في والدعم فقال:

فلو كان فيض الدمع ينفع باكياً لعلمت غرب الدمع كيف يميل

فإن غاب بدر فالتجوم طوال
ثابت لا يقضى لهن أفول
يفاب بها في ظلمة الليل حائر
ويرى عليها بالرفاق دليل

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له في تلك الليلة ولد، فقال برك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ولا ساءك فيما سرك وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر وقال بعضهم:

ليس لهذا صار آخر أمرنا
فلا كانت الدنيا القليل مرورها
فلا تعجبي يا نفس بما ترويه
فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الحناء في نعيها صخر حين مات ونعتة فقالت:

يذكرني طلوع الشمس صخراً
وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان، فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يغير على أعدائه ويتقيد بضيفه، وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنسيه حتى
أفارق عيشتي وأرور رمي
ولولا كثرة الباكين حولي
على أمواتهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخى ولكن
أسلى النفس عنه بالتسألي

وقال آخر:

ولولا الأمل ما عشت في الناس ساعة
ولكن إذا ناديت جساويني مثلي

وقال آخر:

وهون وجسدي عن خليلي أنسى
إذا شئت لآليت الذي أنا صاحبه

وقال آخر:

وما يؤديني إلى الصبر والعز
تردد فكري في عموم المصائب

الفصل الثالث: في المراثي

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه وآله بمراث كثيرة منها ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فإنه كان أقرب الناس إليه، وهو أول من رثاه فقال:

لما رأيت نبينا منجندلاً
ضاق على بعرضهن الدور
فارتاع قلبي عند ذاك لموته
والعظم مني ما حبيت كسير

أصطفى ويحك إن خلق قد نوى
يا ليتنى من قبل مهلك صاحبي
فلتحدثن بدائع من بعده
وقال آخر:

فقدت أرضنا هناك نبياً
خلقاً عالياً وديناً كريماً
وسراجاً يجلو الظلام منيراً
حازماً عازماً حليماً كريماً
إن يوماً أتى عليك ليوم
فعلبك السلام منا جميعاً
ورثاه - رحمه الله - أبو سفيان بن الحرث فقال:

أرقت فسيبكات ليلى لا يزول
واسعدنى البكاء وذاك فيما
لقد عظمت مصيبتنا وجلت
وأضحت أرضنا مما عسراها
فقدنا الوحي والتزيل فينا
وذاك أحق ما سالت عليه
نبي كأن يجلو الشك عنا
ويهدينا فلا نخشى ملاماً
أناطم إن جرعت فذاك عذر
فقبير أبوك سيد كل قبير

والصبر عندك ما بقيت يسير
غيبت فى لحد عليه صخور
تمينا بهن جسواتح وصدور

كان يفدو به النبىات زكياً
وصراطاً يهدى الأنام سويماً
ونبياً مؤيداً عربياً
عائداً بالنوال برا تقبلاً
كورت شمسه وكان خليلاً
دائم الدهر بكرة وعشيراً

وليل أخى المصيبة فسيه طول
أصيب المسلمون به قلب
عشية قيل قد قبض الرسول
تكاد بنا جوانبها تحيل
بروح به ويفدو جبرائيل
نفوس الناس أو كادت تسيل
بما يوحى إليه وما يقول
علينا والرسول لنا دليل
وإن لم تجزى فهو السبيل
وفيه سيد الناس الرسول

ولما مات أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بهذه الايات حين رجع من دفنه فقال:

فعلبك يا دنيا السلام
فالعيش بعدهم حرام
والطفل يؤله الفطام

ذهب الذين أحسبهم
لا تذكركم العيش لى
إنى رضيع وصالحهم

ورث بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:

سالت الندى والجود مالى أراكما
وما بال ركن الجد أسمى مهدماً

تبدلتكما عزاً بذل مؤيد
فقالا أصبنا بأبن يحيى محمد

فقلت مهلاً متماً بعد موته
فقالا أقمنا كي نعزى بفقده
وقال آخر:

ولا أرجمي في الموت بعبدك طائلاً
وفي المعنى لبعضهم:

لقد أمت نفسي المصائب بعده
فما أتقى للهر بعدك نكبة
ورئي أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق
وما كنت أدري ما فاضل كفه
وأصبح في الحسد من الأرض ميتاً
سأبكك ما فاضت دموعي فإن تغض
وما أنا من رده وإن جل جوارح
لئن حسنت فبك المرائي بذكرها
وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني
أعلاى لو غير الحمام أصابكم
وقال العباس بن الأحف:

إذا ما دعوت الصبر بعبدك والبكا
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه
وقال آخر يرثى صديقه:

خليلى ما ازداد إلا صبابية
خليلى لو نفس فددت نفس ميت
وقد كنت أرجو أن تعيش وأن أمت
ألا فليسمت من شاء بعبدك إنما

وقد كتتما عبديه في كل مشهد
مسافة يوم ثم نلتوه في غد
لا أتقى للهر بعبدك من خطب

فأصبحت منها آمناً أن أروها
ولا أرجمي للعيش بعبدك مرتها

ولا مفرب إلا له فيه مراح
على الناس حتى غيبته الصفاح
وكان به حياً تضيئ المحاصح
فحسبك منى ما تكن الجوانح
ولا سرور بعد فقدك فراح
فقد حسنت من قبل فيك الدائح

أرى الأرض تبقى والأخلاء تنهب
عنت ولكن ما على الدهر معتب

أجب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
يبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

إليك وما تزداد إلا تنائياً
فديتك سروراً بنفسى وماليا
فحال رجاء الله دون رجائيا
عليك من الأقدار كان حذاريا

أيسرنى عبيد ولم أر وجهه
فأرقته وبقيت أخلد بعده
من لم يمت جزعاً لفقد حبيبته
مت مع حبيبك إن قدرت ولا تعش
ما أم خشف قد ملا أحشاءها
إن نام لم تهجع وطافت حسوله
منى بأوجع إذ رأيت نواتحها
ولقد عدت أبا الحسين جلادتي
كنت الجليلد على الرزايا كلها
ولئن بقيت وما هلكت فإن لي
لا موت لي إلا إذا الأجل انقضى
حزنى عليك بقدر حبك لا أرى
مما هد ركني بالنتين وإنما
يا ليت أنى لم أكن لك والداً
فلقد شقيت وربما شقى الفتى
من ذم جفناً باخلاً بدمرعه
فلأنظمن مراثياً مشهورة
وجميع من نظم القريض مفارق

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

سألت رسوم القبر عمن ثوى به
أنسال عمن عاش بعد وفاته

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم:

مصائب ليس يشبهه مصاب
إمام قند حسوى من كل علم
ليسبكي كل ذى علم عليه
وكم كلم موانع قد أتته
فسلطان البلاغ بنفير شك
سقى الله الكريم ثراء صوباً

وقال الصفدي:

يا غائباً في الثرى تبلى محامته
إن كنت جرعت كأس الموت واحدة

فيه ألا بعداً لذلك عبيدا
لا كان ذاك بقياً ولا تخليدا
فهو الخيون مودة وعهودا
من بعده ذا لوعة مكمودا
حزناً عليه وجفناً تهيدا
فسيبت مكلوماً بها مرصودا
لأبي الحسين وقد لظمن غدودا
لما رأيت جمالك المفقودا
وعلى فسراقك لم أجند تجليدا
أجلاً وإن لم أحصه معدودا
فهناك لا أقبواز المحسودا
يومياً على هذا وذاك مسزيدا
أصبحت بعدك بالأسى مهدودا
وكذلك أنك لم تكن مسولودا
بفراق من يهوى وكان سميذا
فعلبك جفنى لم يزل محمودا
تنسى الأنام كشميراً وليدا
ولداً له أو صاحباً مفقودا

لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
يا حسانه إخوانه وأقاربه

لذى الألباب إذ فقد الشهاب
كنوزاً نحبوها يهوى الركباب
فكم علم له ضم التبراب
شاعا وهي عاصية صمباب
شهاب الدين ما فيه لرتباب
له من كل رضوان رخصاب

الله يوليكم غفراناً وإحساناً
فى كسل يسوم أنزق الموت ألواناً

وقال محمد بن عبد الله العتيبي يرمى ابتأ له:

أضحت بخدي للدموع رسوم
والعبر يحمد في المواطن كلها
أسفأ عليك وفي القسوة كلوم
إلا عليك فإنه مدموم

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرمى بتأ له فقال:

عجباً للنعون كيف أنتها
شملتنا مصيبتان جميعاً
وتخطت عبد الحميد أنتها
فقدنا هذه ورؤية ذاكها
وله يرمى الأمير بليفا:

ألا إنما الدنيا غرور وباطل
وما عجبى إلا لمن بات وانفسأ
فظوى لمن كفاه منها تفرغها
بأيام دهر ما وعى حق بليغها
وقال آخر:

إلى الله أشكو أن كل قبيلة
وقال رجل يرمى صديقاً له توفي وكان من الكرماء:
ما درى نعيشه ولا حاملوه
ما على النعش من غفاف وجود

وليعلى الكتاب في ابن مقلة:

استشعر الكتاب فقدك مالفأ
فلذاك سودت الدواة كآبة
وقضت بصححة ذلك الأيام
أسفأ عليك وشقت الأقالام

وقال الحسن بن مطير الأسدي يرمى معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلمنا إلى معن وقولا لقبيره
فيا قبر معن كنت أول حفرة
وباقبر كيف وارت جوده
بلى قد سمعت الجود والجود ميت
فتي عاش في معروفه بعد موته
ولما مضى معن مضى الجود كله
سفنك الغواوى مربعا ثم مربعا
من الأرض خطت للسحابة مضجعا
وقد كان منه البر والبحر متبرعا
ولو كان حياً ضقت حتى تصدعا
أناس لهم بالبر قسند كان أوسعها
وأصبح عشرين المكابر أجدها

وقال آخر:

عجبت لصبري بعلمه وهو ميت
وقد كنت أبكيه دمساً وهو غائب

وقال آخر:

فديتك لم أصبر ولى فيك حيلة ولكن دعائي اليأس منك إلى الصبر

وقالت ريطة بنت عاصم:

وقفت فأبكتني ديار عثيـرتي على رزهن الجاكيات الحواسر
غدوا كسيوف الهند وراـد حومة من الموت أضيـا وردعن المصادر
فـوارس حـاموا عن حريمي وحافظوا بدار المنايا والقنا متشـاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رزنا لهدت ولكن محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور، أنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد وكانا في جبهه، وكان أبوه قائماً يصلي فقال له محمد: أوجز فأوجز وسلم، فلما أنه وضع الرأس في حجره وقال: أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿الَّذِينَ يُوقُونَ بَعْدَ اللَّهِ اللَّهَ وَلَا يَقْضُونَ الْعِقَالَ﴾ [الرعد: ٢٠] . ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

فتى كان يحميه من العار سيفه ويكفيه سوات الأمور اجتنبها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعمتك أيام، والملتقى غداً بين يدي الله تعالى، فكان ذلك فالاً على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقيل لحسان: ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيت يقصر عنه. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فى ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ تَقَى﴾ [النساء: ٧٧] فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن تمتع به، فهو لعب ولهو، لقوله تعالى: ﴿أَتُمَا السَّعْيَةَ الدُّنْيَا لِقَبْ وَتَهْوُونَ زِينَتَهَا﴾ [الحديد: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الدُّنْيَا الْآخِرَةُ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]. فلا تبع أيها العاقل حياة قليلة تنفى بحياة كثيرة تبقى، كما قال ابن عباس: لو كانت الدنيا ذهباً يفتنى، والآخرة خزناً يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفتنى، ثم تأمل بعقلك هل أتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن وسخر له الريح، والطير، والوحوش، ثم راده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]. فوالله ما عدنا نعمة مثل ما عددها ولا حسبا رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]. وهذا فصل الخطاب لمن تدبر. هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ إِذَا أَجْمَعِينَ﴾ عما كانوا يعملون ﴿١٧﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِمَا حَسِبْتَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أريك الدنيا بما فيها؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ يبدى وأتى إلى واد من أودية المدينة، فإذا مزيلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية وعظام البهائم، فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرس حرصكم وتأمل آمالكم وهى اليوم صارت عظاماً بلا جلد، ثم هى صائرة عظماً وميماً، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها فى الدنيا فأصبحت والناس يتعاضدون بها، وهذه الخرق البالية ريشهم أصبحت والرياح تصفها، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يتجمعون عليها أطراف البلاد. فمن كان باكياً على الدنيا فليكن قال: فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا.

وروى ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على النبی ﷺ وهو على سرير من اللبى وقد أثر الشريط فى جنبه، فبكى عمر رضى الله تعالى عنه، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصير. وما كانا فيه من سعة الدنيا، وأنت رسول الله، وقد أثر الشريط بجنيبك، فقال ﷺ: هؤلاء قوم عجلت لهم طياتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طياتنا فى الآخرة. وروى عن الضحاك قال: لما أعطى الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدوا ريح الدنيا وفقدوا ريح الجنة غشى عليهم أربعين يوماً من نقي الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوى من السماء إلى القلوب فلا تسكن فى قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحب شرف. وعن النبی ﷺ أنه قال لعلى: «يا على أربع خصال من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحب الدنيا». وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شحطاء زرقاء العينين أنيابها بادية، مشوكة الخلق لا يراها أحد إلا هرب منها، فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: لا، نموذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التى تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله فى بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا. وجعل الشر كله فى بيت واحد. وجعل مفتاحه حب الدنيا. وقيل: إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر، وإن تركته تبعك، وفيه قال بعضهم:

يشبه الظل الذى يمشى معك

وهو وإن وليت عنه تب معك

إنما السروق الذى تطلبه

أنت لا تدركه مـبـb

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيت غيبال الظل أعظم عبادة
شخصاً وأصواتاً يخالف بعضها
نحى ونحى بابة بمسند بابة
وما أحسن ما قال سليمان بن الصالح:

ما أتعلم الله على عبده
وكل من عوفى في جسمه
والمال حلو حسن جيد
ما أحسن الدنيا ولكنها
وتوفى رجال من كتلة فكب على قبره هذه الايات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا
لو تتولون بشعبنا لعرفتكم
لا تستعزوا بالحياة فإنا نكم
ساوى الردى ما بيتا في حفرة
وقال آخر:

عن قليل أصير كموم تراب
صار تحت التراب عظماً رميماً
وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا
فلا تصجبني يا نفس بما تربت
وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تملك ملكاً لا بقضاء له
هل الحياة بذى الدنيا وإن عذبت
وقال بعضهم:

وغساية هذى الدار لذة ساعة
وهاتيك دار الأمن والعزم والتقى
وقال غيره:

حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
ومالك الليالى فاغتررت بها
وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن

لمن كان في علم الحقائق راقى
لبعض وأشكالاً بغير وفاق
وتفنى جميعاً والمحرك باقى

بنعمة أوفى من العافية
فلأنه فى عبثة راضية
على النفسى لكنه عارية
مع حننها غدارة فانية

إن الحسام يكمن علينا قادم
إن المفترط فى التزود نادم
تبنون والموت المفترق هادم
حيث المخدم واحد والمخدم

وتقول الرثاق هذا فلان
وجناه الأصحاب والغلان

فلا كانت الدنيا القليل مرورها
فكل أمور الناس هذا مصيرها

حملت نفسك آمناً وأوراراً
إلا كطيف خيال فى الكرى راراً

ويعقبها الأحزان والههم والتدم
ورحمة رب الناس والجود والكرم

ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

بأنك لا تبقي إلى آخر الدهر

أين آدم أين الأولون والآخرين؟ أين نوح شيخ المرسلين؟ أين إدريس رفيع رب العالمين؟ أين إبراهيم خليل الرحمن؟ أين موسى الكليم من بين سائر النبيين؟ أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين، وإمام السانحين؟ أين محمد خاتم النبيين؟ أين أصحابه الأبرار؟ أين الأمم الماضية؟ أين الملوك السالفة؟ أين القرون الخالية؟ أين الذين نصبت على مفازهم التيجان؟ أين الذين قهروا الأبطال والشجعان؟ أين الذين دانت لهم المشارق والمغرب؟ أين الذين تمتصوا باللذات والمشارب؟ أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً وعتياً؟ أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا؟ أين الذين اغتروا بالأجناد؟ أين أصحاب الوزراء، والقواد؟ أين أصحاب السطوة والأعوان؟ أين أصحاب الإمرة والسلطان؟ أين أصحاب الأعمال والولايات؟ أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات؟ أين الذين قادوا الجيوش والعساكر؟ أين الذين صمروا القصور والساكر؟ أين الذين أعطوا النصر في موطن الحروب، والمواقف؟ أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف؟ أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً؟ أين الذين فرشوا القصور حريقاً وقزاً؟ أين الذين تضعضت لهم الأرض هبة وعزاً ﴿هل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ذكراً﴾ [مریم: ٩٨] أفتأثم الله مفتى الأمم. وأبادهم مييد الرزم. وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور، تحت الجنادل والصخور، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، لم ينفعهم ما جمعوا، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا، أسلمهم الأحياء والأولياء، وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء، والبغضاء، لو نطقوا لأتشدوا:

مقيم بالحجبون رهين رمس وأهللى راحلون بكل واد
كأنى لم أكن لهمو حبيباً ولا كسانوا الأحبة فى السواد
فمرجوا بالسلام فإن أبستم فأموتوا بالسلام على البعاد

وقالوا: لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء الشدقين: قدر يغلى وكثيف يملئ، وفى هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سالت الدار عن أضيوارهم فتيبمت عجباً ولم تبتدى
حتى مرت على الكثيف فقالت لى أمـــــوالهم ونوالهم عندى

ولقد أصاب ابن السكك حيث قال للرشد لما قال له عظمى، وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبت عنك هذه الشربة أكتت تقدبها بملكك، قال: نعم، قال يا أمير المؤمنين: لو شربتها وحبت عن الخروج أكتت تقدبها بملكك؟ قال: نعم، فقال له: لا خير في ملك لا يساوى شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة، وروى أن أبا العاتية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيبها ما لم يكن منها لها زاجر

فقال: لمن هذا البيت؟ فقبل: لأبي نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاء عن حب الجمال وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لى بتصف شعرى.

ومن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها، إبراهيم بن أدهم بن منصور، كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ، لما وفد الدنيا زهد في ثمانين سريراً. قال ابن بشر: سألت إبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أورك حتى صرت إلى هذا؟ فقال: كان أبى من ملوك خراسان وكان قد جبب إلى الصيد، فبينما أنا راكب فرسى وكلبى معى إذ رأيت ثعلباً أو أرنبا، فحركت فرسى نحوه، فسمعت نداء من ورائى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا امرت، فوقفت أنظر ينة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت نداء أعلى من الأول: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا امرت، فوقفت أنظر ينة ويسرة، فلم أر أحداً، فقلت: لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسى، فسمعت النداء من قريب منى: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا امرت، فوقفت وقلت: هيهات جاني التذير من رب العالمين، والله لا عصيت ربي ما عصمتى بعد يومى هذا، فتوجهت إلى أهلى وخلقت

فرسى وجنت إلى بعض رعاة أبي، فاخلعت جيته، وكساه، وألقيت إليه ثيابه، فلم أرل أرض تفلنى وأرض تغمنى، حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لى شيء من الخلال، فسألت بعض المشايخ عن الخلال فقال: عليك بالشام، قال: فانصرفت إلى بلد يقام لها المنصورية، فعملت بها أياماً، فلم يصف لى شيء من الخلال، فسألت بعض المشايخ فقال: إن أردت الخلال، فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها، والعمل فيها كثير، فانصرفت إليها. قال: فبينما أنا قاعد على باب البحر إذ جامنى رجل فاكتراني انظر له بثائاً، فتوجهت معه، فأقمت في البستان أياماً كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل معه أصحاب له ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرت، ففعد في مجلسه ثم قال: يا ناظورنا، فأنجته. قال: اذهب فأنتا بكير رمان تقدر عليه وأطيعه. فأتيته برمان، ففكر الخدام واحدة، فوجدنا حمامة، فقال: يا ناظورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماتنا ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقلت: والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال: ففهم الخدام أصحابه، وقال: ألا تعجبون من هذا، ثم قال لى: لو كنت إبراهيم بن آدم ما كنت بهذه الصفة، قال: ثم تحدث الناس بذلك، وجاءوا إلى البستان، فلما رأيت كثرة الناس اخشيت والناس داخلون، وأنا هارب منهم، وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين ويعمل فى الطين، فبينما هو يوماً يحرس كرمًا إذ مر به جندى فقال: اعطنا من هذا العنب، فقال له: إن صاحبه لم يأذن لى، ففصره بالسوط فطأطأ راسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدى الجندى، فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروى أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسبح فى الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الحلقة من بنى آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك، فملكك ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش، واقتضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى، التراب فراشى، والحجر وسادى، فمن رأتى فلا تغره الدنيا كما غرتى. وقال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه، فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرق. فقالوا: يا نبي الله إنا جياغ فأوحى الله تعالى إليه أن ائذن لهم فى قوتهم. فأذن لهم، ففترقوا فى الزرع يفركون ويأكلون، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعى وأرضى ورثتها من أبى وجدى، فبأذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربه أن يعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة، يقولون: أرضنا ورثناها من آياتنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه، فلما عرفه قال: معتره إليك يا نبي الله إني لم أعرفك، زرعى ومالى حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها، ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولا تحبهم، ليس لك أرض ولا مال. ولما مات اسكندر قال أرسطاطاليس: أيها الملك لقد حركتنا بسكونك، وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق من اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس، أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزنًا بلغناك ثم إلى
وكانت فى حسانك لى عظات
وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الأجمال فى كل ساعة
ولم أر مثل الموت حتى كأنه
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا
ترحل من الدنيا بزد من الثقى

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حُجَّاجًا فإذا أنا برجل من بنى هاشم من بنى العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا، وأقبل على الآخرة، فجمعتنى وإياه الطريق، فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلتى، فإن معى فضلاً من راحلتى، فجزأتى خير؟ وقال: لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أس إلى فجعل يحدثنى فقال: أما رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد، ونعمة طائلة، ومال كثير، وبذخ رالد، فأمرت يوماً خادماً لى أن يحشوا لى

فرائسًا من حرير ومخدة بورد نثير، ففعل، فأنى لناثم إذا بقمع وردة قد نسيه الحصاد، فقد: أيه فأوجعته ضرباً، ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأناني أت في منامي في صورة قطيعة فهزني وقال: أفق من غشيتك وانتبه من رقدتك، ثم أنشأ يقول:

يا عجل إنك إن تومئس لئناً ومئدت بعد اليوم صم الجندل
فامهد لنفسك صالحاً تعد به فلتندمن غداً إذا لم تغسل

فاتتهت مرعوباً وخرجت من ساعتى هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول

من كان يعلم أن الموت يدركه والقبر مسكنه والبعث يخرجهُ
وأنه بين جنات مسزخسرفة يوم القيامة أو نار ستضججه
فكل شيء سوى التقوى به سمجٌ ومن أقام عليه منه أسمججه
تري الذي اتخذه الدنيا له وطناً لم يدرك أن المشايخ سوف تزعججه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسندى، فترجم بالعربي، فإذا هي أبيات جليلة، وموعظة عظيمة وجميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستزلوا من أعالي عز معقلهم فأسكنوا حفرة يا بش ما نزلوا
فلذا هو صارخ من بعد ما دفنوا أين الأسيرة والتبيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة وكان من دونها الاستنار والكلل
فأصبح القبر عنهم حين سألهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالا أكلوا دهرًا وما ثربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته، فأصابهما الجوع، وقد انتهى إلى قرية، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشترى به، فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، ففقد ينتظر انصراف عيسى عليه السلام من الصلاة فأبطأ عليه، فأكل رغيماً وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء وروى الأرغفة ثلاثة، فلما انصراف من صلاته لم يجد إلا رغيفين، فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما. ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباه ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها، فجاءه فذكاه وأكلا منه. فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كان إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فانطق الله له لبنة، فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد، وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهى إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى صوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاور النهر، فقال الرجل: سبحان الله، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام، وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لهما: كوني ذعياً بإذن الله، فكانت، فلما رآها الرجل قال: هذا مال، فقال عيسى: نعم، واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث، فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هي لك كلها، ثم فارقه عيسى، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام، فانطلق فلما غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلنا واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام فإنه أضمر لصاحبيه سوء، وقال: أجعل لهما في الطعام سمًا

فإذا أكلاه ماتا وتأخذ المال لنفسى، فوضع السم فى الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام، فماتا، فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها. وقال الهيثم بن عدى: وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من الذهب وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلا ورأيت عجبًا كثيرًا ولم أر فيما رأيت أصعب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبائه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفافة يستنزلوننى عن سريرى ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان ويترأس الصبيان، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلًا ومات ذليلًا. وعن عمرو بن ميمون أنه قال: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت، فيه سرير من الذهب، عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس، كنت أعتاهم بطشًا، وأتاسهم قتلًا، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت للملوك، وهزمت الجيوش، واذلت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى، ولم أستطع أن أقتدى به من الموت إذ نزل بى. ويروى فى الأسراليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينا هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة، فسأل الله أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله: أنا بلوان بن حفص، ملك اليمن، عشت ألف سنة، ورزقت ألف ولد وانقضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم، فمن سمع قصتى فلا يفتخر بالدنيا. فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديدًا حتى غشى عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه وبادت أهله وأظلمت نواحيه هذه الآيات:

يوفون بالعهد مـ كانوا وبالنعم
ترنم المجد بين الجـود والكـرم

هذى منازل أقوام عـهدتهم
تبكى عليهم ديار كان يطرهبها

وقيل فى المعنى:

قد كان أعمر بالذات والطرب
وصاح من بعده بالويل والخـرب

بالله ريك كم قصـر مررت به
نادى غـراب المنيا فى جـوابه

وفيه:

لا يرد المنون عنك البـناء

أبهمـ الرافـع البـناء وويدا

وحكى: أن رجلين تنازعا فى أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض، فقالت: إني كنت ملكًا من الملوك ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميحًا ألف سنة، ثم أخذنى خزاف وعملنى إناء، فاستعملت ألف سنة حتى تكسرت وصرت ترابًا، فأخذنى طواب وعملنى لبنة وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تنازعا فى هذه الأرض؟ وأتم عنها راثلون وإلى غيرها متقلبن. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروى أن ملكًا بنى قصرًا وقال: انتظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه، فقال رجل: أرى فيه عيبين. فقالوا له: وما هما؟ قال: يموت الملك ويخرب القصر. قال: صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا. وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أصعب شيء رآه فى الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات، فقال: أصعب شيء رأيته أنى مرت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحانه الله لم يذكر أبوانا ولا أجداننا متى بنيت، وما رأت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ومررت بها، فإذا هى خاوية على عروشها ولم أر أحدًا أسأله وإذا رعاة غنم فلنوت منهم فقلت: أين المدينة التى ها هنا؟ فقالوا: سبحانه الله لم يذكر أبوانا ولا أجداننا أنه كان ها هنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغواصين: منذ كم هذا البحر ها هنا؟ فقالوا: سبحانه الله لم يذكر أبوانا ولا أجداننا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان. فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة

صيادون يصيدون فيها السمك فى زوارق صغار فقلت لبعضهم: أين البحر الذى كان ها هنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا بحر. فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك، فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين النيفة التى كانت ها هنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان. فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها، فإذا عاليها سافلها وهى تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فضألته أين المدينة؟ قال: سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته فى سياحتى. فبجان ميد العباد ومضى البلاد ووارث الأرض ومن عليها وباعت من خلق منها بعد رده إليها. ولبعضهم:

قف بالديار فهذه آثارهم	تبكى الأحبة حيرة وتشوقاً
كم قد وقفت بها أسألك أهلها	عن حالها مترحماً أو مشفقاً
فأجابنى داعى الهوى فى رسمها	فأرقت من تهوى وعز المتلقى

ولبعضهم:

أيها الربيع الذى قدد دثرا	وكان عينا ثم أضحي أثرنا
أين سكانك ماذا فعلوا	خبرن عنهم سقيت المطرا
فلقد نادى منادى دارهم	رحلوا واستودعوني عبيرا

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من علمنى فاعلمه، ومن علمك فاستخدمه، يا دنيا مرى على أوليائى ولا تحلى لهم فضيتهم، وقال بعض الحكماء: الدنيا كالمالغ كلما ازداد صاحبها شرباً ازداد عطشاً، أو كالأكاس من عمل وفى أسفله سم، فللذائق منه حلوة عاجلة وفى أسفله الموت، أو كحلهم النائم يفرح فى منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضى قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذى ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول:

أجنسى بناء الحـالدين وإنما	بقاؤك فيها إن عقلت قليـل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية	لمن كل يوم يقتضىـه رحـيل

قال، فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

ومن يامن الدنيا يكن مثل قابض	على الماء خائتـه فـروج الأصابع

ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هذى منازل أقصوام عهودهم	فى خفض عيش نفيس ماله خطر
صاحت بهم نالبات الدهر فانقلبوا	إلى القـبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفى نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلا هالك وابن هالك	وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت	له عن عـدو فى ثياب صديق

وروى أن على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه لما رجع من صفين، ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: قبر خبيب بن الأرت، فوقف عليه وقال: رحم الله خبيباً، أسلم راعياً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وإبتلى فى جسمه آخرأ، ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور، فجاء حتى وقف عليها، وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المسفرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل للاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف، ورضى عن الله تعالى، ثم قال: يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا، فما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فيما جاء من فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ:

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على صلت عليه الملائكة ومن صلت عليه الملائكة، صلى الله عليه ومن صلى الله عليه لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتبها عليه ذنباً ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان جناح بالشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول: اللهم صلى على عبدك ما دام يصلي على نبيك».

الحديث الرابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرةً ومن صلى على عشرةً صلى الله عليه بها مائة ومن صلى على مائة صلى الله عليه ألفاً ومن صلى على ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على مرة كتب الله له عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل يوماً وقال يا محمد جئتكم ببشارة لم آت بها أحداً من قبلك وهي أن الله تعالى يقول لك من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في الصباح عشرةً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في يوم مائة مرة قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادي عشر: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني مجلساً أكثركم على صلاة».

الحديث الثاني عشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عليه السلام وقال لي: يا رسول الله لا يصلي عليك أحد إلا ويصلي عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة على لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة على نور على الصراط وقال عليه الصلاة والسلام: لا يلج النار من يصلي على».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة على قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة على أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة على وعلى أهل بيتي».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبداً جاء يوم القيامة يحسنات أهل الدنيا ولم تكن فيها الصلاة على ردت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بى أكثرهم على صلاة».

الحديث الحادى والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه ما لم يندرس اسمى من ذلك الكتاب».

الحديث الثانى والعشرون: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى الصلاة على من أمتى فاستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل على فأنا برىء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا: يا رسول الله ولم ذلك؟ قال: سمعوا اسمى ولم يصلوا على».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول رده إلى الميزان فأضع له شيئاً كالأمثلة معى فى ميزانه وهو الصلاة على فيرجع ميزانه وينادى سعد فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم فى مجلس ولم يصل على فيه إلا تفرقوا كفوم تفرقوا عن ميت ولم يصلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكل بغيرى ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلى على أحد إلى يوم القيامة إلا بلغنى اسمه وقال: يا رسول الله إن فلان بن فلانة صلى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال: «الصلاة على النبى ﷺ أمضى للذنوب من الماء لسواد اللوح».

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ومن روحك لجسدك فأكثر من الصلاة على النبى الأمي ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها، فغضب الله عليه وكسرت أجنته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله فقال الله فيه فأمره أن يصلى على النبى ﷺ فعلى عليه فغفر الله له ورد عليه أجنته ببركة الصلاة على النبى ﷺ».

الحديث الحادى والثلاثون: عن عائشة رضى الله عنها قالت: من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين ودعا الله تعالى تقبل صلاته وتقضى حاجته ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثانى والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ: «صلوا على واجتهدوا فى الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «صلوا على فإن صلاتكم على ركاة لكم وأسألو الله لى الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدي أن النبى ﷺ قال: «لا صلاة لمن لا يصلى على نبيه ﷺ».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على».

الحديث السادس والثلاثون: عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله فقد أتعب كاتبه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تفعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يصلى على إلا رد الله على روحه حتى أرد عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم منى منزلاً يوم القيامة أكثركم على صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الذميرى رحمه الله تعالى عن «شفاء الصدور» لابن سبع أن النبى ﷺ قال: «من سره أن يلقى الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة على فإنه من صلى على في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً وهدمت ذنوبه ومحيت خطايا ودام سروره واستجيب دعاؤه وأعطى أمه وأعين على عدوه وعلى أسباب الخير وكان ممن يرافق نبيه في الجنان».

اللهم صل على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورسول رب العالمين، الذى أنزل عليه فى محكم الكتاب العزيز تعظيماً له وتوقيراً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً (٤٦) وبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَثِيراً (٤٧) (الأحزاب: ٤٥-٤٧). فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولا بالرسالة إلا سيد خلقه محمد ﷺ فإن الله تعالى نادى أبى البشر: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة: ٣٥) ﴿وَيَا نُوحٍ ابْحَثْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ (هود: ٤٨) ﴿وَيَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (هود: ٧٦) ﴿وَيَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ (ص: ٢٦) ﴿وَيَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ (المائدة: ١١٠) وقال محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧). ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ﴾ (المائدة: ٤١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ (الأنفال: ٦٤) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (الأنفال: ٦٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (التوبة: ٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (الطلاق: ١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ (التحریم: ١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥، ٤٦). وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا فى أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ. الأول قوله عز وجل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. (آل عمران: ١٤٤). لأن سبب إزالتها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية، ولو قال وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمداً. الثاني قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠). الثالث قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ. (محمد: ٢). فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولي لقال الأعداء ليس هو ففرقه باسمه محمد ﷺ. الرابع قوله عز وجل ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] والحكمة فى ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الصف: ٩] فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذى أرسله ففرقه باسمه فقال: محمد رسول الله ﷺ وسماه تعالى باسمه أحمد فى موضع واحد وله حكمة وهى أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بنى إسرائيل ﴿يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَى مِنْ التَّوْرَةِ﴾ [الصف: ٦] التى أنزلت على موسى ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ اسْمِهِ أَهْمَدُ﴾ [الصف: ٦] لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ولا أحمد وذكر ذلك إعلاماً به وتمريفاً له وما ناداه إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥، ٤٦). أى شاعداً بالإيمان للمؤمنين ومبشراً لأهل التمجيد ونذيراً لأهل التمجيد، وقيل: شاعداً لأهل القرآن ومبشراً لهم بالقرآن ونذيراً لأهل الكفر والعصيان. وقيل: شاعداً لامتك وبشراً بشفاعتك ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك. وقيل: شاعداً بالمنة

ومبشركا بالجنة وقوله وداعياً إلى الله بإذنه أى تدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿وانه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩] وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعياً فقال: أنا الداعي إلى الله، وقوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾ [الاحزاب: ٤٦]. أى يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة فى قوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾ . ولم يقل قمرًا منيراً . فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر لأن المراد بالسراج هنا الشمس . قال تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾ [نوح: ١٦] . والشمس أعم نفعاً ونوراً من القمر، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وسراجاً منيراً﴾ . السراج الذى يقتبس منه لأن القمر لا تصل إليه الأيدي حتى يقتبسوا منه، والسراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نوراً لأن كل من جاء يقتبس منه، والقمر ليس كذلك ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلاماً فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة، فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر . ومن النساء خديجة، ومن الشباب على، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال، رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس، وصهيب من الروم، وبلال من الحبشة، ووقد الوفود واقتبسوا، وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجِه فهو ﷺ أعظم الأنبياء، وأكرم المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، لم يخلق الله أحسن، ولا أجمل، ولا أكمل، ولا أفضل، ولا أفصح، ولا أرجع، ولا أسمع، ولا أصبح، ولا أجل، ولا أعظم، ولا أسخى، ولا أكرم، ولا أبهى، ولا أنصف، ولا أعدل، منه ﷺ، فلو أن البحار مداد والنبات أقلام وجميع الخلق كتّاب لمعجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ﷺ . اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرونا فى زمرة وأمتنا على محبته ولا تخالف بنا عن ملته ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون نحمدك يا من هيات لكسب الآداب جميع المعدات وفتحت للتحلى بأنوار آياتك سبل الخيرات وتصلى وتسلم على من كملت آدابه ورشحت بكمال البيان وإعجاز البيان جنابه سيدنا محمد القاتل: «إن من البيان لسحراً» وعلى آله وصحبه ما اطلعت حدائق الاتباع زهراً.

أما بعد فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب المستطرف فى كل فن مستظرف تأليف العلامة الفاضل واللودعى الكامل الشيخ شهاب الدين أحمد الأبهى رحمه الله وأعلى منزله فى دار رضاه.

المحتويات

٣	 مقدمة المؤلف
٧	 الباب الأول: فى مباني الإسلام وفيه خمسة فصول
١٦	 الباب الثانى: فى العقل والذكاء والحقم وذمه وغير ذلك
٢٠	 الباب الثالث: فى القرآن وفصله وحرمة وما أعدد الله تعالى لقارته من الثواب العظيم والأجر الجسيم
٢٣	 الباب الرابع: فى العلم والأدب وفصل العالم والمتعلم
٢٩	 الباب الخامس: فى الآداب والحكم وما أشبه ذلك
٣٢	 الباب السادس: فى الأمثال السائرة وفيه فصول
٤٧	 الباب السابع: فى البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول
٦٦	 الباب الثامن: فى الأجوبة المسكنة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك
٧٠	 الباب التاسع: فى ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد
	 الباب العاشر: فى التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول
٧٧	 الباب الحادى عشر: فى المشورة والنصيحة والتجارب والنظر فى العواقب
٨٧	 الباب الثانى عشر: فى الرصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك
٩٢	 الباب الثالث عشر: فى الصمت وصون اللسان والنهى عن الغيبة والسعى بالنجاسة. ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول
٩٦	 الباب الرابع عشر: فى الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه
١٠٢	 الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبه
١٠٤	 الباب السادس عشر: فى ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك
١٠٦	 الباب السابع عشر: فى ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغور والخطر
١٠٨	 الباب الثامن عشر: فيما جاء فى القضاء وذكر القضاء وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول
١١٣	 الباب التاسع عشر: فى العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك
١١٧	 الباب العشرون: فى الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك
١٢٠	 الباب الحادى والعشرون: فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال وسيرة السلطان فى استجابة الخراج وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان
١٢٥	 الباب الثانى والعشرون: فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم
١٢٩	

١٣٢	الباب الثالث والعشرون: فى محاسن الأخلاق ومساوئها.....
١٣٦	الباب الرابع والعشرون فى حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة وما أشبه ذلك.....
	الباب الخامس والعشرون: فى الشفاعة على خلق الله تعالى والرحمة بهم وفضل شفاعة وإصلاح
١٤٤	ذات البين وفيه فصلان.....
١٤٦	الباب السادس والعشرون: فى الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان.....
١٤٧	الباب السابع والعشرون: فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك.....
١٤٨	الباب الثامن والعشرون: فى الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت.....
١٥٤	الباب التاسع والعشرون: فى الشرف والسرور وعلو الهمة.....
	الباب الثلاثون: فى الخير والصالح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضى الله تعالى
١٥٧	عنهم أجمعين.....
١٦٦	الباب الحادى والثلاثون: فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضى الله عنهم.....
١٧٥	الباب الثانى والثلاثون: فى ذكر الأشرار والفسجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والشفاعة...
	الباب الثالث والثلاثون: فى الجسد والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطانع المعروف وذكر
١٧٧	الأمجاد وأحاديث الأجواد.....
١٩٢	الباب الرابع والثلاثون: فى البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم.....
	الباب الخامس والثلاثون: فى الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم
١٩٨	وغير ذلك.....
	الباب السادس والثلاثون: فى العفو والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المصنرة والعتاب وما
٢٠٨	أشبه ذلك.....
٢١٩	الباب السابع والثلاثون: فى الوفاء بالمعهد وحفظ العهد ورعاية اللزم.....
٢٢٨	الباب الثامن والثلاثون: فى كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه.....
٢٣١	الباب التاسع والثلاثون: فى القدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول
	الباب الأربعون: فى الشجاعة وثمرتها والحروب وثمرتها وتدبيرها وفضل الجهاد وشدة البأس
٢٣٩	والتحريض على القتال وفيه فصلان.....
	الباب الحادى والأربعون: فى ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء
٢٤٤	وأخبارهم وذم الجبن.....
٢٥٣	الباب الثانى والأربعون: فى المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول.....
٢٧٠	الباب الثالث والأربعون: فى الهجاء ومقدماته.....
٢٧٧	الباب الرابع والأربعون: فى الصدق والكذب وفيه فصلان.....
	الباب الخامس والأربعون: فى بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة
٢٨٠	الرحم والقرابات وذكر الأنساب وفيه فصول.....

الباب السادس والأربعون: فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقيح والقصر والآلوان	
والشباب وما أشبه ذلك وفيه فصول.....	٢٨٤
الباب السابع والأربعون: فى التختيم والحلى والمصرغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك.....	٣٠٥
الباب الثامن والأربعون: فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول	٣٠٨
الباب التاسع والأربعون: فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنته.....	٣١٤
الباب الخمسون: فيما جاء فى الأسفار والاختراب وما قيل فى الوداع والفراق والحث على ترك	
الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه.....	٣١٩
الباب الحادى والخمسون: فى ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه.....	٣٢٧
الباب الثانى والخمسون: فى ذكر الفقر ومدحه.....	٣٣٤
الباب الثالث والخمسون: فى التلطف فى السؤال وذكر من سئل فجاد.....	٣٣٦
الباب الرابع والخمسون: فى ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك.....	٣٤٢
الباب الخامس والخمسون: فى العمل والكسب والصناعات والحرف إلخ.....	٣٤٤
الباب السادس والخمسون: فى شكوى الزمان واتقلا به بأهله والصير على المكاره والتسلى عن توائب	
الدهر وفيه ثلاثة فصول.....	٣٤٨
الباب السابع والخمسون: ما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والسرور ونحو	
ذلك مما يتعلق بهذا الباب.....	٣٦٠
الباب الثامن والخمسون: فى ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان.....	٣٦٦
الباب التاسع والخمسون: فى أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عواندهم وعجائب	
من أكاذيبهم.....	٣٦٨
الباب الستون: فى الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك..	٣٧٢
الباب الحادى والستون: فى الحيل والحدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر.....	٣٨١
الباب الثانى والستون: فى ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً	
على حروف المعجم.....	٣٨٧
الباب الثالث والستون: فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم.....	٤١٧
الباب الرابع والستون: فى خلق الجن وصفاتهم.....	٤٢١
الباب الخامس والستون: فى ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول..	٤٢٤
الباب السادس والستون: فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه	
فصول.....	٤٢٩
الباب السابع والستون: فى ذكر المعادن والأحجار وخواصها.....	٤٣٣
الباب الثامن والستون: فى الأصوات والأحسان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن	
استحسنته.....	٤٣٦

٤٤١	الباب التاسع والستون: فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادير الجلساء فى مجالس الرؤساء . . .
٤٤٦	الباب السبعون: فى ذكر القينات والأغاني
	الباب الحادى والسبعون: فى ذكر العشق ومن بلى به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق
٤٥٢	وما فى معنى ذلك وفيه فصول
	الباب الثانى والسبعون: فى ذكر رقائق الشعر والمواليب والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل
٤٦٥	والحماق والقومة والأكلغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول
	الباب الثالث والسبعون: فى ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من
٥٤٥	عشرتهن وفيه فصول
٥٥٦	الباب الرابع والسبعون: فى تحريم الخمر وذمها والنهى عنها
	الباب الخامس والسبعون: فى المزاج والنهى عنه وما جاء فى الترخيص فيه والبسط والتنعيم وفيه
٥٥٨	فصول
٥٦١	الباب السادس والسبعون: فى النوادر وفيه فصول
٥٧٠	الباب السابع والسبعون: فى الدعاء وأدابه وشروطه وفيه فصول
٥٧٩	الباب الثامن والسبعون: فى القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل
٥٨٣	الباب التاسع والسبعون: فى الشبوبة والاستغفار
	الباب الثمانون: فيما جاء فى ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء فى السنة من العبادة وما
٥٨٦	أشبه ذلك وفيه فصول
٥٩٣	الباب الحادى والثمانون: فى ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله
٥٩٦	الباب الثانى والثمانون: فى الصبر والتأسي والتعازى والمراثى ونحو ذلك وفيه فصول
٦٠٧	الباب الثالث والثمانون: فى ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها
	الباب الرابع والثمانون: فيما جاء من فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم
٦١٥	الكتاب
٦١٩	الفهرس

المكتبة البوفيفية
لحام للباب الأخضر - سبلنا الحصين

Bibliotheca Alexandrina



0680074